الطبعة الثالثة

تقديم جديد لكتابة تاريخ قديم

محمد دكروب

جذور السنديانة الحمراء

حكاية نشوء الحزب الشيوعي اللبناني ١٩٢٤-١٩٣١





الفارابي

جذور السنديانة الحمراء

حكاية نشوء الحزب الشيوعي اللبناني

١٩٢٤ ــ ١٩٣١





احتفال أول أيار ١٩٢٥ قاعة سينما الكريستال - بيروت

محمد دكروب

جذور السنديانة الحمراء

حكاية نشوء الحزب الشيوعي اللبناني:

١٩٢٤ ـ ١٩٣١

الطبعة الثالثة
مع إضافات وتدقيقات

★

آذار ـ مارس ٢٠٠٧

دار الفارابي

● **الكتاب:** جذور السنديانة الحمراء
حكاية نشوء الحزب الشيوعي اللبناني: ١٩٢٤ ـ ١٩٣١
● **المؤلف:** محمد دكروب
● **الغلاف تصميم:** فارس غصوب
● **التصميم الداخلي:** محمد دكروب

● **الطبعة الثالثة:** آذار (مارس) ٢٠٠٧

● **الطبعة الأولى** صدرت في: تشرين الأول ١٩٧٤
● **الطبعة الثانية** صدرت في: تشرين الأول ١٩٨٤
● **الناشر:** دار الفارابي، بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) ـ فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ ـ الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
e-mail: farabi@inco.com.lb
www.dar-alfarabi.com
ISBN: 978-9953-71-037-6

مقدمة لا بد منها

خليل الدبس(*)

كُتبت هذه المقدمة في العام ١٩٧٤، في الذكرى الخمسين لتأسيس الحزب الشيوعي اللبناني:

في تاريخ لبنان الحديث، يحتل يوم ٢٤ تشرين الأول (أوكتوبر) ١٩٢٤ مكاناً استثنائياً. ففي هذا اليوم ولد الحزب الشيوعي اللبناني، في اجتماع عقده عدد من المثقفين والعمال في بلدة «الحدث» في ضواحي بيروت. ومع نشوء الحزب الشيوعي دخل إلى الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية اللبنانية عنصر جديد تماماً لم يعرفه لبنان من قبل قط، وإن كان هذا العنصر هو استمرار لأفضل التقاليد الديموقراطية والثورية اللبنانية. فقد كان هذا الحدث، في لغة التطور، قفزة نوعية لم يكن ممكناً تحقيقها لو لم تكن الظروف الموضوعية متوافرة تاريخياً، الظروف الموضوعية الاقتصادية والسياسية والفكرية على حد سواء.

وهذا العنصر كان في الوقت ذاته عامل تغيير يومي في

كل ميدان من ميادين الحياة. وأخذ يترك أثره في كل ناحية من نواحي الحياة اللبنانية، على مرّ السنوات الخمسين، ولم ينفع في حجب أثره لا ارهاب ولا قمع، لا سجن ولا نفي، لا قتل ولا تعذيب. كلما تلقّى ضربة، خرج منها أقوى وأصلب. وإن ضعف أو ضمرت صفوفه، فمؤقتاً. وإن أخطأ فله من القوة ما كان يسمح له بتجاوز الخطأ بعد رؤيته، وكشفه وكشف جذوره. ليس فقط أمام أعضائه وأمام مناصريه، بل كذلك أمام الجماهير الواسعة وأمام التاريخ.

هذا الحدث الكبير الذي بدأ منذ العام ١٩٢٤، كان لا بد أن يؤرَّخ له. وظهرت صعوبات التأريخ له كبرى ومعقّدة. وكان أكيداً أن مثل هذا العمل لا يمكن أن يقوم به شخص واحد. بل يتطلّب عمل مؤسسة، عمل فريق من البحّاثة. وهذا لم تتوافر إمكانياته بعد. المعادون للحزب حاولوا إما طمس دوره وإما تشويه وجهه. بعض المؤرخين العلميين عالجوا زوايا منه، مهمة جداً، وإن كانت محصورة في إطار محدّد. ولكن لم يؤرخ له بحد ذاته.

وبعد مرور خمسين عاماً، كان لا بد من كتاب يعطي ولو فكرة تعيد للحقيقة اعتبارها، أو بعض اعتبارها. فكان عمل محمد دكروب محاولة أولى جدّية تكمّل رسالة الدكتوراه التي وضعها جاك كولان حول الحركة النقابية اللبنانية، وعدداً من الأبحاث القيمة الأخرى التي كُتبت هنا وهناك.

وعمل محمد دكروب هو عمل أديب أكثر مما هو عمل

مؤرخ. ولكنه عمل أديب اعتمد الحقيقة التاريخية، وبذل جهداً كبيراً ليصل إلى أكثر ما يمكن أن يصل إليه من وثائق. وقابل العديد من المناضلين الذين عايشوا الأحداث، ليأخذ الحقيقة منهم مباشرة، واستخدم كل ما توافر لديه من حقائق تاريخية ليضع أثراً أدبياً فريداً من نوعه.

غير أن التاريخ، بمعناه العلمي، ما زال يحتاج لمن يضعه. وأملنا كبير أن ذلك لن يطول. فهذا عمل علمي ضروري، ليس فقط لكتابة تاريخٍ ما زال مجهولاً، بل كذلك من أجل المساهمة بصورة أفضل في صنع مستقبل لبنان في مصلحة شعب لبنان، مصلحة عماله وفلاحيه ومثقفيه وأوسع جماهيره الكادحة.

١٦/١٠/١٩٧٤ خليل الدبس

(*) خليل الدبس: عضو المكتب السياسي، وعضو السكرتيريا في الحزب الشيوعي اللبناني ـ كاتب سياسي ـ شارك في الاشراف العملي على إصدار «النداء» سنوات صدورها في شكل مجلة ـ توفي في العام ١٩٩٢.



قضايا، وإشكالات... للمناقشة

○

ـ في رحلة كتابة هذا الكتاب!

ـ وكيف يمكن أن أكتبه لو كُلِّفْتُ ـ الآن ـ بكتابته؟

○

١ في حكاية تأليف هذا الكتاب:

بعد ثلاثة وثلاثين عاماً على صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب، عام ١٩٧٤، وعلى عتبة صدور طبعته الثالثة هذه ـ وما تحمله من تدقيقات، وقليل من الإضافات ـ، وبعد إعادة تقييم نقدي لكتابٍ كان عليه أن يرود مناطق وفترات مجهولة، ومطموسة، في تاريخ الحزب والوطن، حيث حملتْ الكتابة الكثير من منجزات الريادة والكثير من عيوبها على السواء.. بعد هذه الرحلة، عبر الكتابة وإعادة النظر في جوانب منها، ومحاولة تكوين رؤية راهنة لما يمكن أن تكون عليه الكتابة في هذا السياق من التأريخ لمسيرة حزب شيوعي لبناني عربي... يهمّني ـ هنا والآن ـ أن أروي (في القسم الأول

من هذه المقدمة) جوانب من **حكاية** تأليف هذا الكتاب، الذي شكّلت لي كتابته تجربة جديدة ومغامرة اقتحامية، معاً، وخوفاً حقيقياً من النتائج (وقد تُشكّل هذه التجربة مهاداً أوّلياً لآخرين يخوضون تجربة مثلها، متعبة وممتعة وضرورية معاً...).

ففي السابق، كانت أية محاولة للتأريخ، ولو للمرحلة التأسيسيّة لحزب شيوعي، عربي أو غير عربي، تحمل الكثير من المحاذير و«التابويات» والمناطق المحرّمة!.. وكان أي تقييم ـ حينئذٍ ـ يتضمّن، بالضرورة، خطورة ما، أو لوْماً ما، حتى لو كان هذا التقييم موضوعياً، بل أقول: خصوصاً إذا كان موضوعياً!!

(فالبحث **الموضوعي** في الوقائع المتاحة ـ وثائقياً ـ لهذه الفترة أو تلك من مسيرة حزب شيوعي، كان من المحرّمات، أو أن هذا البحث كان يخضع لمراقبة دقيقة وموجّهة، ومتحيّزة مسبقاً، من القيادة الحزبية!.. وأن يكون مكرَّساً ـ غالباً ـ لتمجيد شخص الأمين العام وقيادته وسياسته وأفكاره، في تلك الفترة بالذات من تواجده على رأس القيادة!... وهذا حديث حزين سنأتي على تفاصيل منه في القسم الثاني من هذه المقدمة الجديدة...).

على أنني الآن أبدأ الحكاية الصعبة، والممتعة، من بداياتها:

خلال العام ١٩٧٤ كنت في موسكو، «أدرس» في معهد حزبي يستقبل «طلاّباً» شيوعيين من مختلف أنحاء العالم، عُرف عَلَنياً باسم «معهد العلوم الاجتماعية»، وكنت أستمع الى شتى المحاضرات، وأعدّ نفسي لوضع أطروحة عن أديبنا الكبير عمر فاخوري (لم يتح لي إنجازها، وأمنّي النفس بأن أعود إلى إنجازها في مقبلات الأيام!)... وفي مطلع آذار من ذلك العام جاءني اقتراح من قيادة الحزب الشيوعي اللبناني: «هل بإمكانك وضع نوع من التأريخ للفترة التأسيسيّة الأولى للحزب، بمناسبة عيده الخمسين؟»... وقد استقبلتُ هذا الاقتراح بمثابة «طلب» يفضي أيضاً إلى تحقيق واحدةٍ من أمنياتي.

......

[... فقد سبق لي أن شاركت، في جانب من جوانب البحث والمناقشة، في الإعداد للتقرير الذي صدر عن المؤتمر الثاني للحزب (١٩٦٨) تحت عنوان «٢٥ عاماً من

نضال الحزب الشيوعي اللبناني في سبيل الاستقلال الوطني والديموقراطية والاشتراكية»، الذي يتضمّن ـ لأول مرة في تاريخ الحزب ـ نظرة نقدية تقييمية وانتقاداً لجوانب من أفكار وممارسات، في مسيرة الحزب، وللعديد من المواقف والقضايا الأساسية في السياسة، والنظرية، والثقافة.. وبالأخص: الممارسات اللاديمقراطية لقياداته، الأمين العام وأعضاء آخرين في اللجنة المركزية... وكانت مشاركتي في المناقشات لإعداد القسم التاريخي من هذا التقرير هي أول تماسّ لي، شبه موضوعي، مع تاريخ الحزب، مما أثار عندي سيلاً من الأسئلة والتساؤلات تطرحها علينا المقاربات السابقة لهذا التاريخ!.. فما كُتب عنه ـ حزبياً ـ كان مجرّد شذرات موجزة، مجتزأة... إشارات أشبه ببرقيات توحي ـ بدأب واستمرار ـ بأن التاريخ الفعلي للحزب يبدأ منذ العام ١٩٣٢ (!!).. وهذا يعني: شطب كامل المرحلة التأسيسية، من العام ١٩٢٤، مروراً بشتى أشكال النضال والمطاردات والسجن والنفي والتعذيب... وصولاً الى الكونفرنس الثاني للحزب، في العام ١٩٣٠، الذي أوصى بوضع وثيقة برنامجية أساسية صدرت بعد عام من هذا الكونفرنس، وطُبعت تحت عنوان: «لماذا يناضل الحزب الشيوعي السوري (ـ اللبناني)؟» ووزعت في لبنان وسوريا يوم ٧ تموز ١٩٣١... هذه المرحلة التي برز فيها مؤسّسا الحزب: فؤاد الشمالي (الآتي من الحركة العمالية) ويوسف ابراهيم يزبك (الآتي من الوسط الديمقراطي للمثقفين)... وبدا واضحاً أن هذا التعتيم المتعمّد على هذه المرحلة التأسيسية وروّادها، كان يعني بالفعل ـ ويهدف إلى ـ الإبراز القوي لمرحلة الأمين العام اللاحق، والدائم، خالد بكداش، الذي تولّى الأمانة العامة للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، من العام ١٩٣٧ حتى العام ١٩٦٤... ثم تولّى الأمانة للحزب الشيوعي السوري بعد انفصال الحزب اللبناني عنه... ثم الأمانة العامة لأحد الحزبين الشيوعيين في سوريا، بعد الانقسام الكبير... وظلّ في هذا المركز حتى آخر لحظة من حياته!! (فقد تُوفي بكداش في ٢٤ تموز عام ١٩٩٥، أي بقي أميناً عاماً طوال ٥٨ عاماً، دون انقطاع!..)

- فما هي الأحداث التي ملأت تلك الفترة التأسيسية التي تمّ شطبها، وألقي الجرْم على مقاربتها، طوال الفترة الطويلة جداً، التي انطبعت باسم خالد بكداش؟

- وما هو الدور الفعلي الأساسي الذي قام به فؤاد الشمالي، خلال

الفترة من سنة ١٩٢٤ حتى العام ١٩٣٧ (أي عام إزاحة الشمالي وتولي بكداش الأمانة العامة)؟

● وهل أن أحداث تلك الفترة التأسيسية لم تكن من الأهمية والقوة والفعالية بحيث أتيح لفترة بكداش أن تشطب، ببساطة، تلك الفترة التي سبقتها ومهّدت لها؟

● والى أي مدى كان للممارسة السياسية الوطنية وبعض الأفكار النظرية، التي صاغها الشمالي، أثرٌ ما في تفاعل هذا المسار الوطني مع سياسة المركز الأممي؟... والى أي مدى تقبّل المركز أو تجاوب مع هذا النوع من **الاستقلالية والتفاعل** اللذين يبدو أن الشمالي وفريقه قد افتتحوا طريقه؟... وإلى أيّ مدى كان لهذا المسار بالذات تأثيره في إزاحة الشمالي لاحقاً عن القيادة، عندما نضجت المناسبة، فأُلصقت به شتى الاتهامات؟... وكان أن صعد بكداش، الآتي حديثاً من الدراسة السياسية في موسكو، فاستلم الأمانة العامة للحزب، منذ العام ١٩٣٧ والى أمد طويل المدى جداً، حتى وفاته!

● وما هو الدور الفعلي ـ التثقيفي ـ لكتابات ذلك الرومنسي، العربي البولشفي، منذ بداياته، يوسف ابراهيم يزبك، في تأسيس الحزب، وفي الدعاية والترويج الثقافي لهذا الحزب؟.. ولماذا جرى التعتيم على وجوده في قيادة الحزب خلال السنتين الأولَيينِ من تأسيسه، وشُطب دوره التثقيفي الفعلي فيه.. ولحقته شتى الاتهامات!؟..

... هذه التساؤلات، وكثير جداً غيرها، نهضت أمامي وشغلت تفكيري نتيجة مشاركتي في مناقشات القسم التاريخي من تقرير الانتقاد الذاتي الذي طرحه الحزب الشيوعي اللبناني أمام مؤتمره الثاني للعام ١٩٦٨...

... لهذا كله، وافقتُ بحماس على اقتراح الحزب بأن أضع كراساً أوليّاً، أو كتيّباً، عن الفترة التأسيسية للحزب].

.....

وهنا نهضت أمامي إشكاليات ثلاث، وأساسية، بالنسبة لي:

□ **الاشكالية الأولى** تنطلق من واقع أن المادة الأولى، البديهية، لوضع مثل هذا الكتاب، هي - بالطبع - الوثائق الحزبية العائدة للمرحلة المطلوب تأريخها، والوثائق الأخرى العامة التي تشير الى المرحلة نفسها بشكل أو بآخر، وكذلك المراجع الضرورية من كتب وصحف...) - فهل يوجد الشيء الأساسي والضروري من هذا كله؟)... أرسل إلي الرفيق خليل الدبس، عضو المكتب السياسي للحزب، والمكلّف بمتابعة تنفيذ مشروع هذا الكتاب، يقول: «لا تقلق، طلباتك هذه موجودة، ونحن على استعداد للسعي معاً لتأمين المزيد منها!... المهم أن تحزم أمرك وتأتي»... فأتيت.

... وإذا بي أواجه هذه المشكلة الأساس نفسها، التي هجستُ بمواجهتها!

□ **الاشكالية الثانية،** ولكنها **الأولى** من حيث المضمون والتوجّه العام للكتاب: مدى حرّيتي في إعادة تقييم الأشخاص (المؤسّسين والقياديين) وأدوارهم، وإعادة قراءة المرحلة التأسيسية، والقراءة في الرؤية إلى تلك المرحلة، كما هو مفترض أن تكون قد تجلّت في الوثائق الحزبية اللاحقة، ثم ضرورة القراءة النقدية للمواقف والوثائق، وبالأخص تبيان الأسباب الفكرية والخلقية والسلوكية لذلك الشطّب المخزي لمرحلة كاملة من تاريخ الحزب، دون وازع من علم أو موضوعية أو تبرير أو ضمير حزبي - (وقد سبق أن أشرت في مقدمة الطبعة الثانية من هذا الكتاب، الى أن مختلف الكتابات الحزبية - الرسمية! - أثناء قيادة خالد بكداش للحزب، التي كانت تقدم موجزاً لتاريخ الحزب، في المناسبات، كانت تقفز بسهولة عجيبة، فوق المرحلة التأسيسية الطويلة، الاقتحامية والمجيدة، الممتدّة من عام ١٩٢٤ حتى العام ١٩٣١... فكانت تلك الكتابات تكرر، آلياً، جملة تتّخذ مثل هذه الصيغة العجيبة: «في ٢٤ تشرين الأول من عام ١٩٢٤، تأسس الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا... وفي العالم ١٩٣٢... إلخ...»... فماذا جرى بين الأعوام ٢٤ و٣٢ هذه؟.. ولماذا هذا القفز في فضاء التاريخ، والشطب القاسي - والعبَثي - لهذه المرحلة التأسيسية والأساسية من تاريخ الحزب؟!...).

... فلا بدّ هنا، إذاً، من إعادة تقييم للأشخاص وأدوارهم، وقراءة وقائع المرحلة

التأسيسية هذه، بأكثر ما يمكننا من الموضوعية، وبقدر ما نستطيع من اعتماد الرؤية العلمية، وبقدر ما نملك من وثائق ووقائع... فلا نشطب أسماء الأشخاص أو نقلّل من فاعلية أدوارهم، ولا نعمل ـ بالمقابل ـ على تضخيم هذه الأدوار أو غيرها، كردّة فعلٍ على الأحكام الظالمة التي لحقت بهم وبأدوارهم وبوقائع المرحلة كلها.

... فتركتْ لي قيادة الحزب ـ حينئذٍ ـ حرية البحث والكشف والتقييم والتقدير.

فدخلتُ مجاهل الموضوع بفرحة وبحماسةِ مَنْ تحرّر من قيوده!

□ **الاشكالية الثالثة** هي في **طريقة** كتابة هذا التاريخ، ومدى حرّيتي في استخدام الأسلوب الذي أرى أنه يتوافق، ليس فقط مع مزاجي الفنّي الأدبي وطريقتي الخاصة في القصّ وفي رواية الأحداث، بل أيضاً وخصوصاً في مدى توافق هذا الأسلوب الكتابي مع الوقائع **الملحميّة** لهذه الفترة التأسيسية في حياة الحزب وحركة النضال الوطني والاجتماعي.

فالكتابة التأريخية لها أساليبها المتعارَف عليها والمفترَض انها تعتمد أساساً المعايير والأشكال الأكاديمية... أما الكتابات والصياغات والأنواع السردية الأخرى لوقائع تاريخ مرحلة معيّنة، وتيّار نضالي تغييري جديد، فهي تبتدع أساليبها الخاصة، الشخصية، حسب قدرات هذا الكاتب أو ذاك... وهذه الأنواع السردية من الكتابة تتطلّب الحرية في التشكيل، وعدم التقيّد بالقوالب والقواعد، وحرية اختراع أساليب تفترضها الوقائع نفسها ومناخاتها وطبائعها، مع الحرص الشديد على الدقة في إيراد هذه الوقائع وتوثيقها، والحرص على أن تظلّ **الموضوعية** أساساً في التفسير والمقارنة والتحليل، والأحكام.

وعندما التقيت الرفيق **نقولا شاوي** وبعض القيادات الشابة في الحزب، وطرحتُ أمامهم هذه الاشكاليات/ المطالب، وشدّدت على أن تُترك لي حرية التقييم، وبالأخص حرية **الإفراج** عن إسم المؤسس الحقيقي، العمالي والريادي للحزب، **فؤاد الشمالي**... وحرية إنصاف ذلك المثقف الاشتراكي الرومنسي ـ الريادي **يوسف ابراهيم يزبك** (الذي صار باحثاً ومؤرخاً كبيراً فيما بعد)... وكذلك أن تُترك لي حرية أن أكتب هذا التاريخ، الحزبي، بأسلوبي الخاص وليس بذلك الأسلوب الحزبي الرسمي الذي لا يضحك للرغيف السخن... ضحك **نقولا شاوي** عالياً وهو يقول بمرحٍ جدّي:

ـ إذهب واكتب حسب قناعاتك، وحسب تقييمك وتفسيرك للوقائع والوثائق والأحاديث، وكما يشاء لك أسلوبك يا محمد يا دكروب.

... وبدأت السعي، أولاً، ابتداء من موسكو نفسها، حيث كنت في ذلك الزمان، فلم أجد ـ ولا حتى في مكتبة لينين الكبرى ـ أي مرجع يفيد في هذا المجال... وقلت: فلأتوكّل على جهدي الخاص، وعلى ما وعدني به العزيز الرفيق **خليل الدبس**، من مراجع ووثائق، في مركز الحزب ببيروت... لعلّ وعسى!!.

وفي مركز الحزب في بيروت، لم أجد أبداً ما يتوافق مع الوعود الورديّة التي أغراني بها الصديق العزيز الرفيق **خليل**!!.. وجدتُ، فقط، بضع كراريس وقصاصات لا تصلح ولو للبدء بتلمّس الطريق!..

ـ «هذا ما وجدته عندنا، وسنسعى معاً لتأمين ما يلزمك من وثائق ومراجع» (قال لي خليل وعلى شفتيه وفي وجهه ابتسامة أمل، وخيبة، وشعورٌ ما بالذنب!)..

وبدأتُ الرحلة المتعبة المعقّدة وشبه العبثية ـ كما خيّل لي في البداية ـ ولكنها، في الوقت نفسه؛ مشوّقة وممتعة وأشبه بأفلام البارع المحتال المخرج **هتشكوك** ودهاليزه وتعقيداته التي تفضي إلى حلّ ألغاز كثيرة ونهايات شبه سعيدة!

قلت لخليل: لنذهب أولاً الى رأس النبع، أعني: رائد البدايات، المغامر الرومنسي الحالم والمؤسس، المؤرّخ الكبير **يوسف ابراهيم يزبك**، فلا بدّ من أن نجد عنده بعض المخبآت من الوثائق، والأساسي من الذكريات، وإشارات الى بعض المعالم التي يمكن أن تضيء طريقنا الى الوثائق والمراجع الأخرى....

استقبلنا أبو ابراهيم بلطفه وأنسه، وطرافة أحاديثه، وابتسامته المحبّة، والعاتبة، معاً: «ـ ها أنتم، جئتم أخيراً... أعرف ماذا تريدون... طوال خمسين عاماً، أو أقل قليلاً، وأنا أنتظر هذه اللحظات، وهذا الزمان... أهلاً وسهلاً»... وأضاء وجهه بحبّ عظيم وعتبٍ عتيق عريق، وشوقٍ الى الإفضاء بحديث خمّرته الكوابت والسنون.

وتدفّق أبو ابراهيم يوسف يزبك.

ذاكرة مدهشة وذكريات عجيبة وتعليقات فكهة وساخرة على الوقائع والطبائع والأحداث والأشخاص...

بالتدريج، وعلى عدة جلسات، كان أبو ابراهيم يروي، والمستمع محمد دكروب يكتب أقواله، يستفهم عن أمكنة المراجع والمصادر، «يستجوب» يستوضح ويسأل... وبالتدريج بدأ أبو ابراهيم يعطينا، أو يَعيرُنا، أو يطلب منا تصوير نسخ من الكراريس والبيانات الأولى وقصاصات الصحف... (أبو ابراهيم، في هذا المجال: بخيل جداً، وحريص جداً، وأيضاً كريم جداً... وذلك حسب درجة ثقته، أو عدمها، بمن يطلب، أو يرجو أن يستعير منه، أو... يأخذ).

أفضى لنا أبو ابراهيم بذكريات غنية، وأسرار ما كان يمكن، بدونه، معرفتها بسهولة أو التوصّل الى معرفتها أصلاً... وأرشَدَنا إلى أماكن لمصادر ومراجع مفيدة جداً، وقدّم لنا العديد من الوثائق والأوراق التي سترون ـ في ما سيأتي ـ أنها شكّلت أساساً مهماً في المادة الأساسية لهذا الكتاب.. وقد استفدتُ منها كثيراً في كتابات أخرى، ولا أزال استفيد منها حتى يومنا هذا..

(فلتظلّ ذكراك ونتائج أعمالك نضرة مورقة أيها الرفيق والصديق الراحل الباقي: أبو ابراهيم).

وكان اسم المؤسس الآخر، فؤاد الشمالي، حاضراً باستمرار، يورده يزبك بعاطفة حب وإجلال، ويسمّيه دائماً بـ «المعلّم».

وقد لاحظت، من طريقة أبو ابراهيم في استحضار الوقائع وروايتها، ومن الأوراق الصغيرة والقصاصات التي احتفظ بها، وقد كُتبت عليها أسماء أشخاص وأماكن وقرارات وتواريخ بالأيام، وأحياناً بالساعات، ويحمل عطرها العتيق الكثير الكثير من الأحلام... لاحظت كأن هذا الرومنسي العريق كان يعرف، هو ورفاقه، منذ ذلك الزمان الأول، أنهم يصنعون في التاريخ العربي شيئاً عظيماً وجديداً، وسوف يؤرَّخ له في مقبلات الأيام، ولو بعد خمسين عاماً.

وحتى في الصور القليلة، النادرة لأول مهرجان عربي علني ليوم العمال العالمي، التي أطلعنا عليها، والتي التُقطت في ذلك النهار التاريخي: **الأول من أيار (مايو) ١٩٢٥**، لعددٍ من قيادات ذلك الحزب الوليد، كان هؤلاء ينظرون الى الكاميرا، الى مشاهدي الزمان الآتي، وكأنهم يعرفون ـ منذ ذلك اليوم ـ مكانة هذا الحدث التاريخي الذي يقومون به ويهجسون بما هم مُقدِمون عليه. إنهم ينظرون إلينا من مسافة خمسين

عاماً، ونسمع أصواتهم عبر صوت أبو ابراهيم يوسف يزبك، وهو يشير الى الوجوه ويحدّد الأسماء ويروي كيف اتفقوا مع المصوِّر (فؤاد صعب) وكيف أن العاطفة والحماسة دفعت هذا المصوّر إلى أن يقف معهم، في وسط صورةٍ شعر هو ـ ربما ـ أنه سيكون لها شأن ما، في مدى الزمان الآتي...

وعلى جلسات عديدة، وبالتقسيط، أعطاني يوسف ابراهيم يزبك، كنزاً ثميناً من الوثائق وقصاصات الصحف وأوراق مكتوبة في ذلك الزمان، إضافة إلى أحاديثه الممتعة وما تحمله من ذكريات نضرة ما تزال...

ولكن هذا الكنز الثمين لم يكن يشكّل إلا جانباً ـ ولو مهمّاً ـ من جوانب الصورة...

قال: إذهب إلى أبو مارديك **(أرتين مادويان)** ففي ذاكرته وأوراقه أشياء كثيرة مفيدة، ولكن عليك أن تدقّق في أحكامه على الأشخاص!..

أرتين مادويان (لبناني من أصل أرمني): من الشخصيات القيادية التاريخية في الحزب الشيوعي، منذ العام ١٩٢٥... الجانب الأهم من نشاطه تركّز في الجانب السري العملي لنضال الحزب، ابتداء من تدبير أماكن لتَخفّي الرفاق القياديين، مروراً بتدبير الأماكن الخفية للمطبعة السرّية، وتنظيم عمليات طباعة المناشير بأشكال بدائية بواسطة اسطوانات عجيبة من الجيلاتين مصبوبة يدوياً، وصولاً الى تنظيم شبكات توزيع المناشير المحظورة، في ليل الانتداب الفرنسي، الخ...

وبالفعل، روى لي الرفيق مادويان من ذاكرته، وعرض عليّ من محفوظاته، أشياء كثيرة: ففي كل جلسة من جلساتنا كان يأتي بقصاصات ورقية صغيرة قديمة، كتب عليها بالفرنسية حيناً، وبلغة عربية مكسّرة أحياناً، إشارات موجزة، بالتواريخ والأرقام والأسماء السرية، الى اجتماعات حزبية وكونفرانسات مناطقية، وقرارات، ومؤتمرات، ووقائع تظاهرات، وإضرابات، ولقاءات مع شخصيات، وإشارات الى مطاردات واعتقالات وزجّ رفاق في السجون بلا محاكمات، ووقائع تعذيب، وخلاصة بيانات ومناشير... ثم يجلب لي نماذج من تلك المناشير السريّة المكتوبة بخط اليد و «المطبوعة» بواسطة اسطوانات الجيلاتين... ويُطلعني على كراريس قديمة اهترأ بعض أوراقها، ودفاتر صغيرة كان يكتب عليها وقائع وأحداث وأفكار واقتراحات.

أوراق وأوراق، كان مادويان يحتفظ بها في أماكن سرّية متعدّدة ومتباعدة... (هذه الأوراق والكراريس والذكريات هي التي كوّن منها مادويان، لاحقاً، كتابه الكفاحي «حياة على المتراس ـ ذكريات ومشاهد»: دار الفارابي ١٩٨٦.. هذا الكتاب الذي يشكّل ولا شك إسهاماً وقائعياً ومهماً في التأريخ للحزب الشيوعي اللبناني).

يُمسك مادويان الورقة. يقرأ في تلك الخربشات التي خطّها في ذلك الزمان الأول، ويروي بعض ما تُذكّره به هذه الورقة الصغيرة العتيقة، يروي الوقائع بالتفاصيل والأجواء وطابع الزمن والحالات النفسية التي كانت تنتابه يومئذٍ، وما يفترضه هو من حالات عند الآخرين، ويتحمّس عاطفياً مع هذا وضد ذاك، كأنه ـ وهو في جلستنا تلك ـ يعيش ما عاشه قبل خمسين عاماً من جلستنا تلك... كنت حريصاً على سماع التفاصيل، واستيضاح الأجواء والحالات النفسية خصوصاً..

وكنت أغريه دائماً بأن يحدّثني عن فؤاد الشمالي: نشاطه وأحواله وطبائعه، فيروي لي وقائع كنت أحب أن أسمعها.. وإذْ يلاحظ أنني مأخوذ بالاستماع ومأخوذ بشخصية فؤاد الشمالي، كان يحرص على الاشارة إلى أن هذا كان قبل إنحراف الشمالي (أو خيانته!) فأقول: مفهوم مفهوم يا رفيق!.. وماذا جرى بعدين؟... فيتابع... وأشعر من طريقته في رواية الوقائع هذه، أنه، في داخليّته، معجب بنشاطية الشمالي وشجاعته وحتى تهوّره.. ولكنه، في موقفه منه، كان متقيداً بتلك الأحكام التي ابتدعتها وأصدرتها عليه القيادة البكداشية، بل ومقتنعاً بها، وهو «الديسيّبليني» المطيع جداً لتلك القيادة!..

أما أنا فكنت آخذ الوقائع والأحكام، معاً، لأقارنها ـ لاحقاً ـ لدى البحث والدرس والكتابة، بوقائع وحالات وأقوال وأحكام أخرى من أشخاص آخرين، عن هذا الدور الإشكالي لقائد مقدام ومغامر، متهوّر، كما يُوصف ونشيط ومظلوم، وتاريخي أساساً، اسمه: فؤاد الشمالي.

وقد أرشدتني ذكريات مادويان وقصاصاته الى مصادر مهمة جداً وأساسية وثمينة لم أكن مقدّراً مدى أهميّتها في التأريخ لتلك المرحلة التأسيسية من نشاط الحزب الشيوعي اللبناني. ولا أبالغ إذا قلت إن هذه المصادر التي أرشدني إليها حديث مادويان، شكّلت المادة الأغنى ـ ربما ـ والأصدق والأكثر واقعية وملموسية لجسم هذا الكتاب... ومن خلالها اكتشفتُ وكشفتُ حلقاتٍ ووثائق كانت مفقودة تماماً بالنسبة لتأريخ المسيرة التأسيسية للحزب:

هذه المصادر هي: **الصحافة اليومية** اللبنانية أساساً، وكذلك المصرية، والسورية أيضاً:

فقد اعتاد الكثيرون جداً من الذين أرّخوا لهذه المراحل الحديثة من تاريخ البلدان العربية، أن يعتمدوا أساساً على الكتب السابقة لهم، وعلى سِيَر ومذكرات رجال السياسة والثقافة، وعلى جوانب من أرشيفات وزارات خارجية الدول المعنيّة، وهذه كلها مراجع أساسية بالطبع، ولكنهم لم يوجّهوا اهتماماً أساسياً أيضاً، وجدّياً، الى **أخبار** الصحافة اليومية ومقالات كتّابها العائدة الى تلك المرحلة التي يؤرّخونها.. (فهل للكتب مَهابَة عندهم أكثر من الصحافة اليومية، أو أنهم يرون أن الكتب هذه أصدق في التأريخ للمرحلة المطلوبة؟.. وهو في رأيي خطأ منهجي، وعملي، بقدر ما يبتعد ـ بهذا ـ عن مصدر أساسي، يومي، وربما هو أكثر واقعية وملموسية من مصادر أخرى!..).

وحسب نصيحة أرتين مادويان ويوسف ابراهيم يزبك، وما أملكه من فضول وشغف بالتفتيش والمقارنة للتوصّل الى ما أطمئن إليه من وقائع وما أطمئن إليه أيضاً من أحكام أو تساؤلات... انطلقتُ للتفتيش عن مجموعات الصحف اليومية، سواء في مكتبة الجامعة الأميركية أم لدى أصحابها أو ورثة أصحابها... وكلما كنت أعثر على مجموعةٍ ما، لجريدةٍ ما، كنت أفتّش فيها عن الأعداد الصادرة في فترة العشرينيات والثلاثينيات، وأفتش في هذه الأعداد عن الأخبار والنصوص والمقالات التي ترتبط بشكل ما بتاريخ تكوّن الحزب الشيوعي اللبناني، أو تضيء على جوانب من هذا التاريخ، أو تشير الى ممّهدات هذا التكوين عبر هذا المسار التاريخي أو ذاك... ووجدتُ كنوزاً ثمينة جداً من الأخبار والوقائع والنصوص والوثائق، فكنتُ أنقل بعضها وأصور بعضها الآخر، بغبطة من يعثر على نبعٍ صاف في صحراء بعيدة...

● وجدتُ نصوصاً وبيانات للحزب لها صفة تاريخية، نُشرت خلال المنتصف الثاني للعشرينيات، لم تكن موجودة لا في «أرشيف» الحزب ولا في أي مكان آخر، ولا حتى في صحف أخرى لتلك الفترة نفسها... وجدتُ هذا خصوصاً في جريدة «**الصحافي التائه**» التي كان يصدرها **اسكندر الرياشي** في مدينة زحلة منذ أوائل العشرينيات... وكذلك في جريدة «**زحلة الفتاة**» التي كان يصدرها **شكري البخاش** في مدينة زحلة أيضاً، وفي الفترة نفسها: فعندما علمتُ أن من المحتمل أن تكون جريدة «زحلة الفتاة»

قد نشرت، في العام ١٩٢٥، نصوصاً من الخطب التي ألقيت في أول احتفال عربي علني ليوم العمال العالمي في الأول من أيار (مايو)، وقد يكون هذا في اليوم التالي للاحتفال، توجّهت رأساً الى مدينة زحلة، فإلى بيت عائلة شكري البخاش، صاحب «زحلة الفتاة»، حيث وجدتُ مجلدات الجريدة، فعثرت في المجلدات، العائدة لسنوات العشرينيات، على العديد من نصوص وبيانات لأوائل التنظيمات العمالية في زحلة ومناطق أخرى من لبنان.. على أنّ أهم ما وجدته هو تلك النصوص الكاملة لعدد من الخطب والقصائد التي أُلقيت في مهرجان يوم أول أيار عام ١٩٢٥، في قاعة سينما الكريستال قرب ساحة الشهداء في قلب بيروت... والأهم من بين هذا الأهم، النص الكامل لخطاب فؤاد الشمالي، المؤسس العمالي للحزب الشيوعي، وقائده الفعلي، خلال تلك المرحلة التأسيسية، وقد نشرت الجريدة هذا الخطاب، التاريخي فعلاً، في مكان الافتتاحية في الأعمدة الأولى من الصفحة الأولى للجريدة.

ارتعش كياني كله وغمرتني فرحة الاكتشاف: إنه كنز حقيقي... كنت على يقين (ولا أزال) أن هذه النسخة من نص ذلك الخطاب غير موجودة في أي مكان آخر، ولا في جريدة أخرى، لا في لبنان، ولا في أي مكان آخر يُفترض وجوده فيه... فهي، إذاً، النسخة الوحيدة الباقية، أو التي اكتشفتُ وجودها، في هذا العالم.

... ووجدتني أطلب من الشباب المساعدة على نقل المجلّدات التي اخترتها، من الغرفة حيث هي، ووضعها خارج الدار وتحت نور الشمس الباهر.. وكنت قد حملت معي كاميرا تصوير جديدة، فأخذتُ أفتح على الصفحات المطلوبة، وأصوّرها بحماسة المكتشف ودقّة الحريص، خشية أن لا تنجح الكاميرا بالتقاط واضح لصور المقالات/ الكنز.

نجحتْ الصور، نقلتُ عنها النصوص المطلوبة كلها، ودخل أكثرها في نسيج هذا الكتاب.. (ولا تزال الصور الفوتوغرافية لهذه النصوص موجودة عندي حتى يومنا هذا، أحبها واعتزّ بأنني اكتشفتها..).

● هكذا فعلت مع جريدة «الصحافي التائه» في زحلة، حيث نشر يوسف ابراهيم يزبك ـ بتوقيع **«الشبح الباكي»** ـ سلسلة مقالات رائدة ومبسّطة، خلال شهر أيار (مايو) للعام ١٩٢٣، تحت عنوان جديد تماماً في تلك الفترة، وغريب في ذلك الزمان:

«الاشتراكية في لبنان»، هذه المقالات «الساذجة» سيكون لها تأثير، مهم، وأكيد، في التمهيد لتأسيس الحزب الشيوعي اللبناني.

(ولكن، ما هو سرّ اهتمام هذه الصحف ـ في مدينة زحلة ـ بالحركة العمالية أولاً، وبأخبار الحزب الشيوعي تالياً؟... وهل من أساس اجتماعي اقتصاديّ ما لوجود وفاعلية حركة عمالية كفاحية في زحلة؟..

ـ ساعدْني في ذلك، يا ابن زحلة، أيها الصديق والكاتب المدقّق **الياس شاكر**.

فساعدني الياس بنصٍّ بذل فيه جهداً بحثياً مهماً، سَلَكَ مضمونه طريقه الى نسيج هذا الكتاب.

ـ شكراً لك يا الياس، ولو بعد ثلاثين عاماً من إسهامك الثمين).

وتابعتُ الرحلة في بطون الصحف اليومية لتلك الفترة، وفي ذاكرة الرفاق الذين أسهموا في صناعة تلك الأحداث أو الذين كانوا شهوداً عليها... سعيتُ إليهم حيث هم، في بيروت، في زحلة، وطرابلس، وصيدا، وصور... نبّشتُ في زوايا ذاكراتهم، وفي زوايا بيوتهم أو مكتباتهم، فكنتُ أعثر على كرّاس هنا ومنشور هناك، وقصاصات صحف قديمة.. ربما كانوا يحدسون بأن كاتباً ومنبّشاً فضوليّاً ما، سيحتاج إليها في يوم ما، ربما لكتابة هذا التاريخ بالذات.

كانت هذه الرحلة، المتعدّدة الاتجاهات، متعبة بالفعل، وممتعة بالفعل، وأكثر.

● وفي مجلة **«المعرض»** لصاحبها **ميشال زكور**، عثرتُ على مقالات عديدة وأخبار كثيرة تتضمّن إشارات ومعلومات عن حركة تكوّن الحزب، وعن عدد من الكتّاب والمثقفين الذين كانوا في مناخ الحزب أو على ارتباط بنشاطاته وطروحاته وشعاراته وآماله.

على أن أهم ما عثرتُ عليه في مجلة «المعرض» ـ في الجانب التوثيقي والتاريخي ـ هو صورة ذلك الحشد الذي يملأ قاعة سينما كريستال، في بيروت، خلال أول احتفال عربي علني بيوم العمال في أول أيار (مايو) عام ١٩٢٥، وفي صدر هذه القاعة العلمان اللذان دخلا تاريخ الحركة الكفاحية في لبنان: بلونهما الأحمر، وبالكلمات المكتوبة

عليهما: «**فليحيا العمال والفلاحون ـ وليحيا أول أيار**» ـ ثم: «**حزب الشعب اللبناني ـ المركز الرئيسي: بكفيا**».

وأستطيع القول: إن هذه **الصورة/ الوثيقة** (وهي التي طبعناها في مطلع هذا الكتاب) هي النسخة الوحيدة المعروفة، حتى الآن، في لبنان والعالم العربي، لصورة هذا الحدث التاريخي، الطليعي، المتعدّد المعاني والفائق الغنى.

وفي هذه الأثناء كنتُ ألتقي ببعض المناضلين الأوائل، من قواعد الحزب، أولئك المناضلين اليوميين في الشوارع والحواري وبين الناس، الساعين الى توزيع المناشير أو الى لقاءات سرّية برفاق آخرين متدثّرين بظلمة الليل وصمت الشوارع والطرقات... هؤلاء المناضلون رووا كيف كانوا يتحايلون على عيون «الأمن العام» وعسس الليل، ليُلصقوا منشوراً هنا ويدسّوا منشوراً هناك، من فوق الأبواب أو من تحتها... وكيف ابتدعوا طريقة تقنية يدوية لتعليق أعلامهم الشيوعية الحمراء بأسلاك الكهرباء العالية، فترفرف المناجل والمطارق في سماء المدينة وتنكشف صباحاً مغمورة بالشمس مشعشة بالنور.

هذه الخبريات، بتفاصيلها ومناخاتها وتواريخها، وجدت طريقها إلى أمكنتها الطبيعية في صفحات هذا الكتاب.

وخلال العثور على كل معلومة أو وثيقة من هذه الوثائق الثمينة والنادرة... كنت أنصرف في الليل الى قراءتها وتحليلها ومقارنتها بغيرها، وأضعها في مكانها من الوقائع والأحداث والمعاني، وأتخيّل المناخات التي مهّدت لهذه الوثائق وأنتجتها، وأسجّل «النوت» بهذا كله، والملاحظات، والاستنتاجات...

وعندما كنت أستعيد، ذهنياً، مضامين الوثائق التي عثرتُ عليها، وأتخيّلها في سياقاتها من وقائع وزمن وأشخاص، أشعر أن مشروع الكتاب يدخل في أفق التكوّن والتّشكُّل في مسارات شبه روائية حكائية، شبه سينمائية، مع سرد تحليلات لها، وأرى في الذهن وأتلمّس حركة تحوّل الأشخاص والأسماء الى **شخصيات** بملامح وطبائع وتصرّفات، وتتحوّل الوثائق الى صور ومشاهد للأحداث والوقائع وحركة وتغيرات.. وتتحوّل الكلمات ونبرة المناشير الى شوارع وطرقات ومحلات وعجقة ناس واجتماعات سرّية وتظاهرات وزنازين وأماكن شغل وشباب يجوسون الليل لتوزيع المناشير أو

للقيام بمهمة من المهمات التي تتغلّف بالليل.

وأيقنت أن الكتاب **لن يكون سرداً أكاديمياً للحوادث والواقعات ـ كما يتطلّب علم التاريخ المتعارف عليه ـ بل سيكون نوعاً من الكتابة التاريخية، السرديّة، لا أدري ما هو، وإن كنت أحدس بما يمكن أن يكون.**

وإذ تجمّعت لديّ كمية كبيرة من الوثائق وتسجيلات الأحاديث، وصفحات كثيرة من «النوت» والموجزات وتعليقاتي على الوثائق، وتصوراتي للأحداث... تركّز همّي (التشكيلي التركيبي ـ المضموني) في تحديد **بؤرة** ما للأحداث، ولتشعبّات الوقائع التي وجدتُ أنه لا تصحّ معها، أو لها، طريقة السرد التتابعي، من «بداية» ما للأحداث، مثلاً، إلى «خاتمة» ما لهذه الأحداث... فمن أين ستكون هذه «البداية»، مثلاً، والى أية نقطة يمكن أن تصل «الخاتمة»؟..

وهل يمكن أن تكون «البداية» هي، بالتحديد، يوم الجمعة ٢٤ تشرين الأول (اكتوبر) من عام ١٩٢٤، حيث اجتمع عشرة أشخاص في غرفة صغيرة لبنانية في بلدة «الحدث» القريبة من ضواحي بيروت، وتوافقوا على تأسيس حزب شيوعي؟.. وهل يمكن، تالياً، أن نحدّد «خاتمة» لهذه المرحلة التأسيسية للحزب بتاريخ صدور البرنامج التفصيلي الأول للحزب والذي تم توزيعه في أنحاء لبنان وسوريا يوم ٧ تموز (يوليو) ١٩٣١؟... أم سيكون حدث انتماء **فرج الله الحلو** للحزب عام ١٩٣١ (وقد صار، لاحقاً، واحداً من أهم قادته التاريخيين) هو ما يشكّل خاتمة مرحلة تأسيسية وبداية مرحلة جديدة؟...

لعلّ هذه التحديدات الصارمة تدخل في سياق الكتابة الأكاديمية والمنسقة تتابعياً لوقائع التاريخ وأحداثه، وهو ما تتطلّبه بالتأكيد الكتابة التي صارت ضرورية لتاريخ الحزب الشيوعي اللبناني، بمعناها العلمي الأكاديمي المنتظر ـ (وهذا ما لا ولن أستطيعه بالتأكيد) ـ فالوثائق المضيئة هذه والذكريات الحيّة والوقائع الاقتحامية المدهشة، والتعرّف على ما حفلت به تلك المرحلة الخصبة (١٩٢٤ ـ ١٩٣١) من جديدٍ يتكوّن، يفتتح آفاق مسارات أخرى، مختلفة وجديدة، في النضال والحلم والكفاح، ويتكشّف عن فهمٍ آخر للصراعات الاجتماعية وتحوّلات التاريخ حيث تجلّت مفاعيلها في تلك المعارك الدامية ضد قوات الانتداب الفرنسي منذ السنة الأولى لتأسيس الحزب... هذا كله يتفاعل في ضمير الكتابة عندي فتتخايل في ذهني، وكذلك في وعيي، تصوّرات أخرى حيث تتدامج وقائع التاريخ بطرائق السرد والتركيب الحكائي التخييلي شبه الروائي، شبه

السينمائي، وما تتطلبّه هذه الطرائق من «مَنْتَجةٍ» وتقطيع مشهدي وبؤر تركيبية ما، لرواية الأحداث.

(**التخييل** ـ هنا ـ يتجلّى في التركيب الفنّي القصصي بالذات للأحداث والوقائع الفعلية، وليس أبداً في اختراع الأحداث أو تصوّرها... بل في الترتيب المفترَض لهذه الأحداث والوقائع نفسها، حسب تصوّري لحركة وقوعها الفعلي، ورسم الأجواء التي تتحرّك فيها حوادث ووقائع تاريخية وأشخاص حقيقيون لهم وجودهم المحدّد، في الفعل وفي التاريخ).

وبينما كنت أقرأ في النصوص التي ألقيت خلال **المهرجان/ الحدث**، أعني: الاحتفال العربي العلني الأول بيوم العمال العالمي، (الذي أقيم في قاعة سينما كريستال، في ساحة الشهداء وسط بيروت وقلبها، في الأول من أيار (مايو) عام ١٩٢٥) ـ وأستعرض الوقائع المدهشة والباهرة لهذا اليوم، وارتفاع الأعلام الشيوعية الحمراء، ذات المناجل والمطارق، لأول مرّة في ساحة الشهداء هذه... انبثقت وأضاءت **البؤرة الأساس** في تكوين الكتاب، واضحة كأنها قد كُتبت قبل أن أبدأ بكتابتها... **البداية**، إذاً، من هنا: ساحة الشهداء ـ تجمّعات العمال والناس ـ شمس أيار الساطعة ـ قاعة سينما الكريستال محتشدة ـ خطباء الاحتفال، واحداً واحداً... وهكذا تبلور لديّ السؤال (الأسئلة) الأساس: **من أين جاء كل واحد من هؤلاء الى الاحتفال؟.. من أي مسارٍ تاريخي أتى؟.. وما هو القول الذي يحمله والهدف الذي يتوخّاه؟... وما هو معنى حضوره، خطيباً، في هذا المهرجان التاريخي بالذات؟**

وإذ نتأمل في هذه المسارات، نتعرّف بالتدريج على ملامح **الجذور** التي أسهمت في تكوين الحزب، والتربة الاجتماعية السياسية الكفاحية الوطنية والطبقية التي نهض منها وتأسّس عليها ونما بالتفاعل معها.

فلنتأمل في هذه اللوحة ـ الأشخاص، والمسارات:

- **خير الله خير الله**: آتٍ من نضالاته ضد السيطرة التركية، بصحبة الرعيل الذي قدّم الشهداء الوطنيين، في أيار (مايو) العام ١٩١٦ ـ وآتٍ أيضاً من علاقاته التناقضية الملتبسة مع فرنسا، حيث كان يعمل في صحافتها.

- **يوسف ابراهيم يزبك:** آتٍ من علاقاته النضالية بالحركة الاستقلالية العربية ـ ومن تبشيره الريادي الطليعي بالأفكار الاشتراكية في لبنان ـ ومن دوره الشجاع في تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني.

- **شكري البخاش:** (صاحب جريدة «زحلة الفتاة»): آتٍ من محاولاته العبثية لكسبِ رضى سلطات الانتداب الفرنسي، والحركة العمالية اللبنانية، معاً، بهدف الوصول الى النيابة، بأي وسيلة!!

- **الياس أبو شبكة:** آتٍ من تمرّده، شاعراً ينشد الحرية والتجديد، ومن أشعاره الرومنتيكية التمرّدية ووقوفه، في العديد من قصائده، مدى عمره، مع الحركة العمالية وطلائعها.

- **حنا أبي راشد:** آتٍ من خلافاته مع قيادة «حزب العمال، وأرباب العمل» الذي أسّسته سلطات الانتداب الفرنسي، طامحاً إلى أن تتبنّاه الحركة العمالية الاستقلالية!!

- **فؤاد الشمالي:** آتٍ من دوره القيادي في الحركة العمالية والشيوعية في مصر، بعد هجرته إليها، وخوضه معاركها ضد السيطرة الانكليزية والرأسمال القامع، اللذين أبعداه إلى بلده لبنان، حيث يواصل نضاله في وطنه، ويقوم بدوره الأساسي: المؤسس العمّالي للحزب الشيوعي اللبناني.

- **أرتين مادويان:** المناضل اللبناني الأرمني الذي حضر المهرجان على رأس مجموعة من المناضلين اليساريين الأمميّين الأرمن الذين يناضلون من أجل استقلال وتقدم لبنان، وطنهم الجديد، بعد هجرتهم القسرية إليه وتوطّنهم فيه... وقد شكّل هذا الوفد رافداً مهمّاً في تكوين هذا المهرجان، وشارك، تالياً، في عملية تكوين الحزب نفسه.

... لقد رأيت، إذاً، أن هذا المهرجان، الرائد، بكل ما فيه ومن فيه، وبمسارات خطبائه بخاصة، والدروب التي أوصلتهم الى منبره... هذا المهرجان بالذات، هو الذي يشكّل: عقدة التشابك التاريخية، **والبؤرة الفنيّة، التي يمكن أن ينهض منها وعليها البناء**

التشكيلي التركيبي للتكوين الحكائي الدرامي ـ إذا جاز لنا التوصيف ـ لمخطَّط هذا الكتاب.

وبهذا، انطلق أفق الكتاب من اطار التأريخ الأكاديمي لحركة نشوء الحزب الشيوعي اللبناني، الى آفاق حكائية تُدْرِج الوقائع التاريخية في سياقات سردية مختلفة، وفي نوع من «المَنْتَجة» وتداخل الأزمان و «الفلاش باكات» نستعيرها من طرائق السينما الحديثة.

فانفتح أمامي أفق الكتابة والسرد، وأفق الحرية في توليد الأشكال الفنية للكتابة وتوالدها، فإذا حماسي الداخلي للموضوع، وآفاق حريتي في تعدد طرائق السرد، تتحوّل الى تدفّق كتابي لم أعهده، لا قبل الدخول في صياغة هذا الكتاب ولا بعد إنجازه، فهي حالة فريدة تماماً في مساري الكتابي، لم أستطع استعادتها بعد ذلك الزمان، وحتى يومنا هذا...

[والحق الحق أقول لكم: أن فترة البحث والتفتيش عن الوثائق والمراجع استغرقت ثلاثة أشهر ـ وكذلك فان فترة الصياغة والكتابة قد استغرقت، أيضاً، وفقط، ثلاثة أشهر... وعندما أعود، ـ للضرورة البحثية أو لاستعادة التواريخ والوقائع ـ الى قراءة صفحاتٍ ما من هذا الكتاب، أسائل نفسي: كيف استطعت، يا بن دكروب، أن تحضّر وأن تكتب هذه الـ ٥٠٠ صفحة، ضمن فترة الستة أشهر المعطاة لك، وأن تسلّمه الى قيادة الحزب ثم الى المطبعة في الموعد الضروري، تماماً، حيث يُتاح للكتاب أن يصدر في الموعد المحدّد له؟!

ربما تعود المسألة هذه الى نارٍ ما، داخلية، لا يدري الكاتب كنهها، ولا أسرارها؟... والله أعلم!]

... اندفعتُ ـ إذاً ـ في الكتابة خلال النهار والى ساعات متأخّرة من الليل... والصفحات المكتوبة تتراكم... أبلغتُ قيادة الحزب أن الكتاب سيكون أكبر بكثير مما هو مطلوب، فقيل لي بحسم: «اكتب ما يتطلّبه الموضوع، ولا تحسب حساب عدد الصفحات...». وكان الرفيق العزيز خليل الدبس يمرّ بي في بعض الليالي، بفضوله وحشريته ومهمته، ويسأل: «أين صرت يا محمد دكروب؟..».. نجلس معاً في البلكون،

حيث وضعتُ طاولة الكتابة، نتحاور في الموضوع: الإشكالات والإنجازات.. وكنت أستفيد جداً من هذه الجلسات لأوكّد لنفسي تصوّراتي لفصول الكتاب، واستنتاجاتي، وحماستي للكتابة.. خليل مستمع جيّد، ومحاوِرٌ (أو مستنطق) جيّد، وهو واسع الثقافة وكثير القراءة... نتحاور حتى آخر الليل، فيطمئن هو لمسار الكتاب، ويطمئن قلبي لانطباعات خليل التي يعبّر عنها بلطفه أحياناً وبصراحته المعهودة في كل حين... (ومن عادتي أنني لا أطمئن الى مدى قيمة ما أنجزه إلاّ عبر انطباعات أي شخصٍ آخر كان، فكيف إذا كان صديقاً، وعارفاً، وصريحاً الى حدّ الفظاظة، أحياناً؟..).

ولعلّ مناخات النهوض السياسي الاجتماعي في البلد، والغليان الداخلي العميق للصراعات، كانت تشكّل عوامل أساسية محفّزة، و «ملهمة»، في اندفاعات الكتابة، وربما في سريان ذلك الروح الحماسي الواضح في الكتاب، وذلك التعاطف القوي مع صانعي تلك الأحداث وما رأيتُ، في معاركهم تلك ونضالاتهم وتطلّعاتهم ذات الطابع الرسولي، من روح ملحمية.

وكان التصاعد في الطابع الاجتماعي والوطني التحرري ـ خلال السبعينيات ـ، عبر الاضرابات العمالية والتحركات الطالبية والتحالفات السياسية هو جديد المرحلة، التي صدف أن الكتابة تجري في زمانها وفي سياقاتها، والتي تبشّر ـ كما خُيّل إلينا ـ بتغيرات اجتماعية سياسية جذرية في بلد يحكمه نظام طائفي بدا كأن أوان تغييره قد طُرح على جدول أعمال قوى التغيير... وبدا أن القوى النقيضة تُعدّ وتستعدّ لصدّ هذه الموجة الصاعدة، والتصدّي العنفي لها!

(... وكنت أرى، وأنا في غمرة الكتابة، جالساً في بلكون الطابق الخامس من بناية صارت، لاحقاً، ضمن «خطوط التماس» بين شرقية وغربية!... أقول: كنت أرى، عبر شبّاك زجاجي بعيد، عدداً من الشباب يتحادثون وهم منهمكون في تنظيف وفحص بنادق ومسدسات وما أشبه!.. فأتصور، في نوعٍ من الضبابية والغموض، بعض ما يمكن أن يحدث لبلدٍ يتربّص بعضه ببعضه الآخر!!).

فنحن في العام ١٩٧٤.

والحزب الشيوعي اللبناني في حركة صعود سياسي اجتماعي ثقافي، يتنامى في كل

هذه المجالات، وتتّسع تحالفاته على هذه الصُعُد كلها، ويصير قوة كبيرة وفاعلة في قلب الحركة الوطنية التحررية والتغييرية، التي كان يُحسب لها ألف حساب وحساب كما يقال.

وفي هذا المناخ كان يجري الإعداد للاحتفالات بالعيد الخمسين للحزب، وطنياً وعربياً وعالمياً، وفي مختلف المجالات السياسية الفكرية الثقافية والفنيّة.

نشاطات غنية جداً، متنوّعة جداً، واسعة المدى جداً، لم يسبق أن قام الحزب الشيوعي ـ ولا أي حزب لبناني آخر ـ بمثلها، مما صار يشكّل بتحالفاته، في حينه، هاجساً مصيرياً، لجميع سَدَنَة النظام الطائفي الرأسمالي التابع، والقوى التي ترى في البنية الطائفية: القلعة الأساس التي تحمي نظامها وسيطرتها.

وكان هذا الكتاب ـ مع غيره من الكتب ـ يشكّل جزءاً من الإنجازات الثقافية في مناسبة تلك الاحتفالات... فصار من الضروري أن يتم إنجازه في وقته، وأن يكون لائقاً بالمناسبة، وبهؤلاء الرّواد الأوائل أساساً وبالدرجة الأولى.

وعلى مدى فترة الكتابة، كان يشغلني، ويؤرّقني، العثور على **عنوان** مناسب للكتاب، وغير تقليدي... فلا يكون من نوع: «صفحات من تاريخ نشوء الحزب الشيوعي اللبناني»، مثلاً، أو ما يندرج في هذا السياق!.. فكان ذهني ـ في فترات «الاستراحة» من الكتابة ـ يخترع ويتفحّص ويغيّر ويبدّل، في شتى العناوين... طوال فترة انشغالي في صياغة الكتاب...

... الى أن انبثق العنوان، مثل لمعةِ برقٍ تحوّلت الى إضاءة واضحة:

كنت بالصحبة الحلوة للصديقة العزيزة حياة محمود، وزوجها الصديق العزيز العريق الياس شاكر، في زيارة الى مدينة طرابلس، سعياً للحصول على مادة ما للكتاب نفسه... وفي طريق العودة الى بيروت، مساء، في السيارة، شغلتني مشكلة العنوان ـ وعلى غير عادتي، غرقت في صمت طويل! ـ كان ذهني مشغولاً بالتفتيش المضني... وإذْ لمع العنوان وتبلور في خاطري، تطلّعتُ إليهما كأنني أقول: «وجدتها!»... نعم «وجدتها»... «ماذا وجدت؟» سألني الياس، قلت: «العنوان... عنوان الكتاب... اسمعا، وقولا لي رأيكما، فوراً... العنوان هو: **جذور السنديانة الحمراء**»، قالت حياة، على الفور، بصوتها الأنيس: «حلو..»، أما الياس فقد أخذ يقلّب العنوان، في فكره، على مختلف وجوهه... الى أن قال،

بهدوئه الهادئ: «معقول، صحيح حلو»... ثم صمت لثوانٍ، وأضاف: «لكن تحت العنوان في (سوتيتر)، مش هيك؟»، قلت: «طبعاً، طبعاً.. يمكن يكون، مثلاً: قصة، أو حكاية، أو مسيرة، نشوء الحزب الشيوعي اللبناني ١٩٢٤ ـ ١٩٣١».

اتصلتُ هاتفياً بمركز الحزب، وأبلغت الرفيق خليل الدبس بالعنوان، قال: «مليح، مليح... بس المهم يخلص الكتاب بوقته» وأضاف: «أبو أنيس (جورج حاوي) بجانبي، قل له العنوان»... استمع أبو أنيس، ثم قال ممازحاً: «بس يا رفيق، على علمي ما في سنديان أحمر بلبنان!..»، قلت: «ولو، يا أبو أنيس، أنت سيد العارفين!»، قال: «يعطيك العافية... المهم تخلّص، زي ما قال خليل...».

وتزايد اندفاعي الكتابي، ليل نهار... وعندما شارفتُ الفصل الأخير من الكتاب، استدعيت خليل الدبس ليقرأ ـ بعقله «الرقابي» وذهنه التذوّقي ـ ما صار منجزاً من الكتاب... جلسنا معاً على البلكون، هو يقرأ، وأنا أتابع الكتابة في الفصل الأخير... وبين حين وحين، استرقُ النظر الى تأثّراتٍ ما في معالم وجه خليل، وهو مستغرق يقرأ في الصفحات الـ ٥٠٠ المكوّمة أمامه!.. استغرقت القراءة ليلتين أو ثلاثاً، لا أتذكر تماماً... تنهّد بما يشبه الارتياح، وسألني: «وماذا بعد؟»... رويت له مضمون ما سوف أقوله في الفصل الأخير.. أبدى بعض ملاحظات أذكر أنها تتعلّق، أساساً، بالحركة العمالية في مصر ودور فؤاد الشمالي فيها، وملاحظات تدقّق بأرقام وأسماء في الحركة العمالية اللبنانية، فأخذتُ بأكثرها... قال: «يعطيك العافية»... وظهرت على وجهه ملامح من علامات الرضى، فاكتفيت!.. ذلك أن علامات الرضى هذه ـ ولو على شكل ملامح ـ في وجه خليل الدبس، تعني أنه، في داخله، معجب جداً بالكتاب!

في الليلة نفسها، في آخر الليل ومطلع الفجر، وأنا أكتب السطر الأخير من الكتاب، أحسستُ بالدموع تنساب من عيني، وتتساقط على الأوراق... وغمرتني حالة من الوجد لا أستطيع أن أصفها...

... والآن، وبعد مرور ٣٣ عاماً، وكلما أعود الى هذه الصفحات الأخيرة من الكتاب، أو أتذكّرها أو أتحدث عنها، تعود إليّ الأصداء الشعورية لتلك الحالة الصوفيّة نفسها، في آخر الليل ومطلع الفجر.

فما سرّ تلك الحالة؟

من يدري؟... ربما لاقتناعٍ داخلي بأنني أنجزت شيئاً له أهميته!.. وربما لأنني شعرت بارتياح صافٍ بعد ذلك التعب الطويل!.. وربما لأنني أنهيت هذه «المهمة الحزبية الممتعة»، وفي وقتها المطلوب!.. وربما.. وربما.. وربما..

بعد سنوات، قال لي خليل الدبس، بصراحته الجارحة: «جذور السنديانة الحمراء هو الكتاب الوحيد لك!.. أو هو الأهم، بين كتبك».

قد أوافق تماماً على صحة هذا الحكم ـ حتى لحظتنا هذه ـ على أنني «محكوم دائماً بالأمل»، وبأن أواصل العمل والتجربة والانتاج الكتابي، حتى آخر المشوار... ومن يدري!.. فمن شأن الأيام أن تخلق ما لا أعلم أنا، وما لا يعلمه خليل الدبس، وما لا تعلمون!..].

سلّمتُ مخطوطة الكتاب الى الرفاق في مركز الحزب.

شعرت بصفاء كامل، وبراحة عميقة، بعد تعبٍ متواصل تراكمَ يوماً فيوماً، طوال ستة أشهر من العمل المكثّف والجهد و «حكّ الدماغ»!

لهذا، ما أن توجّهت، في اليوم التالي، الى المطار لأعود الى موسكو ـ حيث ألتقي عائلتي وأواصل دراستي ـ وما ان أخذتُ مكاني في الطائرة، حتى غفوت ـ فوراً ـ على المقعد... وبقيت غارقاً في غفوتي اللذيذة، ولم أفق إلا عندما نبّهني جاري في المقعد إلى أننا وصلنا إلى مطار موسكو!...

... بعد عشرين يوماً بالتحديد، وصلتني الى موسكو نسخة مطبوعة من الكتاب.. نسخة واحدة، فقط... ولكنها عندي كانت تساوي ـ في لحظتها تلك ـ كل النسخ المطبوعة من كل كتب الدنيا!...

قرأت الكتاب ـ كتابي ـ في الليلة نفسها، كأنني شخص آخر يقرأ كتاباً مشوّقاً لكاتب آخر اسمه: محمد دكروب!

وبدأت تصلني أصداء الكتاب مع أخبار الاحتفالات بالذكرى الخمسين لتأسيس الحزب... وعلمتُ أن تعبير «السنديانة الحمراء» صار شعاراً يتردد في العديد من الخطابات الحزبية وفي العديد من الكتابات حول الحزب والعيد الخمسين.. وأن النسخ المطبوعة من الكتاب، والتي جُهزت بسرعة لأيام الاحتفالات، نفدت كلها... على أن هذه

الواقعة المفرحة لم تكن هي التي تهمّني... المهم: **ما هو رأي قراء الكتاب في الكتاب؟**.. قيل لي أن الانطباع العام إيجابي وحماسي!! ولكن، هل صفة «الايجابي» تعود الى **الموضوع**، و «الحماسي» تعود الى **مناسبة الذكرى؟**... على أن الذي أتوق الى سماعه هو شيء آخر.

بين أوراقي العائدة الى تلك الفترة رسالة بعثتها من موسكو الى صديق العمر **حسين مروة** في بيروت، هذه فقرات منها تعبّر عما كان يشغل فكري ويؤرّقني:

■ «مرحبا أبو نزار

... لقد أخبرني الصديق محمد عدره أنك تعدّ دراسة عن جذور السنديانة... انتظر هذه الدراسة بلهفة... كم أتحرّق هنا - (في موسكو) - حتى أعرف الرأي في هذا الكتاب... وما يهمّني بشكل خاص هو: معرفة الانطباع العام، وانطباعك أنت ورأيك أنت بالذات، وكذلك «شلّة الطريق»، ورأي القارئ العادي، ليس فقط في مجمل الكتاب، بل - بالأخص - في «طريقة» كتابة هذا الكتاب - (الأسلوب - التشكيل التركيبي للأحداث - طرائق السرد الحكائي - الخ..) -... أعرف أن موضوع الكتاب مثير ومهم، وأعرف أنه أعاد ترتيب - وتقييم - بعض الأمور التاريخية، وكشفَ عن أشياء وأحداث كان لا بد من الكشف عنها، وأعرف كذلك أن المضمون العام للكتاب، أي الموقف من الأحداث والوقائع وتفسيرها، والتوجّهات الراهنة لأفكار الكتاب... هذه الأمور المضمونية لا تحمل أخطاء مميتة، بل ربما لا باس بها (أعني: ميزات المضمون وليس الأخطاء!!)... ولكن الذي لا أعرفه، واتحرّق شوقاً الى معرفته، هو: مدى توافق طريقة كتابة الكتاب مع هذا كله، ومع طموحي الى كشف ذلك الطابع الملحمي للأحداث نفسها، وللروح الإقتحامية عند روّاد تلك المرحلة وطلائعها الشجعان.

أشعر: أنني أنجزت، في هذا المجال، شيئاً ما، ربما يكون جديداً. فالحالة الذهنية والعصبية والشعرية، وحتى «الصوفيّة» التي كتبت فيها الكتاب، كانت غير عادية، لم أمرّ بها قبلاً... وقد لا أمرّ بمثلها في مقبلات الأيام.

فهل هذا صحيح؟

انتظر الجواب منك، سواء في مقالة ما، أو في رسالة خاصة.

والجواب هذا، مهما كان، ستكون له أهمية خاصة، الآن... وأهمية عملية، لاحقاً... وذلك في شكل، وفي طريقة، كتابة أطروحتي عن عمر فاخوري -

(الأطروحة التي لم أنجزها، حتى يومنا هذا!..) ـ إضافة الى الأهمية الشخصية الذاتية التي تعني الكثير بالنسبة لأي كاتب بذل في الكتابة جهداً معيّناً له خصوصيّته، فهو لا يتعرّف قيمة هذا الجهد إلا لدى سماع آراء الآخرين فيه، مهما كانت هذه الآراء.

فرحتي لا تحدّ لدى سماعي: أن الكميّة الأولى من النسخ التي طُبعت وعُرضت خلال مهرجانات الحزب، قد نفدت كلها، وأن هذا الكتاب هو الأكثر مبيعاً.

طبعاً: موضوع الكتاب، هنا، هو الأساس.

ولكن: هل أن طريقة محمد دكروب وتنويعاته الأسلوبية في التصدّي لهذا الموضوع، قد استجابت لمتطلّباته، من ناحية، ولمتطلّبات القارئ المعاصر وروح المعاصرة، من ناحية ثانية؟

أطمح بالحصول، منك، على الجواب السريع والصريح.

(ملحق: بعد ثلاثة أيام من كتابة الكلمات أعلاه، كتبتُ في الرسالة نفسها، ما يلي:)

ـ «... اليوم، استلمتُ عدد «النداء» (تشرين الثاني ١٩٧٤) وفيه مقالتك عن (جذور السنديانة الحمراء).

أعتزّ بكل كلمة قلتَها عن الكتاب، وعنّي... لقد وضعتَ يدك على أشياء أساسية، سواء في ما يتعلّق بمعنى الكتاب، ومعنى التصدّي للموضوع، وتقييم ما أحرزه الكاتب في هذا المجال... ولكنني أشعر بان المقالة هي قسم أول، وأن لها تابعاً سياتي...

ولا أدري إذا كان هذا الشعور نابعاً من كوني انتظر ـ كما عبّرتُ في الفقرات أعلاه ـ سماع رأيك في طريقة كتابة الكتاب.

أرجو أن لا أكون مخطئاً.

وأشعر انه يحق لي أن أطمع بمزيد من الراي، منك انت، حول طريقة الكتاب، والتركيب الفنّي فيه، هذا إذا أتيح لك الوقت، وإذا شعرتَ بضرورة تناول هذا الجانب.

ولا أقول جديداً إذا أكّدتُ لك: أن ما أريده منك هو، بالضبط، ما تراه أنت،

سواء كان إيجابياً أو سلبياً. وانت تعرف أننا صرنا أبعد ما نكون عن «الحساسية المَرَضِيّة» تجاه النقد... بالعكس: أن نقدنا، بعضنا بعضاً، يحمل الكثير من الإيجابيات، سواء في ما يتعلّق بتعميق عملنا نفسه، أم في ما يرتبط بالبرهنة العملية للآخرين، على ما بيننا من ديمقراطية في تبادل الرأي الصريح.

ثم: ما هو رأي كريم مروة، ومهدي عامل، ويمنى العيد، والياس شاكر وزوجته العزيزة حياة محمود، وابن العم (غسان رفاعي)، والاخوان في اللجنة المركزية، ويهمّني جداً رأي الذوّاقة أبو زهير نقولا شاوي.

آخ، كم أحب أن أعرف آراءهم جميعاً.

أرجو أن تفهمني، لأنني إذْ أنجزتُ الكتاب، سافرتُ رأساً الى موسكو، قبل أن أعرف الصدى الحيّ له بين القراء والأصدقاء.

من أفدح أخطائي، حينئذٍ: الإسراع في سفري الى موسكو!.. كان ينبغي أن أظل شهراً في بيروت، لأشارك في فرحة الاحتفالات بالذكرى الخمسينية للحزب، ولأتجنب بعض الأخطاء ـ الفضائح التقنية التي وقعت في طباعة الكتاب، ولأستمع الى الملاحظات الحيّة والمناقشات حوله.

ـ كتب لي خليل الدبس (في رسالة منه): «خسرتَ كثيراً في استعجالك الذهاب الى موسكو... فلْيبقَ ذلك حسرة في قلبك الى أبد الآبدين، آمين».

صدق العزيز خليل.

محمد ـ (موسكو في ١٩٧٤/١٢/٦)

... واضح من رسالتي هذه الى حسين مروة أنني ـ منذ البداية ـ كنت أركز التساؤل على **شكل** الكتابة **والبنية الفنية التكوينيّة** للكتاب... وأزعم: أن الشكل الفنّي، هنا، هو عامل أساسي ليس فقط في إيصال المضمون الى القارئ، بل هو يسهم، أيضاً، في تطوير المضمون نفسه، في جعل رؤية الكاتب أكثر شمولاً، وفي كشف مختلف جوانب الموضوع وأبعاد المضمون... فهي رؤية تؤدي ـ طبعاً، وحتماً ـ الى تطوير هذا المضمون وإغنائه وتعميقه وإنضاجه.

فكنت ـ إذاً ـ أريد الاطمئنان الى هذا الشكل الفنّي بالذات.

وقد حصلتُ، بالتتالي، على أجوبة من كتّاب ونقاد ومحلّلين وأصدقاء، بما يطمئنني الى أن محاولتي البحثية والفنيّة التركيبيّة، لم تكن عبثاً.

أما حسين مروة، فقد كتب ـ لاحقاً ـ دراسة تحليلية مسهبة، وكاشفة، بمناسبة صدور طبعة ثانية من الكتاب، عام ١٩٨٤، بعنوان: «حوار الأديب والمؤرخ والمفكر النظري، في كتاب: جذور السنديانة الحمراء» (الطريق: أيار/ مايو ١٩٨٥)... وهي دراسة سعدتُ جداً بها، ذاتياً وعاطفياً، وبما تقوله نقدياً وفكرياً وكشفاً لذلك **الحوار** بين جهد التوثيق والتأريخ وفعل التشكيل الفنّي في الكتابة السردية لوقائع حقيقية... وفتحت تلك الدراسة أمام وعيي الكتابي آفاقاً رحبة، في تلك الأيام، وحتى يومنا هذا...

٢ في كيف كُتبتْ، وكيف صار يمكن أن تُكتب، تواريخ الأحزاب الشيوعية؟

... والأيام حبالى، كما يقال، تحمل دائماً جديد التغيرات والتحوّلات ـ إيجاباً وسلباً ـ فتتبدّل عهود وتتغيّر أنظمة، وتذوي حركات تاريخية، وتتصاعد تحرّكات أخرى... ويصير الزمان غير الزمان...

عندما أنجزتُ الكتاب، عام ١٩٧٤، كانت الحركة الوطنية الإجتماعية العمالية الطلابية في صعود يؤذن بتغيّرات تخيف سَدَنَة النظام اللبناني الطائفي ـ الرأسمالي التابع... وكان الحزب الشيوعي اللبناني في حالة نهوضٍ واسع وفعّال يؤكّد حضوره القوي، الأساسي، في قلب الحركة النضالية الوطنية والاجتماعية... وكان الاتحاد السوفياتي يشكل إحدى القوتين الكونيّتين العظميين اللتين تتصارعان على تقرير مصير العالم. وللقيادة السوفياتية تأثير فاعل وضاغط ـ وحاسم أحياناً ـ في التوجّهات العامة للأحزاب الشيوعية على مستوى العالم كله... وهذا التأثير الضاغط كان يطاول حتى تواريخ هذه الأحزاب، وكيفيّة تقييم هذه الفترة أو تلك، هذا القيادي أو ذاك، في تاريخ هذه الأحزاب!..

نحن، الآن، في العام ٢٠٠٧.

وفي خلال الفترة الممتدة منذ صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب، عام ١٩٧٤، حتى يومنا هذا ـ (أي خلال ٣٣ عاماً) صارت الدنيا غير الدنيا، وانتقل طابع الزمان إلى زمان آخر: انهار الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي كله.. وحدث زلزال وما يشبه الزلزال داخل العديد من الأحزاب الشيوعية في العالم.. وتلاشى التأثير السياسي الفكري الضاغط والفاعل الذي كانت تمارسه القيادات السوفياتية على الأحزاب الشيوعية، وحتى على وعي هذه الأحزاب لتاريخها!..

وهذه التغيرات الجذرية، والزلزالية، سوف تمارس ـ ولا بدّ من أنها أخذت تمارس ـ تأثيرات جذرية أيضاً في **كيفية كتابة هذه الأحزاب لتاريخها**، وكيفية التعامل مع زمانها... فمن الطبيعي، والضروري، أن تكون الرؤى والتفسيرات وحتى الوقائع نفسها، تدخل في مرحلة التغيرات وإعادة النظر والتقييم والكشف، بما يفتح آفاق النظر الموضوعي، والكشف الموضوعي عن مسارات هذا التاريخ ومنعطفاته وما فيه من تناقضات، ومنجزات نضالية بطولية، وأخطاء وارتكابات قاتلة.

أي: دخلت كتابات المؤرّخين الماركسيين والشيوعيين، لدى تصدّيهم لكتابة تواريخ أحزابهم، في آفاق الحرية، وآفاق التحرّر من تلك الضغوط والقيود والتوجّهات التي كانت تكبّل الكتابة في هذا المجال، والتي كانت تؤدي ـ غالباً ـ الى تزويرات فظّة في هذه التواريخ: في الوقائع نفسها، وفي طابع تقييم المراحل، وتقييم أدوار الأشخاص (إما سلباً وإما إيجاباً!)، وفي تحوير الأفكار وفرض أفكار «مناسبة»!!

وبالنسبة لكتابي هذا، أجدني ـ بعد حدوث هذه التغيّرات الجذرية، التراجيدية المأساوية بكل المعاني ـ أطرح على نفسي هذا السؤال الإشكالي، والافتراضي:

ـ لو أنني لم أكتب، أصلاً، هذا الكتاب، وكُلّفت ـ الآن، في العام ٢٠٠٧ ـ بكتابته، كيف كان يمكن أن تكون توجّهات الكتابة والرؤى وتفسير الوقائع وتقييمات المراحل، والسياسات، والأشخاص؟

وقد رأيتُ ان محاولة الأجابة، أو مقاربة الإجابة، عن هذا التساؤل، لا بدّ من أنها سوف تُسهم في قراءةٍ **راهنة، متحرّرة**، لهذا الكتاب/ التأريخ الذي كُتب قبل ٣٣ عاماً ـ أي قبل زمان طويل من تلك الانهيارات الزلزالية ـ متجاوزاً الكثير من تلك القيود التي كانت ما تزال تفعل مفاعيلها، ومارس الكاتب فيه الكثير من الحرية، وكشفَ ـ

عامداً متعمّداً ـ عن تلك التزويرات التي ألحقت ببعض الوقائع فطمستها، وعن تلك الاتهامات التي ألحقتها القيادة الجديدة ببعض الأشخاص من الروّاد فحجبت أدوارهم الطليعية والتأسيسيّة متوهمّة أنها ـ بهذا ـ حذفتهم من تاريخ هذا الحزب، وحتى من التاريخ!!

فلا بدّ، إذاً، من وضع نقاط انتقادية راهنة على تلك الحروف التقليديّة للنمط الذي كان سائداً في كتابة تواريخ هذه الأحزاب!

قبل هذا، أشير الى بعض الوقائع التمهيديّة:

ـ في المقدمة الموجزة التي كتبها خليل الدبس لهذا الكتاب، وصفه بأنه: «عمل أديب أكثر ممًا هو عمل مؤرّخ، ولكنه عمل أديب اعتمد الحقيقة التاريخية، وبذل جهداً كبيراً ليصل الى أكثر ما يمكن أن يصل إليه من وثائق (...) غير أن التاريخ، بمعناه العلمي، ما زال يحتاج لمن يضعه»... وهذا يعني، كما جاء في المقدمة نفسها: «... إن مثل هذا العمل لا يمكن أن يقوم به شخص واحد. بل يتطلّب عمل مؤسسة، عمل فريق من البحّاثة، وهذا لم تتوفّر إمكانياته بعد...». على أن خليل الدبس عبّر عن تفاؤل وردي عندما قال: «... وأملنا أن ذلك لن يطول...»!!.

... وقد طال الزمن كثيراً، أيها الرفيق الدؤوب خليل الدبس!.. ثلاث وثلاثون سنة مضت على هذا القول، دون أن تجري أية محاولة جدّية، مؤسّسية، في هذا المجال!... وكلّما تأخّر الباحثون والمؤرخون الشيوعيون والديمقراطيون الموضوعيون، في تحقيق هذا الأمل وهذه الضرورة، فسيأتي «آخرون» ـ كما حدث سابقاً ـ يكتبون جوانب من هذا التاريخ، كما يفهمونه هم، ومن مواقعهم الايديولوجية (وهذا حقهم الطبيعي)، أو كما يحلو لهم، وبهذا القدر أو ذاك من اللاموضوعية، أو التشويه، أو الرؤية غير الواضحة للأحداث ولأفكار المناضلين المشاركين في صناعة تلك الأحداث وصياغة تلك الأفكار... (نعم، لقد أصدر بعض الشيوعيين والعلمانيين عدّة كتب تتناول هذا الجانب أو ذاك من هذا التاريخ، وأغلبها يندرج في سياق الذكريات، والمبادرات الشخصية... وهذا يشكل، ولا شك، مادة أوّلية للعمل البحثي، المؤسّسي، والضروري، والذي يجب أن لا يغيب عن «**جدول العمل**»، ولا عن النشاط الفكري للحزب).

فإلى أي مدى يظلّ ذلك التفاؤل الوردي قادراً على الإحتفاظ بنضارته؟!

ـ في عدد من مؤتمرات الحزب، كانت ترد (وتتردّد) توصيات من هذا النوع: «...وتشكيل لجنة للعمل على كتابة تاريخ الحزب...»!.. ولا أدري متى تكفّ هكذا توصية عن مجرّد كونها «توصية»؟!

وفي هذا المجال أتذكّر أنه، ذات عام، تشكّلت لجنة أوّلية للتداول في هذا الموضوع، ولوضع شكلٍ من التصوّر الأوّلي لخطّة بحث وعمل وتحديد مهمات وما أشبه... اجتمعت اللجنة مرّة، أو مرّتين ـ على الأكثر! ـ ولا أتذكّر كيف تبخّرت هذه اللجنة... فلا هي اجتمعت ولا دُعَيتْ الى الاجتماع، حتى يومنا هذا!..

ـ في أرشيفي الخاص بهذا الموضوع، ورقتان فقط، كتبتُ فيهما تلخيصاً لبداية تداول ما، حول كتابة تاريخ للحزب... المتداولون، في هاتين الصفحتين هم: كريم مروة، جورج البطل، محمد دكروب، لكل واحد منهم رأي سريع مكثّف.. وغير هاتين الورقتين، لا أتذكّر شيئاً عن هذا اللقاء، الذي جرى ـ ربما ـ في أواسط الثمانينيات (كما نستنتج من قراءة ما قيل).

ولعلّي أرى في الكلمات القصيرة لهؤلاء الثلاثة إشارات إلى عيوب التواريخ المكتوبة عن عدد من الأحزاب الشيوعية، تحت وطأة مختلف الضغوطات والقيود، والحذوفات الظالمة والإضافات الأكثر ظلماً... وإشارات أساسية الى: كيف ينبغي أن يُكتب هذا التاريخ في زمان التحرر من أكثر تلك القيود.

هنا ما سجّلته مما قيل في ذلك اللقاء القديم، والفريد، وربما اليتيم:

كريم مروة: (يعبّر عن خشيته وتهيّبه) ـ إن التجارب في كتابة تواريخ الأحزاب الشيوعية سيئة ـ السائد هو التضخيم أو التصغير في أدوار هذا أو ذاك ـ لا يمكن كتابة تاريخ الحزب بمعزل عن تاريخ الحركة التحررية العربية واللبنانية، ولا بمعزل عن الحركة الشيوعية العالمية ـ ولكن ما هو المنهج الذي سنتّبعه؟... وإذا اتفقنا فما هي المادة التي يجب أن تكون بين أيدينا؟.. طبعاً نحتاج، بداية، الى تجميع الوثائق، الى معرفة مصادرها، والسعي

للحصول عليها أو تصويرها ـ ثم: في أي مرحلة تجري كتابة هذا التاريخ؟ ـ إن تغيّرات المرحلة يجب أن تكون أمام أنظارنا عندما نتصدّى لهذه المهمة ـ أي: جعل هذا التأريخ جزءاً من مرحلتنا الراهنة ـ قصدتُ القول: أنه علينا كتابة تاريخ الحزب من حيث مستوى تطورنا الفكري نحن، وضرورة إسهامنا في تطوير ماركسيّتنا، والنظر الى تاريخ حزبنا من هذا المستوى.

جورج البطل: هل نكتب هذا التاريخ كما هو، كما جرى، حسب الوقائع التي توصّلنا الى معرفتها؟.. أم نكتبه لهدفٍ ما، خارج مجرى الوقائع وخارج معناها الموضوعي؟... رأيي يجب أن يُكتب تاريخ الحزب كما هو، الحقيقة كما جرت، وبرؤية موضوعية، وبنوع من التحليل والتفسير لا يحمّل الوقائع أكثر مما تتضمنه هي من معنى.

محمد دكروب: طبعاً، تجب كتابة تاريخ الحزب، كما هو، كما جرى، وبتحليل يعتمد الموضوعية... فهذا يخدمنا، راهناً ومستقبلاً ـ ولكن تجب كتابة هذا التاريخ ليس فقط برؤية موضوعية، بل كذلك برؤية نقدية ـ أي: أن نشير الى ما نراه، الآن، من أخطاء في الفكر وفي الممارسة، وأن نحاول الكشف عن جذور هذه الأخطاء، سواء في سلوك الحزب محلّياً أم في طابع علاقته أممياً... يجب تحليل **أسباب** الأخطاء لا **تبريرها**، كما ينبغي بالطبع تسجيل المنجزات، وتسليط الضوء عليها وتبيان عواملها، لا الإغراق مثلاً في مدح الذات، كما جرت العادة!! ـ لا بدّ من التأكيد أننا لم يعد باستطاعتنا أن نكتب هذا التاريخ إلا موضوعياً... فإذا لم نكتبه كما جرى، حسب ما توصّلنا الى معرفته من وقائع، وأن نكتبه من موقعنا كشيوعيين وبرؤية موضوعية... فسوف يكتبه آخرون لاحقاً، ومن مواقع أخرى وربما نقيضة (فحقل التاريخ مشاع أمام الباحثين، على اختلاف اتجاهاتهم)... وهم سيكشفون أشياء وأحداثاً طمستها قياداتنا السابقة، في سلوك يكشف الزمن عقمه وعبثيّته، وأيضاً لا أخلاقيّته!.. وكان على قياداتنا هذه أن لا تعمل على طمسها.. فأن نكشف نحن عن أخطائنا (وخطايانا)، وعن تلاعبنا نحن بوقائع التاريخ، تاريخنا، خير ألف مرة من أن يكشفها الآخرون، ويجابهوننا بها، من المواقع الأخرى، النقيضة، أو

المخالفة، أو... العدائية!

... هذا «المحضر» المجتزأ، يلامس بإيجاز وبتكثيف، قضايا أساسية في: كيف كان الشيوعيون يكتبون، وكيف صار ينبغي أن يكتبوا، بعد الآن، تاريخ حزبهم... ولم أجد في أرشيفي الشخصي غير هاتين الورقتين في هذا الموضوع... ولا أتذكر شيئاً من أي تصوّرات أخرى أو عملية خلص اليها هذا النوع من التداول!.. وحسب علمي فإنَّ أي لقاء آخر حول هذا الموضوع لم يحدث... وظل «الموضوع» بنداً يتكرّر إدراجه في توصيات المؤتمرات، ولكن دون دخول جدي في صُلبِ أفقه المحتمل!.. ربما لافتقارنا العملي أو العلمي، الى كادرٍ متخصّص في هذا المجال، أو ربما.. لرفع العتب!!

وهذا كله لا ينفي إمكانية أن يحاول هذا الباحث أو ذاك، وضع تصوّراته في هذا الموضوع، ورؤيته لتوجّهات كتابة هذا التاريخ... لعلّ وعسى!!

فاسمحوا لي، هنا، أن أحاول صياغة بعض البنود والاشارات الأولية في هذه الموضوعات، التي تحتاج ـ بالتأكيد ـ إلى إسهامات جدّية من باحثين ومؤرخين ومفكرين في التيار الماركسي أو من الباحثين الديمقراطيين الموضوعيين... فتاريخ الأحزاب الشيوعية العربية هو جزء أساسي في الحركة الوطنية العربية التحررية وسائر الحركات المناضلة من أجل التغيير الديمقراطي والتقدم والعدالة الاجتماعية.

● في حديث إذاعي لي عن «جذور السنديانة الحمراء»، قلت ما ملخّصه: إن محاولة أي كاتب شيوعي أو باحث ماركسي لكتابة تاريخٍ ما للحزب الشيوعي اللبناني ـ بأمانة موضوعية ـ ما كان يمكن لها أن تكون قبل تلك الثورة التحررية الداخلية التي حدثت في الحزب وتبلورت توجّهاتها في مؤتمره الثاني عام ١٩٦٨.

وكان التقرير الانتقادي المهم الذي أقره المؤتمر وصدر بعنوان: «٢٥ عاماً من نضال الحزب الشيوعي اللبناني في سبيل الاستقلال الوطني والديمقراطية والاشتراكية» يتضمّن الخطوة الطليعية الحاسمة في هذا المجال، وفتح أمامنا طريق القول الصريح، في هذا التاريخ، بحسب الوقائع التي تنكشف لنا من مسيرته، دون حذف أو طمس وتعتيم أو لعب بأحجام الأشخاص والأدوار والأحداث.

● فطوال المرحلة التي امتدت منذ النصف الثاني من الثلاثينيات، الى النصف الثاني من الستينيات ـ (حين تم الانفصال بين الحزبين الشيوعيين السوري واللبناني، وكانا ـ عملياً ـ يشكلان حزباً واحداً بقيادة أمين عام واحد هو: **خالد بكداش**) ـ كانت محاولات التأريخ الموضوعي لفترة تأسيس ونشوء الحزب الشيوعي السوري اللبناني، من المحرّمات!!... فالذاتية القيادية السائدة، والمتحكّمة، كانت تفترض وتؤدي الى: تضخيم الذات القيادية الراهنة، والشطب التام، وشبه التام، لأدوار الآخرين السابقين، المؤسّسين الروّاد خاصة، بدعوى أنهم... مارقون، مدسوسون، فوضويون، و... عملاء!!... لهذا فإن شطب أدوارهم وحذف أسمائهم، برأي هذه القيادة الجديدة، يجنّب الحزب تلك الأخطاء التي ارتكبها أولئك الرواد، فمن شأن هذه التدابير العجيبة أنها تصحّح ـ كما يزعمون ـ مسيرة الحزب الكفاحية، وتعزّز «سلامته وصلابته المبدئية»... ولله في خلقه وفي تصرّفاتهم الأنانية شؤون وشجون!!

فالتلاعب، إذاً، بوقائع التاريخ، حسب أهواء القيادة ورغباتها الذاتية، كان هو الأسلوب «الثوري» بامتياز: حيث يعمدون الى إيراد ما يرون أنه «يخدمنا» من وقائع!... وطمس ما يدّعون أنَّ كشفه «يخدم الأعداء»!!... فتكون النتيجة الفعلية: أننا، بتزوير تاريخنا هذا، نعطي الأعداء الطبقيين مبرراً كافياً وإمكانية عملية وموثّقة، لتشويهه (وهذا حدث فعلاً، وما كان يمكن إلاّ أن يحدث..)... وبهذا التلاعب بالتاريخ، تكون تلك القيادة الحزبية، المفترض أنها تنتسب الى الموضوعية والنهج العلمي، قد ابتعدت ـ عامدة متعمّدة ـ عن الموضوعية وعن العلم، وعن الوقائع، وعن حقيقة العلاقات والمواقف التي حكمت مسيرة الحزب، وحجبت ـ بهذا ـ عن الحزب، أولاً وبالأساس، دروس هذه المسيرة الايجابية والسلبية على السواء.

● على أن هذه «الفضيلة»، في التلاعب بالتاريخ، لم تتميّز بها قياداتنا وحدها، بل هي وصلت إلينا بالعدوى، وتوالدت بالغريزة الاستئثارية لدى هذا القيادي أو ذاك.

فإن معظم تواريخ الأحزاب الشيوعية التي كُتبت خلال الفترة الستالينية وما بعدها ـ سواء تاريخ الحزب الشيوعي السوفياتي أم غيره ـ هي، في جوانبها الأهم، **تواريخ حزب الأمين العام**، للفترة نفسها!!

والتغييرات التي كانت تجري، عادة، بين عهد أمين عام وآخر، كان من أبرز صفاتها

ـ أو ارتكاباتها ـ وضع تزويرات جديدة في مكان تزويرات سابقة، وحذف تلك الاستشهادات من أقوال الأمين العام السابق، وإدخال استشهادات مستجدّة من أقوال للأمين العام الجديد، تأخذ مكان تلك التي حُذفت!... وتالياً ـ وارتباطاً بهذا الواقع ـ يُصار الى حذف أسماء من المشاركين في المرحلة السابقة من تاريخ الحزب، والتخفيف من أدوار آخرين!... ثم، إعادة أسماء كانت محذوفة، وربما وصم أسماء أخرى بـ «التحريفية» أو الخيانة!.. وبالتلازم مع هذه التغيرات، يُصار بالضرورة الى تضخيم أدوار أسماءٍ صار لها نفوذ في العهد الجديد ـ (ومن يقارن، مثلاً، الطبعات المختلفة لتاريخ الحزب الشيوعي السوفياتي، بين عهد وآخر، يلاحظ بوضوح فاقع، هذا النمط من التغييرات والتبديلات، التي هي بمثابة التزويرات وليست قطُّ مجرّد إضافات!!).

وغالباً، أو دائماً، كان يجري، عبر البيانات الرسمية، والتقارير، والتقييمات، لوي عنق التاريخ العام، وإرغامه على التأكيد، وتكرار التأكيد، بأن: «الأحداث قد أكّدت صحة خط الحزب، والحكمة في الرؤى الثاقبة لأفكار الأمين العام»... الجديد!

● على أن انتقادنا تلك الأنماط من التغييرات، لا يعني، ولا ينبغي أبداً أن يعني، أو أن يؤدي، الى نوعٍ من القفز نحو الموقف الآخر، النقيض، كالقول، مثلاً، بضرورة وضع **صيغة نهائية** لتاريخ الحزب... بل العكس هو الأصح: إذ لا يمكن لتاريخ نشوء حزب وتطوره وتناميه إلا أن يكون مفتوحاً، ويستحيل أن ينحصر في صيغة نهائية... هو تاريخ يغتني دائماً، ويُعاد النظر في مختلف جوانبه ومراحله، باستمرار، وفي ما تتطلّبه موضوعية النظر العلمي من تدقيق، وتعميق في تحليل هذا المنعطف أو ذاك، وشمولية النظر الى ترابط الأحداث والتفاعل العضوي بين المسيرة الداخلية للحزب وبين المسيرة الأوسع للحركة الاجتماعية الكفاحية في البلاد.

(وهذه الحركة من الاكتشاف والتنامي والاضافات والتدقيقات، ليست تعني قطُّ، ولا هي تلتقي، ولا في أي وجه من وجوهها، بذلك النمط من التزوير الذي أشرنا إليه).

فالمسألة الأساس، هنا، أن الذي يضفي على كتابة تاريخ الحزب هذا الاغتناء والتغيير وإعادة النظر، ليس هو ذهاب أمين عام وصعود أمين عام جديد، بل هو، أساساً وتحديداً: اكتشاف ما كان مجهولاً، واكتشاف وثائق جديدة والكشف عن وقائع لم تكن معروفة، بل وحتى التوصّل الى تفسير جديد لهذا الحدث أو ذاك وهذه المرحلة أو تلك،

على صعيد النظرية أو المعنى السياسي. أي: أن ما يفرض هذه التغييرات والتدقيقات والاضافات في حركة التأريخ للحزب، هو المزيد من التعرّف والمعرفة، هو الرؤية الموضوعية الأحدث والأعمق الى حركة الأحداث العامة ومسارات الحزب، وليس قطُّ الرؤية الذاتية عبر ذلك التقديس المدائحي التقليدي لخطّة أي قيادة، والادعاء الكاذب والوقور بأن هذه الخطة هي دائماً، ويقيناً: «صحيحة وحكيمة وصائبة وذات نظر ثاقب بعيد وعميق»!.. وذلك، فقط، لأن هذه القيادة لا تزال على رأس القيادة!!

ولكن، بعد تلك الثورة الداخلية في الحزب، التي تبلورت آفاقها في وثائق المؤتمر الثاني عام ١٩٦٨، شعرنا أنه صار بالإمكان ـ حسب منطوق تلك الوثائق ـ أن يمارس الكتّاب والمفكرون في الحزب حرية التعبير والكشف، وكتابة ما هو مختلف، وقد لمستُ جدّية هذا التوجّه عبر ممارستي الشخصية في وضع كتابي هذا، بكامل الحرية ـ حسب فهمي لها في ذلك الزمان ـ فاقتنعنا بأنه صار بإمكاننا أن ننظر الى تاريخ حزبنا بعيون مفتوحة، وصار لا بدّ من أن ننظر الى هذا التاريخ، والى حركة النتاج الفكري، في الحزب، بعقلٍ نقدي ورؤية تحليلية، وتحاوُر فكري جدّي، وعدم حجب التساؤل والمساءلة والانتقاد القاسي.

على أن الزمان، في سيره العاصف، يصير غير الزمان.

ففي ذلك الزمان، ١٩٧٤، عندما استدعتني قيادة الحزب من حيث كنت في الاتحاد السوفياتي لأضع هذا الكتاب، كان يوجد في الدنيا وعلى خارطة العالم، بنيان هائل، بشري ايديولوجي وعسكري تكنولوجي، اسمه: الاتحاد السوفياتي.

وإذْ انهار هذا البنيان الهائل، في أواخر التسعينيات، صار الزمان غير الزمان:

دخلت جماعات اليسار كلها في أزمتها العميقة، ودخل عديد منها في متاهات ـ أو آفاق ـ المراجعات الفكرية السياسية، وإعادات النظر في السلوك وفي الفكر وفي النظرية على السواء، وكذلك إعادة النظر في تفسيرات أحداث التاريخ القريب للحزب وفي الكيفيّات التي كُتبت بها جوانب من هذا التاريخ.

ـ فكيف عليك، أيها «المؤرخ» الشيوعي، أن تقرأ الآن، أو أن تعيد قراءة تاريخ نشوء الحزب، كما كُتب، أو كما أنت كتبتَه؟

أو، بصياغة أخرى للسؤال: **لو كان عليك ـ الآن ـ أن تكتب تاريخ أي مرحلة من حياة الحزب، أو لو كُلّفت ـ الآن ـ بكتابة تلك المرحلة نفسها التي عملت عليها في «جذور السنديانة الحمراء»، فهل كانت هذه المحاولة ستختلف عن الإنجاز السابق؟...** أجيب: بالتأكيد **ستختلف**... بالتأكيد مكرّراً!.. لأن أية كتابة، الآن، لتاريخ الحزب الشيوعي اللبناني ـ أو لتاريخ أي حزب شيوعي آخر في أي مكان من العالم ـ صارت تستلزم، بصورة طبيعية، وبالضرورة، كتابة تاريخ **نقدي** لتاريخ الحزب، كما كُتب، وأيضاً ـ وبالأخص ـ كما مورس عملياً... وكذلك أيضاً بالنسبة للنتاج الكتابي في الثقافة والفكر والنظرية، على السواء... أي: رؤية العلاقات والمواقف والوقائع والأفكار و «الثوابت»، التي مارستها قيادات الحزب» عبر نظرة مختلفة، جديدة، راهنة، وانتقادية... ولا بد لهذه الكتابة الراهنة أن تطرح على نفسها، ومنذ البدء، تساؤلات أساسية، منها، مثلاً:

ـ **لماذا** سار الحزب، سياسياً واجتماعياً وفكرياً، خلال مرحلة ما، في هذه الطريق أو الخطة بالذات، وليس في طريق آخر وخطة أخرى، ربما تكون رؤيتها لحركة الواقع ومسار الأحداث، أكثر موضوعية وفاعلية وجدوى؟

ـ **ولماذا**، تالياً، سارت قيادات الحزب في طريق التسليم، أو الخضوع، للفكر الرسمي العام لقيادة الحركة الشيوعية (السوفياتية تحديداً) وبشكل حَرْفي، على الأغلب، وبدون تمايزٍ ما، ضروريّ... ودون التزام جدّي، أساساً وبالدرجة الأولى، بالضرورات والأوضاع والملابسات والظروف الموضوعية، الوطنية والقومية والمحلية والتاريخية للمنطقة العربية التي انبثق منها ويعيش فيها هذا الحزب... ولكن مع مراعاة الالتزام، طبعاً، بالتفاعل الأكيد والضروري مع الحركة الشيوعية العالمية وآفاقها؟

لنفترض معاً: إذا حدث أن أردتُ الآن، وأتاحت لي قدراتي العملية أن أكتب، أو أشارك في كتابة، تاريخ الحزب في مراحله المختلفة، فلا يمكن إلا أن أكتب (أو نكتب) هذا التاريخ برؤية نقدية انتقادية، لا تشمل فقط التحرّكات والمواقف وطابع العلاقة مع «المركز» السوفياتي، ومع سائر القوى السياسية في بلادنا... بل عليها، بالضرورة، أن تشمل في رؤيتها النقدية الانتقادية: **الفكر** الذي أنتجه الحزب ومثقفوه، وهو فكر كان يُنتَج ويُصاغ في ظروفٍ غير متاح للحزب فيها ـ ولا لأي حزب شيوعي آخر ـ أن

يكون حراً تماماً ومستقلاً من حيث علاقته هو ـ أو إسهامه الخاص ـ بالفكر الماركسي!... ذلك أن هذا الفكر الجماعي للحزب، أو حتى الفردي لهذا المفكر الشيوعي أو ذاك، كان مضطراً أن يُخضع استنتاجاته وطروحاته ـ والى حدّ كبير ـ لأوضاع و «ضرورات» و «ثوابت» الحركة الشيوعية العالمية (السوفياتية تحديداً) بأكثر جداً مما يدرس هو الأوضاع الاجتماعية التاريخية والظروف الخاصة الوطنية القومية المحلية لمجتمعه هو بالذات، بدايةً، وبالدرجة الأولى!

وبمثل هذا الشكل من الارتباط التَبَعي للفكر، لا يُنتج الحزب ـ ولا المفكر الماركسي ـ فكراً ماركسياً... أي: لا ينتج **إسهاماً عربياً** في حركة الفكر الماركسي!

● ولعلّ التجارب والتحولات قد أشارت، وأوضحت،، ما كان من المفترض ممارسته منذ البداية، وهو: أن لكتابة تاريخ حزب شيوعي ما، في إطار هذا الحزب نفسه، شروطاً عديدة: فإضافة الى الأمانة الموضوعية والتدقيق التوثيقي وشمولية الرؤية الى الترابط والتفاعل والتجذّر في حركة الواقع الوطني القومي، ينهض أمامنا شرط أوّلي، أساسي وبديهي لأية كتابة معاصرة لتاريخ حزب شيوعي ـ في إطار الحزب نفسه، كما قلنا ـ.. هذا الشرط هو: **الديمقراطية**.

ـ أي: وجود الديمقراطية، أولاً، في الحياة الداخلية للحزب.

ـ وتالياً، وبالضرورة، على الصعيد الكتابي: **التعامل الديمقراطي** مع تاريخ الحزب نفسه.

وهذا التوجّه يُفترض أن يتجلى في التزام هذا **التعامل الديمقراطي** مع تواريخ مختلف الأشخاص المشاركين في المسيرة التكوينيّة للحزب (وهي مسيرة لا تتوقّف ولا تنتهي، منذ التأسيس الأول وعلى مدى زمان الحزب... فالحزب الشيوعي هو باستمرار ـ أو عليه أن يكون باستمرار ـ في حالة **صيرورة**...).. والديمقراطية هذه تقضي بضرورة إلقاء الضوء على الأدوار الفعلية لهؤلاء الأشخاص حتى في حال خروجهم من الحزب، أو على الحزب، وحتى لو خانوا أو اتُهموا بخيانة الحزب... فليس لأي قيادي ولا لأي مؤرخ، الحق ـ (وهو لن يستطيع على أي حال) ـ أن يحذف دور هذا أو إسهام ذاك في مسيرة الحزب، فهذا الدور هو حدث **موضوعي**، يستحيل شطبه ـ (فسوف يأتي آخرون يذكرون الاسم والدور، بهذا القدر أو ذاك من الايجابية أو السلبية... وفي هذا

دلالة ملموسة على **عبثية** ذلك الشطب الغبي!!) ـ وفي هذا السياق من التوجّه، يصير من الضروري: أن يعمد المؤرخ الحزبي، أو التقرير القيادي، الى تحليل **ظروف** هذا الدور ـ سلباً أو إيجاباً ـ وتبيان **أسباب وعوامل** هذا السلوك أو ذاك لصاحب هذا الدور.

وقد يتبيّن، مثلاً، أن ذلك الدور السلبي الذي نُسب الى هذا أو ذاك لم يكن، في واقعه وحقيقته، كما شُبّه لهم أو كما شبّهوه هم لنا!.. وقد يتبيّن العكس!...

وأمثال هذه الحالات ليست قليلة، ولعلّ أبرزها مثال الاتهامات الكاذبة والمفبركة قصداً، التي ألصقت بالمناضل العمّالي فؤاد الشمالي، القائد المؤسّس للحزب الشيوعي اللبناني ـ السوري، ورفيقه المناضل في الجبهة الثقافية يوسف ابراهيم يزبك، وبآخرين غيرهما: سليم خياطة، مثلاً، ورئيف خوري ومثقفين آخرين معه.

ـ ولا بد لهذا التوجّه الجديد في التأريخ للحزب الشيوعي من أن يتجلّى أيضاً، في: ضرورة التعامل الديمقراطي ـ العلمي، الموضوعي، والنقدي الانتقادي التحليلي ـ مع طروحات الحزب الفكرية والنظرية نفسها، وممارسات الحزب السياسية والعملية.. فتحوّلات الزمان، وتراكمات التجارب، من شأنها أن تكشف الخطأ كما تؤكّد الصواب.

ـ ثم: ضرورة التعامل الديموقراطي مع **الأفكار الأخرى**، مع الحقل الفكري السياسي العام الذي يعيش ضمنه الحزب ـ مصارعاً أو محاوراً أو متحالفاً ـ ونعني بهذا: أفكار سائر الأحزاب الأخرى، والتيارات، والطروحات، وما يفترضه هذا التعدّد من **تلاوين** الأشياء والمواقف والأفكار، وليس اختصار هذه التلاوين أو اختزالها وحصرها في معادلة بائسة: إمّا أسود وإمّا أبيض، فقط!!

....

[هنا قد تبرز أمامنا أسئلة من خارج سياق الموضوع المحدّد لهذا القسم من المقدمة، منها ما يتعلّق، مثلاً، بالأحزاب الأخرى... ألم تتوسّل، هي أيضاً، مثل هذه الأساليب نفسها من التزوير؟.. أليست تواريخ تلك الأحزاب الأخرى، والجماعات، والطوائف والأقوام وتواريخ الجماعات الدينية والفرق، ملأى بشتى أنواع الحذف والشطب والإضافة والتضخيم والتخفيف والاختراع والأسطرة ونسج حكايات لم تحدث، وأعاجيب للخيالِ فيها الدور الأساسي؟...

هذه كلها أنواع من التزوير لم تسلم من ممارستها أحزاب وجماعات وفرق وطوائف. ولا يسلم منها الكثير من «مؤرّخي» هذه الجماعات، منذ تشكّلاتها وحتى يومنا هذا.

على أن الموضوع الذي نقاربه، هنا، وننقده وننتقده هو كيف كُتبت وكيف صار يمكن أن تُكتب، تواريخ الأحزاب الشيوعية.. وهو ما نعود الآن إليه:]

ولعلّي أسمح لنفسي أن أتجاوز حدودي «اللبنانية» الى أفقي العربي الأوسع، وأطرح، في هذا السياق من الإشكالات، سؤالاً أعتقد بأنّ القارئ يطرحه على نفسه، وعلى قيادات الأحزاب الشيوعية العربية الشقيقة: .. **فهل صار ممكناً أيضاً، في زمننا هذا، كتابة تواريخ لهذا الحزب الشيوعي العربي أو ذاك، من منطلق الموضوعية، والتعامل الديمقراطي؟**

– في رأيي (وحسب ما أتيح لي أن أقرأه في هذا المجال): أن **الانتقائية** لا تزال هي الغالبة!.. وهذا يتجلّى عبر واقع تسليط الضوء، مثلاً، على مرحلةٍ ما، لإبراز ممارسةٍ ما، لشخص ما، وحجب الضوء، أو تخفيفه، عن مرحلة أخرى، أو حتى شطبها، كأنها لم تكن!!. إضافة الى تعزيز الميل لتجنّب التحليل والتعليل والتفسير لما هو سلبي، مثلاً، وما هو إيجابي، ربما، وما هو إنجاز حقيقي!.. والاكتفاء بسرد وقائع شبه مجرّدة، ومنتقاة، من هنا، ووقائع مجتزأة، من هناك!!. تتحكّم بها تلك النزعة الغريزية، الملحاحة، العقيمة والساذجة، لتبرئة الذات من أخطاء، وخطايا، ارتكبها... الآخرون!!

– ولعلّي أرى: أن **الديمقراطية**، داخل هذه الأحزاب، لا تزال تعاني امتدادات من السلوك القديم!.. ذلك أن مسار التعوّد على الممارسة الديمقراطية، لدى إقرارها، في البيانات والقرارات (وإيهام النفس بعدم الخوف من ممارستها، عملياً) هو مسارٌ طويل متعرّج وصعب جداً، خاصة بالنسبة للقيادي الشيوعي الذي مارس طويلاً السلوك الستاليني اللاديمقراطي، وتجذّر فيه!

... وحتى إذا غيّر هذا القيادي الشيوعي أو ذاك موقفه السياسي، وغادر موقعه الحزبي، وأكد قناعاته بليبراليّة جديدة ما، أو ديمقراطية أخرى، مختلفة، مقرّراً التزام هذا الخط الجديد سلوكاً وهدفاً، تظلّ في جوانب من سلوكه العملي آثار من ذلك التعوّد العريق على تلك الممارسات الستالينية العتيقة، حتى وهو في موقعه الآخر، الجديد، والنقيض لتلك الستالينية التي يدينها باستمرار، إما اقتناعاً ربما، وإمّا... كما يمنّي النفس!!

● ولعلّ من بين أهم متطلبات كتابة تاريخ معاصر وديمقراطي، لحزب شيوعي، في لبنان وسائر البلدان العربية، أن يتضمّن مقاربة ما، جديدة وموضوعية، ونقدية أيضاً، لتاريخ **النتاج الفكري الثقافي، الماركسي**، للحزب... سواء بواقع ارتباط هذا الفكر (سابقاً) بالمركز (من توجّهات الكومنترن وتوجيهاته، الى «الطروحات النظرية» لقيادات سوفياتية، مثلاً).. أم بالارتباط الضروري لهذا النتاج الثقافي الفكري للحزب بأفكار زمانه وقضاياه، وطنياً قومياً وعالمياً، وارتباط هذه الأفكار، بالأخص، بالأشخاص المنتجين الفاعلين في هذا المجال، ومدى إسهام هذا النتاج الثقافي الفكري بحركة التفاعل والتداخل المفترض بين الفكر الماركسي والتراث الفكري الفلسفي لشعوبنا والحركة الثقافية العربية المعاصرة.

ولكن، الى أي مدى كان النتاج الفكري للحزب، في مجال **النظرية الماركسية** نفسها، يتناسب مع المسيرة النضالية للحزب وتجاربه الغنيّة بالمعارك، على مدى ثمانين عاماً، ومع الدور الضروري المفترض لفاعلية الفكر في هذه المسيرة، ومع النتاج الثقافي العام، الفعلي والمتحقّق في إطار الحزب؟

إذا أعدنا القراءة في هذا التاريخ الثقافي للحزب، لنتعرّف إلى حركة النتاج الفكري الماركسي، في مجال النظرية تحديداً، وعلى مدى السنوات الثمانين للحزب، لرأيناه فقيراً جداً في هذا المجال بالنسبة لما كان يمكن أن يكون... لَوْ!..

على أننا سوف نرى، في جانب آخر منه، حركة نتاج غني واضح وملموس، على صعيد النتاج الثقافي العام، في المجالات الأدبية خاصة، والدراسات النقدية، والأبحاث في التراث الفكري العربي القديم والنهضوي، والأبحاث التاريخية، والكتابات في الفكر السياسي.

ولا شك في أن هذه النتاجات تتفاعل، بهذا القدر أو ذاك، مع مطالعات عامة في الماركسية وفي الثقافات العالمية والتقدمية عموماً، وهذا أحد مصادر غناها وحداثيّتها، ولكن المقاربات النظرية الماركسية لهذه المجالات الكتابية ولقضايا التركيب المجتمعي الطبقي وتحوّلاته، وللصراعات الاجتماعية.. هذه المقاربات النظرية أقل من قليلة!

ومن ناحية أخرى سوف نرى أن مسيرة الحزب غنية جداً، ومنذ الأعوام الأولى، **بالعلاقات** الوثيقة، ثقافياً وسياسياً، بالأدباء والمثقفين اللبنانيين والعرب، وهذه العلاقات

كانت تتجلّى على صفحات الجرائد والمجلات الثقافية العديدة التي أصدرها الحزب منذ جريدته الأولى «الانسانية» عام ١٩٢٥، ثم جرائد «الصرخة» و «الأخبار» و «النداء»، والمجلات الثقافية: «الدهور» و «الطليعة» و «الطريق» و «الثقافة الوطنية»، وكذلك دور النشر والنوادي الثقافية التي شارك فيها الحزب أو أشرف على بعضها... وهي جرائد ومجلات وإصدارات كتب ومحاضرات، لا يمكن التأريخ للحركة الثقافية العربية عموماً دون التوقّف مع مجمل تلك الحركة الثقافية للحزب من نتاجات وعلاقات وغنى ثقافي مضيء وفاعل ومتقدم.

ولكن السؤال عن مدى تناسب النتاج في مجال **النظرية الماركسية** مع هذه المسيرة النضالية الحافلة بأحداث كفاح ملحمي، وأيضاً مع غنى وتنوّع النتاج الثقافي في إطار الحزب، يظلّ قائماً. وقد يتطلّب بعض **التفسير** في محاولة ما لتجنّب **التبرير**.

هل أغامر بالقول أنه كان ثمة، على مستوى القيادة، ما يشبه الاقتناع أو التسليم بأن الماركسية هي نظرية **مكتملة**، هناك، نستعير منها ما يُعار لنا من قِبَل «القيّمين الأمناء» عليها في «المركز» حيث يكون المركز، في الكومنترن حيناً، أو القيادة السوفياتية، غالباً، أو حتى في عهدة بعض «العلماء ـ المستشرقين ـ السوفيات» العارفين، هم، في **«ما هي الأمة»** أكثر من أولئك الماركسين والمثقفين والمناضلين من أبناء الأمة نفسها! ـ (وهذا حدث فعلا...، فأدّت فتاوى هؤلاء «العلماء... العارفين» الى انقسام تنظيمي واسع في جسم الحزب الشيوعي السوري، حول الرؤى الفكرية لمفهوم **الأمة**، والطروحات حول قضايا الوحدة العربية... ومستقبل البلدان العربية هذه!!)..

كما أن تلك المحاولات الجادة، لانتاجٍ جديدٍ ما، وغير حَرْفي، ويمكن أن يشكّل إسهاماً ما، في حقل النظرية الماركسية انطلاقاً من خصوصيات التركيب التاريخي الاجتماعي الطبقي والصراعات السياسية في مجتمعاتنا العربية نفسها... هذه المحاولات كانت شبه محظورة، أو هي غير مرحَّب بها، أو يُصار الى التحفّظ عليها، خشية أن ينزاح هذا الإسهام أو ذاك عن ذلك «الخط العام»، وعن حَرْفية الأصول الماركسية (أو الاصولية الماركسية) وعمّا هو متعارَف عليه من تعاليمها، أو تعاليم «الأمناء عليها»!!

فهكذا انزياح يكون عقابه، غالباً: الإزاحة!

وهذا ما حدث، عندنا، طوال الفترة المديدة من قيادة خالد بكداش للحزب، فتمّت

إزاحة عدد من المفكرين المجتهدين الطامحين فعلاً الى القيام بمحاولات لوضع دراسات ورؤى ماركسية لأوضاع بلادنا ومجتمعاتنا العربية، وتوصّل بعضهم الى استنتاجات وأفكار تختلف، بهذا القدر أو ذاك، عن ذلك «الخط العام» أو تلك «التعاليم» - (ومن الطبيعي أن تختلف طالما هي تبحث في أوضاع مختلفة، **والاختلاف** عنصر ماركسي أساس، في مثل هذه الحالات) - وإذ حاول هؤلاء المفكرون نشر رؤاهم هذه أو طرحها في صيغ من الفَرَضيّات والتساؤلات، كان يُصار الى شطبهم، هم وأفكارهم، من تاريخ الحزب، ويصار الى طردهم من الحزب بوهم طردهم من... التاريخ!! (من هؤلاء، مثلاً: الأديب المفكر سليم خياطة، الكاتب الباحث رئيف خوري، الباحثون المفكرون: ياسين الحافظ والياس مرقص وغيرهم..).

وعندما يطرح المؤرخون الشيوعيون على أنفسهم ذلك السؤال: لماذا لم يُتَح لمفكرينا أن ينجزوا إسهاماً جدياً في النظرية الماركسية؟... تكون محاولتهم الاجابة عنه قد تضمّنت، ولا شك، إسهاماً في معرفة «السرّ» وكذلك في تحرير هذا الفكر من كوابحه، بما لا بد من أن يؤدي الى انطلاقه وتفتّحه وتجديده.

وعندما نتصدّى، إذاً، للكتابة في التاريخ الفكري الثقافي للحزب، فليس علينا أن نكتفي بسرد الوقائع وإيراد الأسماء وتبيان المنجزات، بل لا بد أيضاً من طرح الأسئلة والتساؤلات على تاريخ الحزب في هذا المجال:

من هذه التساؤلات الاشكالية، مثلاً:

- **لماذا** تطورت، أو أعيق تطور، هذه الأفكار أو تلك، في هذا الاتجاه المحدد، مثلاً، لا في ذاك؟

- **ولماذا** نجد، في المجال الثقافي الفكري للحزب، بعد هذا الزمان الطويل، أن طابع الترجمة (بمعناها الواسع، أي: الاستعارة من إنجازات فكر الآخرين، والتقيّد شبه الحَرْفي بها، وليس التفاعل، الضروري، معها).. هذا الطابع قد حَكَم - أو غلب على - «فكرنا» الماركسي، في بلادنا العربية، على حساب ما هو خاص، إبداعي وجديد، في المجال النظري والمعرفي؟..

- **ولماذا** تجنّب الباحثون الشيوعيون العرب، غالباً، الخوض في الدراسات الضرورية لتبيان الطابع الخاص (والعام) في التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية في بلادنا العربية

نفسها، ولم يوجّهوا اهتماماً جدياً ـ في ضوء مفاهيم ماركسية بالطبع، ولكنها تكتسب خصوصيّتها بالتجربة ـ لصياغة رؤية واقعية موضوعية لخصائص الطبقات والفئات الاجتماعية عندنا، ومستويات وعيها الطبقي السياسي، وأشكال الصراعات الطبقية السياسية الاجتماعية في بلادنا بالذات؟..

ـ **ولماذا** اكتفى الأكثرون من هؤلاء المفكرين والباحثين العرب باستخدام تلك المفاهيم **الجاهزة والمتكوّنة، هناك**، عن الطبقات، والصراع الطبقي، وأشكال الصراعات... وعمدوا الى صبّها، هنا، في قوالب من الصياغات العامّة، المجرّدة، المتعالية على خصوصية التكوّن الطبقي المعيّن، في الواقع التاريخي الملموس لهذا البلد أو ذاك؟..

ـ **ولماذا**، مثلاً، ابتعد مسار الحزب، عندنا، عن توجّهات تلك الوثيقة الهامّة والمتميّزة ـ المكثّفة جداً، والأشبه بعناوين استراتيجية لقضايا ونضالات ومعضلات راهنة ـ الصادرة عام ١٩٣١، والتي هي بعنوان: «مهمات الشيوعيين في الحركة الوطنية العربية»؟.. ولعل تلك الوثيقة من أهم ما كُتب، عندنا، في القضية القومية للشعوب العربية، من وجهة نظر ماركسية، تضع هذه المسألة القومية ـ منذ ذلك الوقت المبكر ـ في واقعها التاريخي الملموس، في إطار عصر الامبريالية وسيطرتها، واكتساب النضال للتحرّر القومي، والتوحيد القومي، صفة النضال الوطني المباشر ضد الامبريالية... وترفع شعار الشيوعيين الأساسي، منذ ذلك الزمان: النضال من أجل التحرر والاستقلال الوطني والوحدة القوميّة. (فمن الضروري، في زماننا هذا، قراءة النص الكامل لتلك الوثيقة، وهو منشور في «ملحق النصوص»، الصفحات من **٥٢٥** الى **٥٣٦** من هذه الطبعة)... فقد يشاركنا القارئ، في طرح التساؤل عن أسباب إهمال قيادات الحزب لتلك الوثيقة، والابتعاد عن طروحاتها، وكأنها لم تكن!... بدلاً من تطوير تلك الطروحات، ورؤاها الطليعية، كحافز نضالي شعبي وهدف استراتيجي، والعمل على صياغة تُمرحل مساراتها النضالية، بهدف أن تصير أكثر واقعية، أي أكثر تجذّراً في العمق من طموحات الشعوب العربية.

ـ... ومتابعةً لهذا السياق نفسه من التساؤل والمساءلة، ينهض أمامنا هذا السؤال: لماذا جرى التمسّك شبه الحرّفي بأفكار وأحكام الآخرين ـ (بعض الماركسيين الفرنسيين، مثلاً، في زمان ما... والمنظّرين السوفيات في الأزمان الأخرى!) ـ حول **مفهوم الأمة**، ولم يجرِ البحث جدّياً، عندنا، في المجال العملي والمجال الفكري النظري،

في المسألة القومية هذه، ومفهوم الأمة، في ضوء تاريخنا نحن، وانطلاقاً من خصائص زماننا نحن، وخصوصية هذه المسألة نفسها، في إطار الزمان الكوني العام، وبالتفاعل معه؟

... وهكذا، يمكن متابعة الأسئلة وطرح التساؤلات على التاريخ الفكري للحزب، في أخطائه ومنجزاته... ولكن عندما نحاول البحث في **أسباب** هذا الخطأ أو ذاك، فمن الضروري أن نخفّف من - أو نتخلّى عن - إتكائنا على تلك العادة «الفكرية» الكسولة والسيئة التي تشكّل الوجه الآخر للتبعيّة، والتي تتجلّى في اللجوء الى **تبرير** الخطأ القديم، بجديدٍ من الاعتبارات التي صارت متاحة، كأن نقول، مثلاً، أن ذلك الخطأ هو من نتاج الخطأ الأصلي المتأتّي عن الإلتزام بتوجّهات الحركة الشيوعية العالمية، والقيادة السوفياتية!.. فتلك التوجّهات، إذاً، هي المسؤولة، ونحن برآء!!... وإذا حدث أن قصّر مفكرونا في مجال الانتاج النظري، فلأنهم - بهذاوحسب تفسيرهم هم - كانوا يعتمدون النتاج النظري الصادر عن الحركة الشيوعية العالمية، وذلك تجنّباً - منهم - للخطأ الفكري والعملي... وتجنباً لوجع القلب وجهد الدماغ!!... فالنظرية قد صيغت، هناك، وإذا تأكّد، أو جرى تأكيد خطئها، فمسؤولية هذا الخطأ تعود الى... هناك!... فنحن، إذاً، أبرياء!!

....

[... أفتح هنا هلالين واسعين لأقول: أن ندرة الانتاج، عندنا، في مجال النظرية الماركسية، والبحث في خصائص التركيب الطبقي والصراعات الاجتماعية السياسية في مجتمعاتنا العربية، لا يعود الى ندرة القدرات الفكرية عند مفكرينا، بل يعود - أساساً وتوهّماً - الى تلك الرهبة التي كانت، رهبة خوف الخطأ، أو خوف الاتهام بتحريفيّةٍ ما، وتالياً خوف الإزاحة من هذا الحقل النضالي الذي اختاره هؤلاء المفكرون حياةً لهم... والعبرة بما كان يحدث لمفكرين آخرين، حُجر على أفكارهم، أو عوقبوا بالإهمال، أو أُبعدوا عن حزبهم الذي كان تطوره يشكّل روح عملهم الفكري!

فالسبب الأساس في ندرة الإقدام على المغامرة الفكرية، التي هي حياة الفكر، يعود - بنسبة كبيرة منه - الى كون هذه القضية الحياتية لأي مفكّر ماركسي ولأي تطور في نضالية الحزب وفي اغتنائه المعرفي، لم تُطرح جدياً في **جدول أعمال** الحزب

نفسه، والقيادات الحزبية وكوادره الفكرية، أو هي لم تُقابَل بالتشجيع والتحفيز، بل كانت تجابَه بالحذر والبرودة، بما يعرقل الخطى أمام غير المقدامين في المغامرة والمقتحمين في هذا المجال!

خوف الخطأ، والخوف من إنجاز ما يمكن أن يوصف بانه خطأ، أو خطيئة، جعل المغامرة الفكرية في مجال النظرية نادرة الحدوث في المسيرة الفكرية للحزب!

ولكن، عندما أتيح للقضية الفكرية أن تجد طريقها الى **جدول الأعمال**، خاصة بعد تلك الثورة الداخلية للحزب، التي بلورها المؤتمر الثاني عام ١٩٦٨، رأينا أن القدرات الفكرية كانت تحتاج، لتنطلق وتنتج وتعطي، الى مثل هذه العملية في إزاحة الكوابح من مساراتها، وامتلاكها حريتها، وازاحة المحرّمات والتابوات من طريق المغامرة الفكرية أو الاقتحام، وتالياً التحريض على المغامرة الفكرية بدون تخوّف أو حذر.

● فليس دون دلالة، أن المفكر الفيلسوف **مهدي عامل**، ما كان بإمكانه أن يُنتج ما أنتج من جديدٍ ـ أو مختلف ـ في النظرية الماركسية عندنا، لو لم يتمتّع بواقع الحرية والتشجيع، والحق في الانتاج الجديد المختلف وفي الخطأ، فأعطى العديد من الكتب والطروحات السجالية، في القلب من الفكر الماركسي عندنا، وقلب الحركة النضالية والفكرية، وأثار زوبعة من السجالات حتى مع القيادة الحزبية التي لم تكن متوافقة تماماً مع بعض طروحاته الأساسية، وكانت قيادات في الحزب تساجله شفاهياً، ولكنها في الوقت نفسه، تشجّعه على مواصلة الانتاج والمغامرة الفكرية، عملياً.

● وليس دون دلالة أيضاً، أن مجلة «**الطريق**» الثقافية الفكرية، التي يصدرها الشيوعيون، فتحت صفحاتها ـ مع انطلاقة تلك المرحلة نفسها ـ للسجال النقدي الانتقادي حتى مع الطروحات الرسمية للحزب الشيوعي، وبين المفكرين الشيوعيين أنفسهم، وأفسحت المجال لمفكرين من المواقع الأخرى، المختلفة أو النقيضة، أن تساجل على صفحات «الطريق» نفسها، الطروحات الفكرية والممارسات السياسية للحزب الشيوعي، بما لم تكن المجلة تفسح له مجالاً واسعاً أو بارزاً، على مدى سنواتها العديدة السابقة.. هذا المناخ من الحرية الرحبة، ساعد على تنامي حركة فكرية غنية وجريئة في مجالات البحث والنقد والدراسات والابداع وفي النظرية الماركسية على السواء... وكانت صفحات مجلة «الطريق» تحديداً هي التي قدّمت الى الفكر العربي:

طلائع الجديد النظري لمهدي عامل، باجتهاداته السجالية في حقل الفكر الماركسي، والجديد الفكري لحسين مروة في مجال الأبحاث في التراث الفكري العربي، التي شكّلت مقدّمات لمشروعه الكبير الذي صدر بعنوان: «النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية» (١٩٧٨).

●... ومما له دلالته الكبرى، في هذا السياق، أن هذا العمل الموسوعي الكبير الذي أنجزه حسين مروة (النزعات المادية...) الذي وُصف بانه **ملحمة فكرية**، ما كان له أن يُنجز ويظهر الى النور، لو لم تُهيّئ له قيادة الحزب كل ظروف إنتاجه: فقد تفرّغ حسين مروة لإنجاز هذا العمل الكبير **بقرار من الحزب**، وتأمّنت له سُبُل الذهاب الى معهد علمي في موسكو لوضع هذا الكتاب بالذات، **كمهمة حزبية** عرف حسين مروة، المفكر والمناضل، كيف ينجزها، بجهد العقل وسهر العينين وتعب الجسم والأعصاب، ومتعة البحث والاكتشاف معاً... وعندما عاد الى لبنان ليشرف على طباعة المجلد الأول، قدم النسخة الأولى من هذا المجلد الى قيادة الحزب بمثابة **تقريره الفكري الحزبي الأول** الى اللجنة المركزية للحزب، وتبعه لاحقاً المجلد الثاني الذي قدمه أيضاً بمثابة **تقريره الفكري الحزبي الثاني**.

● وإنني أشعر بكثير من الاعتزاز والامتنان لكون تلك القيادة نفسها أتاحت لي الفرصة وكلّفتني بوضع هذا الكتاب (جذور السنديانة الحمراء) الذي أعتزّ به، لأسباب كثيرة جداً، من أهمها: أن الحزب منحني الحرية الكاملة ـ (أقول: الكاملة) ـ في تقييم الأشخاص المؤسّسين وأدوارهم، دون أي تقيد أو اعتبار لما مضى من اتهامات ألصقتها بهم قيادات حزبية مستجدّة، حينئذٍ، وأعطت لنفسها الحق في شطب أدوارهم وأسمائهم، وصولاً الى التعتيم المعيب والمقيت على كامل تلك المرحلة التأسيسية من حياة الحزب، التي كان هؤلاء الروّاد الشجعان هم أبطالها الطليعيون، المؤسّسون، وبالأخص فؤاد الشمالي (القائد المعلّم) حسب وصف رفيقه القيادي الآخر، الصحافي المثقف ـ والمؤرخ لاحقاً ـ يوسف ابراهيم يزبك، الذي لحقته أيضاً «شآبيب» من تلك الاتهامات والمظالم نفسها!..]

●●●

... وعندما أخذتُ بتجميع المراجع والوثائق، ومراكمة الأحاديث والوقائع، والتأمّل في

مجريات الأحداث، والتوغّل في المناخات الاقتحامية خلال المرحلة الأولى ذات الروح الملحمية، التي مهدت لتأسيس الحزب، وأسّست لانطلاقته في خوض المعارك النضالية منذ الأيام الأولى... رأيتُ أن من بين مهمّاتي المعرفية والنضالية والحزبية: أن أجهد لإنصاف أشخاص أُتّهموا، والكشف عن أدوار تمّ شطبها، وإزاحة العتمات المصطنعة عن تلك المرحلة الريادية.

وبموافقة وتشجيع من قيادة الحزب، في تلك المرحلة التغييرية من تاريخه خلال السبعينيات، بذلتُ كل الجهد البحثي التفتيشي، لتبيان الدور الشجاع للريادي فؤاد الشمالي، سواء في مصر ووجوده النضالي في القيادة الشيوعية هناك، ثم خصوصاً في لبنان (بما سوف يتعرّفه القارئ خلال صفحات هذا الكتاب)... وبذلتُ الجهد، بكثير من الحب والاعجاب والتقدير، لتبيان الدور التمهيدي لذلك الرومنسي الحالم (يوسف ابراهيم يزبك) الذي أخذ في بذر أفكار الحلم الاشتراكي، قبل تأسيس الحزب الشيوعي، بما أسهم عاطفياً وأدبياً ومعرفياً، بالتمهيد لتأسيس هذا الحزب الذي شارك هو في تأسيسه وتولّى مهمة أمانته العامة خلال العام الأول لانطلاقته، وتركه بعد وقت قصير من تأسيسه، ولكنه ظلّ مشدوداً إليه، ولو من بعيد، بحنين يعود به دائماً، الى تلك السنوات الأولى.

وكما تبيّن لنا، في فقرات سابقة من هذه المقدمة، نعيد القول، بالملموس من الوقائع: أن لا أحد يستطيع، مهما علا وتحكّم، أن يشطب ـ نهائياً ـ دور أحدٍ من الذين أدّوا أدواراً مهمّة في تاريخ الحزب وتاريخ الحركة الكفاحية، ولا يستطيع ـ بشكلٍ أخصّ ـ أن يقفز عن المرحلة التأسيسية بكاملها... كأنها لم تكن!!...

فهذه المحاولة المقيتة والتزويرية، إنما تتّصف بالسذاجة التاريخية، وبالتوهّم، والتصرف الصبياني، كما تلك النعامة الطويلة الرقبة التي تدفن رأسها في الرمال، حتى لا يراها القادم نحوها!..

والوقائع التي يكشفها هذا الكتاب، مثلاً، وغيره من الأبحاث والمقالات والكتب التي تناولت وتتناول تلك المرحلة التأسيسية نفسها، تؤكد ـ بسخرية التاريخ القاسية ـ عبثية تلك المحاولة القمعية والعقيمة.

ودائماً، سوف يأتي كتّاب ومؤرّخون، من داخل الحزب نفسه ـ أو من خارجه ـ

«يشطبون» هم أفعال الشطب تلك، يدينونها، يفضحون فيها تلك الذاتية الساذجة... فتستعيد تلك الوجوه الطليعية، النضارة التي هي لها، والتي لم تستطع كل مظالم القمع والشطب وظلمات التعتيم، أن تخفي الأسماء والوجوه وأدوارها ونضارتها الباقية.

●●●

ولكن السؤال الراهن الذي يؤرقني فعلاً، ويحيّرني كثيراً، وأنا أقدّم هذه الطبعة الجديدة الى القارئ، هو: **كيف يمكن أن يرى هذا القارئ الجديد الى هذا الكتاب، الآن، بعد مرور ٣٣ عاماً على صدوره، وبعد أحداث زلزالية في حركة التاريخ، وانهيارات نظام سوفياتي هائل، وأنظمة معسكر اشتراكي كامل واسع المساحة مدجّج بالقوة؟...** وفي الوقت نفسه فأن هذا القارئ سوف يرى - عبر صفحات الكتاب - أن حزباً شيوعياً عريقاً، في هذا البلد الصغير (لبنان) قد ارتبط - منذ بداية البداية - بنظام ثورة اكتوبر الاشتراكية، وبدولة الاتحاد السوفياتي تالياً، وكان جزءاً عضوياً في حركة أممية واسعة كانت فصائلها تتواجد وتتآزر في مختلف بلدان العالم... فانهارت هذه التجربة كلها، هناك...

ومن حق هذا القارئ الجديد أن يطرح - أيضاً - على هذا الكتاب، وعلى مؤلفه، هذا السؤال الفكري المعرفي والإشكالي: **لو أن المؤلف قد كُلّف، الآن، بكتابة هذا التاريخ نفسه، لتلك المرحلة التأسيسية الأولى نفسها، كيف كان يمكن أن يكتبه؟**

لا شك أن قارئ هذا الكتاب - الآن - سوف يلمس بوضوح: ذلك **النَفَس البولشفي** الحماسي الرومنسي، المتداخل مع روحية الكتاب في سرد الأحداث. فالكتاب هذا قد وُضع في النصف الأول من السبعينيات، أي زمان الحضور القوي للاتحاد السوفياتي في العالم، وفي بلادنا، وحتى في بنيان الأحزاب الشيوعية، وفي زمان النهوض العارم للحزب الشيوعي اللبناني نفسه، وصيرورته مكوّناً أساسياً في الحركة الوطنية اللبنانية وحركة التحرر العربية... والكتاب كان يشكّل - مع غيره من الكتب والنشاطات والأعمال الفنية - جزءاً من العناصر الاحتفالية في الذكرى الخمسين لتأسيس الحزب الشيوعي اللبناني.

فكان **التفاؤل الانتصاري** هو السائد في روحية الكتاب كله، ويعكس نفسه حتى على تلك المرحلة التأسيسية (١٩٢٤ - ١٩٣١) التي شكّلت، بذاتها، حدثاً تاريخياً انتصارياً في حركة الكفاح التحرري اللبناني العربي.

فكيف كان يمكن أن تكون **لهجة** الكتاب لو أنه، مثلاً، كُتب الآن؟

الوقائع التاريخية هي الوقائع نفسها، مسرودة بأقصى ما توصّل إليه الكاتب من جهد توثيقي: فكل حدث رواه الكاتب، هنا، مُسْنَد وموثّق بوثائق محددة، وبأقوال أناس من أبطال الحكاية نفسها، وحتى هذه الأقوال كان الكاتب يعمد الى مقارنتها بوثائق أخرى، من خارجها (بيانات ـ أقوال صحف ـ فقرات من كتب ـ فقرات من رسائل قديمة عتيقة ـ أقوال ناس آخرين، الخ...).

فالوقائع، إذاً، هي الوقائع نفسها... ولكن **المناخ** السياسي الاجتماعي ـ خلال السبعينيات ـ الذي صيغت في غمرته تلك الوقائع، هو الذي يختلف... هو غير **المناخ** الذي يمكن أن تُكتب تلك الوقائع في سياقاته الآن... وصارت الرؤى النقدية الانتقادية أكثر بروزاً وملموسية، في زمن صرنا نرى فيه غير ما كنّا نراه، وأكثر مما كان يتاح لنا فيه أن نراه، وأوضح مما كنا نراه.. وكذلك فان **التحليل الحديث** للحدث بعد ذلك الانهيار المدوي هو، بالضرورة وبالواقع، غيره أيام وُضع فيها الكتاب... فقد صار يُتاح للكاتب ـ الآن ـ أن يرى البذور البعيدة لهذا الانهيار حتى في تراكمات تلك الوقائع والأحداث البعيدة، الخ... كل هذا كان من شأنه أن يجعل كتابة هذا التأريخ نفسه، تختلف بالتأكيد!

الوقائع هي الوقائع نفسها... ولكن **تفسير** تلك الوقائع نفسها يختلف بين زمان وزمان، بين إمكانات كانت محدودة للرؤية، وإمكانات أزيحت من أمامها الحدود... فصار بإمكان الكاتب ـ الآن ـ أن يرى في إزاحة أمين عامٍ ـ (هو فؤاد الشمالي، جريء، واقتحامي، حرّ، مرتبط بالفئات العمالية خصوصاً، و «متهور» في بعض حالاته) ـ وحلول أمين عام آخر، تخرّج حديثاً في مدرسة حزبية في موسكو، وجاء الى البلاد ليصير بسرعة أميناً عاماً ـ أميناً ومضموناً! ـ ويُعتمد عليه!.. صار يمكن للكاتب أن يرى أن هذا الحدث ليس عفوياً، وأن الصراع بين «الشخصين»، واتهامات هذا لذاك ليست مجرّد صراع فردي!.. المهم أن الكاتب هنا ـ كما أي كاتب آخر يتناول الحدث نفسه ـ صار يملك حرّية **التفسير** دون أي ضغط من أعلى أو من الخارج، بل من قدرته هو على الرؤية والتفسير الأقرب الى الموضوعية التاريخية، وإلى القناعات التي تكوّنت لديه خلال القراءة في الوثائق.

الوقائع هي الوقائع نفسها... ولكن **تفسيرنا الراهن** لها هو الذي يختلف!.. واضح من سياق الكتاب: أن تقييم الكاتب لهؤلاء الروّاد كان معياره الغالب هو مدى الارتباط الفكري والعاطفي لهذا الريادي أو ذاك، بالروح الأممية وبمركز الحركة الشيوعية في ذلك الحين، وهذا معيار أراه صحيحاً تماماً، في حينه... على أن هذا الارتباط نفسه بالأممية، في تلك البدايات، كان يؤدي في مساره الى نوعٍ من الاتكاء على الطروحات والتوجّهات ـ أو التوجيهات ـ الفكرية للمركز، والى نوع من الابتعاد عن ضرورات الرؤية الأكثر تجذّراً، لمتطلّبات الواقع الاجتماعي والصراعات الاجتماعية على الصعيد المحلي الوطني، مما أدى، لاحقاً، وفي المراحل التالية لفترة التأسيس، الى أخطاء كارثية على مستوى النظرية والممارسة معاً.

الوقائع هي الوقائع نفسها، ولكن التفسير الذي أرى أنه **لم يختلف**، بل لعلّي أرى أنه، في الأغلب، **لن يختلف**، هو ذلك التقييم ـ السياسي الاجتماعي الثقافي ـ الذي سمح للكاتب أن يرى في تلك الأحداث التي مهّدت وأدّت وكوّنت تلك المرحلة التأسيسيّة لحزب جديد من نوعه في زمانه ـ وعلى مدى السنوات الكفاحية اللاحقة ـ هي أحداث مجيدة بالفعل، ملحمية الطابع والروح، سواء على مستوى الوقائع نفسها، أم على مستوى الرؤية الروائية لها.

وهذا بالذات، ما أعتزّ بأنني تمكّنت ـ بالجهد والكدح والتعب ـ أن أنجز الصورة الأولية له، فينفتح الأفق ـ كما أرجو ـ لأنواعٍ وأنواع من الرؤى التاريخية، شبه الروائية، لأحداث هذه المرحلة الريادية الغنية، ولأحداث المراحل اللاحقة في تاريخ حزب شيوعي، سواء في حالات الصعود أو المراوحة أو احتدام الصراع أو التأزّم أو الجهد النضالي الطامح الى صعودٍ جديد... فمن طبيعة هذا الحزب ـ بالجهد النضالي والفكري الدائمين ـ أن يظلّ في حالة من الصيرورة والتطور طالما هو متجذّر، ويتجذّر، في روح هذا الشعب وشرايين هذا الوطن.

•

إشارة أولى (إضافات): من طبيعة كتب التأريخ، وبالأخص التأريخ للمرحلة الريادية لحركةٍ كفاحية ما، أن تظل مفتوحة للاضافة أو التدقيق أو التوضيح، تبعاً لأي كشفٍ جديد يعثر عليه الكاتب... وقد أدخلتُ في

هذه الطبعة الثالثة، بعض الإضافات التي لم تكن معروفة لي سابقاً، وأجريت تدقيقات وتحديدات لبعض التواريخ والأسماء... ولكني لم أعمد قطُّ، ولن أعمد لاحقاً، الى إجراء أي تغيير في متن الكتاب، ولا أي تعديل في تفسير هذا الحدث أو ذاك، وبالأخص في روحية الرؤية الاحتفائية بملحمية تلك المرحلة من حركة نشوء الحزب الشيوعي اللبناني.

إهداء

إشارة ثانية (الاهداء): هذا الكتاب، في طبعته هذه، أهديه مجدّداً، وللمرة الثالثة، **الى شباب الحزب الشيوعي، والى الشباب الكثر المتعاطفين مع الحزب**، علّه يساعدهم في التعرّف على تلك المرحلة الريادية في تاريخ الحزب الشيوعي اللبناني... ولعلّي أرى أن التأمّل الجديد في تلك الفترة الأولى، قد يقدّم لشبابنا الحاليين معرفةً جديدة بأساليب وطرائق في النضال، وبأنواع من الشجاعة والإقدام، وبتلك الرومنسية والاندفاع الكفاحي العاطفي الذي لا بدّ منه لأية عقلانية كفاحية معاصرة، تناضل من أجل الحرية والديمقراطية والتغيير والتقدم الاجتماعي في لبنان.

(أواخر نيسان ٢٠٠٧) **محمد دكروب**

الحـــــــــــــــزب

الحزب الشيوعي: هو حزب العمال والفلاحين وجماهير الكادحين والمثقفين الثوريين.

وقد ارتبطت نشأته في لبنان: بنمو الطبقة العاملة اللبنانية وخوضها النضال الطبقي والنضال السياسي في مقاومة الاستعمار، وبتأثير انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى التي وجّهت الضربة الأولى للنظام الرأسمالي والاستعماري، وأعطت الطبقة العاملة وسائر الكادحين مثالاً حياً للنضال الظافر في سبيل التحرر من مختلف أشكال الاستثمار ومن الحروب.

وهدف الحزب: تحويل المجتمع تحويلاً ثورياً إلى الاشتراكية وبناء المجتمع الاشتراكي، مسترشداً في سبيله إلى هذا الهدف بنظرية الاشتراكية العلمية: الماركسية ـ اللينينية. فالاشتراكية وحدها تكفل القضاء على التخلّف الاجتماعي في بلادنا وتضمن تحرير الشغيلة اجتماعياً وسياسياً وفكرياً بتسلّم تحالف الشغيلة السلطة السياسية، بقيادة الطبقة العاملة، وبإلغائه الامتيازات الطبقية وبتحويله ملكية وسائل الانتاج إلى ملكية اجتماعية تضع الخيرات المادية والروحية للمجتمع في أيدي خالقي هذه الخيرات.

(من مقدمة «برنامج الحزب الشيوعي اللبناني» ـ تموز ١٩٦٨)

مقدمة الطبعة الأولى

كلمـات في الشكل
كلمات في المضمون

هذه حكاية وليست «تاريخاً»!. سوى أن أحداث هذه الحكاية هي أحداث حقيقية، جرت في أزمان محددة، وقامت بها فئات محددة، وبرز خلالها أشخاص معيّنون ومعروفون، وبعضهم يعيش الآن بيننا.

لست مؤرخاً، ولكنني راوي أحداث أحببتُ القائمين بها.

ثم إن طبيعة هذه الأحداث نفسها (طابع الريادة فيها. طابع الجِدّة، والغرابة. امتزاج الحلم بالمعرفة وبالعلم، لدى القائمين بها. الطابع الصدامي لهذه الأحداث. ظهورها، منذ البداية، كمعارك. وكون الروّاد فيها هم الطرف المستقبلي في حركة الصراع الاجتماعي الدائر) أقول: طبيعة هذه الأحداث نفسها، جذبتني إلى **جانبها الملحمي** ـ أعني بالملحميّ هنا: امتزاج حركة الصراع الطبقي بالمعرفة، وبالوعي، وبالحلم، معاً ـ فإذا ما أكتبه هنا أقرب أن يكون **حكاية معاصرة**، وليس «تأريخاً» كما هو متعارف عليه في كتابة التاريخ.

□ □ □

لقد تقيّدت، هنا، بالوقائع والتواريخ وأقوال الأشخاص وبالإسناد ـ العلمي ـ إلى

المراجع، والصفحات، والسنوات، والأيام، وأحياناً أسماء هذه الأيام، وأحياناً تحديد الساعة ــ تقيّداً صارماً، وبقدر ما أتاحته لي المراجع المتناثرة في بطون المكتبات والصحف وذاكرة الأشخاص.

ولكنني لم أتقيد، مطلقاً، بالسرد الزمني المتوالي للأحداث (كأن أبدأ، مثلاً، من يوم الجمعة ٢٤ تشرين أول ١٩٢٤، وأتابع السرد شهراً فشهراً فشهراً... حتى نصل بالعافية إلى ٧ تموز ١٩٣١)... فهذه الطريقة السردية لا تتيح لأحداث حكاية، من هذا النوع، أن تأخذ مختلف أبعادها، والمعنى الذي يراه فيها راوي الأحداث، خصوصاً عندما يكون بإمكانك أن تقول المعنى، لا من خلال الرأي المجرّد، بل من خلال **مونتاج الوقائع**.

فخلال تعرّفي الأوّلي على الوقائع، في الكتب والصحف وذكريات الأشخاص، كنت مأخوذاً بما أراه من علاقات، وتشابهات، بين أحداث جرت في أزمان مختلفة.. وكنت مأخوذاً بواقع أن حدثاً ما، وقع عام ١٩٢٥ مثلاً، قد يجد معناه (الروائي والتاريخي والمعرفي: أي الملحمي) في حدث آخر وقع عام ١٩٧٤، أو عام ١٩١٦ مثلاً، إذا عمدتُ إلى عملية **مونتاج** بسيط لهذين الحدثين، أو لهذه الأحداث الثلاثة أو أكثر.

وخلال عملية الكتابة وجدت أن **مونتاج الوقائع** (الأصح: مَنْتَجة الوقائع) في العديد من فصول الكتاب، يقوم بدور أشبه بدور ضابط **الايقاع العام** للحكاية. فإذاً ما هو سائد في الكتاب، من ناحية الشكل، ليس ما هو سائد في الطريقة المتواضع عليها لكتابة التاريخ عندنا: سرد، متوالٍ، للأحداث، في تسلسلها الزمني!.. بل هو شيء آخر، فالراوي يسمح لنفسه ــ كما في الحكاية، وكما في السينما الحديثة ــ أن يقطع السرد فجأة، ويقفز إلى الماضي أو إلى المستقبل أو إلى حدث آخر مجاور في الزمن ــ يعطي لما يرويه **معنى** لا يعطيه السرد المتوالي.

أما مدى استطاعة الراوي أن يوصل إلى القارئ ــ خلال هذا الشكل ــ المعاني التي رأى أنها موجودة في الأحداث، والمعاني التي يريد هو إيصالها، فهذا شيء آخر، يملك صلاحية الحكم، له أو عليه، القارئ وحده!... بانتظار هذا، فإن يد الراوي على قلبه!.

أعود إلى التأكيد: **كل الوقائع في هذا الكتاب، هي وقائع حقيقية**، مُسندة بالتواريخ

والأرقام والمراجع، وما أعطاه الراوي خلال الصياغة هو ـ عدا المونتاج، وبعض التفسير ـ محاولة رسم **الجو** الذي تحرّك فيه الحدث (الجو النفسي للناس والأشخاص ـ وجو الطبيعة المحيطة) حتى هنا، اعتمد الراوي كثيراً على المراجع، من كتب وصحف وأشخاص. مثلاً، يبدأ الكتاب بجمله: «**شمس أيار تضيء ساحة الشهداء**»... كان هذا يوم أول أيار عام ١٩٢٥. من الطبيعي، في أيار، وفي النهار، أن تكون الشمس في عزّ سطوعها.. ولكن، صدفة، قد تُمطر السماء!.. فأصغيتُ إلى أحاديث أرتين مادويان ويوسف ابراهيم يزبك، وكانا من صانعي ذلك اليوم وشهوده، فوردت **الشمس** كثيراً في أحاديثهما، كواقع في ذلك اليوم، وكرمز أيضاً ـ فعمد الراوي إلى التأكيد: «شمس أيار تضيء ساحة الشهداء»...

□ □ □

ولكن، إلى أي مدى نستطيع التأكيد ـ حتى بعد تعب المقارنة وربط الأحداث بالمواقف ـ بأن كل الوقائع التي وردت في هذه الحكاية إنما جرت بالشكل الذي تهيّأ لنا أنها جرت عليه؟..

ما كُتب عن هذا الموضوع ليس كثيراً. هو أقلّ من القليل!. وهذا القليل مكتوب من مواقع ومواقف متناقضة، وأكثرها من مواقع ومواقف عناصر معادية للحزب الشيوعي، أو هي على خلاف معه، أو صارت على خلاف مع بعض قادته، فإذا الأحداث والوقائع تتخذ عندهم، حتماً، شكلاً مغايراً لما هي عليه، واذا عملية طمس الوقائع، وتزوير «وقائع» أخرى، وتفسير ما لا يمكن طمسه بما يتناقض مع طبيعته. هذه العملية هي السائدة في هذا النوع من الكتابات.

يضاف إلى هذا: الخلط في ايراد التواريخ، والأسماء، والأمكنة، والأحداث، بشكل اعتباطي ـ حتى عند بعض الحزبيين ـ الأمر الذي يتطلّب منك جهداً مضنياً، اضافياً، وغير ممتع بالطبع، لضبط الوقائع والأسماء والأرقام، و «تظبيطها»، خصوصاً إذا كنت، أنت الراوي الذي تكتب حكاية، قد ألزمتَ نفسك أن تصل إلى أقصى ما تستطيع من الدقة والمسؤولية، في ايراد الوقائع.

ومن المهم الاشارة الى: أن وثائق وبيانات الحزب الشيوعي العائدة خصوصاً إلى

تلك الفترة الأولى (١٩٢٤ ـ ١٩٢٨) مفقودة كلها تقريباً، نتيجة الملاحقات والمطاردات والاعتقالات والمصادرات ـ فصار لا بد من التفتيش عن أصداء هذه البيانات والوثائق وملخّصاتها في صحف تلك الفترة...

وذهب الراوي يراجع مجموعات الصحف القديمة في المكتبات العامة، وكثير من هذه المجموعات مفقود، وأحياناً بعض ما تريده بالذات، كان موجوداً، وضاع، بالضبط، في الوقت الذي أنت بحاجة ضرورية إليه ـ فتشتم.. «القدر القاسي»!...

وذهب الراوي إلى ذكريات الناس العتاق، ينبش في ما هو غامض وما هو واضح من هذه الذكريات.. «خمسون عاماً مضت... فكيف تريدني أن أتذكّر الوقائع، والأسماء، والأرقام أيضاً؟». ـ وكانوا يتذكرون، أحياناً بدقة مذهلة، كأنهم كانوا يعرفون، في تلك اللحظات البعيدة السعيدة، أنهم يقومون بعمل تاريخي، وأنهم سوف يروون أحداثه في المستقبل.. وعثرنا على أوراق عتيقة.. بعض مذكرات، وبعض كراريس، وبعض نشرات كانت سرية وكانت تُطبع على الجيلاتين.. وعثرنا، أحياناً، على أسطر قليلة، في صحف قديمة عتيقة، خمسة أسطر أحياناً، كانت تضيء، أو تكشف، حدثاً تاريخياً هاماً.

تاريخنا العربي الحديث ـ على كثرة ما كُتب عنه وحوله وفيه ـ لم يُكتب بعد!.. على أن هذه مسألة أخرى تحتاج إلى بحث آخر.

ما يهمنا، هنا، هو أن الأكثرية الساحقة لما كُتب حول تاريخنا العربي الحديث، تَطمُسُ بشكل شبه تام، مختلف التحرّكات الشعبية في بلادنا: من حركات الفلاحين ضد الاقطاع، إلى حركات الجماهير ضد العثمانيين، إلى حركات المقاومة الشعبية، في لبنان، ضد حكم الانتداب الفرنسي، خصوصاً في السنوات الأولى التي قيل عنها: إنَّ الشعب اللبناني رحَّب فيها بالانتداب!! فكيف الأمر عندما يتعلق بتاريخ الحزب الشيوعي ونضالاته؟[١]..

---

(١) صدرت مؤخراً بعض كتب تشكل معالم هامة في الكشف عن هذه النضالات الشعبية، نذكر منها: «حكاية أول نوار» ليوسف ابراهيم يزبك ـ «الحركة النقابية في لبنان ١٩١٩ ـ ١٩٤٦» لجاك كولان ـ و «تاريخ لبنان الاجتماعي» للدكتور مسعود ضاهر. وكان قد صدر الجزء الأول من كتاب: «لبنان في محيطه العربي» لفؤاد قازان ـ و «الحركة العمالية في سوريا ولبنان ١٩٠٠ ـ ١٩٤٥» للدكتور عبدالله حنا.

وبعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب، صدرت في هذا السياق، عدة كتب منها: «تاريخ الحركة =

فهل ننتظر من كتّاب التاريخ الرسمي، البورجوازي، «الموضوعي»، أن يُدرجوا في «تاريخهم» تاريخ نضالات الحزب الشيوعي ضد نظام حكمهم البورجوازي؟.. إن طمسهم هذا التاريخ، وتشويههم له، والتزوير عليه، هو جزء من «موضوعيتهم» البورجوازية، جزء من الصراع الطبقي.

فتاريخنا العربي الحديث إذن ـ كما جرى هذا التاريخ ـ لم يُكتب بعد!.

فعليكَ أيها الراوي، أن تحرث في أرضٍ بكر، وأن تتحمّل كل النتائج، والأخطاء، بما فيها احتمال الوقوع في ما وقع فيه غيرك من خلط بين الوقائع والأرقام والأسماء والتواريخ. المهم أن تبذل أقصى ما عندكَ من جهد، علّكَ تصل إلى أقلّ مما عندهم من أغلاط... وسر على بركات الهدف الذي وُضِع أمامك: **وضع كتاب ليس أكثر من حكاية تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني، ترفعه هدية إلى الذكرى الخمسينية للحزب، والى الرفوف الجديدة التي جاءت إليه في السنوات الأخيرة، فلا بد لها أن تعرف تاريخ حزبها، وتتعرّف على نضالات الرواد الأوائل.**

... وكان هذا الكتاب: محاولة أوليّة، تحمل كل ما في المحاولات الأوليّة من عدم نضوجٍ، واحتمال ارتكاب الأخطاء، ولذة الاكتشاف معاً.

ليس تاريخاً، إذن، هذا الكتاب، بل هو حكايةٌ أحداثها حقيقية.

وبالطبع، فإن طريقة رواية هذه الأحداث تطمح أن تستضيء بمنهج المادية التاريخية في رؤية حركة التاريخ، وضمن هذا فإن الراوي لم يحاول طرح مقولات تاريخية معيّنة ثم يختار من الأحداث ما يُبرهن عليها.. كما لم يحاول استخلاص مقولات معينة من خلال الأحداث.. بل هو يحاول أن يرى كيف تحرّكت الأحداث في واقعها، ووقائعها، حسب استطاعته وحسب المراجع التي أتيحت له، وأن يرى علاقاتها بأحداث قبلها أو أحداث بعدها أو أحداث حولها، تحرّكت وتتحرك، في حقل من الصراعات الطبقية حدَّد لها طابعها ومسارها.. واذا ظهر هنا أو هناك، في بعض صفحات الكتاب، استخلاص لمقولات معيّنة من خلال بعض الأحداث، فذلك لأن جوهر هذه الأحداث نفسها يتجلى كمقولة. ثم، أليست الحركة نفسها، ديالكتيكية؟

= العمالية والنقابية في لبنان ـ ١٩٠٨، ١٩٤٦ (الجزء الأول) و١٩٤٧، ١٩٧٠ (الجزء الثاني) ـ للنقابي الياس البواري ـ و «القضية الزراعية والحركات الفلاحية ـ ١٨٢٠، ١٩٢٠ (القسم الأول) و١٩٢٠، ١٩٤٥ (القسم الثاني) ـ للدكتور عبدالله حنا.

ربما يرى البعض أننا نحمِّل بعض الأحداث أكثر مما تحتمل.. ربما.. ولكن ألا يمكن أن تبدو روايتنا لبعض الأحداث كما لو أنها «مضخَّمة» هكذا، لأن التاريخ الرسمي لم يلقِ ولا يلقي، عادة، الضوء على «هذه الأحداث».. فهي ليست تاريخه!. لهذا، عندما نكشف هذه الأحداث نبدو وكأننا نحمِّلها أكثر مما تحتمل، أي: أكثر مما تعوَّدنا أن نقرأ عنها في التاريخ الرسمي، البورجوازي ـ فنحن نسلط الضوء «أيضاً» على «هذه الأحداث».. لأنها تاريخنا نحن، تاريخ حركة الشعب الكفاحية، التاريخ الحقيقي للتاريخ!

□ □ □

وبعد، لا بد من الاشارة إلى نقطة أرى أنها مهمة:

ليس الهدف، من هذه الحكاية ـ وليس من طبيعتها على كل حال ـ الدخول في تفاصيل حول أخطاء هذا أو ذاك من هؤلاء الروّاد. هذه المَهَمَّة، المُهِمَّة، لا بد أن يتناولها آخرون يتوفّرون على دراسة هذا التاريخ وكتابته، كتاريخ. إنما الهدف من هذه الحكاية هو، بالضبط، وبوضوح: **تمجيد المسيرة الأولى، المجيدة، لولادة حزب مكافح**.

وقد يبدو أنني أكتب بروح حُبّ لهؤلاء الذين صوَّرتهم، فلم أكتب عنهم ببرودة المؤرخ «الموضوعي»!.. أعترف!.. فخلال التفتيش المضني والممتع عن الوقائع، أحببت هؤلاء الرواد. ومن حقي، كشيوعي، أن أحبهم حتى قبل رحلة التفتيش هذه. أحب مغامراتهم، أحلامهم، اقتحامهم، بسالتهم، وحدانيتهم وسط بحرٍ معادٍ، في سنوات النشأة الأولى.. أحبّ منجزاتهم، وكبواتهم، وأخطاءهم، وإنسانيتهم.. ارتكبوا أخطاء؟.. نعم!.. منها، كما قيل، طرح شعارات في غير أوانها، أحياناً!!.. ومنها أنهم لم يوجدوا لنا حزباً ملائكياً، صافياً، **جاهزاً**، يسير كالساعة... بل أوجدوا حزباً شيوعياً، أرادوه، وتخيّلوه، حقيقياً. والحزب الشيوعي الحقيقي ـ كالإنسان الشيوعي الحقيقي لا يوجد **جاهزاً**، بل هو **يصير** شيوعياً، باستمرار!.

ثم، من قال إن الموضوعية هي في التأمّل البارد للأحداث، بدون انحياز طبقي، عاطفي وفكري، إلى هذا أو ذاك، هذه الفئة أو تلك؟ إن هذا (الحب ـ الانحياز)، هو صفة أصيلة لموضوعيّتي في كتابة حكايتهم. فإذا كان التاريخ الحقيقي هو تاريخ الصراع

بين الطبقات ـ وهو كذلك ـ فإن رواية تاريخ هؤلاء الرواد، بهذا الضوء، ومن هذا الموقف، هي جزء موضوعي، من حركة الصراع الطبقي نفسه.

فكيف تريد لحبّي هؤلاء، وانحيازي الموضوعي، لهم ولحركتهم، أن لا يبرز؟

الحب، هنا، هو الموضوعية نفسها.

بهذا الحب، صيغت حكاية هؤلاء الروّاد الأوائل، المكافحين، الحالمين الكبار، المناضلين حتى يتحقق الحلم، هنا، كما تحقق في وطن «حالم الكرملين» ـ حسب وصف الكاتب الانكليزي ويلز للينين وقد روى له، بعد الثورة مباشرة، أيام الضيق والجوع، حلمه العظيم بكهربة البلاد السوفياتية كلها ـ فأحلام الحالمين الكبار هي التي تتحقق، لأنها تقوم فوق قاعدة من العلم والمعرفة وقدرة كشف حركة التاريخ باتجاه المستقبل.

□ □ □

هذه هي جذورنا، ضاربة في أعماق شعبنا، وأعماق التاريخ. تأخذ صلابتها من هذا الشعب نفسه، وتأخذ حركة تناميها، من المستقبل.

صفحات حب للجذور، **أرفعها إلى الذكرى الخمسينية للحزب، وأقدمها إلى شباب الحزب** ـ بالمعنَيَيْن ـ أغصان سنديانتنا التي كبرت، وتكبر، حتى تصير هذه الأغصان بحجم هذا الوطن، وتظل جديرة بهذا الشعب، وبهؤلاء الرواد ـ الجذور، وبالمستقبل.

(أيلول ١٩٧٤)

محمد دكروب

مقدمة للطبعة الثانية

(١٩٨٤)

كلمات عن تاريخ الحزب وصيرورته موضوعاً للمعرفة

... عشر سنوات، بالضبط، مرت على صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب الذي يروي حكاية نشوء الحزب الشيوعي اللبناني.

خلال هذه السنوات العشر، تنامى الحزب ـ في مجرى السنوات العاصفة هذه نفسها ـ وتنامى، أيضاً، في الماضي!..

كيف هذا؟

يهمّني هنا، وحسب موضوع هذا الكتاب، تفسير: كيف أن الحزب يتنامى ـ أيضاً ـ في الماضي؟

عندما أنهيت كتابة الكتاب (عام ١٩٧٤) لم أنتهِ، بالطبع، من متابعة الاهتمام بموضوعه... فواصلت البحث والتفتيش، واستجواب الأشخاص، للتوصل إلى وثائق ووقائع لم تكن بين أيدينا قبلاً.

وبالفعل، فقد توصّلنا، خلال هذه السنوات العشر، إلى العثور على العديد من الوثائق ـ ومنها وثائق ثمينة جداً، وكانت مجهولة تماماً، وغير منشورة ولا في أي مصدر ـ وتراكم لدينا الكثير من الوقائع، وفيها وقائع تضيء هذا الجانب أو ذاك من جوانب تاريخ الحزب، ووقائع تفضي إلى تفسير جديد، أو مختلف، لهذا الحدث أو ذاك من الأحداث التاريخية في حياة الحزب وحياة البلاد.

يضاف إلى هذا: أن الاطلاع على هذه الوثائق المكتشفة، ثم استمرار النقاش المفتوح، بين العاملين في هذا المجال، حول عدد من المراحل والمحطات والقضايا، في تاريخ الحزب ـ يتيح لهؤلاء التوصّل إلى وضوح أكثر في رؤية بعض الأحداث، والى فهم أوسع أفقاً، وأحياناً أعمق مدى، لهذا الموقف أو ذاك من المواقف التي أعلنها الحزب في هذه المرحلة أو تلك. ثم الوصول، تالياً، إلى تقييم جديد، وتفسير جديد، وأحياناً مختلف، لهذا الموقف أو ذاك من مواقف الحزب، ولهذه القضية أو تلك، من قضايا هذا التاريخ الغني، والمعقّد، والغامض أحياناً، والاقتحامي والمجيد في مختلف الأحوال.

وتكتشف، خلال هذه العملية الممتعة، أن تاريخ الحزب، سواء في الماضي البعيد أم القريب، أم في الحاضر، هو جسدٌ حي، في حركةِ تشكُّلٍ مستمر، وفي حركة تنامٍ مستمر أيضاً.

وتصل إلى اقتناع بأن الحزب الذي يتنامى، عدداً، وفكراً، وفاعلية على الأخص، وتأثيراً في الأحداث وفي الجماهير، والذي لا يحبس فكرة في قوالب حديدية ـ (الفكر المنحبس، أي الجامد المتجمّد، يبطل أن يكون فكراً، يموت) ـ هذا الحزب، المتجدّد، هو الذي يتنامى، أيضاً، في الماضي... فإذا تاريخه لا ينحصر في وقائع أو في صفحات محددة ومحدودة نهائية «كاملة».. بل هو تاريخ يغتني باستمرار، مع اكتشاف كل وثيقة مجهولة، وكشف كل واقعة لم تكن معروفة.. وخصوصاً مع تزايد المعرفة بهذا التاريخ، والفهم، المتجدّد، له.

.. فالحزب ـ إذن ـ يتنامى، أيضاً، في الماضي.

[أقدّم مثلاً واحداً بهذا الصدد: «قديماً» كان يجري القفز بسهولة عجيبة، فوق المرحلة، الطويلة والمجيدة، الممتدة من سنة ١٩٢٤، حتى سنة ١٩٣٢ من تاريخ الحزب!.. ففي مختلف الكتابات الحزبية ـ الرسمية! ـ التي كانت تقدِّم موجزاً لتاريخ الحزب، بين حين وحين، كانت تتكرّر أو تتردّد ـ وبدون تردد! ـ جملة تتخذ هذا الشكل أو المعنى: «في ٢٤ تشرين الأول (البعض يصرّ، للتمايز ربما!، على يوم ٢٨) من عام ١٩٢٤، تأسس الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا... وفي عام ١٩٣٢... الخ...»!... أمّا ما بين الأعوام ١٩٢٤ و١٩٣٢... فلا شيء!.. لا شيء، اطلاقاً!.. ولكن هذه الفترة بالذات، التي كان يُقصد طمسها، تعسّفاً، قَصَدْنا نحن ـ

وتقصّدنا ـ أن نرود مجاهلها... فإذا بين أيدينا وقائع وأحداث ونضالات ريادية اقتحامية مجيدة، ملأت أكثر من ٥٠٠ صفحة (من القطع الوسط) هي صفحات الطبعة الأولى من كتابنا هذا نفسه، الذي «صدف» أن اكتشفنا ـ بعد كتابته ـ وثائق ووقائع أخرى كانت مجهولة.. فلو أضفنا خلاصاتها إليه لتجاوزت صفحاته الـ ٧٠٠ صفحة بالتأكيد.

فالمهم، في هذا المجال: **من أي زاوية ترى إلى تاريخ الحزب؟** من خلال حضور ـ أو الشطب على وجود! ـ شخص أو أشخاص، أم من خلال التكوّن التاريخي للجسد الحي للحزب كله وللبلاد؟ ومع تزايد المعرفة بهذا التاريخ].

□ □ □

والآن، كيف علينا أن نتعامل مع هذه الوثائق والوقائع التي حصلنا عليها وعرفناها واكتشفناها، خلال هذه السنوات العشر، حتى لا تغيب عن هذه الطبعة الثانية من الكتاب؟

هل نضيفها، هكذا، إلى النص المكتوب؟ هل نكتفي بمجرّد الاشارة إليها؟ هل نعيد كتابة بعض الفصول من الأساس، بحيث يتغير شكل التركيب البنائي للكتاب/ الحكاية؟

عام ١٩٧٤، خلال الرحلة المضنية والممتعة، سعياً وراء الوثائق والوقائع، لوضع كتاب عن نشوء الحزب الشيوعي اللبناني، كنت أقرأ في الوثائق والوقائع وأتخيّل، في الوقت نفسه، كيفية تحويلها إلى كتاب.

كانت أشكال الكتابة تتوالد...

ومنذ البداية، وجدتُ أنه يستحيل عليّ ـ ولست مؤرخاً ـ أن أكتفي بمجرّد سردٍ تسلسلي للوقائع والأحداث.

وعندما رأيت أنه تجمّع لديّ ما يكفي، في ذلك الوقت، لوضع كتاب يؤرخ (الأصح: يروي) تلك المرحلة الأولى من تاريخ الحزب... بدأت رحلة معاناة التفتيش الداخلي عن شكل الكتابة، التركيب العام للكتاب، وكيف عليّ (وقد تعوّدت أشكالاً معينة تختلف عن النمط المتواضع عليه لكتابة التاريخ) أن أكتب تاريخ نشوء الحزب؟.

وإذْ أعدتُ قراءة الوثائق والمراجع، وعمدت إلى تصنيفها، وأرشفتها، وتبويبها، والتعليق عليها، ومحاولة استيعابها وفهم ظروفها، والنقاش فيها مع رفاق آخرين ـ اكتشفت أن هذه

المادة نفسها تبني شكل كتابتها، تفرض عليّ شكل الكتابة، **المادة خلقت شكلها**، وكان الراوي هو الأداة.

وخلال الكتابة، أخذت الأشكال التفصيلية تتوالى... حتى تمّ تشكيل الكتاب، فجاءت رواية الأحداث والوقائع الحقيقية، أشبه بنشيد تمجيد للمسيرة الأولى، المجيدة، لولادة حزب مكافح.

... حتى الآن، فإن هذا الشكل الذي فرضته المادة نفسها، لا يطرح أمامي مشكلة إعادة النظر فيه، أو إعادة تشكيله.

ولكن المسألة هي: ان تاريخ نشوء حزب هو **تاريخ مفتوح**. يستحيل أن ينحصر في صيغة نهائية، محددة ومحدودة. فانت مُلْزَم، لدى اكتشاف ما كان مجهولاً أو ضائعاً أو غير معروف من الوقائع والوثائق، أن تعيد النظر بهذا الجانب أو ذاك من جوانب الكتاب: تصحّح المعلومات هنا، وتضيف جديداً منها هناك، وتعيد النظر حتى بهذا التفسير أو ذاك للأحداث...

على أن ما تجمّع لديّ من وثائق كانت مجهولة أصلاً، ووثائق كانت ضائعة، وكُتب جديدة أضافت جديداً إلى المعرفة بتاريخ تلك المرحلة المعيّنة نفسها، ووقائع مأخوذة من ذكريات عدد من المسهمين في صناعة تلك الأحداث – هذا الذي تجمّع، هو كثير بحيث يستحيل اضافته، بما يستحقه من اهتمام، إلى هذا الكتاب بالذات، وإلا تجاوز عدد صفحاته الحدّ المعقول...

– ولكن، لماذا علينا، أيها الراوي، أن نحصر الكتابة عن هذه المرحلة، بكتاب واحد هو هذا تحديداً؟

بين الوثائق المكتشفة أشياء كثيرة ترتبط، مثلاً، باسم فؤاد الشمالي... فلماذا لا تندرج بشكل أكثر تفصيلاً، وعناية ودرساً، في كتاب خاص عن فؤاد الشمالي؟ (وهو كتاب شرعتُ فعلاً في إعداده).

وهناك أشياء ترتبط باسم يوسف ابراهيم يزبك... فلماذا لا تندرج، كذلك، في كتاب خاص عن يزبك؟

وهناك أشياء ترتبط بقضية تحوّل الحركة النقابية في لبنان – خلال تلك الفترة – من نقابات تضم العمال وأرباب العمل معاً، إلى نقابات تضمّ العمال وحدهم... هذا التحوّل جرى في خضمّ معركة صعبة ضد أرباب العمل وضد سلطات الانتداب معاً، والذي أدار المعركة وخاضها هو الحزب الشيوعي اللبناني، تحديداً، خلال الأعوام الثلاثة الأولى من ولادته... حكاية هذا التحوّل، التاريخي، في مسيرة الحركة العمالية اللبنانية، لماذا لا تكون أيضاً موضوع كتاب مستقل؟

ثم: أشكال الإرهاصات الأولى، وهي عديدة، التي أدت خلال صراعات تحوّلية طويلة، إلى تكوين الحزب الشيوعي، هي أيضاً موضوع كتاب آخر سيكون كبيراً، بالتأكيد...

... فوصلتُ إلى حسم الموضوع: من الضروري الاكتفاء بإشارات مكثفة وسريعة، ولو إلى المضمون العام للوثائق المكتشفة، خصوصاً تلك التي لم يكن معروف عنها شيئاً، وإدخالها في جسم هذا الكتاب.

(من الوقائع التي لم تكن معروفة، مثلاً: خبر عن تأسيس حزب باسم «**الحزب الاشتراكي ـ الفرع العربي من الأممية العمالية**». أمينه العام الباحث والمفكر اللبناني خيرالله خيرالله، وذلك عام ١٩١٩. وهدف الحزب كما حدده خيرالله: «تنظيم البروليتاريا في حزب طبقي من أجل الوصول إلى السلطة وتحويل المجتمع الرأسمالي إلى مجتمع جماعي أو شيوعي» ـ وخيرالله خيرالله هو، بالمناسبة، أحد أبطال هذا الكتاب.

ـ ومن الوقائع التي لم تكن معروفة أيضاً: تشكيل تنظيم عمالي، في الاسكندرية بمصر، باسم «**حزب العمال اللبناني**»، سكرتيره فؤاد الشمالي، ومن أهدافه تحرير لبنان من الانتداب الفرنسي، واشراك العمال بإدارة شؤون البلاد).

... أما التفصيل في إيراد تلك الوثائق والوقائع، وتحليلها واستخلاص معناها ودورها الخ ـ فلا بد أن يجد طريقه، لاحقاً، إلى كتابات أخرى، في موضوعات أكثر تخصيصاً، يقوم بها أكثر من كاتب من العاملين في هذا المجال، سواء بالنسبة لهذه المرحلة، موضوع هذا الكتاب ـ والتي كانت شبه مجهولة، أو مطموساً عليها ـ أم بالنسبة للمراحل اللاحقة الأكثر غنى واتساعاً، والأكثر تعقيداً أيضاً.

وتكتشف: أن تاريخ الحزب لم يعد مجرد تجميع وثائق ووقائع وذكريات، **بل هو يصير موضوع معرفة.**

وهو يدخل في إطار التخصّص والتحليل وقراءة الوقائع قراءة جديدة معاصرة، وعلمية، تفضي إلى استخلاص قوانين حركة تطور الحزب، ارتباطاً بقوانين حركة تطور البلاد وحركة الصراع الداخلي والكوني العام.

ولا يصير تاريخ الحزب موضوع معرفة، إلا عندما يتحرر فكر الحزب من الركون إلى البديهيات «المتعارف عليها»، وإلا إذا تحرر فكر الحزب من تلك النزعات الغريبة عن العلم،

والمسيئة إليه، والتي كانت تقضي، مثلاً: بالشطب على دور هذا المناضل... والتخفيف من دور ذاك... والتضخيم، المفتعل، لدور قائدٍ ما... والحكم بالاعدام على اسم قائد آخر!...

ولو لم أُعطَ ـ في تلك الفترة السعيدة من عام ١٩٧٤ ـ حرية الكتابة، وحرية التقييم، والمساعدة الجديّة، والثقة أساساً... لما استطعتُ ـ على الاطلاق ـ أن أكتب حرفاً من هذا الكتاب.

... وكان أن أعيدت الحياة إلى اسم **فؤاد الشمالي** (كان مشطوباً عليه، ومحكوماً على اسمه بالاعدام، فكأنه ـ وهو المؤسس العمالي للحزب، والأعمق تأثيراً في تشييد الحزب على قاعدة عمالية صلبة، وفي ابراز وجه الحزب الطبقي، واختلافه، بهذا، عن جميع الأحزاب الأخرى ـ كان هذا القائد لم يكن موجوداً، ولم يمرّ في تاريخ الحزب!. في حين أنه، بالمناسبة، ملأ الفترة بين الأعوام ١٩٢٤ و١٩٣٢)...

... وكان أن نُفض الغبار عن الدور الرائد، والمهم جداً، والفعّال، لكتابات **يوسف ابراهيم يزبك**، وأثرها الكبير في الدعوة للاشتراكية وللأممية الشيوعية حتى قبل تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني. وكذلك نُفض الغبار عن دوره، المهم أيضاً، في تأسيس الحزب، وكان أول سكرتير له، وهو الذي أصدر، باسمه، جريدة «الإنسانية»، **أول جريدة شيوعية علنية تصدر في بلادنا**... رغم أنه لم يستمر عضواً في الحزب أكثر من عام ونصف العام. ولكنه ظلّ على صلة ما، بالحزب، طوال حياته. وهو الذي أعطانا الكثير من الوثائق التي كان يحرص عليها حرصه على روحه.

□□□

في هذا السياق، ومن خلال القراءة الجديدة للوقائع وللوثائق المكتشفة حديثاً، ومن خلال التداول والنقاش مع عدد من الرفاق العاملين في هذا الميدان. وأيضاً من خلال القراءة الجديدة للوقائع الواردة في هذا الكتاب نفسه ـ تكوّنت لدينا بعض التساؤلات حول عدد من التسميات «البدهية» لعدد من الوقائع والأحداث في تاريخ الحزب.

نكتفي الآن من هذه القضايا، موضع التساؤل، بمسألة واحدة:

ـ لماذا يُطلق على المؤتمر الوطني للحزب، الذي عقد عام ١٩٤٣، صفة «**المؤتمر الأول** للحزب؟» (وكان من نتيجة هذه التسمية أو من هذا العُرف، أن أطلق على مؤتمر عام ١٩٦٨ صفة: المؤتمر **الثاني**).

ألم يحدث أن عقد الحزب، قبل هذا «المؤتمر الأول»، مؤتمراً سابقاً أو أكثر؟

ثم: أليس أن واقع إهمال تاريخ تلك الفترة كلها، الممتدة من سنة ١٩٢٤ حتى سنة ١٩٣٢، قد أسهم في حجب ما كان الحزب قد عقده سابقاً من مؤتمرات؟

في رأيي: **أن مؤتمر ١٩٤٣ ليس المؤتمر الأول**، قد يكون الثاني، أو الثالث، أو ربما الرابع... ولكنه ليس الأول.

بعض الأحزاب يعتبر أن الاجتماع التأسيسي للحزب هو بمثابة المؤتمر، فيطلق عليه صفة «المؤتمر الأول، التأسيسي».

قد لا يصح اطلاق صفة **مؤتمر** على اللقاء التأسيسي للحزب الشيوعي اللبناني، الذي جرى في ٢٤ تشرين الأول ١٩٢٤، ولكننا نجد، في تاريخ الحزب، اجتماعاً هاماً عُقد في بيروت، في أواسط حزيران ١٩٢٥، بعد انضمام أعضاء «اتحاد شبيبة سبارتاك» ـ وكان سكرتيره أرتين مادويان ـ إلى الحزب الشيوعي اللبناني، فقد ضمّ الاجتماع ممثلين عن عدد من المنظمات الشيوعية منها التي تشكلت في لبنان، ومنها التي سبق أن شكلها «اتحاد شبيبة سبارتاك» في سوريا. وقد تقرر في هذا الاجتماع توحيد هذه المنظمات، ووضع خطوط عامة لخط سياسي وتنظيمي للحزب. وتقرر تشكيل لجنة مركزية، وأن يُطلق عليها اسم «اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في لبنان وسوريا».

... فلماذا لا يكون هذا «الاجتماع» هو **المؤتمر الأول**؟

ـ ثم نلتقي، في ٩ كانون الأول ١٩٢٥، بما دعي في تلك الفترة، **«الكونفرانس الأول»**. عُقد في بيروت، حضره ١٥ مندوباً من منظمات للحزب في: بيروت، بكفيا، زحلة، حلب. ووافق الكونفرانس على قرارات نجد الآن أن لها صفة برنامجية: (الموافقة على خط الحزب في دعم الثورة السورية ـ تشديد النضال ضد الامبريالية ـ ومن أجل الاستقلال الوطني والديموقراطية ـ النضال في سبيل المطالب العمالية... الخ... ثم إعادة تشكيل اللجنة المركزية للحزب) ـ هذا البرنامج يحمل صفة تاريخية، لأن الحزب، هنا، ينطلق من موضوعة: أن المسألة الوطنية، بما هي مسألة استقلال وطني وتحرر من الامبريالية، هي مسألة الحزب الأساسية، والشكل الرئيسي للصراع الطبقي.

... فلماذا لا يُعطى لهذا «الكونفرانس الأول» الصفة التي يستحقها، وهي: **المؤتمر الأول للحزب**؟

ـ ثم نلتقي، في تاريخ الحزب، بما دُعي بـ «الكونفرانس الثاني». عقد في بيروت خلال شهر نيسان ١٩٣٠. هذا «الكونفرانس» هو أوسع تمثيلاً من «الكونفرانس الأول»: حضره **٣٦** مندوباً من منظمات للحزب في بيروت، زحلة، طرابلس، بعلبك، بكفيا، عكار، دمشق، النبك، يبرود، حلب، حمص.

في هذا الكونفرانس»، التاريخي فعلاً، تقرر: تكليف اللجنة المركزية **وضع بيان برنامجي عام ومفصّل حول أهداف الحزب وغايته القصوى، وموقفه من مختلف القضايا التي تجابهها البلاد، وصياغة شعارات الحزب وسياسته المرحلية بالنسبة لمختلف الميادين.** وقد صدر هذا البرنامج التاريخي، فيما بعد ـ في ٧ تموز ١٩٣١ (النص الكامل لهذا البرنامج في ملحق النصوص)، وهو برنامج يبرز فيه الوجه الوطني للحزب بوصف كون المسألة الوطنية هي مسألة الحزب الاساسية، مسألة الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين، وهي مرتبطة ومندمجة بالصفة الطبقية للحزب، ونضاله لتحرير البلاد من الامبريالية وتحرير الشغيلة من الاستثمار.

هذا «الكونفرانس» بالذات، يحمل كل المواصفات «الكلاسيكية» للمؤتمر. فلماذا لا يكون هو **المؤتمر الثاني** ـ أو حتى الأول إذا تشددنا كثيراً بمسألة المواصفات الكلاسيكية للمؤتمرات الحزبية؟

... فالمؤتمر الوطني للحزب، عام ١٩٤٣، ليس إذن ـ حسب رأيي ـ المؤتمر الأول. قد يصح إعطاؤه صفة المؤتمر الثاني أو الثالث، ولكنه ليس الأول.

والمسألة هنا ليست، مطلقاً، مسألة ترقيم، بل هي مسألة **إعادة تقييم.** إعادة بحث وثائق الحزب، اعادة قراءة لها، وكشف تراث الحزب، السياسي الفكري الكفاحي كله، باتجاه جعل تاريخ الحزب موضوع معرفة، وليس سلسلة بدهيات وتسميات «متعارف عليها»...

ذلك أن الوثائق البرنامجية العائدة لعامي ١٩٣٠ ـ ١٩٣١، والتي جرى اهمالها فترة طويلة طويلة، هي وثائق هامة جداً، وتحتاج بالتأكيد إلى قراءة جديدة، ودراسة جديدة، ليس فقط بوصفها وثائق برنامجية للحزب، بل أيضاً وخصوصاً بوصفها تشكّل حلقة أساسية، ومهمة، في تاريخ الفكر الماركسي عندنا، بقدر ما تحمل **أول رؤية علمية، ماركسية ـ وان كانت أولية ـ للقضية القومية في البلاد العربية، كقضية تحرر من الامبريالية، ووحدة قومية أساسها اتحاد عمال وفلاحي البلاد العربية.**

□□□

... ولكن، هل يكبر تاريخ الحزب، بمجرد البحث فيه، وجعله موضوع معرفة؟

تاريخ الحزب يكبر، في الماضي، مع تنامي فعالية الحزب ونضاليته، ومع تطور فكره وتزايد نتاجه المعرفي، في الحاضر.

وقد عشنا، ونعيش الآن، في خضم الفترة الصعبة والمجيدة والمعقدة والعاصفة لتحوّل الحزب إلى **حزب جماهيري، ومقاتل**؛ الحزب الحامل لمسألة تحرير الوطن بصفائها الوطني. فإذا مقاتلو الحزب هم قوة أساسية وفعالة في «**جبهة المقاومة الوطنية للاحتلال الاسرائيلي**».

وإذا كنتُ قد اهديت الطبعة الأولى من هذا الكتاب إلى **الذكرى الخمسينية للحزب**... واهدي طبعته الثانية هذه إلى **العيد الستين للحزب** ـ فإنني أهديها، تحديداً، إلى **شباب الحزب المقاتل** ضد الاحتلال الاسرائيلي، وضد الفاشية العميلة للاحتلال، هذا الشباب الذي هو وريث تاريخ الحزب كله، ووريث تجربة تراثه الكفاحي، ورافع رايته، وصورة مستقبله...

... والسنديانة الحمراء تكبر باستمرار، تجابه جميع العواصف، وتظل راسخة في جذور الوطن، وأغصانها تتطلّع دائماً إلى آفاق العالم الأوسع.

(١٥ تشرين الأول ١٩٨٤)

محمد دكروب

الحـــــــــدث

مسـاء الـجـمـعـة ٢٤ تـشـريـن الأول ١٩٢٤. فـي مـنـطـقـة الحدث، ضاحية من بيروت، وداخل بيت قديم، اجتمع عدد من الأشخاص تجاوز العشرة، بينهم عمال وبينهم مثقفون. موضوع الاجتماع: تأسيس حزب شيوعي في لبنان. بعد المناقشة وافق على تأسيس حزب شيوعي أربعة أشخاص من الحاضرين، هم: **يوسف ابراهيم يزبك** (مثقف كادح) **فؤاد الشمالي** (عامل) **فريد طعمة** (عامل) **الياس قشعمي** (عامل) ثم انضم إليهم، بعد أيام، **بطرس حشيمة** (عامل) لم يكن حاضراً الاجتماع، وانتُخب يوسف ابراهيم يزبك، في هذا الاجتماع، سكرتيراً للحزب.

... هذا الحدث ليس ابن يومه. هو نتاج أحداث وصراعات وأشخاص وأحلام وأفكار ضاربة في عمق تاريخ بلادنا وتاريخ العالم، إلى درجة أنه من المستحيل اطلاق قولٍ قاطع: من هذه النقطة ابتدأت المسيرة! كما من المستحيل الوصول إلى عمق جذور سنديانة لبنانية هائلة الحجم هائلة الصمود.

هذا الكتاب هو محاولة رحلة استكشاف، أوليّة، نحو هذه الجذور، ورؤية حركة تناميها، خلال التعرّف إلى بعض الاختلاجات والتحركات الشيوعية الأولى في ضمير الأرض - الشعب... والتي منها طلعت سنديانة لبنانية عربية حمراء، جذورها في التاريخ، وحركتها تتنامى دائماً باتجاه المستقبل، واسمها: الحزب الشيوعي اللبناني.

الكتاب الأول

الجذور تطلع من الماضي
الجذور تأتي من المستقبل

الأعلام الحمراء
في قلب بيروت

شمس أيار تضيء ساحة الشهداء.. الناس يترقّبون شيئاً جديداً هذا النهار.. أمس سمعوا كلاماً عجيباً... فقد أفاقوا، كالعادة، عند الصباح.. وكالعادة، خرجوا إلى اعمالهم... وفي الشوارع رأوا أشياء غير عادية، وسمعوا كلاماً عجيباً. واحد قال: «بولشفيك»... شيوعية.... الله يستر!»... وهرول مبتعداً عن الحائط. آخر سمع كلمة «بولشفيك»، فاقترب من الحائط: منشورٌ بحجم يدٍ مبسوطة، مُلصق هناك، والى جانبه منشور آخر، وثالث...

[نداء من حزب الشعب اللبناني
الى جميع العمال والفلاحين]

قرأ الناس كلاماً غير عادي. إنه شيء جديد، غريب. والمناشير على الجدران، بيضاء، وعليها كلام، مثل نافذة تطلّ على الشمس:

«نطلب من جميع العمال والفلاحين في هذه البلاد الشقية، أن يتركوا أعمالهم في يوم أول أيار، ويبرهنوا للمتموّلين والاقطاعيين أنهم طبقة لها الحق بالحياة الحرة...»[١].

كثيرون قرأوا المناشير أمس.. بعضهم لم يهتم. بعضهم تساءل: وماذا سيحدث؟.. بعضهم شتم «البولشفيك». آخرون قرأوا المناشير كأنهم أمام نافذة تطلّ على الشمس.

انتشر الخبر. ماذا سيحدث؟. لن يحدث شيء... مجرد كلام، فيه جرأة، وفيه غرابة، ولكنه كلام.

راح يوم... وجاء يوم جديد.

الجمعة، أول أيار، ١٩٢٥... وشمس أيار تضيء ساحة الشهداء... والناس يترقّبون...

(قبل اسبوعين قرّرت العناصر الشيوعية في قيادة «حزب الشعب اللبناني» الاحتفال بعيد العمال العالمي، في أول أيار، على نطاق واسع. مهما كلّف الأمر، كانت سلطات الانتداب الفرنسي تعمل على تأبيد هذا الانتداب. تكشّر عن أنيابها حيناً، وتخفي هذه الأنياب بابتسامة ديموقراطية حيناً آخر.. حسب التكتيك المحلّي لحاكم لبنان.. «ولم نحسب حساباً أساسياً لموقف الحاكم.. قررنا أن الاجتماع يجب أن يكون، مهما كلّف الأمر، وبأي شكل كان... وكانت لنا أهداف كثيرة، منها: أن نوصل مطالب العمال إلى العمال... لا تستغرب!. فإن أكثرية العمال لم تكن تعرف مطالبها، هي بالذات»[٢]. وكتبت «اللجنة التنفيذية لحزب الشعب اللبناني» ـ وكان مركزها الرئيسي بكفيا ـ إلى مختلف

---

(١) من منشور طُبع باسم «حزب الشعب اللبناني» والصق على الجدران، ونُشر موجز عنه في عدد من الصحف، في تلك الفترة، ونُشر نصه الكامل في جريدة «الصحافي التائه» العدد ٥٧ في ٢٥ نيسان ١٩٢٥.

(٢) من حديث خاص مع يوسف أبراهيم يزبك، أحد قادة «حزب الشعب اللبناني» في تلك الفترة. وسيأتي الحديث مفصلاً عن دوره الهام في هذا الحدث التاريخي، خلال صفحات هذا الكتاب.

فروع الحزب في: بيروت ـ زحلة ـ الشوير ـ بتغرين ـ الشياح ـ فرن الشباك ـ انطلياس الخ... تدعوها إلى الاستعداد لهذا الحدث. وكان الموقف واضحاً، وحاسماً: سيتمّ الاحتفال بشكل قوي، ومدوٍّي، سواء سمحت السلطة أم لم تسمح... على أن سلطة المندوب السامي الفرنسي «ساراي» كانت، في تلك الفترة بالذات، عاجزة عن الرفض، بل كانت تحتاج أن تُظهر نفسها بمظهرٍ «ديموقراطي»، ذلك أن «ساراي» كان ينتمي إلى «مجموعة ـ كارتل ـ اليسار» العلماني، المشارك بالحكم في فرنسا، وقد جوبه، منذ جاء إلى لبنان، بحرب من الاكليروس المحلّي الذي توهَّم أن ساراي جاء يحمل «الاشتراكية» و... «الماسونية» إلى هذا البلد، وليلغي نفوذ الاكليروس!.. وكان بعض أصدقاء ساراي، من ناحية ثانية، يتطلّعون إلى الحصول على أصوات العمال في الانتخابات القريبة التي ستجري في أواخر حزيران... فسعوا إليه[1]، يعدونه بأن يعملوا لتجيير الاحتفال لحساب الصداقة مع حكومته!.. ولكنهم لم يستطيعوا الحصول منه على السماح بإقامة احتفال عمالي في مكانٍ عام، ولكن بدا واضحاً أن السلطات لا تميل إلى منع الاحتفال!.. وقد اتضح هذا الموقف قبل موعد الاحتفال بيوم واحد ـ ٣٠ نيسان ١٩٢٥ ـ وهكذا... «ففي أقل من ساعتين كان النبأ قد ذاع بين الأصدقاء والأنصار، وملأ الأسماع في الأحياء البيروتية التي نسكنها.. وفي الليل عقدنا اجتماعاً قررنا فيه أسماء الخطباء، والمواضيع. واتفقنا على أن نفسح المجال لمثقفين وعمال من غير جماعتنا. كي يخطبوا معنا... فتزداد اتساعاً وامتداداً.... وقبيل الفجر ذهب كل من التسعة السريين ـ أي: العناصر الشيوعية في قيادة حزب الشعب اللبناني ـ إلى فراشه ليأخذ قسطه من الراحة المؤقتة، والقليلة»[2]... وكان عدد من الفرسان الشجعان،

---

(١) من هؤلاء: شكري بخاش، صاحب جريدة «زحلة الفتاة»، صديق الحاكم كايلا ونصيره» حسب تعبير يوسف يزبك. وسيأتي ذكر دوره، لاحقاً.

(٢) يوسف ابراهيم يزبك: «حكاية أول نوار، في العالم وفي لبنان ـ ذكريات وتاريخ ونصوص» ـ منشورات «دار الفارابي» بيروت، نيسان ١٩٧٤ ـ صفحة ٨٠.

المجهولين، قد درز جدران العاصمة بنداء حزب الشعب اللبناني إلى العمال والفلاحين، وعدد آخر أوصل هذا النداء إلى بعض الصحفيين...).

... وشمس أيار، هذا الصباح، تضيء ساحة الشهداء... والناس يترقّبون. وبعض العناصر أخذت تتجمّع قرب الدرب المتفرّع عن ساحة الشهداء والمؤدي إلى قاعة سينما «كريستال» (لا تزال في مكانها نفسه وبالاسم نفسه إلى اليوم)(*)... الاحتفال سيقام هنا إذن!. ربما جرى الاتفاق مع صاحب الصالة في الليل، ربما قبل أيام. المهم: أن القاعة كانت مزدانة بأعلام... حمراء، وأن بعض الشباب تجمّع أمام القاعة، (يبدو أنهم مسؤولون عن التنظيم) وأن صاحب القاعة «سليم آغا كريديّة» «قد تبرع بتقدمة ناديه للعمال بدون أن يتقاضى أجراً» ـ كما أعلن المسؤولون عن الاحتفال، فيما بعد ـ وأن على الوجوه فرحة عيد، وتحفّز، وترقّب... ماذا سيحدث؟ وماذا سيسمع الناس؟. «أعلام حمراء»... «طبقة عاملة»... «عيد أول أيار»... «بولشفيك»... «شيوعية»... كلمات جديدة، ترنُّ بغرابة، وشيء ما يتكوّن، و... «يا عمال العالم، اتحدوا!».

أصوات تترامى من بعيد. تهزج. تنشد.

ماذا يقولون؟.. إسمع!.. بل أنظر...

هذه سيارة تبرز من غربي ساحة الشهداء، آتية من شارع سوق الهال (ساحة رياض الصلح الآن)... وهذه سيارة أخرى من ناحية أخرى.. وهذه ثالثة. ورابعة... سيارات. سيارات. في ذلك الزمن. والسيارات مزدانة بأعلام حمراء، وملأى بالعمال. والهتافات تنطلق. تدوّي، تبشّر، تصنع تاريخاً جديداً... «يا عمال العالم، اتحدوا... اتحدوا... اتحدوا!»... أول مرة يدوّي هذا الهتاف، هنا، في ساحة الشهداء... يوم الجمعة، أول أيار

(*) ـ أي: يوم كتابة هذا الفصل من الكتاب خلال تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤ ـ ولكن هذه القاعة التاريخية دُمرت نتيجة الحرب اللبنانية «المجيدة» التي اشتعلت عام ١٩٧٥، وتمادت واستطالت... حتى العام ١٩٩٠.

١٩٢٥. يعلو الهتاف، يدور في ساحة الشهداء، يغور في ساحة الشهداء. يعود تسع سنوات إلى الوراء، يلتقي بهتافات أخرى انطلقت من حناجر أصحاب هذه الساحة...

□□□□

كان الظلام يغمر الساحة. وكان الليل ـ العثماني ـ في آخره. ٦ أيار ١٩١٦. وكان للساحة اسم آخر: ساحة البرج! (نسبة لبرج السراي القائم هناك). وكان صمت رهيب. أعواد مشانق منصوبة وسط الساحة السوداء. ويترامى إلى الساحة نشيد:

نحن أبناء الألى شادوا مجداً وعُلا

عمر حمد ينشد، ورفاقه يهزجون معه، وهم في طريقهم باتجاه المشانق المنصوبة. عمر حمد، الشاعر، المندفع بحماس، المناضل ضد حكم الأتراك، أصغر الشهداء وأنقاهم بسالة، يصعد إلى المشنقة منشداً، يهتف: «أموت فداء الأمة العربية، فليسقط الأتراك الخونة، وليحيى العرب»[1]... ومنذ ذلك الفجر، صارت ساحة البرج: ساحة الشهداء...

□□□□

... الاعلام الحمراء تتلظّى تحت الشمس. تموج مخضّبة، تنهض بأيدي العمال، تتهادى، وتنتفض، كأنها طالعة، لتوّها، من أعماق أرض الشهداء... مكتوب عليها (كما تُظهر الصور وبعض الصحف اللبنانية في ذلك الزمان): «**فليحيى العمال والفلاحون... وليحيى أول أيار**»... ومكتوب أيضاً: «**حزب الشعب اللبناني ـ المركز الرئيسي: بكفيا**». وكذلك: «**حزب الشعب اللبناني: فرع الشوير**»... وأيضاً «**حزب الشعب اللبناني: فرع الخنشارة**»... و «**فرع الحدث**»... «**فرع بيروت**»... وفرع عمر

(١) «مؤتمر الشهداء»: بقلم عصبة من الكتاب الأحرار، مهّد له: يوسف ابراهيم يزبك ـ منشورات جريدة «اليوم» بيروت ١٩٥٥ ـ صفحة ١٧٣.

حمد.... [ذلك أن دماء بعض هؤلاء العمال أنفسهم، الملوّحين بالأعلام الحمراء، سوف تسيل ـ كما سنرى ـ فوق أرض الساحة نفسها، برصاص الفرنسيين وغير الفرنسيين، وتمتزج بدماء عمر حمد، فداءً للأمة العربية، ولتحرير أرض لبنان.. وفوق الساحة نفسها سوف يسقط فيما بعد (في ٢ تشرين الثاني ١٩٤٥) شهيد شيوعي آخر، **ادوار الشرتوني**، وسوف يأتي اديبنا الكبير **عمر فاخوري** ـ رفيق كفاح عمر حمد وصديقه الحميم ـ فيكتب عن الشهيدين أجمل الصفحات»[١]].. السيارات تدور في الساحة، حول حديقة البلدية، حافلات الترامواي تقف. تجمّعات من الناس هنا وهناك، مندهشون، مواقفهم مختلفة باختلاف مواقعهم، ولكنهم كلهم مندهشون: أول مرة يحدث هذا. نوع جديد من التظاهرات. نوع جديد من البشر. ونوع جديد من الهتاف: «يا عمال العالم، يا عمال لبنان، اتحدوا!»... والسيارات تمرّ أمام السراي «وكان من الممكن مشاهدة لمعان الاعلام الحمراء، من شرفات السراي»[٢].. ولكن ماذا كان يفكر رجال السراي؟.. أكيد أن

---

(١) في «الباب المرصود»، كتاب عمر فاخوري، الصادر عن دار المكشوف عام ١٩٣٨، مقالة رائعة بعنوان «الشاعر الشهيد»، عمر حمد، جاء في خاتمتها: «... وفي السادس من أيار سنة ١٩١٦ جيء بالفقيد، عمر حمد، ورفاقه إلى بيروت، ثم قادتهم الزبانية إلى ساحة الشهداء، فمشوا يهتفون للعرب ولاستقلالهم ويتغنّون بأناشيد الحماسة. وفاضت روح المرحوم عمر حمد بين أرواح صحبه الطاهرة على أعواد المشانق، فكان ميتاً أبلغ منه حياً، ولعل شهادة عمر حمد لإعلاء كلمة أمته، اشجى قصيدة ينظمها، وأروع نشيد ترفعه الأرض إلى السماء» ـ صفحة ١١٨.

ـ وفي «الحقيقة اللبنانية»، كتاب عمر فاخوري الصادر عن دار المكشوف عام ١٩٤٤، مقالة رائعة أيضاً، كان كتبها عمر قبل استشهاد ادوار الشرتوني بأيدي أعضاء حزب من أنصار الفاشية، تحدث فيها عن جريدة «صوت الشعب» الشيوعية، وكانت سرية باسم «نضال الشعب»، وكان أدوار يأتيه بها: «.... كان يجيئني بها فتى ولا كالفتيان: ليس تفارق الابتسامة ثغره، والعزيمة الصادقة نظره. يناولني «بضاعته» من كوة الباب، ثم ينصرف معجلاً، ولم يكن يحييني أو يسمع مني كلمة الشكر. لكن بعد أن «تعاملنا» مدة من الزمن، وأنس كلٌّ بصاحبه، صرت أدعوه إلى فنجان قهوة، فيقبل الدعوة، فنجلس ساعة أو بعض ساعة، نتجاذب أطراف الحديث، فكان يخيّل إليّ دائماً أن الفتى ليس سوى «عدد ممتاز» من الجريدة التي ينشرها، بل «يبشّر» بها، كأنما الصحيفة تحيا فيه لحماً ودماً، فكراً وشعوراً، حمية وإقداماً، ثقة وأملاً في المستقبل، كما يريده وسيكون... لقد كنتُ أجهل اسم ذلك الصديق الجديد ـ الجديد بكل معاني الجِدّة ـ كنوعٍ مستحدث من الآدميين. فكنتُ، ولا أدري لماذا، أدعوه بيني وبين نفسي: «بشارة...»، اليوم يقولون لي بلطف: «أجل ادوار..» وأنا أحتجّ بشدّة: «كلا، هو بشارة!»، وليس في هذا خسارة..» (ص: ٣٣ ـ ٣٤).

(٢) جاك كولان: «الحركة النقابية في لبنان، ١٩١٩ ـ ١٩٤٦» تعريب: نبيل هادي ـ منشورات دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٤. ـ صفحة ١٢١.

ما يرونَه الآن يختلف عما ظنّوا أنه سيكون... لا أحد يهتف لغير العمال، ولغير الاتحاد بين العمال... لا أحد يهتف للحاكم الفرنسي «كايلا»، مثلاً، الذي وعد بعدم منع الاحتفال على أمل أن يُقال عنه «نصيراً للعمال»!. حتى الأعلام كلها، كلها، حمراء، حمراء مخيفة... ما عدا علم واحد، لبناني... (كان علم لبنان يومها هو العلم الفرنسي نفسه، وبداخله أرزة.. ويبدو أن حامل هذا العلم الواحد كان متواضعاً جداً بحيث أنه لم يظهر ولا في أية صورة من الصور التي رأيناها والتي التقطت للمتظاهرين وللاحتفال في ذلك اليوم)... ولا بد أن رجال السراي قد حسموا أمرهم منذ تلك اللحظات، وسيبرز موقفهم الحقيقي، الدموي، من العمال وحركتهم بعد أقل من شهر، كما سوف نرى.. وعندما مرّت السيارات من أمام قيادة الجندرمة، فدوائر البوليس، فدوائر قيادة الموقع الفرنسي، كان صفٌ من الناس يقف على الرصيف، بين هذه الدوائر الرسمية وبين المتظاهرين الهاتفين المنشدين الملوّحين بأعلامهم الحمراء.

غير بعيد عن مكان الاحتفال، وقفت السيارات، نزل العمال، تجمّعوا، وتابعوا السير منشدين، وفي الطليعة كان قادة حزب الشعب»: **فؤاد الشمالي، فارس معتوق، يوسف ابراهيم يزبك، فريد طعمة،** وآخرون... وكانوا ينشدون.

أما النشيد فهو «نشيد حزب الشعب اللبناني»، كلماته وضعها يوسف ابراهيم يزبك، واللحن أوحى به فؤاد الشمالي، وهو مستمد من لحن «نشيد الأممية»، وكان فؤاد الشمالي، ـ كما قال لي يوسف يزبك في حديث خاص ـ يحب أن ينشد، بلهجة مصرية عالية[١]... فينشر عدوى النشيد من حوله «وكم انطلقت حناجرنا بالأناشيد الثورية، وكم غنَّينا في تلك الأيام... سقياً لها، تلك الأيام!»... وتنطلق الحناجر، تحت شمس أيار، والأعلام الحمراء، في ساحة الشهداء:

«عاش حزب الشعب فينا، رغم أنف الظالمين
واذا ما عاش يُروى بدماء الكادحين

....

---

(١) ولد فؤاد الشمالي في لبنان، ونشأ في مصر حيث عاش فترة طويلة من حياته. صار عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري، وابعد عن مصر عام ١٩٢٣ فعاد إلى وطنه لبنان ـ وسيأتي تفصيل هذا في فصول تالية من الكتاب.

لا نصارى لا يهود، في الحمى، لا مسلمين
لا دروز بل عهود بالتآخي أجمعين

....

لا نريد الطائفية إنها الداء الذميم
فلتضمّ الشيوعية شعب لبنان الكريم

....

عشنا دوماً تحت نير ثقله يُضني النفوس
حطّموه يا رفاقي بالمطارق والفؤوس

.....

عاش حزب الشعب فينا...
لا خضوع... لا خنوع....»[١]

ولم تعد ساحة الشهداء مجرّد مكان تحت الشمس. لقد تحوّلت إلى زمن. فالعمال الذين يسيرون في المسافة، كانوا، في الوقت نفسه، ينتقلون بالزمن إلى مرحلة جديدة. كانوا يصنعون زماننا. ويبدو أن بعض صحف تلك الأيام، شعر بالمعنى التاريخي لذلك الحدث:

□ «**هذه** روح جديدة حية دَبّت في لبنان... وبشير بحياة الفكرة السائدة اليوم في الشعوب الحية، وهي فكرة تأييد العمال وأحزاب الشعب...» ـ (**المعرض**: ٣ أيار ١٩٢٥).

---

(١) هذا النص هو ما استطعنا الحصول عليه من محفوظات أرتين مادويان ومن ذاكرة يوسف يزبك. وواضح انه ناقص.

«... **تطورٌ** ظاهر في حياة الاشتراكية عندنا، كان من أوضح أغراضه مظاهرات أول أيار، في بيروت... نقدر أن نقول: إنَّ حياة العمال عندنا دخلت الآن في دور جديد...» ـ (**الزمان**، الحلبية ـ نقلاً عن «الصحافي التائه» ـ ١٢ أيار ١٩٢٥).

□ «... **وقد** أراد عمال لبنان أن يشتركوا لأول مرة في هذه الحركة العمالية، وأن يحتفلوا بأول أيار كما يحتفل به سواهم في جهات المعمور. فقرروا الإضراب عن العمل والتظاهر في الشوارع...» ـ (**الأحرار:** ٢ أيار ١٩٢٥).

□ «... **وكان** لبنان ـ على ما نظن ـ أسبق البلاد العربية إلى التظاهر في أول أيار، فلقد قام فريق من عماله بتظاهرة حملوا لها الاعلام، ثم جالوا في الأسواق منشدين... أن العمال يشيدون بناية التضامن، وما أحسن ما يفعلون...» ـ (**البرق:** ٢ أيار ١٩٢٥).

«... **يوم** العمال المشهود ـ حزب الشعب اللبناني أذاع نداءه على جميع العمال تحت هذه السماء: العامل هو حجر الزاوية في بناء الأمة، فليصن مقامه وليأخذ مكانه تحت شمس الشرق ـ طلعت شمس البارحة على العالم والعمال تترنح أعطافهم في عيدهم ويقيمون مهرجاناً ما بعده مهرجان إجلالاً لشريعة العمال المقدسة التي ما بعدها شريعة، وتأييداً لمطالبهم التي يطلبونها من سادتهم الرأسماليين...» ـ (**زحلة الفتاة:** ٢ أيار ١٩٢٥).

□ «... **وسُرَّ** الناس من حركة جميلة كهذه تُعد خطوة وسيعة نحو خلع العمال والفلاحين نير الرأسماليين والملاّكين... وهذه الجريدة تشترك بكل قواها مع الرفاق في عيدهم الأكبر...» ـ (**الصحافي التائه:** ٢ أيار ١٩٢٥).

.. وقال عامل من بكفيا لعامل من بيروت: «قبل ما نصل إلى بيروت، احتفلنا بالعيد في بكفيا. عند الصبح، تجمّع عدد كبير من عمال الدخان والعمال الآخرين، وجاء عمال وفلاحون من الشوير وبتغرين. وخطب عدد منهم بحماس. وأوضح لنا الرفيق فؤاد الشمالي، في خطابه، معنى العيد: عيد نضال يختلف عن كل الأعياد. وأنشدنا نشيد الأممية، فوق الجبل.. شعرتُ أني قطعة من الجبل، وشعرتُ أننا أقوياء أقوياء، وأننا كثار كثار، وأننا مثل السنديانة...».

وقال العامل لرفيقه: «عندما ركبنا في السيارات، واتجهنا إلى بيروت، وصرنا نغنّي وننشد، شعرتُ أن الشمس تنشد معنا، كأنها واحد منا، وهي نزلت معنا إلى بيروت. صدّقني.. هي رافقتنا ونحن نمر بطريق النهر، ونصل إلى الجميزة، وننحدر إلى الصيفي، ونتجه إلى باب ادريس، ونصعد إلى طريق الكبّوشية، فنطلّ على ساحة الهال، ونصل إلى هنا... والشمس معنا، ها هي فوقنا، تضيء ساحة الشهداء».

وقال **أرتين مادويان**[١]، في حديث خاص معه: «... أما نحن، أعني «شبيبة سبارتاك» الأرمنية، فقد علمنا من الصحف، خاصة من جريدة «لا سيري» التي تصدر بالفرنسية، أن العمال العرب سوف يتظاهرون ويقيمون احتفالاً في قاعة «الكريستال» ببيروت بمناسبة أول أيار. وكانت جماعتنا قد وصلت في تطورها الفكري إلى تبنِّي الشيوعية، وصارت لنا صلات مع الحزب الشيوعي في أرمينيا، ولم نكن نعرف شيئاً عن وجود تنظيم شيوعي بين العرب... قلنا: لا بد من الاتصال بهم، وها هي الفرصة قد جاءت، مع عيد أيار. ذلك الصباح انتظرنا على طريق النهر. كنا حوالى الخمسين من العمال والطلاب الأرمن. أذكر جيداً. كانت الشمس تغمر الدنيا. وكان يغمرنا فرح العيد وفرح أننا سوف نلتقي، أخيراً، برفاقنا العرب. وسمعنا الأهازيج من بعيد. وأطلّت السيارات والاعلام الحمراء. لا أذكر تماماً عدد السيارات. أكيد أنها أكثر من عشر. لم نكن نفهم

(١) ارتين مادويان: كان من الذين حضروا الاحتفال. وقد صار لاحقاً من الأعضاء البارزين في المكتب السياسي للحزب الشيوعي اللبناني ـ وسوف يأتي الحديث مفصلاً عنه وعن دوره في تكوين الحزب، خلال صفحات الكتاب.

العربية جيداً، ولكنني أذكر جيداً أن كلمة «حزب الشعب» كانت تتردّد خلال النشيد. اللحن يشبه نشيد الأممية ويشبه أهازيج الفلاحين. انضمّينا إلى الموكب. وفي ساحة الشهداء درنا مع المتظاهرين حول حديقة البلدية. وكانت الاعلام تلوّح. شعرنا أننا مثل جَدْولين سارا طويلاً منفردين ثم التقيا ليتكوَّن منهما نهر كبير. عرفنا فيما بعد أن احتفال الكريستال كان نقطة تجمُّع لعدة جداول، كانت تتجه، منفردة، نحو نهر الشيوعية الكبير. ثم دخلنا قاعة الكريستال، وأخذنا نُصفق، ونستمع...».

ولكن قبل أن ندخل، نحن، قاعة الاحتفال، لنحاول أن نعرف: من أية مناطق جاء هؤلاء العمال، وماذا يمثلون؟

ويجيبنا يوسف ابراهيم يزبك عن هذا السؤال، بحماسه العاطفي وبدقته التأريخية: «إنهم يمثّلون الأكثرية الساحقة لعمال لبنان وكادحيه ومثقفيه... نعم يا سيدي نعم. فقد جاءت وفود العمال من مناطق: بكفيا ـ الشوير ـ الخنشارة ـ بتغرين ـ زحلة ـ انطلياس ـ الحدث ـ الشياح ـ بيروت. وكان «حزب الشعب اللبناني» يرتكز أساساً على قاعدة عمالية واسعة، وعلى عمال الدخّان بشكل خاص، وقد كانوا في تلك الفترة من أكبر التجمّعات العمالية، وقام الاحتفال أساساً على أكتافهم. وكان في الاحتفال ممثلون عن عدة نقابات وجمعيات عمالية منها: المطابع، ومستخدمو المحلات التجارية، وعمال النجارين، والترامواي، والحلاقين، وغيرهم... كانت القاعة ممتلئة تماماً، وتقديري أن الحاضرين كانوا بين ٤٠٠ و٥٠٠. وكان هذا، في تلك الأيام، شيئاً عظيماً جداً» ـ (من حديث خاص).

وكان في الاحتفال عدد مهمّ من المثقفين، صحفيين وكتّاباً ومحامين، تجمعهم في تلك الفترة، توجُّهات ليبرالية، وأفكار عن الحرية والتقدم مستمدة أساساً من أفكار الثورة الفرنسية، على مزيج من أفكار اشتراكية غامضة، ما عدا العناصر الشيوعية في قيادة «حزب الشعب اللبناني» (فؤاد الشمالي، يوسف يزبك، فريد طعمه...) فقد كان توجّههم الاشتراكي والشيوعي واضحاً، بالاضافة إلى التوجه الشيوعي الواضح عند أرتين مادويان وجماعته «شبيبة سبارتاك» الأرمنية. ولعلّ في ذكر أسماء بعض هؤلاء المثقفين المشاركين في الاحتفال ما يزيد في إبراز الأهمية التمثيلية، والمعنى التاريخي المميّز لهذا الحدث، فقد كان هناك: **جبران التويني** (مؤسس جريدة «الأحرار» ثم

«النهار» بالتالي) **وديع عقل** (صاحب جريدة «الوطن») **ميشال زكور** (صاحب مجلة «المعرض») **حبيب أبو شهلا** (المحامي، وأحد رجال الاستقلال لاحقاً) **أديب مظهر** (من طلائع الشعراء الرمزيين العرب، وطبيب) **نمر هبّه** (المحامي ونقيب المحامين فيما بعد). وبين خطباء الاحتفال نجد: الشاعر الكبير **الياس أبو شبكة، وخيرالله خيرالله** (المسؤول عن القسم الشرقي في جريدة «الطان» الفرنسية، ومن أهم المشاركين في المؤتمر العربي بباريس عام ١٩١٣)، **وشكري بخاش** (رئيس تحرير جريدة «زحلة الفتاة») **وحنا أبو راشد** (صاحب جريدة «النادي» والمشتغل في قضايا النقابات..). **وهنري الجميل** (الليبرالي في تلك الفترة، ثم سفير ليبيريا في لبنان فيما بعد).

هل اكتملت لوحة الاحتفال التاريخي؟

كل الذي ذكرناه ليس سوى ملامح عن إطار الاحتفال. ويبدو أننا لا نستطيع أن نستوعب هذا الإطار نفسه إلاّ خلال محاولتنا التعرّف على مضمون هذا الاحتفال التاريخي، ثم ما نتج عن هذا الاحتفال من ممارسات سياسية نضالية وتنظيمية وفكرية...

لندخل القاعة. نجلس. نستمع. نتأمل. نربط بين الأقوال والناس والأحداث، وحركة التاريخ. ونحاول أن نحلّل، ونفكر، ونحلم...

كانــوا يحدســون باللحظة التاريخية



قاعة الكريستال: بيروت ـ احتفال أول أيار ١٩٢٥

ـ (أنظر. هنا، في وسط القاعة، يتمركز رفاقنا، أعضاء من «حزب الشعب اللبناني». إنهم القلب الخافق لهذا الاحتفال، وهم أساس حركتنا. أكثرهم من عمال الدخان. أنظر، هذا فارس معتوق، الديناميكي، وهذا بشارة كامل عامل السجاير والأنيق دائماً. وهذا فريد طعمة صاحب الشوارب المعقوفة، وبطرس حشيمة العامل والفلاح، ونسيم الشمالي شقيق فؤاد، والعامل في جهازنا السري في ذلك الوقت..).

عينا يوسف يزبك تشعَّان، والحنين يترقرق فيهما، وهو يتأمل الصورة المأخوذة لقاعة الكريستال خلال احتفال أول أيار ١٩٢٥، ويدلّ بأصبعه على الأشخاص: «... وفي صدر القاعة أعلامنا الحمراء.. إنهم الآن يتطلّعون إلى عدسة آلة التصوير. هادئون جداً. ولكن بعد لحظات يتغيّر الوضع. فعندما صعدتُ إلى المنبر، وأعلنت افتتاح الاحتفال، انفجرت القاعة بالتصفيق.. وشاهدتُ كثيرين يبكون».

قال يزبك هذا، والحنين يترقرق في عينيه دمعاً يأبى أن ينحدر.

ترى، هل كانوا يشعرون، يومها، أنهم يصنعون لنا، للطبقة العاملة، وللحزب، وللشعب، تاريخاً جديداً؟ المدهش: أن الصور المأخوذة خلال ذلك اليوم التاريخي، سواء في بكفيا، قبل النزول إلى بيروت، أم في بيروت نفسها داخل القاعة، أم بعد الاحتفال، تعطيك احساساً بأن في أعماق هؤلاء الناس، شعوراً خفياً باللحظة التاريخية، يبدو من خلال نظراتهم، وتحديقهم في الكاميرا، ومن خلال الأعلام الحمراء المعرَّضة للكاميرا بشكل مقصود منه أن تظهر الكتابة واضحة:

حزب الشعب اللبناني المركز الرئيسي بكفيا	فليحيى العمال والفلاحون وليحيى أول أيار

ولكن، ما هو الجديد، المختلف، الذي يعبِّر عنه الاحتفال؟

ما هو المعنى التاريخي، هنا؟.

أين تلتقي هذه الحركة الكفاحية الجديدة، وأين تختلف، مع الحركات الكفاحية السابقة التي قامت في هذه المنطقة، سواء ضد السيطرة العثمانية، أم ضد الاقطاع، وبالتالي ضد الدول الاستعمارية التي فرضت سيطرتها، بالقوة، على بلادنا؟

بين خطباء الاحتفال أسماء تحمل أحداثاً، ومواقف، ودلالات نستطيع من خلالها، من

خلال وجودها في الاحتفال، ومن خلال أقوالها، أن نصل إلى فهم المعنى التاريخي، المختلف، لهذا الحدث في حياة بلادنا.. وأن نعرف، كذلك، تاريخ الحركات والتطورات التي أدت إلى هذا الحدث...

آتٍ مــن عنــد الشهـــــداء ومعي كل أوهام الليبراليين!

من بين خطباء مهرجان أيار ١٩٢٥، الكاتب الباحث **خيرالله خير الله**: يكتب باللغة الفرنسية أساساً، ويكتب بالعربية. كان رئيساً للقسم الشرقي في جريدة «الطان» الفرنسية التي صار اسمها «لوموند» فيما بعد. ثم عمل محرراً مرموقاً في مجلة «بروغري سيفيك» اليسارية. كتاباته كانت تساهم في الأحداث، ولم تكن مجرد كتابات صحفية. أصدر عدة كتب هامة مضمونها الأساسي: تحرير لبنان والبلاد العربية من السيطرة الأجنبية. وبناء مجتمع تحرري متقدم. وساهم في المؤتمر العربي الأول الذي عُقد في باريس عام ١٩١٣، والذي أُطلق عليه فيما بعد اسم «مؤتمر الشهداء»...

ماذا قال خيرالله خيرالله في الاحتفال؟

«ألقى خيرالله خيرالله خطاباً أراد أن يفهمه كافة الحضور، فتكلم باللغة العامية واصفاً وصفاً دقيقاً نهضة العمال في أوروبا، معدِّداً أهمية العامل، داعياً الحضور للاتحاد وتخليد ذكرى أول أيار»[١].

---

(١) جريدة «الأحرار» العدد ٣٢٦ ـ السبت ٢ أيار ١٩٢٥ ـ صفحة ٢.

ـ «... ثم تكلم الصحافي خيرالله خيرالله عن وجوب منع النساء من العمل بأشغال فوق طاقتهن»[1].

ـ «... وبعد كلامه على عمل النساء، تحدث عن صلابة الفلاح اللبناني، وشممه، وبطولته، وضيافته، وقال بهدوء، كأنه يصلي: شوفوا فوق، تطلّعوا للسما. شو في بين رؤوسكم والله؟. ماشي. ما في شي أبداً... ليش الأقوياء بدهم يفصلوا بين رؤوسكم والسما؟...»[2].

ـ «... وقال خيرالله خيرالله للعمال: إنه لولا أثوابكم غير النظيفة لما لبس الأغنياء أثواباً نظيفة»[3].

ـ... ثم قال خيرالله خيرالله إن هذا الاحتفال ليس هو أول احتفال بعيد أول أيار يجري في لبنان!.. لعله الثاني، أو الثالث، ولكنه ليس الأول...

□□□□

عام ١٩٠٥ اندلعت الثورة الشعبية الروسية الأولى. كانت أول ثورة تخوضها البروليتاريا في عصر الامبريالية. وكانت كما سماها لينين: التجربة العامة لثورة اكتوبر ١٩١٧. واستمرت المعارك الثورية حتى عام ١٩٠٧. وعندما هُزمت الثورة، سيطر الظلام، والقمع الدامي، على روسيا. وازداد ظلام القمع تكاثفاً في العالم.

ولكن تجربة الثورة كانت قد أخذت تتسرّب، مع انتشار الظلام نفسه، إلى أنحاء عديدة من العالم.

وكان الظلام ثقيلاً في أنحاء الأمبراطورية العثمانية كلها، والجو موبوءاً بالجواسيس، وكثيرون من الأحرار إما داخل السجون وإما في بلدان أخرى، خارج القبضة العثمانية.

---

(١) من البيان الاعلامي الذي وزعه «حزب الشعب اللبناني» على الصحف ويتضمّن وصف الاحتفال. وقد نشره يوسف ابراهيم يزبك، مع صورة زنكوغرافية بخطّه، في كتابه «حكاية أول نوار» ـ صفحة ٨٣.

(٢) نقلاً عن يوسف يزبك، المصدر السابق، صفحة ٨٢.

(٣) شكري بخاش: «زحلة الفتاة» ـ السبت ٢ أيار ١٩٢٥.

ووسط هذا الظلام انطلقت شرارة لبنانية مدهشة، مدهشة وشجاعة، ولا تزال مغلّفة ببعض الغموض.

على الشاطئ اللبناني، جرى ـ عام ١٩٠٧ ـ احتفال بعيد أول أيار (لعله أول احتفال بهذا العيد العمالي العالمي جرى فوق أرض عربية). تجمّع عدد من الناس. وألقيت بعض الخطب. وصفّق الحاضرون للخطباء. قيل إنّ المحتفلين كانوا يعلّقون شرائط حمراء على صدورهم. وقيل أن مكان الاحتفال قريب من «الضبية»، قرب الشاطئ، وبجانب حاووز ماء. وقيل إن المحتفلين غرسوا قرب الحاووز شتلة شجرةٍ ما، أطلقوا عليها اسم «شجرة الحرية» وقيل إنّ مكان الاحتفال هو شاطئ قرب بيروت.. وقال الدكتور جورج سمنه (سوري يكتب بالفرنسية) في كتابه «سوريا»، الصادر بالفرنسية في باريس، منشورات بوسّار، عام ١٩٢٠، وفي الصفحة ٥٧ من هذا الكتاب:

«... والحق يقال إن الليبرالية، والأفكار التقدمية، كانت منذ زمان بعيد غالية على قلوب السوريين. وكانت نخبة في بيروت، مدفوعة بروح المطالب الوطنية وبحب الأفكار الآتية من الغرب، تعبِّر ـ حتى في إبان الطغيان الحميدي ـ عن أفكارها التقدمية. منها: **ان مظاهرة اشتراكية جرت على شاطئ من لبنان في أول أيار ١٩٠٧**. ولم تجرؤ السلطات على ملاحقة المحتفلين، لأنهم كانوا مدعومين بالعطف العام. وكان الخطباء الشبان، الشعبيون والجريئون، يثيرون عواطف الجمهور فيصفق لهم...».

وقالت مجلة «المراسلات الأممية»، الناطقة باسم الأممية الشيوعية الثالثة (الكومنترن) ـ في عددها رقم ٨٩ الصادر عام ١٩٢٥، صفحة ١٢١ ـ إنه:

... يُعتقد أن أول احتفال بأول أيار على الأرض العربية جرى في لبنان عام ١٩٠٧. ففي ذلك العام احتفلت بأول أيار مجموعة من

المثقفين والطلاب الذين درسوا في أوروبا وعادوا إلى لبنان حاملين معهم أفكاراً اشتراكية.

ويعلِّق عبدالله حنا (سوري، دكتور في التاريخ) في كتابه «الحركة العمالية في سوريا ولبنان، ١٩٠٠ ـ ١٩٤٥» (أصدرته دار دمشق، عام ١٩٧٣) يعلق على هذ الحدث بقوله: «.... وبالرغم من صغر هذا الاحتفال، فإن له أهمية تاريخية بالنسبة للحركة العمالية التي أخذت تباشيرها تظهر لاحقاً (في سوريا ولبنان) بعد الحرب العالمية الأولى، وبعد انتصار الثورة الاشتراكية الكبرى في روسيا ١٩١٧» ـ (صفحة ٣٣١).

وتزداد الصورة وضوحاً في كتاب يوسف ابراهيم يزبك «حكاية أول نوار» حيث نتعرف، من خلاله، على فرسان هذا الاحتفال: «... في ذلك الزمان، في سنة ١٩٠٧، والبلدان العثمانية بأسرها رازحة تحت نير الحكم الأوتوقراطي، تئن من جور عمال السلطان عبد الحميد، كان يعيش في بيروت قبضة من الشبان المستنيرين، يرون ما يراه مواطنوهم، ويشكون شكواهم، ولكنهم كانوا من القلائل الذين يفكرون بعمل شيء... أما قصة احتفالهم بأول نوار **فسمعتها من ثلاثة منهم، في مناسبات متباعدة.** وجرى ذلك سنة ١٩٠٧ في محلة «الروشة» ببيروت، وهي مقفرة من كل مسكن على رمال الشاطئ، وبعيدة عن عيون الرقباء...» ـ (صفحة ٥٠).

من هم هؤلاء الرواد؟

ليس واضحاً لنا، حتى الآن، من أية فئات كان الجمهور الصغير الذي حضر هذا الاحتفال ـ شبه الأسطوري ـ هل هم جماعة من صيادي السمك ومن كادحي تلك المحلة التي كانت أشبه بقرية محاطة بالصبير، سكانها فقراء فقراء، وتشكّل ضاحية «بعيدة» ـ بمقاييس ذلك الزمن ـ من ضواحي بيروت؟.. على أننا صرنا نعرف من هم «أولئك الفرسان الشجعان» الذي خطبوا في ذلك الاحتفال. فإن يوسف ابراهيم يزبك يؤكد، في كتابه نفسه عن «حكاية أول نوار» ـ (صفحة ٤٩) أنهم:

ـ **مصطفى الغلاييني** (من بيروت).

ـ **فليكس فارس** (من صليما).

ـ **داود مجاعص** (من الشوير).

ـ **جرجي نقولا باز** (من بيروت).

ـ ثم... **خيرالله خيرالله** (من جران، البترون)... وقد تركناه يلقي خطابه، في قاعة الكريستال ببيروت، عام ١٩٢٥، ويتحدث عن هذا الاحتفال بالذات... هل تذكرون؟،

... وكان هؤلاء الشبان يشكّلون فيما بينهم، تلك الأيام، حلقة باسم «الشبيبة الحرة»، وكانوا يعملون في سبيل الحرية وفي سبيل الدستور والحياة الديموقراطية... (وكان المفكر اللبناني المتنوّر **أمين الريحاني**، على صلة بحركة هؤلاء الشباب، يشجّع نشاطاتهم ويشارك في بعضها) ـ «... فلما أُعلن الدستور في السلطنة العثمانية (عام ١٩٠٨) انبرى شبابنا هؤلاء يدعون إلى حراسة حكم الحرية وصيانته من الرجعيين، والى وجوب مكافحة بقايا الاستبداد الحميدي والحذر منهم، (يزبك، المصدر نفسه، صفحة ٤٩)... ولكن، بعد عدة أشهر من اعلان الدستور، ووهم الحرية، أخذ هؤلاء الشبان، مع غيرهم من الشبان المستنيرين في لبنان وسوريا وأنحاء العالم العربي، يجابهون أشكالاً جديدة، وأكثر شراسة، من الطغيان التركي...

ولكن، ماذا يشكل كل من هؤلاء الشبان، في الواقع الفكري والسياسي وداخل حركة شعبنا نحو التحرر؟

□ **داود مجاعص**: عندما شارك في احتفال أول أيار ١٩٠٧ كان عمره ٢١ عاماً (ولد عام ١٨٨٦ في الشوير) ساهم في الحركة المسرحية العربية، ووضع ٤ مسرحيات ـ عمل في الصحافة، وأصدر في الاسكندرية بمصر جريدة «النور» (١٩٠٤ ـ ١٩٠٨) ـ ثم أصدر جريدة «الحرية» من تموز ١٩٠٩ حتى أيلول ١٩١٠. وفي هذه الجريدة نشر فصول كتاب «أصول العمران» لرفيقه في الاحتفال وفي «الشبيبة الحرة» خيرالله خيرالله، وكان قد نشر له في «النور» قصيدة بعنوان «سلام على أرض سورية»... ومن خلال اسمي الجريدتين وما نشره لخيرالله فيهما ومن خلال مقالاته فيهما، حيث يطالب بحقوق المحرومين والمستضعفين ويهاجم الاضطهاد وأعداء الشعب، نستشف

الاتجاه الليبرالي العام لفكره. هاجر داود مجاعص إلى التشيلي والمكسيك ـ توفي عام ١٩٦٠[١].

□ **جرجي نقولا باز:** كان عمره ٢٦ عاماً عندما شارك في الاحتفال العربي الأول بعيد أول أيار ١٩٠٧ (ولد عام ١٨٨١ في بيروت). يعتبر أحد كبار رواد حركة تحرير المرأة في البلاد العربية. وهو «أول صوت عربي لبناني، بعد المعلم بطرس البستاني الكبير، نادى في العهد العثماني، وتحت الحكم الحميدي، بتحرير المرأة العربية والشرقية. وهي جرأة كبيرة في ظروف أناخ فيها الظلم والاضطهاد والاستبداد بكل ثقله ووطأته على البلاد» ـ (يوسف أسعد داغر: «مصادر الدراسة الأدبية» الجزء ٣، صفحة ١٦٠). وقد تميز بكتابة تواريخ دقيقة لحياة عدد من المجلات والصحف، ولعدد كبير من أعلام الثقافة العربية منهم: «فرح أنطون» و «سليم سركيس» و «سليمان البستاني» و «ابراهيم المنذر» و «ماري عجمي» و «ماري ينيّ» و «يعقوب صروف» و «خيرالله خيرالله» ـ رفيقه في الاحتفال وفي «الشبيبة الحرة» ـ وكان أثر أفكار الثورة الفرنسية واضحاً في كتاباته ومواقفه ـ توفي عام ١٩٥٩.

□ **فليكس فارس:** كان عمره ٢٥ عاماً عندما خطب في احتفال أول أيار عام ١٩٠٧ (ولد عام ١٨٨٢ في قرية صليما)، والده لبناني وأمه فرنسية. كان من أشهر خطباء زمانه. كثير الانتاج، وكثير الحماس في مختلف مواقفه. مشبع بأفكار الثورة الفرنسية. وفي ضوء هذه الأفكار كان يعمل لتحرير البلاد العربية من السيطرة العثمانية، ومن أجل مجتمع ديوقراطي، عصري. وفي ضوء هذه الأفكار نفسها كان شديد الاعجاب بفرنسا، وكان يرى، مع غيره من بعض ليبراليي ذلك الزمن،

---

(١) بعض المعلومات التاريخية عن: داود مجاعص، وجرجي نقولا باز، وفليكس فارس، ومصطفى الغلاييني، استخلَصناها، بشكل أساسي، من ثلاثية يوسف أسعد داغر «مصادر الدراسة الأدبية».

أن فرنسا هي القدوة، وهي الأمل، وهي التي تحمل الحرية إلى بلادنا!!. (وسوف نرى كيف خابت آمال وأوهام كثيرين من هؤلاء الليبراليين، بعد فرض الانتداب الفرنسي على لبنان، فاتخذ كثيرون منهم مواقف معادية للسيطرة الفرنسية). كتب الشعر، والقصة، وبرع في فن الخطابة، كتابة والقاء ـ ترجم «اعترافات فتى العصر» لألفرد دي موسيه، وتأثر به. وترجم «هكذا تكلم زردشت». لنيتشه، وتأثر به أيضاً... وأصدر مجموعة من محاضراته حول الحركة القومية بعنوان «رسالة المنبر إلى الشرق العربي» ـ عمل في لبنان، وفي المهاجر الأميركية، وفي مصر ـ وتوفي عام ١٩٣٩.

□ **مصطفى الغلاييني:** كان في الثانية والعشرين من عمره عندما شارك في احتفال أول أيار ببيروت عام ١٩٠٧ (ولد عام ١٨٨٥ في بيروت). بدأ بتلقّي علومه الدينية في بيروت على الشيخ عبد الباسط الفاخوري. ثم ذهب إلى مصر، وانتسب إلى الأزهر حيث تتلمذ على الشيخ الامام محمد عبده وتأثر بنزعته إلى التجديد الاجتماعي، ثم تأثر بمصطفى كامل ونضاله في الحركة الوطنية المصرية. صار عالماً باللغة، وفقيهاً بالعلوم الدينية، وصحافياً شهيراً في زمنه، وواحداً من أبرز رجال النهضة الثقافية في مطلع القرن العشرين. أصدر مجلة «النبراس»، وكتب في اللغة، والتاريخ، والشعر، وأصدر الكثير من الكتب، وخاصة كتب تدريس اللغة والآداب العربية. تولّى قضاء بيروت الشرعي. وعمل في التدريس طوال عشرين عاماً قضى معظمها في «الكلية الاسلامية» حيث كان بين تلامذته: الشاعر عمر حمد، والكاتب عبد الغني العريسي، ومحمد ومحمود المحمصاني (وجميعهم من المناضلين الوطنيين الذين صاروا لاحقاً من الشهداء الذين أعدمهم السفاح التركي جمال باشا لنضالهم من أجل تحرير وطنهم من الطغيان التركي)، ومن تلامذته أيضاً عمر فاخوري (الذي سيصبح واحداً من كبار الأدباء والمفكرين التقدميين العرب، وأحد كبار المناضلين مع الحزب الشيوعي اللبناني). فقد كانت الكلية الاسلامية مركزاً هاماً للثقافة العربية المتنوّرة، وأحد أهم مراكز تخريج

المناضلين في حركة التحرر القومي العربية. وقد كتب عنه عمر فاخوري، عام ١٩٤٥: «أن الكتاب العربي ليس يفترق في ذهني – وفي ذهني خاصة – عن صورة للغلاييني وهو فتى... هو في أول عهده بالتدريس، وأنا في أول عهدي بالدراسة. يعلِّمنا العربية فيجيد تعليمنا، ويؤدّبنا فيُحسن تاديبنا، بكل ما أوتيه من معرفة وايمان. إني – وكثير أمثالي في هذا البلد – مدين للشيخ مصطفى الغلاييني، بأفضل ما عندي من معرفة وإيمان بلغة الضاد، ومدين له بما قد يكون خيراً من هذا كله: مدين له بالانطباع الأول، بالدفعة الأولى»... وهكذا تخرَّج من تحت يديه جيل من المتحررين، المناضلين، المشبعين بحب الثقافة العربية، والنزوع نحو التحرر القومي – في آخر سنوات السيطرة التركية؛ كان الغلاييني يخشى أن تقع بلادنا تحت سيطرة أجنبية أخرى. ولكنه اتخذ موقفاً حاسماً ضد السفاح جمال باشا بعد مجزرة ٦ أيار. واتخذ موقفاً كفاحياً حاسماً ضد الانتداب الفرنسي، فساهم في العديد من المؤتمرات الداعية إلى تكوين الدولة العربية الواحدة في البلاد السورية، والى رفض الانتداب الفرنسي. ولهذا اعتقلته السلطات الفرنسية عندما احتلت لبنان، وسجنته في السجن العسكري ببيروت، ثم نفته إلى جزيرة ارواد بسوريا – توفي في بيروت عام ١٩٤٤.

أما **خيرالله خيرالله**، الرفيق الخامس لهؤلاء الفرسان الشجعان، خطباء الاحتفال العربي الأول بعيد أول أيار ١٩٠٧، فقد تركناه في قاعة الكريستال، قرب ساحة الشهداء ببيروت، يستعيد أمام المحتفلين بعيد أول أيار عام ١٩٢٥، ذكريات ذلك الاحتفال الأول المدهش، على شاطئ بيروت، حيث تجمَّع عدد من الناس، رغم الطغيان التركي وضده، فألقيت بعض الخطب، وصفَّق الحاضرون للخطباء.

ولكن، ألا يمكننا الافتراض: أن خيرالله خيرالله، وهو يروي لعمال ١٩٢٥ حكاية احتفال ١٩٠٧، كان يحاول أن يستحضر ويستوعب ما جرى بين هذين العيدين؟ ثم ألا ينهض أمامنا نحن هذا السؤال: لماذا خيرالله خيرالله نفسه، هنا وهناك؟

بين الاحتفالين حركتان مميزتان:

١ – تخلصت البلاد من نير السيطرة التركية...

٢ – ووقعت تحت نير السيطرة الاستعمارية الفرنسية.

ولعل خيرالله خيرالله ـ بوصفه هو نفسه، وبوصفه رمزاً لفئة معيّنة من المثقفين الليبراليين ـ ساهم في الحركتين معاً.

فعندما خطب مع رفاقه في الاحتفال الأول ١٩٠٧ كان عمره ٢٥ عاماً (ولد في جران، البترون، في ٢٧ كانون الثاني، عام ١٨٨٢)... وكان الظّلام العثماني يزداد تكاثفاً. كما أن الحركات والجمعيات السرية العربية أخذت تجذب فئات المثقفين المتنوّرين بشكل خاص نحو شعارات الحرية، والمساواة، والدستور، وشعارات غامضة، مختلفة، بشأن التحرر القومي العربي، وهل يتخذ شكل حكم ذاتي ضمن الامبراطورية العثمانية، أم ينطلق إلى مداه الطبيعي نحو الانفصال عن هذه الامبراطورية وتكوين الدولة العربية الموحّدة المستقلة؟.. على أن مختلف هذه الاتجاهات والتيارات كانت تندرج، موضوعياً، وعملياً فيما بعد، في النضال ضد الاضطهاد القومي التركي، وضد سياسة القمع، والنهب، وسيطرة حكم الجواسيس والارهاب الحميدي الدامي.

وكانت أفكار الثورة الفرنسية تمارس تاثيرها القوي في أوساط المتنوّرين، من عرب وأتراك، بقدر ما كانت تطلّعات البورجوازية الناشئة، داخل الامبراطورية العثمانية، تعبّر عن طموحها إلى الحرية، وهي هنا، وبالأساس، حرية حركتها الاقتصادية التي يعرقلها الحكم الحميدي، الاقطاعي، المطلق. ولعل «جمعية الاتحاد والترقّي» هي التجسيد النموذجي لهذه النزعة... «فقد انتسب إلى هذه الجمعية ممثلو الضباط الطليعيين والمثقفين الذين كانوا يعكسون مصالح البورجوازية التركية ويؤيدون تحويل الامبراطورية العثمانية إلى دولة بورجوازية ـ دستورية. فكان بعث الدستور من مطالبهم الرئيسية»[١].

هذه الجمعية قامت «بثورتها» (عام ١٩٠٨) بواسطة الجيش.

أبقت على السلطان عبدالحميد!. ولكنها فرضت عليه اعادة العمل بالدستور العثماني.

«نصف ثورة» ـ على حد تعبير لينين ـ فقد أبقى الانقلابيون على «نقولا الثاني

---

(١) لوتسكي: «تاريخ الاقطار العربية الحديث» ـ الطبعة العربية، دار التقدم، موسكو ١٩٧١ ـ صفحة ٣٩٤.

التركي» ـ أي: عبد الحميد ـ وأخذوا يساومون معه[1]... إنهم يخافون الجماهير مثل جميع النصف ـ ثوريين في العالم!!.

أعيدت الحياة الدستورية إلى البلاد.

اجتاحت البلاد العربية فرحة عارمة!.. ظن العرب ان الظلام العثماني تبدّد تحت أنوار الدستور!... وأن العرب سينالون حقوقهم في ظل الدولة العثمانية ـ الدستورية الجديدة!.. واختفى الكلام عن حقوق العرب القومية، والنزوع إلى التحرير القومي، وحلّت محل هذا شعارات «الأخاء العربي ـ العثماني».. وسادت الأوهام حول تحرر عربي في إطار تركيا الجديدة... الدستورية!!

فهل خُدع العرب جميعاً؟

أمين الريحاني، المفكر العربي، لم ينخدع بكل مظاهر هذا العيد... بعث برسالة من واشنطن إلى صديقه قسطنطين ينّي في بيروت يحذّره من المبالغة في الحماس للحرية الآتية مع الدستور![*]...

والريحاني ليس مجرّد مفكّر، بل هو الصوت الجريء لتيار تحرري تقدمي موجود.

وهل كان خيرالله خيرالله من المخدوعين؟

لا أظن... وهذا ليس عائداً إلى نزعته التحررية العربية بقدر ما هو عائد إلى ارتباط هذه النزعة، في تفكيره، بمبادئ الثورة الفرنسية، وبأن انتصار هذه المبادئ في البلاد العربية لا يمرّ عبر انقلابيي تركيا بقدر ما يكون ـ ربما ـ بمساعدة فرنسا، موطن هذه المبادئ!...

وهمٌ آخر... ولكنه ظلّ يتحكّم بممارسات هذه الفئات من المثقفين الليبراليين سنوات طويلة، وأليمة. وسوف نرى كيف أن أوهام الكثيرين من هؤلاء لم تتبدد الا تحت ضربات الواقع الدامي، وبعد أن داست جزمات العسكريين الفرنسيين بالذات كل نزعة إلى الحرية والديموقراطية، وكل تطلّع وطني في سوريا، ولبنان، وأخذت تقمع رافضي الانتداب، وحق أنصاره القدماء من أصحاب أوهام «الحرية» الآتية مع فرنسا!!.

---

(١) لينين: «حركة التحرر الوطني لشعوب الشرق» ـ دار التقدم، موسكو، الطبعة العربية.

(*) راجع «رسائل امين الريحاني» ـ منشورات دار الريحاني، بيروت.

على أن شهر العسل «العثماني ـ العربي» لم يستمر طويلاً... ففي العام نفسه بدأ قادة «جمعية الاتحاد والترقي»، الأتراك، يكشِّرون عن أنيابهم الشوفينية... وبدأ يظهر أن ممثلي البورجوازية التركية المتخلّفة، المساومة مع الاقطاع والمرتبطة بالامبريالية الالمانية الصاعدة، هي الوريث الشرعي لأسوأ ما في الدولة الاقطاعية العثمانية من أساليب القمع والاضطهاد القومي والاستبداد، ولأشرس ما في البورجوازية الأوروبية من أساليب استثمار الشعوب الأخرى ونهب ثرواتها مجبولة بالوحل والدم....

وعانى المتنوّرون العرب، على يد «اخوانهم» الاتحاديين، أقسى ضروب الاضطهاد العنصري.. ترافقها محاولات وحملات منظَّمة لسحق وطمس أيّ نزوع عربي، ولو باسم الاسلام!.. وانكشفت واضحة سياستهم الاستعمارية في محاولة «التتريك» الإرغامي لجميع الشعوب داخل الأمبراطورية العثمانية، وخاصة الشعوب العربية، حيث كان متنوّرو هذه الشعوب يعملون على الاحتماء باللغة العربية وبأمجاد الماضي العربي... ضد الانفلات العنصري التركي.

عادت الحركات السرية العربية إلى العمل... نشأت جمعيات سرية جديدة.. وكذلك نشط دعاة فرنسا وانكلترا وسط بعض هذه الجمعيات نفسها.. ونشط الطلاب العرب في باريس، وأكثرهم من أعضاء «الجمعية العربية الفتاة»، وأجروا اتصالات بمختلف الجمعيات العربية في البلاد وفي المهجر.. وانطلقت من هؤلاء الطلاب بالذات الدعوة إلى عقد «المؤتمر العربي الأول» لتقرير مستقبل علاقة العرب بالدولة العثمانية.

وانعقد «المؤتمر العربي الأول» في باريس. بين ١٨ و٢٣ حزيران ١٩١٣.

الوطنيون العرب رأوا في المؤتمر وسيلة هامة جداً للتعبير عن النزوع التحرري القومي، ولتأكيد بروز قضية حادة هي **القضية العربية**... حتى ليمكننا القول، مع يوسف يزبك، إن هذا المؤتمر بمثابة «**أول عمل عربي جماعي، دشّن التنظيم القومي على أسس جديدة**، وأذاع المسألة العربية على الألوف ومئات الألوف من أبناء العرب

البعيدين عن المعركة، وعلى الملايين من سكان الأرض»[1]... على أن المؤتمر عبَّر، من ناحية ثانية، عن وجود أوهام لدى العديد من عناصره الليبرالية حول «الدور التحرري» الذي يمكن أن يؤديه التعاون بين الحركة العربية من ناحية والدول المعادية لمحور تركيا ـ ألمانيا (أي: فرنسا وانكلترا على التحديد) من ناحية ثانية. وهذا الوهم غذَّته ونفخت بناره عدة عوامل، منها: نشاطات هذه الدول نفسها.. وارتباط أفكار الثورة الفرنسية، في أذهان العديد من الليبراليين العرب، بفرنسا التي داست، هي نفسها، أفكار ثورتها، ودخلت مرحلتها الامبريالية.. على أن أهم عامل هنا هو: تجنُّب، أو خشية، هذه العناصر التحررية العربية، ذات التطلّعات البورجوازية، من إعداد الجماهير وإشراكها في الحركة التحررية، وبالتالي: **العجز التاريخي** لهذه الفئات عن السير في الحركة الثورية حتى النهاية، نتيجة عجزها عن أن تتكوَّن، كطبقة بورجوازية مستقلة، في عصر السيطرة الامبريالية على العالم.

من هنا، فإن العديد من العناصر الوطنية المخلصة، وهي روح المؤتمر، كانت ترى في التعاون مع فرنسا أو انكلترا، عاملاً مساعداً على التحرر... وكان خيرالله خيرالله من أهم هذه العناصر البارزة في المؤتمر. ولعله ـ هو بالذات ـ كان أهم عناصر الصلة بين المؤتمر والأحزاب الفرنسية. وكان يمثل المؤتمر بوصفه أحد سكرتيريه، وعارفاً بخفايا ودهاليز وتيارات السياسة في فرنسا وفي الشرق العربي على السواء[2].

---

(١) يوسف ابراهيم يزبك: محاضرة حول «تطور الشعور العربي» ألقاها في «الندوة اللبنانية»، آذار ١٩٥٧، ونشرت في النشرة ٤ السنة ١١ من سلسلة «محاضرات الندوة اللبنانية» نيسان ١٩٥٧ ـ صفحة ٢٧٥.

(٢) لا بد من القول هنا، ان هذه الأوساط الفرنسية، من حكومية ومعارضة، كانت تعتبر خيرالله خيرالله مرجعاً هاماً يستقون منه المعلومات حول قضايا الشرق، سواء من خلال كتبه ومقالاته أم من خلال الصلات معه. وقد سبق ان وضع كتاباً، بالفرنسية، عام ١٩٠٨ «حول المسالة الاجتماعية والتربوية في سوريا» دعا فيه إلى توحيد التعليم والتربية في البلاد السورية (لبنان ـ سوريا ـ فلسطين) وهذا الكتاب «جعل اسمه معروفاً في فرنسا قبل ذهابه إليها عام ١٩١١. فعهدت إليه مجلة «العالم الاسلامي» أن يكتب لها فصولاً في وصف سوريا، ارضها وتاريخها وحالها اجتماعياً أدبياً سياسياً. فعني بذلك جيداً، وجمع هذه الفصول كتاباً طبعه باسم «لا سيري» (سوريا) سنة ١٩١٢ في نحو مئة وخمسين صفحة. واتصل بجريدة «الطان» وتخصَّص للكتابة فيها في المواضيع الشرقية، وكثيراً ما أوفدته مندوباً عنها لدرس الأمور من مصادرها كما فعل عام ١٩١٣ لما جاء لاستطلاع حال الاصلاحيين في سوريا» ـ (جرجي نقولا باز: «خيرالله كما عرفته» ـ مجلة «المعرض» في ١٠ آب ١٩٣٠) ـ وفي حديث خاص مع يوسف يزبك قال: إنَّ لخيرالله كتاباً مخطوطاً عن «النبي محمد» نهج فيه نهج الباحث العربي القومي، معتبراً الاسلام ـ إلى جانب رسالته الروحية ـ دعوة إلى جمع شتات العرب.

فهو، بوصفه رئيساً للقسم الشرقي في جريدة «الطان» الفرنسية الشهيرة، وشبه الرسمية، استطاع أن ينشر في هذه الجريدة وصفاً مسهباً لسير أعمال المؤتمر، وملخّصات عن خطب الوفود، وجميع الوثائق الصادرة عنه. ثم هو الذي صاغ النص الفرنسي لحديث رئيس المؤتمر العربي عبد الحميد الزهراوي، الذي أدلى به إلى «الطان» بينما وضع عبد الغني العريسي النقاط الرئيسية لما جاء في هذا الحديث حول «خصائص العرب كأمة»[١].

إلى متى استمرت هذه الأوهام عند هذه العناصر الوطنية العربية، وعند خير الله خيرالله؟

على أن التفصيل في هذه القضية ليس هو موضوعنا في هذا الكتاب. ما يهمّنا التأكيد عليه هنا، للوصول إلى الغاية التي قصدنا إليها من هذا الاستطراد الطويل، هو:

إن أوهام هذه الفئات، بأن تأتيها الحرية بواسطة الآخرين، بعيداً عن الجماهير وعن إعدادها لمعركة التحرر، سوف تستمر، وتتجدّد، باستمرار **العجز التاريخي** لهذه الفئات أن تتكون كطبقة مستقلة، تسير في طريق الثورة إلى النهاية، وتتحرر من شبكة العلاقات التي تربطها تبعياً بنظام الانتاج الامبريالي العالمي، وبإيديولوجيته...

ولا تزال هذه الأوهام، عند هذه الفئات، تتجدَّد حتى أيامنا هذه...

أما الطبقة التي تملك إمكان التحرر من هذه الأوهام، كطبقة، وإمكان السير في حركة التحرر الثورية حتى النهاية، وتملك القدرة على هذا، فهي الطبقة المهيأة، تاريخياً، أن تتحرر وتحرر البلاد كلها من شبكة العلاقات التبعية مع نظام الانتاج الامبريالي العالمي، ومن نظامه الايديولوجي، هي الطبقة العاملة. وقد رأينا بدايات تكوّنها المستقل، كطبقة، تبرز خلال احتفال الكريستال (أيار ١٩٢٥) حيث سنرى ما يتميّز به فكر هذه الطبقة وممارساتها عن فكر وممارسات الفئات الأخرى.

وهذا هو موضوعنا الأساسي الذي سنتابعه بعد استطراد قصير، لا بد منه، بقدر ما

---

(١) يوسف ابراهيم يزبك: «مؤتمر الشهداء» ـ صفحة ٧٦.

يساهم في توضيح ما تكتسبه الطبقة العاملة وترثه وتنمّيه، من حركة الكفاح العربي السابقة لتكوّنها كطبقة، وبالتالي ما تفترق به عن هذه الحركة وما يميّزها.

فلنتابع قصتنا...

لقد عكست قرارات المؤتمر العربي الأول في باريس، عام ١٩١٣، الطابع الاصلاحي للقائمين به، فهم من ناحية حدّدوا الحقوق السياسية للعرب «بأن يشتركوا في الادارة المركزية للمملكة اشتراكاً فعلياً» ـ كما جاء في قرارات المؤتمر ـ وهم، من ناحية ثانية، طالبوا بتنفيذ مطالب ولاية بيروت بـ «تعيين مستشارين أجانب» ـ المقصود هنا التقرّب من فرنسا ـ، على أن الأهمية الحقيقية للمؤتمر ليست في قراراته هذه، بل في المعنى القومي التحرري لانعقاده، ولبعض الأفكار الهامة حول الحقوق القومية للعرب وحول خصائص حركتهم القومية، وقد جاءت هذه الأفكار، خصوصاً، في الكلمة النيِّرة التي ألقاها عبد الغني العريسي، أحد أبرز العاملين في الحركة القومية العربية. وبالتالي فإن أهمية المؤتمر برزت، فيما بعد، من خلال التأثير الايجابي لتوحيد العمل الكفاحي بين معظم الجمعيات العربية التي اشتركت فيه.

ولكن الحرب كانت تدق أبواب العالم.

فإن الرأسمالية دخلت مرحلتها الإمبريالية (مرحلة سيادة الاحتكارات، وتصدير الرساميل، وتقسيم العالم بين الاحتكارات). فصار لا بد، نتيجة هذا التطور، ونتيجة للتفاوت في التطور بين البلدان الرأسمالية، من إعادة تقسيم العالم، بين الضواري، على أساس ميزان القوى الجديد لهذه الضواري.

وانفجرت الحرب، عام ١٩١٤.

وكانت مسألة الاستيلاء الامبريالي على بلادنا العربية أحد أهم عوامل هذه الحرب. وقد حدّدها لينين بأنها «حرب من أجل تقسيم العالم، من أجل اقتسام، واعادة اقتسام، المستعمرات و «مناطق نفوذ» الرأسمال المالي»[١]... ثم أعطى إيضاحاً ملموساً لهذا التحديد.. فقد اشتعلت هذه الحرب «في سبيل اعادة اقتسام العالم بين فئتين جبارتين أكثر جبروتاً لأصحاب المليارات، وهما الفئة الانكلو ـ فرنسية والفئة الألمانية.. وكانت

---

(١) لينين: «الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية»، دار التقدم، موسكو ١٩٧٠ ـ الطبعة العربية، صفحة ١٠.

فئة الرأسماليين الانكلو ـ فرنسية تريد قبل كل شيء، أن تنهب المانيا بانتزاع مستعمراتها (وقد انتُزعت جميعها تقريباً) وثم أن تنهب تركيا.. وكانت فئة الرأسماليين الألمان تريد اغتصاب تركيا **لنفسها** والاستيلاء على الدول المجاورة الصغيرة (بلجيكا وصربيا ورومانيا) للتعويض عما فقدته من المستعمرات»[(١)].

وفي مجرى الحرب، اتفق الامبرياليون: الفرنسيون والانكليز، على تقاسم محدّد لتركة «الرجل التركي المريض» بينهما: لبنان وسوريا لفرنسا... وفلسطين والعراق لانكلترا! (حسب اتفاق سايكس ـ بيكو).

وفي مجرى الحرب وقفت معظم عناصر حركة التحرر العربية إلى جانب المعسكر الانكلو ـ فرنسي، متوهّمة أن الحرية والاستقلال واقامة الدولة العربية الموحّدة سوف تأتي من هنا.!!. وبتأثير هذا الوهم كان يجري التعاون بين العديد من الجمعيات العربية السرية، وبين الأوساط «الحليفة»!

وفي مجرى الحرب اعتقل السفاح التركي جمال باشا العشرات من المكافحين الوطنيين العرب المناضلين ضد الطغيان التركي ومن أجل استقلال بلادهم العربية، وبين هؤلاء كان معظم المشاركين في «المؤتمر العربي الأول».

ـ في ليل ١٥ آب ١٩١٥، شهدت ساحة البرج في بيروت اعدام القافلة الأولى.

ـ وفي ليل ٦ أيار ١٩١٦، شهدت الساحة نفسها، وقد صار اسمها ساحة الشهداء، اعدام القافلة الثانية.

ومن بين شهداء القافلتين تبرز أسماء: عبدالحميد الزهراوي، أحمد طبارة، عبدالغني العريسي، محمد المحمصاني، عبد الكريم الخليل.

... رفاق خيرالله خيرالله في المؤتمر.

ولعلهم الآن ماثلون في وجدانه وهو يتحدث إلى عمال أيار ١٩٢٥، في قاعة الكريستال، على الضفة الغربية لساحة الشهداء... بل لعله يحسّ نزف دمائهم، ويسمع أصواتهم المنطلقة في آخر الليل العثماني: «نموت من أجل حرية العرب، ولتسقط امبراطورية الأتراك».

---

(١) لينين: «رسائل من بعيد» ـ نقلاً عن لوتسكي ـ صفحة ٤٣٦.

ولقد سقطت امبراطورية الأتراك. وأدى المناضلون الوطنيون العرب دوراً أساسياً في إسقاطها... بالتعاون مع الحلفاء: انكلترا وفرنسا.

ولكن هل حصل العرب على الحرية؟

فرنسا وعدت اللبنانيين، خصوصاً، بالاستقلال. بل شكّلت من المهاجرين اللبنانيين والسوريين فصيلة عسكرية للمساهمة في «تحرير سوريا»!... وقد التفَّ المثقفون اللبنانيون المتحررون حول هذه الفصيلة وساهموا في الدعوة إليها وتشكيلها (منهم: الأدباء الكبار: جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وأمين الريحاني، وخيرالله خيرالله...)... وكانوا يظنون أن علم فرنسا لا يزال هو علم الثورة الفرنسية الكبرى، وهو علم الحرية!...

بريطانيا وعدت العرب جميعاً بالحرية والاستقلال وتكوين دولتهم العربية الموحدة الكبرى!.. اتفقت معهم على اعلان الثورة العربية ضد تركيا.. والتحق بجيش الثورة الكثير من المكافحين الوطنيين، واعتمد قادة الثورة، أساساً، على بريطانيا، دون إعداد حقيقي للجماهير في الداخل.. وقاتل العرب، بالحدود المسموح لهم بها أن يقاتلوا.. وعندما دخل الجيش العربي إلى دمشق، وحررها من فلول الأتراك المنهزمين أمام جيوش الحلفاء، ظنّ المكافحون العرب أنهم ملكوا الحرية والاستقلال ودولتهم الكبرى، واجتاحت الفرحة جماهير العرب جميعاً.

فهل استقل لبنان، وهل تحرر العرب وأقاموا دولتهم الكبرى؟

الأكثرية الساحقة من المثقفين الليبراليين والتحرريين العرب، المشبعين بأفكار الثورة الفرنسية.. وكذلك الأكثرية الساحقة من الوطنيين العرب المشاركين بالثورة العربية المنطلقة من الحجاز، بقيادة الهاشميين، والواثقين بعهود بريطانيا والمعتمدين عليها... هؤلاء وهؤلاء توهّموا أن الحرية جاءت! وأن مؤتمر الصلح المعقود في باريس بعد الحرب، سوف يوزع الاستقلالات على الشعوب!!.

قيل لهم: إن المؤتمرين في فرساي يتقاسمون الغنائم والبلاد فيما بينهم، فلم يرغبوا أن يصدّقوا هذا. وقيل لهم: إن الحرب، أساساً، اشتعلت بين الضواري الامبريالية لإعادة تقاسم العالم حسب الميزان الجديد للقوى، فلم يظهر أنهم ـ في تلك الأيام ـ فهموا هذا...

... وقالت لهم **ثورة اكتوبر** (منذ تشرين الثاني ١٩١٧): إن الانكليز والفرنسيين اتفقوا على تقسيم بلادكم فيما بينهم، وعقدوا معاهدات سرية عُرفت باسم «سايكس ـ بيكو» تكرِّس هذا الاتفاق، بالاتفاق مع روسيا القيصرية، وهذه هي نصوص المعاهدات السرية، نكشفها نحن وننشرها على الملأ، اقرأوها وناضلوا على هذا الأساس..

كثيرون، من الذين اتيح لهم الاطلاع على نصوص تلك المعاهدات السرية، فتحوا عيونهم على الحقائق الجديدة، وصدّقوا. وكثيرون أيضاً من هؤلاء لم يريدوا الاعلان بأنهم صدّقوا.. والقابضون على زمام «قيادة الثورة» قالوا: كان هذا خلال الحرب، أما الآن فقد تغيرت الأوضاع، وسوف نصل إلى مطالبنا عن طريق «التفاوض» مع الحلفاء المؤتمرين في فرساي.

العجز التاريخي لهذه الفئات في قيادة حركة التحرر العربية يبرز من جديد:

هذه الطبقة ليس باستطاعتها، في عصر الامبريالية، أن تتكوَّن كطبقة مستقلة، فهي إذن لا تثق بنفسها، ولا بقدرتها، وتخشى من انطلاقة الجماهير، فتلجأ إلى أسلوبها التقليدي النابع من طبيعتها التكوينية: التفاوض، وعرض المطالب، والاعتماد على الآخرين في تحقيق الأهداف الوطنية... بعيداً عن الجماهير.

فهل أتيح لخيرالله خيرالله أن يقترب إلى وعي هذه الحقيقة؟

ولكن، هل يحق لنا، أصلاً، أن نطرح مثل هذا السؤال؟

الواقع أن في حياة خيرالله (في فكره السياسي الاجتماعي، وفي نشاطه العملي) الكثير من المدهشات:

فهو، كما نعرف، مثقف كبير، موسوعي المعلومات، خصوصاً في شؤون الشرق العربي. وهو يتميّز ببعده عن مختلف أشكال التعصّب، الديني والفكري على السواء، ويحارب التعصب الطائفي. ولعل علاقته بالوطنيين المسلمين لا تقل وثوقاً عن علاقته بالوطنيين المسيحيين اللبنانيين خاصة والعرب اجمالاً.

أما في الأوساط الفرنسية فتربطه، من ناحية، علاقات بالأوساط السياسية الرسمية، بحكم عمله الصحفي ونشاطه السياسي.. وتربطه، كذلك، علاقات صداقة وفكر بعددٍ من

الاشتراكيين الفرنسيين الراديكاليين، بحكم نزوعٍ تحرري لعلّه هو الأساس في توجّهاته.

فقد مرّ معنا: أن خيرالله أسهم في تشكيل «لجنة تحرير سوريا» منذ العام ١٩١٤، برعاية فرنسية، وارسال فصيلة متطوعين لبنانيين، إلى سوريا ولبنان للمحاربة مع الحلفاء بهدف طرد تركيا من هذه البلاد. وعندما أزيح الكابوس التركي عن البلاد العربية.. وطرح الوطنيون العرب أمام «حلفائهم» مسألة الاستقلال وانشاء الدولة العربية المستقلة الموحّدة، بدأت مماطلات الحلفاء تظهر.. فأخذت خيبة الأمل تسري في نفوس الوطنيين الذين وثقوا بهؤلاء... الحلفاء!. ومنهم بالطبع، وبالتأكيد، خيرالله خيرالله.

ومنذ العام ١٩١٧، بدأت أنوار ثورة أكتوبر الاشتراكية الكبرى، تمارس فعلها الثوري والتحريري، في مختلف أنحاء العالم. فهي، من ناحية، - وبالنسبة للعرب - كشفت تآمر الحلفاء لتقاسم البلدان العربية في ما بينهم. ومن ناحية ثانية أتاحت للأفكار الاشتراكية وأفكار التغيير الاجتماعي، أن تكتسب قوة مادية جديدة هائلة على نطاق العالم، وتجد تعبيرات عنها، كثيرة التنوّع، في بلدان عديدة، ومنها بلادنا العربية.

فبرزت، في هذه الفترة، وأخذت تتسع وتتكاثر، ظاهرات نشوء أحزاب اشتراكية وشيوعية في الكثير من البلدان.

ووجد خيرالله خيرالله نفسه - وهو يعيش في باريس، المركز المهم للصراعات وللتفاعلات الفكرية والسياسية - في خضم الأفكار الاستقلالية التحررية، من ناحية، والأفكار الاشتراكية الراديكالية، من ناحية ثانية.

وما كان معروفاً، من خلال كتابات خيرالله نفسه، ومن الأخبار المنشورة عن نشاطه العملي: أنه كان المحرّك الأساس في تشكيل «لجان لبنانية» في مصر، وفي باريس، وفي ساو باولو، وبيونس آيرس، وغيرها.. وكان المطلب العام والأبرز لهذه اللجان: **الاستقلال التام للبنان، بحدوده الطبيعية، وبدون أية قيود أو شروط.** وقد كلفت هذه اللجان خيرالله نفسه بأن يعرض مطالبها ومطالب الحركات الوطنية العربية على مؤتمر السلام وعلى عصبة الأمم العام ١٩١٩.. هذه المطالب (اللبنانية - العربية العامة) صاغها خيرالله في كتاب صدر في العام نفسه بالفرنسية بعنوان «معضلة الشرق - أو الأقطار العربية المحررة: سوريا - العراق - لبنان». ومما له دلالته أن جريدة «الحقيقة» البيروتية، الرافضة لفكرة الانتداب الفرنسي، والقريبة من الحركة الوطنية العربية الملتفّة،

في تلك الأيام، حول الحركة الفيصلية، قد نقلت الكتاب مباشرة إلى العربية وأخذت تنشره تباعاً، ثم أصدرته في كتاب مستقل في العام نفسه.

هذا الجانب من نشاط خيرالله كان معروفاً، وقد أشار إليه هو نفسه في كتابه هذا بالذات.

على أن ما لم يكن معروفاً ـ وهو، هنا، الأكثر إدهاشاً ـ هو تلك المبادرة الطليعية، التي قام بها خيرالله خيرالله، مع عدد من أصدقائه اللبنانيين، الذين كانوا يدرسون في باريس، وذلك في الأول من تموز من العام نفسه (١٩١٩).

فلنقرأ معاً هذا الخبر المدهش، والغريب، وشبه المجهول:

> [في الأول من تموز ١٩١٩، وفي ٩ شارع Froidevaux في باريس، أسس خيرالله خيرالله، مع خمسة أصدقاء لبنانيين من آل: **نجار، وعبد النور، وشقير، ويونس والحويك** (هو الفنان النحات يوسف الحويك) ـ أسسوا «الحزب الاشتراكي العربي» واسمه الكامل: «**الحزب الاشتراكي ـ الفرع العربي من الأممية العمالية**»، وهدفه واضح: «تفاهم العمال في عملهم الأممي، **والتنظيم السياسي والاقتصادي للبروليتاريا في حزب طبقي من أجل الوصول إلى السلطة**، وجعل وسائل الانتاج والتبادل اشتراكية، أي: **تحويل المجتمع الرأسمالي إلى مجتمع جماعي أو شيوعي**»... وكُلِّف خيرالله بمهام السكرتير العام، بانتظار تشكيل مكتب للحزب.
>
> .. وفي ٢١ تموز ١٩١٩، عُقد اجتماع مشترك بين «الحزب الاشتراكي المصري» و «الحزب الاشتراكي العربي» تمّ فيه الاتفاق على تأسيس «التحالف الاشتراكي الشرقي». وانتخب خيرالله سكرتيراً له..].

هذا الخبر المدهش، أورده الدكتور توفيق توما في كتابه «الريفيون والمؤسسات الاقطاعية عند الدروز والموارنة من القرن السابع عشر حتى ١٩١٤» (الجزء الثاني، الصادر بالفرنسية، في بيروت ١٩٧٢، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات

التاريخية، صفحة ٦٨٧) ـ ولم نعثر، بعد، على أي تأكيد لهذا الخبر، في أي مرجع آخر.. ويقول الدكتور توما إنَّ هذا الخبر مسجّل في أوراق خيرالله خيرالله.

على أن خيرالله لم يأت على ذكر الخبر ولا في أي من كتبه المعروفة.. وليست هنا ـ في كتبه ـ دلالة واضحة تشير إلى هذا التوجّه. خاصة وأن صيغة تحديد أهداف الحزب، كما أوردها الدكتور توما، هي صيغة متقدمة جداً حتى بالنسبة للأهداف المعلنة للأحزاب الاشتراكية والشيوعية التي تأسست سواء في العام نفسه أم فيما بعد، في عدد من البلدان العربية...

فإذا كان من المهم جداً التحقّق من هذا الخبر.. فمن المهم كذلك، وبالدرجة نفسها، استخلاص دلالته في حياة خيرالله وفي فكره.

ولكن الأهم من هذا كله هو: رؤية مدى الفاعلية الحقيقية، لهذا الحدث، في المدى التاريخي.

قد أميل إلى تصديق الخبر، كواقعة.. وأربط هذا الميل بواقع اشتراك خيرالله في ذلك الاحتفال الرائد بعيد أول أيار، على الشاطئ اللبناني، عام ١٩٠٧.. ثم بتواصل هذه العلاقة بالعمال وبعيدهم.. وصولاً إلى اشتراك خيرالله في الاحتفال بأول أيار في قاعة الكريستال ببيروت، العام ١٩٢٥، ذي الأهمية التاريخية. وأربط هذا أيضاً بواقع دعم «حزب الشعب اللبناني» لخيرالله في المعركة الانتخابية عام ١٩٢٥، حيث ترشح عن منطقة البترون، وتوجّهه في خطاباته الانتخابية إلى فقراء الفلاحين، فنال تأييداً واسعاً وكاد أن ينجح.. (فقد نال ٣٤ صوتاً من أصل ٧٠ صوتاً هي أصوات المندوبين الانتخابيين للمرحلة الثانية، وكان يحتاج بعد إلى صوتين فقط ليصير نائباً).

قد أميل، إذن، إلى تصديق الخبر، الذي يحتاج منّا، بالتأكيد، إلى التحقّق منه، والتحقيق الدقيق بظروفه وتفاصيله.

والى أن نصل إلى تفاصيل أكثر.. يمكننا، الآن، أن نرى في هذه الواقعة، **دلالة** على انفتاح فكر خيرالله، وتطلّعاته الخفية إلى الحلول الجذرية، وتفاعله مع الفكر الاشتراكي، الجذري، في خضم التأثير العاصف لثورة اكتوبر الاشتراكية التي انتصرت (عام ١٩١٧).. أي قبل عامين فقط من هذا التأسيس، الغامض، لذلك «الحزب الاشتراكي العربي» عام ١٩١٩، والذي يحدد أهدافه بشكل واضح، قاطع، جذري، ومتقدم: استيلاء البروليتاريا على السلطة، وتحويل المجتمع الرأسمالي إلى مجتمع شيوعي.

يمكننا، إذن، أن نتعامل مع هذا الخبر، بهذه الحدود.

وأن نرى إليه أيضاً كشكل، شبه معزول، من أشكال الإرهاصات الأولية، التي ما أن تلمع حتى تنطفئ، لتظهر بعدها إرهاصات جديدة أكثر قدرة على الفعل، والاستمرار.

ذلك أن الواقعة لم يكن لها ـ كما هو واضح حتى الآن ـ أية فاعلية حقيقية، ولا أي امتداد في الزمان: فلا الأصدقاء اللبنانيين الخمسة الذين التقوا في ذلك اليوم من عام ١٩١٩.. ولا خيرالله نفسه.. ولا أية عناصر أخرى لها صلة بهم، واصلت العمل، أو حتى باشرت به.. لا في باريس بين اللبنانيين، ولا في الوطن، لبناء حزب يعمل ويناضل من أجل هذه الأهداف..

ولعل خيرالله خيرالله، كان لا يزال ذلك المثقف الليبرالي الذي تمتزج في تكوينه الفكري، والنفسي، أفكار الثورة الفرنسية، وأصداء من ثورة اكتوبر وفكرها الجذري، والكثير الكثير من أوهام تلك الفئة من المثقفين الوطنيين العرب، الذين ظنّوا أن بالإمكان التوصّل إلى تحرير بلادهم، ونيل استقلالها، وبناء الدولة، أو الدول، العربية المستقلة، والمتحدة.. «بمساعدة» الدول الأوروبية، وعلى الأخص فرنسا وانكلترا!..

لم يفهموا، وحتى خيرالله نفسه، التكوين الامبريالي لهذه الدول، الذي كان في أساس اندفاعها ـ بواسطة الحرب والغزو والاحتلال ـ لا إلى تحرير الشعوب من سيطرة الامبراطوريات العتيقة.. بل إلى سحق هذه الامبراطوريات بهدف وراثتها، وبالتالي تقاسم الدول والشعوب في ما بينها!. فكانت اتفاقات سايكس/ بيكو.. ثم مؤتمر الصلح عام ١٩١٩.. هي التعبير العملي ـ «الحقوقي»! ـ عن الطبيعة الامبريالية لهذه الدول.

والذي حدث ـ بعد نضالات الوطنيين العرب وتضحياتهم والشهداء (في إطار الثقة بوعود «الحلفاء»!) ـ الذي حدث هو، بالضبط تقريباً، ما اتفق عليه الامبرياليون في المعاهدات السرية.. مع لمسات تدقيقية أجراها مؤتمر الصلح في فرساي. فقد أعاد الضواري تقاسم العالم، وتقاسم بلادنا العربية.. وتحت اسم «الانتداب» ـ الذي اكتسب «شرعية دولية» بإقرار عصبة الأمم ـ صار لبنان وسوريا من ممتلكات فرنسا. وصارت فلسطين والعراق من ممتلكات بريطانيا...

> (على أن تقاسم العالم بين الضواري لم يشمل، هذه المرة، الكرة الأرضية كلها... فقد ظهرت منطقة شاسعة مضيئة خارج نطاق هذا التقاسم.. سيكون لها فيما بعد أثر حاسم في مجموع التغيرات العاصفة

بالأرض والأنظمة ومناطق النفوذ الامبريالي، والمنطلقة، من خلال كفاح الجماهير، نحو تحرير البشر من عبودية السيطرة والاستثمار... هذه المنطقة هي **بلاد ثورة اكتوبر الاشتراكية حيث الجماهير كانت روح الثورة وقوتها الحاسمة وأساس انتصارها).**

على أن هذا كله لم يكن منكشفاً لا لوعي، ولا لممارسات، الكثيرين من ليبراليي تلك المرحلة، بل إن بعض المشبعين بأفكار الثورة الفرنسية من هؤلاء ـ ولعل خيرالله خيرالله كان منهم، ولو في البداية ـ نظروا إلى الانتداب الفرنسي كأنه شكل من أشكال الحرية، أو هو مرحلة تمهيدية للوصول إلى الحرية والاستقلال!... في حين كان ليبراليون آخرون، ملتفّون حول الحركة الفيصلية المنبثقة عن حركة «الثورة العربية الكبرى»، يرون كأن الانتداب البريطاني ـ لا الفرنسي ـ هو الذي يشكّل مرحلة الوصول إلى الحرية والاستقلال وبناء الدولة العربية الكبرى!.. ولم تستمع قيادات حركة التحرر العربية إلى تلك الأصوات الرومنتيكية الثورية التي كانت ترفض أي انتداب وأي وصاية لأية دولة، وتدعو إلى متابعة الكفاح من أجل الاستقلال التام الناجز.. هذه الأصوات (ـ التي صار خيرالله قريباً جداً منها فيما بعد..) والتي كانت ضعيفة، أو غير مسموعة، استطاعت أن تؤكد جوهرها، وتتعمَّد بالدم دفاعاً عن الحرية والاستقلال، في منطقة ميسلون على مشارف دمشق تجاه الغزاة الفرنسيين، وفي أنحاء من لبنان حيث قاومت الانتداب عناصر وطنية مكافحة قيل عنها ـ في تلك الأيام وفيما بعد أيضاً! ـ إنها «عصابات»!... ثم في مختلف المعارك المقبلة التي سيكون العمال والفلاحون والمثقفون الثوريون قواها الأساسية، وسيكون الشيوعيون من أهم عناصرها المحرِّكة...

فهل وعى خيرالله ـ والتيار الليبرالي الذي يمثّله ـ حقيقة هذا التحرك نحو الحرية والاستقلال بعد فجيعتهم بحقيقة الانتداب... فجاء يتوجّه إلى العمال، في يوم أول أيار، بحديث الحرية عام ١٩٢٥؟

الواقع أن دماء الوطنيين العرب التي سفكها المستعمرون الفرنسيون في سوريا ولبنان خلال «عملية» فرض الانتداب، زلزلت الصورة المثالية لفرنسا ـ الثورة في أذهان الكثيرين من هؤلاء، إلى درجة أن بعض أشد المطالبين بالانتداب الفرنسي أخذوا يغيّرون قناعاتهم ومواقفهم مع بروز الجوهر القمعي لسلطات الانتداب.

(**جرجي نقولا باز**، صديق خيرالله خيرالله، ورفيقه في احتفال أول أيار ١٩٠٧ يقول: «إن اللجنة اللبنانية عهدت إلى خيرالله خيرالله

بعرض مطالبها على مؤتمر الصلح الملتئم في فرساي، فعرضها بنفسه في جلسة ١٥ شباط سنة ١٩١٩، وقدم كتاباً مفتوحاً إلى عصبة الأمم في خريف عام ١٩١٩ كتبه باللغة الفرنسية وطبعه على حدة باسم «معضلة الشرق أو البلاد العربية المتحررة» فترجمه عارف بك النكدي ونشره تباعاً في جريدة «المفيد» الشامية[١]، واعادت طبعه على حدة في جزءين جريدة «الحقيقة» البيروتية»[٢]. وبسبب هذا الكتاب أُبعد خيرالله عن جريدة «الطان» زهاء عامين...» ـ «المعرض» في ١٠ آب ١٩٣٠).

يوسف ابراهيم يزبك، صديق خيرالله خيرالله: ورفيقه في احتفال أول أيار ١٩٢٥ ـ يقول: «إن معارضة خيرالله خيرالله اشتدت في ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤، وبرز هذا في مقالاته ضد تصرف سلطات الانتداب الفرنسي في لبنان وسوريا، فأُبعد عن جريدة «الطان». ولكنه اتجه إلى مجلة «بروغريسفيك» التي أصدرها بعض أحزاب اليسار في فرنسا، فصارت تنشر له مقالات عنيفة بتوقيع: رينه كيرال»[٣]).

□ □ □

(١) **«المفيد»**: جريدة أسسها الشهيد عبد الغني العريسي (خلال ١٩٠٩ ـ ١٩١٤) وعادت إلى الصدور في دمشق بإدارة سعيد حيدر. وكانت لسان حال الحركة الفيصلية، ومعادية للانتداب الفرنسي.

(٢) **«الحقيقة»**: جريدة اسسها أحمد عباس الأزهري في بيروت. كانت لسان حال الحركة العربية، وحركة فيصل فيما بعد. وفي أعوام ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ كان عمر فاخوري يكتب افتتاحياتها، بتوقيع، «مسلم ديموقراطي»، معبراً عن اتجاه الحركة الفيصلية في رفض الانتداب الفرنسي والقبول بانتداب اميركا او بريطانيا «الى أجل محدود»!.. هكذا كان اتجاه الحركة الوطنية العربية في ذلك الوقت.

(٣) من حديث خاص مع يوسف يزبك. وقد قال لي أيضاً في هذا الحديث:
«إنَّ خيرالله خيرالله رشَّح نفسه للانتخابات النيابية في صيف ١٩٢٥ في لبنان، فحاربته المفوضية الفرنسية العليا و «الحكومة اللبنانية» حرباً قاسية، ففشل في الانتخابات. وهو من القلائل الذين اتصلوا بالناخبين، فقد جال في منطقته الانتخابية يخطب في الفلاحين، وأذكر أنه كان يدعوهم «أولاد العم»، وقد انتقد سلطات الانتداب بقسوة» ـ وفي مجلة المعرض» (١٠ آب ١٩٣٠) يذكر يوسف يزبك هذه الحادثة نفسها بقوله: «في ذلك المساء تحدثنا عن الانتخابات التي فشل فيها، فضحك خيرالله بملء شدقيه وقال: «مجانين»... يعني رجال الحكم يومئذ» ـ وفي عام ١٩٣٠ زار خيرالله تونس بهدف دراسة أوضاعها، وهناك، كان يطوف بعربة يجرّها حصان واحد.. فجمح الحصان، لسبب مجهول!.. وتدهورت به العربة، يوم ٢٥ تموز. وتوفي!..

... هكذا، وصل خيرالله خيرالله إلى احتفال أول أيار في قاعة الكريستال ببيروت عام ١٩٢٥.. حاملاً حكاية نشاط ليبرالي في سبيل التحرر من السيطرة التركية... وحكاية تأسيس «حزب اشتراكي عربي» ما إن لمع حتى انطفأ، عام ١٩١٩... وحكاية أوهام هؤلاء الليبراليين أنفسهم بأن التعاون مع فرنسا قد يكون عاملاً هاماً في المساعدة على هذا التحرر.. ثم حكاية الزلزال الذي زعزع هذه الأوهام جراء عمليات القمع الفرنسي الدامي للتحركات الوطنية في سوريا ولبنان... وحاملاً أيضاً طموحاً جديداً بأن يخوض معركة الانتخابات النيابية، فهو يأمل بأن يحوز ثقة العمال، وثقة الملتفّين حول حركة العمال، وأصواتهم.

كان خيرالله خيرالله يحمل هذا كله عندما كان يتحدث عن العمال وعيد أول أيار كما عرفه في أوروبا، وعندما قال لجماهير احتفال أول أيار عام ١٩٢٥: إنَّ هذا الاحتفال ليس هو أول احتفال بعيد أول أيار يجري في لبنان... ولعله الثاني، أو الثالث، ولكنه ليس الأول...

وحكى لهم الحكاية:

كان ذلك عام ١٩٠٧... على الشاطئ اللبناني... وكنا نضع على صدورنا شارات حريرية حمراء...

... قال يوسف ابراهيم يزبك: «... وبقي المرحوم خيرالله خيرالله محتفظاً بالشارة الحريرية الحمراء التي علقها على صدره في ذلك اليوم (من عام ١٩٠٧)، كما علّق رفقاؤه شارات أخرى، ومما لا أنساه أننا لما احتفلنا، بدورنا، عام ١٩٢٥ بأول نوار احتفالنا التاريخي، سحب خيرالله خيرالله شارته الحمراء من جيبه وهو يلقي خطابه، ولوّح بها قاصّاً قصتها... ثم تقدم مني رحمه الله وعلّقها بصدري، فأثار كلامه وعمله حماسة الجماهير في القاعة، وألهبت الأكفّ بالتصفيق. ودمعت عيون كثيرة»[1].

---

(١) يزبك: «حكاية أول نوار» ـ صفحة ٥٠ و٨٣.

... «... في ذلك اليوم، قصصتُ هذه الشارة إلى شارات صغيرة وسلّمتها لرفاقي الذين كانوا جميعهم عمالاً حقيقيين. ولا أزال احتفظ بحصتي منها، بتلك الذخيرة الغالية التي «عمّدتها» مظاهرة حزب الشعب اللبناني... وحبذا سيرها يوماً، مع أعداد «الإنسانية»(١) وغيرها من الذخائر إلى المتحف الذي سيبنيه عمال سوريا العربية»(٢). (اقرأ: سوريا ـ لبنان ـ فلسطين).

---

(١) «الإنسانية» جريدة اصدرها يوسف يزبك ابتداء من ١٥ أيار ١٩٢٥ لتكون لسان حال الشيوعيين و «حزب الشعب اللبناني». وسوف ياتي الحديث عنها بالتفصيل فيما بعد.

(٢) يزبك: «مظاهرات أول أيار في التاريخ» ـ جريدة «صوت العمال»، العدد ٤، الخميس ٨ أيار ١٩٣٠ ـ صفحة ٤ و٥.

أنا... «الشبح الباكي» ـ اشتراكي صميم انتمي إلى الانترناسيونال الثالث ورومنتيكي مجبول بمُثل الثورة الفرنسية

... وسط التصفيق، والتهليل، و «يا عمال العالم، اتحدوا».. تقدم يوسف ابراهيم يزبك إلى المنبر. شاب في الرابعة والعشرين من عمره، رومنتيكي الملامح، مع شارب صغير، وحماس في الخطو، والحركات، والصوت، والكلام. وعلى صدره تضيء الشارة الحريرية الحمراء، التي قلّده اياها خيرالله خيرالله، بعد أن روى للعمال الحاضرين حكاية أول احتفال عربي بعيد أول أيار، عام ١٩٠٧.

على أن لعيد أول أيار حكاية دامية، جرت على نطاق العالم الصناعي، قبل أن تصل إلى لبنان وسائر بلاد العرب...

عن هذا التاريخ الدامي، والمضيء، أخذ يوسف يزبك يحدث عمال لبنان ١٩٢٥ في قاعة الكريستال في بيروت:

«نعود قليلاً بالذاكرة إلى الماضي، إلى ما قبل ستين عاماً (١٨٦٤)، عهد كان العمال في بدء نضالهم وتنظيم صفوفهم، وعهد كانوا في ريبة من حقهم في الحياة، يسعون إليه

مترددين، حتى أتيح لجهادهم رُسُل عملوا لتأليف عصبة دولية تمثّل جميع نقابات العالم وأحزابهم وجمعياتهم، على اختلاف الجنسية والقومية والدين بينهم، ليوحّدوا صفوفهم ومطالبهم.

وكانت الحكومات تقاوم تلك الحركات الثورية بمختلف التدابير القمعية، فاضطر أكثر الزعماء إلى التواري عن العيان، تائهين في البلاد الواسعة. وضمت الولايات المتحدة الأميركية عدداً من هؤلاء اللاجئين الثوريين، فأخذ زعماؤهم يلقون بذورهم في الطبقة العاملة، واتخذ اللاجئون الألمان ـ وعلى رأسهم ج. موست ـ مدينة شيكاغو مقراً لهم يعملون على تنظيم الصفوف، وبذر الروح النقابية في صدور العمال ليتمكنوا من تحقيق مطالبهم.

وفي مدينة شيكاغو عقد «اتحاد المنظمات النقابية في الولايات المتحدة وكندا» مؤتمره السنوي الرابع، وقرر المؤتمر المطالبة بتحسين شروط حياة العمال: جَعْل يوم العمل ثماني ساعات ـ زيادة أجور العمال ـ بناء مساكن صحّية لهم ـ سنّ نظام لحمايتهم... وقرر المؤتمر جعل يوم أول أيار (مايو) من العام نفسه (١٨٨٦) موعداً لإعلان إضراب عام شامل عن العمل والقيام بمظاهرة كبرى حتى يصبح هذا اليوم يوماً تاريخياً يوقظ ضمير العالم.

وفي اليوم المعهود خرجت تظاهرات شعبية ضخمة من جميع أحياء المدينة وأنحائها، غصّت بها الشوارع، وامتلأت الساحات العامة، وانضمت جموع من مختلف عناصر الشعب إلى المظاهرة التي يحركها شعار أساسي:

ـ «ابتداء من هذا النهار يجب أن لا يشتغل العامل أكثر من ثماني ساعات في اليوم!».

... أطلق يوسف يزبك هذا الشعار بصوت مرتفع، حماسي، وحاسم، مضفياً عليه أهمية راهنة. فقد كان هو **الشعار الأساسي** الذي تطرحه العناصر الشيوعية أمام العمال في جمعياتهم وتجمّعاتهم. يوم عمل من ٨ ساعات.. كان حلماً في تلك الأيام.. فانفجر التصفيق العاصف للشعار.. وتابع يوسف يزبك، بحماس أشد، هذا التأكيد المحدَّد للشعار نفسه:

«نريد: ٨ ساعات عمل!
و٨ ساعات راحة!
و ٨ ساعات تربية!».

هنا ينفجر التصفيق أكثر.. فقد قرأ العمال هذه الكلمات أمس في البيان العام الذي وزعه «حزب الشعب اللبناني» في مختلف أنحاء لبنان، بمناسبة عيد أول أيار، يدعو العمال فيه إلى الإضراب والاحتفال الكفاحي بهذا العيد[١].. ويشعر العمال بالقوة العالمية للشعار، وبالرابط الكفاحي بينهم وبين عمال العالم.. مشاعر جديدة تحمل وعياً جديداً.. حناجر تهتف: «يا عمال العالم، اتحدوا!»... يوسف يزبك يتابع خطابه، في هذه اللحظات، بصوت أكثر هدوءاً:

«... قلت إن المظاهرة ملأت ساحات شيكاغو العامة.. ولكن البوليس كان قد دسّ بين المتظاهرين عملاء له.. وفجاة دوّى صوت قنبلة وسط ذلك البحر المائج بالجماهير، وانهال الرصاص على المتظاهرين... فقد أمر حاكم شيكاغو بمقاومة الجماهير بقوة الحراب والبنادق، وجرت الدماء انهاراً.. واعتُقل زعماء العمال، وحُوكموا، وحُكم على أربعة منهم بالموت، وأعدموا حالاً.

ومرّت سنوات على هذه الفاجعة، وإذا باحد الجواسيس

---

(١) سوف ناتي على ذكر هذا البيان، ومقاطع منه، فيما بعد ـ راجع النص الكامل للبيان في آخر هذا الكتاب (ملحق النصوص).

يفضح سرّها، ويعترف للحزب الاشتراكي بأن الحكومة كانت قد دسّت بين العمال المتظاهرين بعض جواسيسها ليخلّوا بالأمن، فتجد الحكومة لنفسها عذراً بالإلتجاء إلى النار والحديد في قمع المظاهرة.. وهكذا ألقى أحد هؤلاء الجواسيس قنبلته... وانهال الرصاص على المتظاهرين...

ونشر زعماء العمال اعتراف الجاسوس... وتحت ضغط الرأي العام، أعيدت المحاكمة، وظهرت الحقيقة ناصعة، وأصدرت المحكمة قرارها التاريخي «بأن الشعب كان بريئاً من إلقاء القنبلة. فقد ألقاها أحد الجواسيس المأجورين ـ بقصد التحريض ـ وبأن الذين أُعدموا كانوا أبرياء».... ثم أُطلق سراح الذين كانوا لا يزالون مسجونين من العمال...

على أن زعماء العمال في أميركا وفي أوروبا كانوا على قناعة منذ البداية ببراءة العمال.. فأخذوا يعقدون المؤتمرات العمالية، على نطاق أميركا، وعلى نطاق أوروبا، تحت الشعارات الكفاحية نفسها. وهكذا عُقد في باريس مؤتمر عمالي أممي من ١٤ إلى ٢١ تموز ١٨٨٩ حضرته وفود ١٩ شعباً، واتخذ قرارات كثيرة أعظمها وأبعدها أثراً قرار «تنظيم مظاهرات يوم أول أيار في جميع أنحاء العالم»... إسمعوا أيها الرفاق، هذا هو القرار التاريخي:

«تُنظم تظاهرة أممية كبيرة في تاريخ واحد معيّن، بمعنى أن العمال في جميع البلدان وجميع المدن، وفي اليوم المتفق عليه، وفي وقت واحد، يُنذرون السلطات العامة بوجوب خفض ساعات العمل خفضاً قانونياً، إلى ثماني ساعات في اليوم، وبوجوب تنفيذ المقررات الأخرى التي اتخذها مؤتمر

باريس[1]. ولما كان اتحاد عمال أميركا» قد قرر القيام بمثل هذه التظاهرة وعيّن لها الأول من أيار سنة ۱۸۹۰، فالمؤتمر يقرّ التاريخ عينه لإجراء التظاهرة الأممية فيه...».

... وهكذا انطلق أول أيار، عيداً كفاحياً للعمال في كل مكان... وها نحن الآن...»...

... الآن، ينفجر التصفيق في قاعة الكريستال ببيروت، عاصفاً، مدوّياً، معبِّراً عن كل ما يجتاح العمال من مشاعر جديدة، ليس لهم بها عهد، كأنما هم ينتشرون في مختلف أنحاء العالم، وكأن جميع عمّال العالم تكاثفوا في هذه القاعة.. كم هو حقيقي، وساطع، وبسيط، وفاعل، وثوري، شعار «يا عمال العالم، اتحدوا!».

وكم هو جديد.

العمال في القاعة، المثقفون، الصحفيون، الليبراليون الذين شاركوا في الكفاح ضدّ الاستبداد العثماني، الوطنيون الذين عبَّروا عن معارضتهم للانتداب.. وحتى عيون الحكومة وجواسيسها المندسّين بين الناس ـ هنا أيضاً ـ جميع هؤلاء سمعوا أشياء جديدة، ورأوا موقفاً مختلفاً، وفهماً آخر للناس، والأحداث، والحركات.. وطريقة مختلفة باستعمال الكلمات. فالخطيب هنا لا يزركش، ولا يطمس الحقائق الجارحة، بل يحدد، ويكشف، ويسلّط الضوء.

ولعلّها المرة الأولى، يجري الحديث هكذا، أمام الجماهير، عن المطالب الشعبية، وعن حركة الطبقة العاملة، ومن موقف طبقي، أممي، شيوعي واضح، وطني.

فمن هو هذا الخطيب الشاب، يوسف ابراهيم يزبك؟ ذو الملامح الرومنتيكية؟ مَن يمثّل، وماذا يمثّل؟.. من أين حمل هذه الأفكار التي يبشّر بها، وما هي طريق توصّله،

---

(۱) هذه المقررات هي: «أ ـ خفض ساعات العمل إلى ثماني ساعات. ب ـ تحديد ساعات العمل للنساء والصغار. ج ـ المنع من العمل ليلاً. د ـ إلغاء مكاتب الاستخدام والمتاجرة بالعمال. هـ ـ تأمين حد أدنى للأجور»... وسوف نرى فيما بعد أن «حزب الشعب اللبناني» أخذ هذه الشعارات بعين الاعتبار عندما صاغ مطالب العمال التي أقرها المحتفلون بعيد أول أيار ۱۹۲٥ في قاعة الكريستال.

مع رفاقه، إلى وعي هذه الأفكار؟.. من هم رفاقه، كيف كانوا وكيف تجمّعوا.. ثم التقوا، مع غيرهم، في هذا الاحتفال حيث لا يزال يوسف يزبك يتابع القاء خطابه؟..

فمن أنت، أيها الرفيق يوسف إبراهيم يزبك؟

ـ «أنا اشتراكي صميم»...

نشأتُ ـ ولا افتخار ـ بين رخاء العيش في بيت كريم. فشئتُ أن آخذ عن ذويَّ حسن آدابهم. تاركاً لهم أموالهم وأرزاقهم واعتقاداتهم الاجتماعية والدينية. وتفرَّدت بكسب عيشي، واتباع مبادئ إن لم يكن جلّها (سماوية) فكلها إنسانية...

نظرتُ إلى العالم بعين مجرّدة منزَّهة فرأيته معتركاً هائلاً بين الغني والفقير، والقوي والضعيف ـ فراعني أن يظلم الأول الثاني، وبين الناس من يدَّعون العواطف الحساسة الشريفة، والأخلاق الطيبة النبيلة ـ فتطوَّعتُ للخدمة أينما وجدت سبيلاً إليها غير مكترثٍ بالصدماتِ والمِحَن.

أرجو ـ بعد هذا التمهيد ـ أن لا يتهمني القارئ بأني أدافع عن الاشتراكية مدفوعاً بتأثير البيئة والمحيط، أو بعامل البؤس والشقاء. لا. بل إني أدافع عن هذا المذهب السامي بضمير منزَّه وقلب حر، جلّ ذنبه أنه يحب البؤس وأبناء البؤس ومن لاذ بمرارة البؤس.

قلتُ في عبارتي الأولى: إني اشتراكي صميم. أجل إني لكذلك! بل أنا ثائر متمرِّد متطرف، ولكن على الظلم والفوضى والخرافات...

وإن هذا الجبّار الذي أشعر بنبضاته **الآن بين جنبيَّ** ـ لم يختلج لغير الشفقة والرأفة والحنان ـ ولن يختلج لغير نصرة الحق وخدمته...»[١].

هكذا يعرِّف يوسف يزبك نفسه، عام ١٩٢٣، في مجلة «الصحافي التائه» حيث بدأ

(١) يوسف يزبك: «الاشتراكية في لبنان» ـ مجلة «الصحافي التائه» العدد ٥٨، في ٥ أيار ١٩٢٣، صفحة ٥ (المقال موقع بأمضاء: الشبح الباكي).

يعبِّر عن عاطفته الاشتراكية في رسائل ومقالات ينشرها بإمضاء «الشبح الباكي» وذلك ابتداء من العدد الخامس الصادر يوم السبت ١٤ تشرين الأول ١٩٢٣، وحتى أواسط عام ١٩٢٤.

وواضح من هذا التعريف الذاتي أن يوسف يزبك جاء إلى الاشتراكية عن طريق التعاطف الذهني لشاب مثقف من عائلة ميسورة، وليس «بعامل البؤس والشقاء»... وواضح أيضاً أن فهمه للاشتراكية كان لا يزال فهماً أخلاقياً معادياً للظلم، ولم يصل بعد إلى الوعي العلمي للاشتراكية كنظام اجتماعي نصل إلى تحقيقه خلال الكفاح الثوري المنظَّم للطبقة العاملة وحلفائها من أجل قلب العالم الاستغلالي القديم (الرأسمالية وبقايا الاقطاع) وبناء العالم الجديد: الاشتراكي.

ولكن، لماذا نستبق الأحداث...

فإن لتكوُّن هذه العاطفة الاشتراكية عند يزبك، وعند «اشتراكيي» تلك المرحلة، تاريخاً معيّناً لا بد من معرفته حتى نفهم مدى التقدم الهام، وطابع الريادة، وحركة الاقتحام، في مضمون هذه «العاطفة الاشتراكية»...

ـ فقد كان يوسف يزبك لا يزال صغيراً عندما سمع أحاديث تدور في وسطه العائلي حول صراع قريب العائلة أحمد فارس الشدياق[1] ضد رجال الأكليروس انطلاقاً

---

(١) أحمد فارس الشدياق: عقل موسوعي تحرري كبير. حياته سلسلة معارك. عمل كثيراً، وكتب كثيراً، وتجوّل كثيراً في أنحاء العالم. ولد في عشقوت (كسروان) ١٨٠٤. نشأ وتلقى علومه في بلدة الحدث، ضاحية من بيروت، ودخل مدرسة عين ورقة المارونية. درس السريانية والافرنسية والانكليزية، وارتبط مذهبياً بالمرسلين البروتستانت الأميركيين، وكذلك أخوه أسعد الشدياق الذي اضطهده رجال الأكليروس من أجل هذا التمذهب.. فمات نتيجة التعذيب. ثار فارس الشدياق على الأكليروس. وغادر لبنان يجوب العالم. أطلق على نفسه اسم «أحمد» فصار: أحمد فارس الشدياق. عمل في مصر، ومالطه، ولندن، وباريس، وتونس، ثم في الآستانة حيث أصدر جريدة «الجوائب» الشهيرة (١٨٦١ ـ ١٨٨٣) فصار لها نفوذ هائل، سياسي وعلمي وصحفي. وفي مقال هام نشره فيها، عن الحركات العمالية «المتطرفة»، وضع كلمة **«اشتراكية»** لأول مرة في اللغة العربية ـ نشر الكثير من الكتب في علوم اللغة، وخاض معارك لغوية كثيرة ومدويّة. من كتبه خارج إطار اللغة، نذكر: «خبرية أسعد الشدياق» ١٨٣٣ ـ «الواسطة في معرفة أحوال مالطة» ١٨٣٤ ـ «الساق على الساق فيما هو الفارياق» ١٨٥٥، وهو أشبه بسيرة ذاتية، موسوعية، وظريفة ـ «كشف المخبأ عن فنون أوروبا»=

من مأساة أخيه أسعد الشدياق الذي اضطهدوه وعذّبوه حتى الموت، فأخذ الشدياق يخوض حرباً قاسية ومريرة ضدّ الاستبداد والظلم، ويكشف بقلمه الساخر التركيب الاقطاعي لمؤسسة الأكليروس، في ذلك الحين. وكان كتاب الشدياق العظيم «الساق على الساق» (حيث يروي في أحد فصوله وقائع مأساة أخيه ويكشف الطابع الاقطاعي لمؤسسة الأكليروس) كان هذا الكتاب التحريري العظيم هو من أوائل الكتب التي قرأها يوسف يزبك منذ أصبح يعرف القراءة. ومما عمّق التأثير المأساوي ـ التمرّدي لهذا الفصل من الكتاب في أغوار نفس يوسف يزبك وفي وعيه أنه، كان يقرأ في هذا الفصل، «وكانت العجائز، قريباته، من حوله يستمعن إلى قراءته ويبكين على ما قاسى كاتب الفصل وأخوه من العذاب والاضطهاد. فانطبعت في نفس الطفل يوسف أحرف ثورة فظيعة على كل ما هو استبداد»[١] فنقم على الأكليروس.

ـ وكان يوسف يزبك لا يزال صبياً عندما زجّوا بأخيه أنطون في السجن واضطهدوه نتيجة شجار بين أخيه وابن وكيل المتصرف «فكانت أيام الحبس شديدة الوطأة على أنطون وعلى أخيه يوسف من الوجهتين الجسدية والنفسية» ـ فنقم على جهاز الدولة التركية.

ـ وكان يوسف يزبك لا يزال في الثامنة من عمره عندما سافر مع أمه إلى المكسيك عام ١٩٠٩ (ولد يوسف يزبك عام ١٩٠١ في الحدث قرب بيروت)... وهناك أخذ يتردد إلى مكتب سعيد عقل[٢] صاحب جريدة «صدى المكسيك» التي كان يُصدرها بالعربية... فاهتم به سعيد عقل وأخذ يدرِّسه مبادئ اللغة العربية، ويدرّسه كذلك مبادئ النقمة على الاضطهاد التركي ضد العرب.. وأخذت كلمات مثل: الحرية ـ الاستقلال ـ المساواة ـ الكفاح ضد الأتراك، والتي تتردد كثيراً في ادارة جريدة سعيد عقل ـ الذي سوف يستشهد فيما بعد خلال النضال من أجل تحقيقها ـ أخذت هذه الكلمات تتسرّب إلى

= ١٨٦٦ ـ «كنز الرغائب من منتخبات الجوائب» وهي سبعة أجزاء تضم مختارات من مقالاته ـ توفي في الآستانة عام ١٨٨٧، ثم نقلت رفاته إلى لبنان.

(١) فؤاد حبيش: «يوسف يزبك منشىء السيّار» ـ (مجلة «المعرض» العدد ٩٥٣، في ٧ حزيران ١٩٣١، صفحة ٦) ـ ونحن نأخذ منه بعض معلومات عن طفولة يزبك وصباه.

(٢) سعيد فاضل عقل: من المناضلين الشهداء الذين أعدمتهم تركيا في ٦ أيار ١٩١٦ في ساحة الشهداء ببيروت. أنشأ جريدة «البيرق» عام ١٩١١. سافر إلى المهاجر الأميركية حيث حرر جريدة «صدى المكسيك». ثم حرر في صحف: «الاصلاح» و «لسان الحال» و «الثبات».

نفس يوسف المتفتحة... على أن وعي يوسف يزبك بهذه الكلمات سوف يتنامى مع تنامي حركة الكفاح ضد السيطرة التركية، ومع استمرار علاقته بالروّاد العاملين في سبيلها.

فعندما عاد إلى لبنان عام ١٩١١ دخل مدرسة بعبدا. وكان أستاذه هنا صحفي استقلالي آخر هو وديع عقل[1] الذي كان يحرر مجلة «كوكب البرية»... فكان لسياسة هذه المجلة ذات النزعة الاستقلالية أثر كبير في نفسية الفتى المتمرد»[2] ولا بد أنه تأثر منذ ذلك الحين بما في شعر وديع عقل من نزعة عربية تحررية. وعندما عاد سعيد عقل إلى لبنان وأصدر جريدة «البيرق» في العام نفسه (١٩١١)، عاد يوسف يزبك إلى التردد على ادارة الجريدة يساعد في أرسال الأعداد إلى المشتركين، ويستمع من جديد إلى كلمات: الحرية، والاستقلال، والكفاح، والمساواة، و... الثورة الفرنسية.. فيتلقّى هذه الكلمات بوعي مختلف.. ذلك أنها هنا ـ في لبنان أيام الظلام العثماني والاضطهاد القومي والجمعيات العربية السرية ـ كانت تُقال بهمس، وكان لها ـ هنا ـ مضمونها العملي، فكان الهمس بها يدقُّ في الأرواح مثل آلاف النواقيس.. وكانت السلطات التركية المسيطرة تخاف هذه الكلمات، فتمنع تداولها، وتخاف حامليها والمبشّرين بها فتطاردهم، وتخاف خصوصاً، وحتى الرعب، من خطر انتشارها بين الجماهير، فتسلّط الارهاب على البلاد كلها... وتنصب أعواد المشانق.

ولا شك أن هذه الكلمات كانت في بدايات نضوجها وتبلورها في وعي يوسف يزبك عندما بدأت أعواد المشانق ترتفع في ساحة البرج ببيروت وساحة المرجة في دمشق.

كان هذا في ١٥ آب ١٩١٥ عندما أعدم الأتراك قافلة الشهداء الأولى.. وكان عُمْر يوسف يزبك ١٤ عاماً.

وكان هذا أيضاً، في العام التالي، ٦ أيار ١٩١٦، عندما أعدم الأتراك قافلة الشهداء الثانية، وكان من بينهم الشهيد سعيد عقل، صاحب «البيرق» حيث استمع يوسف يزبك إلى كلمة الحرية تدق مثل آلاف النواقيس...

---

(١) وديع عقل: صحفي، وشاعر، ومن العاملين في سبيل استقلال العرب عن الأمبراطورية العثمانية. ولد في الدامور عام ١٨٨٢. أصدر جريدة «كوكب البرية» عام ١٩١١، واشترك في تحرير عدة صحف منها «البيرق» و «النصير». ثم أصدر جريدة «الأحوال» عام ١٩٢٠. وأصدر كذلك جريدة «الوطن». عمل على إنشاء نقابة الصحافة وصار نقيباً لها. توفي عام ١٩٣٣.

(٢) فؤاد حبيش: «المعرض» ٧ حزيران ١٩٣١..

ها هي أجساد الشهداء الآن تتأرجح..

هي أيضاً تدق في الأرواح، وفي التاريخ، مثل آلاف النواقيس..

فالطريق إلى تحقيق كلمات: الحرية والاستقلال والثورة، ليست سهلة. وإذا كان السير الدؤوب في هذا الطريق يؤدي إلى الانتصار، فهو يؤدي أيضاً إلى الفجيعة، والعذاب، والموت...

فهل يتابع الفتى الطريق؟

إن إعدام هؤلاء المكافحين، أدى على المدى القصير إلى هبوط حركة المقاومة ضد السيطرة التركية في الداخل... لقد احتلّ الخوف الشوارع والساحات ونفوس آلاف البشر. ولكن، ها هو الجيش العربي يدخل دمشق، ويحرّرها من سيطرة الأتراك.. كان هذا في ٢ تشرين الأول... وكان الفتى يوسف يزبك، هناك في دمشق، يشهد فصلاً جديداً في حركة العرب نحو الحرية. في ذلك اليوم، كان الناس كأنما رأوا الشمس فجأة بعد ظلام القرون، فتفجّرت في أعماقهم الأفراح، وانطلقوا إلى الشوارع يهزجون ويرقصون ويزيّنون الدنيا بالأعلام العربية ويعانقون أفراد الجيش المحرِّر والثوار القادمين من الصحراء.

شهد الفتى كل هذا، وكان عمره ١٧ عاماً. وشهد إعلان الحكومة العربية في دمشق وكان العيد العربي في ذروته.. كذلك شهد إعلان نوعٍ من الحكومة العربية في بيروت. وكان هناك ناس فرحون وناس قلقون... وكثيرون موعودون بأن الدولة العربية المستقلة الكبرى سوف تُعلَن قريباً.!!

.....

فهل انتصر العرب؟. هل انتصرت حركة التحرر العربية؟

الواقع: أن حركة التحرر العربية لم تكن متجانسة، ولم تكن مستقلة. قسمٌ هام من قياداتها كان واقعاً تحت وهم أن الانجليز سيساعدون العرب ـ حسب وعودهم للملك الهاشمي الشريف حسين ـ في تكوين دولتهم العربية المستقلة الكبرى. وقسم آخر من هذه القيادات كان واقعاً تحت وهم أن فرنسا ـ وطن الثورة الفرنسية الكبرى ـ تحمل الحرية والاستقلال للبنان!..

وسط هذا الشكل من الانقسام طُرحت «مسألة الانتدابات»: فالشعوب التي تحرّرت

من النير التركي تحتاج إلى «مساعدة» دولة كبرى حتى «تتعوّد» أن تمارس الحكم المستقل!!.. ومهمة هذه الدولة الكبرى هي، فقط: المساعدة، تنظيم الحياة الجديدة، تعويد الناس على الاستقلال!!.. وهكذا تحوّلت المسألة من مسألة اقامة الدولة العربية، أو الدول العربية، المستقلة، إلى مسألة: **انتداب أية دولة تريدون؟** بريطانيا، أم فرنسا؟.. وتكرّس انقسام حركة التحرر العربية... وأخذ الصراع يدور بين الفريقين حول: أيهما أفضل؟ الانكليز؟ أم الفرنسيون؟ وبين الضجيج ضاع صراخ فريق رومنتيكي ثوري ثالث.. قليل العدد كان، ولكنه كان يتكلم باسم المستقبل، وباسم الجماهير المبعدة عن المعركة، وباسم ما كان يجب أن يكون: **لا نريد أي انتداب لأية دولة علينا، بل نريد استقلالاً تاماً ناجزاً....**

ولم يأخذ المتصارعون بنظر الاعتبار الجدّي ما قالته لهم ثورة أكتوبر الاشتراكية، منذ ١٩١٧، من أن الانكليز والفرنسيين اتفقوا فيما بينهم على تقسيم وتقاسم البلاد العربية. فإن **الطبيعة الطبقية** لقيادات حركة التحرر العربية (تجار، بقايا بيوتات اقطاعية، بورجوازية صاعدة ترى أن مصلحة تطورها ترتبط بالرأسمالية العالمية) هذه الطبيعة جعلتها: إما لا ترى الخطر، وإما تراه، ولا ترى فيه خطراً «عليها»، وإما تراه، وتساعده، وتشكل هي جزءاً منه...

وبينما كان الرومنتيكيون الثوريون يصرخون: نريد الاستقلال التام الناجز.. وبينما أخذ الخلاف يدب بين الانكليز والفرنسيين حول حصة كل منهما.. أخذت جيوش فرنسا تزحف لتحقق ما تريد، بالرصاص والحديد والدم.. طارت حكومة بيروت العربية.. سيطر الجيش الفرنسي على سهل البقاع الذي كان تحت سلطة حكومة دمشق الفيصلية. وفي ١٤ تموز ١٩٢٠ (يوم عيد الثورة الفرنسية الكبرى!!). وجه الفرنسيون انذاراً إلى الملك فيصل يتضمّن عدة شروط مذلّة. قَبِل فيصل جميع الشروط. هاج الشعب ضد فيصل يطالب بالمقاوَمة. تصرّف الجيش الفرنسي كما لو أن فيصل لم يقبل بالشروط الفرنسية. زحف الجيش الاستعماري الفرنسي إلى منطقة ميسلون، على مشارف دمشق، حيث تجمّعت عناصر من الجيش وعناصر من الثوار بقيادة يوسف العظمة وزير الدفاع.. وما كان بالإمكان مطلقاً أن تصمد هذه الجبهة، ذلك أن قيادات حركة التحرر كانت مزعزعة، وعناصر منها كانت خائنة، وعناصر أخرى لم تكن تريد أية مقاومة، فهي تخشى، أساساً، من تطور وتصاعد الحركة الجماهيرية، وترى الانتداب أكثر أماناً، وضماناً، لها ولمصالحها...

على أن جبهة المقاومة في ميسلون تحولت إلى رمز. كان المقاتلون يعرفون أنهم يخوضون معركة خاسرة. وكانوا يعرفون أنهم خلال المقاومة يتحوّلون إلى رموز، وكانت دماؤهم تصرخ بالمستعمرين: تريدون استعمار بلادنا، اعبروا إليها، ولكن على جثثنا...

وعبر المستعمرون على الجثث...

وصارت موقعة ميسلون أحد أبرز رموز المقاومة في التاريخ العربي الحديث.. وسوف تتحول الاحتفالات بذكرى مذبحة ميسلون، فوق تراب ميسلون، إلى أحد أشكال الاحتجاج ضد سلطات الانتداب، وأحد أشكال النضال ضد الاستعمار. وسوف يشارك يوسف يزبك نفسه، فيما بعد، بإحياء ذكرى الأبطال.. وسوف ينظِّم الشيوعيون مسيرات إلى هناك، يخطبون وينشدون ويكشفون جرائم المستعمرين...

....

«... وأصبحت ذكرى ميسلون أمانة في عنق كل شيوعي في مجرى نشاطه السياسي. فكانت على كل شفة ولسان. تُدرّس معانيها ومغازيها في الحلقات الدراسية الخاصة. وتنشد بطولاتها على أفواه الرفاق في روحاتهم وغدواتهم. و «نشيد ميسلون» الذي وضعه الشاعر الكبير **قبلان مكرزل** كان زاد نضال للشيوعيين واصدقائهم ومطلعه:

هنا ميسلون فعوجوا نحيّي جميعاً ثرى ميسلون

هنا استبسل العرب ضد الغزاة هنا استشهد الباسلون

وميسلون كانت ولا تزال، بوصفها ذكرى معركة قومية ثورية، في أساس اعتزاز جميع الرفاق. وهم كلما مروا وهم بطريقهم إلى دمشق أمام أرض المعركة، يرددون ذلك النشيد...» ـ (**يوسف خطار الحلو**: جريدة «الأخبار» ٢٨ تموز ١٩٧٣).

....

.... وماذا بعد معركة ميسلون؟

خيَّم الانتداب على سوريا ولبنان... أزيح استبداد أجنبي ليحلّ محله استبداد أجنبي آخر. انتقلت البلاد من ليل الاقطاع العثماني إلى ليل الاستعمار الفرنسي.... «من استبداد مكشوف إلى استبداد مقنَّع مصنَّع. من استبداد باسم البادیشاه إلى استبداد باسم عصبة الأمم. من استبداد يفرّق ويسود لمجد الدولة، إلى استبداد يفرّق ويسود لخير الاستعمار... من عهد عبد الحميد إلى عهد الفرنسيس المجيد...»[١].

وغرق الوطنيون في لبنان وفي سوريا، في يأس مريع؛ تمزّقت الحركة الوطنية وتفرّقت، والعديد من القيادات أخذت تتكيّف مع الوضع الجديد، وترتّب أوضاعها في إطاره... وصمت الرومنتيكيون الحالمون بالدولة المستقلة.. صمتوا يأساً. وقال عمر فاخوري في تلك الفترة (١٩٢٠) وكان من المشاركين في الحركة الفيصلية، إنه صمت عن الكتابة وعن الضحك وعن البكاء، وحتى عن قراءة كلمة **ع ر ب** مدة تسعة أشهر... ومثله كثيرون كثيرون... رأوا، في تلك الفترة، أن الداء في **العرب** اجمالاً دون أن يعوا أنَّ القضية تتعلّق بالطبيعة المساومة، والعاجزة، لقيادات حركة التحرر العربية في عهد الامبريالية!

.... فأين الطريق؟

لا بد أن ننتظر حتى عام ١٩٢٢، ليطلع علينا يوسف ابراهيم يزبك، بوجه شاحب، دامع، بل باكٍ... وليعلن أن في لبنان أناساً بدأوا يتلمّسون طريقاً آخر وأكثر جذرية، إلى التحرر، وأن هذا الطريق هو: **الاشتراكية**.

هكذا بدأت الحكاية...

في ٢٨ أيلول ١٩٢٢ صدر في بلدة زحلة العدد الأول من مجلة «الصحافي التائه» صاحبها اسكندر الرياشي[٢]، تحت اسمها عبارة: «**جريدة البؤساء والعمال**». شيء

---

(١) أمين الريحاني: «القوميات»، الجزء الثاني، منشورات دار ريحاني للطباعة والنشر، بيروت ١٩٥٦، صفحة ١٧ ـ من خطبة «بين عهدين» التي ألقاها أمين الريحاني في بيروت عام ١٩٣٣... فأبعدته سلطات الانتداب عن وطنه بحجة أنه... أميركي!! (فقد كان الريحاني اللبناني يحمل أيضاً الجنسية الأميركية بوصفه مهاجراً).

(٢) اسكندر الرياشي: صحفي ساخر، بارع، ملعون. لعبت جريدته «الصحافي التائه» دوراً هاماً، خلال العشرينيات، في إثارة الأذهان حول الاشتراكية، والحركة العمالية. ولد في الخنشارة بالمتن عام ١٨٩٠. تلقّى=

جديد. وفي صدر هذا العدد افتتاحية بعنوان «أبيان أم قانون إيمان؟».. فيها كلام جديد. غامض نوعاً، وفيه اختلاط مفاهيم. ولكنه جديد: «هذه الجريدة عمومية، تعترف للتعاليم الدينية بمبادئ تقارب **الاشتراكية**. لذلك تكون صديقة **العامل والمزارع والضعيف**، وتدافع عن **مصالح** هؤلاء بكل قواها، وتعترف بأن **المبادئ الاشتراكية المعتدلة** قد جاء بها الكتابان الكريمان لعيسى ومحمد (...) هذه الجريدة تحارب **الشركات الاحتكارية**، وتعلم أن هذه الشركات هي الموت الزؤام للفقير والعامل. وانها اليوم **تستثمر عمالها** استثمار الرقيق»... ولكن هذه الجريدة «تعترف **للتآخي بين الطبقات** أنه الحق الصريح، وتحارب لأجله، وتحترم الفقير والتعس أكثر من الغني والسعيد...».

اشتراكية معتدلة... وتآخٍ بين الطبقات... وعطف على الفقير... تسرّبات من مفاهيم اصلاحية، ليبرالية، بين بين... ومن ناحية ثانية تعلن الجريدة أن سياستها هي «مع الانتداب الصحيح الذي تعترف بضرورة إشرافه على البلاد»!... هل في الكلمة محاولة لزرع صمامات أمان وجواز مرور؟... الأعداد القادمة، على كل حال، سوف توضح لنا الخط الفاصل بين سياسة الرياشي وعلاقاته بالحكم، وسياسة يزبك ورفاقه، في هذا المجال، ثم بين «اشتراكية» الرياشي المعتدلة، واشتراكية يزبك **ذات النزوع البولشفي**. ولعل هذا الخط الفاصل يبدأ في البروز منذ الرسالة الأولى إلى «الصحافي التائه» من... «**الشبح الباكي**»! وهو التوقيع الذي استخدمه يوسف يزبك في بداياته.

ففي العدد الخامس من «الصحافي التائه»، الصادر يوم السبت ١٤ تشرين الأول ١٩٢٢، الصفحة الرابعة، هذا العنوان الغريب: «**رفيق مجهول، وشبح باكٍ**». مثل عناوين الروايات البوليسية!. وتحت العنوان رسالة إلى «أخي الصحافي التائه» تبدأ بهذا التساؤل الفرح:

= دروسه الابتدائية في زحلة. سافر إلى أميركا عام ١٩١٠. أسس هناك جريدة «الوطن الجديد»، عاد إلى لبنان عام ١٩١٣، أسس جريدة «البردوني» في زحلة، وتولّى وظيفة في المندوبية الفرنسية بزحلة، قيل إنه استخدم مركزه هذا في مساعدة عدد من المجاهدين العرب قبل معركة ميسلون وبعدها على الهرب والتخفّي. عام ١٩٢٢ أصدر في زحلة جريدة «الصحافي التائه» حيث أخذ يوسف يزبك ينشر مقالاته الأولى ذات التطلّعات الاشتراكية. أصدر الرياشي عدة كتب في السياسة والحب والجنس. من كتبه السياسية: «قبل وبعد» و «الأيام اللبنانية» و «رؤساء لبنان كما عرفتهم». انتخب نقيباً للصحافة عام ١٩٤٧. توفي عام ١٩٦٢.

«ماذا، أحقاً في لبنان جريدة للبؤساء، وفي زحلة صحافي يقول بالاشتراكية؟».

ويتابع الكاتب، ساخراً من النزعة المحافظة في لبنان المبارك:

«... وما شان هذا الإلحاد يا أخي في لبنان المبارك؟ وما معنى نشر هذه المبادئ في الجبل المسكين؟».

هذا التساؤل الساخر يكشف، من ناحية، أن الفئات الرجعية المحافظة تمارس محاربة أفكار الاشتراكية ـ منذ بداياتها ـ بتهمة «الإلحاد» لإبعاد الجماهير اللبنانية، المؤمنة، عن هذه الأفكار الخطرة. ويكشف، من ناحية أخرى، أن كاتب الرسالة بدأ يجابه هذه الحرب مع بدايات تبشيره بأفكاره الاشترالاكية، ـ أي قبل صدور «**الصحافي التائه**» ـ وأنه بدأ يعاني تآمر «الوشاة وغدر المتزعمين»:

«... تريد أن تبشر بالتآخي بين الطبقات، وأن تحارب لأجله، وتحترم التعس والفقير، فهلاً حذرت الوشاة وغدر المتزعّمين؟».

ويعلن الكاتب فرحته بهذا الصوت الجديد، وبهذا المنبر للتبشير بالفكرة الجديدة، ويعبّر عن تفاؤله بالنتائج اللاحقة. وقد أكدت الأحداث اللاحقة صدق هذا الحدس التاريخي.

«... لكن لا باس، إنَّ هذه البذرة الصالحة ستنبت إذا تدبّرها الزارعون، فاجعل لي نصيباً بالاحترام الذي سجّلته للبؤساء، وأنا منذ الساعة «رفيقك وأخوك» الأمين...».

ولكن الرسالة تنطوي على نوع من اليأس الممتزج بنوع من التفاؤل الغامض. ويتجلّى هذا في نغم حزين، رومنتيكي، صادر، ربما، بتأثير بدايات ليل الاستعمار الفرنسي، وعن واقع أن دائرة انتشار أفكار الاشتراكية لم تكن تتعدّى بضعة أفراد، ضعاف «صعاليك» ـ على حد تعبير ذلك الزمان ـ وسط حذر عام من أي تحرّك.

فسلطات الانتداب أخذت تكشّر عن أنياب القمع ضد الوطنيين المعادين للانتداب من ناحية، وتمارس، من ناحية أخرى، سياسة خداع قطاع واسع من أفراد الشعب بأنها

«حامية المسيحيين في الشرق»!.. وأنها «ضمانة استقلال لبنان»، غير المستقل!.. فيشعر أصحاب الأفكار الجديدة أنهم معزولون وسط جو عام يخاف من كلمات «اشتراكية» و «بولشفيك»، ولكنهم يشعرون أيضاً بأنهم جزء من حركة عالمية تتسع باستمرار، وأنهم إذا كانوا قليلين اليوم فهم كثيرون غداً، المهم: بأي وجه، وبأية لهجة، وبأية طريقة، سوف يطلعون على الناس؟... لقد كانت لهجة اليأس، والحزن، هي الأبرز في التجليات الأولى لعاطفة يزبك الاشتراكية:

«... **كتب** يوماً أخونا المثلث الرحمات، إمام العبد، أنه **أبو التعساء**، فأجابه شاعر لبناني ـ وأظنه المسكين سماحة ـ بقوله المشهور:

أبا التعساء أنت أخ لأمثالي ولست أباً

فأنا بماذا أجيب على إيمانك؟

إن كان «سماحة» و «إمام» أبوَي التعساء، فأنا جدّهم يا أخي... **أنا تعاسة الشرق...** فهل من شقائي إلى صحيفتك سبيل؟

يهمّني من مباحث جريدتك ثلاثة أبواب هي: الأخلاق، وفلسفة الحيوة (الحياة)، والأدب، فإذا شئت أيها الرفيق أن تفسح **لعبرات** هذا الكويتب مجالاً على «البردوني» فاجعله رحباً لأفتح باباً تركته أنت موصداً وهو باب **البكاء**، وهل نسيت أن «الصحافي التائه» هي جريدة البؤساء والفقراء، وأن **الدموع** هي ترجمانهم؟. لعلك تقول إنك تريد أن تبعد الشجون عن قلوب جنودك أيها الرفيق، لكن لا تنس ما أوصانا **الاستاذ الأكبر** «روسو» **بأن الدموع تهذّب النفس وتفرج الكرب أكثر** من الضحك والفكاهة...» ـ (العدد الخامس نفسه).

ماذا تقول هذه الرسالة؟

نحن نراها ـ الآن ـ مشوّشة جداً: اشتراكية رومنتيكية. تعبِّر عن نفسها بالآهات، والدموع، والبكاء. حتى أن كاتبها وقعها بهذا الامضاء الغريب «**الشبح الباكي**». فيه شعور بأنه وحيد. ولكنه يشعر، في الوقت ذاته، أنه لا يعبِّر عن نفسه فقط، بل هو **تعاسة الشرق** كله. ولكن لا أحد معه، ولا أحد يسمع. فلا سلاح له إلا البكاء، وسيلة أساسية للتعبير، والتبشير. متأثر بروسو، الأستاذ الأكبر، وبالنزعات الرومنتيكية في

أفكار الثورة الفرنسية التي تمتزج هنا بعاطفة اشتراكية مغلّفة بالضباب.

نعم، في هذه الرسالة نجد هذا التشوّش كله. ولكننا نجد هنا شيئاً هاماً جداً، وله أهمية تاريخية، حاسمة. وهذا الشيء لا تقوله كلمات الرسالة نفسها، بل يبرز في هذه الكلمات المكتوبة تحت امضاء «الشبح الباكي»:

عن الكوخ **الأحمر**

في مدينة **الأغنياء**

في ٧ تشرين أول للسنة السادسة

للانترناسيونال **الثالث**.

منذ البداية، إذن، يعلن يوسف يزبك ارتباطه الروحي بالأممية الثالثة (التي تشكلت عام ١٩١٩ بقيادة لينين) ـ وليس مأخذاً أن يزبك أخطأ هنا في تاريخ الحدث، فلم يقل: السنة الثالثة، بدلاً من: السادسة، وهو على كل حال تاريخ انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية. فالارتباط الروحي يبقى هو نفسه: ارتباط **بالخط البولشفي** في الحركة الثورية العالمية، وهو الارتباط الذي أدى بيوسف يزبك أن يكون ـ بعد سنتين من هذه البداية ـ أحد مؤسسي الحزب الشيوعي اللبناني.

وهنا يكمن الفرق الحاسم بين من يتبنّى الاشتراكية كنوعٍ من النشاط النظري (شبلي الشميل ـ نقولا حداد ـ فرح أنطون ـ وغيرهم) فيظّل في ميدان التبشير النظري المجرّد ـ وهو هام وأساسي على كل حال ـ وبين من يتبنّى الاشتراكية انطلاقاً من الارتباط الروحي بالخط العام للحركة الشيوعية، وقد كان متمثلاً بالأممية الثالثة في ذلك الوقت، فإن هذا الارتباط هو نوع من الممارسة يؤدي غالباً إلى الارتباط العملي بالحزب. في حين أن الاكتفاء بالنشاط النظري قد يؤدي إما إلى السكوت فيما بعد، أو إلى مزالق نظرية بعيدة عن الممارسة، ومُبعدة عن الحزب بالتالي، وقد تجد نفسها أحياناً، متعارضة ـ وحتى معارضة ـ لخط الحزب، ولمسألة ضرورة وجود الحزب أساساً.

من هنا فإن حكمنا على المرحلة اليزبكية (في «الصحافي التائه» خلال أعوام ١٩٢٢ ـ ١٩٢٤) لا ينطلق من مستوى النضج النظري والمعرفي لكتابات يزبك الاشتراكية ـ

هو نفسه وصفها، فيما بعد، بأنها كانت طوباوية وساذجة ـ بل ينطلق أساساً من **التاثير العملي الفعلي** لهذه الكتابات في أوساط المثقفين وفي الأوساط العمالية خلال تلك المرحلة، إذ كانت أحد أهم عوامل الجذب والتجميع، وينطلق كذلك من معنى الارتباط الروحي بالأممية الثالثة إذ كانت نتيجته المنطقية، الوصول إلى الحزب، والإسهام في تأسيسه.

فعندما نعود إلى كتابات **شبلي الشميل**[١] في مصر عن الاشتراكية، قبل سنوات من المرحلة اليزبكية، والى كتاب **نقولا حداد**[٢] عن «الاشتراكية» الصادر في مصر أيضاً قبل عامين فقط من المرحلة نفسها، نجد أن هذه الكتابات أكثر نضجاً، وأشمل معرفة،

(١) شبلي الشميل: أحد أهم العقلانيين، ومن أوائل المفكرين الماديين، في الفكر العربي الحديث. ومن أوائل الداعين إلى الاشتراكية عندنا والباحثين فيها. أثار عواصف من المعارك حول أفكاره وجرأته المدهشة الباسلة في طرحها. اهتم بشكل رئيسي بنشر أفكار داروين حول التطور الطبيعي وكتب كثيراً حول التولّد الذاتي للحياة على الأرض، وفهم مسألة تكوّن العالم فهماً مادياً. ولد في كفرشيما (لبنان) على مقربة من بيروت عام ١٨٦٠. درس الطب في الجامعة الأميركية ببيروت، وذهب إلى باريس للتخصص. ثم توجه إلى مصر حيث مارس الطب وأصدر مجلة «الشفاء» العلمية الفكرية عام ١٨٨٦، وخاض معاركه الفكرية الجريئة. شارك في العمل على تحرير البلاد العربية من السيطرة التركية فصدر ضده حكم بالإعدام عام ١٩١٦، ولكنه كان في مصر بعيداً عن قبضة السفاح جمال باشا ـ من مؤلفاته: «شرح بخنر على مذهب داروين» ١٨٨٤ ـ «الحقيقة» ١٨٨٥ حيث يقدم براهين حول تعاليم داروين في النشوء والارتقاء ـ «فلسفة النشوء والارتقاء» ١٩١٠ ـ «مجموعة الدكتور شبلي الشميل» ١٩١٠ مقالات وأبحاث، منها دراسات رائدة في الاشتراكية ـ «رسالة العرب والأتراك» ـ وكتب أيضاً مسرحيات فكرية ـ توفي عام ١٩١٧.

(٢) نقولا حداد: موسوعي المعارف، موسوعي الكتابات. علمي في نظرته، ومن أوائل المبشرين بالاشتراكية العلمية في البلاد العربية. ناقش مختلف المذاهب التحريفية والاصلاحية من مواقع الاشتراكية العلمية. كتابه «الاشتراكية» الصادر عام ١٩٢٠، مارس تأثيراً كبيراً في جيل كامل من الشباب العربي، ودفع بالكثيرين منهم إلى الاشتراكية وإلى الأحزاب الشيوعية، رغم أنه هو نفسه لم يسهم في العمل الحزبي. ولد عام ١٨٧٠ في قرية جون (لبنان ـ الشوف). درس الصيدلة في الجامعة الأميركية ببيروت. سافر إلى نيويورك حيث عمل مع فرح أنطون في اصدار جريدة «الجامعة» يومية، وساهم هناك مع الريحاني ونعيمة وجبران في نشر الفكر التحرري والانفتاح على الفكر الاشتراكي. عاد إلى مصر حوالى عام ١٩٠٨ حيث أخذ ينشر فكره التحرري والاشتراكي ـ له مؤلفات كثيرة في العلم، والتاريخ، والسياسة، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والاشتراكية. وله الكثير جداً من الروايات المؤلفة والمترجمة. من كتبه: «الاشتراكية» ١٩٢٠ ـ «علم الاجتماع: حياة الهيئة الاجتماعية وتطورها» ١٩٢٤ ـ «هندسة الكون بحسب ناموس النسبية» ١٩٣٦ ـ «علم أدب النفس» ١٩٣٨ ـ «فلسفة التفاحة أو جاذبية نيوتن» ١٩٤٦ ـ «عالم الذرة» ١٩٥٠ ـ رئيس تحرير مجلة «المقتطف» خلال ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠ ـ توفي عام ١٩٥٤.

وأدق من الناحية العلمية، وأرفع، كقيمة نظرية معرفية، من كتابات يزبك الاشتراكية ذات النزوع العاطفي الممتزج بالرومنتيكية وبمثاليات أفكار الثورة الفرنسية. ذلك أن جيل شبلي الشميل ونقولا حداد وأمين الريحاني، وهو جيل التفتح الفكري التحرري، في لبنان، قد ورث جيل رجال النهضة (البستاني، اليازجي، الغلاييني) فأخذ عن هؤلاء: الصفة الموسوعية، والتحرر الفكري، والنزعة العربية التحررية الشمولية. ثم طوّر هذا الخط الفكري النهضوي باتجاه الديموقراطية والاشتراكية. وقد أتيحت لبعض هؤلاء فرص التحصيل العلمي مما ساعدهم على الفهم المادي لحركة التطور، كما أتيح لهم الاحتكاك بالمجتمع الصناعي (الولايات المتحدة) حيث الحركات العمالية متطورة وفيها فصائل اشتراكية. وبهذا تكوّنت عندهم أفكار اشتراكية حتى قبل تكوّن الطبقة العاملة وتطورها في لبنان، فاستطاعوا أن يستشرفوا المستقبل ويطرحوا الأفكار التي سوف تطوّرها الحركة السياسية للطبقة العاملة اللبنانية وتضع جوانبها الثورية في ممارستها العملية. ثم أتيح لاتجاههم الاشتراكي هذا أن يتفجر ويتبلور في مصر بالذات، حيث الوضع الاجتماعي يختلف عنه في لبنان تلك الفترة.

لهذا فإن الأمر هنا لا يعود فقط إلى اختلاف الأشخاص بقدر ما يعود إلى اختلاف الفترات الزمنية، وخصوصاً إلى اختلاف البنى الاجتماعية ـ الاقتصادية ودرجة نمو الطبقة العاملة وتطور الحركة العمالية هنا وهناك، وما أتيح بالتالي لهؤلاء الأشخاص من فرص للاطلاع والعلم والمعرفة.

ذلك أن الحركة العمالية اللبنانية كانت لا تزال في بدايات تكوّنها خلال العشرينيات من هذا القرن العشرين، في حين أن النضالات العمالية، وحركات التجمّع العمالي في مصر أخذت تبرز منذ مطالع هذا القرن. وأن الحركة النقابية المصرية قادت إضرابات واسعة سواء في الاسكندرية خصوصاً عام ١٩١٨ أم في القاهرة. وأن الحركة العمالية المصرية برزت كقوة ثورية أساسية خلال ثورة ١٩١٩ المصرية؛ وكانت الحركة العمالية عاملاً أساسياً في شمولية ثورة ١٩١٩ المصرية، وفي جعلها أكثر جذرية بحيث تجاوزت بكثير ما رسمه لها الزعماء المصريون السياسيون أنفسهم[1]. وإن

---

(١) راجع بهذا الصدد كتاب «تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٣ ـ ١٩٥٦»، للشهيد شهدي عطية الشافعي، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٥٧ ـ وكتاب «تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر ١٩٠٠ ـ ١٩٢٥»، للدكتور رفعت السعيد، دار الفارابي، بيروت ١٩٧٢ ـ وكتاب «الحركة النقابية المصرية ١٨٩٩ ـ ١٩٥٢»، لعبد المنعم الغزالي، دار الثقافة الجديدة.

«الحزب الاشتراكي المصري» كان قد تأسس في آب ١٩٢١، وأسهم في تأسيس الاتحادات العمالية وربط الحركة العمالية المصرية بالأممية النقابية الحمراء ـ فكانت هذه الحركات مهاداً مساعداً آخر لفكر اشتراكي أكثر نضجاً حتى ولو لم يكن بعض عناصر هذا الفكر مرتبطاً بالحزب أو داعياً إليه، شأن الشميّل وحداد. يضاف إلى هذا أنه اتيح للشميل مثلاً، خلال دراسته الطب ما بين بيروت (الجامعة الأميركية) وباريس، أن يصير موسوعي الثقافة علمي المنهج والوسيلة.. كما أتيح لنقولا حداد خلال هجرته إلى نيويورك ـ بالاضافة إلى تخصّصه العلمي بالصيدلة والكيمياء ـ أن يقوم بنشاط فكري جماعي مع طلائع المفكرين المتحررين الديموقراطيين العرب هناك: أمين الريحاني، وفرح أنطون، وميخائيل نعيمة، وجبران خليل جبران، حيث التقى هؤلاء «بطلائع الفكر الاشتراكي الأميركي لينهلوا من إنجازاتهم الفكرية وليشهدوا على أرض الولايات المتحدة الأميركية ذلك الصراع المرير ضد أعتى الاحتكارات الامبريالية وأشدها ضراوة»[1] هذه الاحتكارات التي كشف أمين الريحاني ضراوتها وامتصاصها لدماء مئات الملايين من العمال وسيطرتها التامة على الحياة الاقتصادية الأميركية في مقالات شهيرة (على سطوح نيويورك... وغيرها) تتميّز برؤية طبقية مدهشة وبانحياز واضح للطبقة العاملة والشعب[2]. وقد أقام نقولا حداد بالذات علاقة وثيقة بالنقابي الأميركي المكافح أوجين دبس أحد مؤسسي الحزب الاشتراكي الأميركي، والذي أشاد لينين بمواقفه الأممية والطبقية الشجاعة في دعم ثورة اكتوبر، ونعته بأنه «من أحب زعماء البروليتاريا الأميركية» وذلك في رسالة لينين الموجهة «الى العمال الأميركيين» عام ١٩١٨[3].

... هذه الظروف كلها، الخاصة منها والعامة، الذاتية والموضوعية، جعلت هذه التعبيرات الاشتراكية، والنزعات المادية، عند هؤلاء المفكرين اللبنانيين، والممتدة من

(١) د. رفعت السعيد: «نقولا حداد» من سلسلة «طلائع الفكر الاشتراكي»، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧١ ـ صفحة ٢٨ و٢٩.

(٢) راجع كتاب «أمين الريحاني في حقيقته الديموقراطية»: مقاطع من مقالات للريحاني عن المجتمع الأميركي، اختارها وقدم لها وعلق عليها: رئيف خوري.

(٣) لينين: «رسالة إلى العمال الأميركيين» ـ المختارات، الجزء الثالث، دار التقدم، موسكو ١٩٦٨، صفحة ١٩٩.

شبلي الشميل (١٨٦١ ـ ١٩١٧) وفرح أنطون[1] (١٨٧٤ ـ ١٩٢٢) ونقولا حداد (١٨٧٠ ـ ١٩٥٤) أكثر شمولاً ومعرفة وقيمة على الصعيد النظري من تعبيرات يوسف يزبك الاشتراكية العاطفية في «الصحافي التائه» ـ وهي قد أثّرت في تكوين فكره على كل حال ـ... ولكننا نعود إلى التأكيد أن الأمر الأساسي، هنا، هو **الأثر العملي الواضح لتيار يزبك وزملائه في** «الصحافي التائه»، سواء على صعيد المثقفين أم خصوصاً على صعيد الحركة العمالية في زحلة ـ حيث كانت تصدر المجلة ـ وفي بيروت، وبالتالي في ايجاد المناخ الفكري المتطلّع إلى تكوين حزب للطبقة العاملة، والممهّد لنشوء هذا الحزب، وبالتالي في إسهام بعض هذه العناصر، وخصوصاً يزبك، في نشأة هذا الحزب. فبالإضافة إلى الخصائص الشخصية ليزبك واندفاعته الحماسية الوطنية، وانحيازه المبكر إلى الفقراء والكادحين، إضافة إلى هذا، نستطيع التأكيد والتشديد على أن **ارتباط يزبك الروحي بالأممية الشيوعية، والاطلاع على بعض منشوراتها وبعض كتابات لينين، هذا الارتباط كان عاملاً حاسماً في تطور يزبك الفكري والعملي، وفي دفعه، بالتالي، لأن يكون أحد الأوائل في عملية تكوين الحزب الشيوعي اللبناني**، كما سوف نرى.

فلا بد أن نتابع حكاية هذا التطور، إذن:

---

(١) فرح أنطون: يعرّفه مارون عبود بقوله: «إنه اشتراكي محموم حرارته دائماً فوق الأربعين.. وهو أول من عرّف العرب بالمعلم كارل ماركس» ـ ذلك أن فرح أنطون يكتب عن الاشتراكية والماركسية والحركة العمالية بعاطفة وحماس وبعلم أيضاً.. خصوصاً في كتابه النيّر الرائد «الدين والعلم والمال» حيث يتخيل ثورة العمال بقيادة الماركسيين في ملحمة صراع طبقي عنيف ومسلح ضد الرأسماليين والخونة وقوى القمع.. والمدهش أنه وضع كتابه هذا عام ١٩٠٣ فكانه كان يرى الانتصار اللاحق لثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى، ويبشر بحتمية وصول ثورة العمال إلى بلادنا عندما تتكوّن الطبقة العاملة وتنظّم نفسها. قرأ لكثير من المفكرين، وتأثّر بكثير منهم، ولكن أهم تأثير عليه كان تأثير ماركس والماركسية.. وفي ميدان العمل السياسي كان واحداً من كبار المكافحين ضد الاستعمار، ومن كبار المدافعين عن ثورة أكتوبر والاتحاد السوفياتي. ■ ولد فرح أنطون في طرابلس (لبنان) ١٨٧٤. تخرج من مدرسة كفتين ذات الاتجاه الوطني. ترأس المدرسة الأرثوذكسية حيناً في طرابلس. وطالع كثيراً فتعرّف على أفكار رجال الثورة الفرنسية، وآراء نيتشه، وتولستوي، وتعاليم ماركس، وتأثر بهذا كله.. هاجر إلى مصر عام ١٨٩٧ حيث أصدر مجلة «الجامعة» الشهيرة، ثم هاجر إلى نيويورك فاصدر «الجامعة» أيضاً والتقى على صعيد الفكر التحرري مع الريحاني ونعيمة بالاضافة إلى قريبه وصديق عمره نقولا حداد. عاد إلى مصر ليعمل في الصحافة والترجمة وكتابة المسرحيات والروايات ـ من مؤلفاته: «الدين والعلم والمال» رواية ١٩٠٣ ـ «ابن رشد وفلسفته» ١٩٠٣ ـ «الوحش الوحش الوحش» رواية ١٩٠٣ ـ «أورشليم الجديدة أو فتح بيت المقدس» ١٩٠٤ ـ «السلطان صلاح الدين» ١٩٢٣ ـ وله الكثير جداً من الروايات والمسرحيات الموضوعة والمترجمة ـ توفي عام ١٩٢٢.

ـ على صفحات «الصحافي التائه».
ـ وعلى صعيد الحركة العمالية في منطقة زحلة، حيث كانت تصدر الجريدة.
ـ وفي بيروت حيث كانت الحركة العمالية في بدايات تكوّنها، تتلمّس الطريق.

في الرسالة الثانية من «الشبح الباكي» إلى مجلة «الصحافي التائه» (العدد ٦/ الأربعاء ١٨ تشرين الأول/١٩٢٢) يستعيد يوسف يزبك «تذكارات المجاعة في لبنان» أيام الحرب العالمية الأولى. وهو يوجّه الرسالة إلى «أخي الفقير البائس» ويربط ما يعانيه فقير اليوم بالأسباب نفسها ـ وبالطبقة نفسها ـ التي عانى منها فقراء أيام الحرب:

«سأرجع بكَ قليلاً إلى الماضي لأسمعك أنّة الشقاء في سوريا وأردّد لك صدى البؤس في لبنان. هي خواطر ادمجتها في وصف عذاب بلادي، **فأن أثّرت بك فاسألك باسم شهدائنا ان تخلع عنك رداء الجبن والعار وتاتي معي لنحاسب قوماً ملأوا الأرض من جثث ذوينا ولا يزالون يمرحون على تربتهم بكل طمانينة ليمثلوا المأساة ثانية**، وإلاّ فدعني وشأني بين دموعي وشقائي أندب بلاداً محلت فيها الأحرار ومات فيها المضحّون. وقُل معي رحم الله لبنان رحم الله سوريا!...».

بعد هذه المقدمة، يرسم يزبك صورة قلمية عاطفية لأم وطفلتيها يعانون الجوع الرهيب. الأم تخاطب يسوع وتسأله أين العدل الذي تحدثتَ عنه؟ وتقارن بين الأغنياء الذين يأكلون ويتنعّمون والفقراء الذين يموتون من الجوع، وتصرخ: «لماذا هذا التفريق بين أبناء الإنسان يا رب؟ ولماذا لا تساوي بينهم على الأرض كما تساوي بينهم في السماء؟.. **المساواة... المساواة... أيتها السماء!..**»...

ويعلّق الريّاشي، صاحب «الصحافي التائه» على هذه الصورة العاطفية، الجبرانية النغم، بقوله: «ما قرأنا كلمة لكاتب **أبكتنا** غير هذه»...

في هذه الصورة نلمس الغضب على الاقطاعية، عدو الفقراء وشاربة دمائهم، والتي لا تزال هي نفسها، سواء في العهد العثماني أم في عهد الفرنسيين، ودعوة واضحة إلى الكفاح ضد الاقطاعيين حتى لا يعيدوا «المأساة ثانية». ثم يبرز أحد شعارات الثورة الفرنسية «المساواة... المساواة»... وتبقى الدعوة إلى الكفاح غامضة، ونزعة الاستبكاء هي

البارزة إلى درجة «أبكت» حتى الصحافي التائه (اسكندر الرياشي) الضاحك الساخر المرح.

على أن هذه الرسائل الباكية أحدثت أصداء واسعة، خصوصاً وسط الشبيبة من المثقفين والعمال أيضاً. «... وكانت الناشئة في ذلك الزمان ـ كما قال يوسف يزبك فيما بعد ـ تستسيغ الأدب الجبراني الباكي... وبدأت مساجلة بين شبان وشابات فيها **طوباوية**، وفيها **اشتراكية مضطربة**، وفيها نقمة على المجتمع عنيفة، وعلى غلاء الأجور، والطائفية الدينية، و... و... دون وصف الدواء!.. ولكن البذرة نبتت»[1].

فقد كانت الأرض في زحلة، والبقاع، خصبة... وتتلهّف لمثل هذه البذور.

....

[□ ... فإن موقع زحلة، في قلب سهل البقاع الخصب، وفي الوسط بين جبل لبنان والساحل من ناحية والمناطق الداخلية (سوريا الآن) من ناحية ثانية، أتاح لها أن تصبح أحد أهم المراكز التجارية، والحِرَف، والتجمّعات العمالية (خصوصاً عمال سكك الحديد) وأن تتطور من قرية صغيرة إلى مدينة تجارية ـ حِرَفية، بشكل سريع عاصف... «.... ففي نهاية القرن الثامن عشر كانت زحلة، وهي قرية صغيرة من قرى سهل البقاع، تضم مئتي بيت فقط، أما في عام ١٨١٠ فقد أصبحت تضم ٩٠٠ بيت يسكنها خمسة آلاف إنسان. وارتفع هذا العدد في الخمسينات ـ من ذلك القرن ـ حتى الثمانية آلاف إنسان. وكانت زحلة نقطة تلاقي الطرق التجارية ومركز خزن القمح الذي يُجمَع من سهل البقاع، وكان البدو الرحالة يسوقون إليها قطعانهم من شبه الجزيرة العربية وكردستان ليبادلوا منتوجاتهم ببضائع الصناعة اللبنانية والأوروبية. وكانت المدينة تزوّد سائر لبنان بالمواد الغذائية، كما كان لها بعض الشأن في الانتاج اليدوي: المصنوعات الجلدية، والنسيج، والصباغة (...) وكان تجار لبنان الداخلي يوظّفون الأموال في الانتاج الصناعي أكثر من تجار بيروت، فقد كان تجار زحلة يملكون ورشات

---

(١) يوسف يزبك: «حكاية أول نوار» ـ صفحة ٥٥.

المصنوعات الجلدية والصباغة (...) وفي أمثال هذه القرى الصناعية تشكلّت فئة من الأعيان كانت تستخدم العمل المأجور في الحرفة»[١].

□ ولكون زحلة صارت مركزاً تجارياً وحِرَفياً، فقد نزح إليها، من جبل لبنان خصوصاً، الكثير من الحرفيين بعد الفتنة الطائفية عام ١٨٦٠، وكان ينجذب إليها بشكل خاص الروم الكاثوليك، وصار سكانها خليطاً لعديد من الطوائف اللبنانية، وهذا يفسّر ضعف النزعة الطائفية فيها، خلال تلك الفترة، كما أنه يفسر وعي بعض سكان زحلة للمصالح الاقطاعية الكامنة وراء الاصطدامات الطائفية. ففي رسالة وجهها أهالي زحلة إلى المسيو بوجاد، القنصل الفرنسي في بيروت، بعد الفتنة الطائفية الأولى عام ١٨٤٥ جاءت هذه العبارات الدالة على وعي مدهش: «... ويؤخذ من الافادات التي تلقّيناها ما يُثبت أن الدروز لم يأتوا لمحاربتنا إلا مكرهين من أصحاب الاقطاع، فإنهم يجبرونهم على ذلك بضرب العصي. ولا مراء أن لبنان لا يتمتّع بالراحة ما دام لزعمائه امتيازات ومعافيات كان يمنحهم اياها أمير الجبل لقاء خدماتهم (...) من الممكن عقد الصلح بين فلاحي الدروز والمسيحيين، إنما يتعذّر ذلك مع زعمائهم الذين يريدون حفظ امتيازاتهم وسلطتهم...»[٢].

□ ومنذ بداية القرن العشرين، ومع انشاء الخط الحديدي الذي يربط دمشق ببيروت، وانشاء فرع من هذا الخط، عام ١٩٠٧ يتيح الانتقال من رياق (وهي المحطة الرئيسية قرب زحلة) إلى حمص وحماة وحلب ـ تحوّلت زحلة إلى مركز تجمُّع عمالي واسع، ومتنوّع: أكثر من ٦٠٠ عامل يشتغلون في ورشة التصليح في محطة رياق، أكثر هؤلاء العمال يسكن في معلّقة زحلة وحوش الزراعنة، وهم مؤلفون من مسيحيين ومسلمين. كان المئات من العمال يتجمّعون كل يوم صباحاً في مكان معيّن حيث يمر القطار

---

(١) سميليانسكايا: «الحركات الفلاحية في لبنان ـ النصف الأول من القرن التاسع عشر» ـ تعريب: عدنان جاموس ـ منشورات: دار الفارابي، بيروت، ودار الجماهير، دمشق، ١٩٧٢ ـ راجع الصفحات: ١٥ و١٦و٢٠ و٢٦.

(٢) نقلاً عن كتاب «ثورة وفتنة في لبنان»، مخطوطة لأنطون ضاهر العقيقي، حققها وعلّق عليها وكتب مقدمة لها: يوسف ابراهيم يزبك. منشورات مجلة «الطليعة» ١٩٣٩ ـ راجع الصفحات ٨٢ و٩٤.

فيحملهم وينقلهم إلى «أتولييه» التصليح في رياق. وهذا التحول زاد في نشاط الحركة التجارية والحرفية في زحلة (٦٠٠ عائلة تقبض آخر الشهر من شركة السكة، تصرف، وتبيع، وتشتري)... وأخذت تتكوّن حركة عمالية ستمارس تأثيراً هاماً في تطور الحركة النضالية في زحلة والبقاع وفي تطور الحركة النقابية بلبنان لدى ظهور نواة شيوعية فيها، كما سنرى فيما بعد.

□ وهكذا تزايد تطور الحِرَف في زحلة (حدادة - تجارة - صب أجراس - دباغة - صباغة... الخ)... وأخذت زحلة، المدينة، تشعر بنوعٍ من الشخصية الخاصة، خصوصاً في فترة الانتقال من العهد العثماني إلى عهد الانتداب الفرنسي، حيث تزايد دورها كنقطة ارتباط أساسية بين جبل لبنان والساحل وداخلية سوريا، وكمركز ثقافي وتعليمي هام، ومركز نشر منذ أوائل القرن العشرين، ومكان صدور عدد من الصحف: «زحلة الفتاة» و «الوادي» و «البلاد» و «الصحافي التائه». وتزايد فيها عدد المثقفين والكتاب، وصار وادي زحلة مركز جذب لكثيرين من الكتاب والشعراء العرب منذ أوائل هذا القرن.

□ ومع العهد الانتدابي أخذت تظهر تناقضات جديدة في زحلة والبقاع تشكّل أسباباً جديدة للنضالات الفلاحية والعمالية: ففي عام ١٩٢٣ رفعت بلدية زحلة تقريراً إلى المندوب السامي الفرنسي حول «الحالة الاقتصادية الزراعية الصناعية في زحلة والبقاع»، ونشرت «الصحافي التائه» موجزاً له على حلقات (ابتداء من العدد ٧٢ الصادر في ٢٧ حزيران ١٩٢٣) تبرز في هذا التقرير بعض التناقضات الجديدة وبعض المطالب. يصف التقرير مدينة زحلة بأنها: وسط تجاري لقرى السهل التي تستورد منها الواردات الأوروبية... وهي توزِّع على أكثر من مئتي قرية. وتأتي إلى زحلة يومياً قوافل عديدة لشراء محصولات سهل البقاع. من أهم المحصولات: العنب الذي تحوّله زحلة إلى عرقٍ وخلّ. ولكن: دباغات زحلة تعطي أصنافاً من الجلود لا تستطيع أن تنافس الجلود المستوردة من أوروبا... والحكومة لا تتخذ وسائل لحماية هذه الصناعة! - إهمال الحكومة لوسائل الري الأمر الذي يحدّ من المحصول الزراعي - طريقة الإعشار على الأرض تُثقل كاهل الفلاح الذي عليه هنا أن يدفع ضريبتين أساسيتين: ضريبة للحكومة، وضريبة لتسديد الديون العثمانية لفرنسا، هذه الديون التي فرضت سلطات الانتداب على سوريا ولبنان (أي على الشعب) تسديدها!! - أما صناعة العرق فهي تجابه عدوّين

أساسيين خطرين: الديون العثمانية (ثمن كيلو العرق المصدّر ١٣ قرشاً، والضريبة المفروضة على كل كيلو عرق، لتسديد هذه الديون، هي ٤ قروش)... والعدو الثاني لصناعة العرق هو السبيرتو الأجنبي الذي يُستورد بكميات كبيرة ويُستخدم لصناعة عرق آخر، أرخص!

□ وقد شهدت العشرينيات تطوراً هاماً في الحركة العمالية بزحلة ورياق. ففي افتتاحية لاسكندر الرياشي (الصحافي التائه، العدد ٢٣ في ١٦ كانون أول ١٩٢٢) معلومات وأمنيات وردت في حديث أحد عمال سكة الحديد إلى الرياشي، قال: «لعمال السكة الحديد وحدهم نقابات منظّمة وهيئات عاملة معروفة ومعترف بها، وقد سعينا كثيراً لتنظيم نقابات أخرى من عمال الصناعات عند الأفراد والشركات فلم نتمكّن من ذلك حتى اليوم، ولكن الأمل معقود بالوصول إلى الغاية. وندرس الآن مشروعاً من شأنه تحقيق ضم جميع النقابات المنظمة وغيرها تحت لواء واحد فتكون بعد حين كتلة واحدة للعمل في إسعاد العامل».

... ألا تفسر هذه الوقائع كلها ما نجده في الصحف الصادرة في زحلة، خلال تلك الفترة، «زحلة الفتاة» وخصوصاً «الصحافي التائه»، من اهتمامات عمالية، وتعبيرات اشتراكية، وكتابات إيجابية أحياناً وسلبية أحياناً أخرى حول الحركة البولشفية في زحلة والبقاع ولبنان، والحركة الشيوعية في العالم؟

في هذا الوضع، وخلال العشرينيات، مع بروز تناقضات الوضع الانتدابي، ووجود حركة عمالية متنامية... أخذ يوسف يزبك يبذر أفكاره الاشتراكية. كانت هذه الأفكار ساذجة، وعاطفية، ومغموسة بالنغم الرومنتيكي الحزين، وبالدموع...

....

... ولكن البذرة نبتت.

فقد كانت الأرض في زحلة، والبقاع، خصبة ـ كما رأينا ـ... وتتلهّف لمثل هذه البذور.

وأخذت الرسائل ترد إلى «الصحافي التائه» تعليقاً على رسائل شبحنا الباكي (يوسف يزبك)... بعضها دامع العينين، وبعضها يشكو البؤس، وبعضها يتساءل عن طريق

الخلاص، وبعضها، الأكثر وعياً، يقول إن الطريق ليس بذرف الدموع بل بالبحث عن الوسائل الفعالة للنضال... وبتشكيل الحزب.

□ **هذه** رسالة بإمضاء «**الباكية الخرساء**» (يقال إنَّ كاتبها هو أحد شبان زحلة في ذلك الزمان!.) تتوجّه إلى الشبح الباكي:

«هذه يدي اليمنى أصافحك بها عن أخواتي البائسات، وهذه يدي اليسرى أمسح بها دموعك المتراكضة على خدك، لأن لا منديل لي أمسحها به»! وتعدّد «الباكية» تعاساتها وتعدّد فضائل الدموع... «فلنبكِ كثيراً، لأن في البكاء راحة... فهات يا تعاسة الشرق من دموعك الطاهرة، دموع آخر الليل، دموع الصمت والسكوت المفعمة بالألم، والأشباح الجميلة ما هي إلا الوحي والإلهام!!». وبما أن الشبح الباكي يصدر رسائله «عن الكوخ الأحمر في مدينة الأغنياء» فإن «الباكية» تضع تحت توقيعها هذه الصيغة الطريفة: «عن الروض المقفر في مدينة الأطلال» - (الصحافي التائه، العدد ٧ - السبت في ٢١/١٠/١٩٢٢).

على أن هذا الاغراق في البكاء، الصادر أصلاً عن هبوط في الحركة الوطنية الكفاحية، بعد فرض الانتداب وقمع مختلف أشكال المقاومة، والذي يعبِّر عن نقمة على الأوضاع وانسداد الأفق أمام هؤلاء الرومنتيكيين الشباب - هذا الإغراق في ذرف الدموع، لن يستمر طويلاً، وسوف يجابَه بمواقف أخرى تفتّش عن وسائل أخرى للخلاص، غير البكاء.

□ **فهذه** رسالة بامضاء «**شبح لا يبكي ولا يضحك**». الامضاء له معناه. فهو مُصاغ بوعي. وكذلك عنوان الرسالة «سهام لا أريدها مؤلمة». فهي ناعمة ولكنها ساخرة، وأكثر حسماً. يقول هذا الشبح الجديد: «جميلة تنهّدات (الشبح الباكي)، وبكاؤه يُبكّي الصخور الصمّاء. وقد رنّ صوته المخنوق بالعبرات في قلب أخته (الخرساء) فأطلق لسانها فنطقت بما كاد يكون أفصح وأبلغ من صيحاته المبللة بالدموع. فأكرم بالأخ، وأنعم بالأخت!...

«ولكن... **أتكتفي بالبكاء يا «باكي» وبالدموع يا «خرساء»؟ هل ببكائك تُضحك**

العمال، وبدموعك تروي غليل البؤساء؟.. كلامكما يفتّت قلب الجلمود، لو كان للجلمود قلب... ولكن أتريان له سبيلاً إلى قلب الغني فيلويه ويعطفه على الفقير؟.. إني لا أشك في أن شمالكما لا تدري بما تصنعه يمينكما... فلا تقفان عند عباراتكما وعبراتكما، بل تحوّلانها درراً وجواهر تتساقط على لسانيكما وعيونكما في جيب المسكين المعوز.

«وعلى سبيل المصادفة أقول؛ **يجدر بنا أن نتخذ الوسائط الفعّالة ـ لا سواها ـ للحصول على ما نتوخّاه**... كلامي قلته، ولكل رأيه»... (العدد ٨ ـ الأربعاء ٢٥/١٠/ ١٩٢٢).

واضح أن كاتب هذه الرسالة ليس بسيطاً. لا من حيث الموقف الواعي الذي يطرحه، ولا من حيث الصياغة اللغوية وتلاعبه الساخر بالألفاظ. كأن الكتابة صنعته. يُقال كاتب هذه الرسالة هو الشاعر المعروف **الياس أبو شبكة**، وكان يراسل «الصحافي التائه» في تلك الأيام (وسيأتي الحديث عن دوره الهام فيما بعد). ويقول يوسف يزبك: لا. فقد علمتُ فيما بعد أن كاتب هذه الرسالة هو **أسعد المنذر** (هو شاعر ومناضل وسيكون له دور كفاحي في الحركة العمالية والشيوعية في زحلة وفي بكفيا حيث سيكون أحد عناصر «حزب الشعب اللبناني»).... على أن أهمية هذه الرسالة لا تنحصر في الدعوة إلى الكفّ عن البكاء، وأنه لا يفيد شيئاً، بل أهميتها الأساسية هي في دعوتها الحارة إلى اتخاذ **الوسائط الفعالة**، للحصول على ما نتوخّاه... فما هي هذه الوسائط الفعالة؟.

الرسائل القادمة سوف تكون أكثر صراحة، ووضوحاً.

المهم أن صرخات يزبك الاشتراكية لم تكن في وادٍ مقفر.

ألم نقل إنَّ وادي زحلة ينطوي على تربة خصبة؟.. وسوف نرى أن مستوى الوعي في الأجوبة على صرخة يزبك سوف يتصاعد، وسوف تطلع أصوات تطالب يزبك بكتابات حول الاشتراكية تروي غليل الشباب المتطلّع الظامئ، وسوف يستجيب يزبك إلى هذه الأصوات... فكأنما هي أنغام سمفونية يفتّش بعضها عن بعض، فتتلاقى، وتنسجم، وتتصاعد، وتشكل معاً هدير أمواج بحرٍ متصاعد.

اسمع هذا النغم من طلائع الهدير:

□ «مهلاً أيتها الأشباح الباكية والصامتة، فما كان البكاء والصمت ليسدّا ثلمة في

بنائنا الاجتماعي أو ليشيدا لنا حائطاً نتكئ عليه ساعة التعب... فهذا كله ليس الهدف الذي نرمي إليه ولا الغاية التي ننشدها... ونحن البؤساء الباكين لنا بين الدمعة وأختها أنّة نلفظ معها كلمة شكوى، فلتكن هذه الكلمات أكثر من الدموع، ولنجعلها أحجاراً جميلة في بناء تربيتنا الاجتماعية الجديدة...

«**إن التطور الفكري الذي وصل إليه الشرق في الآونة الأخيرة تطور لا يُستهان به، فإذا تدبّرناه كان لنا فال خير ننهض به من هذا السكون المستولي علينا ونعزّز المذهب الحر العادل الذي تنزع إليه نفوسنا**... فليجعل الشبح الباكي بين كل جملة وأختها من تعابيره الخيالية المفجعة جملة أو كلمة تكون **درساً مفيداً في المساواة والآخاء**. ولتضع الباكية الخرساء عظة من العظات البليغات تلقيها على مسامع أطفالها فتكون بذلك قد زرعت في قلوب صغارها **حُبّ الاشتراكية والتسوية في الانتاج**... وليكن الشبح الصامت ناطقاً جَسوراً لأن الصمت في غير وقته عيّ وعجز، وليلقِ على تلامذته ورفاقه **محاضرات في ثورات العمال واعتصابهم وفي ويلات الاحتكار واستبداد أصحاب المال** الذين هم قبلة غايتنا لعلنا نخفف من غلوائهم. وليكتب الصحافي التائه نتفاً من **حوادث العمال والبؤساء في بلاد الله** لأن الجريدة منهم ولهم وهو أحد قوادهم... لندع الحكومة ومطاردة الأشقياء والمجلس النيابي وأصحاب الوحدة ودعاة الانفصال، ولننصرف بكلّيتنا إلى **المبدأ الذي اتخذناه لأنفسنا** دستوراً ومنهجاً سوياً. ولنبحث عن أقرب الطرق التي تمكّننا من تشكيل **حزب** للتآخي والاشتراك[1] نقف به سداً منيعاً في سبيل تيار الرأسماليين الذين أوشكوا بتصلّفهم أن يعيدوا بنا تمثيل مأساة المجاعة وضحاياها... فليكن لنا في الشرق **حزب** ينادي بالتسوية بين الطبقات علّنا نجبر عثرات الكرام، والسلام» ـ (الصحافي التائه، العدد ٩ ـ في ٢٨/١٠/١٩٢٢).

وقّع هذه الرسالة ـ وهي بعنوان «في سبيل المبدأ» ـ شخص اسمه صلاح محفوظ قال إنه «طالب حقوق في مصر».. قيل إن كاتب هذه الرسالة هو **فؤاد الشمالي**، القائد النقابي الشيوعي، اللبناني، القاطن في مصر، أو هي بدافع منه. ربما لأن في هذه الرسالة نداء قد يكون من أوائل النداءات الداعية إلى تشكيل **حزب للعمال** (أو: للاشتراك) في لبنان، والى الكفّ عن البكاء، والاتجاه بالحديث نحو **ثورات العمال واعتصابهم** (الاعتصاب هنا هو: **الإضراب**)... على أن هذا القول لا يسنده واقع فؤاد

(١) كلمة «الاشتراك» كانت ترد في أدبيات تلك المرحلة بمعنى الاشتراكية.

الشمالي نفسه، فهو أولاً أكثر نضجاً، ولهجته الشيوعية العمالية كانت، في ذلك الوقت بالذات، صريحة وواضحة وحاسمة. يضاف إلى هذا: إن فؤاد الشمالي يتميّز بأنه لا يحب أن يخفي اسمه الصريح، بل على العكس، هو يحب باستمرار أن ينشر اسمه مع آرائه. وكان اسمه وآراؤه قد أصبحت معروفة في مصر.. ولكن، إذا ثبت أن هذه الرسالة آتية من مصر فعلاً، وليس من أحد شبان زحلة كما يرجّح يوسف يزبك، فقد لا يكون كاتبها بعيداً عن المناخ الذي حرّكه الشمالي بين عدد من العمال والمثقفين اللبنانيين هناك...

(**عنوان الخبر**: «الحزب الاشتراكي السوري اللبناني» ـ الأهرام: ١١ يونيو، حزيران ١٩٢٢ ـ لمراسل «الأهرام» بالاسكندرية ـ **الخبر:** «استدعت ادارة الضبط بالاسكندرية **فؤاد الشمالي** وأنذرته بوجوب الكفّ عن الدعوة للاشتراكية الدولية، وقالت له يجب أن تسكت وتحذر ويجب أن تفهم هذا الأمر» ـ **انتهى الخبر).**

على كل حال، فإن المهم في رسالة صلاح محفوظ هو مضمونها. ففيها عدة نقاط تحمل دلالات هامة جداً: فالكاتب، **أولاً**، يدعو يزبك ورفاقه إلى الاستفادة من الظرف التاريخي: «إن التطور الفكري الذي وصل إليه الشرق في الآونة الأخيرة تطوّر لا يُستهان به... الخ...».

.. ففي هذه السنوات، أي ما بعد ثورة أكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ وخلال العشرينيات، انفجرت عدة انتفاضات وطنية بوجه المستعمرين، في مصر وفي سوريا، وأخذت تبرز إلى الميدان قوة جديدة هي الطبقة العاملة، وتتكوّن حركتها الكفاحية والنقابية. وفي فلسطين تشكّل الحزب الشيوعي عام ١٩١٩، كما تشكّل «الحزب الاشتراكي المصري» عام ١٩٢١. وفي باكو عُقد «المؤتمر الأول لشعوب الشرق» (١ ـ ٨ أيلول ١٩٢٠) بدعوة من الأممية الشيوعية، حضره مندوبون من الشرق العربي، وأذاع نداء «الى شعوب الشرق» فيه: «إن شعوب الشرق قد عانت طويلاً من الاستكانة والجهل تحت نير الحكام والطغاة المحليين، وتحت نير الغزاة والرأسماليين الأجانب. غير أن هدير المجزرة العالمية، ورعد الثورة العمالية الروسية ـ التي أعتقت الشعب الروسي الشرقي من قرون العبودية الرأسمالية ـ قد أيقظت شعوب الشرق. وها هي تنفض عنها

سبات قرون عديدة، وتقف منتصبة، متحدية»[١].

وكان لينين قد أعلن في تقريره إلى المؤتمر الثالث للكومنترن (الأممية الشيوعية) عام ١٩٢١ أنه «قد حدث تبدل خطير في هذا المضمار (أي: في الحركة الوطنية في المستعمرات) منذ مطلع القرن العشرين، وهو أن الملايين ومئات الملايين ـ حالياً الغالبية الساحقة من سكان العالم ـ ينهضون اليوم كعامل ثوري مستقل ونشيط. ويجب أن يكون واضحاً كل الوضوح، أنَّ هذه الحركة التي تقوم بها غالبية سكان المعمورة، والتي كانت تهدف بالأصل إلى التحرر القومي، سوف تتحوّل، في المعارك الحاسمة المقبلة للثورة العالمية، ضد الرأسمالية والامبريالية، وربما تلعب دوراً ثورياً أكبر مما نتوقع...»[٢].

وكان نقولا حداد قد أصدر كتابه المهم حول «الاشتراكية» (عن دار الهلال: ١٩٢٠) مستنداً إلى تعاليم ماركس، والى كتابات لينين ضد مختلف أنواع الاصلاحيين داخل الحركة العمالية.

وكانت «الأهرام» قد نشرت قبل أيام (٢١ أكتوبر، تشرين الأول ١٩٢٢) ترجمة أصدرها «الحزب الاشتراكي المصري» لأحد بيانات الكومنترن، موجّه إلى العمال الأتراك، يدعوهم فيه إلى معارضة كل حرب جديدة في الشرق، والى النضال ضد الاستعماريين الأوروبيين، الانجليز والفرنسيين، الذين تقاسموا الامبراطورية التركية فيما بينهم. وكان هدف الحزب الاشتراكي المصري من ترجمة هذا البيان ونشره على نطاق واسع هو «إبراز التحالف بين الاتحاد السوفياتي وتركيا الكمالية ضد الاستعمار الانجليزي. وكانت هذه القضية تحظى بشعبية كبيرة وتثير إعجاب الشعب المصري بالسياسة السوفياتية»[٣]. وقد نشرت «الصحافي التائه» هذه الترجمة نفسها لبيان الكومنترن نقلاً عن «الأهرام» في العدد نفسه الذي نشرت فيه رسالة صلاح محفوظ الآتية من القاهرة ـ فهل جاء نص البيان ضمن رسالة هذا الكاتب المجهول، والواعي؟

---

(١) عن كتاب «المؤتمر الأول لشعوب الشرق» وثائق ـ ترجمة: فواز طرابلسي ـ دار الطليعة، بيروت ١٩٧٢ ـ صفحة ٢٤٦.

(٢) لينين: «حركة التحرر الوطني في الشرق» ـ ترجمة الياس مرقص، دمشق ١٩٥٨ ـ صفحة ١٩٩.

(٣) د. رفعت السعيد: «تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر ١٩٠٠ ـ ١٩٢٥»، منشورات دار الفارابي، بيروت ١٩٧٢ ـ صفحة ٢٠٤.

وهكذا تؤكد هذه الظاهرات التاريخية ما أشار إليه كاتب الرسالة من أن التطور الفكري الذي وصل إليه الشرق «تطور لا يُستهان به»...

ثم إن كاتب الرسالة يدعو يزبك، **ثانياً**، إلى كتابة دروس مفيدة في المساواة والاشتراكية وثورات العمال وإضراباتهم... فإن توعية الجماهير تأتي عن هذا الطريق وليس عن طريق ذرف الدموع واستدرارها لدى تصوير حالات بؤس الجماهير وتعاسة الشرق. وسوف نرى أن يوسف يزبك لم يكن منغلقاً على كيانه الرومنتيكي الباكي، وداخل قناعات في فلسفة الشكوى والأنين... بالعكس. فكأن يزبك كان ينتظر ردود الفعل هذه ليتفاعل معها ويستجيب لها في دروسه التي سنقرأها فيما بعد، وبتصاعُد معرفي، حول الاشتراكية.

ثم نصل، **ثالثاً**، إلى أهم نقطة في رسالة صلاح محفوظ هي دعوته إلى تشكيل «**حزب** للتآخي والاشتراك» فرغم كل ما تحمله الصفات التي يريدها لهذا الحزب من تشوش فكري، ومن اختلاط الكلمات الآتية من مصطلحات الثورة الفرنسية (مساواة ـ اخاء) بكلمات «ثورات العمال» وعدم وضوح المقصود بـ «التسوية بين الطبقات» أو «التخفيف من غلواء الرأسماليين»... رغم هذا كله، فإن لهذه الدعوة، في ذلك الوقت بالذات، ووسط كتابات عاطفية غامضة حول الاشتراكية، أهمية لا نبالغ إذا قلنا إنها تاريخية ـ فقد أخذ التعبير عن **الضرورة الموضوعية لتشكيل الحزب** يظهر هنا وهناك... وأنغام السمفونية تتجه نحو التلاقي.

ويوسف يزبك يعكف على تحضير دروسه في الاشتراكية، محاولاً تجفيف دموعه بحنان، وتردّد.

□ «**أيتها** الرفيقة الباكية الخرساء. يا أختي. كنت أودّ أن أُمسك عن الدموع قليلاً لأعود إلى أخواني العمال واشتراكيتهم، لكن روضكِ المقفر أثار في فؤادي الشجون...»... فقد صار يرى، إذن، أن الدعوة إلى ذرف الدموع لا تتوافق مع الدعوة إلى الاشتراكية. إن فلسفة البكاء تتزعزع. ولكنه يحاول الدفاع عن نفسه تجاه مجادليه: «يقولون إننا نبكي لأننا ننظر إلى الحقائق من وجهتها السوداء، وإن الدموع هي سلاح الضعيف»... وكأنه يخشى ضياغ انتشائه الرومنتيكي بالبكاء، فيتشبّث بدموعه: «سأبقى باكياً إلى

الأبد»... ولكنه يعبّر عن فرحة جديدة: فقد صار لي رفاق أعزاء، يحنّون اليّ وأحنّ إليهم ويجمع شملنا أخونا البكر الذي تاه» (المقصود هنا الصحافي التائه).

هذه المقطوعة التي نشرها «الشبح الباكي»، في العدد ١٠ من «الصحافي التائه» (١/ ١٩٢٢/١١) بعنوان «أيتها الدموع» تكاد تكون مرثية يزبكية لعهد الدموع، وإيذاناً بدخوله عهداً أكثر وعياً ونضجاً، في مجال التبشير بأفكار الاشتراكية. فالمسألة أخذت تنتقل - بل تتصاعد - من مجرّد التألم للمظلومين والغضب لهم، إلى التلاقي والتفاعل مع أفكار الآخرين في هذا الاتجاه، إلى مطالعات جديدة حول الاشتراكية (منها كراس بالفرنسية بعنوان «مبادئ الاشتراكية» صدر في منشورات جريدة «الأومانيتيه»[1]، صدر عام ١٩٢٢.. وكان كتاب «الاشتراكية» لنقولا حداد، الصادر عام ١٩٢٠، قد تسرَّب إلى لبنان وأخذ يمارس تأثيره الايجابي الهام في حلقات الشبيبة المتطلعة إلى الاشتراكية)... يضاف إلى هذا طموح مخلص إلى العمل والتغيّير، وتوجُّه روحي غريزي نحو الأممية الشيوعية وبلد ثورة اكتوبر. هذه التفاعلات كلها كانت في أساس ما سوف نقرأ ليزبك، بعد قليل، من «**دروس في الاشتراكية**»... يصل من خلالها إلى القناعة **بضرورة الحزب**، وبالتالي إلى الإسهام - بعد عامين - بتأسيسه.

□ **وفي** حين كان يزبك يحضِّر أول دروسه في الاشتراكية، حمل لنا «الصحافي التائه» (العدد ١١ - في ١٩٢٢/١١/٨) صوتاً جديداً آخر، يعبّر عن الضرورة الملحّة لوجود حزب العمال، ويستخدم العنوان نفسه الذي استخدمه صلاح محفوظ، في دعوته تلك إلى تشكيل الحزب، «في سبيل المبدأ»، وهو استخدام ذكي، مقصود.

هذا الصوت يقول إنه آت من «الشام»، أما التوقيع فهو «سعاد حكيم». تنقل الكاتبة جملة تنبؤية عن كتاب «المساواة» الذي أصدرته «مي» في ذلك العام: «أما سيادة الغد فلليد العاملة التي لولاها لوقف دولاب الأعمال فشلّت حركة العمران».. وتعلن الكاتبة «ها نحن قد بدأنا نقف إلى جانبكم ننادي بالمبادئ الحرة (الاشتراكية) التي تنادون بها»... ويظهر من الرسالة أن الكاتبة تتتبّع «حوادث العمال واعتصاباتهم في أوروبا وأميركا»،

---

(١) من حديث ليوسف يزبك إلى مجلة «الأخبار» اللبنانية (العدد ١٤ - السبت/٢٨ نيسان/ ١٩٧٣).

وتبدي الكاتبة إعجابها بتأليف الأحزاب العمالية المنتظمة، في «بلاد الله» غير بلادنا، «وأما عندنا فلا تزال هذه المبادئ (أي الاشتراكية) بالمهد لأن الجهل لا يزال متسلّطاً على الأكثرية الساحقة في هذه البلاد» وتدعو إلى الإكثار من الكتابة حول هذه المبادئ.

وها هو يوسف يزبك يستجيب... ويبدأ دروسه عن الاشتراكية:

«أيها الرفيق... سأسرّ إليك بكلمات عذبة تنساب كالجدول الصافي، **لا هي ثورية** ولا بنت الكفر تُدعى، أبوها **المساواة** وأمها **الإخاء**، هي دروس في **حقوق الأجر وفي حرية** الحياة يجب أن يفهمها كل مظلوم وأن يطالب بها على رؤوس الاشهاد وأن يؤيدها كل حر تجري في عروقه دماء آدم وحواء»[١].

لا يزال شبحنا الباكي أسير انطلاقاته الرومنتيكية السابقة، ومفاهيم الثورة الفرنسية واصطلاحاتها: «حرية ـ آخاء ـ مساواة»... إنه يتألم للمظلوم ويدعو للمطالبة بحقه وانصافه، ويحرص على نفي صفة «الثورية» عن دروسه هذه، ويؤكد حرصه مجدّداً عندما يحاول تبرير هذا النفي، وإيجاد سبب معقول له:

«أجل إني لا أدعو العمال للثورة على النظام «الفردي»[٢]، **لأن الأفكار لم تتهيأ لها حتى اليوم**، ولم تتسرّب الديموقراطية إلى أعماق أخلاقنا وعاداتنا، وقد قلَّ من عرف في بلادنا مبادئ الاشتراكية ونظامها. بل يظن الكثيرون أن الاشتراكية هي جمعية فوضى واضطراب يديرها أفراد ذوو حركات ثورية (!!)[٣] ولكنهم جهلوا ـ لنقص في تربيتهم الأوتوقراطية ـ أنَّ الاشتراكية هي أسمى مما يظنون

---

(١) يوسف يزبك: «درس في الاشتراكية» ـ الصحافي التائه، العدد ٣ في ١٢ تشرين الثاني ١٩٢٢.

(٢) المقصود بالنظام الفردي هنا: النظام الرأسمالي. ويزبك يستخدم هنا الكلمة نفسها التي يستخدمها نقولا حداد في كتابه «الاشتراكية» الصادر عام ١٩٢٠. وهو يتفق مع حداد في الكثير من آرائه، وفي بعض الأمثلة أيضاً. وهذا يدل، من ناحية، على ما بين الدعاة العرب الأوائل للاشتراكية من انسجام وتفاعل، كما يدل، من ناحية ثانية، على وحدة مصادرهم.

(٣) علامتا التعجب موجودتان في الأصل!

وأقرب إلى المنطق من كل جمعية غيرها تسعى إلى السلام والتآخي. أني لأذكر أن هناك أفراداً **شذّوا** عن المبادئ الاشتراكية المعتدلة **وتطرّفوا** في مطاليبهم غير المعقولة، وأنَّ بعضاً منهم سكروا بخمرة الخيال وشاؤوا تنفيذ مبادئهم **بقوة السيف**، ولكن هؤلاء لا يؤثّرون على غاية الاشتراكية وعلى سيرها إلى الكمال الإنساني».

... فهل كان يزبك من دعاة «**التطور التدريجي**»... أو من منكري حق الثورة، وضرورتها، ومعارضي استخدام قوى الاشتراكية للعنف الثوري في عملية التغيير الاجتماعي بمواجهة العنف القمعي للبورجوازية المسلحة؟. إنَّ هذا النص الذي قدّمناه يترك هذا الانطباع، ولكن ليس بشكل قاطع... فهو في حين يبرّر عدم دعوته العمال إلى الثورة «لأن الأفكار لم تتهيأ لها حتى اليوم»... يؤكد من ناحية ثانية أن اللجوء إلى الثورة (بقوة السيف) هو «شذوذ عن المبادئ الاشتراكية»!.. وواضح هنا أن يزبك لا يزال يحاكم مسألة الطريق إلى تحقيق الاشتراكية محاكمة ذهنية، تجري على صعيد الفكر، ولم يتوصّل، بعد، إلى رؤية هذه الحركة كقانون اجتماعي، وأن الصراع بين الطبقات هو واحد من تجلّيات هذا القانون، وأن مسألة الانتقال الثوري ـ المسلح أو غير المسلح ـ إلى الاشتراكية لا تتقرّر على أساس الرغبات والمحاكمات الذهنية، بل هي مسألة تحقيقٍ للضرورة في تطور حركة الصراع، وإنما يتحكّم بشكل تحققها هنا، ميزان القوى الطبقية، والوضع الملموس للبلد وللمرحلة، وليس محاكمات ذهنٍ مثقف. ويبدو هنا كأن يزبك يحاول اتباع نوعٍ من التكتيك الحائر: ليس عندنا قوى لنقوم بالثورة، وأكاد أكون وحدي. فلماذا الدعوة، الآن، للثورة إذن؟.. المهم، الآن، هو نشر هذه الدروس في الاشتراكية... وتهيئة الوعي لتقبّلها.

«... قلتُ: إني لا أدعو (الآن) العمال للثورة على النظام «الفردي» ـ وأريد بالنظام الفردي القانون الذي يسير عليه العالم المحتكر والرأسماليون وهو نقيض الاشتراكية التي تسعى إلى قلبه وإبداله بنظامها ـ لكني أود أن أدخل مع أخواني العمال إلى باب الاشتراكية».

إذن، لنترك «الآن» مسألة الدعوة إلى الثورة، ولنستمع إلى يزبك يشرح الاشتراكية

للعمال والمثقفين، كما أتاحت له ثقافته، ومطالعاته، وموقعه الطبقي، أن يرى الاشتراكية في ذلك الزمن. فإن محاولته هذه تُعتبر أولى المحاولات الهادفة، في لبنان، إلى التبشير بالاشتراكية، وجمْع الأنصار حولها... وهذه النقطة بالذات ستُسهم في تطوير موقفه الطبقي، وتوصله إلى الإسهام في تشكيل الحزب.

فكيف كنتَ تَتصوّر الاشتراكية أيها «الشبح الباكي»؟

«الاشتراكية، يا أخي العامل، هي عقيدة عبقرية أوجدتها الديموقراطية بطريقة مستحبّة تسعى إلى نشر الراحة والسلام **بتقسيم الأغلال على قدر الأعمال**، والى زرع بذور المساواة **دون أن تسيء إلى مخلوق** أو أن تهضم حقه»...

هذا المفهوم السلمي المسالم للاشتراكية، والطوباوي بحيث لا «يسيء إلى مخلوق» ـ ثم شروحاته التي جاءت فيما بعد ـ كان جديداً جداً، في لبنان ذلك الزمان، وقد مارس تأثيراً فعالاً لا شك فيه، سواء داخل الحركة العمالية في زحلة أم في بعض أوساط المثقفين في العاصمة. «تقسيم الأغلال على قدر الأعمال»... هذا شعار لم يكن يحلم به حتى ليبراليو الكفاح ضد السيطرة التركية المتوهّمون أن الخلاص سيأتي بمساعدة فرنسا (وطن الثورة الكبرى!) فخابت آمال الكثيرين منهم، فالاقطاعي لا يزال هو نفسه، ويزداد طغيان المحتكرين. ويلخّص «الصحافي التائه» نفسه خيبة الأمل هذه في مقطوعة بعنوان «الساحر العظيم» (العدد ٨ ـ في ١٩٢٢/١٠/٢٥) تُصوّر حركة الانتقال هذه بإيجاز مدهش: «بينما يكون الجوع واليأس والأمراض تفتك بالألوف تأتي من الغرب جيوش عظيمة فتحرر البلاد من النير التركي، ولكنها تبقي من هو أظلم منه: الرأسمالي والمحتكر ـ يمرّ زمن طويل يبقى فيه سيد المجاعة سيداً بظل الرأسمالي والمحتكر، والقاتل على رأس السلم، ومن أبقى عليهم الجوع في أسفلها، على الحضيض» ـ فالحديث عن مذهب اجتماعي يقضي «بتقسيم الأغلال على قدر الأعمال» في تلك الظروف، له فعل ثوري، حتى ولو كان بين ركام من الصيغ الغامضة، فكيف إذا أُرفق بشروح من شأنها إبراز تناقضات الأوضاع بين الفقراء والأغنياء، الفلاحين والاقطاعيين، العمال والرأسماليين؟.. هكذا يفعل يوسف يزبك، مستخدماً كلمات الكتاب المقدس: «**تاكل**

خبزك بعرق جبينك».. فالأرض قديماً لم تكن ملكاً لأحد بل هي «مشاع» للجميع... من يزرع يحصد ومن لا يزرع لا يحصد... «ومن يعرق جبينه كثيراً يأكل كثيراً، ومن لا يعرق لا يأكل. وأن الأرض للجميع ولكل فرد الحق بالحياة. فلماذا يملك «الأمير حمّود» ثلاث مزارع ويبذخ من دخلها مع أنه لا يعرق جبينه، بينما المزارعون يكدُّون ويتعبون ويقضون نهارهم وقسماً من الليل في العمل، وهم لا يملكون أرضاً، بل إن ثمرة أتعابهم يأكلها صاحب المزارع؟»... ويمضي يزبك في الشرح المبسّط، المنطوي على طاقة تحريضية تكتسب قدرتها من لهجتها العاطفية، ومن زمنها «**أن للعمل (قيمة) و (ثمناً)**، فإذا عملتُ النهار كله كان لي من ثمرة العمل ما يوازي قيمة أو ثمن عملي، واذا عملت ساعة كان لي من ثمرة العمل ما يوازي قيمة ساعة...»... ويصف الأعمال المضنية التي يبذلها عمال المناجم في أميركا وفلاحو المزارع في لبنان، فيعرِّضون صحتهم وحياتهم للخطر في سبيل الحصول، فقط، على لقمة العيش... فلنفترض أن أصحاب الملايين «روكفلر» أو «فورد» أو «كارنجي» يقومون بمثل هذه الأعمال ليحصلوا على مثل تلك الأثمان «فكم مليون نهار يجب أن يعيش الواحد منهم لتكون ثروته كما هي الآن من الإثراء... ولتكون عنده هذه المليارات المذهّبة؟»... وتتوالى الأمثلة المشحونة بطاقة عاطفية تحريضية، ليصل يزبك إلى هذا الاستنتاج:

> «أجل يا أخي العامل، يا صاحب الحق الضائع، تأمّل هؤلاء الناس: يأكلون ثمرة اتعاب **أعمالنا** دون أن يحرِّكوا يداً أو عقلاً أو آلة للعمل، ويحارون في استنباط الملذات والملاهي والفجور والشهوات ينفقون عليها الأموال الطائلة التي يكسبونها من **سَهَرنا**، فماذا تقول، خصوصاً وأنك لم تنسَ الكلمة الهائلة «**عرق الجبين**» ـ أفلا يؤلمك هذا النظام **الجائر العاتي المستبد الظالم** وتتساءل كيف يجوز للأمير حمّود هذا البذخ مع أن موجِد ماله وسبب ملذّاته يتضور جوعاً؟».

فكيف القضاء على هذا النظام «الجائر ـ العاتي ـ المستبد ـ الظالم»؟.. إن يزبك لا يعطي قارئه جواباً، لا واضحاً ولا غامضاً، بل هو يصف كتاباته التحريضية هذه بأنها «أسطرٌ سود يقرأها العامل **باكياً** والفقير **شاكياً**»!.. عدنا إلى البكاء والشكوى!.. أما طريق الخلاص فلا يزال ضائعاً.. والنفوس التي «تئن من مظالم الاحتكار»، ماذا عليها أن تعمل أيها الشبح الذي لا يزال باكياً؟.

ـ أن «**تضرع** الى الاشتراكية الحرة لتمنع هذه الأرواح من أن تطير إلى ربها...»!.

... هكذا يُنهي يزبك درسه الأول في الاشتراكية (الصحافي التائه ـ العدد ١٣ ـ في ١٩٢٢/١١/١٢)... لم تبرز عنده، بعد، فكرة ضرورة تكوين **حزب يناضل من أجل الاشتراكية**، كما برزت عند محاوريه الشبان... وحتى عند صاحب «الصحافي التائه» نفسه في بعض تعليقاته... مع أن يزبك لا يزال يعلن ارتباطه الروحي بـ «الأنترناسيونال الثالث» (الأممية الشيوعية) ـ فهل هو تكتيك بعيد المدى، أم أن يزبك لم يكن قد توصّل فعلاً إلى قناعة بضرورة، أو إمكانية، تشكيل الحزب؟.

في درسه الثاني عن الاشتراكية (العدد ٢٢ في ١٩٢٢/١٢/١٤) يكشف يوسف يزبك عن بعض ما عنده، بما يتعدى مجرّد التبشير بالاشتراكية بواسطة الكتابة. فهو هنا ينقل ما روته إحدى الصحف عن تبذير أحد أغنياء عكار في أحد ملاهي البلد على راقصة، وأنه أحرق ورقة مالية بقيمة مائة ليرة مصرية ليُشعل لها سيكارة....

«... فما قول المنصفين بهذه الحادثة وبأمثالها الكثيرة؟

أوَلم تكن الأرض في عكار **مشتركة** يوم خُلق جدّنا؟ فكيف **يملك** هذا الأمير **أملاكه** الواسعة، وكيف يحرق مائة ليرة ورقة واحدة، بينما المزارعون في بلده **ليس لهم ذراع أرض**، بل إنهم يهاجرون مئات ومئات إلى ما وراء البحار هرباً من حراجة موقفهم. وكيف **يملك** هذا الغني ليراته المصرية مع أنه لم **يأتِ عملاً** مدّة حياته، ولماذا يُحرم العَمَلَة من **الأملاك** والخاملون يُرزقونها عفواً؟

أنا لا أقول مع النظام الاشتراكي المعتدل بوجوب مباحة (المقصود اباحة) **الأملاك بين العاملين، وتقسيط الانتاج بقدر الأتعاب وقيمتها.** (هذا يعني، بلغة اليوم: الأرض لمن يزرعها ـ وتقاسم الانتاج على أساس تعاوني)... إن الأرض **مشاع** ـ كما ذكرتُ سابقاً ـ بين كل العاملين، ولكلٍ قطعة منها. فالاستقطاب المالي أو العقاري لا يحلّله

العقل إلاّ بأن أصله هو تنازع وحشي، جرى على الوجه الآتي أو ما يقاربه».

وهنا يقدّم يزبك تصوراً لعملية الاستقطاب العقاري (الاستيلاء على الأرض وامتلاكها من قبل فرد واحد ـ يصبح اقطاعياً ـ وتشغيل الآخرين عليها لمصلحة هذا **المالك**)... وفي هذا التصور تأكيد ملموس لصيغة «برودون» التي لم يوافق يزبك عليها: «الامتلاك هو اختلاس»... ويتضح من هذا الدرس الثاني في الاشتراكية أن يزبك أخذ يبتعد في كتاباته عن تلك الغنائية العاطفية الداعية لإنصاف المظلومين، ويقترب من أسلوب البحث واستخدام مفاهيم من الاقتصاد السياسي تدلّ على ما أخذ يبذله من جهد في الاطلاع وفي اغناء معارفه الاشتراكية، في محاولة جدّية للانتقال من مرحلة العاطفة الاشتراكية، إلى مرحلة العمل على استيعاب الاشتراكية العلمية وما تتطلّبه من اتجاه نحو النشاط العملي، وتجميع الأنصار.

وبما أن أصداء كتابات يزبك أخذت تتسع باستمرار، وتتكاثر حلقة الشبان، من عمال ومثقفين، الذين يعلّقون على هذه الكتابات، يضيفون إليها أفكاراً جديدة ويقدّمون الاقتراحات، ويعبّرون ـ بصيغ وبلهجات مختلفة ـ عن ضرورة وجود **حزب** ينضوي هؤلاء الناس تحت لوائه.. وبما أن الحركة العمالية في زحلة، بين عمال سكة الحديد وغيرهم، أخذت تتجه من خلال تجمّعاتها وجمعياتها نحو اتحاد نقابي عام، وأن كلمة «**حزب العمال**» صارت في التداول، على صعيد زحلة، حيث تصدر «الصحافي التائه» وعلى صعيد بيروت حيث كان يزبك ينشط بشكلٍ ما، والحركة العمالية تتطلّع نحو التنظيم النقابي المستقل عن أرباب العمل وعن الدولة ـ فإن التبشير بأفكار الاشتراكية لم يعد يكفي، فلا بد من خطوة ما، أولية، نحو النشاط العملي:

«... فأنا وأنت، يا أخي العامل، **نتعب ونشقى**، وهيهات أن نشبع، والأمير حمّود يأكل ثمرة (عرق جبيننا: **دون أن يتعب**، ويعيش عالة علينا. وفوق هذا يستبدّ بنا ويهددنا بالطرد من (**أملاكنا**) وتخفيض الأجور اكراماً **لقوة أمواله** المدّخرة.

إن قوة المال واستقطابه هما اللذان أوجدا النظام الفردي، **فيجب أن يموت استقطاب المال**، ويقوم على **انقاضه** مذهب **التعاون**، وليس لهذا المذهب النبيل العالي، إلا أن **تتدبّره أيدي الاشتراكيين** المفكرين فيعيش ـ **فهل في فؤادك نزوع إلى هذا المذهب السامي؟**

أرسل جوابك إلى «الصحافي التائه»...

خطوة على الطريق.

وهذه الخطوة توضح أن يزبك، ربما من خلال مطالعاته في «الأومانيتيه» وغيرها من المنشورات والمطبوعات الشيوعية حول تكوّن الحركات الاشتراكية وتطورها، وربما من خلال ما أحدثه تيار «الصحافي التائه» من حركة وسط العمال والمثقفين وتنامي رغباتهم في التجمّع ـ أخذ يعلّق أهمية كبيرة على الدور التجميعي والتنظيمي للجريدة (وسوف يتأكد هذا، فيما بعد، في الدور الهام الذي أدّته ـ في هذين المجالين ـ جريدة **«الإنسانية»** التي صدرت باسم يزبك بعد تشكيل الحزب) ـ فهل كان يزبك يهدف، من خلال هذه الدعوة: (إذا كان في فؤادك نزوع إلى هذا المذهب السامي ـ الاشتراكية ـ أرسل جوابك الى: الصحافي التائه!) ـ هل كان يهدف إلى احصاء الأنصار تمهيداً لتشكيل حزب؟

لا شك في هذا، ولكن المسألة كانت تحتاج إلى قدرة معيّنة على التنظيم ربما لم تكن بعد قد توافرت في ذلك العام.

على كل حال، فإن يزبك يواصل تبشيره بالاشتراكية، بشكلٍ أعمق وأوسع وأوضح مما سبق ـ ويحثّ العمال على تكوين النقابات والجمعيات الخاصة بهم ـ ويدعو العمال إلى الاتحاد رافعاً شعار: **يا عمال لبنان اتحدوا!**

كان هذا بمناسبة عيد العمال في أول أيار عام ١٩٢٣.

وكان اسكندر الرياشي صاحب «الصحافي التائه» قد أعلن (في العدد ٥٧ الصادر في ٢ أيار ١٩٢٣): «أن الرفاق في هذه المطبعة **عطّلوا** أمس احتراماً لعيدهم المقدس الذي فاق كل الأعياد المدنية». وكانت افتتاحية الرياشي بعنوان «أول أيار، عيد سعيد للعمال»... قال فيها: «... في أول يوم من شهر أيار يحتفل العمال في العالم أجمع بعيدهم الجديد متوسّمين من هذا الشهر المبارك، الخير العميم للطبقة العاملة التي أرادت

أن ترى في زهور أيار رمز الحياة الضاحكة التي تعمل في سبيل الوصول إليها»... ويتوقّع الرياشي أن يكون هذا اليوم «نبراساً للعامل الذي يدخل في سوريا ولبنان اليوم في حياة جديدة من ورائها الوصول إلى المركز الحقيقي في المجتمع العام الذي اكتسبه بجده ونشاطه». ثم يضفي الرياشي على احتفال عمال «الصحافي التائه» بهذا العيد أهمية استثنائية، تاريخية: «... **فهي أول مرة يحتفل عمال في سوريا ولبنان بهذا اليوم**... فعسى أن يخرج من هذه الادارة الحقيرة ـ حيث بعض عمال ورفيق لهم، آمنوا واعتقدوا بألوهية الرفاق ـ نورٌ ضئيل اليوم يكون بعد حين النبراس الذي تستضيء به طبقات العمال والفلاحين في هذه الديار المباركة... فسلام، وعيد سعيد، وفاتحة مساواة للرفاق في لبنان وسوريا»...

لا شك أن لاحتفال «الصحافي التائه» بعيد العمال في أول أيار ١٩٢٣، أهمية تاريخية خاصة، وهو تعبير عن موقف الجريدة وعمالها، من ناحية، كما هو تعبير، من ناحية ثانية، عن التطورات التي تجري في الحركة العمالية في زحلة نفسها. فقد سبق أن تشكلت نقابة باسم «نقابة عمال زحلة»[1] سيكون لها دور هام في الحركة النقابية والشيوعية في زحلة (سيرد ذكرها في فصل تالٍ من هذا الكتاب)، وقد نشر «الصحافي

(١) تأسست «نقابة عمال زحلة» في نيسان ١٩٢٣ برئاسة رشيد سويد ـ في عهدها الأول مارست نشاطاً عمالياً ونشاطاً ثقافياً واسعاً (وسيأتي تفصيل هذه المرحلة في فصل لاحق). على أن هذا النشاط لم يستمر أكثر من ثلاثة أعوام، فإن مختلف الأطراف غير العمالية وغير التقدمية، خاصة الزعامات المحلية، حاربت النقابة بضراوة رغم تركيبها المسالم في تلك المرحلة، فانفرطت ـ وفي عام ١٩٢٨ كان الشيوعيون قد تكاثروا في زحلة، واستطاعوا أن يشكلوا «النقابة العامة لتعاون العمال في زحلة»، مستخدمين رخصة «نقابة عمال زحلة» نفسها ـ في تموز ١٩٢٩ ساهمت النقابة في إضراب سائقي السيارات في زحلة تضامناً مع السائقين المضربين في بيروت. كانت النقابة مستقلة عن الزعامات المحلية. وطابعها طبقي واضح، حتى أنها أخذت على نقابة عمال المطابع لجوءها في تلك الفترة، إلى الزعماء والرأسماليين. تعرّضت النقابة إلى هجمات الأوساط الطائفية والاقطاعية والرأسمالية وعملاء الانتداب، وسلطات الانتداب ـ في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٢٩ أصدرت السلطات مرسوماً برقم ٥٨٧٧ تحظر فيه نشاط النقابة. احتج قادة النقابة. حاولوا الحصول على ترخيص جديد. لم تعطهم السلطات، طبعاً ـ في ٢٢ شباط ١٩٣٠ وزع قادة النقابة بياناً بعنوان «بيان» واحتجاج، ونداء» يدعون فيه سكان زحلة إلى الاحتجاج على منع النقابة. اعتقلت السلطات قادة النقابة والعديد من الشيوعيين ـ جرت المحاكمة في ٤ آذار ١٩٣٠ ـ احتشدت المحكمة بعمال زحلة. استخدم المتهمون منبر المحكمة للدفاع عن اتجاهاتهم. صدر الحكم بحبس المتهمين شهراً. استأنفوا الحكم. حُكم عليهم بوقف التنفيذ... وكانت مدة العقوبة قد انتهت!. (في زحلة كانوا يُطلقون على هذه النقابة اسم: حزب العمال).

التائه»، في عدد ٢ أيار نفسه، رسالة من رئيس هذه النقابة، رشيد سويد، يهنئ فيها «الرفاق في سوريا ولبنان بمناسبة عيد العمال المبارك ـ أول أيار ـ اعاده الله على الرفاق وجعله فاتحة عهد جديد تُقدَّس فيه حقوقهم وحريتهم الشخصية».

ونستطيع القول: إن احتفال «الصحافي التائه» هو أول احتفال بهذا اليوم في سوريا ولبنان يعلن فيه العمال المحتفلون أن **هذا اليوم يوم عطلة عن العمل**. وهذا هام جداً. ولكننا لا نستطيع القول إنها أول مرة يجري فيها الاحتفال بأول أيار عندنا، بشكل مطلق. لعلها المرة الثالثة، أو الرابعة، أو أكثر، فلا نستطيع الآن اعطاء تحديد دقيق، ولكننا نستطيع التأكيد، أن **المرة الأولى** كانت عام ١٩٠٧ على الشاطئ البيروتي ـ كما مر معنا في فصل سابق ـ وتقول مجلة «المراسلات الأممية» الناطقة باسم «الأممية الشيوعية» (في العدد ٨٩ ـ الصادر عام ١٩٢٥) **إنَّ الاحتفال الثاني بعيد أول أيار في لبنان** جرى عام ١٩٢١ «حيث تظاهر في بيروت بعض العمال والمثقفين في الشوارع احتفالاً بأول أيار، وقد اسفر الاحتفال عن مجزرة دموية»[(١)].

وقد كانت مبادرة يزبك هامة جداً إذْ نشر بحثه المهم الذي جعل عنوانه ـ **«الاشتراكية في لبنان» ـ «بمناسبة عيد العمال في أول أيار»**. فهو من ناحية عبّر عن ارتباط عيد العمال بالاشتراكية، وبالعمل على نشر الوعي الاشتراكي في لبنان، وهو من ناحية ثانية قدَّم أهم وأوسع ما كتبه حول الاشتراكية في تلك المرحلة التمهيدية قبل تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني بعام وعدة شهور...

ولا نرانا مبالغين إذا استنتجنا، هنا، أن حركة العمال والمثقفين التي أخذت تلتفّ حول ما تثيره «الصحافي التائه» من أفكار بشأن الاشتراكية، والتي أخذت تطالب يزبك ـ كما مرَّ معنا ـ بكتابة دروس ومحاضرات في الاشتراكية وثورات العمال، هذه الحركة ـ بالاضافة إلى طاقة يزبك الداخلية في فكره وفي قلبه ـ لم تدفع يزبك فقط إلى التوسّع المستمر في معارفه الاشتراكية، والابتعاد عن أسلوب التغنّي بمثُل الاشتراكية ثم

---

(١) نقلاً عن كتاب الدكتور عبدالله حنا «الحركة العمالية في سوريا ولبنان ١٩٠٠ ـ ١٩٤٥»، منشورات دار دمشق ١٩٧٣ ـ صفحة ٣٣١.

سلوك سبيل البحث النظري، والمناقشة والمقارنة وضرب الأمثلة والتحليل، ورؤية حركة الجماهير، وحركة التاريخ بالتالي على غير ما كان يراها الكتّاب التقليديون ـ نقول: إن هذه الحركة، وهذه المرحلة، أسهمت أيضاً في وضع الأساس العلمي الذي سيتكوّن على قاعدته **الباحث المؤرخ**: يوسف ابراهيم يزبك، كما نعرفه الآن: واحداً من أبرز المؤرخين العرب الذين لا يكتبون التاريخ كرواة ومخبّرين، بل معللين ومفسرين، ومن مواقع كشف دور الجماهير ونضالاتها وكونها هي الصانعة الحقيقية للتاريخ لا الملوك والسلاطين والحكام ـ فأنت واجد في كتب يزبك العديدة[1] وفي كشوفه التاريخية الكثير من بصمات هذه الحركة، وهذه المرحلة، التي يعتز بها يزبك ونعتز بها معه.

ولعل البحث الذي نحن بصدده هو من أبرز العلامات الفكرية لتلك المرحلة في لبنان. وكان هذا بمناسبة عيد العمال في أول أيار ١٩٢٣.

«أنا اشتراكي صميم» ـ هذا ما يعلنه يزبك في تمهيده للبحث... (وهو التمهيد الذي نقلناه في مطلع الحديث عن مسيرة يزبك، هل تذكرون؟). والبحث مقسَّم إلى ثلاثة مقاطع: **«الاشتراكية» ـ «الاشتراكية في لبنان» ـ «الاشتراكية والعمال».**

أما «الاشتراكية» فهي:

«... كلمة ارتجّ لها العالم من «أدناه إلى أقصاه، وانشقّ إلى قسمين: قسم يحاربها، وهو فريق الرأسماليين والمحتكرين وبعض زعماء القوم. وقسم يؤيدها ويذود عنها وهو فريق العمال والأحرار. فما عساه يكون نصيب هذه الكلمة (الاشتراكية) من تكييف مقررات العالم بعد خروجه

---

(١) من الكتب التاريخية التي صدرت ليوسف ابراهيم يزبك: «النفط مستعبد الشعوب» ١٩٣٤ ـ «١٤ تموز» ١٩٣٦ ـ «المحررون» ١٩٣٧ ـ «ثورة وفتنة في لبنان، طانيوس شاهين» ١٩٣٨ ـ «ليلة المصمك» ١٩٥٣ ـ «مؤتمر الشهداء» ١٩٥٥ ـ «تطور الشعور العربي» ١٩٥٧ ـ «وليّ من لبنان» ١٩٦٠ ـ «داود عمون» ١٩٦٢ ـ «كتاب الشهيد» ١٩٦٦ ـ «حكاية أول نوار، في العالم وفي لبنان» ١٩٧٤ ـ وأصدر ٣٨ جزءاً من نشرة وثائقية في تاريخ لبنان بعنوان «أوراق لبنانية». بالإضافة إلى مئات الدراسات التأريخية في عدد كبير من المجلات والصحف العربية والاجنبية. وقد انتخب يزبك عام ١٩٧٤ أميناً عاماً مساعداً للمكتب الدائم لاتحاد المؤرخين العرب.

من الحرب وويلاتها منهوك القوى، مشوَّه الجسم، ودخوله في أكبر تطور إجماعي عرفه التاريخ».

ويستعيد يزبك ما قاله في درسه الأول عن الاشتراكية من أن ما جاء في الكتاب المقدس: «بعرق جبينك تأكل خبزك» صار دستوراً للاشتراكيين... «وهم يسعون الآن إلى تحقيق هذه الآية بأن يعمل «الجميع» دون استثناء في الطبقات، وأن يكون أجر كل عامل بقدر نتيجة عمله. أي بقدر ما يثمر العمل من فائدة للجميع».

فإلى ماذا ترمي الاشتراكية، كما يرى يزبك؟

«ـ ترمي الاشتراكية الآن، الى: **إبدال النظام الفردي** (اقرأ: الرأسمالي) **بنظام اشتراكي يساوي بين حصص أثمار العمل كما يتساوى العمال في عملهم لإنتاج ذلك الثمر.** أو ببيان أوضح، مثلاً: أن القاطرة (السكة الحديدية) لم تسر من بيروت إلى زحلة الا لأن النجّار والحداد والفاعل والبنّاء والدهّان والمهندس وصاحب المال «**اشتركوا**» في تكوين هذه القاطرة وبذل كلّ منهم عملاً أو ما يساوي عملاً في سبيل ايجادها. فهل نال (المنتوج) منهم (أي القاطرة) اشتراك تعبهم؟ أو أن بعضاً نال قسماً زهيداً وبعضاً لم ينل شيئاً؟. ـ الجواب هو: أن العامل المسكين الذي قضى سنوات في الجد والعمل والشقاء والتعب تحت حرارة الشمس وعواصف الشتاء وبرده القارص، نال أجرة وقت عمله، وعند نهايته منه مضى في سبيله، وأخذ صاحب المال ـ بكل راحة بال ـ يستثمر وحده (وحده! وحده!!) نتيجة عمل ذلك العامل الشقي».

وهنا ينتقل يزبك إلى مناقشة بعض مفاهيم الاقتصاد البورجوازي الذي يحاول طمس دور العمل في خلق **القيمة**، والإيهام بأن المال يقوم بهذا الدور، لإخفاء سرقة الرأسمالي **القيمة الزائدة** التي يخلقها عمل العامل. ويصوغ يزبك فهمه لهذه المسألة بهذا الشكل الجدالي:

«... ولعل معترضاً يقول: إن هؤلاء العمال، لولا وجود المال، لما تمكّنوا من إيجاد القاطرة، فإن العمل وحده لا يكفي للقيام بالمشاريع. فنجيب: (وإن يكن الاعتراض مردوداً علمياً) وإن المال وحده لا يقوم أيضاً بالمشاريع إن لم «يشترك» معه عمل، فهل يجوز أن يستثمر المال نتيجة العمل مع أنه لم يتمكن من انتاج شيء لولا «اشتراكه» معه؟... إذاً، أرجو أن تحفظ جيداً هذه العبارة: **«الاشتراك في العمل»...** إن **المال** ـ بنظر بعض الاقتصاديين ـ هو ثالث عوامل الانتاج. (وأول هذه العوامل الثلاثة هو **الإنسان** وثانيها **الطبيعة**). وفي عرف البعض الآخر: **لا يدخل المال في عداد عوامل الانتاج، بل يُعد «منتوجاً مشتقاً»**، فهل يصح أن المنتوج يحرم علّته من ثمر انتاجها؟. ـ أجل يصح هذا!!. يصح هذا الظلم العاتي ما دام القوم سائرين على النظام الفردي الذي يجيز للغني أن يأكل ثمرة تعب الفقير، وأن يعيش القوي عالة على الضعيف، وأن يحتكر العالم أفراد معدودون، ويكيِّفون سياسات الوزارات، ويقلبون الدول على أعقابها... والعامل كالنذل الجبان أمامهم، لا يجسر على أن ينظر إلى مواطئ أقدامهم».

يرسم يزبك، بعد هذا، لوحة واقعية قاسية عن سيطرة كبار الرأسماليين الاحتكاريين على اقتصاد العالم ومصائره، وكيف هم يثيرون الحروب لترويج السلاح الذي تنتجه مصانعهم، فهم يقيمون الحكومات ويقلبونها، وهم يوحون بالقوانين التي تُسنّ لصالحهم. هم الحكام الحقيقيون للعالم، وهم المتحكّمون بمصائر ملايين البشر، وهم السبب الأساسي لبؤس العالم.

«... أعود إلى الاشتراكية ومبادئها، فقد يظنّها بعضهم أنها فوضى وظلم، تدكّ أصحاب المال، وتُميت النبوغ، وتقتل التفوّق. لا!.

إن الاشتراكية لا تقاتل أصحاب المال، ولكنها:

ـ تريد أن تقتل الاستقطاب المالي والعقاري، أي: الاحتكار.

ـ تريد أن يكون العالم كله غنياً ما زال هذا الغنى منتوجاً من الطبيعة الغنية التي هي أم الكل.

هذا هو الهدف الاستراتيجي للاشتراكية، كما حدده يزبك، ولكنه يقدم، بعد هذا، ما يمكن اعتباره من أولى البرامج المرحلية التي صاغتها الحركة الاشتراكية في بلادنا، بهدف جمع الأنصار من العمال والمثقفين. فماذا تريد اشتراكية تلك المرحلة كما أوردها يزبك؟

ـ تريد أن ينال العامل أجره بكل استحقاق، وأن يقف عالي الجبهة معتبَراً في كل مواقفه.

ـ تريد أن يكون في الحكومة نواب عن العمال، يدافعون عن حقوقهم ويؤيّدون مطالبهم عند سنّ القوانين.

ـ تريد أن لا تكون الضرائب على العمال وحدهم، وأن ينال هؤلاء قسطهم من الحكومة.

ـ تريد أن تكون المدارس مجانية للجميع.

ـ تريد أن تُميت كل الشركات الاحتكارية.

ـ تريد أن تكون المشاريع العمومية في يد الحكومة ليكون ريعها للأمة التي تؤلّف الحكومة».

فكيف السبيل إلى تحقيق هذا البرنامج. وما هي **الأداة النضالية للحصول** على «هذه الأماني الحقة»؟ هل هي: استمرار المطالبة بواسطة الصحف؟ إنَّ يزبك يعد القراء هنا بأنه «سينشر، في أعداد مقبلة، كيفية الوصول إلى هذه الأماني الحقة، ويشرح نظام الاشتراكية ومقارنته بالنظام الفردي، وكيف أن العالم سائر **بنفسه** إلى الاشتراكية»...

هذا يذكرنا بكتابات شبلي الشميل ونقولا حداد عندما يتصوران أن القوانين الموضوعية للتطور ستدفع العالم، بنفسه، إلى الاشتراكية، دون أن يعوا حقيقة: **أن قوانين التطور الموضوعي، في المجتمع، لا تمارس فعلها خارج البشر.** فتحقيق

الاشتراكية، والمطالب المرحلية قبل هذا، لا يتم بدون التدخل، **الواعي**، للجماهير المنظمة، التي بها، وبفعل **نشاطها الثوري**، تتحقق الضرورة التاريخية.

إن ذلك الفهم الآلي، الاطلاقي، لفعل القوانين الموضوعية، خارج حركة الجماهير المنظّمة، هو ما يفسّر ما رأيناه ـ عند الشميل، بشكل حاسم، وعند حداد بشكل غامض ـ من عدم اعتبار مسألة وجود الحزب كعامل أساسي، ضروري، لتحقيق الضرورة التاريخية.. ويبدو أن هذا المفهوم مارس تأثيراً معيّناً، ومحدوداً، على بعض كتابات يزبك ـ فغابت مسألة ضرورة الحزب عن كتاباته، ولكنه توصّل إلى قناعات بشأنها من خلال ما أثارته مقالاته من حركة في أوساط العمال والمثقفين، ومن خلال نشاطه العملي، بالتالي، وكذلك من خلال ارتباطه الروحي بالأممية الشيوعية التي تنضوي تحت لوائها **الأحزاب** الشيوعية المنظّمة في العالم.

فهل أن غموض هذه المسألة، النظرية والعملية، عند يزبك في تلك المرحلة هو ما يفسر كون يزبك لم يقدّم للقراء شرحاً «لكيفية الوصول إلى تلك الأماني الحقة» إلاّ بعد فترة طويلة جداً؟.. ربما!.. إننا، على كل حال، لم نقرأ ليزبك مثل هذا الشرح إلا ابتداء من ١٥ ايار ١٩٢٥، أي بعد تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني، بعدة أشهر، وإصداره جريدة «الإنسانية» باسم يوسف ابراهيم يزبك، حيث كشف «الشبح الباكي» عن نفسه، وأخذ يكتب باسمه الصريح، شروحات ملموسة وناضجة لمطاليب العمال، ولبرنامج «حزب الشعب اللبناني» الوجه العلني، في تلك الفترة، للحزب الشيوعي.

فلنتابع عرض بحث يزبك. حيث وصلنا إلى القسم الذي عنوانه «الاشتراكية في لبنان»... فقد نجد في هذا القسم آثاراً من ذلك الغموض حول الأداة النضالية لتحقيق مطالب الاشتراكيين في لبنان «هذا الجبل الجميل المعبود والبلد الطيب المحبوب»...

فها هو يزبك يقول: «أما في لبنان، فهل تعيش الاشتراكية عيشها الآن في **بريطانيا وفرنسا والمانيا؟!**» ـ (لعل المقصود هنا هو وجود أحزاب اشتراكية، ونواب اشتراكيين)... فمن الصعب تصور أن يزبك كان يعتقد ـ في ذلك الوقت ـ بوجود الاشتراكية، كنظام، في هذه البلدان... رغم أن الرياشي، في بعض كتاباته، يوحي بهذا

الانطباع، نتيجة ميله إلى «اشتراكية» الأممية الثانية، الاصلاحية، و «المعتدلة» ونفوره من البولشفية... على أن هذا حديث آخر سيأتي فيما بعد ـ فلنتابع. يقول يزبك:

«... لا مشاحة في أن للتربية تأثيراً عظيماً على مجرى حياة الشعوب. والعادة التي تألفها أمة من الأمم ـ وإن تكن غير محمودة ـ لمن الصعب ابدالها سريعاً بعادة محمودة، مهما كان في الأولى من الضرر وفي الثانية من النفع. غير أن الأيام الطويلة تكفل النجاح لكل مضحّ وثابت في مذهبه مهما بَعُد رأيه عن مألوف محيطه وتباين مذهبه عن مذهب ذويه. وهذا ما نقوله في الاشتراكية اللبنانية. فإن الاشتراكية إنما هي الديموقراطية بعينها، لكنها ديموقراطية اقتصادية، ومن الصعب تنفيذ كل مبادئها في بلد لم يتشرَّب ويختمر بالتربية الديموقراطية الحقيقية. فهل في لبنان هذه التربية؟ نحن لا نطلب أن تعيش الاشتراكية **الآن** بكل أطرافها ومراميها في لبنان. لكننا نريد أن **نبثّ مبادئها وتعاليمها**، ونبدأ ـ عند سنوح الفرص ـ بتنفيذ ما تقدر مِعَدنا على هضمه»!

بعد هذا الشكل من أشكال التطمين، التي يميل يزبك لتقديمها، بين حين وحين، إلى الخائفين من شبح الاشتراكية، والى الذين يريدون اشتراكية خفيفة ظريفة نظيفة لا تسيء إلى مخلوق ـ يحاول أن يعطي أمثلة لما يمكن أن تكون عليه الاشتراكية عندنا، وهي أمثلة مستمدة من بعض الظاهرات والأحداث التي يرى يزبك أن تحويلها إلى أمثلة من شأنه تقريب مفاهيم الاشتراكية إلى الشعب وتحبيبها إليه.

«... في زحلة مثلاً ـ حيث تصدر هذه الجريدة العزيزة حبيبة العمال ورسول الاشتراكية ـ مشاريع عمومية كثيرة على وشك الشروع بها. منها شركة التنوير، وفي المستقبل (وعساه قريباً) سيكون مصلحة للنديّ (التلفون) وشركة ماء، وبعدهما شركة قطار يجوب المدينة وضواحيها مخترقاً شوارعها، مع غيرها من المشاريع الحيوية الضرورية... فلماذا لا تكون هذه كلها ملكاً للأمة الزحلية على السواء، والزحليون هم الذين يقومون بإيجادها ويقدمون العمال لها؟

أيجوز أن «يشترك» العمال كلهم، على اختلاف مهنهم وحِرَفهم، في مد الخطوط الحديدية وبناء الجسور والمحطات للقطار الزحلي، «ويستغله» عشرة أو عشرون بدون أن يتعبوا مقدار جزء من ألف من تعب العمال؟».

هذا المثل التبسيطي، المقصود منه توصيل أفكار الاشتراكية إلى الجماهير، يذكّرنا بأمثلة أخرى، مشابهة، كان يقدمها سلامة موسى ونقولا حداد وغيرهما من الاشتراكيين العرب الأوائل، الذين كانوا يصطدمون بواقع انتشار الجهل من ناحية، وضعف التلقّي النظري، حتى عند المثقفين، لهذه المفاهيم الجديدة، غير المألوفة، التي تدعو، كما يسمعون، إلى إشاعة الأملاك، ومصادرة أموال الناس، واستيلاء العمال على مصانع لا يستطيعون ادارتها وتشغيلها، و «من لا يعمل لا يأكل»... فماذا يفعل عندها صاحب الأموال؟ هل يشتغل عاملاً بين العمال، أم يكنّس الشوارع؟... وتجاه هذا التحوير المبتذل الذي كانت تنشره مختلف الصحف المعادية للاشتراكية، ويأتي حتى على أقلام كتّاب كبار، وشخصيات وطنية موثوق بها جماهيرياً (سعد زغلول، مثلاً، ومحمد حسنين هيكل، ومشايخ الأزهر في مصر. وجريدة «البشير» بشكل خاص في لبنان) وأحياناً يأتي هذا الابتذال والتحريف على لسان كتّاب طيبين يريدون امتداح الاشتراكية فيشوهونها، أو يعقّدون مفاهيمها فلا يفهمها أحد ـ لعل هذا كله، وغيره، كان يجعل اشتراكيينا الأوائل في البلاد العربية يلجأون إلى استخدام هذه الأمثلة التبسيطية. فهذا نقولا حداد، وكان أكثر اطلاعاً على المصادر الماركسية في تلك الفترة، يجد نفسه مسوقاً إلى تقديم مَثلٍ مشابه للمثل نفسه الذي قرأناه ليزبك. يقول حداد في كتابه «الاشتراكية» ـ الصادر عام ١٩٢٠: «إذا كان المهندس والحدّاد والنجار والفاعل و... الخ، قد اشتركوا جميعاً في انشاء السكة الحديدية أو الترام في شوارع العاصمة، وهم القائمون بإدارة حركته وتسييره، فلماذا لا يشتركون في أرباحه؟. وما هو شأن زمرة المموّلين حتى يجنوا القسم الأعظم من ثمرات هذا العمل المفيد ولا يدعوا الا النذر القليل لأولئك الذين يقومون بالعمل»[١].

---

(١) نقلاً عن الدكتور رفعت السعيد في كتابه «نقولا حداد» ـ دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧١ ـ صفحة ٥١.

هكذا يتلاقى الاشتراكيون العرب الأوائل: في الريادة، وفي الوسيلة، وفي مجابهة الأعداء أنفسهم، وحتى في الأخطاء النظرية. فهذا يزبك ـ في القسم الثالث من بحثه، وهو بعنوان «الاشتراكية والعمال» ـ في حين يرى أن العمال هم العماد الأساسي للاشتراكية، فإنه يصب غضبه على عمال لبنان الذين لا يقومون بما يتصوّر أن عليهم أن يقوموا به!. يقول:

«إن العمال ـ ولا ريب ـ هم أكبر مروّجي الدعوة الاشتراكية وفي مقدمة أنصارها، لأنهم تحققوا صدق خدمتها لمصالحهم. وفي أكثر المجالس النيابية في دول العالم يكون نواب العمال في صفوف الاشتراكيين (إلا بعضهم). فهل نال عمالنا (ولا أقول اشتراكيونا) نائباً عنهم في المجلس؟.. إن من المستحيل أن نطلب لهم هذا وهم حتى الآن لم يثبتوا وجودهم ويُفهموا العالم بأنهم أحياء. أين هي نقابات العمال؟ أين هي جمعياتهم؟ أين هي صناديق إعاناتهم؟ أين هي مستشفياتهم؟ أين هي مآوي عجزائهم؟ أين هي مدارسهم؟ أين هي مكتباتهم؟ وأين هم العمال أنفسهم؟».

إن غضبة يزبك هذه تعبِّر، من ناحية، عن رغبته في أن تكون الحركة العمالية في لبنان متطورة، لها نقاباتها وجمعياتها، لأن العمال هم أكبر أنصار الاشتراكية التي يدعو إليها. ولكنه، من ناحية ثانية، يتطلّب من حركة عمالية ناشئة وغير متطورة، أن تقيم مؤسسات لا يمكن أن تقوم إلا في بلدٍ متطور جداً، والحركة العمالية فيها نالت مكاسب كبيرة، بحيث تُقام هذه المؤسسات عن طريق جهاز الدولة، أو أن يكون البلد اشتراكياً. ولكننا كنا «في حال من الطوباوية والتبلبل والسطحية» في تلك المرحلة ـ يقول يزبك نفسه، في فترة لاحقة، ـ فماذا تنتظر أن يكون تصدّينا للتنظير الاشتراكي؟

ويتابع يزبك توجّهه إلى عمال لبنان.

«أيها الرفاق الأحباب!. إني لا أدعوكم الآن للاشتراكية، لأن فكرتها لم تنضج في بلادنا حتى الآن، لأن مواطنينا يطلبون حقوقهم ولا

يقومون بواجباتهم، لأن مواطنينا تعوّدوا الخمول والكسل والاستعباد... لهذا لا أدعوكم ـ الآن ـ للاشتراكية».

ولكن يزبك يدعو العمال إلى الاتحاد.

«لأن الاتحاد خير وسيلة لرفع مناركم. إنَّ اتحادكم ـ وإن ضعفاء ـ يولّد قوة جبارة تحييكم... إن أمنية البلاد ملقية على اتحادكم. إن سواعدكم المفتولة هي حجر الزاوية في استقلال الوطن. فإلى الاتحاد أدعوكم يا عمال لبنان الحبيب» (الصحافي التائه، العدد ٥٨، في ٥ أيار ١٩٢٣).

... وكان عمال لبنان، في تلك الفترة، يتجهون فعلاً نحو التجمّع، ونحو تكوين نقابات خاصة بهم، وكثير من عناصرهم كان يتطلّع إلى الوقت الذي سوف يتأسس فيه حزب العمال، وينشط في هذا السبيل ـ كانت مسألة وجود الحزب أمنية، بالإضافة إلى كونها ضرورة ـ إلى درجة أن العمال كانوا يطلقون على التجمّعات النقابية الأولية، في زحلة مثلاً، اسم «حزب العمال»...

وأكيد، أكيد، أن التيار الذي أثارته «الصحافي التائه»، وكتابات يزبك بالذات، وأصداء هذه الكتابات، لعبت دوراً أساسياً، في نشر الوعي بضرورة التجمّع العمالي، والنقابي، وبإدخال أولى بوادر الوعي الاشتراكي إلى الطبقة العاملة، في زحلة، وكذلك في بيروت، وفي بكفيا حيث أخذت تتكوَّن ـ بين عمال الدخان ـ حركة عمالية ستلعب دوراً أساسياً في تكوين القاعدة العمالية للحزب الشيوعي اللبناني.

فالبذور أخذت تنبت، وتتنامى:

□ **«الصحافي التائه»** يشن حملة متواصلة ضد «حزب العمال العام في لبنان الكبير»، وهو حزب للانتداب، وللرأسماليين، وقادته من ارستقراطية البلد (سيأتي

الحديث، بالتفصيل، عن هذا «الحزب» الذي انهار بعد فترة قصيرة جداً من تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني). ومن خلال هذه الحملة، كان صاحب «الصحافي التائه» يدعو أن تكون النقابات من العمال، وللعمال، وبقيادتهم، أي مستقلة عن أرباب العمل.

□ «**يوم الأربعاء** مساء (٦ نيسان ١٩٢٣) اجتمع في دار الرفيق **رشيد سويد** فريق من العمال يزيد عددهم على الثلاثين عاملاً ومعظمهم من النشء الجديد التواقة نفوسهم والنازعة أميالهم إلى المبادئ الحرة»... وتقرر تشكيل «نقابة عمال زحلة» التي اكتسبت اسماً شعبياً هو «**حزب العمال**»... وقال رشيد سويد لمندوب «الصحافي التائه» في الجلسة نفسها «بأن هذا الحزب لم يتألف إلا اندفاعاً مع الحملات الشديدة التي قامت بها الجريدة ضد أحزاب الرأسماليين (المقصود حزب «العمال» الرأسمالي في بيروت) الذين اتخذوا اسم العامل ستاراً يمثّلون رواياتهم وراءه، وبتأثير المقالات المتتابعة عن العامل وساعات عمله وراحته وتعزيز مركزه» ـ (ـ «الصحافي التائه» العدد ٥٢ ـ في ١٤/٤/١٩٢٣).

□ **يزبك** يرحِّب بقيام هذه النقابة، ويدعوها «حزباً»... ويقول لصاحب «الصحافي التائه»: «إنك المسبِّب الأول لتأسيس هذا الحزب»... و «أتمنى أن أكون قريباً بينكم أيها الرفيق لأتحقق بنفسي ـ وعن كثب ـ أن البلاد في تطور اجتماعي عظيم» ـ (العدد ٥٤ ـ في ٢١/٤/١٩٢٣).

□ **الرياشي** يكتب: «أن النور الحقيقي لدعوة العمال هو في معامل رياق (ورشات التصليح في المحطة الرئيسية لسكة الحديد) حيث يعمل مئات من الرفاق في مجتمع واحد ويؤلّفون مجموعاً متكاتفاً متضامناً منظَّماً... وكما قلت: فإن النقابة الوحيدة في سوريا ولبنان التي هي على شيء من التنظيم والتي تؤلف نوعاً مجموعاً متضامناً هي نقابة عمال سكة الحديد... فإلى هذه النقابة يجب أن تتجه أنظار القائمين اليوم بحركة إنشاء النقابات في سوريا ولبنان» ـ (العدد ٥٤ ـ في ٢١/٤/١٩٢٣).

□ **عامل** من بيروت يشكو الظلم والاستبداد في أحد معامل العاصمة حيث يشتغل العمال لا أقل من ١١ ساعة. ويستنتج: «... وتبقى الحال على هذا المنوال، طالما لا قوة تكاتف بين العمال كلهم، ولا نقابة عامة تدافع عنا ويقف وراءها عمال سوريا ولبنان بأسرهم» ـ (العدد ٦٠ ـ في ١٢/أيار/ ١٩٢٣).

□ **خبر** فيه طموح مدهش: «... وقد عزم عمال رياق على القيام بتشكيل نقابة كبيرة للأشغال تلتفّ حولها النقابات الأخرى في البلاد ليكون هناك **حزب عام رسمي** (!!) **قوامه من العمال فقط** يتخذ برنامجاً **سياسياً اقتصادياً**، ويكون في البلاد قوة تدافع عن حقوق العامل والبائس والفقير» ـ (العدد ٦٦ ـ في ٦/٦/١٩٢٣).

□ **مقال** للرياشي يرحّب فيه بزيارة «الشبح الباكي» لإدارة «الصحافي التائه» في زحلة، ويشير بهذه المناسبة الى: «الحركة الجديدة القائمة في بيروت ـ مدينة الأغنياء ـ حيث ابتدأ يظهر تطور جديد في المبادئ في بعض الأندية للمفكرين والأدباء ورجال السياسة... وهذا التطور يسير سريعاً نحو اعتناق المذهب الاشتراكي **المعتدل**» ـ (العدد ٨١ ـ في ٢٨/٧/١٩٢٣).

توضيح: الرياشي يُلصق، دائماً، بكلمة «الاشتراكية» كلمة «المعتدلة»... صمام أمان!...

□ **رسالة** مهمة آتية من راشيا (البقاع): «هبّت روح جديدة في هذه المنطقة، فهبّ الشعب الريشاني ـ وأعني بالشعب: جماعة الذين يأكلون خبزهم بعرق جبينهم ـ يطالب بما له من حق تحت الشمس، وليخلع نير الرأسماليين والزعماء وأصحاب النفوذ الوهمي... فاستفاق من غفوته وعرف أن له مقاماً يضاهي مقام أولئك وشخصية يجب احترامها، فالتفّ على نفسه بواسطة مفكريه وقام يسعى لتأليف **حزب للعمال** يكون فرعاً للحزب الزحلي (أي: النقابة التي يرئسها رشيد سويد، والتي اكتسبت اسم: حزب العمال) ـ فهل لحضرة رئيس هذا الحزب أن يفاوضنا في اللازم عمله، ويرسل لنا قانونه لنأخذه دستوراً لأعمالنا؟ ـ المخلص: أمين داوود» ـ (العدد ٩٠ ـ في ٢٩/٨/ ١٩٢٣).

□ **من** جواب رشيد سويد، رئيس النقابة، أو «حزب العمال الزحلي» حسب تعبيرهم، على هذه الرسالة: «... ونرجو أن تنتشر وتعم هذه الروح، الثائرة على كل سلطة مستبدّة، في جميع أنحاء سوريا والبقاع **فينتفض العمال البائسون على كل رأسمالي يحتكر أموال الشعب...** وعلى كل من لا يحترم العامل النزيه ويسعى أن يتمتع بتعبه وعرق جبينه. نحن نطلب مقامنا تحت الشمس، ومطلبنا حق وعدل لأننا لا نريد إلا المساواة. فباسم النقابة نشكركم لثقتكم فينا وبكل سرور نفتح صدورنا ونرحّب بالحزب الذي تريدون تأسيسه ليكون فرعاً لحزب العمال الزحلي. وسيصلكم صحبة البريد قانون النقابة...» ـ العدد ٩١ ـ في ١٩٢٣/٩/١).

... فالبذور، إذن، أخذت تنبت، وتتنامى، وتنتشر.

ويأتي «رجل الكوخ الأحمر» من بيروت «مدينة الأغنياء» إلى زحلة يزور «الصحافي التائه». ويكتب هناك كلمة فيها تأكيد مجدّد ومشدّد، على ارتباطه الروحي بالحركة الشيوعية العالمية، وبموسكو «بركان ثورة العالم المقبلة».

... الصديق العريق

(جريدة النهار: الجمعة ١٩٧٤/٨/٩ ـ **المناسبة:** مرور ٣٠ عاماً على إقامة العلاقات الدبلوماسية بين لبنان والاتحاد السوفياتي ـ **يزبك يعلن:** «أنا عميد جميع أصدقاء الاتحاد السوفياتي، وأقدم معجب به في طول الشرق وعرضه»).

... يصف يزبك ادارة «الصحافي التائه» في زحلة عام ١٩٢٣:

«... وهذه الادارة العريانة، فوق كتف الوادي الفريد، وأعشابه الخضراء، ماذا توحي على الرفيق من بدائع النكات والظرف؟.. ألا نشبّهها بإدارة «**الأومانيتيه**» يوم أنشأها الرفيق المثلث الرحمات

جوريس، ونشبِّه صاحبها بالرفيق مرتان ونظراته المشعّة؟ وهل تتكيّف مبادئ «الصحافي التائه» الاجتماعية وتتطور تطور «الأومانيتيه» (جريدة الحزب الشيوعي الفرنسي) أو نظل شعباً خاملاً مستعبداً للزعماء؟. وصلت كتابتي إلى هنا حين سمعت صوت الصديق عمر (أبو النصر) يلقي تعريب مذكرات الراهب المعتوه (راسبوتين) فطار الخيال إلى **المدينة الحمراء، إلى بركان ثورة العالم المقبلة، إلى موسكو...** ثم تطلعتُ إلى مدينة لبنان الجميلة (زحلة) فلم أرَ مداخن وفؤوساً... فصعَّدت زفرتين مرَّتين...» ـ (العدد ٧٣ ـ في ١٩٢٣/٦/٣٠).

على هدى هذا الارتباط الروحي، يعتبر يوسف يزبك نفسه، منذ تلك السنوات، **شيوعياً بولشفياً**. وموقفه هذا يختلف، جذرياً، عن موقف الرياشي الذي ظلّ مصرّاً، وبوعي، على نسب نفسه إلى «الاشتراكية المعتدلة» وجماعة «الأممية الثانية»، وينفي عن نفسه باستمرار، أي مَيْلٍ بولشفي، وهو يحدد هذا بكلمات شديدة الوضوح: «كلمت قرائي، في أعداد عديدة، عن الاشتراكية المعتدلة. وهي الاشتراكية التي تمشّى عليها حزب العمال في البرلمان الانكليزي، وحزب النائب هريو الاشتراكي في المجلس الفرنسي. فلا يمكن تطبيق مبدأ اشتراكي في سوريا ولبنان، مع حالة الأفراد المالية هنا، إلا ما يكون من مبادئه الاشتراكية **الثانية** (أي المعتدلة)... والبولشفيكية لا تعيش وتنهض في غير البلدان التي يحكمها أصحاب المال والاحتكار وزعماء الرجال الذين يستعبدون غيرهم استعباداً صحيحاً كما كان في روسيا قبل الثورة» (العدد ٦٧ ـ في ٩ حزيران ١٩٢٣)... وعندما ينقل الرياشي عن مجلة «الهلال» القاهرية دراسة عن الاشتراكية فهو يختار بوعي دراسة مكتوبة من وجهة نظر إصلاحية، ومعارضة للبولشفية. وفي كلمة يزبك حول زيارته ادارة «الصحافي التائه» حِرصٌ لبق، وواعٍ، على إبراز هذا **الخط الفاصل** بين اتجاهه البولشفي واتجاه الرياشي الاشتراكي، الاصلاحي، المعتدل: «فهل تتكيّف مبادئ «الصحافي التائه» الاجتماعية وتتطور تطور زميلتها «الأومانيتية»؟. ـ أي هل تتحول إلى شيوعية، بولشفية؟.

وعلى هدى هذا الموقف، يثور يزبك غضباً عندما ينشر «الصحافي التائه» (العدد ٧٥ ـ في ١٩٢٣/٧/٧) قصيدة مترجمة بعنوان «أنشودة الفتاة الروسية» وهي نوع مبتذل من النتاج «الشعري» المعادي للبولشفية، والمعبِّر عن الحنين الأرستقراطي إلى أيام

القياصرة: «أنا ابنة روسيا البيضاء ـ روسيا الراقصة على نور الشمس ـ والعظيمة بعظمة القياصرة»!! وتنتهي هذه القصيدة العجيبة بعبارة: فليحيى القيصر!»!! ـ ويثور يزبك، وهو يرى هذا الابتذال يجاور كتاباته التي يعتبرها بولشفية، ويقذف حممه بوجه صديقه الرياشي: «قرأت أنشودة الفتاة الروسية ثلاث ورباع، وكانت عواطفي تثور ساعة أقرأها فأود أن أمزق الصفحة وأرمي السطور عن الصحيفة!.. قبحاً لروسيا البيضاء، وويل لأسيادها الظالمين. فلتُدكْ قصور الأوتوقراطيين ولتحطم عروش المستبدين، وليحي الشعب العامل وليسقط الحكم الفردي واستبداد أبناء الدم الأزرق... ثم قمت إلى القرطاس بعد قراءة الأنشودة الرجعية لأنظم أنشودة روسيا «العاملة الديموقراطية» وألعن فتاة الأنشودة «تساري خروني...» ـ (العدد ٧٧ ـ في ١٤/٧/١٩٢٣).

وعلى هدى هذا الموقف، استمر يزبك في توثيق صلاته الفكرية بالأممية الشيوعية وتعميق معارفه النظرية وتوسيعها بما يصدر عن وطن ثورة أكتوبر. ولكن معارفه البولشفية هذه ظلت «طوباوية وسطحية» ـ حسب تعبيره هو ـ «... حتى وفاة لينين (١٩٢٤) فكتبتُ مقالاً في «الصحافي التائه» بعنوان «مات لينين». ثم ترجمت على الأثر لجريدة «المعرض» مقالين عن مجلة «الأولوستراسيون» يتحدث أحدهما عن عمل لينين بوصفه: أعجوبة تدهش العقول وتخيف بنتائجها القلوب... ويصف المقال الآخر مأتم قائد ثورة أكتوبر والتفاف الشعب حول لينين الخالد. وذانك المقالان دفعا بي بعد زمان إلى الاهتمام بمعرفة حياة الإنسان الجبار الذي سمَّته صحافة أوروبة بـ «إله روسية»، وإلى تفهُّم بعض مبادئه تفهماً صحيحاً ـ **فبدأت صلتي بالفكر الماركسي الحقيقي، وبدأت أقرأ لينين.** وإذا لم أستطع الجزم استطعت الترجيح أني أول مثقف عربي اقتنى مؤلفات لينين، ولا يزال بعضها عندي. ولا أزال أعتبرها أقدس ما في مكتبتي. فهي، إلى كونها من كتب لينين العظيم، من أقدم ما أقتنيته من كتبه في مطلع شبابي: إنها رفيقة عمري، والمصغية إلى هواجسي، وهمومي، وما لا أستطيع البوح به...»[1].

... **ما لا يستطيع البوح به...** هو تلك الجمرة الكامنة في أعمق الأعماق. تتراكم فوقها الأشياء والعلاقات والأحداث والضغوطات، وتبقى مشتعلة هناك. تكمن حيناً من الدهر حتى ليظن الناس أنها انطفأت... ولكنها تومض، بين حين من الدهر وحين، كما

---

(١) يوسف يزبك: «حكاية أول نوار» ـ صفحة ٥٧.

يومض الماس في عتمة الليل. فيها يكمن الحنين إلى تلك الفترة الرومنتيكية الثورية الأولى، كما يكمن التشوُّف إلى المستقبل الذي حلم به أولئك الرواد الرومنتيكيون الأوائل...

... ومن تلك الجمرة نفسها، طلع ذلك المقال المضيء، الواعي، والدقيق، الشاعري والمؤثر، القصير والمكثَّف، والذي سيكتسب أهمية تاريخية.

ففي تشرين الأول ١٩٢٤ انتشر في العالم نبأ وفاة الكاتب الفرنسي العالمي الكبير **أناتول فرانس**. وكان فرانس، في السنوات الأخيرة من حياته، قد صار شيوعياً. وفي ١٩ تشرين الأول ١٩٢٤ صدر العدد ٣٤٤ من مجلة «المعرض» البيروتية، على صفحته الأولى صورة كبير لأناتول فرانس. وعلى صفحتين من هذا العدد نشرت «المعرض» مقالين تحت عنوان واحد: «أناتول فرانس»، مقال كتبه راجي الراعي[(١)]... وآخر كتبه يوسف إبراهيم يزبك. وقدمت المجلة لهذين المقالين بكلمة تُلفت النظر: «ما أن نعت فرنسا الكاتب الإنساني العظيم، **والرجل البولشفيكي الحقيقي**، أناتول فرانس، حتى تأثَّر هذا العالم بأسره لموت هذا الإنسان الذي جسَّم مبادئه السامية في شخصيته وفي حياته وأعماله. وكان للنعي صداه في لبنان، فقام **كتّابه الاشتراكيون** يودعون الراحل الكبير»...

في هذه المقدمة تقدير لأناتول فرانس ككاتب عظيم، وكـ **شيوعي بولشفيكي**. وهي تدل كذلك على أن في لبنان **حركة اشتراكية** يعبِّر عنها أدباء اشتراكيون. فإذا كان شأن هذه الكلمات أن تُلفت نظر العاملين في «الأممية الشيوعية»، فإن من شأن مقال يوسف يزبك، المنشور تحت هذه المقدمة، أن يثير اهتماماً جدياً في القسم الشرقي للأممية الشيوعية. ذلك أن هذا المقال رفع أناتول فرانس إلى مستوى الرمز العام، وجعل منه نموذج الإنسان الشيوعي الذي تمخَّض عنه مجموع التطور البشري، في حركته التصاعدية نحو النظام الأمثل:

---

(١) راجي الراعي: أديب لبناني معروف، كان من الكتّاب الليبراليين في تلك الفترة. وكان يحرر في جريدة «زحلة الفتاة». حيث نشر مقالاً يرحّب فيه بيوم العمال في أول أيار ويمتدح احتفال «حزب الشعب اللبناني» بهذا العيد في قاعة الكريستال عام ١٩٢٥. وفي تلك الفترة ترجم فصولاً جيدة لكاتب الماني عن حياة لينين نشرها في «زحلة الفتاة». لم يواصل الراعي السير في هذا الاتجاه، بل ابتعد عنه كثيراً جداً!. ـ أصدر عام ١٩٢٦ كتاب «قطرات ندى».

«جثمت قيثارة الحرية فبكى المستعبَدون. وانطفأ القبس العلوي فوجم السائرون. وسكب فؤاد الإنسانية المفجوعة دمعة الحزن الصادقة يوم قيل: مات أناتول فرانس.

نعته أسلاك البرق فنعت إلى العالم أكبر مناضل عن الحرية عرفه القرنان التاسع عشر والعشرون.

تمخّضت به القرون المتعبة من وراء الأجيال المنهوكة فبعثت به روحاً طيباً كريماً ينادي بالراحة والسلام.

وقذفته مظالم العروش وفظائع ديوان التفتيش وويلات الثورات والحروب، فنُفخ نسمة شذية عليلة تنادي بالحرية والآخاء.

ولد دماغه من عصارة الأجيال اليونانية القديمة، فعرفه العالم أكبر كاتب فيلسوف فهم «فن» الحياة. وأرضعته أمه من حبّة قلبها فعرفته الإنسانية أخلص شاعر في حبه.

لقد مات أناتول فرانس!

لقد هدأ ذلك القلب الكبير الذي أحب البشر.

لقد هوى إله البيان، أمير البديع، زعيم البلاغة. ورب الفن.

مات صديق الفلاحين والعمال.
مات صديق المظلومين والفقراء.
مات صديق الحرية ورسولها.

....

قال المسيح لتلاميذه: «حبّوا بعضكم بعضاً». وصرخ أناتول في البشر كلهم ـ كلهم على السواء ـ **«إن الحروب ليست من احتياجات البشر»**.

أيه أناتول!. في البقعة التي رقدتَ فيها رقاد الراحة وقد حام الفكر

حولها تائهاً كئيباً، ترقد **عواطف المظلومين** لتبلّل ثراك.

من **أرض لبنان، وأدباء لبنان،** سلام عليك، سلام عليك!».

«شيء ما يتحرّك، يتكوّن، في لبنان» ـ هذا ما حدست به بعض دوائر الأممية الشيوعية في موسكو. فمقال يزبك عن أناتول فرانس ليس حدثاً فردياً... (تأمّلوا هذه الكلمات: بولشفيكي حقيقي... كتّاب لبنان الاشتراكيون... أكبر مناضل لأجل الحرية... صديق: الفلاحين والعمال ـ المظلومين والفقراء ـ الحرية ورسولها... ثم: الحروب ليست من احتياجات البشر... عواطف المظلومين... من أدباء لبنان، سلام...) ليس حدثاً فردياً. في لبنان، إذن، حركة شيوعية. مجموعة شيوعية. أفراد شيوعيون. شيء ما يتحرّك، في لبنان. فلا بد من معرفته. فرع جديد للأممية، في منطقة هامة بدأت تعاني سيطرة الامبريالية الفرنسية الوافدة ـ المتحالفة مع الامبريالية الانكليزية ـ ولا بد أن تُنظَّم الجماهير لمقاومة هذه الامبريالية، وتحرير البلاد.

ثم... تلاحقت الأحداث هكذا:

بعد أيام، وصل إلى بيروت مندوب من الأممية الشيوعية. اسمه: جوزيف برجر. فتش عن يوسف يزبك. التقى به. تفاهما بسرعة. (أنت كاتب هذا المقال؟ ـ نعم! ـ هل أنت اشتراكي؟. ـ لا، بل شيوعي! ـ هل هناك غيرك؟ ـ نعم: فؤاد الشمالي! ـ أنا مندوب من الأممية الشيوعية!.). اتفقا على عقد اجتماع للتباحث بمسألة تأسيس حزب شيوعي في لبنان. دعا يزبك فؤاد الشمالي وآخرين. كان الشمالي قد عاد من مصر منذ شهرين فقط، حاملاً تجربة غنية في الكفاح العمالي والنقابي والسياسي (عامل سجائر في الاسكندرية. قائد نقابي. عضو في قيادة الحزب الشيوعي المصري الذي تألف عام ١٩٢١. مطرود من مصر بسبب نشاطه الشيوعي والعمالي. عاد إلى لبنان. التقى يزبك. أسس نقابة عمال الدخان، مركزها بكفيا. وكوّن مجموعة من الشيوعيين العمال).

التقى الشمالي مع برجر في أوتيل أوروبا ببيروت. أخبره بأن مجموعة شيوعية من العمال قد تكوّنت في بكفيا، وقد حاول هو الاتصال بالأممية الشيوعية عن طريق الحزب الشيوعي المصري فلم ينجح. ولا بد لنا من الحصول على الشروط الـ ٢١ للأممية حتى نعمل على أساسها.

وهكذا، مساء اليوم نفسه: الجمعة ٢٤ تشرين الأول ١٩٢٤:

عُقد اجتماع في منزل بالحدث (ضاحية من بيروت). وتشكّلت، في الاجتماع، نواة قيادية شيوعية من خمسة أشخاص: أربعة عمال، من مجموعة بكفيا نفسها، ومثقف كادح واحد هو: يوسف ابراهيم يزبك، الذي اختير سكرتيراً للحزب.

وأُعلمت الأممية الشيوعية بالخبر:

تأسس الحزب الشيوعي اللبناني.

نقطة ضوء تاريخية. حركة الكفاح السياسي: العمالي ـ الشعبي ـ التحرري الوطني، في لبنان وسوريا.. تدخل مرحلة جديدة.

....

ـ ولكن. قفْ، أيها الكاتب الراوي!. فهل جرى الأمر بكل هذه البساطة، حتى تعرضه بهذه الكلمات القليلة، دون أية تفاصيل؟..

ـ هذه فقط **لقطة أولية**، من بعيد. فالحدث لم يكن بسيطاً. إنه تجسيد تنظيمي لعدة تحرّكات كانت تجري كأنما هي معزول بعضها عن بعض. ورموز بعض هذه التحركات التقت في هذا الاجتماع، وفي بضعة اجتماعات لاحقة. وقد تعرَّفنا على ما كان يمثّله، ومن كان يمثّل يوسف يزبك. فلا بدّ أن نتعرّف على مسيرة الرموز الأخرى، والتحرّكات الأخرى، لنصل إلى هذا الحدث التاريخي من الزوايا الأخرى أيضاً، وخاصة زاوية الحركة العمالية في القاعدة، زاوية المجموعة الشيوعية مع فؤاد الشمالي في بكفيا... فيأخذ هذا الاجتماع، والحدث الذي انبثق عنه، حجمه الحقيقي، التاريخي... أليس كذلك؟

....

ما يهمنا الآن: أن الحزب الشيوعي، ظهر في البداية من خلال تشكيل أريد له أن يكون علنياً هو: «**حزب الشعب اللبناني**» كان قد أسسه **فؤاد الشمالي** في العام نفسه، ويرتكز على قاعدة عمالية أساسية هي: جماهير عمال الدخان المتواجدين في مراكز صناعة الدخان (بكفيا خصوصاً، ثم الشوير، الخنشارة، بتغرين، فرن الشباك، انطلياس، وزحلة) ورئيس الحزب هو مؤسسه: فؤاد الشمالي. وباسم هذا الحزب أخذت النواة

الشيوعية تمارس نشاطاتها العلنية. وباسمه، وبتحريك قاعدته العمالية الواسعة، نظَّم الشيوعيون المهرجان العلني الكبير، الأول من نوعه في لبنان وسوريا، احتفالاً بعيد أول أيار عام ١٩٢٥ في قاعة الكريستال، غربي ساحة الشهداء، حيث تركنا هناك خطيباً - كدنا ننسى أنه لا يزال واقفاً يخطب! - رومنتيكي الملامح، اسمه يوسف ابراهيم يزبك، عمره ٢٤ عاماً، شاربه صغير، ويحدِّث المجتمعين، بحماس، عن حكاية عيد أول أيار في العالم...

□ □ □

... وبعد أن عرض الخطيب مراحل حكاية يوم أول أيار، وكيف صار عيداً لعمال العالم أجمع، هتف بصوته الحماسي:

«... وهكذا، أيها الرفاق، انطلق أول أيار، عيداً كفاحياً للعمال في كل مكان... وأخذت فكرة هذا العيد تمتد وتتحقق في أقطار الدنيا على اختلافها. وكانت حكومة السوفيات في روسيا الحمراء أول حكومة أقرّت يوم أول أيار عيداً رسمياً... وها نحن الآن، عمال لبنان، نحتفل بيوم العمال بمعناه الكفاحي هذا. فمن خلال ما عرضته عليكم، يتضح أن يوم أول أيار ليس مجرد عيد كما تصفه بعض الصحف... بل إنه فكرة **احتجاج** في أصلها، بوتقتها الأيام فضمت إليها مطالب جديدة يستميت العمال في تحقيقها. ونحن أيضاً لنا مطالبنا، وصار لنا كذلك عيدنا الكفاحي. قالوا: «إن الشرق مدفن الأحزاب»!. إن في كلامهم خبثاً وتضليلاً. **فقد أفاق الشرق من سباته، وأفاقَ عماله من خمولهم،** وبدت منهم نهضة مباركة لتنظيم صفوفهم. **أنتم** هذه النهضة المباركة.

فيا عمّال العالم، ويا عمال لبنان، اتحدوا!»[١].

---

(١) هذا النص الذي عرضناه على أنه خطاب يوسف يزبك في قاعة الكريستال يوم أول أيار ١٩٢٥، ليس هو النص نفسه الذي ألقي، بل هو قريب جداً منه. ذلك أن النص الأصلي غير موجود. ولكن المعروف أن يزبك=

التصفيق كان عاصفاً. مشاعر جديدة لا عهد لعمال لبنان بها. كأنما هم ينتشرون في مختلف أنحاء العالم، وكأن جميع عمال العالم تكاثفوا في هذه القاعة... كم هو حقيقي، وبسيط، وثوري، هذا الشعار.

= تحدث في الاحتفال عن حكاية يوم أول أيار في العالم. وقد اعتاد يزبك، سواء في العشرينيات أم الثلاثينيات، وحتى أيامنا هذه، أن ينشر مقالات عن «أول أيار في التاريخ» بمناسبة يوم أول أيار. والنصوص التي نشرها يزبك في هذا الموضوع، متشابهة، بل تكاد تكون هي نفسها، مع تعديلات طفيفة، وغير أساسية ـ لهذا، سمحنا لأنفسنا أن نستخلص الخطاب من نصوص يزبك هذه (وخاصة من النص المنشور في جريدة «صوت العمال» الصادرة في ٨ أيار ١٩٣٠) ثم استعنا بكتابه «حكاية أول نوار»، و «منتّجنا» هذا النص الذي نعتقد أنه قريب جداً من النص الأساسي الذي ألقاه يزبك في المهرجان عام ١٩٢٥.

خَدَمَ حركة الطبقة العاملة من حيث أراد استخدامها!..

بين خطباء مهرجان أول أيار ١٩٢٥ في قاعة الكريستال كان **شكري البخاش**، رئيس تحرير جريدة «زحلة الفتاة». وقد أشار البيان الاعلامي الذي وزعه «حزب الشعب اللبناني» على الصحف إلى خطابه بسطر واحد: «ثم ألقى الصحافي شكري بخاش خطاباً نشره في جريدته «زحلة الفتاة»..». ومن الرجوع إلى الجريدة، وقراءة الخطاب، وما فيه من مدائح مسرفة لحاكم لبنان الفرنسي «كايلا»، نعرف سرّ هذا السطر الواحد، الإخباري، في البيان الاعلامي للحزب.. فهل قياديو «حزب الشعب اللبناني» لم يكونوا متوقّعين ما جاء في خطاب البخاش؟.. يبدو أن البخاش في مدائحه، الأشبه ببيان حكومي عن «منجزات وفضائل» عهد الحكم كايلا والمندوب السامي «ساراي»، تجاوز كل تصور. فقد كانت علاقة البخاش الوثيقة بالحكم الانتدابي القائم معروفة جداً. وكانت جريدته، إلى حد بعيد، إحدى أبرز الجرائد الناطقة باسم الانتداب، والمدافعة عنه بحرارة، مستندة إلى ما قيل عنه، في تلك الأيام، الجانب «العلماني» و «اليساري» لذلك الحكم في عهد ساراي.

ولا بد هنا من ضوء بسيط حتى نفهم ملابسات الأحداث: ففي ١١ أيار ١٩٢٤

جاءت انتخابات فرنسا بما أطلق عليه اسم «كارتل دي غوش»، ـ تجمُّع اليسار ـ إلى السلطة، يضم جماعة من الاشتراكيين ـ الديموقراطيين، وأرسل هذا الكارتل الجنرال ساراي مفوضاً سامياً لفرنسا في لبنان. وساراي، كما قيل عنه: علماني، ماسوني، «يساري»، ومعادٍ للأكليروس!. هكذا قيل!. وجنّ جنون رجال الأكليروس في لبنان. أرسلوا العرائض إلى حكومة باريس لمنع إرساله. فهو سيلغي الدين ويفرض البولشفية، والعياذ بالله!!.. وعندما وصل إلى بيروت استقبلته شبيبة اليسوعية بالهتاف للجنرال ويغان، المفوض السامي السابق، بدلاً من الهتاف له. وعندما جاء لم يتعاون معه، في البداية، لا رجال الدين ولا أقطاب اليمين والمال. فأخذ يجمع حوله المؤيدين من بين الماسونيين ـ وكان لهم نشاط بارز في تلك الفترة ـ وبعض الليبراليين، ومن يتعاونون مع كل حكم. ثم يغض النظر عن بعض نشاطات ذوي الميول الاشتراكية[١] (في تلك الفترة ظهرت تحت اسم جريدة البخاش «زحلة الفتاة» هذه الجملة: «جريدة يومية علمانية اشتراكية»!. أضافها إلى جملة أخرى كان وضعها سابقاً: «تقول الحق ولو في حضرة سلطان جائر»!).. وكانت علاقة البخاش بساراي وبالحاكم كايلا وثيقة. وكانت الانتخابات على الأبواب. وكان البخاش طامحاً. وكان على علاقة ما بالحركة العمالية في زحلة، كما سيرد معنا. وكان «حزب الشعب اللبناني» وليداً. والعناصر الشيوعية فيه قررت إقامة احتفال بعيد أول أيار، من الأفضل أن يكون علنياً، سواء سمحت الدولة أم لم تسمح. وكان البخاش ينشر أخباراً وبيانات من «حزب الشعب اللبناني» بين حين وحين، فقال لمن يعرفه منهم: سأحاول الحصول عل إجازة للمهرجان. وكان يتطلّع إلى أصوات العمال، فالانتخابات على الأبواب. وساراي يحتاج أن يبدو للناس بمظهر ديموقراطي، وكذلك الحاكم كايلا. ويروي يوسف يزبك حكاية إجازة المهرجان، في كتابه «حكاية أول نوار» (صفحة ٧٧ ـ ٧٩) كما يلي: «... وكان لشكري البخاش، صاحب «زحلة الفتاة» وصديق الحاكم كايلا ونصيره، يدٌ في تسهيل مهمتنا ـ رحمه الله ـ فلم يرفض الحاكم طلبنا، ولكنه «جرجرنا» ليُدخل في روعنا أنه مُنْعِم علينا بالنعمة العظمى!... وفي الثلاثين من نيسان، وهو اليوم الأخير، انتزع شكري الاجازة من صديقه الحاكم انتزاعاً، وأسرع يبشرنا باننا نستطيع الاحتفال بالعيد»... ويبدو أن البخاش أغدق وعود التأييد العام لكايلا في الاحتفال، كما أغدق على نفسه الوعود

(١) راجع بهذا الصدد: الدكتور مسعود ضاهر، «تاريخ لبنان الاجتماعي» منشورات دار الفارابي، بيروت ١٩٧٤.

بانهمار أصوات العمال له، ألوفاً ألوفاً، في الانتخابات القريبة... ولكن واقع الحال، وواقع العمال، وواقع موقف قادتهم، نفّس هذه الوعود غير المستندة إلى الواقع... (وإذا كان ساراي قد صرّح لدى وصوله إلى لبنان؛ «جئت من فرنسا لتنفيذ صك الانتداب، لا أكثر ولا أقل»... فهو قد عمل، بالفعل، على تنفيذ صك الانتداب الفعلي، الامبريالي، وليس الصك المكتوب على ورق «عصبة الأمم»... فأطلق الرصاص على المتظاهرين، وبينهم عمال وشيوعيون واشتراكيون وماسونيون وكذلك علمانيون... وكبّل حريات الصحافة، وضرب دمشق بالقنابل عاملاً على قمع الثورة السورية بوحشية... واعتقل الشيوعيين الذين دعموا الثورة... وصعد إلى بكركي ليحوز رضى رجال الأكليروس... وضجّت الدنيا من قسوته وجرائمه، حتى اضطرت سلطات باريس إلى سحبه من لبنان في أواخر ١٩٢٥)... وظل البخاش يدعم ساراي وكايلا بحماس عجيب، في مختلف تقلّباتهما، وبجرأة مدهشة، أدهشت حتى صديقه فؤاد حبيش، صاحب مجلة «المكشوف» في مقال له عن البخاش: «... وأنها لجرأة حقاً أن يقف صحافي في عهد كايلا موقف الدفاع عن حاكم يناصب البلاد بأسرها العداء!»(١).

كان لا بد من هذا الضوء التوضيحي قبل أن ننظر في خطاب البخاش أمام عمال أول أيار ١٩٢٥. ذلك أن لشكري بخاش نفسه موقفاً آخر، أكثر إدهاشاً وغرابة، هو دعمه - في جريدته وحتى ببعض نشاطاته - للحركة العمالية والنقابية في زحلة، ونشره بعض أخبار وبيانات «حزب الشعب اللبناني»، وكان لهذا الدعم أثر إيجابي لا شك فيه، مهما كانت أهداف البخاش وتطلعاته من خلال هذا الدعم. حتى لقد اتهم ذات مرة - كما يقول هو - بأنه بولشفيكي!!..

وها هو يقول في خطابه بقاعة الكريستال، متوجهاً إلى العمال:

«... نعم. اتهمني بعض الناس، منذ ثلاثة أعوام بأنني بلشفيكي، وأن وجودي في هذا الوطن خطر عام على الوطن. على أنه إذا كانت البلشفية معناها اعتناق مبادئ الثورة الأفرنسية، والنطق بالحق ولو في حضرة سلطان جائر، فإنني أتباهى بمثل هذه البلشفية.. نعم، أيها

---

(١) فؤاد حبيش: «شكري البخاش محرر «الفتاة»...» - مجلة «المعرض»، العدد ٩٧٠، في ٣٠/ أيلول/ ١٩٣١، صفحة ٤.

العمال... إنّ المستقبل هو لكم، والإنسانية بأجمعها سائرة نحو مبادئ فولتير وروسو وكارل ماركس، سواء رضي الصيارفة أم باعة الحمام[1]، وقد شوهوا مبادئهم فيما مضى، ولكن النور سيعم العالم ولو بعد حين».

ليس يهمنا هنا ـ بالنسبة للبخاش ـ أن نحلل معنى هذا الخلط بين مبادئ فولتير وروسو و... كارل ماركس... والثورة الفرنسية!... ـ خاصة وأن مثل هذا التمازج كان موجوداً عند عدد من الكتّاب الاشتراكيين أنفسهم ـ ولكن قد يكون من المهم، والطريف، والمدهش كذلك، محاولة أن نعرف سر اتهامه «منذ ثلاثة أعوام» بأنه... بولشفيكي!

فقبل ثلاثة أعوام، بالضبط، من يوم انعقاد مهرجان أول أيار ١٩٢٥ (أي يوم الأربعاء ٣ أيار ١٩٢٢) صدرت جريدة «زحلة الفتاة»، كالعادة، ولكن في صدر صفحتها الأولى افتتاحية لشكري البخاش فيها كلام غير عادي. عنوان الافتتاحية: «في هذا الشهر»... وهي تحمل في مطلعها، هذا الكلام:

«أيار شهر الورود للشعراء، والصحة للضعفاء، والأمل للبؤساء.

أيار المبارك هو شهر العمل والجد. وأول أيار عيد ولا كباقي الأعياد، عيد الديموقراطية الحقة، عيد العمال في أنحاء العالم.

في كل البلاد من القارتين، في أوروبا وأميركا، تتخذ الحكومات لأول أيار الحيطة اللازمة لدرء كل خطر يتهدد الأمن العام، لأن أول أيار من كل سنة موعد التعارف بين عمال الأرض واجتماعهم، وتطبيق أفكارهم ومبادئهم، والإضراب التام عن العمل واعلان الاعتصابات. وكل هذا عائد لنبوءة **كارل ماركس الاشتراكي الشهير** الذي أراد أن يكون

---

(١) يشير البخاش هنا إلى حادثة المسيح عندما دخل الهيكل فوجد فيه صيارفة المال والفريسيين وباعة الحمام، فشهر سوطه وطردهم وهو يصرخ: «بيتي بيت الصلاة يدعى وقد جعلتموه مغارة للصوص!» ـ وكان البخاش، وهو ماسوني، في معركة يومها مع رجال الاكليروس.

أول أيار، شهر الورود والرياحين، **فاتحة خير لعمال العالم، ومبعث نور الاشتراكية.** والمعلوم أن في هذه السنة كما في غيرها، أضرب عمال العالم عن العمل في أول هذا الشهر».

هذا الكلام قيل في لبنان عام ١٩٢٢... فلا نستغرب أن يؤخذ ذريعة لاتهام قائله بأنه بولشفيكي!... فكيف إذا كان لقائل هذا الكلام منافسون، في معركة معينة؟...

«... وبعد أربعة أيام تبتدئ الانتخابات للمرشحين الثنويين، فهل نكون، تيمُّناً بهذا الشهر الذي يسميه عمال العالم شهر الديموقراطية، ديموقراطيين حقيقيين؟ وهل تعلّمنا روائح هذا الشهر العطرة التسامح ورقّة الاحساس؟ أما كان شهر الورود، والورود تعلّمنا الرقّة والخيال، مدعاة لأن ننبذ بعيداً الغايات الشخصية ونتتبع في الانتخابات ما توحيه إلينا ضمائرنا الحرة ومحبتنا للوطن، وننتخب أولاً مندوبين ثنويين لهم الضمائر الحية، حتى يقوموا بانتخاب النواب الصالحين؟»...

... انتخابات أيضاً؟... ومصادفات مدهشة!. كأنها من ترتيب روائي مغرم بهندسة الأحداث... فكما في ١٩٢٥ كذلك كان في ١٩٢٢: عيد أول أيار ـ عمال ـ انتخابات قريبة ـ أصوات ممكنة ـ والشخص نفسه!...

وفي زحلة، كما مرَّ في صفحات سابقة، تجمُّعات عمالية، وبدايات حركة نقابية تحتاج كذلك إلى دعم وتأييد، وإلى نشر أفكارها. ويكون أول أيار مناسبة يستفيد منها البخاش، الطامح والطموح، متوجّهاً إلى العمال، متحدثاً بهذا الكلام المدهش ـ عام ١٩٢٢ ـ عن عيد أول أيار، وكارل ماركس الاشتراكي الشهير، وعن نور الاشتراكية!.

على كل حال، نستطيع الآن أن نرى، من مسافة أكثر من خمسين عاماً: أن محاولة استخدام الحركة العمالية، قد مورست بشكل أدى، في الوقت نفسه، إلى خدمة الحركة العمالية وتطورها. وإذا كان التنافس بين «زحلة الفتاة» و «الصحافي التائه» على جماهير العمال والمثقفين في زحلة له أثر هام في اتخاذ جريدة «زحلة الفتاة» هذا المسار ـ فإن هذا لا يخفّف من الجانب الايجابي الناتج عن موقف البخاش.

فعندما دعا رشيد سويد عدداً من عمال زحلة ومثقفيها إلى الاجتماع في بيته (٦ نيسان ١٩٢٣) للتداول بأمر تشكيل نقابة لعمال زحلة، ثم عقد اجتماعاً آخر في ١٦ نيسان لتذكير هيئات النقابة حيث اتخذ قراراً بتسجيل أسماء جميع عمال المدينة من أجل الاتصال بهم للانتساب إلى النقابة ـ توجهت «زحلة الفتاة» (١٧ نيسان ١٩٢٣) إلى جميع عمال زحلة بضرورة الانتساب إلى هذه النقابة، وذلك «**محافظة على مصلحتهم وتمثُّلاً بعمال العالم** الذين هم دعامة كل فروع الحياة». وعقد البخاش صلة وثيقة بالنقابة الجديدة التي سرعان ما ضمّت الكثير من عمال زحلة، وامتد نفوذها في الحياة الاجتماعية الزحلية. كان البخاش بحاجة إليها، فدعمها بقوة إلى درجة أن النقابة اعتمدته في تنفيذ نشاطاتها الثقافية العامة التي هدفت منها إلى تغذية ماليتها. فكانت النقابة، كذلك، بحاجة إلى علاقات البخاش الثقافية والاجتماعية.

وهكذا: بمناسبة عيد الشهداء في ٦ أيار ١٩٢٣ نظمت النقابة تقديم مسرحية بعنوان «سفيرو توريللي» في مقهى نادي البورصة، (جاء خبر هذه الحفلة في «زحلة الفتاة» ٨ أيار/ ١٩٢٣) ولم يُذكر من هو مؤلف هذه المسرحية. ولكن جاك كولان يقول في كتابه «الحركة النقابية في لبنان: ١٩١٩ ـ ١٩٤٦» إنها مسرحية شعرية مترجمة عن الكاتب الفرنسي فرانسوا كوبيه، وهي تحكي قصة شاب قرر قتل طاغية «بيز» في القرن الخامس عشر، فعرف من أمه بأنه، هو، ابن هذا الطاغية بالذات!.. ثم قررت الأم أن تقضي بنفسها على مغتصبها السابق لكي تجنِّب ولدها مهمة قتل أبيه.

ثم جاء في «زحلة الفتاة» (السبت ١٩/ أيار/ ١٩٢٣): أن شكري البخاش تحدث في الجمعية العمومية للنقابة عن الاحتفال الذي قُدمت فيه المسرحية... «وركز على الطابع الثقافي والمحتوى الوطني والسياسي لتظاهرة نقابة عمال زحلة هذه»... وقد حضر هذه الجمعية العمومية حوالى ٥٠ شاباً وشابة، وصفهم البخاش، في العدد نفسه، بأنه «على وجوههم نشاط الفتوة وفي أيديهم آثار العمل والانتاج... وقد طالما دعوناهم على صفحات «الفتاة» إلى تأليف **حزبهم** هذا».

ويبدو أن هذه الحفلة أطلقت نفوذ النقابة في المدينة، وعزّزت ماليتها كذلك، ووثّقت علاقة البخاش بالنقابة. فبعد عدة أيام ستعقد هيئة النقابة اجتماعاً تتخذ فيه عدة قرارات حول تنسيب العمال، وقرارات تنظيمية وكذلك «... تقرر (ثانية) تمثيل رواية عربية

يُرصد ريعها للنقابة تحت ادارة رئيس تحرير «الفتاة» شكري أفندي بخاش الذي تكلم، بناء على طلب الرئيس، عن العامل ومركزه في الهيئة الاجتماعية. وتقرر أيضاً دعوة فيلسوف الشرق **أمين أفندي الريحاني** من معقله في «الفريكة» لإلقاء خطاب يوم الاحتفال، وانتُخبت لجنة برئاسة شكري أفندي البخاش للقيام بترتيب الاحتفال»(١).

وأقيمت هذه الحفلة في يوم الأحد ١٠ حزيران ١٩٢٣.

ولم تكن مجرد حفلة، كانت مهرجاناً ضخماً للأدب والفن والخطابة شاركت فيه البلدة كلها منذ الصباح حتى آخر الليل. ودخل هذا المهرجان في تاريخ المدينة، وتاريخ المهرجانات الأدبية في لبنان، وتاريخ النقابة، كما في تاريخ تطور الحركة العمالية في منطقة زحلة. فقد كان قطبا المهرجان: المفكر الباحث **أمين الريحاني**، والشاعر العراقي الكبير **معروف الرصافي**. ثم أقرأ أيضاً هذه الأسماء: الشاعر **الياس أبو شبكة**، الباحث والخطيب **فيلكس فارس**، الأديب **راجي الراعي**، الشاعر **قيصر المعلوف**، وكثير غيرهم.

في الصباح زحفت الجموع من عمال ومثقفين إلى أول المدينة لاستقبال الضيوف. وفي مقهى الوادي دارت الكؤوس، ودارت القصائد، والكلمات، ودارت الأنخاب فدارت الرؤوس... و «تعيش نقابة عمال زحلة»!... أمّا في المساء فقد كان البرنامج عجيب الغنى: المسرحية التي ستمثّل هي «صلاح الدين الأيوبي» من تأليف نجيب حداد... «وقد تطوع شكري بخاش رئيس تحرير «زحلة الفتاة» بأن يمثل بنفسه دور صلاح الدين السلطان العادل، وتطوع كلّ من الأديبين نجيب أبو سليمان، وفوزي بريدي بتمثيل دوري ريكاردوس ووليم... سيكون تمثيل هذه الرواية الشهيرة بالغاً حد الاتقان» ـ («زحلة

(١) نقلاً عن المحضر الرسمي للجلسة الثامنة التي عقدتها هيئة «جمعية عمال زحلة» مساء الخميس ١٧/ أيار/ ١٩٢٣، بإمضاء كاتم السر: فوزي بريدي، والرئيس: رشيد سويد ـ وقد عثرنا على الدفتر الأصلي لمحاضر النقابة، وهو بهذا العنوان: «تسجيل وقائع الجلسات لجمعية العمال بزحلة ـ تأسست سنة ١٩٢٣، في ٦ نيسان ـ اسسها: رشيد سويد وفوزي بريدي» ـ وكان هذا الدفتر بين ركام من الأشياء العتيقة داخل صندوق قديم في بيت السيد جورج سويد، ابن رئيس النقابة رشيد سويد. أما سر الاحتفاظ بالدفتر فهو أن عروس السيد جورج، في الفترة الأولى لزواجهما، كانت تستعمل صفحاته البيضاء الباقية من أجل تسجيل وصفات (روشتات) الطبخات التي لا تعرفها: (٣ بيضات ـ ٣ فناجين سكر ـ فنجان لبن.. الخ).... وهكذا أتيح لهذا الدفتر التاريخي أن يبقى سالماً سليماً..

الفتاة»: ٧/ حزيران/ ١٩٢٣). ـ عجيب هذا البخاش!!. ـ ثم: «بروغرام الحفلة: تبدأ الحفلة في الساعة الثامنة والنصف من مساء الأحد. فيها: كلمة ترحيب **باسم النقابة** لشكري بخاش رئيس تحرير الفتاة ـ موسيقى على البيانو لمدام فليكس فارس ـ **الفصل الأول من الرواية** ـ قصيدة للرصافي شاعر العراق ـ **الفصل الثاني من الرواية** ـ قصيدة لقيصر بك المعلوف أديبنا الزحلي المعروف ـ قصيدة للشاعر الياس أبو شبكة ـ **الفصل الثالث من الرواية** ـ خطاب فليكس فارس أمير المنابر ـ قصيدة للشاعر الرقيق نجيب أبو سليمان ـ **الفصل الرابع من الرواية** ـ خطاب الريحاني ـ يتخلل الرواية انشاد لبلبل البردوني نجيب أفندي بركات مسلم، ترافقه الكمنجة ـ كل من لا يشهد هذه الليلة يخسر فرصة قد لا تمر عليه ثانية في حياته ـ زحلة في ٧ حزيران سنة ١٩٢٣ ـ الامضاء: نقابة العمال الزحلية».

واستمرت الحفلة حتى «الهزيع الأخير من الليل. والناس قد تعبت من التصفيق، ولكنها لم تتعب من تغذية الروح بالمبادئ الجميلة والأفكار الراقية والأشعار الشائعة. والكل شاكرون للنقابة مأثرتها في مطلع عهدها ولا سيما لرئيسها رشيد أفندي سويد ومساعدها فوزي أفندي بريدي» ـ (زحلة الفتاة: ١٣/ حزيران/ ١٩٢٣).

ماذا يهمنا من هذا المهرجان؟.

طبعاً كل ما يتعلق بموضوعنا: رؤية النفوذ الواسع الذي أخذت تتمتع به «نقابة عمال زحلة» الوليدة وقدرتها المدهشة على التحريك. ثم دلالة مساعدة البخاش الثقافية لنقابة عمالية يتنامى نفوذها في مدينة تضم تجمُّعات عمالية وفلاحية كبيرة، وبالتالي بعض ما قاله كتّاب وشعراء كبار عن العمال والحركة العمالية (أصدرت «زحلة الفتاة، في ٢٣/ حزيران/ ١٩٢٣، عدداً خاصاً بـ ٨ صفحات ضم أكثر ما قيل في المهرجان) ـ وأهم من هذا كله: ما نتج عن هذا المهرجان، فيما بعد، بالنسبة للنقابة وللحركة العمالية في زحلة.

على أن ما قيل في العمال والحركة العمالية كان قليلاً، فالمناسبة لم تكن مناسبة عمالية، بل هي تقديم مسرحية في مهرجان «يُرصد ريعه للنقابة»... وقد اتخذ المهرجان شكل تكريم للريحاني والرصافي، كما جاء في اعلان النقابة عن المهرجان، ومع هذا... جاء في قصيدة الريحاني كلام عن العمال.

(الريحاني هنا يقول شعراً، موزوناً، ومنظوماً، ومقفًّى... وهذا شبه اكتشاف):

هذي جروحي. كل جرحٍ معقلٌ   فيه من الأفكار جيشٌ هجَّعُ
فيه حياة مجدها بجديدها   برغيدها. بعديد من لا يجزعُ
فالى الحياة. بجمعها. وبكنهها   وبكل مستترِ الخوالد أفزع
أعيدي إلى القلب والقصد والحجى   أعيديها رحماك دواء ينجع
أعيدي إليَّ من أياديك خيرها   أيادي عمال فؤوسها تلمعُ
أحن إليها كلما الفجر أبلجٌ   وقرنه محراث ونوره زارع
حنين نخاريب الصخور إلى الثرى   حنين قلوب في الهوى تتصارع
واني وإن كنت الصريع، مردّد   من الحب أصواتاً تلين وتصدع
وأجملها صوت المعاول أنه   لينعش فيَّ مهجة تتوجَّعُ

أما الياس أبو شبكة، الفتى ابن العشرين عاماً (ولد عام ١٩٠٣) فلقد ألقى قصيدة عبَّر فيها عن موقعه في مجتمع الزيف والاضطهاد وموقفه منه، وسنأتي على تحليل هذه القصيدة ومكانها في **الخط العمالي الثائر** من شعر أبي شبكة في صفحات تالية. ويبدو من القصيدة ـ وعنوانها «... وأنا فتى حرّ» ـ أن أبا شبكة أخذ بالاعتبار أنه يلقيها في مهرجان تقيمه نقابة للعمال الكادحين والأحرار:

واني فتى حرٌ أسير على هدى   ضميري ولا أهوى سوى الرجل الحرِّ
بنيتُ مع الأحرار جسراً ممنّعاً   دعوني بحق الله أمشي على جسري

وعلى غرار «الشبح الباكي» في الفترة نفسها، يصعِّد أبو شبكة الآهات الباكية، الشجية:

تمرّ على قيثارتي نفحة الأسى   فتصعد من أوتارها نغمة الشعرِ

رأت عينيَ الدنيا فاذرت دموعها   وكيف ترى الأهوال عيني ولا تذري

على أن راجي الراعي، المحرر الرئيسي في جريدة «زحلة الفتاة»، يتوجّه إلى العمال بما هو ملموس ومطلوب، فيقول، من خطاب طويل له عن القوة الكامنة في العمال: «.. ويجب أن تربط جميع عمال لبنان صلة واحدة.. إن العمال إذا أضربوا عن العمل في الغرب شُلَّت الحركة العامة. أنتم كبار إذاً، يا أخواني العمال. أنتم نفس أولئك القوم الذين تقوم لهم الأمة وتقعد. تبدأون الآن صغاراً ولا بد أن تنتهوا كباراً. أنتم حملة الفؤوس الهدّامة لكل ما يسمونه أرستقراطية وغطرسة وكسل وخمول وجبانة واعتماد على الغير»... ولكن... «**يجب أن تربط جميع عمال لبنان صلة واحدة.** إنكم إذا اتحدتم ماتت في الحال سيادة الوهم والجهل والغنى وعاشت سيادة العلم والفكر والأهلية.. لتحي نقابة العمال!. وليحي العمل!». هذه الشعارات تتلاقى مع تلك الأصوات التي كانت تتلاقى على صفحات «الصحافي التائه» في الفترة نفسها.

أما شكري البخاش، وكان محوراً هاماً في إدارة المهرجان والتعريف بالخطباء ـ عدا أنه مثّل دور صلاح الدين ـ فقد وجد فرصته واسعة لأن يمدح العمال، والريحاني، والرصافي و... المندوب السامي الفرنسي الجنرال ويغان!!. «... فإن البلاد تعتمد في سيرها في سبيل الحرية والأخاء والمساواة على أمثال الجنرال ويغند...». فالبخاش التزم أن يكون مع سلطات الانتداب في مختلف عهودها: سواء عهد ويغان، أم عهد «علمانية» ساراي و «اشتراكيته»، أم عهد قمع الثورة السورية أيام ساراي وخلَفه دي جوفنيل... والتزم أيضاً أن يناصر الحركات العمالية، إلا عندما تصطدم مع السلطة الانتدابية، فيكون ميزان البخاش مائلاً ـ بلا شك ـ نحو سلطة الانتداب.

بعد أيام، ظهرت على الصعيد الرسمي، احدى نتائج هذا المهرجان: صدَّقت الحكومة على طلب الترخيص المقدم من هيئة تأسيس النقابة باسم «نقابة عمال زحلة». وكتب البخاش: «يظهر أن حفلة الأحد التي نجح فيها العمال نجاحاً باهراً، قد كان لها وقع لدى الحكومة الرئيسية. فلم يمر عليها يومان حتى تلقّت رسالة من دولة وكيل الحاكم وفضيلة ناظم الداخلية، وفيها تصديق على قانون النقابة التي أصبحت بعد اليوم جمعية رسمية معترفاً بها أمام السلطة ولها الحق باعتبار نفسها كياناً قائماً بذاته. ولقد زارنا الأديب رشيد سويد وأطلعنا على رسالة الحاكم، فهنأناه وهنأنا النقابة ورجونا لها حياة مزدهرة بعد أن شجعها شعراؤنا وخطباؤنا مثل ذلك التشجيع البليغ، كما أننا نأمل أن

يُقبِل العمال على هذه النقابة، فحياة الأمم لا تتمّ إلا بأمثال هذه الجمعيات المؤسسة على حق كل إنسان في أخذ مكانه تحت الشمس» ـ («زحلة الفتاة» ـ في ١٦/ حزيران/ ١٩٢٣).

على أن مؤسسات الرجعية ومؤسسات اليمين الرأسمالي فتحت عيونها على هذا الانطلاق العاصف لنقابة عمال زحلة، ورأت ما يكمن فيها من خطر حقيقي إذا ما تركت لحركة تطورها الطبيعي الحر... فبدأت المعركة ضدها... وأعلنت جريدة «البشير» اشارة البدء: الريحاني ينشر الكفر... النقابة مباءة للماسونية ومعاداة الدين... النقابة أداة انتخابية يستخدمها الملحدون. وانضم مطران زحلة إلى الحملة. وغذّاها رأسماليون من زحلة.. وتنوَّعت أصوات الجوقة في محاولة لخنق النقابة في مهدها... على أن هذه حكاية أخرى، فسيكون للنقابة مسيرة معقدة، صعبة، ومجيدة، في سنوات مقبلة نتحدث عنها في صفحات قادمة.

وما زلنا في صدد تحليل الدور العجيب، المتعدد الأطراف، والمصادر، والأهداف، لشكري بخاش وجريدته «زحلة الفتاة». فها هو ينشر، في أبرز مكان من الصفحة الأولى بياناً له أهمية الحسم في الحركة العمالية وحركة تاريخنا الكفاحي، هو البيان الواسع الذي أصدره «حزب الشعب اللبناني» عشية مهرجان أول أيار ١٩٢٥، ونشر في العدد الصادر يوم الخميس ٣٠ نيسان ١٩٢٥، تحت عناوين: «نداء من حزب الشعب اللبناني ـ إلى جميع العمال والفلاحين ـ حركة اشتراكية في بيروت». فإلى البخاش يعود الفضل في وصول هذا البيان التاريخي إلينا، فقد نشره كاملاً. ويبدو أن البيان الذي نشره «حزب الشعب اللبناني» في «الصحافي التائه» (٢٥ نيسان ١٩٢٥) والذي أشرنا إليه في مطلع هذا الكتاب، هو بمثابة تمهيد تحريضي لهذا البيان الثاني التفصيلي الذي يبدأ هكذا «نريد: ٨ ساعات عمل ـ ٨ ساعاة تنزيه وتربية ـ ٨ ساعات نوم»... يضاف إلى هذا: أن «زحلة الفتاة»، وحدها، نشرت النص الكامل لخطاب فؤاد الشمالي في مهرجان الكريستال تحت عنوان «يا عمال العالم اتحدوا!» وهو الخطاب الذي يضع خطاً، طبقياً، حاسماً بين مفهومين للعمل النقابي، وللكفاح السياسي، مفهوم الطبقة العاملة، ومفهوم مختلف الفئات الأخرى.

كم هي ثمينة جداً، من الناحية العملية، والتاريخية، والسياسية، هذه الخدمة التي قدمتها صفحات «زحلة الفتاة» لحركتنا، وللتاريخ السياسي ـ الاجتماعي لبلادنا... مهما كانت أهداف البخاش، في تلك الفترة، من نشر نصوص هذه المواد.

أكثر من هذا: فابتداء من عدد السبت ١٦ أيار ١٩٢٥، أخذت جريدة «زحلة الفتاة» نفسها تنشر مقالات مسلسلة عن لينين تحت عنوان «لينين: حياة رجل» يقوم بترجمتها سكرتير تحرير الجريدة راجي الراعي، الأديب اللبناني المعروف. وكانت الجريدة قد أعلنت عن هذه السلسلة في عدد سابق (٢ أيار ١٩٢٥) بهذا الشكل المشوّق: [القضايا التاريخية الكبرى ـ معربة بتصرف بقلم الأستاذ الراعي ـ «لينين: حياة رجل» ـ كتاب فريد من نوعه غريب في فصوله ـ ألّفه الكاتب الكبير هنري جليو في برلين في كانون الثاني ١٩٢٣ ورفعه إلى لينين مصدّراً بهذه العبارات: «إنني أرفع إليك يا عزيزي فلاديمير ايليتش، رفيقي الكبير الذي عرفته في عهد كفاح عاقّ لم يخفق عليه لواء المجد، هذه الرسوم التي ترسم حياتك وعملك وجهادك وما في كل هذه الثلاثة استقامة وبساطة وجمال. أرفعها إليك دليلاً على اعجابي الذي لا يتحول ـ هـ ج»...] ـ ثم تقدم الجريدة، زيادة في تشويق القراء، فهرس الكتاب، وهو مؤلف من ثلاثة فصول: الأول «حياة رجل»، والثاني «فكر وعمل وجـهاد»، والثالث «رسوم وتذكارات». ومن العناوين الهامة التي ترنّ بغرابة في ذلك الزمن: «وحدة النظرية والعمل» ثم «الماركسية الثورية والاشتراكية العلمية» ثم «الاستعمار الرأسمالي والدولية الثورية»... هذا عدا وقائع ثورة أوكتوبر ووقائع حياة لينين.

نشرت الجريدة ثلاث حلقات من هذا الكتاب، تتضمّن، مثلاً، مقارنة علمية بين مفهوم لينين الثوري والعلمي عن الحزب والمفهوم المائع لمعارضيه الذي يؤدي إلى تمييع حدود الحزب وبالتالي تذويبه.

إن في نشر مثل هذه المواد أهمية تحريضية لا تقدّر. ويبدو أن الحسّ الطبقي لمن كان البخاش على صلة وثيقة بهم تنبّه إلى خطر هذه المواد... المتفجّرة!. فإذا نحن نقرأ ـ في عدد الأربعاء ٢٧ أيار ١٩٢٥، وبعد نشر ثلاث حلقات من هذه السلسلة وتحت عنوان واحد: «لينين» ـ الكلمات البليغة التالية: «لما كان نطاق «زحلة الفتاة» يضيق عن نشر فصول لينين وفصول القضايا التاريخية الكبرى (مسلسل آخر عن مدام رولان) في وقت واحد فإننا نعلن قراءنا أننا احتفظنا بحياة لينين مرجئين نشرها ريثما تنتهي سلسلة: القضايا التاريخية الكبرى»...

... ولم تُنشر بقية الفصول حتى يومنا هذا!.

فلا بد، إذن، من رؤية هذين الجانبين المتناقضين، المترابطين، المتفاهمين... معاً.. في

جريدة «زحلة الفتاة» وفي شخصية شكري بخاش، الذي تركناه يلقي خطابه في قاعة الكريستال ببيروت أمام العمال المحتفلين بيوم أول أيار ١٩٢٥...

... فبعد أن مدح: العمال، وفولتير، وروسو، وماركس، ومبادئ الثورة الفرنسية... وصل إلى بيت القصيد:

«.... ويطربني أن تكون حكومة اليوم مؤيدة مبادئ الحق والحرية، وأن يكون المسيو كايلا حاكم الدولة عاطفاً على العمال... نعم، إن حاكم الدولة يحبّ العمال ويكره الكسالى... إن حكومة اليوم العلمانية عاملة على حماية العمال وإنجاح شأن البلاد الاقتصادي... فقد بشَّر الحاكم كايلا البلاد بإنشاء المصرف الزراعي والغرف الزراعية لتشجيع المزارعين... وستنشئ الحكومة مدارس متحايدة ببدلات معتدلة و...».

... ولا ينسى البخاش، في آخر خطابه أن يوجّه نصيحة بليغة إلى العمال»:

«... سلام على العمال اللبنانيين والصعاليك المتّحدين. ولكن حذار من التطرف والفوضى... إصعدوا السلّم درجة درجة، لئلا تهبط السلم وتأكل الفوضى أبناءها» ــ (زحلة الفتاة»: ٢ أيار ١٩٢٥).

... هكذا، كان من الطبيعي أن لا يشير البيان الاعلامي الذي وزعه «حزب الشعب» على الصحف بعد المهرجان، إلا بسطر واحد، إخباري، إلى هذا الخطاب (... ثم ألقى الصحافي شكري بخاش خطاباً نشره في جريدته «زحلة الفتاة»...)... ذلك أن مدائحه لكايلا وحكومته الانتدابية تجاوزت كل تصوّر.

وكان من الطبيعي كذلك أن يعبِّر اسكندر الرياشي في «الصحافي التائه» عن غيظه لما ظنّه من انحياز صديقه يزبك وجماعة «حزب الشعب اللبناني» إلى منافسه اللدود

شكري البخاش، بجعله أحد خطباء المهرجان، فنشر في «الصحافي التائه» (العدد ٥٩ ـ في ٢/ أيار/ ١٩٢٥) مقالاً يقيِّم فيه مهرجان العمال في قاعة الكريستال ثم يقول:

«... إنما ابتدأنا نشعر ـ كما هي كل حال في هذه البلاد ـ أن النقابة المنظمة الوحيدة في البلاد والنازعة للمبادئ الاشتراكية التي لا بدّ منها لنجاح أحزاب العمال في العالم، وهي فئة حزب الشعب اللبناني، كادت تصبح تحت سيطرة جماعة من الماسونيين يستثمرونها سياسياً لانفاذ غاياتهم الأشعبية.

وقد رأينا من واجبنا تنبيه هذا الحزب، الذي لنا فيه أكثر من صديق ورفيق، لهذا الأمر، عساه لا يقع بين مخالب هؤلاء ولا أولئك، ويكون مستقلاً عن الأكليرية والماسونية تماماً ـ عساه ينجح، وإلا أكلته احدى الفئتين والتهمته وضاع كما ضاع غيره من قبله.

وعلى كل، فهذه الجريدة تشترك بكل قواها مع الرفاق في عيدهم الأكبر.»...

وكان من الطبيعي أيضاً أن يفهم المسؤولون في «حزب الشعب اللبناني» أن الرياشي يلمّح في كلمته إلى البخاش... ومن الطبيعي كذلك أن يضعوا نقاطاً حاسمة فوق مختلف الحروف الغامضة حتى لا يتركوا أي مجال للالتباس، أو للمزج بينهم وبين البخاش، والماسون، ومختلف التيارات البورجوازية الأخرى. وقد جاء هذا الايضاح في العدد الأول من جريدة «الإنسانية» (١٥/ أيار/ ١٩٢٥) التي أصدرها الحزب وتولى تحريرها يوسف يزبك: فقد نقلت الجريدة مقال الرياشي كما هو، ثم نشرت التوضيح في ذيل هذا المقال على شكلِ ردّ باسم «الإنسانية» ولكن بإمضاء ف. ش (أي: فؤاد الشمالي) فقد رأى الحزب أن تبقى «شعرة معاوية» موجودة بين يزبك وصاحب «الصحافي التائه». وهذا هو التوضيح:

«**الإنسانية**: إننا نعلن على الملأ أن حزب الشعب اللبناني بريء، مما

يقوله عنه الصحافي الطيب القلب. وإننا نصرِّح بكل صراحة وقوة أن هذا الحزب الذي ألّفه العمال والفلاحون في لبنان، والذي لا يقبل في حضنه إلا كل عامل يؤيد دستوره مهما كانت مبادئ العامل الشخصية - أن حزب الشعب اللبناني ينظر إلى الماسون المتموّلين نظرته إلى الاكليركيين المتموّلين، ولا يميل إلى أية هيئة حزبية في العالم لا تؤيد حقوق العامل وتثور على ظلم الرأسماليين.

ونريد أن نهمس في أُذن الصحافي التائه ليصيح هو بدوره بأن أكثر العمال في البلاد - وحزب الشعب اللبناني منهم - بدأوا يعرفون أن البنائين الأحرار (أي: الماسونيين) لا يتفوّقون كثيراً - ولا قليلاً - على الرهبان والقسيسين. وإن المبادئ التي ينادي بها الفريقان لا تهم العامل ما زال هذا الفقير مستعبداً مظلوماً مهضوم الحق - ونريد أن نُفهم الشعب الذي نخدمه أن العالم فئتان: فقير وغني - عامل ورأسمالي، وأننا: للفقير والعامل على الغني والرأسمالي مهما كانت المبادئ التي تنتسب إليها الفئتان.

أما أولئك الذين يتكلمون باسم «الحزب» وليسوا من أعضائه - وقد يكونون ممن أشار إليهم الصحافي التائه - فهم لصوص كذّابون يجب أن يقفوا عند حدهم، وإلا فنشهر عليهم حرباً تدكّهم دكاً - ف. ش».

... وكان من الطبيعي، أيضاً وأيضاً، أن لا يذكر التوضيح اسم شكري البخاش صراحة... ذلك أن «شعرة معاوية» - نفسها - بإمكانها أن تبقى مشدودة مع «زحلة الفتاة» فترة أطول...

أنا.. الياس أبو شبكة!
اكشفوا جوانبي كلها:
رومنتيكي... وثائر...
ومع الطبقة العاملة!

«... ثم ألقى الرفيق الياس أبي شبكة قصيدة عنوانها: «العامل الثائر» وصف بها العمال وصفاً مؤثراً استعاد الحضور أبياتها مراراً بالتصفيق» ـ (من البيان الإعلامي «لحزب الشعب اللبناني» ٢/ أيار/ ١٩٢٥).

«... ومن ثم ألقى الشاعر الأديب الياس أبي شبكة قصيدة غراء وصف بها حياة العامل وصفاً دقيقاً قوطعت مراراً بالتصفيق الحاد» ـ («الأحرار»: العدد ٣٢٦ ـ السبت ٢/ أيار/ ١٩٢٥).

«... وإن الشاعر الخالد الياس أبو شبكة رحمه الله كهرب الجو وهو يشير إلى كبار الموظفين البلديين الزاحفين في خدمة المستعمر، وقال عنهم (فهم الذئاب وفي سبيل وظيفة تمشي أظافرهم على أكباده) يريد: أكباد أبناء الشعب. وسَكِرَ السامعون وهم يسمعون زائراً هداراً: (من يسترق قوماً ليعيش بمالهم ـ فلتبصق الدنيا على ألحاده)» ـ ألحاده هنا: قبره.. ـ (يوسف يزبك: «حكاية أول نوار» صفحة ٨١ ـ ٨٢).

... رومنتيكي آخر. ثائر، في الفن وفي الموقف. جسور. نزق. لا يهاود. نقطة انطلاقه في الفن: تحطيم الأغلال، وفي الحياة كذلك. معادٍ دائم للظلم ـ (وصار واحداً من أكبر الشعراء العرب المجدّدين).

وكان التصفيق عاصفاً، حتى قبل أن يبدأ.

[فالطبقة العاملة، في تلك الأيام، كانت تعرف أن الياس أبو شبكة معها. (وهذا ما لا يعرفه حتى الآن الكثير من نقادنا!. وما يتجنَّب الاعتراف به نقاد آخرون!..) فقد قرأ له العمال، قبل عامين - في «الصحافي التائه» - ٢/ أيار/ ١٩٢٣ - «أنشودة العمال في شهر أيار»... ثم استمعوا إليه، قبل أقل من عامين (في ١٣/ حزيران/ ١٩٢٣) يزأر بقصيدة غاضبة (... وأنا فتى حرّ) في مهرجان اقامته «نقابة عمال زحلة». ثم قرأ له العمال، والمثقفون، قصيدة ثورية - شجية تحت عنوان، ربما هو الأول من نوعه في تاريخ الأدب اللبناني: «الشعر الاشتراكي» (في «الصحافي التائه»: ١٥/آب/١٩٢٣).. والقصيدة مهداة «الى الشبح الباكي صاحب الكوخ الأحمر» - أي يوسف يزبك، هل تذكرون؟ ثم انفعل قراء «الصحافي التائه»، العمال منهم والمثقفون، بهذه الكلمات الثائرة يقدم بها قصيدة حب رومنتيكية كتبها بعد زيارة لقرية «الخنشارة» الجميلة حيث تسكن فتاة يحبها قال إن اسمها «سلمى» - (نُشرت في العدد ٩١ - في ١/أيلول/١٩٢٣): «...إن روحي الثائرة يضيق عندها هذا الوجود الفاسد الذي يتراءى لي كسجن مظلم شيدته آلهة الظلم... أنا الآن في **مدينة الأغنياء**، غير أن روحي هائمة في سماء الخنشارة...» - تعبير مدينة الأغنياء، أي بيروت، مأخوذ كما تذكرون، من الجملة التي كانت تعقب توقيع «الشبح الباكي» يوسف يزبك في مقالاته الأولى: «عن الكوخ الأحمر، في مدينة الأغنياء»].

... وها هو يتقدم الآن (١/أيار/١٩٢٥) ليلقي قصيدة جديدة في عيد العمال - فكيف لا تنطلق عواصف التصفيق، ويتكهرب الجو، حتى قبل أن يبدأ الإلقاء؟... ثم تُستعاد مقاطع من القصيدة بعد أن يبدأ. ولا بأس أن نستعيد نحن الآن مقاطع كاملة من هذه القصيدة، لما لها من أهمية في مسار شعر أبي شبكة وحياته، وفي تاريخ الحركة الشعرية عندنا، وكذلك لما تكتسبه من معنى في التاريخ الكفاحي لشعبنا (والقصيدة منشورة كاملة في الصفحة الثالثة من العدد الخاص الذي أصدرته جريدة «زحلة الفتاة» يوم السبت ٢ أيار ١٩٢٥، وهو يضم بعض مواد المهرجان. عنوان القصيدة مكتوب هكذا: «العامل الثائر - الثائر على كل شيء» ثم «القصيدة العامرة التي ألقيت ظهر اليوم - المقصود ظهر أمس - في حفلة العمال». والامضاء هو: «الشاعر العامل - الياس أبو شبكة».).

اسمع، أبو شبكة يصف نفسه: وشعره:

أولست تسمع كيف ينشدُ مثخنٌ

تتصاعد الزفرات من إنشادهِ

هذا فؤادي تُستباح دماؤه

مستقطراتٍ من جراح ودادهِ

قال الحسود غداة أبصرَ مدمعي

يجري به بصري بملء سوادهِ

هذا ضعيف لا يميل به الهوى

إلا ويعزفه على أعوادهِ

يا عاذلي ليس اعتقادك محكماً

بالشاعر الباكي على أمجادهِ

فالشعر، لو أدركتَ، وحي حقيقة

والشاعر الرسّام طوع قيادهِ

... ثم يهدر:

لي موطنٌ عاشت به أولاده
فبكت حشاشته على أولادهِ

يحيا، أمام عيونه جلاّده
ويموت لاثمَ قبضتي جلاده

أسياده وهم شعاع عيونه
يتطوّعون اليوم لاستعباده

جبناء لا يتفيّاون بحكمهم
إلا مراغاة لدى أسياده

لا باس عندهم إذا لعبت به
أفراده، واذاه من أفراده

فهمُ الذئابُ وفي سبيل غنيمة
تمشي أظافرهم على أكباده

لهفي على وطنٍ تُضام أُباته
ويسودُ فيه النذل باستبداده

لبست غرابيب الغنى أبراده ... وتجنّد المثري لاستشهاده

في موطني شعبٌ يبيع بفضّةٍ ... شعباً يقيم على ربى أجداده

يجترّ عن ظما نطاق دمائه ... ويريش نبلته على أجساده

من يسترق قوماً يعيش بمالِهم ... فلتبصق الدنيا على ألحاده

أبو شبكة يطلق قذائفه. والعمال ينطلقون، عاصفة من التصفيق، فهم قد اكتشفوا: باتجاه من يطلق الشاعر هذه القذائف. الشاعر يتّحد بجمهوره بعد أن اتحد شعره بقضية هذا الجمهور. أما نحن، فلسنا الآن ـ وحسب سياق هذا الكتاب ـ بصدد تحليل القصيدة وما تحمله من قيم فنية جمالية، بل نحن بصدد كشف هذا **الموقف الطبقي** عند الشاعر وفي شعره، بعد أن عمل على طمسه ـ بتجنّبِ الحديث عنه ـ النقد الأدبي، الطبقي، أو المتحيّز، عندنا.

....

فإن الياس أبو شبكة، الذي أعطانا أعمالاً شعرية هي من أهم علامات التطور في شعرنا العربي الحديث، خلال ذروة المرحلة الرومنطيقية وفترة الانتقال منها إلى مختلف مسارات الشعر العربي الحديث ـ هو، في الوقت نفسه، من أغزر الشعراء انتاجاً في مختلف أنواع الكتابات، النثرية (نقد ـ قصص ـ تعليقات سياسية ـ رسوم قلَميّة لشخصيات معروفة ـ تعريف بالعشرات من شعراء الغرب وكتّابه، خاصة الرومنطيقيين الخ...) وكذلك في مجال الترجمات النثرية والشعرية على السواء. حتى أنك لتعثر على مختلف أنواع الكتابات لأبي شبكة منشورة في عدد من المجلات والصحف الصادرة في الشهر نفسه أو الأسبوع نفسه، فتُصاب بالذهول!

هل هو هوس النشر والانتشار؟ أم هو النبع يتدفق غزيراً فلا يمكن حصره؟.. لا شك أن عند أبي شبكة هاتين الخاصتين، معاً. ولكن الدافع الأساسي لهذا ليس هنا. فإن العمارة التي كوّنها النتاج الأساسي لأبي شبكة، يمكنها أن تُسقط من حسابها الكثير

مما نثره وترجمه ونشره أبو شبكة دون أن تفقد هذه العمارة شيئاً من قيمتها الفنية والفكرية ـ فلماذا إذن هذا الإكثار؟.

....

الواقع، أن أبا شبكة لم يكن من الأغنياء، وما كان حتى من الميسورين، بل هو ترك المدرسة قبل أن يتم دراسته، وخرج يسعى لكسب عيشه بالكتابة والتدريس، فكان كادح فكر وقلم منذ البداية، ثم صارت الكتابة مورده الأساسي... فكيف يمكن العيش من الكتابة في ذلك الزمان دون هذا الإكثار من الانتاج؟ وكان باستطاعة أبي شبكة أن يبيع فكره وشعره لمصلحة هذا أو ذاك من المتزعّمين، أو المنتدبين، فينال الكثير من المال بقليل من الانتاج، ويعيش مرفَهاً. ولكن أبو شبكة ليس من هؤلاء. لا بداعي ما يتمتّع به من كبرياء واعتزاز بالكرامة الشخصية فقط، بل خصوصاً لأنه فنّان أصيل، يحترم الفن، ويحترم نفسه. ففي بيع الفكر، ضياع الصدق، وفي ضياع الصدق: ضياع الفن!.

هذه المُعاركة لكسب العيش، منذ البداية، أتاحت لأبي شبكة أن يرى الكثير، ويكتشف الكثير، داخل هذا «السجن المظلم الذي شيدته آلهة الظلم في مدينة الأغنياء»... فهل هذا ما حدّد موقف أبي شبكة؟. ربما كان هذا من العناصر المكوّنة في موقف الشاعر وشخصيته.. على أننا لا نستطيع أن نحصر العنصر المحدِّد، في هذا النطاق فقط، كما لا يمكن ولا يصحّ إغفال الأساس المعرفي وحركة نمو الوعي، في تكوين شخصية الإنسان كمثقف فاعل.. ذلك أن هذا الإنسان الفرد ـ وهو فنان كبير وليس مجرّد فرد ـ إنما يعيش داخل حقلٍ من الصراعات الاجتماعية ـ السياسية ـ الايديولوجية (أي الطبقية) فيتحدّد موقف الشاعر ويتحرّك ضمن هذا الحقل من الصراعات، فلا يمكنه هنا أن يكون خارج حقل الصراع، ولا يمكنه أن يكون، في وقت واحد، مع مختلف أطراف الصراع. ومن النادر أن نرى فناناً أصيلاً، خصوصاً خلال الانعطافات الكبرى، يقف مع الظلم ضد الشعب، بل غالباً ما نرى هؤلاء الفنانين الحقيقيين، مع الشعب ضد الظالمين ـ وقد اتخذ الياس أبو شبكة لنفسه، منذ البداية، هذا الموقف، وراح يطوّره ويتطوّر معه...

فقد تفتّح وعي شاعرنا ـ ونستخدم صفة: «شاعرنا» هنا بكل معانيها ـ خلال مرحلة

خطيرة بين عهدين: مرحلة الانتقال من الخلاص من نير استبداد الاقطاعية التركية إلى الوقوع تحت نير استبداد الامبريالية الفرنسية. أو كما قال الريحاني: «من استبداد باسم الباديشاه إلى استبداد باسم عصبة الأمم... من استبداد يفرّق ويسود لمجد الدولة، إلى استبداد يفرّق ويسود لخير الاستعمار» (القوميات: صفحة ٧١). وكان الأدب العربي الجديد، المتأثّر بالنزعة الرومنتيكية المكافحة خصوصاً، والمتمثّل بجبران خليل جبران بالدرجة الأولى، وميخائيل نعيمة وأمين الريحاني، وقد تكوّن خلال معركة لم تكن فقط ضد كل ما هو متخلِّف ورجعي وجامد ومهترئ وتقليدي، في الأدب العربي القديم، بل كذلك، وخصوصاً، ضد كل ما هو متخلّف ورجعي ومهترئ وتقليدي في المجتمع، وعلى التحديد: ضد الاقطاعية ومؤسّساتها، وضد المتحالفين مع الاقطاعية من رجال الدين، وضد الاستبداد العثماني، وبالتالي ضد السيطرة الأجنبية على بلادنا بشكل عام.

فإذا كانت الرومنتيكية في أوروبا تكوّنت في بداياتها كصرخة احتجاج ضد العلاقات غير الإنسانية، في النظام الرأسمالي، علاقات الاستثمار الشرسة، ومختلف ظاهرات النهب والقمع والبطالة والأزمات وتحويل الإنسان نفسه إلى بضاعة، وسحق كل ما هو إنساني في العلاقات بين البشر... ثم راح الطوباويون من هؤلاء الرومنتيكيين يهربون يائسين من المجتمع ويفزعون إلى الطبيعة تاركين غير الطوباويين منهم يتجهون برومنتيكيتهم نحو الواقعية ونحو الثورة ـ فإن الرومنتيكية عندنا وجدت نفسها منذ بداياتها، وجهاً لوجه أمام الاقطاعية وأمام السيطرة الأجنبية، في وقت معاً، سواء كانت هذه السيطرة تركية أم فرنسية فيما بعد. فالاستعمار عندنا، لم يقضِ على الاقطاعية، بل هو حوّل البيوتات الاقطاعية نفسها إلى بيوتات (اقطاعية ـ تجارية). فلم يتحرّر الريف، ولو بالشكل الرأسمالي للتحرر، كما في أوروبا، وظلّت العلاقات في الريف هي نفسها من حيث السيطرة والقمع والاستثمار والاستبداد، وظل «سحر الريف»، «سحر الطبيعة»، سجين بشاعات هذا النظام من العلاقات الشرسة ـ وما من ملجأ.

صحيح أن جبران، كما كتب عنه الياس أبو شبكة فيما بعد، «قد أبصر النور ينبثق من وراء صنين فيغمر الأودية والتلال بأبخرة شفّافة من الرؤى والأحلام، وينعكس على مرآة نفسه بكل ما فيه من معاني السماء والخلود»... ولكن هذا جانب واحد من الصورة، ذلك أن جبران، كان يعرف، من ناحية ثانية ـ وكما كتب عنه أبو شبكة في المقال نفسه ـ «أن الجمال والحب والنور إنما هي في بلاده ضحايا مقرّبة للظلم والأراجيف، وأن النور والحب والجمال لن تظهر بمظهرها الحقيقي ما لم تعرف الحرية

الصحيحة»[١].

وكان جبران معبود الياس أبو شبكة في فترة تفتُّح وعيه تلك، وكذلك في فترات لاحقة. وليس مصادفة، أو عبثاً، أو نزوة عابرة، كون أبو شبكة، عندما كتب مقاله هذا عن جبران يوم اعادة جثمانه إلى لبنان ١٩٣١ ـ قد اختار التركيز على **مواقف** جبران ضد الظلم، ضد الاستبداد العثماني، وكذلك ضد الشعراء المدّاحين «الذين يعهِّرون أرواحهم أمام أصنام الظلم ويسخِّرونها كما كانت تسخَّر حمير الدولة»... في تلك الفترة، فترة تفتّح وعي أبي شبكة «لم تكن الناشئة قد سمعت بعد مثل تلك النسمات العلوية فانجذبت قلوبها وأرواحها إلى جبران، وأُخذت بسحر آياته ورقي ابداعه»... وكان أبو شبكة ـ كاتب هذه الكلمات ـ من هذه الشبيبة الناشئة التي تتلقَّف، وتتمثّل، كل ما يأتيها من جبران، فيمارس فيها تاثيراً هائلاً حتى أعمق الأعماق، ويوقظ فيها نزعة التمرّد. وهكذا «... فإن المدرسة التي بناها جبران في صدور الشباب ـ كما يقول أبو شبكة في المقال نفسه ـ لن تستطيع العواصف أن تهدم حجراً منها لأنها بُنيت على القلب والروح وكُلِّست بالدموع والدم»... وكان «خليل الكافر»، بطل جبران المعادي للاقطاعية ولرجال الاكليروس، والذي استمد جبران شخصيته وحكايته وأحداث ثورته من الأحداث التي فجَّرها قائد ثورة الفلاحين البطل **طانيوس شاهين** ضد الاقطاع في منطقة كسروان عام ١٨٥٨ ـ كان خليل الكافر هذا يسكن في كيان أبو شبكة ووعيه (شأن الكثيرين من الشباب في تلك الفترة وما بعدها) ـ عندما أخذ أبو شبكة في تحديد موقعه: أين يقف، داخل حقل الصراعات الدائرة أم خارج هذه الصراعات؟.. ولم يكن الأمر يحتاج إلى تغيير مواقع. فقد وقف أبو شبكة في مكانه الطبيعي، وحيث يقف هو بالفعل منذ البداية: مع الشعب.

وكانت «الصحافي التائه» قد أخذت في الصدور، وأخذت الشعاعات الأولى من العواطف الاشتراكية تظهر على صفحاتها، مرتبطة، منذ البداية أيضاً، بالتحرّك العمالي

---

(١) الياس أبو شبكة: «جبران الشاعر» ـ مجلة «المعرض» العدد ٩٤٧ ـ في ٢٦/ نيسان/ ١٩٣١ ـ ص ٦.

وبالتوجّه نحو العمال، وبالتطلّع نحو «الانترناسيونال الثالث» من خلال كتابات «الشبح الباكي» يزبك، التي مارست تأثيراً قوياً، وأكيداً، على توجُّهات أبي شبكة، كما سوف نرى بعد قليل.

وهكذا، فأول ما نقرأه، في «الصحافي التائه»، للشاعر الشاب، ابن العشرين، الياس أبو شبكة، قصيدة، رومنتيكية، شبه تعليمية، بعنوان «أنشودة العمال في شهر أيار».. إنَّ هذا التوجّه وحده، إلى العمال في عيدهم ـ عام ١٩٢٣ ـ له دلالته الواضحة، والحاسمة: **لقد اخترتُ موقعي، هنا، مع العمال.** وكان يمكن أن لا نشدّد على طابع الحسم هنا، لو أن موقف أبي شبكة كان موقوتاً، عابراً، كما حدث، ويحدث، مع بعض الكتّاب والشعراء أيام نزوات الشباب قبل دخولهم عالم الإغراءات و «التعقّل»!... ولكن أبو شبكة لم «يتعقّل»... تطور فكراً وتطور شعراً، وارتفع مكانة، ولم «يتعقّل»، ظل يغنِّي للعمال، بين عام وعام، وظل يعرّي مجتمع العهر والأغنياء.. وصار شاعراً كبيراً، وأقام عمارات شعرية هي من أهم علامات تطور شعرنا العربي الحديث، ولم «يتعقّل».. كانت المأساوية في شعره هي في عمقها صراخ غضب، واحتجاج، وإدانة، ضد مجتمع «يتشيّأ» فيه الإنسان، يعملون على تعهيره، ويحولونه إلى سلعة... وظل يغني للعمال حتى آخر عام في حياته ولم «يتعقّل»... لهذا قلنا إنَّ اختياره كان **حاسماً**، منذ البداية، ولم يكن نزوة، وما كان موقوتاً، أما أدلّتنا على هذا، فهي قصائد أبي شبكة نفسها:

□ **في** قصيدته «أنشودة العمال في شهر أيار»: فتى يدعوه «فتى المستقبل» يسير «بين غياض الجبلِ» فيلتقي بغزالٍ هو المستقبل نفسه، فينبهر الشاب به، يعشقه. لكن الوصول إلى المستقبل، وتملّكه، لا يتم هكذا، بالرغبات والأمنيات، بل بالجهد، وبالعمل... وبالذهاب إلى العمال:

أقبلَ الظبي على ذاك الفتى	مسترقاً فيه قلب الرجلِ
وأراه منجلاً في يده	قائلاً: سرّ الهوى في المنجلِ
إن ترُم تقرن بالمجد الهوى	فتجنّب عاديات الكسلِ
هو ذا المنجل فاطلب عملاً	إنما المنجل رمز العملِ
شارك العمال في مهنتهم	واجتهد في كل أمرٍ تصلِ

إنـــمـــا الـــعـــمـــال أركـــان إذا هـــبـــطـــت يـــهـــبـــط مـــجـــدُ الـــدولُ

إن تـــرُم تـــهـــوى غـــزالاً فـــاقـــتـــرن قـــبـــل هـــذا بـــعـــروس الـــعـــمـــل

(«الصحافي التائه: العدد ٥٧ ـ في ٢/أيار/١٩٢٣)

فالمستقبل هو العمل، الجهد، الكفاح... فهو لا يأتي إليك وأنت قاعد، فعليك أنت أن تذهب إليه، لا بالفكر والخيال، بل بالجهد والعمل ـ أمثولة تعليميّة عامة. ولكنها بداية طريق. لأنها بالضبط وُضعت على شرف عيد العمال في شهر أيار.

□ **... وها** هي «نقابة عمال زحلة» تقيم مهرجاناً فنياً كبيراً، وتقدم مسرحية «يرصد ريعها للنقابة». كان هذا في ١٠ حزيران ١٩٢٣. (كما مرّ معنا سابقاً). وكانت النقابة وليدة، ولم تحصل بعد على ترخيص من الدولة، ولكن عمال منطقة زحلة أخذوا يلتفّون حولها، وكذلك المثقفون. ومن شأن نجاح المهرجان أن يدعمها، ويقوي الحركة العمالية، خصوصاً وأن ضيفي المهرجان قطبان كبيران في الثقافة العربية: أمين الريحاني ومعروف الرصافي ـ فهل تكون من شعراء المهرجان يا شاعر العمال؟

... وكانت قصيدته الثانية في هذا المسار، العمالي. وهي قصيدة لا بد لكل من يتصدّى لدراسة **الأساس الاجتماعي للرومنتيكية في شعر أبي شبكة** أن يضعها بين أهم الوثائق الشعرية التي تصور موقع الشاعر الرومنتيكي، كنموذج غاضب ضد كل المحاولات التي تُبذل لتزييفه، وتكشف بالتالي عن طابع الاحتجاج وإدانة الظلم وإدانة العلاقات غير الإنسانية في مجتمع يريد من الشاعر أن يلجم لسانه... ويقيِّد نفسه... ويبيع فكره.

أبـــى الـــحـــظ إلاّ أن يُـــصـــارعـــنـــي دهـــري
ومـــا زلـــتُ حـــتـــى الـــيـــوم فـــي مـــيـــعـــة الـــعـــمـــرِ

حـــمـــلـــتُ عـــلـــى ظـــهـــري صـــلـــيـــب تـــعـــاســـتـــي
ولـــم أحـــس مـــن كـــاســـي ســـوى الـــخـــلّ والـــمـــرِّ

يـقـولـون عـنّـي إنـنـي مـتـطـرّف
ولـي مـبـدأ أعـمـى جـعـلـتُ بـه فـخـري
ولا أنـظـم الأشـعـار الا لأنّـنـي
أؤمـل بـالأشـعـار أن يـرتـقـي قـدري
ألا أيـن مـا يـدّعـون مـنّـي تـطـرّفـاً
ورائـد فـكـري الـحـق فـي الـسـرِّ والـجـهـرِ
ومـاذا تـريـد الـنـاس مـنّـي فـإنـنـي
أرى الـبـعـض مـنـهـم قـد رمـانـي بـالـسـخـرِ
أألـجـم عـن حـقّـي لـسـانـي أم تـرى
أقـيّـد نـفـسـي أم أبـيـعـهـم فـكـري
بـنـيـتُ مـع الأحـرار جـسـراً مـمـنّـعـاً
دعـونـي بـحـقّ الـلـه أمـشـي عـلـى جـسـري

شكوى رومنتيكية من الزمان، في مطلع القصيدة... ولكن الشاعر يصارع الدهر، حاملاً صليب تعاسته... ثم... «يقولون عني إنني متطرّف...».... فهو إذن في تصارع مع الذين بدأوا يحاصرونه بالتهمة التقليدية ـ الخالدة: **متطرِّف**... ولماذا؟ ألأني أقول الحق؟... نعم أيها الشاعر. ولأنهم بدأوا يرون أقوالك تشكّل خطراً عليهم، بل يحدسون، بغريزتهم الطبقية، ما أنت مقبلٌ عليه... فليست المسألة تنحصر في أنك لا تبيعهم فكرك، بل المسألة الأخطر أنك أخذت تبني **مع الأحرار** جسراً... من هم هؤلاء الأحرار أيها الشاعر؟... ما حاجتك إليهم، وما حاجتكم إلى الجسر؟....

أكرر: إننا لسنا، هنا، بصدد تحليل ما تحمله هذه القصائد من قيّم فنية، بل نحن نحاول، فقط، كشف **موقف** الشاعر، وانحيازه إلى الشعب والطبقة العاملة من خلال شعره، وتطور هذا الموقف، وتصاعده، مع تطور وعيه، وكذلك مع النضج الفني المتنامي عنده... ألا تلاحظون الفرق، فنياً، بين هذه القصيدة (تركيبها ـ صورها ـ سياقها المتصاعد ـ صياغتها... الخ) وبين أمثولته التعليمية السابقة؟.

وها هو الرومنتيكي يعود إلى شكوى الزمان، والمجتمع:

فما حاقرٌ قولَ الحكيم ورأيه

وما تاركٌ نصحَ النصوح ورا ظهري

ولا أنظم الأشعار للمجد والعُلى

ولكن شجون النفس تمرَح في صدري

تمرُّ على قيثارتي نفحة الأسى

فتصعد من أوتارها نغمة الشعرِ

رأت عينيَ الدنيا فأذرت دموعها

وكيف ترى الأهوال عيني ولا تذري

إذا ما حكيت الصدق وهو فضيلة

فتنعتني بنتُ الجهالة بالكفرِ

أما كان «الشبح الباكي»، في الفترة نفسها، يذرف الدموع، ويبشر بالاشتراكية، معاً... أليس لهذا دلالة معينة، أبعد من مجرّد النزوع الرومنتيكي؟.. ألا يمكن أن يكون حسّ الفجيعة، عند هؤلاء الشباب، بعد فرض السيطرة الفرنسية على البلاد ـ وقد ظنّت أنها تحررت من نير الأجنبي، التركي ـ ثم هبوط الحركة الوطنية، وزحف الزاحفين من الوطنيين السابقين، لاقتناص المناصب، وفتات الموائد. وشعور هذا الشاب بالعجز عن عمل أي شيء... ألا يمكن أن يكون هذا في أساس العناصر المكوّنة لهذا اللون الغاضب ـ الباكي من الأدب في تلك الفترة الجنينية من بدايات ظهور الأفكار الاشتراكية والحركة العمالية عندنا؟

ففي هذه الحفلة نفسها، مثلاً، سمعنا شكري بخاش يمدح المفوض الفرنسي ويغان «... فإن البلاد تعتمد في سيرها في سبيل الحرية والأخاء والمساواة على أمثال الجنرال ويغند...»!!

ويزأر أبو شبكة ـ مخاطباً معروف الرصافي ـ وكأنه يردّ على البخاش بغضب، في القصيدة نفسها:

ألم ترَ لبناناً يئنُّ ويشتكي
ويحيا بلا صبرٍ على لهبِ الجمرِ؟
لقد كان ليثاً في المهمّات أظفراً
وها أنه ليثٌ ولكن بلا ظفرِ!
لذلك أبكيه بدون تصبُّر
أما كنت تبكي في العراق بلا صبرِ؟

(«زحلة الفتاة»: الأربعاء ١٣/حزيران/١٩٢٣).

ويستمر موقف الشاعر يترسخ، ويتصاعد، بدأب وإصرار.

□ ... **وها** هو أبو شبكة يطالعنا، ربما لأول مرة في تاريخ الحركة الشعرية عندنا، بهذا العنوان الذي لا لبس فيه: «الشعر الاشتراكي» ـ («الصحافي التائه»: العدد ٨٥، في ١٥/٨/١٩٢٣) ـ والقصيدة مقدمة «الى الشبح الباكي صاحب الكوخ الأحمر»... ألم نقل إنَّ المسألة ما كانت ولن تصير عنده، مجرّد نزوة عابرة لشاب رومنتيكي؟. أكثر من هذا، فسوف نرى في هذه القصيدة أن أبا شبكة لا يعبِّر فقط عن تأثره هو باتجاه يوسف يزبك الاشتراكي بل هو يحاول هنا التأثير فيه كذلك، ودفعه إلى رؤية الجانب الآخر من المسألة: فليس **الدمع** هو الذي يُصلح الأمة، بل هو **الكوخ الأحمر**، حيث العدالة. واعذروني إذا نقلت لكم القسم الأكبر من هذه القصيدة، وسوف ترون أن هذا لن يكون عبثاً:

شبحُ الحياة تضمّك الاتراح ... هوِّن عليك فكلّنا أشباحُ
ماذا تؤمل من رحيقٍ فاسدٍ ... قد زخرفت ألوانه الأقداحُ
هذا الوجود جنينة مرغوبة ... قد غرّ فيها آدم التفاحُ

هذا الوجود مشانقٌ نُصبت لنا   والظلم في ساحاتها السفاحُ

أوَما ترى الفَلاح بعد جهاده   يجد الشقاء، لأنه فلاّحُ!

فكأن إكرام الفقير محرّمٌ   وكأن إكرام الغني مُباحُ

تلك الجفون وقد ذرفت دموعها   أيرودُ خلف سجوفها الإصلاح؟

إن كان ذرف الدمع يُصلح أمةً   فمدامعٌ في أمتي ونواحُ

في دمعة التعساء سرٌ كامنٌ   هو خلف ليل الظالمين، صباحُ

ماذا نرى من جديد؟. موقف أبي شبكة يتصاعد. يصبح أكثر تحديداً وحسماً. ورؤيته أكثر وضوحاً، ووعياً: فالفلاّح الذي يكدح، ويجاهد، ويُنتج، سيظلّ يعاني الشقاء، ليس لأنه كسلان... بل «لأنه فلاح»... أي، حسب تعبيراتنا التنظيرية: لأن هذا هو موقعه ضمن علاقات الانتاج الحاضرة... وسيبقى يعاني الشقاء طالما هو فلاح ـ بالمعنى الاجتماعي هنا (طبقة) وليس بالمعنى الفردي (شخص). ولن يجد السعادة إلا بكسرِ هذا الشكل من علاقات الانتاج (هذه لا يقولها أبو شبكة، بالطبع، ولكنه يضعنا بمواجهة هذا الباب المسدود، لنصل نحن إلى الاستنتاج الضروري: الكسْر). أما هذا الكسر (أي التغيير الجذري لوضع الفلاح) فلا يكون بذرف الدموع أيها «الشبح الباكي» فـ «إن كان ذرف الدمع يُصلح أمة/ فمدامعٌ في أمّتي ونواحُ»... إن كميّات الدموع التي تعوّدت أمتنا ذرفها، لو كان لها فعل التغيير، لكُنا بنينا منذ زمن طويل النظام الاشتراكي ودخلنا عالم الشيوعية... ومع هذا، فإن أبا شبكة يرى في دمعة التعساء «سرّ كامنٌ»... غضباً يتراكم... يتكثّف... يتحوّل... ينفجر... فيدكّ «ليل الظالمين» وينشر الصباح.

تلك المباني سوف تهدم ركنها   من عاصفات حياتنا الأرياح

في تلك الفترة (١٩٢٢ ـ ١٩٢٣) كانت الأصوات تتلاقى وتتصادى وتتفاعل في صفحات «الصحافي التائه»، تحرّكها دموع «الشبح الباكي» وعواطفه الاشتراكية وكوخه الأحمر. وقيل إنّ الياس أبو شبكة هو واحد من هؤلاء الشباب (الأشباح غير الباكية) المختفين خلف تواقيع طريفة، وفيها تحديد موقف. وهناك رأي يقول إنَّ الياس أبو شبكة كان يتخفّى وراء توقيع «**شبح لا يبكي ولا يضحك**»، خصوصاً وأن الصيغ التي

كان يكتبها هذا «الشبح» تدلّ أن هذه الريشة يستخدمها صائغ ليس ابن يومه... على كل حال، وسواء تأكّد هذا أم لا، فإن الموقف الذي عبَّر عنه ذلك «الشبح» ـ وقد عرضنا موقفه في صفحات سابقة ـ ينسجم تماماً مع الموقف الذي يصدر عنه أبو شبكة في قصيدته هذه إلى «الشبح الباكي»، فكما هناك، كذلك هنا: تأثر واضح بالشبح الباكي، ومحاولة، واضحة أيضاً، للتأثير فيه ـ في الدموع تعبير عن التعاسة وتعاطف مع التعساء... ولكن «الدموع لا تُصلح أمة» و... «يجدر بنا أن نتخذ الوسائط الفعالة ـ لا سواها ـ للحصول على ما نتوخّاه» كما قال ذلك «الشبح» الذي لا يبكي ولا يضحك... فما هي هذه الوسائط الفعالة؟.. ذلك «الشبح» لم يُقل صراحة إنها قد تكون الحزب أو النقابة، أو الثورة... فأفكاره كذلك كانت غامضة... فماذا يقول أبو شبكة؟

رأتيكَ يا شبح الحزن تبكي	**وما في الوجود سوى المفتري**
اذا كنتَ تنشدُ تلك العدالة	**فاذهب إلى كوخك الأحمرِ**

ما هو **الكوخ الأحمر** هنا، حيث توجد العدالة؟. قد يكون الثورة الحمراء، حسب تداعي الصور... وقد يكون الحزب حيث يتجمّع الرفاق الحمر... وقد يكون المجتمع الشيوعي الأحمر، حيث يهدف إلى العدالة... وقد لا يكون أبو شبكة قصد بوضوح أن يرمز إلى أي شيء من هذا... ولكن الكوخ الأحمر، حيث توجد العدالة، ليس هو الدموع... أنه شيء آخر، ملموس أكثر، ولونه، على كل حال، أحمر، كراية انتصار مجيدة.

وها أبو شبكة يتابع، محاولاً تأكيد موقفه، وتطويره:

كم قد رأيتكَ والظلام مخيّم	**تنسلّ تحت سدوله الآثامُ**
تشدو على القيثار أنغام الأسى	**فتجيبك الأوجاع والآلام**
إذهبْ لكوخكَ فالسلام مجسَّم	**فيه وما في ذا الوجود سلام**
إذهب إليه فسوف تأتي ساعة	**فيها تعضُّ بنانها الظُّلاَّمُ**
اسهر على تقويض أركان الغنى	**واترك عيون الأغنياء تنام**
أرواحهم بالمال تحلم ـ طالما	**قد أزعجتهم هذه الأحلام**

مدهش هذا الحدس ـ إن لم نقل: الوعي ـ في رؤية أبي شبكة. تشديدٌ على الذهاب إلى الكوخ الأحمر، فمن خلال هذا الذهاب إلى الكوخ (= الثورة، الحزب، الاشتراكية. أو المعنى الناري الذي في قلب الشاعر؟..) سوف تأتي ساعة انهيار الظالمين. ذلك أنك تستطيع، هناك، أن تسهر على «تقويض **أركان الغنى**»... أي: أركان الرأسمال وتراكم الرأسمال، النظام الرأسمالي... وليس أشخاص الأغنياء، كأشخاص... دعهم ينامون... المهم: تقويض **نظام الغنى**، واقامة نظام العدالة، والسلام.

هل نحمِّل كلمات الشاعر أكثر مما تحمل؟... اعطوني تفسيراً آخر، معقولاً ورزيناً، ولكم جائزة قيِّمة: دواوين أبي شبكة كلها، وعدداً آخر من كتبه ومقالاته... لتتأكدوا من خلالها: أن الذهاب عمقاً معه يوصلكم، حتماً، إلى الثورة.

ثم.. هذا انذار تنبؤي يوجّهه الشاعر إلى جميع الجالسين في قمّة نظام الاستثمار الطبقي:

يا مَنْ طَلى بدمِ الفقير عروشه — وتراه يجلس فوقها يرتاحُ

هذي العروش جماجمٌ مرصوفة — في جوفها تتمرّد الأرواحُ

فالدعوة للذهاب إلى الكوخ الأحمر لا تعني دعوة إلى شرب فنجان قهوة!... بل تعني أنه لا بدّ لكَ، إذا أردتَ إقامة نظام العدالة ـ وبعد شرب فنجان القهوة ذاك ـ أن تذهب الى.. الثورة.

ملاحظة فنية: ألا ترى في هذين البيتين الأخيرين، وفي غيرهما كذلك، وفي بناء القصيدة ككل: أنَّ ملامح من الصور «الأبوشَبَكِيّة» الملحمية، بدأت تتكوّن؟ **ملاحظة ثانية:** هذه الأرواح التي تتمرّد، ألا تذكِّركم **بأرواح جبران المتمردة**. أقصد هذا المضمون الثوري لقصص جبران تلك (تقويض أركان نظام الغنى الاقطاعي كما في قصة «خليل الكافر» قائد ثورة الفلاحين المنتصرة) وليس فقط هذه الاستعارة اللفظية التي أعتقد أن أبا شبكة اختارها، هنا، بقصد وبوعي، على كل حال.

... حاملاً هذا التراث، وهذا الموقف ـ جاء الياس أبو شبكة إلى مهرجان أول أيار ١٩٢٥ في قاعة الكريستال. وها هو الآن يتوجّه إلى العمال، مخاطباً، بهم، عروس شعره:

أعروس شعري يا صدى قلبي الذي
حالت عبيد الظلم دون جهادِهِ
كوني شعاعاً في سراجِ صبابتي
فالناس عاملة على إخمادهِ
كوني حساماً لا يملّ غرابه
لتخلّصي المسجون من أصفادهِ
وامشي باعصاب الحقد واضرمي
نار السلام تدبّ في أحقادهِ
وتبسّمي لدمِ اذوِّبه على
قلمي الذي خلّدته بمدادهِ

ويفهم العمال عليه، فيحيُّون الشعر والشاعر بعواصف التصفيق. صاروا يعرفون شاعرهم، ومسيرته معهم. أما الشاعر، فهو يعرف الآن أن هؤلاء العمال الذين يواجههم، يختلفون، نوعياً، عن تجمُّعات العمال التي كان سابقاً يلتقي معها. ذلك أن الحزب قد تأسس. والحزب مدعو لأن يكون طليعة العمال، وطليعة الشعب. وأن الحزب هو الذي دعا إلى اقامة هذا المهرجان ونظّمه باسم «حزب الشعب اللبناني». ويعرف أن «الشبح الباكي» ـ باذر تلك البذور في «الصحافي التائه» ـ لم يعد ذلك الباكي، بل هو أحد قادة هذا الحزب وأحد مؤسسيه. (هل كان يعرف أن يوسف يزبك كان في تلك الفترة سكرتيراً للحزب الشيوعي اللبناني؟) لا نستطيع الجزم بهذا. فالتنظيم الشيوعي كان لا يزال سرياً. وما كان واضحاً له، وأكيد، أن يوسف يزبك واحد من قادة «حزب الشعب اللبناني»، وأن فؤاد الشمالي، المناضل الشيوعي المبعد عن مصر لنشاطه الشيوعي، هو الآن الأمين العام لـ «حزب الشعب اللبناني». وها هي الأعلام الحمراء أمامه، في صدر

القاعة، مكتوب عليها: «**حزب الشعب اللبناني ـ المركز الرئيسي**» ثم «**فليحيي العمال والفلاحون ـ وليحي أول أيار**» ـ فهو الآن أمام الحزب. والحزب بُعدٌ عن الشكوى والدموع. والحزب اقتحام. والحزب أكثر من أرواح متمرّدة. الحزب انطلاق باتجاه الثورة.

وتغيّر نوع العلاقة. كانت مع **العمال**، بشكل عام، فصارت مع **العمال وحزب هؤلاء العمال**، في تلك الفترة، «حزب الشعب اللبناني»، وعندما أعلن «الحزب الشيوعي اللبناني» عن وجوده صارت علاقة أبي شبكة **مع الحزب الشيوعي**، مع ما يمثله الحزب الشيوعي من **تطلّعات إلى العدالة والحرية والتقدم** عند أبي شبكة وعند كثيرين من رجال الفن والثقافة الذين رافقوا، بشكل أو بآخر، مسيرة هذا الحزب.

لا بأس أن نفتح الآن قوسين واسعين:

[فمنذ تكوّن الحزب، طالعاً من هذه الجذور المتشابكة كلها، متنامياً، متوسّعاً، متصاعداً مع حركة التاريخ، وصاعداً بها، نحو المستقبل. كان الكثير من المثقفين الوطنيين الديموقراطيين والثوريين يرافقون مسيرته هذه، بعضهم ينضوي تحت لوائه، وبعضهم يتبنّى الايديولوجية التي يحملها الحزب، يبشّر بها قولاً وعملاً، ولو بدون انتساب حزبي، وآخرون يتعاونون مع الحزب، بشكل أو بآخر، في صحافته، أو في المناسبات الثقافية والسياسية التي ينظّمها الحزب، فيغذّون صحافة الحزب ومنشوراته، ويتغذون بها. بعض هؤلاء صاروا من كبار رجال الثقافة العربية، وبعض هؤلاء الكبار كانوا قد بدأوا بنشر أعمالهم الهامة ـ التي صارت معالم بارزة في الثقافة العربية المعاصرة ـ في الصحف التي أصدرها الحزب وفي دور النشر التي أشرف الحزب عليها. ولعلّ مجموعات المجلات والجرائد والكتب التي صدرت بإشراف الحزب الشيوعي اللبناني تشكل الآن ـ بدون مبالغة ـ القسم المهم والعميق والغني في الثقافة العربية التقدمية الاشتراكية الحديثة، بالإضافة إلى كونها جزءاً هاماً وغنياً ومشرقاً في الثقافة العربية المعاصرة بشكل عام.

هذه ليست مبالغات إنسان تكوَّن في هذا الحزب، بل هو الواقع. لنجرّب أن نأخذ، كمثال تقريبي، بعض الوقائع، مشيرين، فقط، إلى أسماء بعض الكتاب والمثقفين اللبنانيين:

ـ مجموعة جريدة «**الإنسانية**» (الأسبوعية السياسية) التي أصدرها يوسف ابراهيم يزبك عام ١٩٢٥ (لتكون جريدة الحزب السياسية الفكرية) وأقفلتها سلطات الانتداب، في العام نفسه، بعد صدور خمسة أعداد منها فقط: هي أول محاولة عندنا للتعبير المنظم عن فكر الطبقة العاملة في بدايات تطلعات الاشتراكية.

□ مجموعة مجلة «**الدهور**» (الشهرية ـ الفكرية) التي أصدرها ابراهيم حداد خلال أعوام ١٩٣٠ ـ ١٩٣٤، ثم أخذ يحررها الأديب والمفكر الشيوعي **سليم خياطة**... والتقت على صفحاتها أسماء مضيئة وتأسيسية في الثقافة العربية الحديثة، منها: **أمين الريحاني، ميشال عفلق، رئيف خوري، جميل صدقي الزهّاوي، كرم ملحم كرم، محمود تيمور، يوسف ابراهيم يزبك، اسماعيل مظهر**، وغيرهم. كما صدر عن دار المجلة عدد من الكتب الطليعية ـ ولم تتحمّل سلطات الانتداب الفرنسي الاستعمارية الفكر التحرري لكتاب هذه المجلة، فاقفلتها أيضاً!

□ ومباشرة، بعد إقفال «الدهور»، عمد تيار الكتّاب التنويريين المتجمّعين حولها، إلى إصدار مجلة فكرية شهرية مماثلة، وبالتعاون مع الحزب الشيوعي، هي مجلة «الطليعة» التي صدرت بين أعوام ١٩٣٥ ـ ١٩٣٩. فكان **سليم خياطة** نفسه محرراً أساسياً فيها؛ وحملت أعدادها الأولى أسماء «لجنة التحرير» وهي مؤلفة من: **فؤاد الشايب، كامل عياد، صلاح الدين المحايري، ميشال عفلق** (الذي أسس فيما بعد: حزب البعث العربي) وشارك في التحرير **نقولا شاوي** (الذي تولّى فيما بعد الأمانة العامة للحزب الشيوعي اللبناني).. وكان واضحاً الاتجاه اليساري القومي العربي التحرري لهذه المجلة، وحملت أعدادها كتابات لطلائع الكتاب والمفكرين الماركسيين واليساريين والوطنيين التحررين الداعين، جميعهم، الى: تحرير البلاد العربية وتوحيدها وتجديد فكرها وبناء نظام عدالة اجتماعية فيها، كما حملت العديد العديد من الأعمال الابداعية لطلائع الكتاب والأدباء المجدّدين في الثقافة وفنون الأدب.

أقفلت سلطات الانتداب «أيضاً وأيضاً» مجلة «الطليعة» هذه، لنزوعها الوطني التحرري التقدمي المعادي، بطبيعته، للانتداب ولأي سيطرة أجنبية على البلاد العربية.

□ مجموعة «**صوت الشعب**» (جريدة سياسية يومية) صدرت خلال أعوام ١٩٣٧ ـ ١٩٤٧ بإشراف الحزب الشيوعي مباشرة، ورئيس تحريرها **نقولا شاوي**. فكانت صفحاتها مجال انطلاق للفكر الاشتراكي العلمي، نظرية وممارسة، والتقت على صفحاتها أقلام كبيرة في ثقافتنا العربية المعاصرة: **فرج الله الحلو، عمر فاخوري، رئيف خوري، يوسف يزبك**، وكثيرون غيرهم. (وقد واصلت «**الأخبار**» الأسبوعية مهمات «صوت الشعب» وخطها، عندما كانت بشكل جريدة، وفي شكلها المتطور الحالي (أي: عام ١٩٧٤) وكذلك سارت جريدة «**النداء**» اليومية في الخط نفسه).

□ مجموعات «**الطريق**» (أسبوعية سياسية ثقافية، ثم شهرية سياسية فكرية) أصدرها المفكر والمهندس **أنطون ثابت** ابتداء من ١٩٤١ بهيئة تحرير من: **عمر فاخوري، أنطون ثابت، رئيف خوري، كامل عياد، يوسف يزبك، قدري قلعجي**. فلعبت، بالفعل، دوراً كبيراً في نشر الفكر الاشتراكي العلمي في العالم العربي. كما أسهمت المجلة وكتابها في خوض معركة الاستقلال والتحرر من الانتداب، وتالياً، في معارك اكتساب الديموقراطية والدفاع عنها.. والتقى على صفحاتها كثيرون من أكبر رجال الثقافة العربية. ولا تزال تواصل خطّها في نشر الفكر الاشتراكي العلمي، وفي انتاج هذا الفكر.

ـ مجموعات «**الثقافة الوطنية**» (مجلة سياسية ثقافية اسبوعية، ثم شهرية سياسية فكرية، ثم أسبوعية سياسية نقابية، الآن) صدرت ابتداء من ١٩٥٢، يحررها **حسين مروة، ومحمد دكروب**. فكانت الصوت القوي للأدب العربي التقدمي الجديد خلال الخمسينيات خصوصاً، ومركز انطلاق لحركة التجديد في الشعر العربي لتلك المرحلة. بالإضافة إلى مواصلة مهمتها في نشر الفكر الاشتراكي العلمي، ودراسة تراث الثقافة العربية القديمة بضوء هذا الفكر العلمي. ومنها انطلقت أقلام شابة كثيرة صارت الآن علامات بارزة في الأدب العربي الحديث.

تضاف إلى هذا مئات الكتب، الموضوعة والمترجمة، التي أصدرتها دور نشر أشرف عليها الحزب، والتي لا مجال هنا للتفصيل في الحديث عنها، ولكنها تشكل إسهاماً كبيراً وأساسياً في ترسيخ الفكر الاشتراكي العلمي في بلادنا العربية.

أسماء الكتّاب العرب، والأجانب، الذين أسهموا بالكتابة في هذه الصحف والمطبوعات، تصل إلى عدة ألوف، بالتأكيد. على أنني أحب أن أشير هنا إلى بعض علامات بارزة (من لبنان) بليغة جداً، وأقول إنها مدهشة:

□ **أمين الريحاني**: كان على علاقة وثيقة بمجلات «الدهور» و «الطليعة» و «الطريق». نشر فيها مقالات هامة في الفكر والسياسة. ولم يكن هذا مصادفة، ذلك أن خط تفكيره كان في تصاعد مستمر نحو الاشتراكية. ولا ننسى أصول تفكيره الاشتراكي منذ تلك الورشة الفكرية التي تكوّنت في نيويورك منه ومن **نقولا حداد، وفرح أنطون، بالاضافة إلى ميخائيل نعيمة، وجبران خليل جبران.**

□ **مارون عبود**: صادقَ الحزب ورافق صحافته حتى آخر أيامه. أقاصيص مارون عبود هي من أهم ألوان القصص المستمدة من الريف عندنا. القسم الأكبر من هذه القصص، والتي صدرت في مجموعتي «وجوه وحكايات» و «أقزام جبابرة»، نشرها مارون عبود مُتتابعة في مجلة «الطريق» قبل أن يجمعها في كتب.

□ **رئيف خوري**: حرَّر ونشر في «الدهور» و «الطليعة» و «الطريق» و «صوت الشعب» و «الثقافة الوطنية» و «الأخبار» و «النداء» ـ نشر في هذه الصحف أهم ما كتب من دراسات ومقالات، في الأدب العربي القديم، والفكر النهضوي، وفي النقد، وفي الفكر الاشتراكي، وفي السياسة، وكذلك نشر شعراً كثيراً، وأقاصيص. عدا رفقته الطويلة للحزب كواحد من أبرز أصدقاء الحزب، الملتزمين بخطه، والمشاركين في مختلف معاركه على صعيد الثقافة وعلى صعيد العمل السياسي كذلك.

□ **ميخائيل نعيمة:** كان فتى عندما اشترك بحركة إضرابية في أحد معاهد روسيا حيث كان يتعلّم، وهذه الحركة كانت واحدة من تحرّكات الشعب الروسي خلال ثورة ١٩٠٥. وظلّت هذه الجمرة في أعماق ميخائيل نعيمة، تومض في كتاباته المتعددة عن روسيا، والاشتراكية، والاتحاد السوفياتي، والأدباء الروس والسوفيات ـ كتاباته هذه كان ينشرها في مجلات «الطريق» و «الثقافة الوطنية» و «الأخبار»، وكثيراً ما ساهم في المناسبات الثقافية التي تنظمها مؤسسات الحزب وصحفه... في هذه الكتابات بالذات، ـ وكذلك في «سبعون» و «أبعد من موسكو ومن واشنطن» ـ تتجلّى نزعة ميخائيل نعيمة الاشتراكية بوضوح قد لا تلمسه في أعماله ذات الطابع الفلسفي المثالي.

□ **سليم خياطة:** رئس تحرير «الدهور» فترة، وعمل محرراً أساسياً في «الطليعة» فترة كذلك. قصّاص، وروائي، ومجادل، وناقد أدبي، وكاتب سياسي، ومجدّد في هذا كله. موسوعي الثقافة والانتاج. شيوعي يصوغ فكره الماركسي، دائماً، بحرارة مدهشة. وكان واحداً من خالقي الأشكال، غير المتقيّدين بما هو جاهز... مظلوم من النقاد الرجعيين ومن النقاد التقدميين على السواء!.. وكلا الفريقين على خطأ أكيد. فلا بدّ من كشف كنوز هذا الأديب الكبير.

□ **توفيق يوسف عواد:** في «الدهور» كما في «الطليعة» كما في «الطريق»، ظهر العديد من قصصه التي صارت فيما بعد أساس مجموعاته «الصبي الأعرج» و «قميص الصوف». بالاضافة إلى المقالات المهمة في الأدب ورسالة الأديب التي كان ينشرها في هذه المجلات بالذات. وفي العدد الأول من جريدة الحزب اليومية «صوت الشعب» الصادر في ١٥ أيار ١٩٣٧ قصة لتوفيق يوسف عواد بعنوان: «الرفيقتان».

□ **جورج حنا:** صادقَ الحزب وأسهم في تحرير صحافته وشارك في معاركه السياسية منذ الأربعينيات. كتاباته التي قد تراها الآن مبسّطة، مارست تأثيراً كبيراً أكيداً في لبنان والعالم العربي من حيث أنها دفعت الكثيرين إلى التوجه نحو الاشتراكية، والعمل النضالي في صفوف الحركة الشيوعية. كتابه «أنا عائد من موسكو» كان رائداً

في كشف الحقيقة عن وطن الاشتراكية الأول، وفي تمزيق ذلك الستار الحديدي الذي أقامته الدعاية البورجوازية والاستعمارية، حول الاتحاد السوفياتي.

□ **عمر فاخوري**: «اكتشف» الحزب خلال الحرب العالمية الثانية، فاتجه نحوه باندفاع، وإيمان، وصلابة. ومن خلال المعارك التي خاضها الحزب، والمعارك التي شاركه فيها عمر، أي من خلال الممارسة اليومية أيام المحن، وأيام الانتصارات، رأى عمر، كما أعلن باعتزاز أن الحزب هو «آخر مدرسة تعلمتُ فيها سداد الفكر وصدق العمل»... أصول كتبه: «أديب في السوق» و «الحقيقة اللبنانية» و «لا هوادة» و «الاتحاد السوفياتي حجر الزاوية» منشورة كلها في صحافة الحزب «الطريق» و «صوت الشعب». ونستطيع القول إن تكليفات الحزب لعمر: أن يكتب، ويخطب، ويحاضر، كانت هي العامل المباشر في إبداع الأكثرية الساحقة من هذه المقطوعات الخالدة التي لا تزال تشكل أهم نماذج المقالة في الأدب السياسي ذي المستوى الفني الرفيع في الأدب العربي المعاصر.

.. هذه فقط بعض أمثلة، ملموسة وبارزة، لهذا **التأثير المتبادل** بين الحزب وعدد من أكبر وأهم رجال الثقافة عندنا. ومن خلالها نرى أن إعطاء أي تقييم علمي لمنجزات الثقافة العربية المعاصرة لا بدّ أن يأخذ باعتباره ما قدمته صحافة الحزب الشيوعي اللبناني ومنشورات دور النشر التي أشرف عليها، كأحد الأرصدة الأساسية في كنز هذه الثقافة.

وقبل أن نقفل القوسين الواسعين لا بدّ من الاشارة إلى واقع أن العدد الكبير من المفكرين والكتّاب والشعراء والفنانين اللبنانيين العاملين، خلال الستينيات والسبعينيات، في ساحة الانتاج والابداع، كانوا على صلة وثيقة بالحزب، البعض ينضوي تحت لوائه، البعض الآخر يتبنّى توجّهاته وايديولوجيته، البعض الثالث يتعاون معه ويكتب باستمرار لصحافته، ويلتزم بخطه السياسي، والجميع يغذّون صحافة الحزب ومنشوراته، ويتغذّون بها، ويرون في الحزب الآن أكثر مما كان يراه الياس أبو شبكة من تطلّعات إلى تحقيق العدالة والحرية والتقدم؛ إنهم يرون في الحزب (انطلاقاً من طروحاته الفكرية ومن مسيرته النضالية على مدى الخمسين عاماً منذ نشوئه عام ١٩٢٤): الأداة الأساسية والمحورية لتحقيق الاشتراكية في بلادنا، والورشة التي فيها، وبالتفاعل معها، ننتج فكرنا الاشتراكي العلمي. ونطوره.

نقفل القوسين الواسعين الآن، ونواصل مسيرتنا مع الياس أبو شبكة، ومسيرة أبي شبكة مع الحزب].

....

منذ أواخر العشرينيات وحتى بداية الأربعينيات، كان أبو شبكة قد ترسَّخ شعراً، فأقام عمارته الفنية الباهرة (التي لا بد لناقد أدبي ماركسي، عميق ومتذوق، أن يعيد تقييمها بالعمق الذي هي جديرة به)... وتطور فكره في مجال النظرية الأدبية خاصة. وكان قد التقى، على صعيد الصداقة والقرابة الفكرية، بكبارٍ كانوا هم أيضاً على علاقة وثيقة بالحزب: عمر فاخوري، ورئيف خوري، كما صار على علاقة بقادة الحزب: فرج الله الحلو ونقولا شاوي وأنطون تابت. وأقام علاقة حلوة وحميمة و «خوشبوشية» مع رفاق القاعدة في المنطقة حيث يسكن: ذوق مكايل وجوارها، ورفاق بلدات جونيه وصربا يروون عنه ذكريات حلوة وطريفة وعزيزة.

وفي حين كان بعض المتحذلقين يصرخون ـ يوم كانت الدنيا تتفجّر بأهوال الحرب وزحف القطعان الهتلرية لسحق الشعوب والحضارات ـ بأن «الفن للفن» وأن تدخُّل الأديب بمسألة مصير العالم يُفسد عليه أدبه!.. كان صوت أبي شبكة يتصاعد، مع أصوات عمر فاخوري ورئيف خوري وكبار آخرين، مدوّياً، وحاسماً، ومشحوناً بتجربة ابداعية مأساوية وعنيفة: «إن للأدب، أشعراً كان أم نثراً، رسالة إنسانية عظيمة منوطة بضمير الأديب، أشاعر كان أم ثائر...». ثم: «... والواقع أن من فضائل الأحداث الكبرى رفع الأديب إلى مستوى هذه الأحداث. ومن الخرق فصل الشاعر عن المجتمع، فهو ملتقى منازع البشر والتوتر الأعظم الذي تنقر عليه أحاسيس الناس ومطامحهم». ثم هو يتحدث عن شاعر فرنسي معجب بإبداعه، فيقول: «... إن نورانية هذا الشاعر أبت عليه إلا أن يسلك طريق الشعر الصحيح، فلم يفصل الفن عن الحياة»[١]...

---

(١) أبو شبكة: «روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة» ـ منشورات المكشوف، بيروت، ١٩٤٤.

□... صاعداً، على الطريق نفسها، ومشحوناً بغضب المظلومين، مطلقاً حممه بوجه الظالمين، ومؤمناً بأن الظلم سوف ينهار ـ أبدع أبو شبكة واحدة من قصائده الصدامية هذه. نشرها في مجلة «الطريق» ـ (العدد ١١: في ١٩٤٣/٧/١) ـ وكان هتلر في ذروة طغيانه، وجزمات قطعانه تدوس أنحاء أوروبا، ويبرز خطر وصولها إلى الشرق العربي. وكانت «الطريق» تصدر بوصفها «رسالة ثقافية تصدرها عصبة مكافحة النازية والفاشستية في سوريا ولبنان»... وكانت القصيدة بعنوان «الحر»، وهي صرخة حرّ باسل، شاعر، لسانه هو لسان الشعب، يجابه الطاغية، مطلَق طاغية، عندنا، وفي العالم. الشاعر يستجيب لنداء ماضيه يوم كان لسانه يعبِّر عن آمال الشعب، ويستجيب لنداء الحاضر، حيث الشعب يعاني طغيان الطاغي:

لبيكَ يا قلب، ماضٍ فيكَ ناداني
خبأتُ في عطره حبي وإيماني
أيام كان الهوى الغِرّيد يضحك بي،
ويرتمي مرح الدنيا بألحاني
وكان للناس آمالٌ محبَّرة
تفككت عن كلاليب وأرسان
فقد وهى الحكم أمرٌ لا مردّ له
هان القوي له، واستأسد الواني

وينطلق الشاعر بين الناس يشحن أرواح الناس بالتمرّد على السلطان، ويفجِّر فيها الثقة بالانتصار:

... وليس كالفأل في الآداب داعية
لهدي حيران، أو تنبيه وسنانِ

وكالخيال لسان يستفزّ به
شعب أبيّ، إلى تجديد بنيانِ
وكان ان البيان الحرّ في دمهِ
أشاع حقد اللظى في الحاكم الجاني
فقال: نهجكَ في ما تدّعي خطِرٌ
على الرعيّة، يحدوها لعصيانِ
أما سمعتَ صدور الشعب تهتف لي؟
فالشعب ملكي، والأيام أعواني!
فأغمد الحرّ في عينيه فوّهة
من ناظريه، كبركان ببركان
وقال: ملككَ ليس الشعب، يا ملكي،
فلستَ تملك إلا بعض عميان
كنْ من تشاء، كن الدنيا بكاملها،
فلستَ تعدل صديقاً بميزاني
جمال قلبي عريان على شفتي
ونور نفسي معقود بأجفاني
وكيف أكذب، والدنيا تصارحني
حتى قشوري، حتى جسمي الفاني

ثم هذا الوعيد إلى الطاغية:

خفف عتوّكَ واغسلْ قلبك الجاني
للظلم يومٌ وللمظلومِ يومانِ

عرشُ العتيّ على بركان منكره
شتيمة وضحت في قلب سكران

ثم هذا النذير:

أما سمعت هبوب الريح؟ ان له
صدى تزحف أشباح وأكفانِ
فدمدَم الحاكم الغضبان، وارتسمت
عليه أشباح غيلان وحيتانِ
وأصدرت نفسه ما في قذارتها (م)
الحمراء من شهوةٍ للأحمر القاني
وصاحَ: إن يكُ ذا حدّ لسانك بي
فلي لسان عليه الموت حدّان
فحملقَ الحرّ في العاتي، وقال له:
أقضي غداً أو أموت اليوم سيّانِ
فكل ما أبتغي أن لا تقاطعني!
دعني أكمل دفاعي أيها الجاني

□... وتستمر مسيرة الياس أبي شبكة مع الشعب، والطبقة العاملة... صديقاً للحزب، وصديقاً للاتحاد السوفياتي. فهذه الذكرى السابعة والعشرون لثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى، تأتي، عام ١٩٤٤، مضاءة بأنوار النصر ونيرانه. فقد طردت الشعوب السوفياتية قطعان النازية من جميع أراضي الاتحاد السوفياتي، وانتقل القتال إلى داخل الأراضي الألمانية، لدكّ معقل الطاغية النازي وتحطيم الآلة الحربية لاحتكارات الامبرياليين الألمان. ودعت «جمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي»، وكان يرئسها أديب

العربية الكبير عمر فاخوري، إلى مهرجان كبير، أقيم في قاعة **سينما روكسي**، احتفالاً بهذه الذكرى، وبالانتصار. وكان الياس أبو شبكة نفسه (وقد صار الآن: شاعراً كبيراً، بجدارة) من خطباء المهرجان.

(قاعة سينما روكسي، في الناحية الجنوبية/الشرقية لساحة الشهداء. وهي غير بعيدة عن قاعة الكريستال القائمة في الناحية الغربية للساحة نفسها.

■ الكريستال: أول أيار ١٩٢٥ ـ كان عُمرُ شاعرنا ٢٢ عاماً. وكان الحزب في خطوته الأولى. وكان عنوان قصيدته «العامل الثائر».

■ الروكسي: ٧ تشرين الثاني ١٩٤٤ ـ صار عُمْر شاعرنا ٤١ عاماً. الحزب نما. الجذور أطلعت جذعها، والجذع تفرّعت عنه أغصان وسواعد. وشاعرنا صار ملء العين والقلب والذاكرة على امتداد العالم العربي كله... وظلّ متابعاً مسيرته مع الشعب والعمال، صديقاً للحزب، وصديقاً للاتحاد السوفياتي. وكان عنوان قصيدته «الثورة العظمى»).

الطابع الملحمي في شعر الياس أبي شبكة يتجلّى هنا، يتفجّر، مندمجاً في ملحمة الثورة نفسها. وسوف نرى أن أبا شبكة هنا لا ينشد للثورة انطلاقاً، فقط، من اعجابه ببطولات الناس السوفيات الأسطورية خلال هذه الحرب الشاملة. بل هو ينشد للثورة نفسها، بوصفها، هي، أساس تلك البطولات، والانتصارات. ففي قصيدته هذه وعيٌ باهر بما فعلت الثورة، ونظام الثورة الاشتراكي، في أرواح الناس. وفيها رؤية عميقة لدور الفكر، الوعي، النظرية، داخل الأحداث التاريخية، وجعل هذه الأحداث تاريخية بالفعل، لا ركام كوارث:

هذي الروائع من ذاكَ اللظى خُلُقٌ
ما أضعف السيف حين الخُلق يُمتشقُ
ما في الحديد ولا في النار منتثرٌ
كلاهما في لهيب الحق يحترقُ

الله أكبر، كم في الفكر من شُعلٍ
حذار في ظلمهِ أن تبرق الحدق
معابر الفكرة الحمراء كيف نما
على ثراكِ شباباً ذلك العرق
سبع وعشرون لم يفجع بها أدب
ولم يخيِّم على فتيانها نزق
مشى الشباب بها طوعَ الضمير فما
في السلم باغٍ ولا في الحرب مرتزق

ويغوص الشاعر عمقاً، ليرى السرّ في هذا. ثم يحدد:

هذا الشباب رضاع الحق في دمهِ
فكيف يسلم من في عرقه رنقٌ
لم تبرح الثورة العظمى تراوده
ثدّيها الحمر في عينيه تندلق
مضى إلى المجد لم يشهد له مثل
ولم تُشقُّ لانسٍ مثله طُرُقُ
بطولة حارت الدنيا بروعتها
أسكرة هي في النيران أم شبقٌ؟

ويغوص الشاعر في العمق أكثر، ليأتي بجواب هذا السؤال. ويذهب بعيداً، إلى بدايات مسيرته مع العمال، وقد كانوا يُدعَون «صعاليك»، نقلاً عن تلك الترجمة العجيبة الأولى لشعار: «يا عمال العالم، اتحدوا!» فقد صار على أيدي أولئك المترجمين: «يا صعاليك العالم، اتحدوا!»... على أن الكلمة عند أبي شبكة والرواد الأوائل كانت تأخذ معناها

الفعلي الملموس، لا معناها القاموسي. وسوف ترى الآن أن هذه الكلمة تأخذ، في هذه القصيدة، كل المعنى البطولي، والمعاصر، لمنجزات، ومعجزات، الطبقة العاملة...

نعيد السؤال:

بطولة حارت الدنيا بروعتها
أسكرةٌ هي في النيران أم شبقُ؟

ـ هم الصعاليك، أقصى المستحيل لهم
فلو أقامَ بأحلاق الردى، مرقوا
في كل جبهة صعلوكٍ بدا مَلكٌ
وكل أمنية منه بدا شفق

وفي ذروة انتشاء الشاعر بهذا الانتصار الآتي من الثورة، وكما حمل بطل مكسيم غوركي ذات يوم قلبه المضيء بيده، يشقّ بنوره طريق الغابة المظلم أمام الجماهير ـ حمل الشاعر بشرى الانتصار هذه مندفعاً بها نحو لينين:

لينين، أحلامكَ الغرّاء قد صدقت
فانفضْ ترابك، يكفي ذلك الغرق
لم يبقَ من شرعة الدنيا سوى رمق
والمستردّون باقٍ منهمُ رمقُ
بوركتِ يا نهضة للشعب ثائرة
هذي الروائع من إيمانها عبقُ

إن البقاء على الايمان مرتكزٌ
الأقوياء مضوا والمؤمنون بقوا

(«الطريق»: ١٥/١١/١٩٤٤).

□.... **تقترب** الدنيا من الانتصار على موطن النازي. بطولات الناس السوفيات، التي «حارت الدنيا بروعتها»، في ستالينغراد، ثم في الاندفاع الهائل لدكّ معقل الوحش في برلين، هذه البطولات، تُلهم الشعوب المتشوّقة إلى الحرية. تثور عندنا معركة الاستقلال. الشيوعيون في طليعة المكافحين، في الشارع، وفي أعمال المؤتمر الوطني حيث كان فرج الله الحلو يمثّل الحزب الشيوعي اللبناني، ومصطفى العريس، الشيوعي، يمثّل الاتحاد العام لنقابات العمال. وفي مجرى معركة الاستقلال في الداخل، ومجرى الانتصارات على النازية في العالم، نجد الاتحاد السوفياتي معنا. ينتصر شعبنا في معركته. ينال لبنان استقلاله السياسي. ويكون الاتحاد السوفياتي أول دولة من دول أوروبا وأميركا تعترف باستقلال لبنان. وينتصر العالم في معركته ضد الوحش النازي. وتبدأ في لبنان معركة الاستيلاء على غنائم الدولة المستقلة، المناصب والمصالح. ويأتي عام ١٩٤٦ حاملاً في جوفه فجيعة كبرى للثقافة العربية، وللأدب المكافح، وللحزب الشيوعي:

ففي ٢٤ نيسان يغيب **عمر فاخوري** بعد مرضٍ شرس. وتسكن الفجيعة قلوب جميع رجال الثقافة والأدباء في هذا الوطن. فقد كانوا كلهم أصدقاء عمر فاخوري. وكانوا كلهم يحبونه. ومن هؤلاء رفيق عمره وصديقه الحميم الياس أبو شبكة. ويصوغ أبو شبكة، من فجيعته هذه، ومن معرفته لعمر فاخوري الإنسان، والمناضل، والمبدع، والرفيق الطليعي في حركة الأدب الكفاحي، وفي الكفاح السياسي ـ يصوغ عمارة شعرية فنية من أهم أعماله، فيها استيعاب مبدع لحركة التطور الروحي والفكري لعمر فاخوري خلال مسيرته الكفاحية، ومسيرته الداخلية المأساوية، وطريق اندماج مسيرته هذه بمسيرة الحزب.

القصيدة مبنية بحيث ترى فيها ذلك التناغم بين المأساة العامة للوطن، والمأساة الخاصة للأديب، وردود الفعل المتناقضة تجاه هذه المأساة وسط أدباء تختلف مواقعهم فتختلف مواقفهم. ثم استجابات عمر لما يطرحه العصر أمام الأديب الحقيقي، وانتصار عمر على مأساته الخاصة، وخوض المعركة مع الشعب، خلال الحرب الأولى، وبعدها،

وخلال الحرب الثانية، ومعركة الاستقلال، وبعدها. ونحن لا نرى الحركة التاريخية بشكل سردي، بل من خلال استجابات عمر، ونرى، من خلالها، تطور عمر الروحي. فلننتقل إلى القصيدة:

الحرب الأولى تنشر الجوع والخراب في البلاد. ولكن الوطنيين يأملون بأن الحرية آتية، بعد انهيار تركيا. ولكن الحرية لم تأتِ، بل جاء الانتداب الفرنسي. شاعت الخيبة وحسّ الفجيعة في الأرواح وفي الأدب. على امتداد مرحلة طويلة. هنا يأتي دور عمر فاخوري. هكذا يصوره أبو شبكة:

تلفَّتْ، لا نفس الكريم عزيزة
ولا خلقه باقٍ ولا القلب ممرغُ
وشاعت على الآداب أخبث ريبة
قبورٌ عليها قام عرس مقنَّع
فكشَّر عن ناب ضحوكٍ شعاعه
أمدّ من الهمّ الطويل وأوسع
وطافَ على المرضى وفي اليد مبضعٌ
وبئست يراعٌ ليس فيهن مبضع
فهذا أديب يأكل الذلّ نفسه
وذا أدبٌ رخو المفاصل مُصقعُ
وهذا حكيمٌ يزهق الروح ظلّه
وذي حكمة تعوي وتلك تجعجعُ
وهذا، رعاك الله، في الناس شاعر
أيملك في دنيا الكناري ضفدع؟
على جلده المخمور مليون رقعة
يسرحها في الناس والناس خُشَّعُ

وكانت «فصول» في مواشٍ مريضة
على «بابه المرصود» تُحصى وتُجمعُ

هذه الصور، لهذه الشكول ـ النماذج من «الأدباء» الذين شنّ عليهم عمر حرباً قاسية من السخرية والتهكم، استمدها أبو شبكة من مقالات عمر المجموعة في كتابي «الفصول الأربعة» و «الباب المرصود»، وكان عمر قد نشرها في أوائل الثلاثينيات. يضع فيها أسس مفاهيمه الجمالية للأدب وللفن عامة، ويوجّه سخرية حادة إلى الأدباء ـ المواشي، الذين يفرح المستعمر، غريب الدار، بوجودها داخل الدار:

يراها غريب الدار أثناء لهوهِ
فيزهى، ويلقاها القريب فيجزعُ
غريب له فينا أكفٌ وأرجلٌ
وهل يدعم البيتَ الجدارُ المزعزعُ!

على أن عمر ينطوي داخل ذاته في دوامة مأساوية بعد موت زوجته في حمَّى النفاس، وكان يعبدها وينتظر منها فرحة مجيء المولود... وصمت عمر سنوات مريرة، سوداء... ولكن:

وهبّت على الدنيا رياحٌ مريبة
فاصغى إليها ذاهلاً يتسمَّع
وأسكته عشراً عجافاً ذهوله
وما في الحمى إلا سكارى وهجَّعُ
وأجرى جحيم الغرب ناراً جديدة
على الأرض، فالدنيا خيالٌ مفجع

مسارح غيلانٍ عليها من الردى
روائع مما يملك الجنّ أروع
ونبّهه صوتٌ من الروح صارخ:
فتى النور ماذا أنتَ بالنورِ تصنع
أحين يُرى الطغيان في الأرض عائشاً
ينام الأديب الحق أو يتسكّعُ؟
فكشّرَ عن نابٍ ضحوكٍ كأنه
لظى جمرة من فحمة الليل تفرع
اذا كان للأطماعِ والظلم مدفعٌ
فللذوق والآداب والنور مدفعُ

فماذا فعل عمر فاخوري هنا؟. أبو شبكة يحدد هذا بوضوح: «سار وراء الحق»... وعمر فاخوري يؤكد هذا بقوله إنه في تلك الفترة «اكتشف» الحزب، وكان الحزب هو «آخر مدرسة تعلمتُ فيها سداد الفكر وصدق العمل»... ويصوّر أبو شبكة هنا الاندفاع الروحي الهائل، والثقة الأسطورية، عند عمر، في وقت كان يبدو أن الظلام النازي يعم العالم، ولا خلاص.

وسارَ وراء الحق والحق مزمعٌ
الى سفر في المغيب هيهات يرجع
ولم يثنه أن الرجاء بعوْدهِ
ضعيف، وأن الظلم قد يتربّع
فمن يكن الإيمان حياً بقلبه
تعافى ولو سادت ذئابٌ وأضبعُ

وكـانـت فـصـول «لا هـوادةً» عـنـدهـا
أجـلّ مـن الـفـن الـحـلال وأسـطـعُ
إذا سـلـكـت فـي الـكـبـريـاء تـواضـعـت
وإن سـلـكـت فـي الـخـانـعـين تـرفّـعـوا

وفي المعركة، تثور معركة الاستقلال.

وكان لنا في سحرةِ الفجرِ شعلة　　رقبنا بها الصبح الذي نتوقّعُ
حملنا إليها منذ عشرين حجة　　قرابين أرواحٍ من الحب تُرفع

وندخل عالم هذا الاستقلال... فإذا من كان يذلّ نفسه للمستعمرين، يسعى للاستيلاء على مغانم جديدة من العهد الجديد.

أيغنمها مَنْ في حناياه دخلة　　وفي قلبه حقدٌ وفي النفس مطمعُ
أيغنمها مَنْ كان يرذل عرضه　　ويعصر البانَ الغزاة ويرضعُ
إذا سئل التاريخ مَنْ مدّ نارها　　أينطقه إلا الأديب المضيّع؟

وتأتي الخاتمة الرائعة للقصيدة، حيث تندمج الفجيعة بالفرح، فكأنها مستمدة من النشيد العظيم في آخر سيمفونية بيتهوفن التاسعة. فالشاعر الذي فُجع بوفاة رفيقه، يرى آلاف الرفاق، يحوّلون الفجيعة بوفاة عمر إلى مهرجان انتصار لمبادئ عمر، فيجتاحه الفرح:

أخـي عـمـر الـثـاوي عـلـى الـحـب والـرضـى
لـقـد أوْرقَ الـحـلـم الـذي كـنـتَ تـزرعُ
كـتـابـكَ مـفـتـوحٌ ووجـهـكَ مـاثـلٌ
وقـبـركَ مـنـشـور الـنـدى مـتـضـوّع

ويـا وطـنـاً بـالـحـبِ نـكـسـوا أديـمـه

فـيـحـرمـنـا حـتـى رضـاه ويـمـنـع

«أكـذّب نـفـسـي عـنـكَ فـي كـل مـا أرى

وأُسـمـع أذنـي مـنـك مـا لـيـس تـسـمـع».

(«الطريق»: ١٩٤٦/٨/٢٠).

بعد عدة أشهر (في ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٧) يغيب عنا الياس أبو شبكة، يذهب إلى جوار رفيقه عمر فاخوري. وفي مسيرة الوداع الأخير، كان نقولا شاوي، رئيس الحزب الشيوعي، وكان أنطون تابت عضو اللجنة المركزية للحزب، وكان رفاق كثيرون... جاؤوا يحملون وفاء من الحزب والطبقة العاملة، اكليلاً على ضريح الشاعر الصادق، الوفي، الثائر، الذي وقف مع الشعب والطبقة العاملة منذ تفتّح وعيه على حركة الصراع، وحتى آخر أيام حياته.

....

توضيح أول: هذا السرد الطويل، لم يكن يهدف مطلقاً إلى دراسة في شعر الياس أبي شبكة، بل كل هدفه وطموحه كان: إلقاء ضوء على **موقف** الشاعر مع الطبقة العاملة، وحزبها، من خلال عدد من قصائده وضعها على مدى فترات تمتد منذ أوائل العشرينيات وحتى آخر أيامه ـ هذه (القصائد ـ الموقف) التي أهملها النقد التقليدي البورجوازي عندنا، وهذا مفهوم، أهملتها كذلك حركة النقد التقدمي من ضمن الظاهرات الكثيرة التي أهملتها، وكان من المفروض أن تدرسها..

توضيح ثانٍ (للتطمين): نعلن لكل من يهمه الأمر، ولكل من يخشى على سمعة الياس أبي شبكة العقائدية أن تسوء لدى دوائر الأمن العام وغيرها عندنا، بإلصاق تهمة الشيوعية بالشاعر، المولود في الولايات المتحدة عام ١٩٠٣، والذي نشأ وعاش ونظم

الشعر ومات في قرية ذوق مكايل بمنطقة كسروان في لبنان، وحرصاً على راحة نفس الشاعر من كل ما هو محتمل بصدد «الموصومين» بهذه التهمة، من مطاردات وملاحقات وقبض وسجن أحياناً، أو منع نشر أو مراقبة أو خلافه... نعلن: أن الياس أبو شبكة لم يكن شيوعياً منتسباً، ما دخل الحزب وما فكّر أن يدخل الحزب. بل أكثر من هذا: فهو لم يصبح ولا حتى ماركسياً بالتفكير، بل الملاحظ أنه ظلّ مأخوذاً بمُثُلِ الثورة الفرنسية في بكارتها الأولى، وعبَّر عن هذا في الكثير من كتاباته... وكل ما في الأمر أن الشاعر المذكور، لأنه فنان حقيقي، ولأنه وطني متحرر العقل والروح، ولأنه ديموقراطي، ولأنه ضد الظلم، وضد سيطرة الأجنبي على بلادنا، ولأنه يحلم بأن تسود في بلادنا الحرية والعدالة، ولو عن طريق الاشتراكية... حدث أنه خلال فترة من الزمن، امتدت من بداية العشرينيات وحتى وفاته، وقف إلى جانب مطالب العمال ومطامحهم، والتقى وتعاون، كأي ديموقراطي متحرر آخر، مع جماعة الشيوعيين الذين لم يجد في مطامحهم ما يتناقض مع مطامحه لبلاده، دون أن يدخل في عداد الأعضاء العاملين، المسجَّلين رسمياً، في حزبهم الشيوعي - لهذا، ولأسباب أخرى، ولأن عدداً من النقاد العقلاء الرزينين، يهمّهم جداً رفع مثل هذه التهم عن أبي شبكة، ورئيف خوري، وعمر فاخوري، وغيرهم، خشية عليهم! - ورفعاً لأي احتمال من أن تُلصق هذه التهمة نفسها بهؤلاء النقاد العقلاء الرزينين أنفسهم - فيلاحَقون ويطارَدون... و... و... نعطي هذه الشهادة: الياس أبو شبكة لم يكن شيوعياً في الحزب. رغم أن الشيوعيين، في هذا البلد، يعتزون به وبكل ما أضافه من جديد ومتقدم وثوري إلى التراث الحي في الثقافة العربية المعاصرة - انتهى **التوضيح**، وليطمئن الخائفون!

على أن هذا التوضيح لا يتناقض مع رغبتنا في أن نسرد هذه الحادثة التي رواها لنا شيوعيون من منطقة الشاعر:

الفصل الأول: ذات شهر من عام ١٩٤٥، جاء بعض الشباب إلى بيت الياس أبو شبكة يشكون الحكومة!.. «شو القضية؟» - «لم يسمحوا لنا بفتحِ نادٍ ثقافي رياضي اجتماعي بصربا!» - «لماذا؟» - «يقولون إن بين الشباب عدداً من الشيوعيين!» - «عجيب!.. يجب أن يسمحوا بالنادي خصوصاً لأن بين شبابه شيوعيين.. ولو! الشيوعيون عندهم معرفة وعلم، وبيفكّروا».

الفصل الثاني: (بعد أيام) فرج الله الحلو، رئيس الحزب الشيوعي، يقول لأحد شيوعيي صربا: «أمس سمعتُ حديثاً جيداً في الراديو لالياس أبو شبكة، يشير فيه إلى ضرورة اعطاء اجازة لناديكم ولغيره من النوادي الثقافية» ـ كان أبو شبكة، في تلك الفترة، يكتب أحاديث للإذاعة اللبنانية. وكان هذا الحديث بالذات بعنوان «بين المبدأ والواقع».

الفصل الثالث:... وكان رياض الصلح رئيساً للوزارة، فاستدعى الياس أبا شبكة إلى مكتبه... «شو القضية؟» ـ «هيك... زي ما سْمِعت يا دولة الرئيس...»... «بس؟» ـ «بيقولوا أن بين الشباب شيوعيين... طيب الشيوعيين مش لبنانيين؟... الشيوعيين بيفكّروا... وانت بتعرف»... ـ «ولو يا الياس... كبَّرت المسألة أكثر مما هي... القضية قضية روتين... والإجازة صدرت... ويمكن بعد ما وصلت للشباب»!.

ـ **استنتاج:** رياض الصلح ليس داهية فقط، بل هو أيضاً يعرف الشيوعيين جيداً... عرفهم عندما تعاون معهم في معركة انتخابية مشتركة عام ١٩٣٧. وعرفهم أيام معركة الاستقلال، داخل المؤتمر الوطني، وفي الشارع حيث تصدوا للفرنسيين ـ فعرف جيداً أي معدن شريف، وصلب، وصادق، هو معدن هؤلاء الشيوعيين.

... وكانت الطلائع الأولى، لعناصر هذا المعدن الصلب والشريف، التي التقت في مهرجان أول أيار عام ١٩٢٥ في قاعة الكريستال، وتفجرت بعواصف التصفيق للشاعر الشاب الياس أبو شبكة، قد حدست، ربما، منذ ذلك العام، بأن هذا الشاعر الشاب سيواصل مسيرته مع الطبقة العاملة... فهو قد هاجم الحكام وهاجم الزاحفين على أعتاب الحكام، في وقت كانت بوادر حملات قمعٍ جديدة تظهر من خلال قوانين لتقييد الصحف وتقييد الناس، وهو قد هاجم «الشعراء» الكذبة، المزيّفين، الذين يكتبون ما أملاه عليهم غيرهم:

أعروس شعري في بلادي نزوة ... سلبتْ من المفئود عذب رقادهِ
لبنان يرضى شوكه تاجاً له ... ويذيب نقمته على أوراده

كم في ربى لبنان من متشاعر ... نامي الفساد، مُفاخرٍ بفساده

يملي الذي أملاه غير يراعهِ ... ويقول ذا شعري ووحي رشاده

أيعيش في الماضي ويترك غيره ... يبني الجديد على رسوم بلاده

ويفاخرون به لأن نسيجه ... كنسيجهم ومرادهم كمراده

فهم الذين يقدّسون قديمهم ... لا يتركون الرثّ من أبراده

لا يفتأون يرددون بجهلهم ... ما تنقل الآذان من ترداده

(«زحلة الفتاة»: السبت ٢/ أيار/ ١٩٢٥)

... هذا المسار المدهش، لهذا الشاعر المدهش، يطرح أمامنا سؤالاً جدياً: **هل يمكن فهم طابع الثورة والغضب في رومنتيكية أبي شبكة، وفهم أساسها الاجتماعي والخاص في حركة تكوّن الشاعر، بدون معرفة هذا المسار، العمالي واليساري، في شعر أبي شبكة وحياته؟.**

أتخيل أبا شبكة الآن يقرع ضمائرنا النقدية بكلتا يديه صارخاً فينا بغضبٍ وكبرياء:

أنا... الياس أبو شبكة!. إكشفوا جوانبي كلها، في شعري وفي حياتي: رومنتيكي، دفع الرومنتيكية العربية بعيداً، طوّرها وتصاعد بها إلى حيث تفرّعت إلى مختلف مسارات الشعر العربي الحديث... ثائر، في الشعر وفي الحياة... عاشق وعاشق وملوّع بعشق المرأة حتى أدق الشعيرات في عظامي... وأعشقُ العدالة وأعشق الحرية... ووقفتُ، دائماً، مع المظلوم ضد الظالم... ودائماً كنتُ مع الطبقة العاملة.. وكنتُ صديقاً للشيوعيين - فاكشفوا جوانبي كلها، يا نقّاد بلادي...

... فهل يفعلون؟..

هارب من «حزب العمال» الرأسمالي! ... فهل تقبلوني؟

في البيان الاعلامي الذي نشره «حزب الشعب اللبناني» في الصحف حول مهرجان الكريستال، كلمات قليلة عن خطاب **حنا أبي راشد**، صاحب جريدة «النادي»:

ـ «... ثم تحدث الرفيق حنا أبي راشد عن وجوب تأليف نقابات العمال من العمال أنفسهم، وأن تكون مُدارة بعمال منهم أيضاً».

ولم أعثر في أي مرجع آخر لديّ، على أية اشارة إلى محتويات هذا الخطاب!.. ولكن التلخيص الذي أعطاه بيان «حزب الشعب اللبناني» يكفي تماماً، فهو، بالتأكيد، جوهر خطاب أبي راشد، وهو ما كان متوقّعاً بالضبط أن يقوله، سواء كان هو يؤمن فعلاً بهذا القول أم لا. وهذا الشعار، الذي أعلن أبو راشد أنه معه، كان المحور الأساسي للمناقشات والصراعات التي كانت تدور ـ تلك الأيام ـ في ساحة المعركة النقابية. وإن تبنِّي أبي راشد بالذات هذا الشعار يشكّل إحدى الظاهرات الهامة الدالَّة على أن كفة ميزان المعركة أخذت تميل نحو واحدٍ من المفهومَيْن المتصارعين داخل الحركة النقابية، في تلك الفترة، وهما:

ـ أن تضم النقابة: العمال وأصحاب العمل، معاً (وهو المفهوم الذي كان سائداً).

ـ أن تضم النقابة العمال فقط (وهو المفهوم الجديد، الصاعد من خلال المعركة).

ولكن لماذا يتخذ موقف حنا أبي راشد، هنا، هذا المعنى؟

ـ لأن حنا أبو راشد هو صاحب ورئيس تحرير جريدة «النادي» اليومية التي كان «يصدرها مؤسسو حزب العمال العام وهي لسان حاله الرسمي» (حسب ما هو مكتوب تحت اسم جريدته نفسها).

و «حزب العمال» هذا، هو حزب أوجده المستعمرون الفرنسيون، وقادتُه، كلهم، من الرأسماليين، والأمراء، وأبناء البيوتات الاقطاعية... وقد تركه حنا أبو راشد ـ لأسباب قد لا يكون أساسها الخلاف حول مفهوم النقابة! ـ وأخذ يكشف فضائحه... ثم جاء إلى «حزب الشعب اللبناني» يجرّب حظه، فأضاف قادة الحزب اسمه إلى خطباء مهرجان أيار، كجزء من المعركة ضد «حزب العمال» الرأسمالي، ولضرب مفهوم تكوين النقابات من العمال وأرباب العمل، بلسان واحدٍ كانت جريدته هي الناطقة الرسمية والمبشرة دائماً بهذا «المفهوم»!.

والمعركة ضد هذا «الحزب العمالي» كانت، بشكل واضح ومباشر، معركة ضد سلطات الانتداب ـ فما هي حكاية حزب العمال الرأسمالي هذا؟

....

الواقع: أن «حزب العمال» الانتدابي هذا قد أوجده الانتدابيون قبل اعلان الانتداب!!. ففي ١٥ حزيران ١٩١٩ تأسس في بيروت اتحاد باسم «اتحاد العمال العام» يضم عدداً من النقابات (الجمعيات) الموجودة في ذلك الوقت والتي تضم العمال وأصحاب العمل معاً. وبعد أقل من شهر بدأ هذا الاتحاد ينفّذ المهمات الموكولة إليه: ففي تموز من العام نفسه اجتمع وفد من قادته بلجنة «كراين»[1] الأميركية، وطالب ـ باسم العمال!! ـ أن يوضع لبنان تحت الانتداب الفرنسي!. وبعد أن سيطر الفرنسيون، وجزّأوا البلاد السورية، وضمّوا إلى جبل لبنان الأقضية الأربعة، فصار لبنان كبيراً... تحول «اتحاد العمال العام»، هذا، انسجاماً مع الوضع الجديد، فصار اسمه، ابتداء من أول أيار ١٩٢١: «حزب العمال العام في لبنان الكبير»!.. أما أسلوبه في «الكفاح»، فهو حسب قانونه الأساسي: تحسين ظروف العمال بواسطة التعاون بين العمال وأرباب العمل، وبين

(١) «لجنة كراين» لجنة أرسلها الرئيس الاميركي ولسن، عام ١٩١٩، إلى لبنان وسوريا وفلسطين لاستفتاء أهل البلاد حول: «إنتداب أية دولة يريدون؟ فرنسا أم بريطانيا أم... أميركا؟» ـ وكان الهدف: الضغط على مؤتمر الصلح في باريس من أجل ايجاد منفذ حرّ لأميركا إلى الشرق الأوسط، وهكذا كان!

الحزب والحكومة، على أن تقدم مطالب العمال إلى الحكومة بالطرق السلمية... ويمكن لأرباب العمل والعمال الانتساب إلى هذا الحزب... «لأن لهم مصلحة واحدة»!!..

ولهذا «الحزب»، أيضاً، «برنامج سياسي» واضح المعالم، والغايات. وهذه هي بنوده: «ـ ١: الدفاع على عَلَم لبنان المؤلَّف من الألوان الفرنسية مع الارزة اللبنانية. ـ ٢: الدفاع عن السيادة الفرنسية على سوريا. (المقصود عادة بكلمة «سوريا»، في تلك الفترة: سوريا، ولبنان، وأحياناً فلسطين). ـ ٣: إقامة علاقات اقتصادية وتجارية وعلاقة صداقة بين دولة لبنان الكبير وسائر أجزاء سوريا وفرنسا. ـ ٤: مساعدة الصناعة. تأييد العمال. تنظيم ظروف العمل. إقامة العمل على أسس أخلاقية. الوحدة بين العمال والرأسماليين. ـ ٥: العمل المشترك مع الحكومة، والسعي السلمي لتحقيق رغبات العمال وتحسين شروط الحياة الأخلاقية والاقتصادية للعمال. ـ ٦: الاهتمام باللغتين العربية والفرنسية»... ثم، خشية من أي التباس، وحتى لا يبقى أي شك، عند من يهمه الأمر، بمدى خدمة هذا الحزب للمستعمرين الغربيين وللرأسماليين، فقد أكد أصحابه، في المادة الثانية من «دستوره»، أن «لكل عامل أو رأسمالي، سوري أو أفرنسي، الانتساب إلى حزب العمال»!! وحرصاً على «مبادئ» الحزب هذه، وعلى استمرار أساليبه في «الكفاح»، يجب أن تكون قيادة الحزب وهيئاته المسؤولة في أيدٍ أمينة!.. فاتخذت التدابير الكفيلة بذلك، حاضراً ومستقبلاً... فنصّ النظام الداخلي للحزب على أن يكون رسم الاشتراك للأشخاص العاملين: خمس ليرات (وهو مبلغ هائل في تلك الفترة) وللأعضاء المؤسسين المؤهّلين لعضوية اللجنة التنفيذية ١٥ ليرة... وهكذا كانت اللجان التنفيذية «للحزب» تتألف، باستمرار، من الموثوق بهم، عادة، وبمكانتهم الاجتماعية (اقرأ: الطبقية ـ المالية).... وهكذا، مثلاً، ضم مجلس الحزب «المنتخب» عام ١٩٢٥: خمسة من كبار ملاكي الأراضي.. خمسة من التجار الأغنياء.. خمسة من أصحاب دور النشر... بعض مالكي ورشات النجارة... صناعيين. محامين... أطباء. وللحزب عدة رؤساء، من كبار القوم: رئيس فخري، هو الثري شارل بك سرسق.. ورئيس فخري آخر، شبه فعلي، هو الثري أنيس بك الهاني... ورئيس فعلي ـ هكذا يقول هو عن نفسه... ـ[١] هو الثري الثالث، ونائب مدير المصارف في لبنان الكبير، ابراهيم بك الأسود... وسكرتير عام هو

---

(١) ابراهيم بك الأسود: يقول هو في كتابه «تنوير الأذهان في تاريخ لبنان» صفحة ٣٤٥، «... من جملة أعمالي =

الدكتور الياس بعقليني. وفي مجلس ادارته عدة وجهاء، يطمحون أن يصيروا رؤساء، منهم: سليم باز، محمود حماده، خليل باخوس، الياس الحنيكاتي الخ... وهذا ما جعل اسكندر الرياشي يصف هذا الحزب، ساخراً، بأنه «حزب لا وجود فيه لغير الرؤساء...»[1]...

ولكن الواقع: أن نفوذ هذا الحزب «العمالي» كان واسعاً بالنسبة لواقع الحركة العمالية في تلك السنوات. ذلك أن هذه الحركة لم تكن عرفت، بعد، الشكل الحديث للتنظيم النقابي، فكانت «النقابة» لا تزال تجمع «أبناء المهنة» من عمال ونظّار وأصحاب عمل، ولا تزال العلاقات تقوم على أساس النفوذ الفردي، لهذا الوجيه أو ذاك، ولا يزال شكل النفوذ الاقطاعي، وشبه القبلي، يسود هذه التجمّعات العمالية حيث كان أكثرية «العمال» مرتبطين بالريف ومشدودين إلى ارتباطاتهم الفلاحية والبورجوازية الصغيرة والحرفية ـ وجاء هذا الحزب القائل بأنه «حزب للعمال» يجمع بين البريق الجديد (حزب عمال) والنفوذ التقليدي لرؤسائه الأغنياء أبناء البيوتات الاقطاعية... وهكذا أُتيح لنفوذ هذا «الحزب» أن يمتد إلى عمال من مهن عديدة: الطباعة. الطباخين. النجارة. الحلاقين. تجار بيروت. شركة حصر التبغ والتنباك. بحارة الزوارق. المصلحة المشتركة لمستخدمي وعمال خطوط حديد دمشق حماة وتمديداتها. موظفي الترامواي. سائقي عربات الخيل والسيارات. صناعة الأحذية. موسيقيين. معلمين.... ووصل عدد المنتسبين إلى الحزب ٢١٠٠ عضو. وعدد الأعضاء المؤسسين ٥٠. وللحزب جريدة يومية هي «النادي» لصاحبها، و «صاحبنا»، حنا أبو راشد[2]. وانخدع بهذا «الحزب» عدد من

= بعد الاحتلال انني خدمت حزب العمال في بيروت بضع سنوات بصفتي رئيساً عاملاً له، وكان رئيسه الفخري انيس بك الهاني...» ـ الكتاب في ٤ مجلدات صدرت بين أعوام ١٩٢٥ ـ ١٩٣٥.

(١) «الصحافي التائه»: مقال بعنوان «جريدة الوطن، والعمال، وأنيس الهاني» ـ العدد ٤٩، في ٢٨ آذار ١٩٢٣.

(٢) بصدد المعلومات عن هذا الحزب، راجع: جاك كولان في «الحركة النقابية في لبنان». ود. مسعود ضاهر في «تاريخ لبنان الاجتماعي». ود. عبدالله حنا في «الحركة العمالية في سوريا ولبنان». وفؤاد الشمالي في «نقابات العمال» و «أساس الحركات الشيوعية في البلاد السورية ـ اللبنانية». أما بنود «البرنامج السياسي» لهذا الحزب فهي مأخوذة من مقال هام مفصّل نشرته مجلة «الأممية النقابية الحمراء» في عددها رقم ٤ الصادر في ١٥ نيسان ١٩٢٥، صفحة ٢٤٠. وهذا المقال المفصّل عن «حزب العمال» والحركة العمالية في لبنان، يدل على أن صلة أكيدة كانت قائمة منذ تلك السنوات، بين الطلائع الثورية للحركة العمالية في لبنان وبين «الأممية النقابية الحمراء» المرتبطة بالأممية الشيوعية ـ وقد ترجم هذا المقال إلى العربية عن هذه المجلة الدكتور عبدالله حنا في كتابه «الحركة العمالية..».

الليبراليين، حتى أن يوسف يزبك نفسه ـ إذا صحّت رواية صديقه فؤاد حبيش ـ قد انخدع بهذا الحزب في بداية الاحتلال الفرنسي: «ففي ادارة جريدة (البرق) تعرَّف إلى حنا أبي راشد الذي كان يصدر جريدة (النادي) لسان حال العمال... فكلفه انشاءها. فكتب يوسف يزبك مقاله الأول فيها مدافعاً عن الأمير سعيد الجزائري... فاعتبره المارشال (اللنبي) مهيناً لجيوش الاحتلال. فعطل الجريدة...»(١)... ـ (طبعاً: التعطيل كان مؤقتاً، ربما للتخلّص من المشاغب الشاب يوسف ابراهيم يزبك!).

لماذا أوجد المستعمرون الفرنسيون هذا الحزب ودعموه؟

الهدف الأساسي، بالطبع، قَطْع الطريق على الحركة العمالية، واحتواؤها، وبالتالي توظيفها لصالح الانتداب ولصالح عملائه وركائزه في البلاد... قبل أن تتجه هذه الحركة في طريق تطورها الطبيعي، وهذا ما تخافه السلطات الفرنسية ـ بالذات ـ حتى الرعب... فالصنَّاع في البلاد السورية ـ كما يقول المستشرق الفرنسي المعروف لويس ماسينيون ـ استهوتهم، في تلك الفترة، الفكرة النقابية «التي لم يكن بإمكان الدولة المنتدبة تشجيعها، في المشرق، من غير تخوّف... لأن الفكرة النقابية كانت تتخذ في فرنسا دور طليعة الشيوعية».. ثم يقول ماسينيون إنَّ هذه الفكرة (النقابية) أصبحت فيما بعد سلاحاً في يد الفئات الوطنية ضد الانتداب(٢) ـ وهذا صحيح، وهذا ما كانت تتخوّف منه سلطات الانتداب الوافدة جديداً على البلاد.

وتحدث أحد منشورات الأممية الشيوعية عن المهمة التي وضعها المستعمرون الفرنسيون لهذا «الحزب»، فقال: «... لقد ظهرت النقابات في سوريا (ولبنان) بعد الحرب (الأولى) مباشرة. ورغبة من الفرنسيين بالسيطرة على تلك الحركة، أنشأوا عام ١٩٢١ «حزب العمال العام في لبنان» كانت مهمته الأساسية: إنشاء نقابات ينتسب إليها في الوقت نفسه، العمال والمقاولون وأرباب العمل. هذا الحزب «العمالي» الذي وُضع تحت رعاية أضخم بنكيير في بيروت، أصدر جريدته الناطقة بلسانه...»(٣).

---

(١) فؤاد حبيش: «يوسف يزبك منشئ جريدة السيّار» ـ «المعرض»، العدد ٩٥٣، في ٧ حزيران ١٩٣١ ـ صفحة ٦ و٧.

(٢) لويس ماسينيون: «بنية العمل في الشام عام ١٩٢٧»، دراسة في مجلة «منشورات علم الاجتماع الدولية»، المجلد ١٥ سنة ١٩٥٣، صفحة ٣٤ و٥٢ ـ نقلاً عن كولان في «الحركة النقابية في لبنان».

(٣) عن كتاب أصدرته «الأممية الشيوعية» (الثالثة) عام ١٩٢٨ بعنوان: «من المؤتمر الرابع إلى المؤتمر السادس» فيه عرض لتطور الحركة الثورية في مختلف البلدان. وهذه الفقرة مأخوذة عن الفصل الخاص بسوريا ولبنان ـ الصفحات ٥٢٥ ـ ٥٢٩.

... «... وسادت في هذه الفترة الحركة الشيوعية الاصلاحية ذات الطابع المهني التي افتقرت إلى وضوح النظرة الطبقية ـ كما جاء، لاحقاً، في «برنامج للحزب الشيوعي اللبناني» ـ وعمل الانتداب لزرع البذور الاصلاحية وتغذيتها في الحركة العمالية، بالإبقاء على الجمعيات التي كانت تجمع بين العمال وأرباب العمل تقليدياً، زاعماً أنها الإطار التنظيمي الأنسب الملائم (لمناخ الشرق الاجتماعي). ولتحقيق هذه الغاية أوجد الانتداب (حزب العمال العام) الاصلاحي...»[١].

بالإضافة إلى هذه المهمات التي وُضعت «لحزب العمال ـ الرأسمالي» على صعيد الحركة النقابية، فقد عمل المسيطرون عليه لاستخدامه على صعيد النفوذ السياسي وكسلاح انتخابي أيضاً. على أن الفرنسيين أوجدوا هذا الحزب، بوصفه، من ناحية ثانية، جزءاً من **المرتكزات المحلية** التي يستند إليها نظام الانتداب الاستعماري الجديد ـ فيربط مصالح (الأشخاص ـ المفاتيح) بالمصالح الاقتصادية ـ السياسية للرأسمالية الفرنسية.

ففي كانون الأول ١٩٢٠، مثلاً، تأسس حزب آخر باسم «حزب الترقّي اللبناني» خاص بكبار الماليين والتجار اللبنانيين المرتبطين بالمؤسسات الفرنسية. والغريب (وهذا غير غريب!) أن برنامج حزب الرأسماليين الكومبرادور هذا لا يختلف عن برنامج «حزب العمال» ذاك!. ويتركز برنامجه بثلاث نقاط فقط، ولكنها كافية جداً، وبليغة جداً، وهي: «١ ـ حماية الاستقلال السياسي للبنان بمساعدة الانتداب الفرنسي. ـ ٢: الدفاع عن حرية الأديان في لبنان. ـ ٣: تحديد النسبة التمثيلية في الانتخابات النيابية حسب المرسوم الذي يصدر عن ادارة الانتداب»!. أما شعار هذا الحزب فهو، بالطبع، «صداقة دائمة بين لبنان وفرنسا»!.. وهذه هي اللجنة التنفيذية لحزب الكومبرادور ورجال المصارف هذا: المركيز جان دو فريج (رئيساً) نعوم باخوس (نائباً للرئيس) اميل اده (أميناً للسر ـ رئيس جمهورية فيما بعد) أميل قشوع، مدير بنك سوريا ولبنان (أميناً للصندوق). ومن أبرز أعضاء الحزب: المصرفي ميشال شيحا (المنظّر الأساسي للبورجوازية الكومبرادورية الكبيرة المرتبطة بالرأسمال الفرنسي). المحامي بشارة خليل

---

(١) عن كتاب «نضال الحزب الشيوعي اللبناني، من خلال وثائقه» ـ الجزء الأول. وهو يضم وثائق المؤتمر الثاني، التاريخي، للحزب الشيوعي اللبناني، المنعقد في تموز ١٩٦٨. ومن هذه الوثائق «برنامج الحزب الشيوعي اللبناني» الذي أقره المؤتمر ـ منشورات الحزب، ١٩٧١ ـ صفحة ٦٥.

الخوري (رئيس جمهورية فيما بعد) المحامي ألفرد نقاش (رئيس جمهورية فيما بعد). والمليونير الكبير، وكيل العديد من الشركات الفرنسية، التاجر والشاعر شارل قرم (صاحب ديوان «الجبل الملهم» الصادر بالفرنسية. وفيه يمجّد حركة التجارة الفينيقية التي يستمد منها اللبناني المعاصر نزعته التجارية الغريزية... الخ... واجداً، بهذا، الشكل الايديولوجي ـ التاريخي للبورجوازية التجارية في لبنان. وفي ديوانه، كذلك، يمجّد فرنسا، والجنرال غورو بأبيات من الشعر الحضاري، هذا نموذج منه: «قال لي النحات: /هذه فينوس ميلو!/ هذا انتصار ساموتراس!/ هذا الجنرال غورو!» صفحة ٢٠...)[١].

وفي هذه الفترة نفسها (نيسان ـ أيار ١٩٢١) أقيم في بيروت «السوق ـ المعرض» ـ في المكان الذي صار يُعرف باسم «المعرض» منذ ذلك التاريخ ـ حيث قدّم ألف عارض فرنسي منتوجاتهم. وما يهم موضوعنا، من خبر هذا المعرض، أن الفرنسيين ربطوا به، ومن خلاله، عدداً من التجار ورجال المال المحليين الذين أخذت مصالحهم الاقتصادية والسياسية تتوطّد بتوطد وجود الفرنسيين، شركات و... انتداباً!.. فقد شكل الفرنسيون لجنة تنظيمية عامة للمعرض فيها الماليون اللبنانيون السادة: عبدالله بيهم، ن. شويري، عمر بك الداعوق، الماركيز دي فريج، هنري مشاقة، الفرد بك سرسق... وشكّلوا لجنة تحكيمية فيها: أمين بيهم، درويش حداد، منسى، نعسان... الخ[٢].

هكذا، كان المستعمرون الفرنسيون الوافدون، يوجدون **المرتكزات المحلية** لسيطرتهم، بالاضافة إلى جيش الاحتلال ومختلف قوى القمع، والمؤسسات الروحية، والمؤسسات التعليمية، ومؤسسات الثقافة والتنظير ـ فكان «حزب العمال العام للبنان الكبير» واحداً من هذه المرتكزات المحلية لسلطات الانتداب، يمارس مهماته على صعيد احتواء الحركة العمالية ـ النقابية، لاستخدامها، وخوفاً عليها من الانفلات نحو النشاط المستقل... والشيوعية... والعياذ بالله!..

ولكن الذي حدث: أن الحركة العمالية ـ النقابية انفلتت سريعاً، واتجهت نحو النضال العمالي النقابي المستقل... وكان هذا بالتحديد، على أيدي الحركة الشيوعية بالذات، وبعد

---

(١) راجع: د. مسعود ضاهر في «تاريخ لبنان الاجتماعي» وجريدة «لسان الحال» ٣٠ كانون الأول ١٩٢٠.

(٢) راجع: كولان في «الحركة النقابية في لبنان». وقد نقل هذه المعلومات بدوره عن تقارير فرنسية: «المؤتمر الفرنسي لسوريا» (صفحة ٤ و٧) و «سوريا سنة ١٩٢١» (صفحة ٢١ و٢٦).

حملات صحفية ضد رأسمالية «حزب العمال»، أثارتها عناصر ليبرالية اشتراكية ديموقراطية من على صفحات «الصحافي التائه» بشكل خاص، لعب فيها صاحبنا اسكندر رياشي دوراً مهماً.

ويبدو موقف الرياشي من هذا الحزب «العمالي» مثيراً للعجب، وللاعجاب: فهو كان يُعلن، كلما دعت الحاجة، أنه مع الانتداب... وينتقد أجهزة السلطة من وجـهة نظر «مصلحة الانتداب الصحيح»... وكان يعرف جيداً أن «حزب العمال العام» هذا هو صنيعة الانتداب... ومع هذا اتبع ضد هذا الحزب خطة تعرية «ستريبتيزية – ريّاشية، بالفعل»، فكشف عن عوراته الرأسمالية وفضائحه ومعاداته للعمال بقسوة وجرأة وسخرية امتاز بها قلم الرياشي. فلم يكن في موقفه هذا معادياً، فقط، لقادة هذا الحزب الرأسماليين، بل معادياً، عملياً، لسلطات الانتداب... ولو بصورة غير مباشرة.

ومن ناحية ثانية كان الرياشي يعلن بوضوح أنه مع الاشتراكية الثانية، المعتدلة... اشتراكية حزب العمال الانكليزي، الاصلاحية... وأنه ليس مع البولشفية... ولكن موقفه من «حزب العمال العام» في لبنان، كان ثورياً، سواء وعى هذا وقصده أم لم يقصده ولم يعه... وكانت المفاهيم التي يطرحها، في محاربته هذا الحزب، هي مفاهيم الحركة العمالية الثورية، وهي المفاهيم التي ستظهر أهميتها الثورية في الحركة العمالية اللبنانية، عندما ستصبح مدار احدى أهم معارك «حزب الشعب اللبناني»، الشيوعي بالتالي، كما سوف نرى بعد صفحات.

ويبدو، أن الرياشي – من خلال ما يعرفه عن تركيب أحزاب الاشتراكية – الديموقراطية والنقابات العمالية في أوروبا، من أنه لم يكن في قياداتها رأسماليون مليونيرية – لم يستطع أن يهضم كون قادة «حزب العمال العام في لبنان الكبير» كلهم رأسماليين – اقطاعيين – أمراء... فاكتسب موقفه ضد هؤلاء الرأسماليين صفة موقف معادٍ للرأسمالية:

– «... وفي هيئة هذا الحزب المؤلفة من عشرين عضواً أو أكثر، رأينا: النائب والصحافي والطبيب والاقتصادي والرأسمالي والتاجر، ولم نرَ عاملاً واحداً يمثل نقابة من نقابات العمال أو فئة منهم» ثم يطرح الرياشي سؤالين طريفين: «– أما هناك حزب يمثل عمالاً!. فأين العمال ونقاباتهم؟ – وأما هناك حزب للعمال لا يمثل عمالاً!. فلماذا ولأي سبب تشكّل؟» – («الصحافي التائه»: العدد ١٦، في ١٩٢٢/١١/٢٢).

ـ وينشر «الصحافي التائه» رسالة مهمة بعثها إليه قارئ من بيروت احتفظت الجريدة باسمه، جاء فيها: «... وعندنا كل العجائب، فلماذا لا يكون هنا عجيبة: تطبيق صالح الرأسمالي مع صالح العامل، على غير المعتاد في العالم كله، لأن المعروف بدهياً أنّ العامل لا يكون إلا اشتراكياً والرأسمالي لا يكون اشتراكياً. ولما قرأت مؤخراً كلمات عن حزب العمال في بيروت ورؤسائه، قلت: لا بدّ أن لهم بعض المبادئ من الانترناسيونال الثالث، فرأيت بعد حين أن غايتهم الوصول إلى غاية عن طريق العامل دون علم منه ـ وهل يمكن لأحد في سوريا ولبنان أن يتكلم عن العامل ولا نقابات منظمة له تعطي الحق لشخص ما بالتكلم عنها والمتاجرة باسمها، كما يفعل الكثيرون في بيروت... ـ وأما من أدعى الاشتراكية وزعامة العمال في بيروت فإنه يمثل مظاهر السيادة والفخفخة ليتاجر بهم (العمال) في عقر دارهم وهم غافلون».. ثم ينهي الكاتب رسالته بهذه الصرخة الحاسمة: «... دعوا العمال أيها الأسياد في فقرهم وبؤسهم، ودعوا الاشتراكية لأصحابها، واهتموا بأموالكم ومتاجركم، لأنه ما احبَّ الفقير إلا الفقير وما احبَّ العامل الا العامل أخوه فقط!» (العدد ٣٠، في ١٩٢٣/١/١٧).

في هذه الرسالة كلمات تنبؤية، فإن تأكيد كاتبها على ارتباط مصلحة العامل بالاشتراكية، سوف يتجلّى في لبنان، بعد أقل من عام، في واقع أن الحركة النقابية الحقيقية، الكفاحية، إنما ظهرت مرتبطة بالاشتراكية، ومع الحركة الشيوعية، من خلال «النقابة العامة لعمال الدخان»، خصوصاً، التي تشكلت بمبادرة النقابي الشيوعي فؤاد الشمالي ـ أليس من المحتمل أن يكون كاتب الرسالة واحداً من هؤلاء العمال الشيوعيين الأوائل؟.

ـ «... واتخاذ هذا الحزب اسم حزب العمال وحق تمثيلهم يشبه تماماً حكاية الأمير المصري الكاذب الذي أدعى في أميركا أنه ابن الخديوي اسماعيل فانتهى، لكذبه، إلى الأشغال الشاقة ـ بالله أيها البيك الرئيس: ما أنت رئيس حزب عمال (لا عمال فيه) كما أنني لست امبراطوراً للهند! ـ والغريب في هذا الحزب أنه يوالي اجتماعاته، ولحدّ تاريخه أدناه لا يعرف عامل واحد عنه شيئاً، غير أن رئيسه كان بالأمس أنطون الخوري واليوم أنيس الهاني، وخطيبه بالأمس كان حنا أبو راشد واليوم ابراهيم الأسود ـ... والليالي سود أيها الرفاق، سود كسواد صفحة الاثنين!» ـ (الرياشي)... ثم، خبر، في العدد نفسه: «انتقى حزب العمال رئيساً شرفياً له المسيو شارل سرسق ـ مما يدل أن مبادئه اشتراكية ديموقراطية لا شأن للرأسمال فيها!..» ـ (العدد ٤٦، في ١٩٢٣/٣/١٧).

ـ «... أنبأت جريدة «الوطن» الغراء أن حزب العمال، الذي يرأسه أنيس بك الهاني عملياً، وشارل بك سرسق شرفياً، وابراهيم بك الأسود روحياً، قد أتخذها لسان حال الحزب... ـ وقد أثبت الرصيفان وديع وأسعد عقل الخبر ببرود تام، مما أكد لي أنهما ليسا على حماس من النعمة التي لحقت بهما.. إني ألازم التستّر والظرف في الأمور التي أعالجها في هذه الجريدة، إنما لا يمكنني إلا وضع النقاط على الحروف، وقول الحقيقة المجردة في أمر من ورائه شر لنقابات العمال وأبناء الطبقة المستغَلة التي أحترمها وقد وقفت جريدتي للمدافعة عنها. ومما يؤكد لي أن العامل على معرفة بما يجري في طي الخفاء، إحجامه عن الدخول في هذا الحزب المؤسس، منذ ثلاث سنوات، لمنفعة بعض أشخاص من الرأسماليين مادياً وأدبياً»... وهنا يقدم الرياشي مفهومه للحزب العمالي، الذي على أساسه يحارب «حزب العمال» مما يدل أن معارضته لم تكن مجرد عداء لرؤساء هذا الحزب: «لذلك تراني، وأنا الرفيق الصديق المخلص في دعوتي، احذّر الرفاق من الدخول في هذا الحزب الذي لا برنامج له ولا يأتي نظامه المؤقت على ذكر واحدة من النقاط التي هي أساس أحزاب العمال في العالم، ودستور نظاماتهم: الأسبوع الانكليزي (أي: ٨ ساعات عمل في اليوم، وتعطيل بعد ظهر السبت ويوم احد) ـ الحصة في الانتاج ـ التقاعد والتضمين ـ التكاتف المادي والأدبي بين نقابات العمال في سوريا ولبنان وبين النقابات الأخرى في الخارج ـ وأخيراً التمشّي على مبدأ الاشتراك المعتدل (أي: الاشتراكية المعتدلة) الذي تمشي عليه احزاب العمال في انكلترا... هذه كلمة أقدمها لجريدة «الوطن» الأغر عسى ينظر الصديقان إليها ويمحّصانها قبل القبول بجعل الجريدة الراقية لسان حال حزب لا وجود فيه لغير الرؤساء...» ـ (العدد ٤٩، في ١٩٢٣/٣/٢٨).

هذه المطالب، التي ينسبها الرياشي إلى أحزاب، أو نقابات، الاشتراكية الديموقراطية المعتدلة، ويحارب بها «حزب العمال» الرأسمالي، سوف نرى بعضها وقد وضعها الشيوعيون في إطار آخر، ثوري، ضمن مطالب الحركة العمالية اللبنانية الحقيقية والمستقلة، والتي كانت عملية تكوّنها وقيامها هي في الوقت نفسه عملية إجهاز على «حزب العمال» الرأسمالي هذا، وإجهاز ـ إلى الأبد ـ على مفهوم انتساب العمال وأرباب العمل إلى نقابة واحدة.

وفي الواقع، فإن ظاهرات تفسُّخ هذا الحزب وانهياره اللاحق بدأت تظهر من داخله، قبل عملية الاجهاز الكامل عليه.

فمنذ بداية عام ١٩٢٣ بدأت تبرز تناقضات مصلحية بين المستفيدين من الحزب، وأخذ عدد من أعضائه ينسحب، ومجلة «ألف باء» تنسب عملية انسحاب هؤلاء الأعضاء إلى كون «الصحافي التائه» فضح قادة هذا الحزب. ويقول الرياشي في هذا الصدد: «إنّ بعض أعضاء هذا الحزب لا سيما الفهيم منهم، تأكد أخيراً أن المتاجرة باسم الرفاق، بعد يقظتهم الأخيرة، أصبحت عديمة الفائدة، لا بل تجرّ عليهم بعض العار، فانسحبوا من ذلك الحزب، الذي لم يتمكن منذ نشأته أن يضع له بياناً معروفاً يكون برنامجاً لخطته... وكما قلت في مقالاتي السابقة: أن العمال يريدون حقوقاً لا إسعافاً...»... ثم يذهب الرياشي أعمق في تفسير ظاهرة هذه الانسحابات، مما يؤكد أن ما كان يكتبه لم يكن مجرد آراء تطلع هكذا عفو الخاطر، بل إن اتجاه «الصحافي التائه» كان يعكس تطورات، وتململات، موضوعية. وكان الملتفّون حول الجريدة يجهدون ليعوا هذه التطورات وليعبّروا عن تلك التململات والظاهرات. فحكم الرياشي على تفسّخ «حزب العمال» الرأسمالي لم يكن، إذن، حكماً عفوياً: «... واذا انسحب أعضاء من حزب العمال في بيروت، وانقلب ذلك الحزب على بعضه يكون هذا نتيجة طبيعية لمسراه ومبدأ إنشائه، وداخلية اعماله، التي لا تنطبق بوجه من الوجوه مع مصلحة العمال الأساسية...» ـ (العدد ٣٣، في ٢٧/١/١٩٢٣).

وكان انسحاب **حنا أبي راشد** (وهو من البارزين في الحزب، بوصفه خطيباً، وكاتباً، وصاحب ومحرر جريدة الحزب اليومية «النادي») والاتهامات المتبادلة بينه وبين مسؤولي الحزب الآخرين ـ إحدى ظاهرات هذا التفسّخ الداخلي الذي بدأت طلائعه تظهر.

ويعطينا مراسل مجلة «الأممية النقابية الحمراء» عرضاً تحليلياً للتناقضات الداخلية في هذا الحزب العمالي. مما يدل على الاهتمام الذي كانت توليه الطلائع الثورية في لبنان، لعملية الاجهاز على هذا الحزب «العمالي» المعادي للحركة العمالية... جاء في مقال المراسل، ولعله أحد الشيوعيين الأوائل عندنا: «... إن هذا الحزب لم يسلم من التناقضات بين فئاته العليا وفئاته الدنيا، فالعمال طالبوا بتمثيلهم في مجلس الحزب واحترام مصالحهم والدفاع عنها. ولم يتقيد العمال بدستور الحزب الداعي إلى (الوحدة بين العمال والرأسماليين) والى (السعي السلمي لتحقيق رغبات العمال)... فعلى الرغم من

مبادئ الحزب، أعلن عمال حافلات الترامواي في بيروت الإضراب العام ضد شركة ترامواي وكهرباء بيروت الافرنسية ـ البلجيكية. وبفضل تنظيم العمال استطاعوا الحصول في أوائل عام ١٩٢٥ على مطالبهم[1]. لقد عمل القسم الأكبر من العمال للتخلص من وصاية (الأعضاء الخمسين المؤسسين) للحزب وهم من كبار الأغنياء. وطمحت المجموعات العمالية والحرفية في الحصول على استقلالها. كما استطاعت الفئات الدنيا في الحزب أن تخفض الاشتراك الشهري من ليرة إلى ربع ليرة، وبذلك تسنّى لعدد أكبر من العمال الفقراء الدخول في الحزب والنضال من داخله ضد الأغنياء... وهنا أخذ العمال يتساءلون: ما سبب وجود العَلَم الفرنسي على مكتب الاتحاد؟. ولماذا يستمر هذا البرنامج الموالي لفرنسا؟. وما فائدة العمل المشترك مع المستثمِرين؟.. لقد أدرك العمال أن الحكومة كانت مع الأغنياء ضد الفقراء.هكذا كان حالها في عهد الاستبداد التركي، وهي كذلك الآن (١٩٢٥) في عهد الاستعمار الفرنسي»[2].

وكان فؤاد الشمالي قد عاد إلى لبنان مبعداً من مصر (لنشاطه الشيوعي). واشتغل عامل دخان في بكفيا، حيث بادر إلى تأسيس «النقابة العامة لعمال الدخان في لبنان» صيف عام ١٩٢٤، النقابة العمالية اللبنانية الأولى التي تأسست حسب مفهوم عمالي، ثوري، خارج إطار المفهوم التقليدي المتخلّف لتشكيل النقابة من العمال وأصحاب العمل معاً، بل هي تشكّلت، أساساً، ضد هذا المفهوم، وسارت منذ البداية، في خط كفاحي صدامي على أساس طبقي واضح صريح.

وكما جاء في «برنامج الحزب الشيوعي اللبناني» فإن «نضال العمال الطليعيين والمثقفين الماركسيين، نجح في توجيه الحركة العمالية في مجرى طبقي واضح تجلى بقيام نقابة عمال الدخان عام ١٩٢٤ ونشاطها» ـ (نضال الحزب... ص ٥٦).

وعلى قاعدة هذه النقابة قام «حزب الشعب اللبناني»، أمينه العام فؤاد الشمالي نفسه،

---

(١) لقد كانت «لجنة التنظيم بالنقابات» التي شكلها الشيوعيون عنصراً محرّكاً أساسياً في إضراب عمال الترامواي.

(٢) مجلة «الاممية النقابية الحمراء» ـ العدد ٤، في ١٥ نيسان ١٩٢٥، ص ٢٤٠ ـ نقلاً عن عبدالله حنا في «الحركة العمالية...» صفحة ٣٢٦ و٣٢٧.

ليكون الوجه العلني الديموقراطي الذي من خلاله أخذ الحزب الشيوعي يمارس نشاطه خلال العام الأول لتأسيسه (٢٤ تشرين الأول ١٩٢٤).

ولدت النقابة، وولد الحزب، إذن، في المعركة.

ضد الانتهازية في الحركة العمالية، وضد العمالة للانتداب الفرنسي، كما هي متجسّدة في «حزب العمال العام» الرأسمالي.

ومنذ البداية، ولدت الحركة العمالية اللبنانية الحقيقية كحركة يقودها الشيوعيون، تطرح مطاليبها من مواقع طبقية، وتوجّه معركتها ضد المؤسسات الرأسمالية في بلد مستعمَر، فهي بالضرورة ومنذ البداية، معادية للاستعمار.

في كتابه «نقابات العمال» يعطينا فؤاد الشمالي عرضاً تحليلياً موجزاً. عن «حزب العمال» الرأسمالي هذا وتناقضاته: «... ولم تمضِ بضعة شهور على تأسيس هذا الحزب حتى بدأ التزاحم حول كرسي الرئاسة بين الأعضاء المؤسسين، إذ أن كلاً منهم كان يريد الاستيلاء عليها لاستخدامها في مصلحته النفعية... ومما قام به أحد رؤساء الحزب (هو: أنيس الهاني) أنه فتح اكتتاباً بين العمال والفلاحين لشراء سيف مرصّع يُقدَّم هدية للجنرال غورو باسم حزب العمال!!! ولا ندري ماذا فعل سعادة الرئيس المشار إليه بالمبالغ التي جمعها من البسطاء والفقراء، إذ أن السيف لم يُشرَ، والمبالغ التي جُمعت لا ندري أين حُفظت، ولا كيف أُنفقت!!»... ويعرض الشمالي ألواناً من استغلال قادة الحزب مواقعهم في الحزب من أجل مطامعهم، وتنافس هؤلاء القادة فيما بينهم، ثم يتابع: «ذلك هو الأساس الفاسد الذي بني عليه (حزب العمال العام في لبنان الكبير) الذي كان مركزه في خان الصيفي في بيروت... ولما شعر أعضاء الحزب انه لا يمكنهم استخدام اسم العمال طويلاً بغير أن يستندوا إلى قوى العمال المنظمة، شرعوا في دعوة طوائف العمال إلى تأسيس النقابات، وقد تمكّنوا من تأليف بضع نقابات كانت هيئاتها تجتمع في نادي الحزب وتأتمر بأمره... ولكون الحزب لم ينشأ لخدمة مصالح العمال والدفاع عن حقوقهم المهضومة، فلذلك لم تمضِ برهة وجيزة حتى أخذت النقابات تنسحب الواحدة بعد الأخرى إلى أن لم يبقَ منها نقابة في الحزب... ومما يؤسف له جداً هو أن تلك النقابات أخذت تتلاشى ولم يبق منها سوى نقابات قليلة، ولكنها اسمية، ما عدا «نقابة عمال المطابع» التي ما تزال قائمة حتى اليوم... والسبب في ذلك هو أن العمال الذين لم يسبق لهم تأسيس النقابات، حينما شعروا بأن أعضاء

الحزب يستخدمونهم لمآرب شخصية وغايات نفعية، ويبتزون أموالهم، نفروا من الحزب وحنقوا على نقاباتهم وضعفت ثقتهم بالتنظيمات الحزبية والنقابية...»[1] ـ فكان على الشيوعيين، بعد هذا، بذل جهود مضنية باتجاه تأسيس النقابات وتنسيب العمال في هذه النقابات...

... وهكذا، ترك حنا أبو راشد «حزب العمال» الرأسمالي، وهو في حالة تفسخ وصراعات داخلية... وكان تركه الحزب، وتبادل الاتهامات مع قياداته، من العوامل المساعدة على زيادة هذا التفسخ... ويبدو أن العناصر الشيوعية في قيادة «حزب الشعب اللبناني» رأت في انسحاب حنا أبي راشد إمكانية توجيه ضربات أشد إلى «حزب العمال» الرأسمالي تساعد عل انهياره وانهيار مفهومه الانتهازي بشكل خاص. كذلك فإن أبا راشد نفسه كان يفتّش عن منبرٍ ما لتوجيه ضرباته إلى حزب الرأسماليين. وفي ظني أن يوسف يزبك، الصديق القديم لحنا أبي راشد، لعب دوراً في هذا الالتقاء، الذي كانت حصيلته إيجابية على كل حال.

وكانت المناسبة الممتازة: مهرجان أول أيار عام ١٩٢٥!

«حزب العمال» الرأسمالي، لم يفكر، طوال خمس سنوات منذ تأسيسه، بدعوة العمال إلى الاحتفال بعيدهم... وهذا موقف طبقي بالطبع، فالعيد هو عيد كفاحي للعمال... وقادة «حزب العمال» هم رأسماليون ـ فلماذا يحتفلون بالعيد؟.. حتى طلع عليهم، في آخر الزمان (آخر زمانهم) هذا الحزب البولشفيكي المدعو «حزب الشعب اللبناني» يشيع بين العمال هذه الدعاوى «التخريبية»، ويدعو إلى الاحتفال بالعيد، ويملأ الجدران بالبيانات التي تدعو العمال إلى التعطيل في هذا اليوم، ومشاركة عمال العالم الاحتفال بالعيد... وتثير بيانات «حزب الشعب اللبناني» ونشاطاته حركة حماسية بين العمال. وترتفع الأصوات من القاعدة الباقية في «حزب العمال» الرأسمالي: ولماذا لا نحتفل نحن أيضاً بالعيد؟.. من الصعب عدم الرّد!. ومن الأصعب الاستجابة، فما العمل؟.. إنَّ أي احتفال عمالي يمكن أن يتحوّل إلى حركة مطلبية هم ـ والحكم الانتدابي ـ في غنى عنها... فما العمل؟.. ودعا «حزب العمال» الرأسمالي الى.... حفلة موسيقية في ناديه، مساء ٣٠ نيسان ١٩٢٥...

---

(١) فؤاد الشمالي: «نقابات العمال»، مطبعة الراية، بيروت، ١٩٢٩ ـ الصفحات ٤٣ و٤٤ و٤٥.

فُشلت الحفلة... لم يأتِ أحد من العمال... واقتصر الأمر على بعض الحِرَفيين، وهيئات «الحزب»!!

وجاءتهم الضربة الكبرى في اليوم التالي:

مهرجان «حزب الشعب اللبناني» في الكريستال يهزّ المدينة... مئات العمال يتظاهرون في ساحة البرج... وأعلام حمراء في قلب بيروت!.. بولشفيك!.. شيوعية.. وخُطب طبقية!..

وحنا أبو راشد بالذات يخطب في الاحتفال... ويقول كلاماً عجيباً لم يسبق أن تفوّه به في يوم من الأيام...

بولشفيك متآمرون؟..

وتفجَّر غضب رأسماليي «حزب العمال»: بياناً حرصوا على توزيعه بأعداد كبيرة في شوارع بيروت بعد ظهر اليوم نفسه، كملحق من العدد ٦٤ لجريدة «العمال» التي كان يصدرها حزبهم في ذلك الحين.

اقرأ. فهذا بيان نموذجي، يعطيك تماماً طابع المعركة في تلك الفترة ومضمونها الطبقي. والتحريض الوارد في البيان هو جزء من هذه الحرب الطبقية المعادية للعمال وللشعب وللتحرر.

اقرأ. فالبيان جدير جداً بأن يُقرأ كاملاً:

كشف الستار عن أعمال الفُجَّار

نشرات حزب الشعب اللبناني ودسائس حنا ابي راشد

«أصبحت بيروت في هذين اليومين مبعث القلاقل والاضطرابات ومهد الدسائس والخيانات، ومرتع البولشفيكية، بفضل حزب الشعب اللبناني ونشراته التي وزعها في شوارع المدينة وبمساعي حنا أبي راشد الذي يقود هذا الحزب قيادة عمياء لتنفيذ غاياته السافلة ومقاصده السيئة، ولزرع بذور الشقاق والنفور وإقلاق الراحة العامة وتشويش الأفكار واعدادها خاضعة للشرور والفجور والفحشاء كما جرى في كل بلادٍ سرت إليها عدوى هذا الروح الخبيث الذي هدد سلامة العالم.

قرأنا هذه النشرات فرأيناها تدعو العمال إلى الثورة، وترمي إلى حدوث الفتن وإيقاظ جذوة العصيان والتمرّد، وتستهوي الناس إلى السلب والنهب والاغتصاب والطمع والاستيلاء على أغراض الغير وأمواله ومقتنياته.

ولما كان كاتبوها يقصدون بها تغرير العمال في البلاد اللبنانية ويتكلمون باسم العمال، فخشية من وقوع ما لا تُحمد عقباه، ودفعاً للتضليل والتغرير، قرر مجلس حزب العمال في جلسته المنعقدة نهار أمس أن يطلع الحكومة والرأي العام عن حقيقة هذه الحركات العدائية وأن يدحض هذه المفتريات بما يلي:

أولاً : حزب العمال الرسمي، المصدق على قانونه من الحكومة، والمتخذ مركزه في حي الصيفي، يحتج على كل من يتكلم بلسان العمال ويتبرأ من كلما جاء في نشرات حزب الشعب اللبناني، ويشجب هذه الحركات التي من شأنها جر البلاد إلى الدمار.

ثانياً : حزب العمال الرسمي يُعرب عن ارتياحه لهيئة الحكومة الحاضرة، ويشكر لها مساعيها الجليلة، ولم يفكر مطلقاً في تدبير الحركات العدائية واخلال الأمن.

ثالثاً : هيئة الحزب تحتج شديداً على حنا أبي راشد وتستنكر كلما يجريه باسم العمال، وتطلب من الحكومة تأديبه، ولا تعترف به مطلقاً لأنها طردته من الحزب لتلاعبه واستهتاره بأموال العمال، والهيئة تضع تبعة كل عمل مخالف يجريه هذا الرجل باسم العمال على عاتقه فقط.

رابعاً : إن حزب العمال يحتفل هذا النهار بناديه رسمياً ـ (لم يقل البيان بماذا يحتفل الحزب... لعلّ مجرّد ذكر أول أيار كان مخيفاً! ـ م. د) ـ ولكن احتفاله سلمي، وهو يتقبل جميع وفود الشعب بكل ابتهاج وسرور.

هذه هي الحقيقة التي نعلنها جهاراً على العموم مكررين شكرنا لحكومتنا الموقرة، آسفين لما جاء في نشرات حزب الشعب اللبناني من المفتريات والأراجيف، خاتمين مقالنا بالتوسل إلى الله عز وجل أن يعيد علينا هذا العام ـ (يتجنبون القول حتى هذا الشهر... حتى لا يتذكر القارئ، أنه يدعى أيار... والعياذ بالله!ـ م. د) ـ بالمسرات والأفراح والسلام».

... في هذا البيان حقد طبقي غير مستغرب. وفيه تأكيد أن نشاط «حزب الشعب اللبناني» أصاب منهم مقتلاً فأصيبوا بالسعار. وبالإضافة إلى تعبير هذا البيان عن طابع المعركة الطبقية والوطنية التحررية الدائرة في تلك الفترة، مما يسمح باستخلاص استنتاجات سياسية وطبقية منه، فهو يشكّل، في الوقت نفسه، وثيقة طريفة لاجراء نوع من «تحليل النَفْس الطبقي» لهؤلاء الناس الخائفين أن تتهمهم الدولة المنتدبة بالمسؤولية عن مهرجان أقامه اعداؤهم الطبقيون.

ملاحظة: إن علاقة حنا أبي راشد بحزب الشعب اللبناني لم تتعدّ هذه الحدود: إلقاء خطاب في مهرجان أيار... وقد استطاع رأسماليو «حزب العمال» استصدار حكم بسجنه بضعة أيام بتهمة «سرقة أموال العمال»!...

ولكن خطابه في المهرجان كان واحداً من عوامل زيادة تفسيخ «حزب العمال» هذا، الذي سينهار بعد أشهر، بتأثير من النشاط الكفاحي للمناضلين النقابيين الشيوعيين في الحركة العمالية اللبنانية، ودفع هذه الحركة باتجاه تكوين نقابات عمالية مستقلة عن أرباب العمل، ومكافحة.

ملاحظة ثانية: نستطيع الآن أن نرى بوضوح أهمية ما جاء في خطاب حنا أبي راشد في مهرجان الكريستال من «وجوب تأليف نقابات العمال من العمال أنفسهم، وأن تكون مُدارة بعمال منهم أيضاً».

فالمعركة، على صعيد الحركة العمالية، كانت هنا بالتحديد.

نحن... حزب الطبقة العاملة!
نعلن...

ما أن لفظ يوسف يزبك، أمام جمهور مهرجان الكريستال ١٩٢٥، اسم **فؤاد الشمالي**، حتى انفجر تصفيق غير عادي. **فؤاد الشمالي**، رئيس «النقابة العامة لعمال الدخان»، السكرتير العام «لحزب الشعب اللبناني»، الرفيق الذي يعرفه شخصياً معظم هؤلاء العمال الذين يصفّقون بحماس وإلفة. فهو يلقاهم باستمرار، يذهب إليهم في أماكن عملهم، خصوصاً في معامل الدخان: في بكفيا، والشوير، والخنشارة، وبتغرين، وزحلة، وانطلياس، والحدث، والشياح... ويجتمع مع الكثيرين منهم، في النهار أو في الليل، يحدّثهم بكلام ما سمعوا مثله قبلاً، عن العمال وحقوقهم ونضالاتهم والبطولات، والمستقبل والاشتراكية، ومعارك أخوانهم عمال الدخان في مصر، وكيف أنهم ينتصرون عندما يتّحدُون... إنه يعرف أشياء كثيرة، ويتحدث بمفاهيم لا عهد للعمال بها، ولكنه يتحدث ببساطة، ويضرب الأمثلة حتى ليفهمه أبسط العمال... فكيف لا يصفّقون له بهذا الحماس غير العادي، والأليف؟... واليوم، صباحاً، قبل النزول إلى بيروت، التقى الشمالي بجمهور كبير من العمال، هناك في بكفيا، مركز النقابة ومركز «حزب الشعب اللبناني» ومركز التجمُّع الكبير لعمال الدخان، وقف في مكانٍ عالٍ، والعمال يتأمّلونه: طويل نحيل، أسمر، شاربه كثيف، فوق عينيه نظارات، وصوته قوي. خطب فيهم عن هذا العيد، عن معناه الكفاحي، عن ضرورة الاتحاد، وأنهم بالاتحاد ينتصرون، تصبح الأرض لهم، والمصانع، والدنيا، وحتى الشمس. وقد علّق العمال، هناك، الشارات الحمراء على

صدورهم، وانطلقت حناجر بعضهم بنشيد حماسي مهيب عرف الآخرون أنه يُدعى النشيد الأممي... وشعروا هناك، فوق الجبل، أنهم مثل الجبل وأقوى. وكانت الشمس هناك، وعندما نزلوا إلى بيروت يهزجون وينشدون ويلوّحون بالأعلام الحمراء، كانت الشمس ترافقهم، وهي الآن في قلوبهم، وهم ينصتون.

«إخواني!.. لقد انتدبتني اللجنة التنفيذية لحزب الشعب اللبناني لأتكلم باسمها في هذا الاجتماع. وليس أحب إليّ أكثر من التحدث إلى اخواني العمال، خصوصاً في مثل هذا الاجتماع وفي مثل هذا اليوم العظيم. وقبل أن أبتدئ في الموضوع الذي سأتكلم فيه، أوجّه كلمة إلى الأدباء الموجودين هنا وهي: أن يعذروني إذا وجدوا في خطابي خطأ لغوياً أو تكسيراً في اللفظ لأني عامل لم يسمح لي وقتي بأن أتعلم الصرف والنحو...».

الأدباء ـ وكانوا غير قليلين في الصالة ـ يصفّقون طويلاً، بمرح.

«... وفوق ذلك فإن كلامي موجَّه إلى عمال من طبقتي لا أظنهم يشغلون أفكارهم بالانتقاد النحوي ويتركون الجوهر المطلوب...».

العمال، والأدباء، يصفقون بحماس.

«أيها الأخوان!. إن هذا اليوم الذي نحتفل فيه هذا الاحتفال الكبير، إنما هو اليوم الأكبر لجميع العمال في العالم. فيه اتحد العمال في أوروبا، ولأجله قُتل العمال الأبرياء الذين سُفكت دماؤهم بأيدي المتموّلين الذين يستحلّون المنكرات في سبيل مصلحتهم النفعية. في هذا اليوم اتحد عمَّال العالم، فيجب علينا أن نتحد في هذه البلاد المغلوبة على أمرها، ثم نمد أيدينا متَّحدين إلى بقية أخواننا في العالم قائلين لهم: لقد اتحدنا وجئنا لنتَّحد معكم: (فيا عمال العالم، اتحدوا!.)...».

بعض العمال يردّدون الهتاف. التصفيق عاصفة تزأر.

لعلّها أول مرة، في تاريخ هذا الوطن، ينطلق فيها، خلال مهرجان عام، هذا الهتاف الكفاحي: «يا عمال العالم، اتحدوا!»... اتحدوا يا عمال العالم... فجِّروا الثورات... اقلبوا العالم القديم... فلن تخسروا سوى أغلالكم، وتكسبون عالماً بأسره!.

وكان لا بدّ من التأكيد المستمر على شعار اتحاد العمال في لبنان، والعمل لتحقيقه، حتى تعي الطبقة العاملة الوليدة وجودها، كطبقة.

«... وكما أننا نبتهج في هذا اليوم بقوة الاتحاد، كذلك يجب على كل منّا أن يحزن على الأخوان الذين ذهبوا ضحية هذا الاتحاد. فأطلب منكم أيها الأخوان أن نسكت جميعاً ثلاث دقائق حزناً على المقتولين ظلماً بأيدي الرأسماليين، واحتراماً لأرواحهم الطاهرة التي لا أشك في أنها ترفرف اليوم فوق رؤوس الملايين من العمال المجتمعين مثل اجتماعنا هذا...».

صمت! الأذهان تستحضر صور مظاهرات العمال في شيكاغو، حيث وقعت الجريمة. وتستحضر صور المظاهرات التي عمّت العالم فيما بعد، والاصطدامات مع قوى القمع المسلّح، والشهداء، وإقرار يوم أول أيار عيداً كفاحياً لعمال العالم أجمع. لقد حدثهم يوسف يزبك عن هذا كله في خطابه. كثيرة هي الأشياء الجديدة التي عرفها العمال اليوم، والأفكار الجديدة التي تتقبّلها أذهانهم لأول مرة. وكم هي غنية وعميقة، المشاعر الجديدة التي تسري في كيانهم اليوم، مثل شمس الربيع.

«أيها العمال والفلاحون!. لقد مرَّ ست وثلاثون سنة على مؤتمر مندوبي العمال في باريس الذي تقرر فيه أن يكون أول أيار عيد العمال الرسمي في العالم. ومع الأسف الشديد لم يتحرّك عمال لبنان وسوريا والأقطار العربية!. ست وثلاثون مرة عيَّد عمال العالم ونحن هنا غافلون. واليوم فقط بدأنا نشارك الأخوان في شعورهم. اليوم فقط فتحنا أعيننا ونظرنا إلى ما حولنا مفتشين عن طريق الحرية. وها نحن نرى جيداً هذه الطريق، وقد شرعنا نسير عليها...» ـ (النص الكامل

لهذا الخطاب نشر في جريدة «زحلة الفتاة» ٢٠ أيار ١٩٢٥ ـ وقد أوردناه كاملاً في ملحق النصوص من هذا الكتاب).

... فؤاد الشمالي يتابع حديثه الجديد إلى العمال، محاولاً رسم الطريق إلى الحرية، بوعي العامل المجرّب، والمناضل الذي يعرف أن يتحدث إلى العمال بلغتهم. وينقل إليهم، بهذه اللغة، المفاهيم الماركسية حول الصراع الطبقي، والاستثمار، والدور التاريخي للطبقة العاملة، وأساليب الكفاح اليومي، والاشتراكية، بكلام واضح، بسيط ـ وأحياناً تبسيطي ـ ولكنه حاسم باستمرار، وينطلق دائماً من موقف طبقي.

فإذا كان لم يمض عام بعد على تشكيل «النقابة العامة لعمال الدخان»، وتأليف «حزب الشعب اللبناني» كحقل تجربة وأداة نشاط علنية لنواة **الحزب الشيوعي في لبنان** ـ فمن أين جاء الشمالي بهذه التجربة التي يحتاج اكتسابها إلى أعوام وأعوام من النضال والنشاط داخل الحركة العمالية الثورية؟

□□□□

منذ تفتّح وعيه، وجد نفسه في خضم معارك الطبقة العاملة المصرية.

فقد ولد فؤاد الشمالي عام ١٨٩٤ في بلدة سهيلة، منطقة كسروان (لبنان). تلقّى دروسه الابتدائية في بيسان بفلسطين حيث كان والده يشتغل ترجماناً في شركة للسكك الحديدية. بعد وفاة أبيه تابع دراسته في مصر حيث استقرت والدته. وحوالى ١٩١٠ بدأ يعمل[١]. «فأنا عامل منذ نعومة أظفاري. انضممت إلى الحركة النقابية في عام ١٩١٦»[٢]. فكان عمره ٢٢ عاماً. وفي نهاية الحرب كان يشتغل في معمل للسجاير في القاهرة. ثم انتقل إلى الاسكندرية ليشتغل كذلك في معمل للسجاير، وليكتسب هناك تجربة نضالية غنية. «وقد لاقيتُ الشيء الكثير من الظلم والاضطهاد وذقتُ طعم البؤس

(١) هذه المعلومات أخذها جاك كولان من إميل الشمالي نجل فؤاد الشمالي.

(٢) فؤاد الشمالي: «نقابات العمال» ـ صفحة ٣.

والشقاء أشكالاً وألواناً، واشتركت في اعتصابات (إضرابات) عديدة قام بها العمال في القطر المصري»[1].

وقد شهدت الاسكندرية في تلك الفترة إضرابات وتظاهرات وأحداثاً عمالية وجماهيرية ضخمة لها صفة تاريخية. وكان عمال التبغ والسجاير في المركز من هذه الأحداث... «كانت قد تكونت لديهم تقاليد نضالية عريقة. فمنذ عام ١٨٩٩ أسسوا النقابة المصرية الأولى (نقابة عمال السجاير في مصر). وهم الذين قاموا بالإضراب الكبير الذي استمر من كانون الأول ١٨٩٩ إلى نهاية شباط ١٩٠٠. ويمكن القول إن إضرابات عمال التبغ والسجاير عام ١٩١٨ قد مهدت السبيل للتحرّكات الضخمة التي أدت إلى ثورة عام ١٩١٩»[2]. وكانت الخلايا الاشتراكية قد بدأت تتكوّن بين العمال، منذ عام ١٩١٨، خصوصاً في الاسكندرية والقاهرة. وفي آب ١٩٢١ تأسس «الحزب الاشتراكي المصري» ولم يلبث أن تحول إلى «الحزب الشيوعي المصري». «... وازداد النشاط الاشتراكي بين صفوف العمال قوة، وخاصة في مدينة الاسكندرية، بقيادة محام سوري (لبناني) هو أنطون مارون[3]. وفي عام ١٩٢١ عقد الحزب الاشتراكي اجتماعاً شهده مندوبون من ٢٠ نقابة وأعلن تكوين أول اتحاد لنقابات العمال (الاتحاد المصري للعمال) وكان مركزه الرئيسي عند تأسيسه هو مدينة القاهرة، وقد انضم إليه بعد ذلك

---

(١) الشمالي: نفس المصدر ـ ص ٣.

(٢) جاك كولان: «الحركة النقابية في لبنان». ـ صفحة ١١٢.

(٣) أنطون مارون، محام لبناني عاش في مصر، ليس لدينا معلومات عن نشاته الأولى. ولكننا نعرف أنه خلال العشرينيات كان عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري. وهو من أحب قادة الحزب إلى العمال، ومن أقواهم نفوذاً. «... كان العمال يعملون بنصائح الاستاذ مارون ورفاقه، وأنه لم يكن سهلاً على البوليس اخراج العمال من المصانع، ولكن إخراجهم كان من أيسر الأمور على الأستاذ مارون، كما أن كلمة واحدة منه كانت تكفي لإنهاء احتلال العمال للمصنع، (من شهادة رجل البوليس انجرام أمام المحكمة: الأهرام ـ ٩/٢٩/١٩٢٤). وقال عنه رفيقه الشيوعي المصري عبدالرحمن فضل: «... كان مارون زعيماً حقيقياً، كان مش عايش لنفسه... كان يعلّمنا الماركسية.. كان زعيماً ماركسياً عظيماً.. كان يحب العمال جداً.. وكان يكره الانتلجنسيا لانهم كانوا يكرهون العمال ويحتقرونهم. وكان مارون يعيش عيشتنا. وترك مكتب المحاماة واكتفى بالمرافعة في قضايا الفقراء مجاناً.. وكان يعيش عيشة فقيرة جداً. مات مارون في السجن، بعد إضراب عن الطعام. الباقون أنهوا الإضراب واستمر مارون مضرباً أكثر من اربعين يوماً، ومات» (عن «تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر» لرفعت السعيد، صفحة ٢٨٣ وما يليها).. «... وفي سجن الحدرة بالاسكندرية فقد أنطون مارون، ألمع وأخلص قادة الحزب، حياته... وكان بذلك أول شهداء الحركة الشيوعية المصرية» (عن «اليسار المصري» لرفعت السعيد، صفحة ٢٦١)..

عدد آخر من النقابات حتى وصل عدد النقابات المشتركة فيه إلى حوالى ٣٢ نقابة. ثم انتقل مركز الاتحاد بعد ذلك إلى مدينة الاسكندرية...»[١].

وقد انتسب الاتحاد إلى «الأممية النقابية الحمراء».

وانتسب «الحزب الشيوعي المصري» إلى «الأممية الثالثة ـ الشيوعية».

وكان فؤاد الشمالي عضواً قيادياً في الاتحاد. وعضواً قيادياً أيضاً في «الحزب الشيوعي المصري». وكان معه أيضاً عمال لبنانيون آخرون، منهم: أديب قشعمي، نجيب الشمالي، بالإضافة إلى المناضل المحامي أنطون مارون.

فلم تكن الاسكندرية مركزاً عمالياً هاماً فقط، بل كانت كذلك مركز معارك عمالية ضخمة، ومتتالية، لا تكاد تهدأ حتى تثور من جديد. «... وإزاء ازدياد الكفاح العمالي الذي أصبح يهدد المصالح الاقتصادية الأجنبية تهديداً مباشراً في نشاطها الاقتصادي، بدأت السلطات البريطانية والرجعية المصرية تواجه الحركة النقابية والعمالية بإجراءات عنيفة... فإنه في الفترة من آخر عام ١٩١٩ حتى عام ١٩٢١ بلغ عدد الإضرابات ٨١ إضراباً منها ٦٧ إضراباً عاماً وأربعة عشر إضراباً جزئياً، وأظهر العمال في معظم الإضرابات تضامناً تاماً. ولم تقتصر هذه الإضرابات العمالية على المطالب الاقتصادية فقط بل تعدتها إلى المطالب القومية العامة. وبدأت الحكومة المصرية، وبناء على طلب مباشر من السلطات البريطانية، تتخذ الاجراءات للبطش بالحركة العمالية وبتنظيمها النقابي»[٢].

هكذا، نجد فؤاد الشمالي: ليس فقط «في المعركة» بل هو واحد من قادة الحركة العمالية، والشيوعية، في مصر.

ثم نجد الشمالي، كذلك، أحد البارزين في المعركة التكوينية التي انفجرت داخل «الحزب الاشتراكي المصري» بين جناحين رئيسيين: الجناح «الاصلاحي» (ومنه: سلامه موسى، ومحمد عبدالله عنان) والجناح «الماركسي» (ومنه: حسني العرابي، وأنطون

---

(١) عبد المنعم الغزالي: «تاريخ الحركة النقابية المصرية ١٨٩٩ ـ ١٩٥٢»، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٦٨ ـ صفحة ٨٩.

(٢) عبد المنعم الغزالي: «الحركة النقابية المصرية» ـ صفحة ٨٩ و٩٠.

مارون، وصفوان أبو الفتح، وفؤاد الشمالي) وهذا الجناح كان متمركزاً في الاسكندرية. وقد تفجَّر الخلاف على أثر طرح الماركسيين مسألة انضمام الحزب إلى «الأممية الثالثة» وتغيير اسم الحزب إلى «الحزب الشيوعي المصري».

وما يهمنا من المعركة العامة الأولى، أنها كوَّنت فؤاد الشمالي كمناضل عمالي، نقابي، وشيوعي، غني التجربة في ميدان الممارسة النضالية العمالية اليومية، وفي ميدان العمل النقابي وتشكيل النقابات.

وما يهمنا من المعركة الثانية، داخل الحزب، هو تبيُّن مواقف الشمالي الفكرية، وكذلك تصرفاته الشخصية، فسوف يكون لهذا كله امتداد معيَّن في ممارسات الشمالي داخل الحركة العمالية والحزبية في لبنان.

فعندما هاجم محمد عبدالله عنان، وكان سكرتيراً للحزب الاشتراكي المصري، الجناح الماركسي الذي نقل مركز الحزب إلى مركز الثقل العمالي في الاسكندرية، واتهمه بأنه جناح متمرّد وخارج على خطة الحزب الاشتراكية، غير المتطرفة، ردّ عليه فؤاد الشمالي رداً قاسياً، وحازماً، (يستنتج منه الدكتور رفعت السعيد في كتابه «تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر» أن الشمالي كتبه انطلاقاً من طبيعته الهوجاء التي «توحي بأنه قد اندفع للرّد دون تكليف من الحزب»..) وهذا ما جاء في رد الشمالي، كما نشرته «الأهرام» في (١٩٢٣/١/٩):

«قال الأستاذ محمد عبدالله عنان المحامي: إن شعبة الاسكندرية قررت الخروج على الادارة المركزية في القاهرة. والحقيقة أن شعبة الاسكندرية لما بدأت أعمالها في شهر مايو (أيار) الماضي ١٩٢٢، كانت لجنة القاهرة قد تلاشت، وتشتت أعضاؤها وأقفلت دارها. وفي يوم ٣٠ يوليو (تموز) عُقد في الاسكندرية مؤتمر حضره مندوبون من جميع شعب الحزب في أنحاء القطر وتقرَّر بالاجماع جعل الاسكندرية مركزاً ادارياً للحزب، وكذلك تقرر بالأغلبية الكبرى اعتناق المذهب الشيوعي، فالأمل من حضرة الأستاذ عنان أن يتوخّى الحقيقة في كتابته. وكلمتي إلى زعماء الاشتراكية في مصر **أن يتركوا العمال**

يتولّون بانفسهم جميع شؤونهم، لأن الاشتراكية من العمال وللعمال وبالعمال وليست بالتجار والملاّك والمحامين».

ما يهمنا في هذه الرسالة: التأكيد على انتصار «المذهب الشيوعي» داخل «الحزب الاشتراكي المصري» الذي كانت قيادته، في عام اعلانه ١٩٢١، خليطاً من الفابيين والاصلاحيين، ما عدا حسني العرابي الذي انحاز إلى القاعدة التي كانت ماركسية شيوعية. ذلك أن هذا الخط الشيوعي، والارتباط بالأممية الشيوعية، سيكون له ـ لاحقاً ـ اثره الحاسم في دخول الحركة العمالية اللبنانية مرحلة جديدة، نوعية، وفي تكوين الحزب الثوري للطبقة العاملة: الحزب الشيوعي اللبناني.

ويهمنا، كذلك، من هذه الرسالة، توجُّه الشمالي إلى زعماء الاشتراكية في مصر: «اتركوا العمال يتولّون بانفسهم جميع شؤونهم لأن الاشتراكية من العمال وللعمال وبالعمال، وليست بالتجار والملاّك والمحامين»... فهذا الرأي سوف يردده الشمالي في عدة مناسبات في لبنان، وسينعكس في الممارسة العملية، عندما كاد الطابع **النقابي** يطغى على الطابع **السياسي** للحزب في المرحلة الأولى.

ولسنا هنا في معرض التحقيق من كون الشمالي قد اندفع إلى الردّ بدون تكليف من الحزب (رغم أن الشمالي يحب كثيراً أن ينشر بيانات باسمه... وهذا واقع سوف نراه في صفحات مقبلة) ولا نحن كذلك في معرض التحقق من أن الشمالي قد انسحب من الحزب الشيوعي المصري نتيجة الصراعات الداخلية، فليس عندنا معطيات تؤكد، أو ترجِّح ذلك، أو تنفي هذا الاحتمال. وأن واقع اعلان الشمالي تاسيس ما سمّاه «**الحزب الاشتراكي السوري ـ اللبناني**» في الاسكندرية، يضم عدداً من اللبنانيين والسوريين في الاسكندرية، أن هذا الواقع لا يفترض انسحاب الشمالي من الحزب الشيوعي المصري، بل قد يكون هذا جزءاً من نشاط الحزب المصري، كما كان شانه بالنسبة للعمال من الجاليات الأجنبية الأخرى.

ولكن، ما هي حكاية هذا «الحزب الاشتراكي السوري ـ اللبناني»... في المنفى؟!.

يبدو أن العمال اللبنانيين والسوريين في الاسكندرية كانوا كثراً، وقد أتينا على ذكر بعض أسماء منهم. وكانوا ملتفّين حول الشمالي، القائد اللبناني المتمع بنفوذ ظاهر...

ويبدو أن الشمالي كان يفكر بإمكان عودته إلى لبنان، مع عدد من هؤلاء العمال ـ وهذا ما حصل فيما بعد ـ فيكون الحزب «جاهزاً»...

....

[.. ويبدو، أيضاً، أن هذا الهاجس (تشكيل حزب عمالي ـ لبناني) كان يوجّه خطوات فؤاد الشمالي ونشاطه منذ بدأ يخوض، في مصر، المعارك العمالية، ويدخل في القلب من التجارب والصراعات لتحويل «الحزب الاشتراكي المصري» إلى «حزب شيوعي».

فقبل الإعلان عن تأسيس «الحزب الاشتراكي السوري اللبناني».. كان قد دخل تجربة تنظيم مجموعة من العمال اللبنانيين المهاجرين إلى مصر، والمتجمّعين خاصة في الاسكندرية، في منظمة عمالية لبنانية تناضل في الخارج من أجل قضية استقلال لبنان، ومحاربة الانتداب الذي بدأ يركّز سيطرته الاستعمارية في لبنان وسوريا. وقد أطلق على هذه المجموعة الطليعية اسم «**حزب العمال اللبناني**».

ففي ليل ١٥/١٦ فبراير (شباط) ١٩٢٢، وفي منزل بسيط في أحد الأحياء الشعبية بمدينة الاسكندرية، اجتمع عدد من العمال اللبنانيين، أكثرهم من العاملين في معامل صناعة الدخان والسجائر، وتناقشوا طويلاً، في أوضاعهم وأوضاع لبنان، وقرروا: تأسيس حزب باسم «حزب العمال اللبناني» واتفقوا على الخطوط العامة لبرنامجه، ليصار إلى صياغته ثم إرسال هذا البرنامج إلى الصحف في مصر ولبنان وسوريا. وقد انتخب هؤلاء العمال سكرتيراً للحزب هو: فؤاد الشمالي.

أخبار تأسيس هذا الحزب لم ترد في الكتب التي أرّخت للحركة العمالية والاشتراكية والشيوعية في مصر ولبنان وسوريا، وإن كانت أوردت العديد من أخبار الشمالي ومجموعة العمال اللبنانيين في الاسكندرية. ولكننا عرفنا أخبار هذا الحزب من خلال وثائق أصلية مخطوطة، هي ـ حسب علمنا ـ لم تُنشر ولم يُذع عنها شيئاً قبل أن تصل إلينا (وقد حصلنا على هذه الوثائق الثمينة، بعد سنوات من صدور الطبعة الأولى من كتابنا هذا. سلّمنا إياها يوسف ابراهيم يزبك، وهو يعرف أنها ستدخل في سياق تاريخ الحزب والحركة العمالية العربية).

الوثائق هي تسع رسائل متبادلة بين جماعة «حزب العمال اللبناني» ـ خلال فترة الاستعداد لتأسيس الحزب، وبُعيد تأسيسه ـ وبين المسؤولين في «**جمعية لبنان الفتى**» التي تشكّلت أيضاً في مصر، وتضم، كذلك، عدداً من اللبنانيين المهاجرين إلى مصر في تلك الفترة، وكان سكرتيرها الصحفي والأديب اللبناني المهاجر إلى مصر **حبيب جاماتي**[١].

ولسنا الآن بصدد إيراد نصوص هذه الرسائل كاملة، والتفصيل بشأنها. ذلك أن تحقيق هذه الرسائل، بشكل تفصيلي ودقيق، واستكمال المعطيات بشأنها، بالرجوع ـ خاصة ـ إلى صحف تلك الفترة، التي نشرت برنامج «حزب العمال اللبناني»، كما تشير واحدة من هذه الرسائل ـ سيكون واحداً من المواضيع الأساسية للكتاب الخاص الذي سنحاول أن نضعه عن (فؤاد الشمالي: حياته، ونضاله، ودوره الريادي، وحركة فكره).. ولكن ما يهمنا هنا هو إيراد إشارات إلى بعض توجّهات هذا الحزب، الذي يمكن اعتباره واحداً من الارهاصات التمهيدية، ونواة أوليّة، على طريق تأسيس حزب شيوعي لبناني، في لبنان، وبإسهام أساسي من فؤاد الشمالي نفسه.

ونكتفي هنا بفقرات من بعض هذه الرسائل، لها دلالتها بالنسبة لتوجّهات الشمالي، اللاحقة، في لبنان خلال السنوات الأولى لنشوء الحزب الشيوعي اللبناني.

□ **الاسكندرية**، ٢٦ يناير (كانون الثاني) ١٩٢٢ ـ من فؤاد الشمالي إلى أعضاء «جمعية لبنان الفتى»: «... أيها الأخوان. لقد رفعتم رؤوس أبناء وطننا بتلك المواقف الجريئة.. واسمحوا لنا أن نطالبكم بالعمل على **كفّ يد الاكليروس عن التدخل في**

(١) حبيب جاماتي: أديب وباحث لبناني، شارك في الحركة العربية الوطنية المعادية للسيطرة التركية وللانتداب الفرنسي، اشتهر بكتابة القصص والروايات التاريخية. ■ ولد عام ١٨٨٧ في قرية ذوق ميكايل بالقرب من جونيه. درس في كلية عينطورة للآباء اللعازريين. التحق بالجيش العربي الذي كان يقوده فيصل من سنة ١٩١٦ حتى ١٩١٨. والذي شارك في محاربة الأتراك وفي تحرير دمشق منهم. هاجر حبيب جاماتي إلى مصر حيث أخذ يعمل في الصحافة. عمل محرراً رئيسياً في العديد من الصحف المصرية، خاصة صحف «دار الهلال». كما أصدر في مصر جريدة «لبنان الفتى». ■ له مؤلفات كثيرة، أشهرها سلسلة تحقيقاته التاريخية التي يجمعها عنوان عام هو «تاريخ ما أهمله التاريخ»، التي نشرها فصولاً في المجلات المصرية، ثم جمعها وأصدرها في عدة أجزاء. من مؤلفاته: «ابراهيم في الميدان» ـ «خفايا القصور» ـ «مصر مقبرة الفاتحين» ـ «شهر يوليو الأغر في تاريخ العرب». ■ توفي حبيب جاماتي عام ١٩٦٨.

الشؤون السياسية، والتزام حدود وظيفتهم، وإلا فالفشل مؤكّد للقضية اللبنانية (...) والآن، فهل لكم أيها الأخوان أن تعلنوا **فصل الدين عن السياسة؟..**

ـ «... قريباً سنعقد اجتماعاً للشروع بتأسيس «حزب العمال اللبناني» ونفيدكم عمّا يتمّ...».

□ **القاهرة**، ٩ فبراير (شباط) ١٩٢٢ ـ رسالة من حبيب جاماتي إلى فؤاد الشمالي، تحمل ترحيب جماعة «لبنان الفتى» بفكرة تشكيل «حزب العمال اللبناني»، على أن يكون من اللبنانيين فقط.. «... وأما مبدأ حزب العمال فنوافقكم على أن يكون كما أشرتم: **استقلال لبنان بحدوده الطبيعية بضمانة الدول...»**.

□ **الاسكندرية**، ١٣ فبراير (شباط) ١٩٢٢ ـ من الشمالي إلى جاماتي: «... وثقوا باني سأجتهد في أن أقتفي خطواتكم الرشيدة التي لا شك في أنها ستصل بنا جميعاً إلى الغاية المنشودة ألا وهي: **الاستقلال التام..»**.

ـ ومن الرسالة نفسها، هذا الخبر: «... في مساء السبت ليلة الأحد القادم، سنعقد **أول جلسة** تأسيسية لحزب العمال اللبناني، في أحد المنازل. حتى إذا ما اتفقنا على **البرنامج الأساسي** نعلنه على صفحات الجرائد، وثم نسير إلى الغاية غير ملتفتين إلى عواء الثعالب الذين يكثر وجودهم في مثل هذه الطريق المحفوفة بالصخور والشوك..».

(.. وقد تشكّل الحزب. وصيغ برنامجه، وأرسل إلى الصحف، فنشرته بعضها ـ المؤسف أننا لم نعثر، بعد، على نص هذا البرنامج السياسي، أو بعض فقراته التي قالت الرسائل إنَّ بعض صحف تلك الفترة قد نشرته ـ ولكن جاماتي يشير في واحدة من رسائله إلى ما يراه أساسياً في هذا البرنامج..).

□ **القاهرة**، ٧ ابريل (نيسان) ١٩٢٢ ـ من جاماتي، سكرتير «جمعية لبنان الفتى» إلى «حضرات الأخوان مؤسسي حزب العمال اللبناني بالاسكندرية»: ـ «... وطالعنا ببعض الجرائد خبر تكوين حزبكم ونزولكم ميدان الجهاد في سبيل لبناننا المفدّى (...)

لفت أنظارنا أيها الأخوان **برنامجكم السياسي** الذي يطابق برنامج كل جمعية حرة بل كل فرد مخلص لبلاده **ويعمل لخلاصها من النير الأجنبي**، ولذلك نمد لكم يد الأخلاص والأخاء...».

□ **الاسكندرية**، ١٧ مايو (أيار) ١٩٢٢ ـ من «حزب العمال اللبناني» إلى الأخوان في «جمعية لبنان الفتى»: ـ «نرسل لكم نص العريضة التي قررنا عرضها على اللبنانيين لتوقيعها» ـ

وهذه فقرة من العريضة التي تعلن موقفاً صريحاً ضد الانتداب الفرنسي وعملائه: «نحن اللبنانيين الموقعين على هذا، نقرّ ونعترف باننا **لا نرضى بالانتداب في لبنان**. ونعترض على المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم، ونحتج على تطبيقها على بلادنا. ونتمسّك بمعاهدات لبنان الدولية التي بمقتضاها، وبزوال السيادة الأسمية التركية، **أصبح لبنان مستقلاً استقلالاً تاماً. ونصرّح علناً بان وجود فرنسا أو خلافها في لبنان بأية صفة كانت هو اختراق لحرمة المعاهدات الدولية**، واغتصاب لحقوق الضعيف التي يدافع عنها بسلاح الحق فقط، ونحن نطالب بحدود لبنان الطبيعية المنسلخة عنه ظلماً وعدواناً والتي بدونها ليس أمام لبنان سوى الموت. كما وأننا نتبرّأ من اللبنانيين الذين يدّعون حقّ النيابة عن لبنان فيطلبون انتداب فرنسا، فما هم سوى طلاب وظائف ونياشين ومأجورين من فرنسا لنشر دعوتها الاستعمارية في لبنان. ونحن نحتج على أدنى تدخل أو نفوذ أجنبي مهما كان. ونطالب بحياد لبنان السياسي بضمان الدول وجمعية الأمم والاشتراكية الدولية الثالثة.».

(.. فالمعركة، اللاحقة، التي سيخوضها الحزب الشيوعي اللبناني ضد الانتداب الفرنسي وعملائه ومختلف مرتكزاته.. بدأت طلائعها تظهر، وترفع رايتها العناصر الشيوعية والوطنية من العمال اللبنانيين في الاسكندرية.. حتى قبل تاسيس الحزب الشيوعي اللبناني بعامين ـ وأيضاً بدأت هذه الطلائع نفسها تُعلن حربها، التي ستنتصر فيها لاحقاً، ضد «حزب العمال» الرأسمالي،

الذي شكّله، في بيروت، المتموّلون اللبنانيون المرتبطون بفرنسا، والذي أراد له الاستعماريون الفرنسيون أن يكون أحد مرتكزاتهم وأدواتهم لاستيعاب الحركة العمالية الناشئة. وقد أتينا على ذكره خلال الفصل السابق من هذا الكتاب).

□ **الاسكندرية، ٢٩ مايو (أيار) ١٩٢٢ - إلى الأخوان في «جمعية لبنان الفتى» -** صورة بيان أرسل إلى الصحف بشأن تشكيل حزب «للعمال» في بيروت، يترأسه رأسماليون ويؤيد الانتداب ويضع نفسه بخدمة المستعمرين الفرنسيين - وهذه فقرة من البيان: - «أشيع أن بعض النفعيين شرعوا في إنشاء حزب للعمال اللبنانيين، وأنهم أرسلوا إلى القطر المصري مندوباً لترويج سياستهم القائمة على **تحبيذ الانتداب**، غير المشروع، **والمخالفة لسياستنا**. فنحذّر أخواننا العمال اللبنانيين جميعاً من الوقوع في ما تنصبه يد الاستعمار من الشراك..».

□ **الاسكندرية، ٧ يوليو (تموز) ١٩٢٢ -** وثيقة مهمة، هي الأخيرة من الوثائق الخطيّة التي حصلنا عليها. وهي الأكثر وضوحاً، وحسماً، سواء بالنسبة لتبيان هويّة هؤلاء العمّال الطليعيين الذين شكّلوا في الاسكندرية «حزب العمال اللبناني»، أم بالنسبة للموقف الكفاحي الحاسم ضد الانتداب الاستعماري الفرنسي، وضد عملاء المستعمرين الفرنسيين. الوثيقة هي بيان احتجاج موجّه إلى جمعية الأمم.. مما جاء في هذا البيان:

- «بمناسبة انعقاد جمعية الأمم في ١٦ الجاري (تموز ١٩٢٢) للنظر في مسألة الانتدابات، أرسل حزب العمال اللبناني في الاسكندرية، الاحتجاج الآتي إلى جمعية الأمم وإلى معتمدي الدول في مصر: إن حزب العمال اللبناني، **الذي يمثّل العمال والمستخدمين اللبنانيين في الاسكندرية، والذي يتكلم باسم العمال والفلاحين في لبنان،** المضغوط على حريتهم كي لا يُسمعونكم صوتهم ضد القوة الاستعمارية الحاكمة، يحتج، **أولاً: على الانتداب**، الذي لا يجوز تطبيقه على لبنان المستقل بموجب معاهدات دولية، طالباً احترام حقوقه بمقتضى القانون الدولي العام. ويحتج، ثانياً: على تأليف المجلس اللبناني (التمثيلي) بأمر **السلطة المغتصبة حقوق لبنان الشرعية**. كما يطلب، **ثالثاً**: ضمان الدول **لاستقلال لبنان التام** بحدوده الطبيعية **بلا وصاية أو**

انتداب. ـ إن دماء الملايين من الشبان التي سُفكت في سبيل نصرة الحق والحرية **تأبى أن تكون نتيجة جهادها واستشهادها استعباد شعب كان مستقلاً حراً».**

.. هذا ما أتيح لنا التوصّل إليه، حتى الآن، من أخبار «حزب العمال اللبناني» الذي أسسته (في ١٦ شباط ١٩٢٢) مجموعة طليعية من العمال اللبنانيين في الاسكندرية، وانتخبوا فؤاد الشمالي سكرتيراً له. ويبدو أن هذا القائد العمالي الشيوعي، الحيوي الحركة، كان يرى في تجمّعات العمال اللبنانيين في مصر، حقل تجارب كفاحية، على طريق الوصول إلى الحزب الشيوعي الذي يحلم به ويتطلّع إلى تأسيسه في لبنان.

فكان «حزب العمال اللبناني» هذا من جملة الإرهاصات الأوليّة التي مهدّت لتأسيس الحزب الشيوعي اللبناني فيما بعد.. ولسنا على علم، حتى الآن، بالعوامل التي قضت خلال عام وشهرين، بتحويل هذا الحزب إلى حزب آخر باسم آخر، عناصره الأساسية هي تلك العناصر الطليعية نفسها من العمال اللبنانيين، في الاسكندرية. ولكن أهدافه الاشتراكية أكثر وضوحاً، وارتباط توجّهاته، السياسية والكفاحية والنظرية، بتوجّهات الأممية الثالثة (الشيوعية) أكثر حسماً. واسمه: **«الحزب الاشتراكي السوري اللبناني»**].

.. وهكذا، أعلن فؤاد الشمالي عن تأسيس الحزب الجديد، أو المتجدّد، يوم ٢٦ أبريل (نيسان) ١٩٢٣.

فلنتابع، إذن، قصة «الحزب الاشتراكي السوري اللبناني» في الاسكندرية.

إن كل البدايات تحفل، عادة، بالطرائف إلى جانب المنجزات، بل قد يكون لبعض هذه الطرائف دور مهم في بعض تلك المنجزات. وهكذا...

«... شرعنا في تكوين جمعية ترمي إلى **تحرير** سوريا ولبنان سياسياً واقتصادياً، واتخذنا لقب الحزب الاشتراكي السوري اللبناني. وقلنا **اشتراكي لا شيوعي**، لأننا وجدنا معنى الشيوعية يتفق

والاباحية[1]... ولما وضعنا مبادئنا الأساسية التي استخلصناها من الدولية الثالثة رأينا أنها تتنافى مع معنى الإباحية، لذلك لقَّبنا أنفسنا بالاشتراكيين ـ إننا لم نؤسس حزباً كالأحزاب المعروفة لغة واصطلاحاً، بل إننا اتخذنا لجمعيتنا لقب حزب لأننا لم نجد كلمة أخرى تؤدي المعنى المطلوب، فنحن لا نرمي إلى مناوأة الأحزاب لننتصر على حزب ونحلّ محله، وما نحن سوى **لسان حال الطبقة العاملة** المغلوبة على أمرها، نعمل لتحسين حال العمال على قدر المستطاع في الحاضر، ونرمي إلى **تسليم مقاليد الأحكام وزمام الأمور إلى طبقة العمال والفلاحين** في أول فرصة تمكننا من ذلك الأمر **الجوهري** الذي ترتكز عليه مبادئنا ـ **فؤاد الشمالي**» ـ (الأهرام: ١٩٢٣/٥/٢٦).

هذا الاعلان كانت له ردود فعل، ونتائج حدّدت مكان النشاط اللاحق لفؤاد الشمالي. ولكن قبل أن نتحدث عن هذا، أحب أن أقف مع القارئ أمام هذه الظاهرة: **ارتباط الحركة العمالية في الاسكندرية بالأممية النقابية الحمراء... وارتباط الحركة الشيوعية فيها بالأممية الثالثة.**

ولسنا نريد هنا ـ ولا نستطيع الآن ـ كشف الأساس الموضوعي، التاريخي، لهذه الظاهرة. وإنما تحضرني الآن تداعيات أحداث، لها مغزاها التاريخي كما لها طابعها الملحمي، شبه الأسطوري. (بعض الحوادث الواقعية تكتسب طابعاً أسطورياً بقدر ما يتكثف فيها من مضمون كوني، وبقدر ما تتجلّى فيها بسالة الإنسان البسيط، الذي يمارس العمل الثوري ببساطة أي عمل آخر).

---

(١) عمد بعض المترجمين المتحذلقين في مصر إلى ترجمة Communism بكلمة «إباحية»!.. وذلك اشتقاقاً من كلمة «مباح» التي رأى المترجم الفذ أنها تؤدي المعنى المطلوب، تماماً، طالما أن الشيوعية (تبيح) الملكية للجميع!!... وقد انتقلت عدوى هذه الحذلقة إلى بعض الصحف اللبنانية في تلك الفترة نفسها.. فاستخدم اعداء الشيوعية هذه الترجمة لهياجموا الشيوعية بوصفها «إباحية»، والعياذ بالله!.. ولعل هذا ما دفع الشمالي أن يستبدل، في هذا البيان، كلمة «الشيوعية» بـ «الاشتراكية»...

... فهل تذكرون فيلم **«المدرّعة بوتيومكين»**؟

أخرجه المخرج السوفياتي العظيم ايزينشتين... وحكم له كبار المخرجين العالميين بأنه: «أعظم فيلم لجميع العصور».

هل تذكرونه؟

هذا الفيلم ـ المعجزة، يصوِّر ثورة بحارة المدرّعة الروسية «بوتيومكين» على أميرالات المدرّعة بعد معاناة شتى ضروب الاضطهاد والإذلال التي كان يسلّطها هؤلاء الأميرالات ضد البحارة ـ فاستولى البحارة، بقيادة العناصر البولشفية، على المدرّعة بعد أن سقط منهم عدة شهداء. وينتشر خبر المدرّعة الثائرة. وتصل المدرّعة إلى ميناء «أوديسا»، حيث يقام هناك احتفال جنائزي، ثوري، مهيب لتوديع الشهداء الثائرين. كان هذا عام ١٩٠٥. وجو الثورة في كل مكان. والسلطة القيصرية، وقد تملّكها الرعب، تقمع التحرّكات الثورية بكل ما عندها من شراسة وسلاح. وهنا تدور معركة السلالم الملحمية. أروع مشاهد الصدام في السينما العالمية على الاطلاق. على أن المدرّعة «بوتيومكين» فجّرت كوامن الثورة في «أوديسا». رحلت عن الميناء وقد سيطرت عليه قوى القمع القيصري. ولاحقتها بعض الطرادات القيصرية لتطويقها والاستيلاء عليها وقمْع بحارتها. واستطاعت الطرادات تطويق المدرّعة الثائرة، وتوجيه المدافع نحوها. ولكن الذي حدث أن كوامن الثورة في أعماق بحارة الطرادات الأخرى تحرّكت في اللحظات الحاسمة ـ فلم تنطلق المدافع!

واستمرت المدرّعة الثائرة في اندفاعها تشق الطريق أمام الثورة... وتشق شاشات السينما في العالم أجمع لتصل إلى وعي الناس تبشّر بالثورة، ممتدّة على مساحة العالم ومندفعة إلى جميع العصور.

هذه هي المدرّعة/الفيلم، وقد كثّفت عبقرية ايزينشتين مضمونها الثوري الملحمي.

أما المدرّعة الحقيقية، فقد تشرّدت في البحار، تبحث عن مرفأ تحطّ عنده، فتخشاها مختلف مرافئ العالم القديم: فهي تحمل الثورة.

... ويتحدث الدكتور رفعت السعيد ـ في كتابه «تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر» ـ عن مجموعة بولشفية تواجدت في الاسكندرية: «... وقد وصلت هذه المجموعة إلى

الاسكندرية عقب ثورة ١٩٠٥. ومن المعتقد أنها كانت مكوّنة أساساً من عدد من بحارة المدرعة «بوتيومكين»...»[١].

فهل تذكرون فيلم «المدرّعة بوتيومكين»؟

هل هذا مجرد تكهُّن، يضفي على الأحداث طابعاً أسطورياً؟

«... والحقيقة أن المجموعة البولشفية الروسية بالاسكندرية كانت تنشط نشاطاً ملحوظاً، وكانت توجّه اهتمامها أساساً إلى البحارة الروس الذين يصلون على السفن القادمة إلى الاسكندرية، وقد تمكّنت هذه المجموعة من الاتصال بروسي يملك مطبعة في حلوان حيث كانت تطبع عنده مجلة باللغة الروسية اسمها «**مارياك**» أي «البحّار» لتوزيعها على هؤلاء البحارة الروس. ولعلّ هذا النشاط هو الذي يعزّز فكرة أن معظمهم كانوا من بحارة المدرعة بوتومكين» ـ (د. السعيد: تاريخ الحركات الاشتراكية ـ ص ١٦٤).

فهل تذكرون فيلم «المدرّعة بوتيومكين»؟

وتنشر «الأهرام» في ١٩٠٧/١/١٩ هذا الخبر: «ألقي في الثغر (أي: الاسكندرية) القبض على ثلاثة من الروسيين **اللاجئين إليه على أثر الحوادث التي وقعت في بلادهم**. ويقال إن أحدهم من حملة الأقلام (الكتّاب) هناك. وسيعادون إلى روسيا مخفورين. وقد كان لهذا الحادث تأثير شديد بين النّزلة الأوروبيين في الثغر»!

لاحظ أن إلقاء القبض عليهم كان عام ١٩٠٧، وأنهم لجأوا إلى الاسكندرية «على أثر الحوادث التي وقعت في بلادهم» أي عام ١٩٠٥.

فهل تذكرون بحارة المدرّعة بوتيومكين؟

ولكن أهم من هذا كله، هو: الدافع المباشر للقبض على هؤلاء الثوار وإبعادهم إلى بلادهم، بطلبٍ متشدِّد وغاضب من قنصل روسيا القيصرية في الاسكندرية. ذلك أن نشاط هذه المجموعة البولشفية لم يقتصر على ما ذكرناه، بل إنها «ساندت العمال المصريين في إضراباتهم. وفي احدى المظاهرات العمالية خرج أعضاء المجموعة

---

(١) د. السعيد: «تاريخ الحركة الاشتراكية...» ـ صفحة ١٦٣.

يحملون علماً أحمر مكتوباً عليه: «الحزب الاشتراكي الديموقراطي الروسي: البولشفيك»...» وأن اعتقال هؤلاء الثلاثة أثار الاشتراكيين الأجانب في الاسكندرية، فنظّموا مظاهرة احتجاج، ووزعوا بياناً ختموه بهذا الشعار: «فليعش الشعب الروسي، وليسقط القيصر السفاح» ـ (الأهرام ٢٤/١/١٩٠٧) وقد حوكم بعض هؤلاء بتهمة «أنهم أهانوا جلالة قيصر روسيا وأنزلوا على الأرض الشعار الروسي» ـ (الأهرام ٢٤/١/١٩٠٧).

وهكذا اندمج نضال هؤلاء البولشفيك الروس، أعضاء حزب لينين، بنضال الطبقة العاملة المصرية بالاسكندرية.

أكثر من هذا. ففي تقرير كتبه أحد الشيوعيين الأجانب الذين عاشوا في مصر، وردت هذه الجملة (وقد نقلها د. السعيد في كتابه المذكور ـ صفحة ١٦٣):

«عندما كان لينين في فرنسا وسويسرا، كان يرسل كل رسائله إلى الحزب البلشفي عن طريق مصر. تصل إلى مصر أولاً، ومنها إلى روسيا... وبذلك أمكن تضليل الرقابة القيصرية».

فهل تذكرون المدرّعة بوتيومكين؟

فهل أن هذه المدرّعة (الواقع ـ والفيلم ـ والرمز) لا تزال تجوب العالم... تُدخل الوعي الثوري، البولشفي، إلى جميع مرافئ العالم القديم؟...

....

.... فهل عجيب، بعد هذا، أن ترتبط الحركة العمالية في الاسكندرية، خلال تحرّكاتها الثورية في العشرينيات، بالأممية النقابية الحمراء، وبالأممية الثالثة (الشيوعية) التي يقودها لينين؟

... وكان فؤاد الشمالي، ورفاقه، في القلب من هذه الحركة، يحملون تجربتها الكفاحية، ويحملون منها هذا الانتماء الثوري.

ويكون هذا الاعلان الواضح: بأن المبادئ الأساسية «للحزب الاشتراكي السوري - اللبناني» في الاسكندرية **مستخلصة من الأممية الثالثة.**

ويكون أن يثير هذا الانتماء ردود فعل عند فريق آخر قيل إنه بين اللبنانيين القاطنين في الاسكندرية - فتنشر «الأهرام» ما يلي: «تلقينا كتاباً من أحد الأدباء اللبنانيين في الاسكندرية يبحث فيه مسألة المبادئ الاشتراكية الشيوعية فيما يختص باللبنانيين والسوريين لمناسبة خبر نشرناه في عدد سابق عن تأليف جمعية شيوعية سورية في الاسكندرية، قال فيه ما يأتي: قرأت ما نشرتموه عن ظهور حركة بين الشبان السوريين واللبنانيين ترمي إلى انشاء جمعية اشتراكية تستمدّ مبادئها الأساسية من الاشتراكية الدولية الثالثة في روسيا. فهل نحن في حاجة إلى أحزاب جديدة لخدمة قضية بلادنا السياسية وعندنا منها الشيء الكثير في الوطن والمهجر؟؟. وإذا كان القائمون بهذه الحركة يعتقدون بوجوب خدمة البلاد من الوجهة الاشتراكية؟ فلماذا لا يكون سيرهم مع الاشتراكية الثانية (أي المعتدلة)؟!. هذا ما أرجوكم الرد عليه. أو فليتكرَّم البلشفيون السوريون اللبنانيون بإصدار بيان عن أعمالهم ووجهة النظر لمناقشتهم فيما أقدموا عليه من الأمور التي نعتبرها خطرة للغاية»[1].

ويبدو أن ظروفاً قاهرة - بالفعل - لم تسمح للشمالي أو لأي من جماعته، البولشفيك، أن يردّ على رسالة هذا اللبناني الغامض، المجهول. رغم أن فؤاد الشمالي - عادة - لا يترك مثل هذه الفرص تفلت من قلمه. فقد نشرت «الأهرام»، أيضاً، في ١١ حزيران ١٩٢٣، خبراً لمراسلها في الاسكندرية تحت عنوان «الحزب الاشتراكي السوري - اللبناني» جاء فيه ما يلي: «استدعت ادارة الضبط بالاسكندرية فؤاد الشمالي، وأنذرته بوجوب الكفّ عن الدعوة للاشتراكية الدولية، وقالت له يجب أن تسكت وتحذر، ويجب أن تفهم هذا الأمر».

---

(١) نشرت «الصحافي التائه» هذه الرسالة في عددها الصادر في ٩ حزيران ١٩٢٣، نقلاً عن الأهرام» دون ذكر تاريخ نشرها في «الأهرام». على كل حال فمن المفروض أن تكون منشورة بعد نشر خبر تشكيل «الحزب الاشتراكي السوري اللبناني» - (٢٦ أيار ١٩٢٣) في أحد الأعداد الصادرة منذ هذا التاريخ وحتى ٨ حزيران ١٩٢٣.

ويبدو أن الشمالي لم يسكت ولم يحذر، كما قيل له. ولم يفهم هذه الأمور كما أمر وكما ينبغي.... فصدر الأمر بأبعاده عن مصر!..

«... كان ذلك في صيف ١٩٢٣. وكتبت الصحف نقلاً عن جرائد القاهرة: إن الحكومة «المصرية» (الألعوبة في يد الاحتلال الانكليزي) ألقت القبض على جماعة من عمال معامل التبغ بالاسكندرية، بينهم عامل لبناني اسمه فؤاد الشمالي، لأنهم حرَّضوا رفقاءهم على الإضراب. (معامل التبغ كلها كانت ملكاً لرأسماليين أجانب)... وبعد يومين، قالت الصحف إنّ وزير الداخلية المصرية أمر، بناء على اقتراح حكمدار (مدير بوليس) الاسكندرية، بإبعاد العامل فؤاد الشمالي إلى وطنه لبنان لأنه «غير مرغوب ببقائه في الثغر نظراً إلى أفكاره وميوله البولشفيكية»...»[١].

وهكذا ـ يقول الشمالي ـ «غادرتُ ثغر الاسكندرية في ١٨ آب من العام المذكور (١٩٢٣) فوصلتُ بيروت في ٢٢ منه....»[٢].

وعلى ميناء بيروت كانت تنتظر الشمالي مفاجأة، أشبه بما يحدث في الأفلام البوليسية: فقد كان يوسف إبراهيم يزبك يعمل «سكرتيراً ترجماناً في دائرة مراقبة المرفأ والمهاجرة. ومن مهماته تسجيل أسماء المسافرين ذهاباً وإياباً»... وكان يترقّب بلهفة وصول الرفيق فؤاد الشمالي، وفي ذهنه أحلام اشتراكية ومشاريع. فيترقب وصول السفن من مصر ويدقق جيداً جداً بأسماء المسافرين. وذات يوم... «ذهبتُ إلى باخرة آتية من الاسكندرية قياماً بواجب الوظيفة ـ يقول يزبك ـ فاستقبلني ربَّانها بقوله: معنا بولشفيكي مطرود (كذا) والانكليز ألحُّوا عليَّ بمراقبته أثناء السفر...»[٣].

---

(١) يوسف ابراهيم يزبك: «حكاية أول نوار» ـ صفحة ٦٢.

(٢) فؤاد الشمالي: «أساس الحركات الشيوعية في البلاد السورية ـ اللبنانية» ـ **مطبعة الفوائد**، بيروت ١٩٣٥، صفحة ١٠ = ولا بد هنا من ايضاح صغير: فعندما أورد الدكتور رفعت السعيد، في كتابه «تاريخ الحركة الاشتراكية...» خبر تحذير السلطات المصرية للشمالي، والمنشور في ١١ حزيران ١٩٢٣، قال: إن الشمالي سكت، ويبدو أنه «غادر البلاد على الفور إلى الشام» (ص ٢٢٧) ولكن المعطيات التي قدّمناها تُظهر أن الشمالي لم يسكت، وأنه لم يغادر البلاد «على الفور»، بل بعد شهرين، وبقرار إبعاد من السلطات المصرية.. على كل حال، إن مختلف هذه الملابسات ربما تحتاج منا إلى تدقيق أكثر.

(٣) يزبك: «حكاية أول نوار» ـ صفحة ٦٢.

اذن، جاء الرفيق المنتظر!

«... وعند وصولي إلى مرفأ بيروت ـ يقول فؤاد الشمالي ـ صعد إلى الباخرة السيد يوسف يزبك الذي كان يومئذٍ موظفاً في قلم مراقبة المرفأ، فاستلفت نظره اسمي على جواز سفري، فوجَّه إليَّ بضعة أسئلة رسمية تتعلق بشؤون وظيفته، ومن ثم دعاني إلى النزول من الباخرة إلى المرفأ في معيّته بفلك الحكومة الرسمي... وعندما وصلنا إلى جوار مكتب مراقبة المرفأ قال لي: إنه قرأ أشياء عديدة عني في الصحف المصرية، وإنه يميل إلى المبدأ الشيوعي ويودّ أن أتخذه رفيقاً مخلصاً وصديقاً ودوداً، وأشار إلى المكتب قائلاً: هذا هو مقر وظيفتي...»[1].

ـ «... وأعطيته عنوان بيتي ـ يقول يزبك ـ كي يزورني، خارج مكتبي. وصرنا نتلاقى. وأدرك فؤاد أني ابن حلال، فصار يزورني يومياً. وكثيراً ما بات عندي. وقويت صداقتنا. وبنينا العلالي والقصور بعد الثورة الحمراء التي سننفخ بنارها قريباً... وسنعمل، وسنكتب، وسنخطب، إلى آخر معزوفة الحلم!»[2].

... على أن المسألة لم تكن مجرد حلم.

فالجداول ـ التي كانت تظنّ أنها تحلم منفردة ـ أخذت تتلاقى، في هذه العقدة الزمنية، لتؤلف طليعة النهر الكبير:

ـ يزبك وتياره الذي عبَّر عن نفسهِ في «الصحافي التائه»... وهو يعلن أنه ينتمي إلى «الأنترناسيونال الثالث».

ـ الشمالي ورفاقه اللبنانيون الذين أعلنوا أنهم يهدفون «إلى تحرير سوريا ولبنان سياسياً واقتصادياً»، وأنهم يستمدّون مبادئهم من «الدولية الثالثة» (الشيوعية).

ـ وفي الوقت نفسه (١٩٢٣) كان قد تكوَّن «اتحاد للطلاب الهنشاق» يضم مجموعة

---

(١) فؤاد الشمالي: «أساس الحركات الشيوعية في البلاد السورية ـ اللبنانية»، **مطبعة الفوائد**، بيروت، ١٩٣٥ ـ صفحة ١١.

(٢) يوسف يزبك «حكاية أول نوار» ـ صفحة ٦٣ و٦٤.

من الشباب المناضلين الأرمن، برئاسة **أرتين مادويان**. «اتجاهه يساري واضح. ويعتبر نفسه نصيراً للأممية الشيوعية».

ـ وفي بكفيا عمال الدخان، بينهم: **فريد طعمة، وأسعد المنذر، وفارس معتوق...**. «وكان هؤلاء الثلاثة، ولا سيما أسعد، يقرأون «الصحافي التائه» ـ كما روى يوسف يزبك فيما بعد ـ ويتتبعون المقالات الاشتراكية، وقد اشترك المنذر في كتابة بعضها».... وسوف يلعب هؤلاء دوراً هاماً وأساسياً. وكان ميلهم الشيوعي واضحاً.

وفي حين أخذت هذه الجداول تتلاقى. كانت تمايزات جديدة قد أخذت تحدث داخل إطار الوضع اللبناني ـ الانتدابي الجديد.

فقد مرَّ معنا أن المستعمرين الفرنسيين لم يستطيعوا أن يفرضوا سيطرتهم الانتدابية بسهولة. جوبهوا بمقاومة في سوريا، وجوبهوا بمقاومة في لبنان. واستخدمت فرنسا سلاح القمع وسفك الدم في أمكنة، وسلاح التهديد في أمكنة، وسلاح الأغراء بالمكاسب والمناصب حيث يمارس هذا السلاح فعاليته، في أمكنة أخرى! لقد ضُربت الحركة الوطنية العربية، وتفتّتت قواها. بل إن بعض العناصر العليا لهذه الحركة أخذت تكيِّف نفسها، ومصالحها، مع الوضع الجديد، وتزحف نحو المناصب العليا، في حين أصيبت عناصر أخرى بخيبة قاتلة ويأس دفعها إلى سلوك طريق الاغتيالات السياسية. وكان اغتيال أسعد خورشيد، مدير الداخلية، في ١٢ نيسان ١٩٢٢، قد جرى في هذا الإطار. واستمرت عناصر أخرى في استخدام سياسة «مطالبة الأمم» بتحقيق استقلال البلاد، بعيداً عن العمل الجماهيري، وخوفاً منه.

وفي هذا الإطار قدم المؤتمر السوري العام المنعقد في جنيف خلال آب ١٩٢١ إلى مجلس عصبة الأمم المجتمع في جنيف، في الفترة نفسها، عدة مطالب يناشده المساعدة على تحقيقها... من هذه المطالب: «الاعتراف بالاستقلال والسلطان القومي لسوريا ولبنان وفلسطين ـ إلغاء الانتداب حالاً ـ جلاء الجيوش الفرنسية والانجليزية عن سوريا ولبنان وفلسطين». ولكن هذه المطالب طُرحت على الصعيد الفوقي، أمام «عصبة الأمم»، فظلّت المطالب في تلك الأدراج... وفُرض الانتداب برعاية «عصبة الأمم» نفسها ومباركتها!.. وسوف تجد هذه المطالب تحقّقها العملي، فقط، عندما تحملها الجماهير

وتخوض المعركة في سبيلها، (وقد حدث هذا لاحقاً، خلال معارك الاستقلال عام ١٩٤٣ بمساهمة أساسية من «الحزب الشيوعي اللبناني» وبدعم فعّال من الاتحاد السوفياتي).

ومن ناحية ثانية أخذت القوى التي كانت تطالب بالانتداب الفرنسي تتفتت هي الأخرى. فالجناح الليبرالي من هذه القوى، هذا الجناح المشبع بمثُل الثورة الفرنسية، والذي كان يسكنه وهم بأن الحرية سوف تأتيه مع فرنسا، غير مدرِك أن فرنسا **الثورة** تحولت منذ سنوات إلى فرنسا **الامبريالية**، وأنها ما خاضت الحرب إلا في سبيل تقاسم العالم بين الدول الامبريالية، حسب ميزان القوى الذي تقرره نتائج الحرب، وأن لبنان وسوريا صارا ضمن «حصة» فرنسا و «ممتلكاتها»، حتى قبل نهاية الحرب بزمان، وأن ثورة أكتوبر فضحت هذا كله منذ عام ١٩١٧.. فلم تقطع البورجوازية الأصغر أملها تماماً بتعاطف البورجوازية الأكبر (الامبريالية) مع أمانيها الوطنية... فوقع الانتداب ـ هذا الجناح الليبرالي خاب أمله، ولكنه لم يتخلّ عن أسلوبه التقليدي، الفوقي، في النضال!. ففي أواخر عام ١٩٢٠ ظهر ما يسمى «حزب الاتحاد الديموقراطي»، يجمع عدداً من الليبراليين الساخطين على الفرنسيين، والانتداب. ويرسل هذا الحزب، في ١٠ حزيران ١٩٢١، برقية إلى «عصبة الأمم» نفسها خلال انعقاد مجلسها ذاك نفسه، في جنيف، تتضمّن عدداً من المطالب: (أن يكون الانتداب مؤقتاً، وشكله استشارياً محدوداً، يتناول الدوائر الرئيسية ولا يتعداها ـ أن يمكِّن أهل البلاد من انشاء حكومة وطنية نيابية مستقلة يرأسها ويديرها وطنيون ـ أن تُلغَى الامتيازات الأجنبية... الخ). مطالب فيها خيبة أمل بفرنسا، وفيها تلك الحلول الوسطية (اللبنانية)، ولكن أسلوب رفعها هو نفسه الأسلوب الذي تعوّدت عليه البورجوازية الاصلاحية: طلب المساعدة من الدول، بعيداً عن الجماهير...

ولكن إلى جانب هذه التمايزات الفوقية كانت تجري تمايزات أعمق داخل مجتمع لبنان ـ الانتداب هذا: آلاف الفلاحين يتركون أراضيهم نتيجة قانون مسح الأراضي الذي بدأ العمل به منذ ١٩٢٠. الهدف الأساسي للقانون: تقوية مواقع الاقطاع والمرابين بتوسيع أراضيهم، وتحويلهم إلى أداة قمع سياسي بيد الانتداب ـ فؤاد عمون يكتب: إن الفلاحين في لبنان يطالبون بتأميم الأرض، كما جرى في روسيا ـ الهجرة الفلاحية الداخلية نحو المدن تؤدي إلى تنامي الطبقة العاملة، وتؤدي كذلك إلى تكاثر العاطلين عن العمل ـ صناعة الحرير تهبط، نتيجة للمنافسة، ومعامل الحرير تنخفض ٥ مرات ـ صناعة التبغ تنخفض بدرجة أقل، خصوصاً بعد فرض سيطرة شركة حصر التبغ

والتنباك الفرنسية (الريجي) سيطرتها على جمع أراضي لبنان الكبير بما فيها أراضي الجبل منذ أواخر ١٩٢٣[١]. (التكاتف العمالي في هذه الصناعة، وتوافر العامل الذاتي، ستجد تعبيرها السياسي في تأسيس «النقابة العامة لعمال الدخان» على أسس طبقية واضحة، ثم تأسيس «حزب الشعب اللبناني» كما سيمر معنا) ـ تكاثُر الأيدي العاملة يرافقه انخفاض في قدرة التشغيل نتيجة المنافسة الأجنبية وتأثّراً بأزمة النقد في فرنسا عام ١٩٢٠ ـ هذا كله يطرح أمام العمال مسألة المطالبة بزيادة الأجور، وتخفيض ساعات العمل...

وتبدأ التحركات المطلبية:

عمال سكة الحديد يعلنون إضراباً شاملاً عام ١٩٢٠ من أجل زيادة الأجور ـ المواطنون في بيروت يقاطعون شركة الترامواي الأجنبية في تموز ١٩٢٢ وذلك «ضد استبداد الشركة التي امتصت وما برحت تمتص دماءنا بأسعارها الفاحشة» ـ («المعرض»، ٩ تموز ١٩٢٣) ـ ويقوم المستأجرون بمظاهرات احتجاجية ضد الملاّكين وضد التمييز في الدفع بين المواطنين وبين الأجانب، وتنطلق المظاهرات في بيروت (٢٠ آذار ١٩٢٣) وتقفل المحلات في العاصمة، وتقع اصطدامات بين الأهالي المتظاهرين وبين قوى الأمن... وتسيِّر الحكومة دوريات في شوراع بيروت لمنع التجمّعات. ويعلّق «الصحافي التائه» على هذه الحركة بقوله: «وهكذا تكون ابتدأت فعلياً مقاومة الشعب ضد الملاكين» ـ (العدد ٤٧، في ٢١ آذار ١٩٢٣) ولكن «الصحافي التائه» يبدي ملاحظات هامة جداً، في عدده التالي (٢٤ آذار ١٩٢٣) تكشف العلاقة العضوية بين سلطات الانتداب وكبار الملاّكين والرأسماليين: «هناك حالة غير مرضية في جريان السياسة مع الانتداب تجعل للرأسمالي والملاّك امتيازات جديدة معنوية يستمدونها من الحكومة فوق امتيازاتهم المادية بكونهم متموّلين أغنياء لهم النفوذ الوهمي على باقي الطبقات. وهذا هو السبب بترك قضية الايجارات معلّقة لا سبيل لحلها إلا بإغضاب الملاّكين ـ والحكومة لا تريد هذا ـ والمعروف الأكيد: أن الطبقة

---

(١) د. مسعود ضاهر ـ المصدر السابق، ص ١٠٢ وما بعدها.

العاملة ما بدأت تدرك حقيقة مركزها إلاَّ بعد ما رأته من ضغط الملاّك ومعاونة الحكومة له في قضية الايجارات التي هي الشغل الشاغل اليوم في بيروت».

فمن هي القوة السياسية، المنظّمة، التي تنظِّم هذه التحركات، وتطرح مطالب الفئات المسحوقة المظلومة، وتوجّه كل هذا ضد: الانتداب، والاستثماريين، وكبار المتموّلين الذين ارتبطت مصالحهم بمصالح المستعمرين.

البلاد في شوق إلى ولادة هذه القوى السياسية الجديدة. فليس في الميدان، خلال تلك الفترة، أية قوة، إطلاقاً، تتصدّى للنضال في سبيل مطالب الشعب، وفي سبيل تحرّر لبنان، واقامة الدولة الوطنية المتحرّرة المستقلة؟ وقد مرَّ معنا: أنه في الفترة نفسها (بين ١٩٢٢ و١٩٢٣) كانت الأصوات ترتفع، من على صفحات «الصحافي التائه» خاصة، مطالبة بإيجاد الحزب الثوري، الاشتراكي، للطبقة العاملة، هذه الأصوات التي اتجهت بصورة أساسية إلى يوسف يزبك، تطالبه هو بالعمل على ايجاد هذا الحزب. ومرَّ معنا: أنه، في الفترة نفسها (نيسان ١٩٢٣) تأسست في زحلة «نقابة عمال زحلة» على أسس ديموقراطية، وبالتعارض مع «حزب العمال» الرأسمالي البيروتي، فنالت ترحيباً واسعاً، ورحّب بها يزبك نفسه، رغم أنها كانت تضم، إلى جانب العمال، بعض الحِرَفيين وأصحاب العمل الصغار. ومرَّ معنا: أن «حزب العمال» الرأسمالي من المستحيل أن يتصدّى لحمل أي مطلب من مطالب العمال والجماهير، فهو حزب السلطة وحزب الرأسماليين وأداة نفوذ لرؤسائه الأثرياء... وهذا الواقع بالذات هو أساس التفسُّخ الذي بدأ يمزق هذا الحزب بانتظار انهياره الكامل تحت وطأة الضربة القاضية.

... هكذا كانت الظروف عندما وصل فؤاد الشمالي إلى بيروت، في ٢٢ آب ١٩٢٣، والتقى يوسف يزبك... واكتشفا أنهما كانا يتّجهان، منفردين، نحو هدف واحد.

كانت هذه الظروف كلها هي المِهَاد الطبيعي، لظهور الضرورة التاريخية: **ولادة الحزب الجديد**، الثوري، المختلف نوعياً عن جميع التنظيمات التي تفتتت، والتنظيمات القائمة.

حزب جديد، يمثل القوى الجديدة: الطبقة العاملة، وجميع الكادحين في الريف وفي

المدينة والمثقفين الثوريين والوطنيين ومختلف الذين يريدون تحرير البلاد من الاستعمار، وتحرير الشغيلة من الاستثمار.

حزب واضح الوجه، والفكر، والسواعد: طبقي، ماركسي، بولشفي.

كان لا بد من ولادة: **الحزب الشيوعي.**

يقول فؤاد الشمالي: «في أوائل آب سنة ١٩٢٣ قال لي أمين السر العام للحزب الشيوعي المصري إن لجنة الحزب المركزية قررت تكليفي السفر إلى لبنان للقيام بنشر الدعاية اللازمة لتأليف حزب شيوعي لبناني سوري»(١). ولا يذكر الشمالي، صراحة، أنه جاء إلى لبنان بعد قرار السلطات المصرية إبعاده لنشاطه الشيوعي، فيجعل السبب الأول (الدعاية لتأليف حزب شيوعي) هو السبب الأساسي لمجيئه...

ليس عندنا أية معطيات أخرى، غير كلمة الشمالي هذه، تؤكد، أو تنفي، وجود مثل هذا القرار من قبل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري. ولكن كثيراً من المعطيات يؤكد أن القسم الشرقي في الأممية الشيوعية أخذ يولي اهتماماً جدّياً، في تلك الفترة نفسها، بمسألة وجود حزب شيوعي في لبنان وسوريا بعد أن تأسس حزب شيوعي في مصر (١٩٢١) وحزب شيوعي في فلسطين (١٩١٩). وأن هذين الحزبين انتميا إلى «الأممية الشيوعية»، وهناك علاقات وثيقة بين هذين الحزبين وبين دوائر الأممية الشيوعية، سواء عن طريق المراسلات أم عن طريق مندوبين من الأممية، ومندوبين من هذين الحزبين في المؤسسات التابعة للأممية في موسكو...

فإذا لم يتأكد تماماً أن الشمالي جاء بتكليف من الحزب الشيوعي المصري «لنشر الدعاية اللازمة لتأليف حزب شيوعي لبناني سوري»... فإن الشمالي، على كل حال، جاء حاملاً تجربته النضالية والحزبية في الحركة النقابية والحزب الشيوعي المصري، وأنه تصرّف بالضبط هكذا: بدأ بالعمل النقابي، ونشر الدعاية لتأليف حزب شيوعي، وكوّن

---

(١) فؤاد الشمالي: «كيف تنظمت الحركات الشيوعية السرية في سوريا ولبنان» ـ مجلة «العاصفة» العدد ٤٩، في ٢٢ تموز ١٩٣٣، صفحة ١٦ ـ راجع أيضاً كتاب الشمالي «أساس الحركات...» ـ صفحة ١٠ وهو نص معدل للمقالات المنشورة في «العاصفة».

عدداً من الشيوعيين العمال في معامل الدخان، وصار واحداً من أبرز مؤسسي الحزب الشيوعي اللبناني.

ولكن، لماذا نستبق الأحداث؟

عندما وصل فؤاد الشمالي إلى لبنان، والتقى بيوسف يزبك. ذهب إلى انطلياس حيث يشتغل شقيقه نسيم الشمالي في أحد معامل الدخان. ولكنه لم يستقر فيها، فذهب إلى زحلة حيث يوجد كذلك مشغل لصناعة الدخان، ثم إلى الشياح، ثم إلى بكفيا حيث استقر هناك. وكان في بكفيا معامل عديدة للدخان، وتجمُّع أكبر لعمال الدخان، وعدد من العمال الطليعيين (منهم: فريد طعمة، بطرس حشيمة، بشارة كامل، الياس سرور الكعدي....) يهدسون ببعض الأفكار، ويقرأون «الصحافي التائه»، ولا تزال قضايا التنظيم مبهمة عندهم، فيحلمون.

لعلها مصادفة أن يكون فؤاد الشمالي عامل دخان.

ولكنها ليست مصادفة أن تكون معامل الدخان أكثر من غيرها، في لبنان، خلال تلك الفترة. وأن تكون كثافة العاملين فيها، وشمول مراكز العمل عدة مناطق شعبية، مهَّاداً طبيعياً لقيام حركة عمالية تختلف، في ممارساتها للنضال الطبقي، المطلبي، عن مختلف التجمُّعات العمالية الأخرى خلال تلك الفترة في لبنان.

وهذا بالذات ما يفسّر السرعة المدهشة، التي تمّ فيها تشكيل «النقابة العامة لعمال الدخان» ثم تأسيس «حزب الشعب اللبناني» المرتكز أساساً على هذه القاعدة العمالية نفسها ـ ثم تكوين عدد من الشيوعيين من هؤلاء العمال ـ بعد بضعة أشهر من وصول الشمالي.

التقديرات الاحصائية لعدد العاملين في صناعة الدخان خلال تلك الفترة في لبنان، تختلف وتتفاوت كثيراً. ولكن لا يوجد أي اختلاف أساسي حول تقدير النوعية الجديدة التي أوجدتها هذه التجمُّعات داخل الحركة العمالية.

جاء في كتاب جاك كولان «الحركة النقابية في لبنان»: أن «معامل الدخان ـ في لبنان ـ كانت أوفر عدداً (من المعامل الأخرى)، ويقدّر عددها بمئتين في بداية هذا القرن. وهي تستخدم ألوفاً من العاملات والعمال، ولعلّ عددهم ١٠٠٠٠، وتحتوي

بيروت على أفضل المعامل تجيهزاً، بإشراف الريجي العثمانية للتبغ. والمعامل الأخرى أصغر منها ومركَّزة في الجبل، ومستقلة عن الريجي (حتى نهاية عام ١٩٢٣...) ومراكزها الرئيسية بكفيا وحمانا وزحلة»[١].

وفي ملاحظات مخطوطة لأرتين مادويان ينخفض هذا الرقم «... وكان يوجد فبارك ومانيفاكتورات تبغ وسجائر تعود إلى رأسماليين لبنانيين (قاصوف ـ صوايا... الخ...) في: بكفيا، بسكنتا، انطلياس، الخنشارة، ضهور الشوير، الشياح، زحلة... الخ... هذه المراكز كانت قد أصبحت مراكز تجمُّعات عمالية، وكان عدد عمال التبغ يتجاوز الـ ٢٠٠٠».

ثم يرتفع هذا الرقم ارتفاعاً هائلاً، فقد جاء في بيان نشره وديع الشيخاني، سكرتير نقابة الدخان، عام ١٩٢٥ أنه: «يوجد في البلاد ١٢٠ ألف عامل وعاملة من جميع الطوائف، عدا المزراعين، يعيشون من صناعة الدخان وزراعته وتجارته، هم في كل دقيقة مهددون بانقطاع معاشهم ومعاش عيالهم من جراء الاحتكار...»[٢]... ولعلّ ارتفاع هذا الرقم عائد إلى أنه شمل **العاملين في زراعة الدخان وفي تجارته إلى جانب العمال في المعامل**. ثم أن هذا الرقم من معطيات ١٩٢٥، وليس قبل هذا التاريخ حسب معطيات كولان ومادويان.

ولا نستطيع الآن التحقق من واقعية هذه التقديرات الاحصائية. هذا الأمر، على أهميته، لا يهمنا الآن كثيراً. ما يهمنا هو: أن هذه التجمُّعات العمالية، كانت هي المهاد التاريخي لقيام **أول نقابة عمالية في لبنان مستقلة عن أرباب العمل**، وتنطلق في نضالها من مواقف ثورية، طبقية، ويتكوَّن فيها عدد من الشيوعيين العمال.

استقر فؤاد الشمالي، إذن، في بكفيا، يشتغل عاملاً في أحد معامل التبغ هناك. وبدأ مباشرة يمارس نشاطه.. أو على الأصح: أخذ يتابع نشاطه الذي بدأه في مصر داخل الحركة العمالية، وفي قلب العمل الثوري: «... وأخذتُ في بادئ الأمر ـ يقول الشمالي ـ

---

(١) نقل كولان هذه المعلومات عن كتاب من تاليف اسماعيل حقي بك بعنوان «لبنان، مباحث علمية واجتماعية»، صفحة ٣٦٥ ـ أما الرقم ١٠٠٠٠ فقد اخذه كولان عن «مجلة العمل الدولية»، مقال بعنوان «ظروف العمل في الصناعات القديمة والحديثة في سوريا» ـ الجزء ٣، آذار ١٩٣٤.

(٢) وديع الشيخاني: «إلى ابناء الامة اللبنانية» ـ مجلة «المعرض»، العدد ٤١١، الخميس ٢٥ حزيران ١٩٢٥.

أنشر دعاية بين أخواني العمال لتأسيس نقابة لنا... فأثمرت الدعاية، وتأسست (النقابة العامة لعمال الدخان في لبنان). وانتُخبتُ عضو هيئتها الادارية. ولكن السيد كايلا، حاكم لبنان الفرنسي، رفض أن يعطي مؤسسي النقابة «العلم والخبر» بتأسيس النقابة إلاّ إذا حذفوا اسمي من بين أسمائهم، وذلك لأني كنت معروفاً بشيوعيتي من القطر المصري. فاقترحتُ على أخواني أن يلبّوا طلب الحاكم، ففعلوا...»[1].

وهكذا، في صيف ١٩٢٤ أجيزت «النقابة العامة لعمال الدخان في لبنان». سكرتيرها العام: فؤاد الشمالي، ومن المؤسسين الأعضاء في الهيئة الادارية نذكر أسماء: بطرس حشيمة، إبراهيم اسطفانوس، فريد طعمة.

ودخلت الحركة النقابية في لبنان مرحلة جديدة. أو على الأصح: **وُلدت الحركة النقابية الصحيحة، المستقلة عن أرباب العمل، في لبنان.**

«... وبذلت هذه النقابة جهدها للحفاظ على استقلالها وللانتشار إلى خارج بكفيا داعية عمال التبغ الآن للانتساب إليها. وأسست في الأشهر التالية فروعاً لها في ضهور الشوير، والخنشارة، وبتغرين، والشياح. كما أضحت النقابة تمثل، في بكفيا نفسها، مركزاً لالتقاء العديد من عمال الصناعات الأخرى. وعملت لتخطّي إطار النشاط التعاضدي، ساعية للاستغناء عن وساطة الشخصيات. متلمّسة لنفسها أشكالاً من العمل تناسبها وتميّزها، ولا سيما مع نمو القلق في نفوس عمال التبغ إزاء اعتماد الماكينات في بعض المعامل وما يحمله في طياته من تهديد بالبطالة لا محالة»[2].

«... هذه النقابة ـ حسب كلمات أرتين مادويان في ملاحظاته المخطوطة ـ كان لها نفوذ كبير لا يتحفظ تجاهه أحد بين جميع عمال التبغ. وقد تأسست بمبادرة من فؤاد الشمالي وبعض العمال اللبنانيين الآخرين الذين كانوا سابقاً في مصر حيث ارتبطوا بالحركة العمالية.

وكانت هذه النقابة من القوة بحيث تجمّع حولها عدد من المثقفين ذوي الميول الديموقراطية والذين كانوا يبحثون عن دعم لهم بين الجماهير».

---

(١) الشمالي: «أساس الحركات...» ـ صفحة ١١.

(٢) جاك كولان: «الحركة النقابية في لبنان».

ماذا نستنتج من هذا كله؟

واضح أن العناصر المؤسسة لهذه النقابة هي عناصر شيوعية ـ فالحركة النقابية الحقيقية، المستقلة عن أرباب العمل، وذات الموقف الطبقي الواضح، والواعي، وُلدت، إذن، في لبنان، على أيدي شيوعيين، مع ولادة الحركة الشيوعية نفسها التي أخذت عناصرها تتجمّع لتؤسس حزبها في العام نفسه (١٩٢٤). وهذا الواقع سوف يحكم مختلف مراحل التطور اللاحق للحركة العمالية في لبنان، وسوف نرى الشيوعيين، باستمرار، في المركز من جميع المعارك التي خاضتها الحركة العمالية، وفي أساس جميع الانتصارات والانجازات التي حققتها، وفي قيادة أول اتحاد عام للنقابات في لبنان (برئاسة **مصطفى العريس**، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني)، وفي أساس الوحدة القائمة حالياً للحركة النقابية في لبنان ـ (أي: عام إنجاز هذا الكتاب ١٩٧٤).

وسوف تلاحظ مجلة «الأممية الشيوعية» هذه الخاصية عندنا، بعد عامين من تأسيس الحزب الشيوعي، وتؤكد على الطابع الجديد للنضال الطبقي عندنا بوصفه، في الوقت نفسه، نضالاً ضد الامبريالية.

«... إن الحركة العمالية في سوريا (أقرأ: سوريا، ولبنان، وفلسطين) كانت لها، منذ البدء، قيادة جيدة ومضمونة وموثوق بها. وعند ميلاد الحركة العمالية السورية: نهض الحزب الشيوعي بوصفه حارساً أميناً للثورة. وهذا واقع ينبغي أخذه بالحسبان: **لقد ولدت الحركة العمالية في سوريا كحركة شيوعية**. وهي إما أن تتطور بهذه الصفة أو لا تتطور. وهذا مفهوم على كل حال: إن الحركة العمالية التي عاهدت نفسها على النضال ضد الامبرياليين الأجانب، لا بد لها أن تسلك، حتماً، طريق النضال الثوري بتحالف مع حركة التحرر الوطني، أي: **لا يمكنها إلا أن تسير في طريق اللينينية العريض**»[١].

---

(١) مجلة «المراسلات الأممية»: «قوى الثورة في سوريا»، العدد ١٠٠، السنة ٦: في ٨ أيلول ١٩٢٦ ـ صفحة ١١٠٧.

فهل كان الشيوعيون الأوائل عندنا، يعون تماماً هذا الأفق؟ المسألة، في تلك المرحلة الجنينية التكوينية، قد لا تبدو على صعيدها النظري بالوضوح الذي تتجلّى فيه خلال الممارسات العملية، والمعارك.

إن تصاعد مراحل التكوين هذه، وبسرعة، توضح أن هذا الأفق، أو هذا التوجّه، هو في أساس وفي طبيعة هذه العملية التكوينية نفسها.

فلنتامل حركة التصاعد هذه:

ـ إن تأسيس «النقابة العامة لعمال الدخان» لم يكن، كما يظهر فيما بعد، سوى خطوة أولى، هامة، على الطريق. ويبدو أن المؤسسين كانوا يعون: **أن النضال النقابي يبقى محدوداً ضمن القضايا المطلبية، ومحصوراً فيها، فلا بدَّ لهذا النضال أن يندرج حتماً في إطار أوسع وأعم، إطار حركة تعبئ هذه النضالات النقابية والتحركات الشعبية لتصب في اتجاه سياسي، ثوري، لا يستهدف فقط هذه المجموعة الرأسمالية أم تلك، بل يستهدف النظام الرأسمالي بالذات.**

ـ وجاءت الخطوة الثانية، مباشرة، بعد تأسيس النقابة، في العام نفسه: تأسيس حزب سياسي يرتكز على هذه القواعد العمالية، وبالدرجة الأولى عمال الدخان، وظهر **«حزب الشعب اللبناني»** عام ١٩٢٤، حزباً عمالياً بتوجُّهاتٍ ديموقراطية وطموح إلى النشاط العلني، سكرتيره العام فؤاد الشمالي، وكان هذا الحزب، كما يقول كولان، «حقل تجربة للحزب الشيوعي»، الذي تشكّل عناصره النواة القيادية الأساسية «لحزب الشعب اللبناني».

ـ «... وبعد تأسيس حزب الشعب اللبناني ـ يقول الشمالي ـ أخذت انتقي من أعضائه أشد العمال نهوضاً وتثقيفاً وحماسة، وأفهم كل منهم ـ على حدة ـ أني مكلَّف تأسيس حزب شيوعي، وأن البعض من الأخوان أصبحوا مستعدين لتأسيس الحزب. ولم أزل أعمل بينهم إلى أن أصبح عددهم عشرة رفاق في بكفيا فعقدنا الاجتماع الشيوعي اللبناني الأول في منزلي»(١).

---

(١) فؤاد الشمالي: «أساس الحركات الشيوعية...» ـ صفحة ١٢.

كان هذا في ٢ أيلول ١٩٢٤.

ويقول الشمالي إنهم اتفقوا على أن يكتب هو إلى أحد فروع الكومنترن (الأممية الشيوعية) للاتصال به... «والحصول منه على نسخة من القانون العام للأحزاب الشيوعية»... ويقول الشمالي إنه كتب إلى الحزب الشيوعي المصري ولم يتلقّ أي جواب «لأن أكثرية أعضاء اللجنة المركزية للحزب المصري كانوا قد أصبحوا في غياهب السجون»... فهل استطاع الشمالي بعد هذا اجراء اتصال ما «بأحد فروع الكومنترن»؟. ولكن الواضح أنه، إلى جانب مجموعة بكفيا الشيوعية، كان بعض المثقفين يلتفون حول يوسف يزبك، ويطلقون على أنفسهم اسم: «بولشفيك»... وأن مندوباً من «الأممية الشيوعية» سيكون حاضراً خلال اللقاء بين عناصر من هاتين المجموعتين، وكان يعرف بالطبع شروط انتساب الأحزاب الشيوعية إلى الأممية.

فكيف تمّ الاجتماع الأول بين هذه العناصر، وتكريس نشوء «الحزب الشيوعي اللبناني»؟. ومن هم أوائل الروّاد هؤلاء؟

كان يوسف يزبك قد نشر ـ كما مرّ معنا ـ مقالاً في مجلة «المعرض» (١٩/ تشرين الأول/ ١٩٢٤) عن وفاة أناتول فرانس، وفيه كلمات ومضامين لفتت نظر القسم الشرقي في دوائر «الأممية الشيوعية»، ومن كلماته:

«مات أناتول فرانس.
مات صديق العمال والفلاحين.
مات صديق المظلومين والفقراء.
مات صديق الحرية ورسولها».

وفي المقال تقدير لأناتول فرانس ككاتب عظيم، وكبولشفيكي.

... وجاء جوزيف برجر إلى لبنان، مندوباً من «الأممية الشيوعية»، عن طريق الحزب الشيوعي الفلسطيني... والتقى يزبك... (ـ أنت اشتراكي؟ ـ بل شيوعي!. ـ أنتم كثُر؟ ـ عدة أصدقاء! ـ هل بينكم عمال؟ ـ نعم... فؤاد الشمالي!).

يقول الشمالي: «في أواخر عام ١٩٢٤ أخذت كتاباً من السيد يوسف يزبك يدعوني به إلى موافاته إلى فندق أوروبا في بيروت لأمر هام، فلبّيت دعوته ووصلت إلى الفندق في الموعد المعين، فدخل بي السيد يزبك إلى غرفة في الطابق الأعلى، فإذا أنا أمام رجل في العقد الثالث من عمره، وعلى عينيه نظارات سوداء، وقد أرخى لحية مهابة وارتدى ثياباً تدل على أنه من أبناء الطبقة الوسطى. وعرّفني إليه يوسف بقوله: هذا هو الرفيق فلان! وأشار إليه قائلاً لي: أعرِّفك إلى هذا الرفيق، وهو مندوب لتأسيس حزب شيوعي في لبنان، وقد طلب إليّ أن أكتب إليك لتأتي إلى هناك فيراك. ويحادثك قبل عقد الاجتماع الذي اتفقنا على عقده هذه الليلة»[١]...

وعندما تأكد الشمالي أن جوزيف برجر هو بالفعل عضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني، ومراسل لمجلة «المراسلات الأممية» التي تصدرها الأممية الشيوعية ومُرسَل من القسم الشرقي في دوائر الأممية للاجتماع بالعناصر الشيوعية في لبنان، بعد أن لفت نظرها مقال يوسف يزبك الذي يوحي بوجود هذه العناصر ـ قال له الشمالي: هناك عشرة رفاق في بكفيا.

وكان الشمالي يرغب أن يكون الاجتماع في بكفيا، مع الرفاق الشيوعيين هناك. وكان رأي برجر أن من الضروري عقد اجتماع مشترك اليوم، في بيروت.

مساء الجمعة، ٢٤ تشرين أول ١٩٢٤.

منطقة «الحدث»، ضاحية من بيروت. شبح شخص يتجه نحو بيت من طابقين. يختفي. يظهر شبح آخر، يتجه نحو البيت نفسه. بعد قليل. شبح ثالث، ورابع.

في إحدى غرف البيت. عدد الأشخاص تجاوز العشرة. بينهم عمال وبينهم مثقفون.

---

(١) فؤاد الشمالي: أساس الحركات الشيوعية...» ـ صفحة ١٤.

أسماء بعضهم: **يوسف يزبك** (صحافي، وموظف في دوائر المرفأ). **فؤاد الشمالي** (عامل دخان، سكرتير عام النقابة العامة لعمال الدخان). **فريد طعمة** (عامل، من بكفيا). **الياس قشعمي** (اسكافي). **نمر هِبَه** (محام). **الياس أبو ناضر** (محام). **الياس جهشان** (محام). **شفيق مظهر** (مستخدم في شركة كوك) **جوزف برجر** (عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني، مراسل مجلة الأممية الشيوعية).

موضوع الاجتماع: تأسيس حزب شيوعي في لبنان.

البيت، حيث عُقد الاجتماع، ملك عبدالله الشدياق. وبجواره، بيت شدياقي آخر نشأ فيه المفكر اللبناني الموسوعي أحمد فارس الشدياق: أول عربي نحت كلمة «الاشتراكية» في مقال هام نشره في جريدته «الجوائب» التي كان يصدرها في الآستانة أيام العثمانيين (بين ١٨٦١ و١٨٨٣). وقد وضع الكلمة على أساس ما تعنيه وليس على أساس الترجمة الحرفية لكلمة Socialisme واشتقها من كلمة اشترك، يشترك، اشتراكاً، فهي إذن... «اشتراكية».

تقولون: هذه مجرد صدفة! نعم، من حيث مكان البيت. ولكنها صدفة رائعة. أليس كذلك؟. وهي تكشف عن مضمون فكري هو بمثابة قانون: فالحزب الشيوعي هو الوريث الشرعي لكل ما هو تقدمي، ثوري، في النتاج الثقافي، المعرفي، للشدياق وأمثاله من رجال الثقافة العربية الكبار، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بأول من وضع كلمة «اشتراكية» في اللغة العربية؟

... ونوقشت في الاجتماع عدة قضايا، منها: ضرورة إصدار جريدة تكون لسان حال هذا التجمُّع، وطرحت كذلك مسألة تأييد، أو عدم تأييد، قرار كانت أصدرته سلطات الانتداب، يقضي بتسليم الأسلحة الموجودة لدى المواطنين إلى هذه السلطات. وكان

قسم من الحضور لا يوافق على قرار الفرنسيين. وقسم آخر يقترح الموافقة بحجة: أن الفلاحين هم تحت نفوذ الاقطاعيين، وبالتالي يمكن أن تستخدم هذه الأسلحة في مصلحة هؤلاء الاقطاعيين!... واقترح يزبك ـ كما قال في تصريح خاص ـ أن تتركّز نار النضال ضد الفرنسيين بشكل رئيسي. ووجد من يقول: بل ضد الاقطاعيين والبورجوازيين المحليين بشكل رئيسي. (سوف يظهر من خلال الممارسة أن النضال أخذ يتوجَّه ضد الفرنسيين، خصوصاً خلال انفجار الثورة السورية عام ١٩٢٥، وضد الاقطاعيين والبورجوازيين المتحالفين مع سلطات الانتداب). وجرى حديث عمّا ينتظر الشيوعي من ملاحقات واعتقال واضطهاد. وحديث عن الحركة العمالية ونقابة عمال الدخان بشكل خاص.

وقد وافق على تأسيس الحزب الشيوعي أربعة أشخاص من الذين حضروا هذا الاجتماع هم: يوسف إبراهيم يزبك (مثقف) فؤاد الشمالي (عامل) فريد طعمة (عامل) الياس قشعمي (عامل). ثم انضم إليهم بطرس حشيمة (عامل) الذي لم يكن حاضراً الاجتماع، وهو من العناصر الشيوعية في بكفيا. وانتُخب يوسف يزبك، في هذا الاجتماع، سكرتيراً للحزب.

بعد أيام، عُقد اجتماع آخر، في بكفيا هذه المرة... وهناك، فوق هذا الجبل اللبناني، أنشد الحاضرون، لأول مرة في لبنان، «النشيد الأممي». ثم أنشدوا النشيد الخاص «بحزب الشعب اللبناني» الذي تقرر، في هذا الاجتماع، أن يكون الوجه العلني للحزب الشيوعي، من خلاله يمارس الحزب الشيوعي مختلف النشاطات التي يريدها علنية، ويلفّ حوله مختلف العناصر الديموقراطية، طالما أن توجُّهات هذا الحزب العمالي هي توجهات ديموقراطية، وأن يسعى الحزب إلى «تنظيم العمال والفلاحين بالنقابات والدفاع عن مصلحتهم المشتركة، ومساعدتهم لينالوا حقوقهم الكاملة في الحياة»[١].

صار في لبنان، إذن، حزب شيوعي.

فماذا يعني وجود هذا الحزب في الحياة السياسية، والاجتماعية، وأساليب النضال؟

□ «لقد كان نشوء الحزب الشيوعي ضرورة تاريخية للدفاع عن

---

(١) فؤاد الشمالي: «نقابات العمال» ـ صفحة ٤٥.

مصالح الكادحين والنضال من أجل تحريرهم السياسي والاجتماعي:
ـ فهذا الحزب، وحده، قادر على بث الوعي الاشتراكي العلمي في صفوف الشغيلة وتنظيمهم وقيادتهم إلى الاشتراكية.

□ «**وكان** نشوء الحزب الشيوعي، ضرورة وطنية لقيادة نضال الجماهير الشعبية لتحرير الأرض اللبنانية من الاستعمار الفرنسي، وتحقيق الاستقلال الوطني:
ـ ففي ظروف تعاون الاقطاعيين وممثلي البورجوازية الوسيطة، بحكم ارتباطها مصلحياً بالاستعمار، تصدّت الجماهير الشعبية لحمل المسؤولية الأولى في المعركة الوطنية، وخلقت في خضم المعركة تنظيماتها وقياداتها.

□ «**وكان** نشوء الحزب الشيوعي انعطافاً هاماً في حياة الطبقة العاملة والجماهير الكادحة.
ـ فلأول مرة في لبنان، لم تبق الجماهير الشعبية محرومة من قيادة سياسية طليعية تعتمد النظرية العلمية، الماركسية ـ اللينينية.

□ «**وكان** لقيام الحزب الشيوعي أثره الكبير في الحركة الوطنية والحياة السياسية في البلاد:
ـ ففي ضوء الماركسية ـ اللينينة، من حيث هي أداة تحليل وتفسير، بات بالإمكان فهم الظاهرات والأحداث السياسية والاجتماعية، وردّها إلى الأسباب الحقيقية التي تولدها: سيطرة الاستعمار، والنظام الاستثماري القائم. وأخذ يزداد الدور التحويلي للماركسية ـ اللينينة في الحركة الاجتماعية، مع تعاظم نشاط الحزب السياسي والتنظيمي والفكري.

□ «**إن** دخول الحزب الشيوعي اللبناني معترك النضال قد أخرج العمل السياسي من إطاره المحدود (إذْ كان يمارسه نفرٌ ضيق من ممثلي الطبقات المستثمرة وبعض المثقفين الوطنيين) وجعله قضية

الجماهير، وطرح أشكال تنظيم وأساليب نضال جديدة لم تكن قد عهدتها، حتى ذلك الحين، الحركة الوطنية والحياة السياسية في البلاد.

□ «ودأب الحزب الشيوعي على توضيح وإظهار الرابطة العضوية بين الحركة المطلبية للشغيلة والكادحين، والحركة الوطنية لكل الشعب في سبيل التحرر من السيطرة الاستعمارية وتحقيق الاستقلال. وبالنسبة للحزب: لم تكن «القضية الاجتماعية قضية عدالة وديموقراطية فحسب، بل إنها أيضاً احدى القضايا الوطنية البالغة الأهمية».

□ «إن الحزب الشيوعي، برفعه راية مقاومة الانتداب، وبنضاله في سبيل الاستقلال والحكم الديموقراطي، وبدفاعه عن مصالح الكادحين وأمانيهم، قد أثار مخاوف المستعمرين، فسلّطوا ضده أجهزة القمع...»[(١)].

... وانطلق نشاط الحزب، في مرحلته الأولى، من خلال التنظيم السياسي الذي أراده أن يكون علنياً: (حزب الشعب اللبناني)، يرفع راية الديموقراطية، ومطالب العمال، ويعمل من أجل تنظيم العمال في نقابات جديدة، حقيقية، مستقلة عن أرباب العمل، ومناضلة ضد الاستثمار.

واستطاع الحزب، بالفعل، بتوجّهه الديموقراطي، أن يلفّ حوله عدداً كبيراً من المثقفين الليبراليين، والشخصيات السياسية الديموقراطية التي بدأت تتخذ مواقف معارضة للأعمال والتنظيمات والقوانين غير الديموقراطية الصادرة عن سلطات الانتداب. نستطيع أن نذكر من هؤلاء أسماء: المحامي أميل لحود (وزير فيما بعد) المحامي

(١) من «برنامج الحزب الشيوعي اللبناني» الصادر عن «المؤتمر الثاني» للحزب عام ١٩٦٨ ـ نقلاً عن كتاب «نضال الحزب الشيوعي اللبناني من خلال وثائقه»، الجزء الأول، ١٩٧١، دار الفارابي ـ صفحة ٥٧ و٥٨.

يوسف السوداء ميشال زكور (صاحب مجلة «المعرض»، وزير فيما بعد) جبران التويني (مؤسس جريدة «الأحرار»، ثم «النهار»، وزير فيما بعد) المحامي نمر هِبّه (نقيب المحامين فيما بعد) هنري الجميل (وزير ليبيريا المفوض في لبنان، حالياً) شكري بخاش (صاحب «زحلة الفتاة»).

وكان الحزب يضم في صفوفه، وفي لجنته التنفيذية، شيوعيين وغير شيوعيين. ولم تكن الحدود واضحة بين عضو «حزب الشعب اللبناني» وعضو «النقابة العامة لعمال الدخان»، فكان الحزب أشبه بقيادة سياسية للنقابة، خاصة وأن أغلبية أعضاء مجلس النقابة هم أعضاء في اللجنة التنفيذية للحزب.

ومن أعضاء اللجنة التنفيذية «لحزب الشعب اللبناني» يمكن أن نذكر: يوسف ابراهيم يزبك. الياس سرور. بشارة كامل. مخايل داوود أبو هنا. الياس قشعمي. بطرس حشيمة. فريد طعمة. فارس معتوق (مساعد السكرتير العام) وفؤاد الشمالي (السكرتير العام للحزب) ـ بين هؤلاء التسعة يوجد الأعضاء الخمسة الذين وافقوا على تأسيس حزب شيوعي في لبنان وكوّنوا النواة الشيوعية الأولى.

«... وسار مؤسسو حزب الشعب اللبناني في طريقهم ـ يقول فؤاد الشمالي ـ بكل غيرة ونشاط وإقدام، غير مبالين بالدسائس التي أخذ يدسها لهم بعض النفعيين... وأخذ الحزب الجديد ينشر النشرات المتوالية على صفحات الجرائد السيّارة ويطبع الألوف من النداءات الحماسية ويوزعها في المدن والقرى، فلم تمضِ أشهر قليلة حتى أخذ عدد أعضائه يتزايد يوماً فيوماً، وأصبح له عدة فروع في البلاد اللبنانية»[١].

من هذه الفروع: **بيروت**، سكرتير الفرع: الدكتور أديب مظهر (أول شاعر رمزي حديث في البلاد العربية) ـ ومن الأعضاء المعروفين في هذا الفرع نقرأ أسماء: المحامي اميل لحود. المحامي الياس جهشان. المحامي نمر هِبّه. المحامي الياس أبو ناضر. العامل شفيق مظهر. ثم، فرع **الشياح**، سكرتير الفرع، بولس جبور فضول ـ **زحلة**، سكرتير الفرع: الشيخ أسعد المنذر ـ **الشوير**، سكرتير الفرع: فريد سعيد الشامي ـ **الخنشارة وبتغرين**، سكرتير الفرع: نقولا متري المشنتف ـ وفرع **بكفيا** (حيث المركز الرئيسي للحزب) سكرتير الفرع: فارس معتوق.

---

(١) فؤاد الشمالي: «نقابات العمال»، مطبعة الراية، بيروت ١٩٢٩، ص ٤٥.

وبوصفه حزباً ديموقراطياً، نجد أن من مواضيع اهتماماته في الفترة الأولى: موضوع الحياة البرلمانية، والانتخابات الحرة، ورفض الانتخابات على أساس الطائفية.

ففي «نداء إلى الشعب اللبناني» (نشر يوسف يزبك نصه في كتابه «حكاية أول نوار» وقال إنه «أول نداء ظهر به حزب الشعب اللبناني» ـ والنداء بدون تاريخ، ويقول يزبك إنه صدر في العام الأول لتأسيس الحزب أي عام ١٩٢٤) يطالب الحزب بانتخاب حر للجمعية التأسيسية: «لقد آن لك أيها الشعب الأبي أن ترفع صوتك عالياً فتطالب بحقوقك المقدسة التي هضمها الأقوياء، وفي مقدمة تلك الحقوق: أن يكون من حق الشعب وحده وضع الأنظمة وسن القوانين التي تسير البلاد بموجبها. ولا يتم ذلك بغير دعوة الجمعية التأسيسية المنتخبة انتخاباً حراً على أساس اللاطائفية، وبلا أدنى تدخّل من الحكومة... أما تلك الهيئة التي اطلقوا عليها اسم المجلس التمثيلي فهي لا تصلح للقيام بمهمة الجمعية التأسيسية لأن انتخاب المجلس لم يكن حراً». وينتهي البيان بهذا الشعار الجريء: «فإلى الجمعية المؤسسة أيها اللبنانيون، فجميع السلطات يجب أن تكون من الشعب والى الشعب»[(١)].

ويتابع «حزب الشعب اللبناني» ملاحقة القضية نفسها، فيُصدر في أواخر كانون الثاني ١٩٢٥ بياناً يتضح منه اعتزام سلطات الانتداب تكريس الطائفية بقانون، لا تسنّه هذه السلطات مباشرة، بل يقترحه «أعيان البلاد» كجزء من دستور مقترح. (وهذا ما حدث بالفعل!. ولا تزال الانتخابات النيابية، في عهد استقلال الدولة، ودولة الاستقلال، تجري حسب توجيهات «أعيان البلاد» الذين وجّهتهم بدورها سلطات الانتداب).. وقد حذّر «حزب الشعب اللبناني» من إقرار ذلك «الدستور» غير الدستوري: «أشيع أن في نية الحكام تأليف اللجنة المؤسِسة من بعض الموظفين والأعيان ليضعوا دستور البلاد... فنحن ما زلنا متشبثين بضرورة دعوة الشعب لينتخب الجمعية المؤسسة انتخاباً حراً صحيحاً على **أساس اللاطائفية**، وحينئذ يكون الشعب قد وضع دستوره طبقاً لمشيئته. وإلا فكل دستور يأتي من غير طريق الجمعية المؤسسة المنتخبة، يكون دستوراً مزوراً يمثل واضعيه فقط. وعلى هذه القاعدة نلفت أنظار الشعب إلى أن يرفع صوته عالياً بكل وسيلة لإفهام الحكام أن سلطته يجب أن تكون فوق كل سلطة وإرادته هي الشريعة الواجب اتباعها».

---

(١) نقلاً عن يزبك: «حكاية أول نوار» ـ صفحة ١٠١ و١٠٢.

على أن الانجاز الكبير الذي تمّ باسم «حزب الشعب اللبناني» وجرى تحت خيمته الديموقراطية الواسعة هو: مهرجان أول أيار، في قاعة الكريستال، عام ١٩٢٥.

ففي أواسط نيسان ١٩٢٥ قررت المجموعة الشيوعية اقامة احتفال كبير بعيد العمال العالمي في أول أيار. قرروا أن يدوّي اسم هذا العيد ومعناه في لبنان كله. وأن يكون الاحتفال بالعيد حدثاً تاريخياً للحركة الشيوعية والعمالية للبنان كله. قرروا أن يكون هذا الاحتفال هو أول احتفال جماهيري واسع بيوم أول أيار في لبنان وسوريا. وسيكون الاحتفال هو التجربة الأولى لعمل الشيوعيين الجماهيري في إقامة هذا الاحتفال، مهما كان موقف حاكم البلاد الفرنسي. فالريادة التاريخية لهذا الاحتفال سوف تتجلّى سواء قمعه جند الحاكم، أو سمح به، أو سكت عنه.

... وكانوا يعرفون أن الحاكم قد لا يكون في وضعٍ يسمح له بمنع الاحتفال أو قمعه... فمنذ جاء المفوض السامي الفرنسي الجديد «الجنرال ساراي» ـ الماسوني، وعضو مجموعة اليسار الديموقراطي، والعلماني ـ وهو محاصَر بنقمة رجال الاكليروس، وبحذرٍ من مختلف قوى اليمين، وبتحفّظ مختلف أصدقاء فرنسا الأصلاء!.. والمفوض السامي مستعد لمساومة هذه القوى كلها، فهو ليس كما يصوّرونه «عدو رجال الدين» و «نصير الاشتراكية»، (ستؤكد الأيام أنه من الأبرشية نفسها، مع اختلاف باهت في التفاصيل، ومع قسوة أكثر ضد الحركة الوطنية)، وكان يحتاج فقط إلى بعض الوقت، وحتى لا يبدو أنه فاقد أي مرتكزات في المجتمع اللبناني، أخذ يُظهر حسن نواياه، و «ليبراليته» أمام الليبراليين. أليس هو «العلماني» وعضو مجموعة اليسار؟...

في هذه الفترة الرخوة بالذات، طُرحت مسالة الاحتفال بعيد أول أيار. وقرر الشيوعيون اقامة الاحتفال، مهما كانت الظروف.

... وطُرحت قضية الاحتفال أمام اللجنة التنفيذية «لحزب الشعب اللبناني» وتقرر دعوة جميع فروع الحزب، وجميع عمال نقابة الدخان، وجميع عمال لبنان، إلى الإضراب في هذا اليوم، والاحتفال به بمختلف الأشكال، وفي عدة أمكنة.

اشتعل الرفاق حماسة. صيغ بيان أول. طُبعت منه ألوف النسخ. وُزّع على الصحف وأُلصق عل الجدران في مختلف المدن والقرى حيث يوجد فروع «لحزب الشعب اللبناني» وحيث توجد معامل الدخان. ودُرزت شوارع بيروت الرئيسية بالمناشير التي

كانت تبدو على الجدران، بيضاء مثل نوافذ تطل على الشمس. وقرأ الناس كلاماً عجيباً، وغريباً، مثيراً وجديداً ولا عهد لهم به:

بيـــــــــــان
الى جميع العمال والفلاحين

□

إن حزب الشعب اللبناني، الذي أسسه عمال لبنان وفلاحوه، وجعل من مطالبه الجوهرية: رفع الظلم عن الطبقة العاملة، ينادي العمال في كل البلاد ليشتركوا مع أعضاء الحزب في الإضراب عن العمل في يوم أول أيار الذي هو العيد الرسمي الوحيد لكل عمال العالم، ويرجو منهم أن يُظهروا للرأسماليين والمتموّلين انهم لا يشتغلون في اليوم المذكور، احتجاجاً على الاعتساف اللاحق بهم منهم، وتأييداً للمطالب التي أقرها مندوبو العمال في العالم كله في مؤتمر باريس عام ١٨٨٩.

نطلب من كل العمال والفلاحين في هذه البلاد الشقية أن يتركوا أعمالهم في يوم أول أيار ويبرهنوا للمتموّلين والاقطاعيين أنهم طبقة لها الحق بالحياة الحرة كغيرها من الطبقات.

يجب على كل العمال الذين هم سبب سعادة الوطن وساعد نجاحه، أن يُسمعوا صوت تظلّمهم عالياً في أول أيار، ويشاركوا أخوانهم أعضاء حزب الشعب اللبناني في الاحتجاج على الحيف الواقع عليهم.

فليحي العمال والفلاحون!

وليحي أول أيار!

(أواخر نيسان ١٩٢٥)   «اللجنة التنفيذية»[١]

(١) نشر هذا النص كاملاً في «الصحافي التائه» ـ العدد ٢٥٧ في ٢٥ نيسان ١٩٢٥. وهو منشور كذلك في «حكاية أول نوار» ليوسف يزبك، صفحة ٧٨ و٧٩.

أثار هذا النداء حماساً بين العمال، وكذلك بين المثقفين الديموقراطيين. وقد أشارت أكثر الصحف إلى البيان. بعضها نشره كاملاً، وبعضها نشر فقرات منه. وأثار البيان النقمة لدى رؤساء «حزب العمال» الرأسمالي، في حين أن بعض النقابات المرتبطة بهذا الحزب الانتدابي قررت المشاركة في احتفال يوم أول أيار. وكان هذا الحزب يعاني التفسخ الداخلي، فقررت قيادته اقامة «احتفال» ما بهذه المناسبة، فدعت إلى سهرة غناء في نادي الحزب، ووجهت دعوة إلى «حزب الشعب اللبناني» لمشاركتها في هذا الاحتفال. فأجابهم السكرتير العام لحزب الشعب، فؤاد الشمالي، بأن دعوتهم جاءت متأخرة جداً، لأن حزب الشعب قرر إقامة احتفاله الخاص بالعيد!.. وفشلت حفلة «حزب العمال» الرأسمالي، وزاد هذا من تفسخه الداخلي.

وفي ٢٩ نيسان أذاع «حزب الشعب اللبناني» بياناً ثانياً يدعو العمال فيه إلى الإضراب والمشاركة في العيد. وهذا البيان أكثر تفصيلاً وأكثر تركيزاً على مطالب العمال، وخاصة مطلب ٨ ساعات عمل في اليوم. يبدأ البيان بهذه الشعارات مكتوبة بهذا الشكل:

«نريد:

٨ ساعات عمل

٨ ساعات تنزيه وتعليم

٨ ساعات نوم

أيها الأخوان،

لقد قَربَ أول أيار، وهو اليوم الوحيد الذي يُعدّ عيداً رسمياً للعمال كلهم في كل أنحاء العالم، فيجب أن تشاركوا أخوانكم في الإضراب عن العمل وتبرهنوا انكم لستم بحيوانات تخدم المتموّلين والرأسماليين والاقطاعيين بدون أن تفهم حقوقها».

ويركّز البيان على مطلب ٨ ساعات عمل بشكلٍ نراه الآن مبالغاً فيه... والى درجة التوهّم بأن في تحقيق هذا المطلب ضمان للعامل من البطالة: «ولو اشتغل العمال كلهم ثماني ساعات لما كان في العالم عامل بلا عمل»!... ولكن عندما نعرف أن ساعات العمل

اليومية لم تكن محددة، وهي لا تقل عن ١٤ ساعة في اليوم بل تزيد، نعرف سر التركيز على هذا المطلب وسر المبالغة في تقدير أثره.

على أن أهم ما في البيان هو: الموقف الطبقي الواضح، واعطاء عيد أول أيار معنى الاحتجاج والعمل النضالي، ثم روح التحريض: «... فمن أين للغني هذه الأموال؟ ولماذا أنت فقير شقي مع عيالك أيها العامل؟.. إن الأغنياء والرأسماليين يأكلون ثمرة اتعابنا. نحن نشتغل ثلاث عشرة ساعة، وهم يتنزّهون ويسكرون، ونحن نسبِّب لهم الغنى وربح الأموال، وهم يجيعوننا مع عيالنا»... ثم أقرأ هذه الفقرات ـ المفاهيم:

- **الدنيا بحاجة إلى أيدينا.**
- **نحن سبب سعادة العالم.**
- **أيدينا تُخرج كل ما في العالم من مصنوعات.**
- **أننا لا نستحق الشقاء والبؤس، لأننا سبب رفاهية ورغد العالم، فلماذا نظلّ مظلومين.**
- **نحن أشرف من الذين يأكلون ثمرة أتعابنا... فيجب أن نكون، على الأقل، مرتاحين مثلهم.**
- **اتحدوا أيها العمال والفلاحون.**
- **ليسقط الرأسماليون الظالمون... وليحي العمال والفلاحون»[(١)].**

الجو مشحون. كل الدلائل تشير أن الاحتفال سيقام، في مختلف الظروف. فهل تجيز السلطات الاحتفال؟

وقال قائلهم، وهو المحامي نمر هبّه: إن «حزب الشعب اللبناني» يعمل بصورة غير مشروعة لأنه غير مجاز من الحكومة... لهذا علينا أن نطلب اجازة العمل القانوني

---

(١) نُشر النص الكامل لهذا البيان في صدر الصفحة الأولى لجريدة «زحلة الفتاة» ـ الخميس ٣٠ نيسان ١٩٢٥ ـ تحت هذه العناوين: «نداء من حزب الشعب اللبناني ـ إلى جميع العمال والفلاحين ـ حركة اشتراكية في بيروت» ـ (راجع النص الكامل للبيان في ملحق النصوص).

للحزب، ونقدم الطلب اليوم، ولن يستطيع الحاكم اعطاء الجواب فوراً... لهذا فإن الاحتفال غداً يكتسب صفة شرعية طالما هو باسم «حزب الشعب اللبناني» الذي قدم طلباً رسمياً قانونياً بإجازة العمل.

رأي فيه ذكاء، ودهاء.

وافق أعضاء «اللجنة التنفيذية». وُضعت النقاط الأساسية المفترض أن تكون برنامجاً للحزب، تُطلب الاجازة على أساسه. وصاغ الأستاذ هبّه هذه النقاط على شكل طلب، باللغة الفرنسية، جاء «آية في التهذيب» ـ حسب تعبير يوسف يزبك ـ وقُدّم في اليوم نفسه إلى «المسيو كايلا» حاكم دولة لبنان الكبير، بواسطة شكري بخاش صديق الحاكم ونصيره. وقد تضمَّن الطلب نقاطاً عامة تشكّل إيجازاً لبرنامج ديموقراطي لحزب ديموقراطي عمالي ليبرالي، ولكنه مختلف عن برامج الأحزاب الأخرى، وجديد، خصوصاً فيما يتعلق بالعمال والفلاحين، وجريء فيما يتعلق بجعل أملاك الوقف املاكاً وطنية عامة، وبمطلب دعم المدارس الوطنية وتوحيد البرامج على أساس التعليم العلماني:

«إلى السيد حاكم دولة لبنان الكبير.

دولة الحاكم

إن الموقعين أدناه، يتشرفون بان يرفعوا إلى مقامكم ما يلي:

لقد ألّفنا حزباً باسم «حزب الشعب اللبناني» هدفه: الإسهام بكافة الوسائل لتطوير الصناعة والزراعة والتجارة في لبنان، ولنشر روح الأخاء في صفوف الأمة اللبنانية، ولمنع الأكليروس من توسيع نفوذه على حساب المصلحة العامة، ولدعم المدارس الوطنية وتوحيد البرامج على أساس التعليم العلماني، ولتجميع العمال والفلاحين في نقابات تدافع عن مصالحهم المشتركة. إن حزب الشعب اللبناني سيستخدم كامل نفوذه لإخضاع الرساميل والميراث للضرائب، وكي تعتبر أملاك الوقف أملاكاً وطنية تخضع لإشراف الحكومة. كما يعمل الحزب على تحرير المرأة.

إن هذه البنود مفصَّلة في نظامنا الأساسي. ومقر الحزب بكفيا. وقد

انتدبنا فريد طعمه لتمثيلنا لدى الحكومة، ولن يكون لحزب الشعب رئيس[1].

اعتماداً على ما لديكم من انفتاح على حزب الشعب اللبناني، ونظراً لما عُرف عنكم من روح تحررية، فنحن على ثقة تامة بأن طلبنا هذا سيجد استجابة تامة من مقامكم.

فاقبل، يا دولة الحاكم، جزيل احترامنا.

بيروت ـ في ٣٠ نيسان ١٩٢٥

التواقيع: **يوسف يزبك. الياس سرور. بشارة كامل. فارس معتوق. مخايل داوود أبو هنا. الياس قشعمي. بطرس حشيمة. فريد طعمة.**

العنوان: **يوسف ابراهيم يزبك ـ**
جريدة «الأحرار» ـ بيروت»[2].

حمل البخاش الطلب. قابل الحاكم. هو صديق الحاكم، ونصيره. والانتخابات على الأبواب: في حزيران. أصوات العمال كثيرة. وسوف أخطب أمام العمال. سيكون في الخطاب أشياء تهمنا... و.... و....

... ووعده الحاكم بأن يغضّ النظر عن الاحتفال... أما إجازة العمل القانوني لحزب الشعب اللبناني فهذه مسألة أخرى تبحث فيما بعد... (فيما بعد: رفض الطلب).

طار البخاش إلى الاخوان حاملاً الضوء الأخضر. وانطلقت ماكينة الحزب الوليد تنشط بكفاءة عجيبة، وبسرعة أعجب. المهرجان سيقام غداً، في قاعة الكريستال. فليأتِ

---

(١) كان رئيس الحزب هو فؤاد الشمالي. ولكن الشمالي معروف لدى الدولة بانه شيوعي... لذلك ـ وكما جرى بالنسبة لطلب رخصة نقابة عمال الدخان ـ آثر «حزب الشعب اللبناني» أن لا يذكر اسم الشمالي، لا بين الموقعين على طلب الترخيص، ولا حتى كرئيس!... ولكن المفوض السامي، وهو ليس غبياً على كل حال، لم يعط ترخيصاً بالحزب.

(٢) مترجم عن النص الفرنسي، ضمن وثائق: يوسف ابراهيم يزبك.

عمال من مختلف المناطق. ولتحضّر أعلامٌ حمراء. سنقوم بمظاهرة، بالأعلام الحمراء، في ساحة الشهداء، قلب بيروت.

وانطلق الشباب العمال، كالنار، يصنعون الحدث التاريخي.

وتحدّد الخطباء، والمواضيع. ومن يقدّم الخطباء؟ يوسف يزبك الذي سيتحدث عن تاريخ أول أيار، أما فؤاد الشمالي ـ الذي لم يوقّع طلب إجازة الحزب، بوصفه «شيوعياً خطراً»، والذي لم يذكر الطلب اسمه كرئيس للحزب... بل «لن يكون للحزب رئيس»... كل ذلك حتى لا يرفض الحاكم الطلب ـ فقد تقرر أن يخطب في الاحتفال، وأن يبسط خطة «حزب الشعب اللبناني»، ويتحدث باسم لجنته التنفيذية، وبوصفه السكرتير العام للحزب...

.. وطلع صباح أول أيار على لبنان.

ساحة الشهداء. قاعة الكريستال. حشد من العمال والمثقفين ورجال الصحافة، وعيون من الدولة. أعلام حمراء. وتصفيق عاصف.

فؤاد الشمالي ـ حاملاً تجربته العمالية الطويلة، بكل ما فيها من بسالة الريادة، ومنجزاتها، وأخطائها ـ يتابع خطابه في المهرجان....

«... واليوم، فقط، بدأنا نشارك عمال العالم في عيدهم وفي شعورهم... اليوم فقط فتحنا أعيننا ونظرنا إلى ما حولنا مفتشين عن طريق الحرية... وها نحن نرى جيداً هذه الطريق، وقد شرعنا نسير عليها... فهل من قوة في العالم تتمكن من صدّنا عن طريقنا؟ لا ثم لا أيها الرفاق».

ويرتفع صوت الشمالي، الذي رأى بعينيه وخَبِرَ بتجربته، القدرات الخارقة للطبقة العاملة عندما تنتج، وعندما تغضب، وعندما تثور في مصر عام ١٩١٩، فإذا هي، وسط خضم الشعب الثائر، قوة الثورة الضاربة.

«إن أعظم قوة تضعف وتتلاشى أمام قوة الشعب. وأقوى إرادة في العالم يجب أن تخضع صاغرة ذليلة متى قال العمال هذه اراداتنا. إن صوت الشعب من صوت الله. وارادة الشعب تدك العروش وتحطم التيجان. نحن في العالم كل شيء، فيجب أن يكون لنا كل شيء. ولكن متى يكون للشعب صوت وللعمال إرادة؟ إن ذلك يكون حين يوحّد الشعب كلمته وينظّم العمال صفوفهم. وبمعنى آخر: حين يتّحد المجموع في سبيل مصلحة المجموع. ولكن كيف نتحد ومتى يكون اتحادنا صحيحاً خالياً من الشوائب؟»...

الشمالي يصل إلى هنا، إلى القضية الأساسية، القضية المحورية لنشاط «حزب الشعب اللبناني»، في تلك المرحلة، واحدى وأهم قضايا نشاط الحزب الشيوعي، في تلك المرحلة والى مدى طويل:

«... يجب أن نتّحد بالنقابات: فعلى كل عامل منّا أن يُسرع بالانضمام إلى نقابة تضم أبناء صناعته وحِرفته حتى يصبح لكل صناعة نقابة، ولكل حرفة نقابة، ثم تجتمع جميع النقابات فتتفاهم وتتفق كلمتها على الاتحاد العام، فيتقرر تأليف اتحاد نقابات العمال... فإذا وصلنا إلى هذه النتيجة نكون قد وضعنا الحجر الأساسي لنبني عليه حياتنا المقبلة».

وسوف نرى أن الحزب الشيوعي كان يخصص قسماً هاماً من نشاطه في ميدان تشكيل النقابات وتنظيم العلاقات فيما بينها بهدف واضح: **توحيد الحركة النقابية في اتحاد عام للنقابات،** (وهذا الاتحاد سوف يتم بشكل فعال، ومؤثر في الحياة السياسية للبلاد، منذ أواسط الأربعينيات، برئاسة قائد شيوعي آخر هو **مصطفى العريس**). ومن الممكن الآن ملاحظة أن العمل النقابي لفؤاد الشمالي، وجعْل قضية تأليف النقابات هي

القضية الأساسية المحورية، ربما حجبت عنه في البداية، طبيعة الحزب كتنظيم سياسي للطبقة العاملة تكون قضية تشكل النقابات **واحدة** من القضايا المحورية في نشاط الحزب. إن تصاعد عملية تكون الحزب الشيوعي اللبناني خلال العشرينيات، سوف تحسم هذه المسألة لمصلحة الصفة **السياسية**، الأشمل والأعمق، لحزب الطبقة العاملة. ولكن، ألا يبدو، من ناحية ثانية، أن هذا الانحراف نحو الانحصار في العمل النقابي والعمالي بمفهوم أوسع، كان له ـ في تلك الفترة بالذات ـ جانبه الإيجابي، والضروري، أولاً: في التكوين العمالي للحزب، وثانياً: في إبراز الفرق الأساسي، النوعي، بين الحزب الشيوعي، حزب الطبقة العاملة، ومختلف الأحزاب والتيارات الوطنية الأخرى؟. ثم ها هو الشمالي يحذِّر العمال من غير العمال... ويعيد في خطابه هذا، الكلمات نفسها التي قالها في مصر، خلال المعركة التي ثارت داخل الحزب بين القاعدة الماركسية للحزب الاشتراكي المصري والقيادة الاصلاحية لهذا الحزب، وكانت مكونة من مثقفين (سلامة موسى. محمد عبدالله عنان. علي العناني... الخ) عندما قال: «.... وكلمتي إلى زعماء الاشتراكية في مصر أن يتركوا العمال يتولّون بأنفسهم جميع شؤونهم، لأن الاشتراكية من العمال وللعمال وبالعمال وليست بالتجار والملاّك والمحامين» ـ («الأهرام» ـ ١٩٢٣/١/٩).. وهو الآن يحذّر العمال من الدخلاء الذين يتصدّون لقيادة الحركة العمالية، والمقصود هنا، بشكل خاص، سيطرة الشخصيات النافذة، والأغنياء، على قيادات النقابات، («حزب العمال» الرأسمالي، مثلاً) ويعيد الشمالي هنا، تقريباً، كلماته السابقة: «فإذا كنا نريد فعلاً أن نصل إلى ما نريد، فيجب علينا أن لا نسمح لغير العمال أن ينضموا إلى نقاباتنا وأحزابنا. فليس للعامل غير العامل، وليس للمظلوم غير أخيه»... إن هذا الإصرار، في تلك الفترة، كان له جانبه الإيجابي وأثره، سواء في الحركة النقابية (بداية تشكيل نقابات مستقلة عن أرباب العمل، وتمارس نضالاً طبقياً ثورياً) أم في الحركة الثورية، فقد كان لا بد لدى ولادة الحزب السياسي للطبقة العاملة أن يبرز طابعه النوعي الجديد ليس فقط على الصعيد النظري، بل خصوصاً على صعيد التركيب العضوي، العمالي، للحزب. وسوف تتكفّل المعارك اللاحقة بدفع الحزب إلى ممارسات كفاحية أشمل وأعمق بحيث يصبح العمل من أجل تكوين النقابات وداخل هذه النقابات، **واحدة** من المهمات الأساسية لهذا الحزب **السياسي** وليس المهمة الأساسية.

ولقد كان مهرجان أول أيار في الكريستال نقطة انطلاق تاريخية، في هذا الاتجاه.

الشمالي يهتف في نهاية خطابه: «إنّ هذا العيد الذي نحتفل به للمرة الأولى يجب أن يكون فاتحة خير لنا بقوة اتحادنا. فلنتّحد أيها الأخوان. ولنهتف بصوت واحد: فليحي العمال والفلاحون!. فليحي أول أيار!. فليسقط الظالمون!» - (النص الكامل لخطاب الشمالي أوردناه في: ملحق النصوص).

حزب الطبقة العاملة، صار له وجوده القوي... صوته الجديد. وجهه الطبقي الواضح. نوعيته المختلفة عن سائر التنظيمات الأخرى. ارساؤه أساس مرحلة جديدة، نوعية، في الحركة النقابية والعمالية. انتماؤه البولشفي حتى قبل يوم تأسيسه (الانتماء الواضح للأممية الشيوعية عند: الشمالي، يزبك، وعند مادويان الذي سينضم إلى الحزب مع فريقه الأرمني بعد مهرجان الكريستال) ثم دخوله الحياة السياسية العامة في لبنان، من هذا الباب الواسع - مهرجان أيار الضخم، والتاريخي، - حاملاً الأعلام الحمراء.

المهرجان لم ينته بعد. نحن ما جئنا لنخطب. جئنا نكتب صفحة أولى في تاريخ جديد. جئنا نعلن ارتباط الكلمة بالفعل. جئنا نقول إن يوم أول أيار ليس عيداً كسائر الأعياد، بل هو يوم اعلان احتجاج، واعلان مطالب، واعلان التزام كفاحي، ثوري، بالنضال في سبيل تحقيق هذه المطالب، على طريق الوصول نحو الانتصار الكبير للطبقة العاملة: قلب العالم القديم، واقامة النظام الاشتراكي الجديد.

المهرجان لم ينتهِ بعد.

وهذا يوسف ابراهيم يزبك يتقدم نحو المنصّة، ويعلن:

هذه اقتراحات بمطالب العمال في يوم العمال:

أولاً: تحديد أوقات العمل ٨ ساعات في اليوم.

ثانياً: تحديد قيمة ادنى للأجور بشرط أن تكون كافية لحياة العامل.

ثالثاً: سنّ نظام يحمي العمال.

رابعاً: أن تكون تربية الأطفال، ومعيشة الشيوخ، والعمال المشوّهين بسبب أعمالهم،

على عاتق أصحاب الأعمال والهيئة الاجتماعية.

خامساً: منع الشغل الليلي.

سادساً: أن يظل قرار لجنة الأجور سارياً على العمال.

سابعاً: إحياء المشاريع الاقتصادية.

هذه المطالب، التي صفّق لها العمال طويلاً، وهتفوا «**يا عمال لبنان اتحدوا!**» في سبيل تحقيقها ـ قد يراها البعض، الآن، بدهية... فإن بعضها قد تحقق، وبعضها الآخر لا بد أن يتحقق..

والمسألة إن ما نراه الآن بدهياً، كان لطرحه، في تلك الفترة، صفة ثورية، وفعلاً ثورياً، بقدر ما كان عامل تعبئة للعمال، ودفعاً لهم في طريق النضال... وما تحقّق من هذه المطالب، لم يتحقق إلا من خلال النضال، والمعارك، ومجابهة القمع، والتشرّد، والسجن، وبذل الدماء... فعلى الطريق التي اجتازتها الطبقة العاملة نحو تحقيق هذه المطالب، نجد دماء الجرحى ودماء الشهداء، لا تزال حارة تختلج، كما كانت عندما سُفكت أيام الانتداب، وأيام استقلال الدولة، وأيام دولة الاستقلال....

وكان مهرجان الكريستال، أيار ١٩٢٥، مركزاً هاماً، تاريخياً، من مراكز الانطلاق على هذه الطريق.

ومن هذا المهرجان، انطلق عالياً، ولأول مرة في لبنان، ذلك الصوت الذي اكتسب بجدارة، وخلال مسيرة خمسين عاماً(*)، من الكفاح والشهادة، صفة صوت الشعب:

نحن

حزب الطبقة العاملة

نعلن أننا....

(*) ـ أي: الفترة من عام تأسيس الحزب ١٩٢٤ إلى عام إنجاز هذا الكتاب، والاحتفال بخمسينية الحزب عام ١٩٧٤.

«سبارتاك» يصبح شيوعياً ويواصل كفاحه الثوري الأممي في لبنان: وطنه الجديد

قف!. لننتظر قليلاً أمام قاعة سينما الكريستال. ليس الهدف أن نتأمل العمال وهم يخرجون من القاعة، بأعلامهم الحمراء، ووجوههم المحمرَّة، وأرواحهم المشحونة بطاقة فعلٍ تاريخي جديد. الهدف أن نتعرّف على جدول آخر من الجداول التي ستصب في النهر الكبير. انظرْ. هذا هو قائدهم: شاب قصير، أصلع قليلاً، شارب صغير مربّع يصل الأنف بالفم. آسيوي الملامح. حوله شباب بأنوف بارزة.

ـ أنت أرتين مادويان؟.. أريد حديثاً منك!

ـ شو بتريد؟!!

ـ لا تتحفّظ معي... أنا لست من رجال الأمن العام. ثم إنني أعرفك!

ـ من أنت؟.. ومن أين تعرفني؟

ـ أنا قادم إليك من العام ١٩٧٤[1]... من الحزب الشيوعي اللبناني، الذي ستصبح أنت عضواً في لجنته المركزية ومكتبه السياسي... وسوف تمنحك اللجنة المركزية

(١) ١٩٧٤ عام صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب.

للحزب الشيوعي السوفياتي وسام الصداقة بين الشعوب بمناسبة بلوغك السبعين من عمرك... وسوف يعلّق هذا الوسام على صدرك خلال الاحتفالات بالذكرى الخمسينية لتأسيس الحزب الشيوعي اللبناني... فأرجو أن لا تتحفَّظ معي أيها الرفيق أبو مارديك!.

ـ عجيب!. شو ١٩٧٤!. لجنة مركزية!... مكتب سياسي!.. ذكرى خمسينية!.. وسام... سبعين سنة!.. وأبو مارديك كمان!.. عجيب!.. كل شي بيصير بابا... لكن عمري الآن ٢١ سنة... كيف صاروا سبعين؟.. كل شي بيصير رفيق... أسأل شو بتريد.

ـ عمرك الآن ٢١ سنة. حدِّثني عن حياتك، وكيف وصلت إلى هنا، وإلى المهرجان؟

———————— □□□□

■ ولد أرتين مادويان في ١٠ نيسان ١٩٠٤ في مدينة أضنه بتركيا من عائلة حرفية (والده صانع أحذية). وعاش في حي شعبي يقطنه عمال وحرفيون وعمال زراعيون، أكثرهم من الأرمن والأشوريين الفقراء المضطهدين طبقياً وقومياً ■ تلقّى دروسه الابتدائية في المدرسة الأرمنية باضنه ■ وفي عام ١٩٢٠ ذهب للدراسة في معهد بربريان في أسطنبول. وهناك أسس مع عدد من رفاقه الأرمن «اتحاد الطلاب الهنشاق» ■ ومنذ أوائل ١٩٢٢ ارتبط مادويان بالحركة الشيوعية بواسطة «بديك طوروسيان»، وهو مناضل مسؤول في الحزب الشيوعي الأرمني، وأحد أبطال انتفاضة أيار ١٩٢٠ ضد سلطة الطاشناق في أرمينيا. وكان طوروسيان على صلة بالحزب الشيوعي التركي، ويسعى إلى تنظيم فرق شيوعية بين الأرمن في اسطنبول ■ اتفق مادويان مع طوروسيان على السفر إلى أرمينيا، عام ١٩٢٢. ولكن انقطاع المواصلات بين اسطنبول وباطوم في تلك السنة، دفع مادويان إلى اللحاق بعائلته التي كانت هاجرت مع جماهير الأرمن من كيليكيا إلى بيروت.

■ وصل مادويان إلى بيروت في صيف ١٩٢٢. وأكمل دروسه الثانوية باللغة الفرنسية، ثم التحق عام ١٩٢٤ بكلية الطب في الجامعة اليسوعية ■ في لبنان تابع مادويان نشاطه مع مجموعة من الطلاب الأرمن الذين كانوا معه في أضنة، فأعادوا تشكيل «اتحاد الطلاب الهنشاق»، وكان أكثر أعضائه في الواقع من العمال، واتخذ الاتحاد اتجاهاً يسارياً واضحاً، وكان يعتبر نفسه نصيراً للأممية الشيوعية، وأصبح مادويان سكرتيراً للاتحاد ■ ولكن إطار «اتحاد طلاب» لم يعد يتسع لتوجهات وأهداف شبيبة الاتحاد، فاتفق الأعضاء على حل اتحادهم هذا، ثم أنشأوا اتحاداً آخر، أطلقوا عليه اسم «شبيبة سبارتاك»، واتخذ هذا الاتحاد منذ البداية اتجاهاً شيوعياً واضحاً. وقد أجرى الاتحاد اتصالاً مع الحزب الشيوعي الفرنسي. وتوجّه برسالة إلى الحزب الشيوعي، والشبيبة الشيوعية، في أرمينيا السوفياتية يطلب فيها الانضمام إلى الأممية الشيوعية.

....

سؤال: ماذا يعني اسم «سبارتاك»؟

جواب: اسم «سبارتاكوس» مأخوذ من اسم الشبيبة الشيوعية في أرمينيا وهو كذلك اسم جريدتها... ولكن إذا ذهبنا أبعد، نجد أن هذا الأسم مأخوذ من اسم «اتحاد السبارتاكيين» الذي أسسه عام ١٩١٥ الجناح اليساري للاشتراكيين الديموقراطيين الألمان... فإذا ذهبنا أبعد فأبعد في التاريخ نلتقي باسم البطل «سبارتاكوس» قائد ثورة العبيد في روما... وهكذا اكتسب هذا الاسم مضموناً ثورياً، وتحوّل إلى رمز للإنسان الذي يمارس نشاطه الثوري في أي مكان حلّ فيه.

سؤال: هل «اتحاد شبيبة سبارتاك» يمارس نشاطه في بيروت فقط أم له بعض الفروع؟

جواب: للاتحاد منظمات في: بيروت ـ زحلة ـ حلب ـ اسكندرونة. هذه المنظمات تمارس نشاطاً ثورياً بوصفها منظمات شيوعية.

سؤال: ماذا جاء، مثلاً، في رسالة «اتحاد شبيبة سبارتاك» إلى الحزب الشيوعي، والشبيبة الشيوعية، في أرمينيا السوفياتية؟

جواب: هذه ترجمة عربية لتلك الرسالة ـ الوثيقة:

■ «بيروت في ٨ كانون الثاني ١٩٢٥.

الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في أرمينيا ـ يريفان.

أيها الرفاق!

منذ عدة أشهر قامت مجموعتنا المؤلفة من بعض الشبان المنشقين عن اتحاد طلاب الحزب الاشتراكي الديموقراطي (حزب الهنشاق في بيروت) بتاسيس اتحاد شبيبة سبارتاك الأرمنية. ولم تمض فترة طويلة حتى التفّت حولنا مجموعات جديدة من شبيبة الهنشاق والشبيبة غير المنظّمة سياسياً، مما أتاح لنا تثبيت أقدامنا بالرغم من جميع الصعوبات التي وُضعت لعرقلة نشاطنا.

إن اتحادنا هذا هو مجموعة عناصر بروليتارية من عمال وطلاب وموظفين. وقد وضع الاتحاد في رأس أهدافه: جمع الشبيبة العاملة، في المستعمرات، تحت راية الكومنترن (الأممية الشيوعية) وتربيتها سياسياً بأيديولوجية وتاكتيك الكومنترن، وشحنها بالروح الطبقية، وتنظيمها كفصيل مناضل من فصائل البروليتاريا الأممية في الشرق.

إن تسمية شبيبتنا باسم «سبارتك» بدل «الشبيبة الشيوعية»، فرضتها علينا ظروف النضال المحلية الناجمة عن فقدان حزب شيوعي في سوريا (لم يكن الرفاق الأرمن قد عرفوا بعد أن الحزب الشيوعي اللبناني كان قد تاسس في ٢٤ تشرين أول ١٩٢٤ ـ قبل شهرين ونصف من تاريخ رسالتهم هذه)... ونحن، كلاجئين هنا، قد أخذنا هذه التسمية كي لا تسعى القوى المغرقة في رجعيتها إلى ضرب تحركنا منذ البداية، ومحاربتنا على الصعيدين الوطني والديني وتحريض العمال المحليين علينا.

الرجاء امدادنا بالتوجيهات الضرورية، وبالدراسات التثقيفية الحزبية. كما نود ابلاغكم أننا أجرينا عدة اتصالات مع الحزب الشيوعي الفرنسي، ومع «جماعة العمل الأرمنية».

واقبلوا في الختام تحياتنا الرفاقية الحارة.

عن لجنة «اتحاد شبيبة سبارتاك»

الرئيس: السكرتير:

آرام براتزيان أرتين مادويان

....

على الصعيد اللبناني، المحلّي، كانت «شبيبة سبارتاك» تناضل، بدافع الروح الأممية، «ضد التيار السائد آنذاك بين المهاجرين الأرمن الذين كانوا يعلقون كل الآمال على الدعم الفرنسي لهم، فينعزلون عن أبناء البلدان المضيفة ويتعارضون معهم»... وكانت «شبيبة سبارتاك» ترى، منذ ذلك الوقت، وكما جاء في افتتاحية العدد الأول من جريدتهم الأرمنية «نوباروس» (المنارة الجديدة) عام ١٩٢٥: «أن الطريق الوحيد لسلامة الأرمن القومية ولازدهارهم في لبنان وسوريا وجميع البلدان العربية هو طريق وحدة النضال مع الشعوب العربية التي نهضت تناضل ضد الامبريالية ومن أجل التحرر والاستقلال».

وكان لا بد من التفتيش عن المناضلين التقدميين العرب. فإن نضال «شبيبة سبارتاك»، بين المهاجرين الأرمن وحدهم، قد لا يضيف شيئاً هاماً إلى حركة النضال الوطني العربي ضد الامبريالية. وحتى عام ١٩٢٥، لم يكن للرفاق الأرمن أية صلة بالمحاولات التي بُذلت بين العرب في لبنان لإنشاء الحزب الشيوعي. حتى كان يوم ٣٠ نيسان ١٩٢٥، حين قرأوا في الصحف خبراً عن احتفال سيجري في بيروت بمناسبة أول أيار في قاعة «الكريستال». «... فحشدنا قوانا، وانتظرنا منذ الصباح الباكر لأول أيار، على طريق النهر. حوالى خمسين شاباً من العمال والطلاب. كانت الفرحة تغمرنا. سوف نلتقي أخيراً بالرفاق العرب. واطلّت السيارات، والأعلام الحمراء... فتبعناها... وحضرنا المهرجان...».

ـ أيها الرفيق مادويان!. هل تعرّفت على أحد من قادة «حزب الشعب اللبناني»؟.. وهل سيتمّ بينكم وبينهم لقاء؟.. وهل ستنضمون إلى حركتهم؟.. ثم متى وأين، سيتم هذا اللقاء؟.

ـ نعم... سنلتقي حتماً... أما متى وأين؟.. فسوف أخبركَ بهذا... فيما بعد...

ـ متى هذا الـ «فيما بعد» مثلاً؟

ـ في شهر آب من عام ١٩٧٤، بالضبط... عندما ستأتي اليّ تستجوبني وتطلب مني مادة لكتابك الذي ستؤلفه!..

ـ أي كتاب أيها الرفيق.

ـ ولو؟.. أنا أيضاً أعرفك... الكتاب الذي ستضعه عن حكاية تاسيس حزبنا... بخاطرك!.

ومشى الشاب القصير، ذو الوجه الآسيوي، **أرتين مادويان**، محاطاً برفاقه الأرمن، ثم اندمجوا مع العمال اللبنانيين الذين يسيرون في شبه مظاهرة ختامية في ساحة الشهداء، وغابوا بين الأعلام الحمراء، وبين الهازجين بنشيد حزب الشعب اللبناني ذي اللحن المستمد من لحن النشيد الأممي، ومن أهازيج الفلاحين.

....

قالت الصحف

□ «**احتفل** العمال أمس ببيروت بيوم أول أيار الذي اتخذه العمال عيداً لهم يطالبون فيه بحقوقهم المهضومة ويرفعون صوتهم ليسمعه العالم ويعلم أن لهذه الفئة من البشر حقاً بالتمتع بهذه الحياة (...) وعُقد اجتماع عام في مسرح الكريستال فلبى الدعوة فريق كبير من عمال بيروت وجهات لبنان. وقبل أن يحتشدوا في محل الاجتماع قاموا بمظاهرة سلمية في المدينة فطافوا أكثر أنحاء المدينة التجارية، هاتفين بحياة العمال،

وكانوا يدعون من يصادفونه إلى الانضمام معهم معربين لهم عن غايتهم في هذا الاجتماع وهو صيانة حقوق العامل». ـ (**الأحرار** السبت ٢ أيار ١٩٢٥).

□ «**احتفل** العمال اللبنانيون بالأمس، للمرة الأولى، بعيد أول أيار، فجرت التظاهرات في الأسواق، وسار المتظاهرون وهم يهتفون لعيد أول أيار وللعمال. وكان مسرح الكريستال قبل الظهر غاصاً بجماهير من طبقات العمال المختلفة، وقد رُفعت عليه الأعلام الحمراء وتوالى فيه الخطباء ـ إن ليوم أول أيار في الغرب مكانته، فهو عيد العمال. هو رمز تضامنهم أولاً، ثم هو رمز احتجاجهم على أصحاب الرساميل، عقيدة أنهم يظلمونهم في الأجور، ويظلمونهم في ساعات العمل، ويظلمونهم في التعويض والمكافأة... أما نحن في الشرق، ولا سيما في لبنان، فيجب أن يكون ليوم أول أيار مع هذه المغازي مغازٍ أخرى هي الاحتجاج على عدم وجود الأعمال، وهي الاحتجاج على الخجل من العمل» ـ (**البرق**، السبت ٢ أيار ١٩٢٥).

□ «**أذاع** حزب الشعب اللبناني نداء على كل العمال والفلاحين يدعوهم فيه إلى الاتحاد، وقد ناشدهم أن يتفقوا للأضراب يوم أول أيار تأييداً لحقوق العامل وللمطالبة بما يتمتع به العمال في أوروبا ـ.... وقد جرى الاجتماع في مسرح كريستال وحضرته وفود من جميع العمال في لبنان الكبير، وخطب الخطباء، ثم طاف العمال صفوفاً في الشوارع بترتيب ونظام ـ فمرحى لفكرة الشبيبة الحية، وليحيى العمل والعمال» ـ (**المعرض**، الأحد ٣ أيار ١٩٢٥).

□ «**اجابة** لنداء حزب الشعب اللبناني قام أمس فريق من العمال بمظاهرة سلمية في المدينة تتقدمهم الأعلام الوطنية. ثم عقدوا اجتماعاً في نادي الكريستال تليت خلاله الخطب، في سبيل تأييد مشروع مطالبهم ـ قابل وفد منهم حضرة الحاكم (كايلا) في دائرته، وقدموا لحضرته بعض المطالب أهمها: بقاء قانون إيجار المنازل، فأجابهم بتمديده إلى عام انتهائه في أول تموز القادم... وبطلب التعليم المجاني، فأجابهم أن ذلك موجود في مدارس الحكومة الرسمية... وبوضع قانون يكفل حقوق العامل عند اصابته بضرر أو عطل في مصلحته وبصيانته الصحية، إلى غير ذلك من المطالب...» ـ (**لسان الحال**، السبت ٢ أيار ١٩٢٥).

□ **مجلة** «المعرض» في ٧ أيار ١٩٢٥، نشرت على غلافها الأول صورة واضحة لاحتفال أول أيار في قاعة الكريستال. وفي شرح الصورة وقع خطأ مطبعي: فجاء أن الاجتماع نظمه «حزب العمال في بيروت»، وهو الحزب المرتبط بالانتداب والمعادي

لحزب الشعب اللبناني، الذي نظَّم الاحتفال... في عددها التالي (١٠ أيار ١٩٢٥) نشرت **«المعرض»** تحت عنوان: «حزب الشعب اللبناني» هذه الكلمة: «ذكرنا سهواً تحت صورة مظاهرات العمال من حزب الشعب اللبناني: أن المتظاهرين هم من «حزب العمال»، والحقيقة أنهم عمال من «حزب الشعب اللبناني» المنتشرة فروعه في أنحاء لبنان».

□ **«قامت** تظاهرات للعمال في بيروت وبعض أنحاء لبنان اليوم، وأضرب عمال كثيرون عن العمل بمناسبة أول أيار، وقدموا مطاليب عديدة للمفوضية ولأصحاب المراجع. وسرّ الناس من حركة جميلة كهذه تُعدّ خطوة وسيعة نحو خلع العمال والفلاحين نير الرأسماليين والملاكين» ـ (**الصحافي التائه**، ٢ أيار ١٩٢٥).

□ **جاء** في مجلة الأممية الشيوعية **«المراسلات الأممية»**: أن أكثر من ٨٠٠ عامل تظاهروا في شوارع بيروت احتفالاً بيوم أول أيار ١٩٢٥، وجرت تظاهرات العمال في الشوارع، وعقدت اجتماعات في البيوت، ورُفعت الأعلام الحمراء، رمز نضال الطبقة العاملة. وامتدت احتفالات أول أيار إلى بعض المدن والقرى اللبنانية: زحلة وضهور الشوير وبكفيا وغيرها... ـ (العدد ٨٩ سنة ١٩٢٥ ـ صفحة ١٢٢١).

□ **للمرة** الأولى يرفع العمال صوتهم في هذه البلاد المقهورة على أمرها مطالبين بحقوقهم المهضومة. وللمرة الأولى في هذه البلاد المظلومة يتظاهر العمال في عيدهم الرسمي في أول أيار متَّحدين متفقين بأن يكونوا كتلة واحدة على المتمولين الذين يأكلون ثمرة أتعاب الشعب، وبأن يفهِّموا الرأسماليين ـ الكسالى ـ بأن الأيام ستنقلب عليهم، وأي منقلب!... ولقد كان الفضل في إثارة هذه الحركة المباركة عائداً لحزب الشعب اللبناني، وهو الحزب الحقيقي المدافع عن حقوق العمال والفلاحين في هذه البلاد، والرافع علم الثورة والتمرّد على الدخلاء المتعيّشين المتاجرين باسم العمال» ـ (**الإنسانية**، العدد الأول، السنة الأولى، الجمعة في ١٥ أيار ١٩٢٥).

... وانطلق الرفاق يفتشون عن المعارك...

الكتاب الثاني

الطلائع تفتش عن المعارك



طليعي في الشعر وفي النضال، يخاطب «الأسود الدفينة بين الرمال»

المكان: ساحة الشهداء في قلب بيروت.

الزمان: الاربعاء ٦ أيار ١٩٢٥. الساعة ٤ بعد الظهر.

الموضوع: احياء ذكرى الشهداء الذين أعدمهم الأتراك في ٦ أيار ١٩١٦، والشهداء الذين سبق أن أعدمهم الأتراك أيضاً، في ١٤ آب ١٩١٥، في الساحة نفسها.

بين الأكاليل: عدة أكاليل تحمل اسم «حزب الشعب اللبناني».

بين الخطباء: الشاعر الدكتور أديب مظهر، سكرتير فرع بيروت لحزب الشعب اللبناني، وسوف يتحدث باسم الحزب.

.... فكيف جرى الاحتفال؟. ومن اشترك فيه؟.

الخميس ٧ أيار ١٩٢٥ ـ قالت جريدة «لسان الحال» تصف الاحتفال:

«في الساعة الرابعة بعد ظهر أمس، اجتمع في ساحة الشهداء جمهور من الشبيبة، ووفود من طلاب بعض الجامعات يحملون أكاليل الأزهار ورسوم بعض الشهداء مجللة بالأزهار. ووصل في الأجل المضروب، على سيارة من دمشق، وفد من شبيبتها للاشتراك في الحفلة التذكارية، مبادلة لشبيبة بيروت التي أرسلت وفداً إلى دمشق

صباح أمس...

(جريدة «زحلة الفتاة» تقول، في اليوم نفسه: إنَّ المتظاهرين داروا حول مكان المشانق، ثم توجّه ما يقارب الألفين منهم مخترقين الشوارع إلى مقبرة الرمل ـ ٧ أيار ١٩٢٥).

ـ «لسان الحال» تتابع وصفها: «.... ونحو الساعة الرابعة ونصف مشى الجمهور يحمل أكاليل الأزهار ورسوم الشهداء، عرفنا منها ثلاثة عشر أكليلاً: من طلبة العرب في الجامعة الأميركية، ومن طلبة العرب في الكلية العلمية، وأكاليل من عائلة طبارة (هي عائلة الشهيد أحمد طبارة) وأكاليل من حزب الشعب اللبناني، وأكليل من الشبيبة الاسلامية، ومن وفد دمشق، ومن آل العريسي. أما رسوم الشهداء فهي للمرحومين:

عبد الغني العريسي

ومحمد المحمصاني ومحمود المحمصاني

وعمر حمد....

ساحة الشهداء: ٦ أيار ١٩١٦. ليل، ومشانق، وجنود. ثوب الاعدام الأبيض يشق الظلام. الجلاد يضع الحبل حول عنق **عبد الغني العريسي**، صوت العريسي يشق الصمت والزمن:

«بلّغوا جمال باشا أن الملتقى قريب، وأن أبناء الرجال الذين يُقتلون اليوم سيقطعون في المستقبل بسيوفهم أعناق أبنائك الأتراك. إن الدول لا تُبنى على غير الجماجم. وإن جماجمنا ستكون أساساً لاستقلال بلادنا»[1].

(١) اقوال الشهداء مأخوذة من ذكريات كتبها اشخاص عاشوا تلك الأحداث، بعضهم كان في السجن، وبعضهم كان في ساحة الشهداء ليلة الاعدام. وهذه الذكريات نُشرت اولاً في جريدة «البرق» عام ١٩١٩ ـ ثم نقلتها جريدة «السيّار» ـ صاحبها يوسف ابراهيم يزبك ـ في عدديها الثاني والثالث الصادرين في ٧ و٨ أيار ١٩٣١، وكانت بدورها نقلتها عن «البرق».

ساحة الشهداء: ١٤ آب ١٩١٥، ليل... مشانق... صوت **محمد المحمصاني:** «حَكَمتم عليّ بالموت، فلا بأس، أنا اشتركتُ في المسألة الوطنية، وسعيت مع اللامركزيين، وأنا مفتخر بأعمالي. ولكن ما ذنب أخي؟. أحكموا عليّ وحدي واعفوا عنه. إنه بريء ـ يشهد الله ما فعلته وقمت به من الحركات التي اتُهمت بها، إنما كان عن اعتقاد ثابت لا يتزعزع بأني أخدم بلادي وانجِّيها ـ إني أموت شهيداً. فلتحي امتي، ليحي العرب».... (وقد أُعدم الأخوين محمصاني، معاً، في لحظة واحدة)(١).

ساحة الشهداء: ٦ أيار ١٩١٦. ليل... ومشانق... ونشيد جماعي يزلزل الصمت والليل والمشانق: «**نحن أبناء الأولى/ شادوا مجداً وعُلا**». الشاعر **عمر حمد** ينشد مع رفاقه وهم في الطريق إلى أعواد المشانق. عمر حمد يصعد إلى منصة الاعدام: «بلّغوا حكومتكم الظالمة أن هذا العمل الذي تعمله الآن سيكون سبباً في خرابها وتقويض أساساتها. إني أموت غير خائف وغير وجل. أموت فداء الأمة العربية. فليسقط الأتراك الخونة، وليحي العرب!»(٢).

ـ «لسان الحال» تتابع وصف الاحتفال بذكرى الشهداء. بيروت ٦ أيار ١٩٢٥: «... وكان كل طالبين يحملان اكليلاً من الأزهار، وهكذا رسوم الشهداء، ومن ورائهم يسير جمهور من الشبيبة إلى رمال بيروت حيث يرقد الشهداء. وهناك وقف حضرة الزميل جبران افندي تويني منشئ جريدة «الأحرار» فألقى كلمة، وطلب الصمت دقيقتين احتراماً. ثم أخذ حضرته يقدّم الخطباء واحداً واحداً... فتكلم عن الكلية

(١ و٢) اقوال الشهداء مأخوذة من ذكريات كتبها اشخاص عاشوا تلك الاحداث، بعضهم كان في السجن، وبعضهم كان في ساحة الشهداء ليلة الاعدام. وهذه الذكريات نُشرت أولاً في جريدة «البرق» عام ١٩١٩ ـ ثم نقلتها جريدة «السيّار» ـ صاحبها يوسف ابراهيم يزبك ـ في عدديها الثاني والثالث الصادرين في ٧ و٨ أيار ١٩٣١، وكانت بدورها نقلتها عن «البرق».

الاسلامية محمود التنير، وعن الجامعة الأميركية كنعان الخطيب... وعن شبيبة دمشق صبري العسلي، وعن طلبة العلمانية خليل محمود تقي الدين... وعن حزب الشعب اللبناني **الدكتور أديب مظهر...»**.

هل مشاركة أديب مظهر، بالخطابة في ذكرى الشهداء، هنا، تعني لنا، أكثر مما تعنيه مشاركة شاعر ما في احتفال ما؟.. نعم. إنها تعني شيئاً أكثر، وشيئاً مختلفاً أيضاً. أديب مظهر لم يكن مجرّد شخص يتكلم. فقد تكلم في الاحتفال باسم «حزب الشعب اللبناني»، الوجه العلني للحزب الشيوعي....

....

فقرة، من برنامج الحزب الشيوعي اللبناني، عام ١٩٦٨، تضيء هذا المعنى:

«.... والحزب، بفضل ارتباطه بتراث الشعب الكفاحي، يستلهم، ويطوّر، كل ما هو تقدمي وثوري في تراث شعبنا الوطني والقومي. وهو يرى: أن ما وصلت إليه الحركة الوطنية والشعبية في الوقت الحاضر، هو المكمّل لانتفاضات الفلاحين البطولية في العاميّات، وللنضالات المجيدة التي خاضتها الجماهير الشعبية في مقاومة الاقطاعية والسيطرة العثمانية وتعسّفهما، وفي مكافحة السيطرة الاستعمارية الفرنسية بعد الحرب العالمية الأولى...»[1].

....

... بهذا المعنى، فإن مشاركة أديب مظهر في احتفال إحياء ذكرى الشهداء، لم تكن مجرّد مشاركة عادية: فقد كان يمثّل حزباً يستلهم، ويطور، كل ما هو ثوري في كفاح

(١) من مقدمة «برنامج الحزب الشيوعي اللبناني» ١٩٦٨ ـ في كتاب: «نضال الحزب الشيوعي..» ـ الجزء الأول، صدر عام ١٩٧١، ـ صفحة ١٢.

المناضلين السابقين. والمشاركة هي أحد مظاهر هذا الاستلهام والتطوير، ثم أن أديب مظهر نفسه، لم يكن، كذلك، شخصاً عادياً...

□ **قال فؤاد الشمالي:** «.... أما الدكتور أديب مظهر، عضو «حزب الشعب اللبناني»، فهو الذي قاد المظاهرة الشعبية الكبرى، باسم حزب الشعب اللبناني، يوم قدوم الجنرال ساراي إلى بيروت (١٩٢٤) وكان ذلك الموقف التاريخي المجيد الذي يبرهن على أن الدكتور أديب مظهر كان من الشبان الوطنيين المتقدين حماسة»[١].

□ **وقال يوسف يزبك:** «أديب مظهر ليبرالي وطني. من أوائل الذين طالبوا باستقلال لبنان التام الناجز. أشترك بمظاهرة طالبت بإسقاط المجلس المعيّن المزوّر في بداية الانتداب. كان مقداماً. وهو طبيب أسنان. كان غنياً وكريماً. وعندما كنا نطفر، نحن جماعة اللجنة التنفيذية لحزب الشعب اللبناني ـ وغالباً ما كنا نطفر تلك الأيام ـ كان أديب يُطعمنا. وهو أول شاعر رمزي عربي» ـ (من حديث خاص).

□ **وقال سليم أبو جمرة،** الكاتب والصحفي: «عرفت أديب مظهر معرفة شخصية، وربطتني به صداقة متينة، كانت لحمتها الأدب وسداها السياسة والانسجام في التفكير والأهداف الوطنية الاستقلالية، يوم كانت كلمة وطن واستقلال وقومية من الجرائم التي يعاقب عليها القانون، وتُجرّ إلى المحاكمة، والسجن. ـ ثم التقيته في مطلع سنة ١٩٢٥، ليلة السهرة «ريفيون» في مربع تباريس، وكانت الثورة السورية وثورة جبل الدروز على أشدهما. وكان الساهرون على أشد ما يكون المرء من المرح في ميدان الرقص. وفي القرب منّا مائدتان جلس إلى احداهما فريق من الشباب اللبناني المختلط، والى الثانية فريق من الشباب السوري، يصب الفريقان الويسكي والشمبانيا بلهفة العطش، ويرقصون بحماسة ما بعدها حماسة، وكنّا شباناً لا مجال للحسد منهم بشيء، وعلى

(١) فؤاد الشمالي: «كيف تنظمت الحركات الشيوعية السرية في سوريا ولبنان» ـ مجلة «العاصفة» العدد ٥١ ـ في ٦ آب ١٩٣٣ ـ صفحة ١٦.

الرغم من ذلك آلمتنا هذه المشاهد، فقال لي أديب: أنظر إلى هؤلاء!. ألا يشعرون بما في البلاد؟»(١).

كان أديب مظهر، إذن، وطنياً، ومقداماً، ومناضلاً. وكان شاعراً. وهنا، في الشعر أيضاً، لم يكن أديب مظهر شاعراً عادياً.

هو من أوائل (ويقولون: أول) الشعراء الرمزيين الحديثين العرب.

في تلك الفترة، كان الشعر العربي السائد هو ذلك الشعر التقريري، الذي يجترّ ويجتر الصيغ والتشابيه والمعاني والحذلقات المتوارثة، التقليدية، والبعيدة عن الحياة، والبعيدة، خاصة، عن المشاعر الحقيقية للشاعر نفسه، فلا يمكنك أن تتعرّف، من خلال هذا الشعر، على حقيقة الشاعر، ومعاناته، وهويته، فالشعر منفصل عنه، عن تجربته هو الحيّة، ومرتبط بما هو جاهز من التراكيب والأشكال والألفاظ والمواضيع.

أديب مظهر، ذو الثقافة الشعرية المعاصرة، الفرنسية بشكل خاص، والصادق مع نفسه، والمقتحم. وجد أن الشعر العربي السائد، في تلك الفترة، قيد، وسجن، وأداة تزوير للذات. كسَّر القيد، حطّم السجن، وأعلن الحقيقة عن ذاته، صوَّر تجربته الحية. وخرج بالقصيدة العربية من المتعارف عليه واقتحم بها المجهول.

قالوا: شعره غامض. وصوره عجيبة. ونحن لا نفهمه.

صحيح!. في تلك الفترة، كان شعره يبدو هكذا: غامضاً عجيب الصور، وصعباً. ولكنه كان صادقاً، وكان جديداً، وكان مهماً.

تقرأ شعره الآن فيروعك فيه تعاطيه مع الموت، تعاطٍ أشبه بالهيام. ولكن الموت عنده هو الحياة في حالة أخرى، هو التجدّد في الطبيعة. وهو الذهاب إلى الحب عندما يصير الحب مستحيلاً في مجتمع شرس. التعاطي مع الموت عند أديب مظهر ليس مجرد معضلة فلسفية لفرد تعذّبه فكرة النهاية. بل هو هنا، خصوصاً عند واحد من

---

(١) سليم أبو جمرة: «حول مقال: أديب مظهر» ـ مجلة «شعر»، العدد ٦، ربيع ١٩٥٨ ـ صفحة ١٢٦.

نوع أديب مظهر، صرخة احتجاج ضد مجتمع لا يتيح لنا أن نعيش حياتنا بكل امتلائها وطاقاتها وغناها. (كانت الشبيبة الوطنية في تلك الفترة تعاني اليأس والخيبة ويعذّبها حسّ الفجيعة بفقدان وطن أرادت له الحرية فوقع تحت نير الانتداب).

على أن ما يثير عجبك واعجابك في شعر أديب مظهر هو غرابة الصور، وتلوين الأشياء حسب حالات النفس وليس حسب حالات الطبيعة، وإعطاء ألوان لأشياء لا لون لها: فالنسيم أسود، والنغم قاتم، وللنسيم خيال، وللسكون نشيد، والعين تسأم نوراً لا تراه... ومخلب الموت ناعم... وكثير من هذه الصور التي لا يمكن فهمها بمقارنتها مع ما هو متعارف عليه، فلا بد لك أن تحسّها باستحضار الحالة النفسية للشاعر.

وما يهمنا الآن ـ في هذا الكتاب ـ ليس تفسير شعر أديب وتحليله، بل معرفة دوره في حركة الشعر العربي، وفي موقف الشاعر من المجتمع: فمع أديب مظهر نلتقي بالقصيدة ذات **الوحدة العضوية**، فلم تعد الأبيات عنده وحدات مُقفلة مستقلاً بعضها عن البعض الآخر، بل صار البيت «علاقة» جزء في وحدة، والقصيدة تعبيراً عن حالة وموقف وليست تراكم صور وأفكار لا علاقة عضوية بينها. ولم تعد القصيدة عنده أبياتاً تقريرية، واستخدام ما هو معروف وتقليدي، بل صارت كياناً فنياً يعبر عن حالة الشاعر، حقيقته، رؤيته، معاناته، حزنه، وفرحه، هو، بكل صدقه القاسي.

هذا الصدق، مع الذات، والحياة، والعصر. هو في أساس تغيير ما صار تقليداً مهترئاً، واقتحام المجهول. حتى ليمكن القول، «إن هذه التجربة الجديدة ـ عند أديب مظهر ـ هي التي أدت إلى الشعر الجديد»[1].

أديب مظهر قدّم إسهاماً كبيراً وجدِّياً في عملية تغيير الشعر العربي، في كسر قوالبه القديمة، وبنيته التي شاخت، ودخل به، جديداً، في زماننا المعاصر.

ومن يُسهم في تغيير البنى العتيقة للشعر ليصبح شعراً بالفعل. ومعاصراً بالفعل.

---

(١) ايلي حاوي: «أديب مظهر: رائد التجديد في الشعر العربي» (مجلة «شعر» العدد ٥ ـ ربيع ١٩٥٨) وفي الدراسة نصوص مختارة من قصائد مظهر اعتمدنا عليها في هذا الحديث.

يتحرّر من نزعة تقديس ما هو جاهز، متقولب، وقائم، في المجتمع كذلك وليس فقط في الفن... فإذا كانت البنى العتيقة للشعر هي التي تمنع الشعر من أن يتطور، ويتقدم، وأن يعطي الشاعر إمكانية تفجير ما عنده من مخزون شعوري، ومعرفي... فإن البنى العتيقة للمجتمع، للنظام القائم، هي التي تمنع المجتمع من أن يتطوّر، ويتقدم، وأن يعطي البشر امكانية تفجير كل ما عندهم، وما في الطبيعة، من طاقات انتاج وتحويل وابداع.

وليس مصادفة أن نرى كبار المغيِّرين في الفن، المغيِّرين الحقيقيين، الأصيلين، لا المتلاعبين الشكليين بالشكل لكسر مزراب العين! ـ هم في الوقت نفسه، كبار في عملية تغيير المجتمع، وليس مصادفة أن صرخة الرومنتيكيين، في أوروبا، ضد الفن الذي تجمّد في القوالب، كانت في الوقت نفسه صرخة احتجاج ضد الرأسمالية وشراسة البورجوازية. وليس مصادفة أن ينتقل كبار السورياليين، وهم الذين كسروا القوالب العتيقة، وثاروا على الفن الرسمي، أراغون، مثلاً، وإيلوار، وأن ينتقل بيكاسو، إلى الثورة... إلى الحزب الشيوعي... الحزب المفترض أن يتولّى هو تحطيم بنية النظام القائم، وتغيير علاقات الانتاج الرأسمالية، وبناء الجديد، اقامة النظام الاشتراكي.

هؤلاء الذين يرون، في زمن معيّن، ما لا يراه الآخرون. ويصوّرون رؤيتهم هذه فيقال إن نتاجهم غريب، وغير مفهوم، وضد المقدّسات، وضد ما هو قائم... هؤلاء ألا نرى في منطق حركتهم، المنطق نفسه الذي رأيناه في حركة الفكر الماركسي: فهو أيضاً كان غريباً، وغير مفهوم، وضد المقدسات، وضد النظام القائم... ثم لم يعد غريباً، وصار مفهوماً ـ نعني صار ما يريده، مفهوماً ـ وليس عنده «مقدّسات»، وسيظل ضد النظام القائم طالما هذا النظام يسمح للإنسان أن يستثمر الإنسان وأن يسحق إنسانيته....

أديب مظهر ساهم في تغيير الشعر العربي... وقدّم اسهاماً طليعياً في حركة شعبنا لتغيير المجتمع... الأعمال الشعرية التي أعطاها، قليلة جداً (نشيد السكون ـ النسيم الأسود ـ نشيد الخلود ـ وبعض القصائد القليلة...).... فحياته كانت قصيرة جداً: ولد في المحيدثة (بكفيا) عام ١٨٩٨. أتقن الفرنسية، واتقن الانكليزية. وأحب شكسبير.. ودرس اللاتينية القديمة ودرس اللغة الايطالية الحديثة بهدف دراسة دانتي مباشرة وتعريب جحيمه عن لغته الأصلية. التحق بالجامعة الأميركية عام ١٩١٣ ليدرس طب الأسنان. وفي الجامعة عُرف بنشاطه السياسي، وكان من مؤسسي جمعية «العروة الوثقى». وهو حار المزاج أبيض اللون مُشبع وجهه حمرة. شديد الحيوية، قوي البنية. ومات نتيجة

حمى لم تمهله يومين، (... وقيل إنه مات مسموماً.. ومن الأسباب: عداؤه العنيف لسلطات الانتداب) وكان ذلك عام ١٩٢٨، وكان عمره ٣٠ عاماً[١].

أليس غريباً هذا الموت المبكر لشاعر كان شعره مشحوناً بصور الموت؟

ترى، لو عاش أكثر قليلاً، وتابع مسيرته حسب منطق فنه ومنطق موقفه، أما كان وصل إلى الماركسية، والحزب الشيوعي؟.. فقد كان أديب مظهر عضواً في «حزب الشعب اللبناني»، وكان الحزب ديموقراطياً واسعاً يضم شيوعيين وغير شيوعيين... ومات أديب قبل أن يصبح عضواً في الحزب الشيوعي... ولكنه، بتمثيله «حزب الشعب اللبناني» وبقيادته المظاهرات ضد سلطات الانتداب أيام كان الانتداب في ذروة شراسته... وبأشعاره الحاملة غضب الاحتجاج والنقمة ضد جرائم الاحتلال التركي، وضد السيطرة الفرنسية.. وبمشاركته في إحياء ذكرى الشهداء يوم ٦ أيار ١٩٢٥، ممثلاً «حزب الشعب اللبناني»، كان، بشكل ما، يمثل الحزب الشيوعي...

فماذا قال في ذكرى الشهداء؟

في مجموعات الصحف، التي وصلتُ إليها، والعائدة لتلك الفترة، لم أعثر على نص القصيدة التي ألقاها. فقد اكتفت تلك الصحف بوصف الاحتفال وذكر أسماء الخطباء، وقد ألقوا كلماتهم في مكان مقبرة الشهداء بين الرمال[٢]... ولكني عثرت على نقطة

---

(١) المعلومات عن حياة أديب مظهر مستمدة من: يوسف أسعد داغر: «مصادر الدراسة الأدبية» الجزء الثالث، القسم الثاني ـ منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٧٢ ـ صفحة ١٢٣٥.
ـ وأيضاً من: ابراهيم عبده الخوري ـ مقالة بعنوان: «متى يظهر أديب مظهر؟» ـ مجلة «النهار العربي والدولي»، العدد ٣٠٢ في ٢٠ شباط ١٩٨٣.

(٢) في مقالة ابراهيم عبده الخوري: «متى يظهر أديب مظهر؟» (النهار العربي والدولي، في ١٩٨٣/٢/٢٠)، أورد الكاتب نص قصيدة قال إن الشاعر مظهر ألقاها عام ١٩٢٢. أما المناسبة فهي احتفال بذكرى الشهداء الذين أعدمهم جمال باشا. فهل هناك خطأ في تاريخ السنة؟... وهل تكون هذه القصيدة هي تلك التي ألقاها أديب مظهر، العام ١٩٢٥، في الاحتفال بذكرى الشهداء، ممثلاً «حزب الشعب اللبناني»؟... أو هل يكون قد أعاد إلقاءها هي نفسها؟. ذلك أن كلمة «الأسود» وتعبير «الأسُود الهاجعة» يتردّد في هذه القصيدة.. فهذه الكلمة (الاسود الدفينة) هي التي قالت الصحف، عام ١٩٢٥، إنها وردت في قصيدته.. ونحن نورد هنا، بعض أبيات من القصيدة التي قال ابراهيم الخوري إنّ مظهر ألقاها عام ١٩٩٢، فهي تحمل، على كل حال، تعبيراً غاضباً عن الحالة نفسها:

■ هجعت أسودك والشعوب حثيثة — حتام يزفر دهرك المصدورُ =

ضوء في جريدة «زحلة الفتاة» الصادرة في ذلك اليوم (الخميس ٧ أيار ١٩٢٥) فقد نشرت خبر الاحتفال، كما نشرته الصحف الأخرى... مع زيادة سطر واحد، جاء هكذا: «... أما الدكتور أديب مظهر، مندوب حزب الشعب اللبناني، فقد أنشأ شعراً جميلاً حياً فيه «الأسود الدفينة بين الرمال».

كلمات قليلة قليلة، ولكنها تكفي...

= وحبت عليك رحى العصور وانت من   ظلمٍ إلى ظلم فاين النور
الجم غصونك إن رَنَت لمتيّم   عبث الهوى طفلٌ وانت وقور
يا ارز كم من راسفٍ بقيوده   حرُ وحر في الحياة أسير
■ لله ثلجك في الغداة كانه   عذراء سافرة الجبين بكور
كتب الشقاء عليه حظ فداته   انظر ففي ذاك البياضِ سطُورِ
يا ثلج هلا كنت للشهداء أكفاناً   فمنحدرُ الرمالِ حقير
■ واسال عن الشهداء اين قبورُهم   واسجد هنالك فالمكانُ جدير
حدّث عن الاحرارِ كيفَ يعودها   اجلُ الدهور فتنحني وتغورُ
والله ما صبروا على مضِّ القذى   لولا جناح يا نسيمُ كبيرُ
واذا الزمان ادار ظهر مِجنِّهِ   ذُلَّ العقابُ وسيطر الزرزور
■ واهب بهاتيكَ الاسودِ وقل لها   باعَ البلادَ ثعالبٌ ونمورُ
والشعبُ لهفَ ابي على حملانه   طفل يهوِّم في القماطِ صغير
والفلس يحكمُ والعدالةُ تنتقي   دغلَ المجالس والأبي فقيرُ
■ لبنان صبراً والخطوبُ جسيمة   ان الكريمَ على الخطوبِ صبورُ
قل للذي يرنو لسفحك طامحاً   دون البلاد مرائر وصدور
ان اعوزتك من الرجالِ اسودُها   فاهب تجبك حرائرٌ وبكورُ

جريدة للحزب ولجنة مركزية ... ومعارك

مهرجان أول أيار في الكريستال كان انتصاراً كبيراً.

هذا الانتصار اخرج الحزب، بشكل باهر قوي، إلى الحياة السياسية في البلاد. ولكن هذا الانتصار بالذات، أعطى الحزب حجماً كبيراً لا يتناسب مع واقعه العددي، ولا مع واقعه التنظيمي: فالنواة الشيوعية لا تزال مجرّد نواة: مجموعة من العناصر الشيوعية لم يربطها، بعد، هيكل تنظيمي محدّد. و «حزب الشعب اللبناني» ـ رغم أنه يلفّ حوله بعض المثقفين غير الحزبين، وبعض العناصر العمالية في بيروت ـ فهو لا يزال يقوم أساساً على قاعدة من عمال الدخان في المناطق، ومركزه الأساسي لا يزال في بكفيا، بإصرار من فؤاد الشمالي الذي كان يرغب، كذلك، أن يكون المركز الأساسي للحزب الشيوعي في بكفيا أيضاً حيث يرتاح إلى دعم عمال الدخان... في حين أن مركز الحياة السياسية، بيروت، كان يتطلّب بالضرورة أن يكون مركز الحزب، وهو حزب سياسي، في بيروت... يُضاف إلى هذا: أن الحدود كانت لا تزال مائعة جداً بين عامل الدخان وبين عضو نقابة عمال الدخان، ثم بين عضو النقابة وبين عضو «حزب الشعب

اللبناني»، فضلاً عن أن العناصر الشيوعية في قيادة «حزب الشعب» كان لا بد أن تنشط باتجاه تحويل العناصر الطليعيّة بين العمال إلى عناصر شيوعية.

وكان لا بد للقيادة الشيوعية أن تقوم بعملٍ يتناسب مع دوي انتصار مهرجان الكريستال، ويكون قاعدة انطلاق جدي، تنظيمياً وسياسياً، باتجاه جعل «الحزب الشيوعي اللبناني» الذي تأسس قبل أشهر، حزباً بالفعل، له شرعته التنظيمية، وتوجُّهاته الطبقية والسياسية (خطته) الواضحة.

في هذه الفترة بالذات (أيار ـ حزيران ١٩٢٥) قام الحزب بإنجازين كبيرين:

□ **الانجاز الأول،** من حيث تاريخه، هو: إصدار جريدة «الإنسانية»: **أول جريدة شيوعية علنية في لبنان وسوريا.**

□ **الانجاز الثاني:** تشكيل أول لجنة مركزية للحزب، وذلك على أثر انضمام أرتين مادويان ورفاقه من «شبيبة سبارتاك»، إلى الحزب، وكان لهذا الفريق امتداد في سوريا، فاتخذت اللجنة المركزية اسم: «اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في لبنان وسوريا».

في حديث ليوسف يزبك عن هذه الفترة، فترة ما بعد انتصار مهرجان أيار، يقول: «...هذا الانتصار المذهل الذي حققه حزب الشعب اللبناني، جعل النواة الشيوعية والنقابية تنطلق أكثر، ابتداء من عمال التبغ والمثقفين الشيوعيين، واتجهت الحركة النقابية نحو مزيد من التبلور والاتساع والتنظيم، وخاصة مع النضالات اللاحقة بعد أن انضم إلينا أرتين مادويان والفريق الذي كان معه»[١].

عن الإنجاز الأول: إصدار جريدة «الإنسانية»:

رأت المجموعة الشيوعية، بعد مهرجان الكريستال، أنه حان الوقت للعمل على اصدار

---

(١) «الأخبار» ـ العدد ١٤ في ٢٨ نيسان ١٩٧٣ ـ حديث مع يوسف يزبك، أجراه نبيل هادي ـ صفحة ١٩.



الانسانية

٦٦٢

أول أيار في بيروت

العدد الأول من جريدة «الإنسانية»

جريدة للحزب، كما اتُفق في الاجتماع التأسيسي الأول (٢٤ تشرين الأول ١٩٢٤). وطُرحت القضية في اجتماع اللجنة التنفيذية لحزب الشعب اللبناني، والتزم يوسف يزبك، الصحفي بدمه، بإصدار الجريدة، وسيكون اسمها: «**الإنسانية**».

«.... وأذكر أن جريدة «الأومانيتيه» (الإنسانية) ـ لسان حال الحزب الشيوعي الفرنسي ـ بدأت تصل إلى لبنان في ذلك الزمان (١٩٢٥)، أو قبله بقليل، وصار كثيرون من المثقفين يُقبلون على شرائها. وأذكر أن صاحب المكتبة التي كنت أشتري منها«الأومانيتيه» كان يسجّل أسماء الذين يشترونها، ويعطيها للأمن العام الفرنسي. فقد تبيّن لي فيما بعد أن علاقات وثيقة تربطه بجماعة الأمن العام...» ـ من حديث ليوسف يزبك: «الأخبار» ـ ١٩٧٣/٤/٢٨.

... وهكذا، في ١٥ أيار ١٩٢٥، صدر العدد الأول من جريدة «الإنسانية»، منشؤها: يوسف ابراهيم يزبك.

لنأخذ هذا العدد الأول:

ـ في أعلى الصفحة الأولى، وفوق اسم الجريدة وشعارها، هذا السطر: «الإنسانية» هي جريدتك أيها العامل، فأقرأها وأعطها لغيرك ليقرأها».

ـ ثم، فوق الاسم مباشرة: «اتحدوا أيها العمال».

ـ تحت اسم «الإنسانية» تقرأ: «صحيفة اسبوعية، أُنشئت خصيصاً لخدمة العمال والفلاحين والمدافعة عن حقوقهم وتنظيم صفوفهم». (وسوف نرى، بالفعل، أن المهمة الأساسية للجريدة كانت، **الدعوة لتنظيم العمال في نقابات**، وهي المهمة الأساسية التي طرحها الحزب أمامه في تلك الفترة).

ـ إلى يسار الاسم: نقرأ «الإنسانية، للفقير على الغني، وللعامل على الرأسمالي».

هذه الشعارات بقيت كما هي، وفي مكانها نفسه، حتى آخر عدد صدر من «الإنسانية». وهي توضح تماماً هوية الجريدة الجديدة. وعندما نرى أن محتويات الجريدة هي تأكيد وتعميق وشرح لهذه الشعارات، يتأكد لنا أن جريدة «الإنسانية» هي، بالفعل ـ وبكل دقة ومسؤولية ـ **«أول صحيفة من نوعها في هذه البلاد»** ـ حسب تعبير مجلة «المعرض»:

«أصدر الصديق الرفيق يوسف ابراهيم يزبك جريدة أسبوعية سمَّاها «الإنسانية» وجعلها لسان حال العمال في هذه البلاد، واذا شئت فسمِّها أيضاً وليدة الجريدة الفرنساوية «لومانيتيه». وقد حبست الجريدة مواضيعها على خدمة العمال ومبادئهم، وهي أول صحيفة من نوعها في هذه البلاد، وتُعدّ خطوة واسعة في سبيل المذهب الاشتراكي الجديد».

(«المعرض»: الأحد ٧ حزيران ١٩٢٥).

في صدر الصفحة الأولى: صورة لجماهير العمال والمثقفين في قاعة الكريستال. فوق الصورة: «أول أيار في بيروت». تحت الصورة: «تظاهرات حزب الشعب اللبناني ـ رسم العمال والفلاحين المضربين عن أعمالهم في أول أيار». وفي الخبر الوارد تحت الصورة عن المهرجان ترد هذه الجملة: «حزب الشعب اللبناني: الحزب الوحيد الذي يمثّل الطبقة العاملة بأجلى تمثيل في هذه البلاد، والمؤلَّف من العمال والفلاحين فقط»... وفي هذه الجملة اعلان واضح لمتابعة الحرب ضد «حزب العمال» الرأسمالي ـ الذي يتزعّمه رأسماليون ومتموّلون كبار ـ بهدف الإجهاز عليه نهائياً.

افتتاحية هذا العدد الأول تحمل هذا العنوان الذي لفت نظرنا: «الإنسانية: بيان وقانون ايمان»... هل تذكرون عنوان افتتاحية العدد الأول لجريدة «الصحافي التائه»؟ (٢٨ أيلول ١٩٢٢)... لقد جاء بصيغة التساؤل الحائر، هكذا: «أبيان أم قانون إيمان؟»... نعتقد أن صياغة عنوان افتتاحية «الإنسانية» لم تكن عفوية... ففيها تذكير بمرحلة «الصحافي التائه» من ناحية، وفيها ـ وهذا هو المهم ـ تمييز لمرحلة «الإنسانية» عن مرحلة «الصحافي التائه» من ناحية أخرى: لقد ذهبت الحيرة، والتردد، وتعابير «الاشتراكية المعتدلة»، والوقوف في الوسط (أبيان؟.. أم.. قانون إيمان؟) ودخلنا في منطقة اليقين والحسم (بل: بيان! وقانون ايمان!)... دخلنا عهد وجود الحزب.

ولا بأس أن نقرأ بعض مقاطع من هذه الافتتاحية، طالما هي من التعبيرات الأولية للمرحلة الجديدة:

- «... من العار أن تكون الطبقة العاملة في العالم هي الأكثرية الساحقة، وأن يكون فوقها أفراد معدودون يتملّكونها ويتصرّفون بها تصرّفهم بالسلع، فيظلمونها ويجيعونها ويميتونها في سبيل مآربهم الشخصية الدنيئة وشهوات نفوسهم السافلة.
- «ومن العار أن تخرج البشرية من تلك الحرب الطاحنة التي قتلت ملايين العمال والفلاحين الأبرياء لتزداد ثروة الرأسماليين اللصوص، وتظل الشعوب مسوقة بيد أفراد معدودين ظالمين.
- «لقد آن الواجب ليلفظ الشعب كلمته!

ـ البشرية غنية وسيعة، فيجب أن تكون الشعوب كلها غنية. إن الغنى هو منتوج العمل، فيجب على كل الناس أن يعملوا.

وليس من العدل أن تُقسم الإنسانية إلى فئتين: فئة تعمل كل منتوجات العالم، فتتعب وتشقى، ثم تحرم منها... وفئة لا تعمل ولا تتعب ولا تشقى، ثم تسعد بكل منتوجات العالم!».

ثم يربط كاتب الافتتاحية (يوسف ابراهيم يزبك) القضية الاجتماعية للعمال بالقضية الوطنية للشعب المستعمَر فيهتف:

□ «أنشأتُ هذه الجريدة وأنا عامل مظلوم، في شعب مظلوم! ووقفتها على خدمة تلك الضحية التي يقتلها الظلم والاحتكار والتسيطر ـ وهي سبب سعادة العالم ـ لتوحّد كلمة العمال وصفوف الفلاحين، وترفع صوتها عالياً، لا «للاحتجاج»... بل لارجاع الحق المهضوم!.

□ «أيها الحق المهضوم!

ـ يا عرق جبين العمال، وثمرة أتعاب الفلاحين.

ـ باسمك نكتب... ولأجلك نجاهد. فلا تكن حلماً ولا أملاً.

ـ إننا نريد: الحياة الحرة، وسعادة الإنسانية، التي هي مجموعنا، لا ملك الرأسمال والسيطرة والظلم!

□ «... وأيها العمال والفلاحون، يا عمال الأرض، يا صعاليك العالم كله، اتحدوا!».

واضح أن يوسف يزبك هنا، في «الإنسانية»، يختلف عن «الشبح الباكي» هناك، في «الصحافي التائه»، وإن كان يحتفظ بالحماس نفسه. فلم يعد هذا الاشتراكي «يطالب» بالعدالة أو ينتظر، حتى تتحقق الاشتراكية «بذاتها»... بل هو يسعى لتوحيد العمال والفلاحين لا «للاحتجاج» بل لإرجاع الحق المهضوم. فقد «آن للشعب أن يلفظ كلمته»... ثم نلاحظ تلك الاضافة إلى شعار «يا عمال العالم اتحدوا» بما يتناسب مع واقع حركات الفلاحين في بلادنا، فصار «أيها العمال والفلاحون، اتحدوا!»... ولكن الملفت للنظر، كذلك، أن هذا التعبير ظل فترة طويلة مقتصراً على الصعيد النظري، أو على

صعيد رفع الشعار، دون أن يستتبع نشاطاً جدِّياً بين الفلاحين... هذا ما يبدو لنا ـ على الاقل ـ من خلال الجريدة ومن مختلف الكتابات الأخرى عن نشاط الحزب في هذه الفترة. فليس هناك إشارة إلى نشاط من هذا النوع، وليس في الجريدة أي مثال يتعرّض لأوضاع الفلاحين، (هل لنزعة الشمالي العمالية/ النقابية أثر في هذا الاتجاه؟) في حين كان القسم الأكبر من مساحة الجريدة مخصّص لقضايا العمال، بل يكاد يدور حول تلك القضية المحورية التي استقطبت نشاط الحزب: **تنظيم العمال في النقابات.** وسوف تأتي الأحداث نفسها، وبعد أسابيع قليلة، لتجعل هذه القضية احدى مهمات الحزب الرئيسية، وسيكون لأحداث الثورة السورية بالذات، الأثر الكبير في هذا التوجه.

نعود إلى العدد الأول من «الإنسانية»، فنجد مقالاً آخر، هو شبه افتتاحية، حول مهمة الجريدة، منشور في رأس الصفحة الرابعة. ويخيَّل الينا أن كاتبها هو فؤاد الشمالي، أو هي مكتوبة بالتعاون معه، ففيها لهجة الشمالي، العامل، الأكثر حدة والأكثر حسماً، كما فيها حماسة يزبك عندما تكون الفكرة واضحة عنده، والموقف مرتاح إليه. هذا المقال، شبه الافتتاحي، هو بعنوان: «الإنسانية: جريدة الطبقة العاملة». فلنحاول قراءة بعض ما فيه:

> «أُنشئت هذه الجريدة لخدمة العمال والفلاحين، والمدافعة عن حقوقهم، وإسماع السلطات الحاكمة من افرنسية و «وطنية!» ورأسمالية صوت تظلُّمهم.
>
> ولا نبالي بالمبادئ السياسية ولا الاجتماعية ولا الأدبية ولا الدينية على اختلاف نزعاتها، إذا كانت لا تهم العمال والفلاحين... ولا نعترف بسلطة من السلطات الرجعية المسيطرة إلا إذا كانت تحترم حقوق العمال والفلاحين... ولا ننشر خبراً من أخبار العالم إذا كان لا يتعلق بالعمال والفلاحين.
>
> وننظر إلى العالم كفئتين: فئة فقيرة عاملة هي الأكثرية المطلقة، فنخدمها وندافع عنها... وفئة غنية كسولة مستبدة معدود رجالها، فنحاربها ونقوم عليها.
>
> نرى أن البلاد تتقهقر اقتصادياً وسياسياً لأن الطبقة العاملة فيها كانت ولا تزال مستعبَدة، وعبثاً يحاول المسيطرون اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً أن يرقعوا حالتهم إذا لم ينزلوا عند ارادة الشعب وينصفوه.

ولهذا سنقول الحق بصوت عالٍ دفاعاً عن هذه الطبقة البائسة المظلومة، وإن جرح، هذا القول، أكبر سلطة ـ أية كانت ـ في البلاد.

وكلمة السر التي نهتف بها دائماً قد جعلناها شعارنا وهي: أيها العمال والفلاحون، اتحدوا!».

فلنحاول الآن أن نستعرض مجمل أعداد الجريدة (صدر منها فقط خمسة أعداد... وأقفلت بقرار من المفوض السامي الفرنسي...) لنرى: ماذا أعطت؟ وأي دور لعبته وما كان يمكن أن تلعبه؟

ـ **(نحو نقابات جديدة)**: منذ عددها الأول، تبدأ «الإنسانية» بنشر سلسلة مقالات تحت عنوان عام: «حياة النقابات». وذلك في إطار قضية الحزب المحورية: تنظيم العمال في النقابات. وقد وعدت الجريدة أن تنشر في كل عدد، تحت هذا العنوان: «فصلاً عن النقابات، وكيفية تكوينها وتنظيمها والسير بها في سبيل الرقي والنجاح. وعن واجبات العمال نحو نقاباتهم وواجبات النقابات نحو العمال، والخطط التي اتبعت في البلدان التي سبقتنا شوطاً بعيداً في تنظيم هيئات العمال والفلاحين»... وتركّز الحلقة الأولى على النقابات في لبنان وكيف هي لا تقوم على أساس نقابي عمالي صحيح طالما هي «تضم العمال وأصحاب العمل في آنٍ واحد!.. فما هو شأن الملاّكين والمتمولين الأغنياء مع العمال الفقراء المهضومة حقوقهم؟!»... وفي الحلقة الثانية (١٩٢٥/٥/٢٤) تفتح الجريدة النار مباشرة على «حزب العمال» الرأسمالي، فتكشف عن الكثير من فضائحه وأساليب استغلال اسم العمال من أجل مصالح الرأسماليين والمتمولين الذين يترأسون هذا الحزب... «العمالي»!! وفي الحلقة الثالثة (١٩٢٥/٥/٣١) تدعو الجريدة إلى: «أن نعيد بنيان نقاباتنا واحدة فواحدة على أساس الطبقات، فلا تخلط بين صاحب المحل أو المعمل أو المستخدم والعامل... ومتى ضُمّ أبناء الحرفة الواحدة إلى هيئة واحدة ذات عدة فروع لكل نوع من العمل فرع، **وجب جمل كل تلك الهيئات في اتحاد عام للنقابات كلها».**

من المهم هنا الاشارة إلى أن فكرة هذه المقالات مقتبسة عن الجريدة العمالية التي كانت تصدر في القاهرة باسم «الحساب» ويشرف عليها الحزب الشيوعي المصري ويرأس تحريرها المناضل الشيوعي رفيق جبور (وهو لبناني من زحلة) وعضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري. فقد أخذت هذه الجريدة تنشر خلال شهري نيسان وأيار ١٩٢٥ سلسلة مقالات حول كيفية تكوين النقابات. فالأفكار العامة لهذه المقالات

استعانت بها «الإنسانية» تقريباً كما هي، ولكن الأمثلة الملموسة التي كانت أخذتها «الحساب» من الحركة النقابية في مصر، أخذتها «الإنسانية» من الحركة النقابية في لبنان وسوريا. إن هذا يشير إلى أحد أشكال التعاون بين الشيوعيين هنا وهناك، وسوف نرى أن أشكال التعاون كانت أوسع وأوثق، يعزز هذا وجود فؤاد الشمالي، العضو السابق للجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري، في قيادة الحزب الشيوعي اللبناني، ووجود رفيق جبور (اللبناني)، والبطل الشيوعي أنطون مارون (اللبناني أيضاً) في قيادة الحزب الشيوعي المصري.

ـ **(عن مطالب العمال)**: وابتداء من العدد الثاني لجريدة «الإنسانية» (٢٤/٥/١٩٢٥) يبدأ يوسف يزبك بنشر سلسلة مقالات مهمة يشرح فيها مطالب العمال في مهرجان أول أيار، باتجاه محدد هو كذلك: تنظيم العمال في نقابات عمالية حقيقية.

في المقال الأول يشرح المطلب الأول «نريد تحديد أوقات العمل بثماني ساعات» وذلك بروح تحريضيّة، وضرب أمثلة كفاحية من تجارب الحركات العمالية في أوروبا، وفي الاتحاد السوفياتي حيث «لا يشتغل العامل والفلاح إلا ثماني ساعات، كما نصّ دستور تلك الجمهورية الحمراء، والعمال الذين يشتغلون الأشغال المضرّة كعمال المطابع والمناجم والمعادن والتبغ فيعملون ست ساعات ويقضون الساعتين الأخريين في النزهة في الهواء الطلق النقي»... ثم يربط مسألة تحقيق هذا المطلب بنضال العمال وباتحادهم... «فإذا كنتم، أيها الأخوان، لا ترضون بحالتكم التاعسة فعليكم أن تنظّموا صفوفكم وتؤلفوا نقاباتكم، وهذه الجريدة (اقرأ: الحزب) مستعدة لمساعدتكم في كل ما تطلبونه من وسائل التنظيم والترتيب... اتحدوا أيها العمال المظلومون، وألِّفوا نقابات منكم لا يدخلها سوى العمال... واهتفوا بصوت واحد: نريد الحرية والعيش الهنيء!.. نريد راحة عيالنا وذوينا!. نريد تحديد أوقات العمل ثماني ساعات في اليوم!. والسلام عليكم، ساعة تتَّحدون!».

وفي العدد الثالث من «الإنسانية» (٣١/٥/١٩٢٥) يشرح يوسف يزبك المطلب الثاني من مطالب العمال في مهرجان أول أيار وهو: «نريد تحديد قيمة أدنى الأجور»... هنا أيضاً يضرب الأمثلة من كفاح العمال في أوروبا، ويُظهِر أن تحديد الحد الأدنى للأجور «بشرط أن تكون كافية لمعيشة العامل» هو قانون للنظام الرأسمالي نفسه، وذلك حتى

«يجدد العامل قواه ليواصل عمله في اليوم التالي». ومع هذا فإن الرأسمالية تخرق قانونها نفسه. أما في بلادنا فالظلم أشد قسوة لأن العامل «يشتغل الأشغال الشاقة أكثر من ثلاث عشرة ساعة كل يوم ولا يكفيه أجره ليسدّ رمقه وحده، فما قولك إذا كان صاحب عيلة وأطفال؟»... ثم يطرح يزبك الوجه الآخر لمسألة الأجور عندنا وهي تأخّر الكثيرين من أصحاب المعامل في الدفع للعمال إلا بعد مضي شهرين أو ثلاثة!! فلا بد، إذن، من النضال من أجل «تعيين أوقات الدفع»... فكيف يصل العمال إلى تحديد قيمة الأجور وتعيين أوقات الدفع؟. الجواب يتضمّن القضية المحورية نفسها: «يجب أولاً أن يسرع العمال إلى تنظيم نقاباتهم كما أشرنا عليهم مراراً، وأن يوحدوا أصواتهم في مطالبة الحكومة وأصحاب الأعمال، ويلحّوا عليهم بتحقيق هذا المطلب. ثم إنهم ـ بعد تنظيم النقابات ـ يقررون شكل قبض أجورهم من ظالميهم... فإلى تنظيم نقاباتكم يا صعاليك!. إلى تنظيم نقاباتكم أيها المظلومون!».

هذه المقالات أثارت حماساً، وحركة، في صفوف العمال. وأخذت الجريدة تتلقى رسائل من بعض العمال حول ظروف عملهم، وما يعانونه من مظالم، (بعض هؤلاء صاروا فيما بعد بارزين في الحركة النقابية) فتنشر الجريدة هذه الرسائل، وتعلّق عليها تعليقات مفكَّر بها، مدروسة، باتجاه تنظيمي واضح: فهذه رسالة من عامل المطابع جبران متري الحاصباني (العدد الثالث، ١٩٢٥/٥/٣١) يصوّر فيها الظروف القاسية لعمال المطابع «فهم يشتغلون لا أقل من ١٤ ساعة في اليوم وبعضهم يشتغل في النهار وفي الليل ١٥ و١٦ ساعة بدون راحة ولا تعويض»... وتكتب الجريدة تعليقاً طويلاً حول هذه الرسالة جاء فيه هذا المقطع المهم جداً: «... أما إذا شاء العامل النشيط حاصباني أن يحرر نفسه مع أخوته من الظلم الواقع عليهم، فعليه أن يسعى معهم، حالاً، لتأليف نقابة تكون غايتها: **أولاً:** تحديد أوقات العمل. **ثانياً:** الاتفاق على الشغل الليلي. **ثالثاً:** تحديد حقوق العامل وواجباته نحو أصحاب المطابع. **رابعاً:** ضم كل عمال المطابع في بيروت على اختلاف أديانهم ونوع شغلهم في نقابة واحدة. **خامساً:** تعيين الأجور وتحديد أدناها بشرط أن تكون كافية لمعيشة العامل. **سادساً:** السعي لالغاء ضريبة التمتّع. **سابعاً:** الاتفاق مع بقية نقابات العمال على التفاهم التام والاتحاد معهم في تأييد مطالب العمال عموماً» ـ وتنهي الجريدة تعليقها بهذه الدعوة: «... وإننا لنفتح لكم صدر هذه الجريدة لنشر كل ما تبتغون من الوسائل لتأليف نقابتكم وتحريركم.

والسلام عليكم إذا برهنتم على علامة الحياة، على حب الحرية!». وترد على الجريدة رسائل أخرى من عمال المطابع، تعليقاً على الموضوع المطروح. واحدة بإمضاء «ز. خ» (العدد الخامس، ١٩٢٥/٦/١٥) يعيد إلى الأذهان أن جمعية لعمال المطابع تألفت قبل الحرب الأولى، وانفرطت خلال الحرب، «وبعد الحرب عدنا فاجتمعنا وسرنا بنقابتنا قليلاً، ولكن شاء البعض منا أن يطوح بالنقابة في ميدان السياسة فانحلت ـ (لعله يشير هنا إلى الفترة التي كانت النقابة فيها مرتبطة «بحزب العمال» الرأسمالي»... وانحلال أكثر النقابات التي كانت تابعة له...) ـ ونحن اليوم بأشد الحاجة إلى تأليف نقابة قوية تدافع عن مصالحنا المشتركة وتنقذنا من هذه الحياة الشقية»... وفي العدد نفسه رسالة طويلة بامضاء عامل المطبعة بولس فارس الكفوري، يعلق فيها على دعوة الجريدة، في تعليقها على رسالة زميله الحاصباني إلى «استئناف العمل في سبيل احياء النقابة»... ويقول: «إن الواجب يقضي علينا أن ننصرف لتأسيس النقابة مهما اعترضتنا من العراقيل في سيرنا ومهما كلف الأمر. ولكن، بقي علينا أن نعرف أية خطة يجب انشاؤها؟ وكيف يتم هذا الانشاء على أساس متين؟» ويقدم الكفوري عدة بنود يرى أن تقوم النقابة على أساسها، وأكثر هذه البنود مستمد من الشعارات والمفاهيم التي طرحتها الجريدة، ثم ينهي رسالته باقتراح عملي: «فإذا شاء عمال المطابع حقيقة أن يتحدوا فما علينا إلا أن نجتمع ونعمل لتذليل كل عقبة تعترضنا في هذا السبيل... وليرسل كل عامل رأيه إلى هذه الجريدة».

كان هذا في حزيران ١٩٢٥... ويبدو أن عمال المطابع، وخاصة الشيوعيين منهم، أخذوا ينشطون باتجاه اعادة تأليف النقابة على أسس جديدة... وهكذا، بعد عدة أشهر، في أوائل ١٩٢٦، تمكّن عدد من المناضلين النقابيين إعادة تكوين النقابة على قاعدة كفاحية، فإذا نقابة عمال المطابع، منذ العام ١٩٢٦، تخوض نضالات دائمة، وتوسّع مدى هذه النضالات بالتعاون مع النقابات الأخرى، فإذا الإضرابات التي تعلنها نقابة عمال المطابع، أو تشترك باعلانها مع النقابات والحركات الأخرى، تمارس تأثيرها الواسع والعميق وتحصل على المطالب المطروحة لا في داخل الحركة النقابية فقط، بل على صعيد الحياة السياسية للبلاد، وكان الشيوعيون، منذ تلك السنوات، في قيادة هذه النضالات.

لقد قصدنا أن نسرد هذه التفاصيل لنؤكد بها الدور الطليعي، والتنظيمي العملي،

الذي أدته هذه الجريدة المكافحة الرائدة، في الحركة النقابية والعمالية، وفي حركة انتشار الحزب وتطوره.

ـ وتكشف لنا رسائل القراء والمناضلين إلى جريدة «الإنسانية» الدور التنظيمي، والدعائي، الذي تؤديه عملية توزيع الجريدة، باليد، على المشتركين. كما تدل هذه الرسائل على الحماس الذي أثاره صدور هذه الجريدة، الأولى من نوعها، في أوساط جماهير الكادحين:

□ «... **نعم** إن البلاد تفتقر إلى وجود جرائد من أمثال جريدتكم ترشد العامل إلى معرفة واجباته الإنسانية، وترفع عن عقله برقع الانقياد والجهل» ـ الساعاتي أنطون سركيس.

□ «... **وصلتني** الجريدة فسررت بها سروراً عظيماً وقرأتها مراراً ومراراً، وعليه فسوف تراني مستعداً لخدمتكم دائماً بكل ما أقدر. وإني ساعٍ لايجاد مشتركين لكم بأكثر ما يمكن» ـ المستخدم شحادي برباري.

□ «... **تأخرت** عليك بالكتابة لأني كنت منتظراً الأجوبة من بعض رفاق لنا في بعض القرى يطلبون الاشتراك في جريدتهم المحبوبة. مُرسل إليك الآن جدولاً بأسماء المشتركين وكلهم من العمال والمستخدمين والصعاليك الذين أنشئت «إنسانيتك» لأجلهم...» ـ أسعد المنذر، زحلة.

□ «... **اطلعت** اللجنة الادارية الفرعية لحزب الشعب اللبناني بالشوير على العدد الأول والثاني من جريدتكم الحرة، فقررت أن تجتهد في تعميم الجريدة بين أفراد العمال والفلاحين في الشوير وضواحيها. فإلى الأمام أيتها «الإنسانية» الحرة، فأبناؤكِ ينظرون إليكِ كمصباح ينير طريقهم» ـ فريد الشامي، سكرتير فرع حزب الشعب اللبناني في الشوير.

□ «... **إن قراءتي** ضعيفة جداً، ومع ذلك طلبت الاشتراك في «الإنسانية». وفي مساء وصولها إليّ أجمعُ بعض الرفاق في بيتي فيقرأها أحدهم بصوت جهوري بينما نحن نسكر بتلك المعاني السامية التي تستفز البائسين إلى النهوض والاتحاد... واقترح أن تكون لغة جريدتنا المحبوبة بسيطة جداً ليفهم العمال أمثالي جميع ما يُنشر فيها» ـ العامل اندراوس طنوس.

□ «... **وسنة ١٩٢٥** كانت تصلنا إلى طرابلس جريدة «الإنسانية»، فنبيعها. كان يصلنا منها ٦٠ عدداً فنبيعها كلها... وقد كسبنا بواسطتها عدداً من العمال والمثقفين صاروا شيوعيين...» ـ من حديث خاص أدلى به إليّ أحد الشيوعيين الأوائل في طرابلس.

وبين الرسائل إلى «الإنسانية»، لفتت نظرنا ثلاث منها تكتسب معناها الخاص من أسماء الذين كتبوها:

□ **الرسالة الأولى** من الشاعر العربي الكبير «**بدوي الجبل**»، يحيي فيها صدور هذه الجريدة الجريئة، ويعلن هذه المبادرة: «الرجاء أن ترسل لي نسخة واحدة، وأن تهدي أربع نسخ باسمي لمن تختارهم من العمال، واشتراكات الخمس نسخ سأرسلها حين رجوعي إلى البيت، وذلك بعد مدة قليلة... عاش العمال، وعاشت جريدة العمال. وعاش الناطق باسم العمال، الناطق بالحق وبالثورة وبالدم» ـ (العدد الرابع، ١٩٢٥/٦/٧)... ترى هل يذكر بدوي الجبل هتافه هذا للعمال، قبل خمسين عاماً، في أيامنا؟.

□ **الرسالة الثانية** من عامل الحلاقة، في ذلك الزمن «**س. فريحة**» يقول فيها: «... لقد كان لكلمتكم عن العمال الحلاقين وقع طيب عندنا. فبلساني ولسان رفاقي أشكر مبدأكم الشريف وجرأتكم في الدفاع عنا. فسِر يا نبراس العامل ونجدة الفلاح. واهزأ بتلك الذئاب الكلبة التي تمتص دماءنا. فالعمال يضرعون إلى الله كي يكلل مساعيك بخير التقدم والنجاح» (العدد الخامس، ١٩٢٥/٦/١٥) (= «س. فريحة»، عامل الحلاقة في ذلك الزمان، هو نفسه **سعيد فريحة** صاحب مؤسسة «الأنوار» الصحفية الضخمة الآن).. وكانت نقابة الحلاقين مرتبطة «بحزب العمال» الرأسمالي وكان عاملنا القديم من البارزين في النقابة... على أن هذه الرسالة مكتوبة في الفترة التي كان فيها «حزب العمال» الرأسمالي يتفسخ، والحركة النقابية التقدمية تبرز إلى الساحة بقوة بعد مهرجان الكريستال... نرجو أن لا يكون سعيد فريحة قد نسي هذه الرسالة بعد هذا العمر الطويل!...

□ **الرسالة الثالثة** من «عامل» (صار وزيراً مفوضاً)، يقول فيها: «... فسيري أيتها الجريدة المحبوبة في طريقك الشاق، وذللي كل عقبة تعترض سبيلك، فإن لك في صدورنا، نحن العمال والفلاحين، ترساً منيعاً حصيناً يرد عنك سهام النفعيين والرجعيين إلى نحورهم. فإلى الأمام يا هادمة عروش المظالم وبانية صروح الاتحاد الصحيح والأخاء الأكيد، وليحي العمال والفلاحون» ـ العامل: **هنري الجميل...** (كان

هنري الجميل من مثقفي بكفيا الذين التفوا حول «حزب الشعب اللبناني» الذي كان يستقطب جماهير عمالية واسعة في منطقة بكفيا)... هاجر الجميل إلى ليبيريا... وهو الآن وزير ليبيريا المفوض في لبنان...

– (على الصعيد الأدبي): كان واضحاً، منذ العدد الأول، أن الجريدة تعمل على كتابة ونشر ما يخدم هدفها، ويأتي ضمن خطها التحريضي والتنويري العام. ففي باب بعنوان «الكتب التي تفيد الشعب» وعدت الجريدة أن تنشر فصولاً نقدية «عن الكتب التي تُخرجها المطابع العربية في لبنان وسوريا وفلسطين ومصر والعراق، نذكر فيه ـ بقدر المستطاع ـ حسنات تلك الكتب المفيدة، مع ملاحظاتنا عليها وتنبيهنا إلى أغلاط آرائها. وسنخص بالذكر تلك الكتب القيِّمة ـ وما أقلَّها ـ التي تفيد الشعب عموماً والطبقة العاملة خصوصاً، وتعود على قرائها بالرقي العقلي والثورة على التقاليد البالية الخرقاء التي أخَّرت الشرق شوطاً طويلاً عن تفهم الحقائق الجديدة التي بدأت تغير شكل العالم»... بعد هذه المقدمة الواعية، والرقيقة، والطموحة، تقدم الجريدة عدة فصول عن برنارد شو كتبها سلامة موسى «الكاتب الاشتراكي الكبير الذي رفع علم التجدّد الفكري في العالم العربي وسار في طليعة أدبائه الراقين»، وتعِد المجلة بأنها سوف تبدي بعض المآخذ على بعض آراء سلامة موسى... (سلامة موسى: رغم اسهامه، في البداية، في تأسيس الحزب الاشتراكي المصري ١٩٢١، كما مرّ معنا، كان «فابيّاً» في تفكيره، من جماعة الاشتراكية الانكليزية المعتدلة ـ وقد أدت كتاباته دوراً كبيراً في نشر الوعي العلمي العقلاني والتحرري).

– ثم تقدم الجريدة، في عددها الأول، قصيدة طويلة بعنوان «أيها الأغنياء» كتبها لها بإمضاء «فقير» الشاعر الكبير بشارة الخوري (الأخطل الصغير): وتقيِّم الجريدة هذه القصيدة وشاعرية الأخطل، ولكنها تُبدي هذه الملاحظة على السياسة التي سلكها بشارة الخوري في جريدته «البرق» بعد الحرب العالمية الأولى تأييداً للفرنسيين وللانتداب الفرنسي على لبنان: «... ولئن أسف أصدقاء صاحب «البرق»، للسياسة التي أتبعها في جريدته بعد الحرب، فكان موضوع سخط وجفاء، فهو لا يزال أمير البيان «الحقيقي» والشاعر الحساس الغريد في ربوع لبنان» ـ وبعد، ففي القصيدة الطويلة توجُّه أخلاقي إلى الأغنياء الذين لا يعطفون على الفقراء ولا يتمتعون بالمروءة والسخاء، وأن «نفراً منهم» ساعد الفقر والجراد على الناس، فإذا كنا نعذر الجراد لأنه جراد فكيف نعذر الأغنياء وهم، بهذا، أشرّ من الجراد!.. ولكن الأخطل الصغير يختم قصيدته بهذه الصيحات:

أيها الأغنياء إن غناكم شيَّدته سواعد الفقراء
القصور التي تقيمون فيها من بناها لكم سوى الفقراء
والثياب التي تباهون فيها من ترى حاكها سوى الفقراء
والطعام الذي تلذّون - من هم طابخوه لكم سوى الفقراء
والرياحين في الجنائن من هم غارسوها لكم سوى الفقراء
والحليب الذي رضعتم صغاراً كان من صدر معظم الفقراء
كل شيء لكم هم الفاعلوه فاذكروهم (لطفاً) ببعض الجزاء!

ثم يطلق بوجه الأغنياء هذا التحذير:

لا تقولوا وساوس من فقيرٍ دوّخته طوارق الأرزاء
إن للفقر ثورة لو علمتم تَسبح الناس دونها في الدماء

وفي عددها الثاني تقدم الجريدة قصيدة من هذا النوع نفسه الذي يقارن واقع البؤس عند الفقراء، والبطر والتبذير عند الأغنياء من منطلق أخلاقي أيضاً، وفيه تحذير كذلك. القصيدة بعنوان «فقير يستعطي» كتبها الباحث والمربي المعروف بطرس البستاني (هو غير المعلم الكبير بطرس البستاني، بل معاصر لنا)، وقد قدمت الجريدة القصيدة هكذا: «ننشر في هذه الجريدة قصيدة لم تُنشر حتى اليوم، نظمها صديقنا الأديب بطرس البستاني أحد صاحبي جريدة «البيان» المصورة - ورسم فيها احدى صور الشقاء الذي ينتاب الفقراء في بلادنا، وأغنياء البلاد لاهون عن الفقراء بركوب العربات الفخمة وسكنى القصور الشاهقة، يمرحون في الحدائق بين الكؤوس والغانيات، بينما العمال والفلاحون يشتغلون لهم!. ونود أن نهتف قريباً - وقريباً جداً - مع صديقنا الشاعر: والدهر دولاب!». والقصيدة تصور الحياة الباذخة لأحد الأغنياء، وانعكاساتها في عين الفقير وروحه، وتنتهي بهذه الأبيات:

مهلاً فلا تغترّ يا «مولاي» بالدنيا الغرور
دارت بدارا وابتلت رب الخورزق والسرير
والدهر دولاب يدور من الكبير على الصغير

وتلخّص الجريدة، في عددها الثاني، احدى قصص أميل زولا «الكابوس» على عددين، وتنشر صورة كبيرة لزولا في صدر صفحتها الأولى مع كلمة عنه وعن أدبه وعن رواية «الكابوس» التي تلخّصها، وتصف زولا بأنه: «الكاتب الاجتماعي الكبير الذي لمع اسمه في آخر القرن التاسع عشر، وعمّت شهرته طبقات الشعب الافرنسي عموماً وعماله خصوصاً. صاحب المؤلفات العديدة التي نشرها تباعاً ودفاعاً عن المظلومين وبث فيها روح التمرد والثورة على الرأسماليين».

هكذا كانت الجريدة تختار موادها الأدبية بوعي لتندرج في الإطار الفكري العام لها، ولتدعم بها موقفها الطبقي الواضح، وتنشر الوعي بهذا الموقف بين قرائها، بمساعدة الأعمال الأدبية ذات الروح التحريضيّة رغم توجُّهها الأخلاقي إلى الأغنياء.

ـ **(أداة نشاط وتنشيط لحزب الشعب اللبناني)**: وكان صدور «الإنسانية» أحد الحوافز الهامة لإطلاق «حزب الشعب اللبناني» باتجاه العمل السياسي العام، بالإضافة إلى نشاطه النقابي العمالي الذي كاد ينحصر فيه خلال العام الأول لوجوده (١٩٢٤). وكانت البلاد تعيش جو معركة الانتخابات القادمة (حزيران ١٩٢٥)... ومعارك «الانتخابات» هذه، في ظل السيطرة الاستعمارية الفرنسية، كانت احدى وسائل المفوضية الفرنسية العليا لربط «زعماء البلاد» بها ـ عن طريق تأمين «فوزهم» في الانتخابات ـ فكان هؤلاء يتنافسون على إرضاء المندوب السامي ورجاله بأكثر ما يتنافسون على تملّق الناخبين... كما أن «المجالس النيابية» تلك، كانت القناع الذي تختبئ خلفه سلطات الانتداب، فتنفّذ بواسطته ـ بوصفه «سلطة وطنية»!! ـ كل ما تريد فرضه على البلاد... وعندما يحتدم الوضع الداخلي، الاقتصادي والسياسي، يتوجه الغضب والاحتجاج والهجوم على هذه «السلطة الوطنية» (المجلس ـ والحكومة) وتبقى سلطات

الانتداب (وهي المسيطر الحقيقي) بعيدة عن هذه السهام، وغالباً ما تلعب دور «الحَكَم» بين الحكومة والشعب، ودور «المنقذ»... وهذا ما يمكن رؤيته بوضوح من خلال معظم الصحف الصادرة أيام الانتداب، حيث نقرأ هجوماً عنيفاً على المجلس والحكومة «الوطنيين» وتملّق سلطات الانتداب، أو التوجّه إليها بطلب «انقاذ الوضع»، أو عدم التعرض لها أساساً!!. وسوف نرى كيف كان موقف «حزب الشعب اللبناني» من هذه «اللعبة» البرلمانية، في ذلك الزمن، وهو حزب ديموقراطي، كما هو المفروض، ويلتفّ حوله عدد من الشخصيات الليبرالية الديموقراطية، الطامحة.

ولكن، تمهيداً لهذا الانطلاق في الحياة السياسية العامة، رأت اللجنة التنفيذية لحزب الشعب اللبناني أن تنشر بواسطة «الإنسانية» لائحة مطالب وأهداف أطلق عليها عنوان «مبادئ حزب الشعب اللبناني» أدخلت عليها عدة تعديلات، هي بالضبط مبادئ حزب ديموقراطي ذي توجُّهات عمالية وتقدمية، وفيها مطالب لا تزال تحتفظ بقيمها الحالية. ولدينا صورة عن النسخة الأساسية للوثيقة التي تتضمّن هذه المبادئ، مكتوبة على ورق خاص بحزب الشعب اللبناني (اسم الحزب مطبوع بالعربية والفرنسية، ومطبوع تحت الاسم: المركز الرئيسي بكفيا ـ لبنان) والوثيقة مؤرخة في ١٩٢٥/٥/١٧، وهي مكتوبة بخط فارس معتوق الرقعي الواضح، وموقَّعة باسمه بوصفه مساعداً للسكرتير العام (فؤاد الشمالي) ـ وهذا لا يعني أن فارس معتوق نفسه هو الذي كتب نص الوثيقة، فهي من عمل قيادة الحزب وخاصة النواة الشيوعية في هذه القيادة ـ والى جانب توقيع فارس معتوق هناك ختم (عربي افرنسي) باسم حزب الشعب اللبناني (بالعربية) والحزب الديموقراطي اللبناني (بالفرنسية) ثم توقيع: «اللجنة التنفيذية». وهذا هو نص المبادئ، كما جاء في العدد الثاني من «الإنسانية» (١٩٢٥/٥/٢٤) الصفحة الثانية:

«طلب منا الكثيرون الاطلاع على مبادئ «حزب الشعب اللبناني» التي كانت قد نُشرت في الصحف السيارة منذ تأليف الحزب. وبما أنها قد عُدلت تعديلات مهمة، فقد رأينا اعادة نشرها على صفحات «الإنسانية» ليطلع عليها القراء، وهي:

١ ـ تنشيط الصناعة والزراعة والتجارة اللبنانية، والعمل لفرض ضريبة على الآلات الميكانيكية الصناعية والزراعية التي يتسبب

من استعمالها شل الأيدي العاملة، أو جعلها (هذه الآلات) ملكاً للحكومة وتسهيل دخول ما كان منها مساعداً للحياة الاقتصادية واليد العاملة في البلاد.

٢ ـ **بثّ** روح الأخاء العام، وقتل جراثيم التعصب الديني والطائفي والاقليمي، ومنع رجال الدين من التدخل في الأمور السياسية، ومحاربة العوائد والتقاليد المضرّة.

٣ ـ **تعزيز** المدارس الوطنية وتوحيد التعليم الحر فيها، وجعل التعليم الأولي (الابتدائي) إجبارياً للبنين والبنات. وأن تكون المدارس الأجنبية خاضعة لبرنامج التعليم. وأن تهتم الحكومة بتشجيع المؤلفين لوضع أو تعريب كتب العلوم التي تفي بحاجة البلاد وتغني الطلاب عن اقتباسها بغير لغة بلادهم التي يجب أن تكون رئيسية في عموم المدارس.

٤ ـ **تنظيم** العمال والفلاحين بالنقابات والدفاع عن مصالحهم المشتركة لينالوا حقوقهم كاملة في الحياة. وسنّ نظام يؤيد حقوقهم (كتحريم تشغيل الأولاد الذين هم دون الرابعة عشرة، وجعل أوقات العمل اليومي ثماني ساعات، وتحديد الحد الأدنى للأجور، ليتمكن العمال من المعيشة براحة. وإلزام أصحاب الأعمال بأن يعطوا العاملات الحاملات اجازة شهرين تبتدئ قبل الوضع بشهر مع إعطائهن أجورهنّ الكاملة و... الخ).

٥ ـ **العمل** لفرض ضريبة على الإرث وضريبة على الثروة وتخفيف الضرائب عن عاتق الشعب.

٦ ـ **جعل** الأوقاف العمومية ملكاً للشعب تحت ادارة الحكومة.

٧ ـ **تحرير** المرأة ومساعدتها لنيل حقوقها المهضومة (كمنع تعدد الزوجات، ومنع الزواج الباكر... الخ...).

٨ ـ **يعتمد** الحزب على الشعب اللبناني في الوطن والمهجر، وعلى الشعوب الحرة، ويتحد مع الأحزاب التي تماثله في الغاية، ويتخذ جميع الوسائل الممكنة للوصول إلى مطالبه ـ اللجنة التنفيذية، بكفيا ـ ١٩٢٥/٥/١٧».

هل نبالغ إذا قلنا: إن بعض الأحزاب الديموقراطية في أيامنا هذه لا تزال متخلّفة عن عدد من مطالب «حزب الشعب اللبناني» هذه، الموضوعة قبل خمسين عاماً ـ (وفي وقت صدور هذه الطبعة الثالثة من الكتاب ٢٠٠٤ تصير الجملة: «قبل ثمانين عاماً»... والبقية تأتي!..) ـ سواء فيما يتعلق بإبعاد رجال الدين، كمؤسسة، عن التدخل بأمور الدولة، أم فيما يتعلق بالمطالب العمالية، وبرامج التعليم الوطني ولغة التعليم، وتأميم الأوقاف، وخصوصاً فيما يتعلّق بالبند الثامن الأممي حيث يعلن الحزب أنه «يتحد مع الأحزاب التي تماثله في الغاية» وأنه «يتخذ **جميع** الوسائل» للوصول إلى مطالبه. يُضاف إلى هذا أن بعض هذه المطالب لا يزال حتى الآن ضمن المطالب التي تناضل الحركة الوطنية والتقدمية في لبنان من أجل تحقيقها.

في العدد الثاني نفسه من جريدة «الإنسانية» رسالة من فارس معتوق نفسه، باسم اللجنة التنفيذية لحزب الشعب اللبناني، موجهة «الى الرفيق يزبك منشئ جريدة الإنسانية»، تدعونا إلى بعض التأمل والتساؤل. تقول الرسالة: «اطلعت اللجنة التنفيذية على العدد الأول من جريدة «الإنسانية» التي أنشأتموها لخدمة العمال والفلاحين، وللدفاع عن حقوقهم المهضومة... فتقرَّر تحيتكم تحية الأخاء والاخلاص، لأن الطبقة العاملة في هذه البلاد في أشد الحاجة إلى جريدة جريئة حرة تخصّص صفحاتها لإيقاظ العمال والفلاحين من السبات العميق ودفعهم حثيثاً للانضمام تحت لواء الاتحاد فيحطموا تلك القيود والأغلال التي أثقلت كاهلهم أجيالاً طوالاً... وتقرَّر بجلسة اليوم القانونية: اتخاذ جريدة «الإنسانية» رسمياً لنشر مبادئ الحزب وقراراته الرسمية ـ عن اللجنة التنفيذية، مساعد السكرتير العام: فارس معتوق ـ بكفيا، في ١٩٢٥/٥/١٧».

فماذا وراء هذه الرسالة؟.. لقد مرّ معنا أن اللجنة التنفيذية سبق أن وافقت على إصدار جريدة تنطق بلسان الحزب، وأن يزبك التزم بتنفيذ هذا القرار، وصدرت «الإنسانية» على هذا الأساس... فلماذا الإعلان، الآن، أن حزب الشعب اللبناني قرر اتخاذ الجريدة رسمياً «لنشر مبادئ الحزب وقراراته»... وليس لتكون لسان حال الحزب؟!.

اعتقد أن في هذا التمييز، الخفيف والرقيق، بين جريدة «الإنسانية»، ككل، وبين «حزب الشعب اللبناني» الذي قرر «نشر مبادئه وقراراته» فيها، شكل من أشكال الحفاظ على الطابع الديموقراطي العام للحزب، وقد أخذ يجمع حوله عدداً من الشخصيات الليبرالية والديموقراطية، وهو قادم على معركة انتخابية... في حين أن جريدة «الإنسانية»، ربما، لن تستطيع أن تتجنب بروز طابعها الشيوعي، لا محلياً، ولا عربياً،

ولا ـ خصوصاً ـ عالمياً. وهذا ما أخذ يتضح حتى منذ العدد الأول، وخصوصاً منذ العدد الثاني حيث أخذ يزبك يكتب زاوية «ملاحظات على الهامش» بهذا التوقيع المخيف: «**بولشفيكي**»، وأخذت الجريدة تنشر مواداً عن نشاط الحركة العمالية، الشيوعية، في بعض البلاد العربية والعالم... فهل هذا هو المقصود من رسالة معتوق إلى يزبك؟... ربما... على كل حال، كان لا بد، كما اعتقد، من إعلان نوعٍ من التمييز، فجاءت الرسالة، شكلاً ذكياً، لهذا الاعلان.

وصدر العدد الرابع من «الإنسانية» (١٩٢٥/٦/٧) حاملاً «نداء من حزب الشعب اللبناني» نُشر تحت عنوان «العمال والانتخابات»... موعد الانتخابات يقترب... وحزب الشعب يرى من واجبه: أن ينبّه العمال والفلاحين لما فيه مصلحتهم والدفاع عن حقوقهم... ذلك أنه «ليس للمجلس النيابي عندنا من صفات المجالس النيابية سوى الاسم فقط، لأن صلاحيته ضيقة جداً، فيجب علينا أن نطالب بتوسيع تلك الصلاحية حتى يكون لنا مجلس نيابي حقيقي». ويقول البيان إنه «كان يجب علينا أن نقاطع الانتخابات حتى يُعطَى المجلس النيابي حقوق النيابة الصحيحة»... ولكن حتى لا تترك الساحة خالية للنفعيين الذين يبيعون الشعب «قرر حزب الشعب اللبناني دعوة العمال والفلاحين ليخوضوا المعركة الانتخابية المقبلة، حتى يكون للشعب نواب أحرار يضحّون مصلحتهم الشخصية في سبيل المصلحة العامة» ويهاجم البيان المرشحين الأغنياء، وأولئك الذين يقولون إنهم سيدافعون عن الشعب ثم يبيعونه عندما يفوزون بالكرسي... «أما أنتم أيها الرفاق فيجب عليكم أن تنتخبوا عمالاً من طبقتكم»... «فقد آن لكم أن تنظّموا صفوفكم وتوحّدوا كلمتكم، وأن ترسلوا إلى المجلس النيابي نواباً من طبقتكم يدافعون عنكم ويعملون لمصلحتكم. فإلى الأمام أيها الرفاق».

البيان مؤرخ في أول حزيران ١٩٢٥ ـ فهل كان حزب الشعب اللبناني ينوي تقديم مرشحين باسمه، أم أنه كان ينوي دعم بعض المرشحين الديموقراطيين من الملتفّين حوله؟. لقد مرّ معنا أن الكاتب الليبرالي خيرالله خيرالله الذي ألقى خطاباً في مهرجان أيار، سوف يُرشّح نفسه لهذه الانتخابات (وهذا حصل بالفعل) وكان من المعقول أن يؤيده حزب الشعب اللبناني (وقد أيده). كما مرّ معنا أن شكري بخاش، صاحب جريدة «زحلة الفتاة» خطب في مهرجان أيار أيضاً واعداً نفسه بالحصول على أصوات العمال أعضاء حزب الشعب ومؤيديه. وربما كان الحزب يعدّ آخرين أيضاً. ولكن...

في العدد نفسه من «الإنسانية»... فؤاد الشمالي، السكرتير العام لحزب الشعب

اللبناني، وكان يعمل في تحرير «الإنسانية»... ينشر مقالاً صغيراً، أشبه بنداء، بعنوان: «قاطعوا الانتخابات، أيها العمال!» - فهل هناك تناقض، أو خلاف داخل الحزب؟.. ليس الأمر هكذا... فعندما وضع الحزب بيانه داعياً العمال لانتخاب نواب من طبقتهم، كان واضحاً، فقد كان حاكم لبنان الفرنسي قد أعلن: أن الانتخابات سوف تجري على الأساس النسبي **اللاطائفي**. ولكن فجأة تعلن باريس: أن الانتخابات ستجري على أساس قانون سابق يقضي بأن **تجري الانتخابات على الأساس الطائفي**، وعلى درجتين!..

وقد أورت «الإنسانية» الخبر هكذا: «أعيد شكل الانتخابات النيابية إلى طائفي، كما كان في الماضي، بعد أن كان جُعل شعبياً، وعيّن موعد لانتخاب المندوبين الثنويين في ٢٨ الحالي (حزيران) والانتخاب النهائي في ١٢ تموز. وقد كتب رفيقنا الشمالي مقالاً في غير محل من هذا العدد، طلب فيه من العمال والفلاحين أن يقاطعوا هذه الانتخابات الطائفية التي تجرّ البلاء على البلاد».

... وهكذا يبادر الشمالي - وكان يعمل في الجريدة - إلى كتابة هذا المقال باسمه، مهاجماً بصراحة «إرادة باريس»، فيقول: «أعلنت باريس إرادتها في أن تكون الانتخابات النيابية عندنا على أساس الطائفية ذات الدرجتين. واذا أعلنت باريس ارادتها فوجب علينا أن نطيع بلا مجادلة ولا شكوى ولا تذمر!!...». ويعلن الشمالي أن الشعب لا يمكنه أن يتقدم على طريق الحرية والاستقلال دون القضاء على داء الطائفية الوبيل... «فإن اثارة النعرات الطائفية كانت ولم تزل لخدمة المبدأ القائل (فرّق تسد) وهكذا شاءت باريس أن تنفذ هذا المبدأ لأن مصلحتها تقضي بأن نظل أبد الدهر مُسودِين منها.. فيا أبناء الشعب يجب أن ترفعوا أصواتكم عالية بالاحتجاج الشديد على ارادة باريس. يجب أن تكون لنا ارادة في حياتنا السياسية والاجتماعية، فنحن نريد أن نميت النعرات الطائفية. نريد أن ينتخب الشعب نوابه رأساً بدوت توسيط الخونة المرتشين... أجل، **إننا نحتج بشدة على شكل الانتخاب الطائفي**، وندعو العمال والفلاحين إلى مقاطعته!.. **فلتسقط الطائفية**، وليحي الانتخاب الشعبي! - **فؤاد شمالي**».

اعلان مقاطعة!. وفي الوقت نفسه اعلان معركة.. فالهجوم تجاوز المجلس النيابي الحالي... والحكومة... وحاكم لبنان... والمفوض السامي... وانصب رأساً على باريس،

عاصمة الاستعمار الفرنسي... وبهذا، فالقضية المطروحة لم تعد قضية انتخاب، بل هي القضية الوطنية... قضية التحرر والاستقلال... وهذا ما لا تتسامح به باريس!.

وكانت «الإنسانية» قد نشرت في عددها الثالث (١٩٢٥/٥/٣١) حديثاً للنائب الشيوعي الفرنسي اندريه برتون مع بطل الريف في مراكش عبد الكريم، يفضح فيه أهداف الامبريالية الفرنسية في هذه الحرب المعادية للشعب في الريف المراكشي!... وهذا من شأنه تشجيع حركات ثورية مماثلة... وهذا ما لا تتسامح به باريس!

ويصدر العدد الخامس من «الإنسانية» (١٩٢٥/٦/١٥) حاملاً هذه الشعارات: «فليسقط المرشحون الرأسماليون، والدجالون الخونة!!. فليسقط الملاكون اللصوص الذين سرقوا الأرض وخيراتها. وليحي أبناء الشعب»... وتهاجم مرشحي «حزب العمال» الرأسمالي (حزب خان الصيفي) مركّزة الهجوم على أنيس الهاني الذي سبق أن عمل على جمع المال من العمال لشراء سيف يقدَّم إلى الجنرال غورو!.. وهو هجوم فيه تعريض واضح بسلطات الانتداب... وهذا ما لا تتسامح به باريس!.

ازعاج «الإنسانية» لسلطات الانتداب يتصاعد!

ويُصدر «حزب الشعب اللبناني» تعميماً إلى أعضائه بضرورة مقاطعة الانتخابات، والدعوة إلى هذه المقاطعة. ونقرأ نص هذا التعميم في هذه الرسالة من فارس معتوق، نيابة عن اللجنة التنفيذية «الى الرفيق يزبك، وكيل الحزب في بيروت»... وهذا ما جاء في الرسالة: «إن اللجنة التنفيذية لحزب الشعب اللبناني، قد قررت بجلستها القانونية المنعقدة بتاريخ ١١ الجاري (حزيران) مقاطعة الانتخابات النيابية. ولا يُسمح لأي عضو كان من أعضاء الحزب أن يعطي صوته للمرشحين (المندوبين والنواب). وعلى أعضاء الحزب أن يبثّوا فكرة المقاطعة بين اخوانهم العمال والفلاحين». ويصدر الحزب بياناً بعنوان «احتجاج حزب الشعب اللبناني على الانتخابات الطائفية»، يعلن مقاطعة الحزب للانتخابات، ويتضمّن الأفكار نفسها التي وردت في مقال فؤاد الشمالي، ويعيد إلى الأذهان أحد المبادئ الأساسية لحزب الشعب اللبناني: «لما كان حزب الشعب اللبناني الذي من مبادئه الأساسية بث روح الأخاء العام وقتل جراثيم التعصب الديني والطائفي والاقليمي»... ولما... ولما... فإن الحزب «يدعو العمال والفلاحين إلى مقاطعة الانتخابات المقبلة، وأن يرفعوا صوت احتجاجهم عالياً ليُفهموا العالم أنَّ في هذه البلاد طبقة عاملة

حرة، تعمل لنيل حقوقها، تسير رافعة الجبين محطمة قيود الظلم والارهاق والعبودية!. فليحي عمال وفلاحو لبنان متَّحدين، **ولتسقط الانتخابات الطائفية**»... وفي البيان، كما في مقال الشمالي، هجوم على «ارادة باريس»...

هذا البيان لم يُنشر في «الإنسانية»!.. بل نشرته جريدة «زحلة الفتاة»(١) في عددها الصادر يوم الجمعة ١٩ حزيران ١٩٢٥. وكانت «الإنسانية» في هذا التاريخ، قد أوقفت عن الصدور بقرار من المفوض السامي... أما السبب المعلَن لاغلاق «الإنسانية» فلم يكن تصاعد ازعاجها لسلطات الانتداب، ووصول موسها إلى لحية باريس، بل كان حجة أخرى جاء بها المفوض السامي من... مصر!

ولهذا قصة جديرة أن تروى.

ـ (**«الإنسانية» جريدة لبنانية عربية أممية)**: منذ عددها الأول، برز الطابع العربي والأممي لجريدة «الإنسانية» من خلال تضامنها الكفاحي مع الحركات العمالية وحركات التحرر الوطني ومعارك النضال ضد الاستعمار، ونشر أخبار حركات الكفاح هذه:

ففي العدد الأول تنشر موادَّ عن منع السلطات البريطانية العمال العرب في فلسطين من الاحتفال بيوم أول أيار، وتعلن احتجاجها على هذا وتهاجم الاستعمار البريطاني. وفي العدد نفسه تدين عملية انتخاب المرشال هندنبرغ في ألمانيا لأنه يمثل قوى الحرب والاحتكارات. وفي العدد الثاني تتابع حملتها ضد الاستعمار البريطاني وتنشر أخبار إضرابات عمالية جديدة في فلسطين. وتحتج على حرب الفرنسيين ضد عرب مراكش. وتعلن تأييدها وترحيبها لاتفاق التعاون الكفاحي بين النقابات السوفياتية واتحاد النقابات الانجليزية تمهيداً لتوحيد الحركة النقابية العالمية. وفي العدد الرابع تنشر افتتاحية ترثي فيها الشهيد ماتيوني، النائب الاشتراكي في ايطاليا، الذي اغتاله

---

(١) يعلق شكري بخاش، رئيس تحرير «زحلة الفتاة» على بيان حزب الشعب اللبناني بمقاطعة الانتخابات، بقوله: «لا نشاطر حزب الشعب رأيه في مقاطعة الانتخاب لأننا لا نرى من أصالة الرأي أن يقوم بهذا العمل، بل ندعوه إلى الانضمام وانتخاب من يرى فيهم الأهلية لأن يمثلوه، فإن البلاد بحاجة إلى مجلس يمثلها ويقوم بشؤونها» ـ كان شكري بخاش مرشحاً للانتخابات، وكان واعداً نفسه بأصوات العمال، وكان يعرف مدى نفوذ حزب الشعب اللبناني بين العمال.

الفاشيست. وتنشر حواراً لها مع مبعوث فرنسي، اشتراكي، تكشف فيه عن «حالة الانتداب الذي استعمرنا استعماراً إقتصادياً وسياسياً» وتوضح أن الوجود الفرنسي في لبنان هو استعمار، لا أي شيء آخر... وهذا ما لا تتسامح به باريس. وتنشر تحقيقاً بعنوان: «الاستعمار البريطاني خطر يهدد سلام العالم»، وهذا العنوان هو صيغة قرار اتخذه عدد من أساتذة جامعة كامبريدج بعد مناقشة موضوعها: «هل خطة الاستعمار التي تتبعها حكومة جلالة الملك هي خطر يهدد سلام العالم؟». والجواب، بعد المناقشة، هو: نعم!. وتنشر في العدد نفسه خبر إلقاء القبض على ١٧ شيوعياً في مصر، بينهم رفيق جبور أحد محرري جريدة «النظام» ورئيس تحرير جريدة «الحساب»، وهو، كما مرّ معنا، لبناني من زحلة، وعضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري... وجاء في الخبر «أن المقبوض عليهم قد صرّحوا بأنهم شيوعيون، وإنهم عاملون على بثّ الدعوة الشيوعية في مصر، لأنها من الأركان القوية التي تقوم عليها سعادة الجمعية البشرية». ويحمل العدد الرابع نفسه، على طول رأس الصفحة الثالثة، هذه العناوين: «مُنعت جريدة الإنسانية البيروتية من الدخول إلى القطر المصري ـ سياسة الاستعمار البريطاني كابوس جائر يُثقل اخواننا العمال والفلاحين في مصر ـ الاستعمار البريطاني يريد خنق كل صوت يوقظ الطبقة العاملة»... وعلقت الجريدة على الخبر بقولها: «... ونظن أن الحكومة البريطانية (المتمصّرة) ستقول عن جريدة «الإنسانية» إنها بعبع أو غول بولشفيكي».

وصدر العدد الخامس من «الإنسانية» (١٩٢٥/٦/١٥) عاصفاً يزأر بالغضب، وفي صدر صفحته الأولى هذه العناوين: «صدى الحكم الجائر على جريدة «الإنسانية» ـ بيع عدد الإنسانية بسبعة قروش مصرية في الاسكندرية وبخمسة قروش مصرية في القاهرة ـ صعاليك الشرق يزأرون محتجين على الظلم الواقع على جريدتهم والصحافة الحرة تعطف علينا ـ اتحدوا أيها العمال، فقريباً ننادي: يا يومها العصيب!!». وتنشر الجريدة خبر المنع كما نشرته «الأهرام» في (١٩٢٥/٥/٣٠): «مُنعت جريدة «الإنسانية» التي تصدر في بيروت من دخول القطر المصري لغلبة الشيوعية في كتاباتها وأخبارها»... وتواصل الجريدة هجومها على الاستعمار البريطاني وعملائه حكام مصر في تلك الأيام. فقد كان حكم الارهاب يبطش بالشعب المصري. وقد اتخذ المستعمرون الانجليز من اغتيال السردار الانجليزي ذريعة لتسليط الارهاب وضرب الحريات وقمع أي تحرك، والقيام بحملة اعتقالات واسعة، وتقديم الوطنيين بالعشرات أمام المحاكم،

فإذا هناك «قضية مقتل السردار» وهناك في الوقت نفسه «قضية شيوعية»، وسُعار رسمي ضد البولشفية إلى درجة منع السفينة السوفياتية «تشيشيرين» من الاقتراب من الميناء خوفاً من عدوى البلشفية. «ويظهر أن الباخرة تشيشيرين هذه لا تدري ما نحن فيه من الانهماك في قضية الشيوعية البلشفية هذه الأيام»[1].

وأخذت القرارات تصدر بمنع بيع أو تداول الكتب والمنشورات التي تعتبرها الحكومة المصرية (إقرأ: الانكليزية) شيوعية واشتراكية، «كذلك أصدرت قراراً بمنع دخول جريدة «الأومانيتيه» الفرنسية وجريدة «الإنسانية» التي تصدر في بيروت، أو أية جرائد أو مجلات شيوعية أو اشتراكية»[2]. وتعلّق جريدة «الأهرام» على هذه الحملة المسعورة بقولها: «عزمت السلطة عزماً ثابتاً على مكافحة الشيوعية ومبادئها ودعاتها في هذا القطر وغدا هذا العزم يتضح من اتساع نطاق المساعي المبذولة لاستئصال شأفة ذلك الداء الاجتماعي الخطير... ولا شك بأن هذه المكافحة ستشتدّ بعد الآن ولا سيما بعد أن علم أن الحكومة البريطانية شديدة الاهتمام (بمكافحة هذه الحشرة الممقوتة التي تنخر قلب السنديانة) كما ورد في التلغرافات الأخيرة نقلاً عن كلام وزير الداخلية»[3].

ضد هذه الحملة المسعورة سلّطت «الإنسانية» في عددها الخامس هجوماً عنيفاً، واحتجت على إصدار حكم بالاعدام على ثمانية وطنيين مصريين بتهمة اغتيال السردار «فيا ويلكم يوم يثور الصعاليك على ظلمكم وينهشون لحومكم نهشاً»... وتشير «الإنسانية» إلى بعض أصداء منع الجريدة في مصر نفسها، خصوصاً بين العمال، الذين كانوا يحصلون عليها بواسطة وكيل الجريدة في الاسكندرية نجيب الشمالي، شقيق فؤاد الشمالي، فتنشر فقرات من رسالة بعثها ب. ك. ل من الاسكندرية، جاء فيها: «... حقاً إن هذا الحكم لم نسمع به في عهد عبد الحميد ولا عهد ديوان التفتيش... وقد أسرعت إلى محل الأخ نجيب الشمالي لأستفسر منه حقيقة الأمور فرأيته حانقاً ومسروراً في آن واحد، فقد حكى لي أن العمال تهافتوا على الجريدة وأخذوا يفتشون عنها في «الفتيل والسراج»... وقد اجتمع في المساء عدد من العمال يزيد على الخمسمائة عامل

---

(١) جريدة «الأهرام» ـ في ١٩٢٥/٦/١٩.

(٢) د. رفعت السعيد: «اليسار المصري: ١٩٢٥ ـ ١٩٤٠» ـ دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٢ ـ صفحة ١٠٥.

(٣) جريدة «الأهرام» ـ في ١٩٢٥/٦/١٦.

وشرع أحدهم يقرأ عليهم «الإنسانية» وكلهم سكوت، فقرأها من أول حرف إلى آخر حرف، وعلائم الفرح والثورة بادية على وجه هؤلاء المساكين»... قد يكون في هذه الرسالة مبالغة عامل متحمس وغاضب، ولكنها تعطي صورة عن الدور الذي كانت «الإنسانية» تؤديه بين العمال في مصر ـ ولولا هذا لما أصدرت الحكومة المصرية قراراً بمنعها ـ وتنشر «الإنسانية» رسالة من عامل مصري آخر هو «م. م. ب» جاء فيها: «والله هذا ظلم يا سيدي... هذا ظلم وجور وخيانة من بعض الحكام عندنا. هم يريدون قتل الروح الشعبية، وقتل كل صوت حر شريف يوقظ الشعب ويدافع عنه. لقد تأثرنا جداً لهذا الأمر الجائر، ولو رأيت إقبال العمال هنا على شراء «الإنسانية» وكيف بيع العدد بخمسة غروش مصرية (ربع ليرة سورية، في ذلك الزمن) لهلّلت وكبَّرت وأيقنت أن المبادئ الشريفة التي تبشّر بها يا سيدي ستعيش رغم المستعمرين وخدامهم الأنذال؟».

وفي لبنان، يعلّق جبران التويني في جريدته «الأحرار» ـ قبل إصدار «النهار» ـ على منع «الإنسانية» من دخول مصر بكلمة تعبّر عن موقفه الديموقراطي ليس فقط من مسألة الحريات بشكل عام، بل من أفكار جريدة «الإنسانية» نفسها.

يقول: «منعت الحكومة المصرية جريدة «الإنسانية» من دخول وادي النيل (لغَلَبة الأخبار الشيوعية عليها) كما قالت «الأهرام». وجريدة «الإنسانية» جريدة اشتراكية انشأها في بيروت الرفيق يوسف يزبك لخدمة العمال والصعاليك. فهي جريدة لم يصدر على منوالها في بلادنا حتى الآن. وقد أقبل العمال والصعاليك عليها إقبالاً حسناً لأنها تعنى بشؤونهم، وتدافع عن حقوقهم، بلغة سلسة، وجرأة تتفق مع المبدأ الذي تدافع عنه. فأنا أنصح كل عامل أن يطالع «الإنسانية» لأنها صوت من أصوات الطبقات المظلومة في هذه الحياة، يرتفع للمطالبة بحقوق ما برح الرأسماليون ينكرونها على العمال».

على أن سلطات الانتداب في لبنان لم تسمح للعمال من قراء «الأحرار» أن يأخذوا بنصيحة جبران تويني بقراءة جريدة «الإنسانية»...

فبعد أيام، وقبل أن يصدر العدد السادس من «الإنسانية»، أصدر المفوض السامي الفرنسي ساراي في ١٧ حزيران ١٩٢٥ قراراً بإقفال «الإنسانية» إلى أجل غير مسمى:

قرار رقم ٢٠٥/ S

«إن الجنرال سراي المفوض السامي للجمهورية الفرنسية لدى دول: سوريا ولبنان الكبير والعلويين وجبل الدروز.

بناء على قراري ٢٣ تشرين الأول ١٩٢٠ و٢٩ تشرين الثاني ١٩٢٤

بناء على المرسوم ٢٤٦٤ بتاريخ ٦ أيار ١٩٢٤.

بناء على المرسوم ٢٦٣ بتاريخ ٢٧ أيار ١٩٢٧:

نظراً لأن صحيفة «الإنسانية» الصادرة في بيروت قد نشرت في عددها الصادر في ١٥ حزيران ١٩٢٥ مقالاً تقول فيه «بما أن السردار قد أغتيل بدوافع سياسية فمن «الظلم» معاقبة قاتليه».

نظراً لأن هذا المقال في مجمله يشكّل تحريضاً غير مباشر على الاغتيال السياسي،

وبعد اقتراح السكرتير العام

يقرر

المادة الأولى: تُعلّق صحيفة «الإنسانية» الصادرة في بيروت.

المادة الثانية: يُكلِّف السكرتير العام وحاكم دولة لبنان الكبير، كل في ما يتعلق به، بتنفيذ هذا القرار.

بيروت في ١٧ حزيران ١٩٢٥.

التوقيع

سراي

السكرتير العام بالوكالة

بول لوبيسييه

وهكذا تخلّصت سلطات الانتداب من «الإنسانية» التي وصل موسها إلى لحية باريس... وأخذ إزعاجها يتصاعد... فأقفلت بحجة أنها تزعج... الحكومة المصرية، والانجليز!!.

وبعد صدور هذا القرار؟

«... جاء موظفو الأمن العام ـ كما روى يزبك فيما بعد ـ فدهموا بيتي وفتشوه وفتشوا بيت الشاعر المغفور له صديقي الدكتور أديب مظهر، وبيت صديقي المناضل

فؤاد الشمالي. واغتصبوا من منزلي جميع ما عثروا عليه من مؤلفات لينين وأناتول فرانس وسواهما، (أدلَّة ثبوتية على شيوعيّتي)... وقلت لكبير المغتصبين: (لستم بحاجة إلى أدلَّة، فأنا معلن شيوعيتي على سن الرمح، وجريدتي «الإنسانية» أصدق الشاهدين، وكُتب أناتول فرانس روايات يقرأها الملكيون والاستعماريون والرأسماليون كما يقرأها الشيوعيون...) فرد عليّ بقلَّة تهذيب: (لا تتفلسف على الحكومة، ولا تعترض موظفيها في إجراء وظيفتهم)!!...»[1].

وهكذا، لم يصدر من «الإنسانية»، أول جريدة علنية يصدرها الشيوعيون في لبنان، سوى خمسة أعداد، صدرت في الفترة من ١٥ أيار إلى ١٥ حزيران ١٩٢٥...

شهر واحد، فقط، أدت خلاله هذه الجريدة المدهشة الرائدة دوراً هاماً جداً، على الصعيد السياسي، والدعائي، والتنظيمي، مما جعل المفوض السامي، (اليساري، العلماني، الاشتراكي، والديموقراطي، الخ) لا يتحمّلها أكثر من شهر واحد...

....

... وسألتُ يوسف يزبك، عام ١٩٧٤، وكنا في منزله بالحدث ـ حيث عُقد الاجتماع التأسيسي الأول للحزب الشيوعي اللبناني:

ـ... وهل تتذكر شيئاً من مواد العدد السادس الذي لم يصدر؟..

ـ كيف لا؟. طبعاً أتذكر بعض هذه المواد... كان العدد كله، تقريباً، عن الوضع في مصر. حملة ضد الحكومة المصرية العميلة، ضد الانجليز. في صدر الصفحة الأولى أعددنا صورة رئيس وزراء مصر (كان يومها زِيوَر باشا) كتبتُ تحتها «فرعون مصر ـ اليد يد عيسى والصوت صوت يعقوب»... وفي العدد رسالة من نجيب الشمالي، مراسلنا في الاسكندرية، عن الوضع في مصر... ومقال لفؤاد شمالي في الموضوع نفسه. ومقال لي في شرح مطالب العمال خلال مهرجان الكريستال... آخ... كم من الأشياء كنا نريد

---

(١) يوسف يزبك: «حكاية أول نوار» ـ صفحة ٥٨.

أن نقوم بها بواسطة «الإنسانية»... وكم خطّطنا... وكم حلمنا(*)...

....

(مشروع حلم عظيم): «الى الرفيق يزبك منشئ جريدة «الإنسانية» ـ بعد التحية. قررت اللجنة التفنيذية لحزب الشعب اللبناني بجلستها المنعقدة بتاريخ ٦ الجاري، أن تقترح عليكم بإنشاء شركة مساهمة من العمال والفلاحين تتولّى ادارة جريدة «الإنسانية» في جميع شؤونها، ولا نظنّكم إلا قابلين بهذا الاقتراح الذي لا يخفاكم عظيم فائدته، إذ بهذه الوسيلة تتمكن الجريدة من **الصدور يومياً**. فليس بالشيء الكثير أن يكون للطبقة العاملة جريدة يومية واحدة حرة في هذه البلاد ـ وفي انتظار ردّكم تفضّلوا بقبول تحياتنا الأخوية ـ عن اللجنة التنفيذية، مساعد السكرتير العام؛ فارس معتوق»...

تاريخ الرسالة ٦ حزيران ١٩٢٥... تاريخ قرار المفوض السامي الفرنسي إقفال «الإنسانية» ١٧ حزيران ١٩٢٥. تأجّل الحلم. انتظر الحلم. انتظر. وانتظر. وانتظر... ثم انتصر الحلم.

... وكان هذا، عام ١٩٣٧ عندما صدر العدد الأول من جريدة «صوت الشعب»، أول جريدة يومية يُصدرها الحزب الشيوعي اللبناني. رئيس تحريرها: **نقولا شاوي**. انتشرت انتشاراً واسعاً جداً.

تاريخ يوم صدور هذا العدد الأول من «صوت الشعب» كان ١٥ أيار... أيضاً!. هل تذكرون؟.. العدد الأول من «الإنسانية» كان قد صدر، أيضاً، يوم ١٥ أيار.

أحلامنا ـ حسب تعبير عمر فاخوري ـ تعرف أن تنتظر، وتعرف أن تنتصر.

....

(*) حصلنا فيما بعد، من يوسف يزبك، على مواد ورسائل، كانت ستجد طريقها إلى النشر في جريدة «الإنسانية» ـ وقد نشرتُ مقالاً يتضمّن فقرات واسعة من هذه المواد، بعنوان: «مواد لأعداد لم تصدر في جريدة: الإنسانية» نشر في مجلة «النداء»: ٢٩ نيسان ١٩٨٤ (ملاحظة أضيفت لهذه الطبعة الثالثة ٢٠٠٧).

بعد خمس سنوات من اقفال «الإنسانية»: فؤاد الشمالي ينشر في جريدته «صوت العمال» (العدد الرابع: ٨ أيار ١٩٣٠) مقالاً ليوسف يزبك عن «أول أيار في التاريخ». فيتذكّر جريدة «الإنسانية»... «التي نفخت روحاً ثائرة في صدور عمال البلاد العربية في عام ١٩٢٥ لا يزال أثرها كامناً في النفوس حتى يومنا هذا. فننتهز هذه الفرصة لنحيي «الإنسانية؟» «المعطّلة بأمر المفوّض السامي، تحية الأخاء والاخلاص والاعجاب»... في تلك الأيام (١٩٣٠) كان لا يزال في لبنان انتداب، ومفوّض سامٍ، وقرارات تعطيل... ترى هي مصادفة أن يكون هذا العدد نفسه من «صوت العمال» هو عددها الأخير... فقد صدر قرار بتعطيلها، في الأسبوع نفسه، بأمر من... المفوض السامي!.

في العدد الثاني من «الإنسانية» (١٩٢٥/٥/٢٤) رسالة مدهشة كتبها عامل فقير، بتوقيع «إنسان جديد»... مما جاء فيها هذه النبوءة: «طالعتُ العدد الأول من إنسانيتكم، فظننت نفسي في عالم غير العالم الذي أنا فيه، ولو لم أنادِ مرتا (امراتي) وأسألها أين نحن وتقنعني أننا لم نزل على هذه الحصيرة منذ عشرات السنين لما صدّقت عيناي التي تقرأ إنسانيتكم، فللحال قمت وقبّلت مرتا (بردون، من رأسها) وقلتُ لها: **إذا بقيت هذه** «الإنسانية» **وأطال الله بعمرها**، مش راح نبقى على هذه الحصيرة...».

كأن هذا العامل المجهول (الإنسان الجديد) كان يعرف، بحسه العمالي المدهش... أنَّ فخامة المفوض السامي.............................

عن الانجاز الثاني: صار للحزب لجنته المركزية:

الانجاز **الأول**، إذن، بعد انتصار مهرجان أيار، كان إصدار «الإنسانية»... أما الانجاز **الثاني** فقد تمّ في فترة صدور «الإنسانية» بالذات، خلال النصف الأول من حزيران ١٩٢٥:

وقد تم هذا الانجاز نتيجة تجمُّع عدة عناصر:

ـ ضرورة الانتقال إلى مرحلة تنظيميّة أعلى، بل على الأصح: ضرورة الانتقال إلى **المرحلة التنظيمية**، التي تميِّز الحزب الشيوعي عن أي تجمُّع أو حزب آخر... وذلك بعد انتصار مهرجان أيار، والحجم الكبير الذي أُعطي للحزب بما لم يكن يتناسب، لا مع واقعه العددي، ولا مع واقعه التنظيمي.

ـ ولقاء «شبيبة سبارتاك» الشيوعية الأرمنية ـ سكرتيرها أرتين مادويان ـ مع

المجموعة الشيوعية العربية. ثم وصول مندوب من الأممية للاتصال بالحزب بعد الدويّ الكبير لمهرجان أيار، هو ايلي تيبر.

أرتين مادويان: اللقاء مع الشيوعيين العرب صار بعد احتفال الكريستال. أحد لقاءاتنا، كان، مرة، في مقهى، بمنطقة الزيتونة. لقاء آخر كان في بيت يوسف يزبك، بالحدث ـ (حديث خاص).

يوسف يزبك: نعم. جرى لقاء مع الرفاق الأرمن عندي في بيتي. كان أرتين مادويان. وكان «تيبر». كان هذا في شهر حزيران ١٩٢٥. أذكر أن تيبر قال لي: هؤلاء رفاق أرمن، فرحنا بهم جداً ـ (حديث خاص).

فؤاد الشمالي: «... وعرّفني «تيبر» إلى الرفيق أرتين مادويان الذي كان وقتئذ سكرتيراً لحزب «سبارتاكوس» الأرمني. وكان أعضاء هذا الحزب يبلغون الأربعين شاباً. كانوا يجتمعون في قبوٍ مظلم في ضهور الأشرفية، فيجلس قسم منهم على مقاعد خشبية مخلّعة أكل الدهر عليها وشرب. ويجلس آخرون على «صحاحير كاز» بدلاً من الكراسي، والذين لا يبقى لهم أماكن للجلوس يجلسون أرضاً. ويُنار هذا القبو، في رابعة النهار، بقنديل صغير نوره ضعيف إلى درجة عدم استطاعتك مطالعة جريدة بواسطته. في هذا القبو ـ الذي ذكّرني بالأقبية التي قرأتُ عنها من أن «الفحامين» والفوضويين كانوا يجتمعون فيها، وكذلك البولشفيكيين الروسيين على عهد الحكومة القيصرية البائدة ـ اجتمعنا والرفيق تيبر مراراً عديدة بأعضاء حزب سبارتاكوس»(١).

أرتين مادويان: ... هذا صحيح!. لقد اجتمعنا في هذا القبو، مع الشمالي، وتيبر ـ كان تيبر في تلك الأيام يؤمّن الصلة مع الأممية الشيوعية ـ وناقشنا في تلك الاجتماعات تفاصيل توحيد جميع المنظمات العربية والأرمنية في لبنان وسوريا في منظمة واحدة. وقد تمّ إقرار هذا التوحيد في لقاء عام ـ أظن في بيت يزبك ـ وقد تشكّلت في الاجتماع نفسه «لجنة مركزية» لجميع المنظمات الشيوعية الموحّدة، أذكر من مراكز المنظمات في تلك الفترة: بيروت ـ زحلة ـ بكفيا ـ حلب ـ جبل موسى (الاسكندرون). فاتخذت اللجنة المركزية اسم «اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في لبنان وسوريا». وقد تشكلت هذه اللجنة: من فؤاد الشمالي. يوسف يزبك. تيبر. هيكازون بوياجيان. أرتين مادويان. ثم أضيف إليها عامل الدخان فريد طعمه، بعد أن سافر

---

(١) فؤاد الشمالي: «أساس الحركات الشيوعية...» ـ صفحة ٢٨.

يوسف يزبك إلى باريس ـ (حديث خاص).

....

انتقل الحزب الشيوعي إلى مرحلة تنظيمية، كفاحية، جديدة. وكانت المعارك تنتظر الحزب.

وها هو الحزب يتجه صوب المعارك.

كان إقفال «الإنسانية» علامة على الطريق. على أن المعارك ذات الطابع الملحمي، هي المعارك الآتية بعد أيام.

نقول: ذات **طابع ملحمي**، بكل دقة هذا التعبير. بكل ما فيه من حقائق البطولة والاقتحام والمجابهة الجسورة، واتساع مساحة المعركة، في المكان وفي الزمان، وداخل أذهان الناس وقناعاتهم المتكوّنة، المتحجّرة، والعتيقة.

معركة الشيوعيين الروّاد الأوائل هؤلاء، لم تكن فقط ضد المستعمرين الفرنسيين وأدواتهم القمعية... أو ضد مختلف عناصر الرجعية وشكولها وتحالفاتها، فقط... مرارة معارك تلك الأيام، وقسوتها النفسية العميقة، كانت تأتي من واقع أن الجماهير الكادحة الوطنية، الفئات الواسعة من هذه الجماهير، كانت أصلاً مُبعدة عن ميدان النشاط السياسي، ومن كان منها قريباً من هذا النشاط كان قد تكوّن عنده، بتأثير التخلّف العام وعناصر الرواسب القديمة والدعايات الجديدة، حَذَرٌ من «البولشفيك»، بل تخوّف من هؤلاء (الملاحدة، أعداء الدولة، والدين، والتقاليد الشرقية، والهادفين إلى سلب ثروات الآخرين)!!

والنضال على هذه الجبهة: جبهة عقول الناس وقناعاتهم ورواسبهم، لا تقلّ عنفاً عن معارك مجابهة الاستعمار والرجعية وكل الأعداء الطبقيين، وإن كانت تفوقها مرارة وألماً داخل الروح.

على أن تصاعد المعارك ضد المستعمرين والأعداء الطبقيين، سوف يمارس تأثيره العميق، والمستمر، في التبديد المتواصل للأوهام، والاذابة المتواصلة أيضاً للحذر... وستأتي رفوف وفصائل من هذه الجماهير، إلى حزبها.

وها قد آن لنا، الآن، أن ندخل، معاً، في جو تلك المعارك، ذات الطابع الملحمي...

... المعـــــــارك
من مظاهرة المستأجرين الدامية
إلـــى... دعــم الثــورة السورية
إلـــى... المعتقـــلات والمنــافــي

الاثنين ٢٠ تموز ١٩٢٥، صباحاً:

ساحة الشهداء، جميع المحلات مقفلة. تجمُّعات من الناس بدأت تظهر هنا وهناك. هدوء. ولكن في الجو توتّر، وفي الأعماق غضب مكتوم. يبدو أن الإضراب عام. «فقد أصبحت العاصمة وكل شوارعها ومخازنها مقفلة، والأهالي يتجمهرون أمام دار الحكومة، بسكون وهدوء»[1]. وتتجه التجمعات الصغيرة نحو مكان التجمهر الكبير. ومن مختلف الشوارع التي تصبّ في ساحة الشهداء، يأتي أناس جدد، يتّجهون رأساً نحو التجمهر الكبير أمام دار الحكومة... واضح أن الناس يأتون من مختلف شوارع العاصمة وأحيائها. هذه وجوه سبق أن رأيناها معاً، خلال مهرجان أول أيار في قاعة الكريستال، الذي تنظّم باسم «حزب الشعب اللبناني». هل تذكرون؟. والحزب من بين المشاركين في هذه المظاهرة المطلبية لهذا اليوم ـ فما هو المطلب الذي أقفلت المدينة لأجله، وجاء

(١) مجلة «المعرض» ـ العدد ٤١٥، الخميس ٢٣ تموز ١٩٢٥ = وسوف يكون مقالها الافتتاحي، وهو بعنوان «دم المستأجرين»، دليلنا الأساسي في وصف أحداث هذا اليوم، لأن كاتبه، ميشال زكور، كان شاهد عيان.

هؤلاء الناس، من مختلف الأحياء، يرفعونه، وفي أعماقهم غضب مكتوم؟

ـ «توالت احتجاجات المستأجرين على القرار القاضي بإلغاء القانون المتعلّق بتحديد أجور المخازن، ولكن احتجاجاتهم كانت تذهب أدراج الرياح حتى جاء اليوم الذي انتهى فيه أجل ذلك النظام، فرأي المستأجرون أنهم في حالة اقتصادية تكاد تُسمّى احتضاراً، فأشعروا الحكومة أنهم سيراجعونها بالأمر جماعة...». ـ (مجلة المعرض: العدد نفسه).

إلغاء قانون تحديد الإيجارات كان يعني:

ـ من ناحية: زيادة هذه الإيجارات على كاهل السكان بدون أي رادع قانوني!..

ـ من ناحية ثانية: إحدى وسائل رشوة الملاّكين المحليين ليزداد التفافهم حول سلطة الانتداب. (وقد سبق أن رأينا كيف عمدت الرأسمالية الفرنسية، حتى قبل فرض الإنتداب رسمياً، إلى ربط مصالح كبار التجار اللبنانيين بمصالح السيطرة اللاحقة للشركات الفرنسية الكبرى في لبنان!).

وكان مطلب تمديد قانون الإيجارات، واحداً من المطالب التي قدمها وفد مهرجان الكريستال (حزب الشعب اللبناني) إلى الحاكم كايلا، وسبق أن أشارت جريدة «لسان الحال» (السبت ٢ أيار ١٩٢٥) إلى الحوار الذي دار بين الوفد والحاكم حول مختلف المطالب، فقالت: «... وقدموا لحضرته بعض المطالب أهمها: بقاء قانون إيجار المنازل، فأجابهم بتمديده إلى عامٍ انتهاؤه في أول تموز القادم...» الخ...

ولكن الحاكم لم يمدّد القانون عاماً، كما وعد «إلى تموز القادم» بل هو ألغى هذا القانون ابتداء من «تموز الحالي»... فصار الملاّكون أحراراً في سلخ جلود المستأجرين!

هكذا تقضي مصلحة سلطات الانتداب، وسياستها!

أما الأهالي...

... كانوا لا يزالون يأتون من مختلف الشوارع المؤدية إلى ساحة الشهداء، ويتجهون نحو التجمهر الكبير أمام سراي الحكومة... «وعند الساعة الثامنة والنصف تكاثر عددهم... ولكن السكينة كانت شاملة...» ـ (المعرض: العدد نفسه).

وفجأة!..

«... فجأة خرج على المتجمهرين عدد من الخيالة اللبنانية لتفريقهم. ويظهر أن بعض هؤلاء استعمل العنف **بالسيوف** مع الأهالي، فهاج الناس، وأخذوا يرجمون الجنود بالحجارة... واشتد الهرج والمرج... وتبادل الفريقان رمي الحجارة ووخز السيوف...».

اعتقل رجال الأمن عدداً من المتظاهرين، بينهم أعضاء في «لجنة المستأجرين»... ازدادت المعركة عنفاً...

خرج الحاكم من دار الحكومة بهدف «تهدئة الحالة»... رآه بعض الناس. اتجهوا صوبه. قال بعض «العقلاء»... فلنستمع إليه. استمَعوا إليه. وعدهم خيراً... وطلب منهم أن يتفرّقوا. طالبوه بإطلاق سراح المعتقلين. وعدهم خيراً، وطلب منهم أن يتفرقوا، ودخل دار الحكومة. لم يتفرقوا. انتظروا طويلاً. لم يُطلق سراح المعتقلين. دمدم الناس، وهمهموا وهتفوا: إطلقوا سراح المعتقلين!

حسناً. خذوا!.

وانطلق رجال البوليس يطاردون الأهالي. بأيديهم المسدسات!. ومع الأهالي: لا شيء!. ولكن: هذه أكوام من الحجارة فوق تراب المنشية (الحكومة تجري إصلاحات في المنشية. والحجارة بالآلاف... جاهزة للمعركة!.. صدفة مدهشة)... الناس يندفعون نحو الحجارة. الحجارة تنهال على رجال البوليس. هؤلاء يهربون نحو دار الحكومة. أبواب السراي تُقفَل بوجه الناس المندفعين نحوها. السواعد تمتد إلى أكوام الحجارة. الحجارة تنهمر على نوافذ السراي. زجاج النوافذ يطير مكسّراً في كل اتجاه. الحجارة تنهمر على مكتب الحاكم (كايلا) نفسه. قطَع الأثاث تتحطم تحت زخّ الحجارة... «... حتى أن المسيو كايلا وحبيب باشا (السعد) اضطرا أن يحتميا في زاوية اتّقاء لهذا الوابل المتساقط من الأحجار... وبقيت دار الحكومة كأنها في حالة حصار مدة ساعتين، والأحجار تتساقط عليها من كل الجهات... ولم يتمكّن الحاكم من الوقوف على النافذة... لتهدئة الشعب...» - (المعرض: العدد نفسه).

وفجأة!.

أصوات زخّات الرصاص تلعلع!. فوهات مدفعي متراليومز. مدافع المتراليوز منصوبة أمام موقع القيادة الفرنسية. الناس يندفعون نحو مفارق الطرق. والطلقات المتسارعة تدوّي.

وفجأة!..

أبواب دوائر البوليس تُفتح. يندفع منها حشدٌ من البوليس. المسدسات في الأيدي. الرصاص ينطلق من المسدسات. ناس يتساقطون هنا وهناك. قتلى. وجرحى. ودماء. وجوه مرتعبة. وجوه غاضبة. وجوه تصرخ. المسدسات تطلق الموت. وجوه حامليها تكشف طابعها الوحشي، السادي.

وفجأة!..

«... أطلت على الساحة الخيّالة الصباحية، فِرقاً فِرقاً، وتجاوز عددها المئتي خيال... تفرقوا في أنحاء الساحة يفرقون المتظاهرين بسيوفهم...

«... ثم جاءت فرقة السنغاليين... ففرقة من الخيالة اللبنانية. حتى تجاوز عدد الجنود في الساحة الستمائة جندي!..

«... أما الأهالي، فإنهم تجمّعوا في أطراف الساحة يزدحمون على بعضهم صفوفاً، صفوفاً،...» ـ (المعرض: العدد نفسه).

... تمّ احتلال ساحة الشهداء!..

القتلى كثيرون: تجاوزوا العشرة!.. الجرحى أكثر: تجاوزوا الأربعين!.. المعتقلون أكثر: حوالى الستين[1]!.

مسيو كايلا، الحاكم الفرنسي لدولة لبنان الكبير، يبرّر المجزرة أمام الصحفيين، في اليوم نفسه:

ـ «... أرأيتم ما جرى؟.. إن **الغوغاء** هم من **الرعاع** لا من المستأجرين، على ما أعتقد!.. يظهر أن بين المتظاهرين **فئة شريرة** تريد الصيد في الماء العكر. **وهي التي دفعت** الناس إلى هذه الحوادث المؤسفة!..» ـ (المعرض: العدد نفسه).

الحجة العتيقة، المتجددة: فئة شريرة... اندسّت... بين الجماهير!! «فاضطرت» سلطات

---

(١) وردت هذه الأرقام في خطاب ألقاه النائب «دريو» أمام البرلمان الفرنسي، في ٢٠ كانون الأول ١٩٢٥، باسم الحزب الشيوعي الفرنسي، فوصف سياسة الجنرال ساراي بسياسة «قمع بربرية». وطالب بإلغاء الانتداب وإعلان استقلال لبنان وسوريا، بجلاء الجيوش الفرنسية عنهما.

الانتداب لإنقاذ الجماهير من المندسّين... فكان الرصاص يختار من بين الأهالي ـ فقط! ـ هؤلاء المندسين!..

وتلقَّف هذه الحجة، في تلك الأيام، شيء اسمه «مجلس نواب لبنان»!!.. (فكلام الحاكم: ذهبٌ! وحجته: أوامر!. والنواب: حاضرون للترديد والتأييد والموافقة، باستمرار!).

انعقدت جلسة هؤلاء «النواب»، في اليوم نفسه (٢٠ تموز). أجمع هؤلاء النواب: أن المتظاهرين، والمحرّضين على المظاهرة، هم من «الرعاع»... فألصق النواب بهؤلاء «الرعاع» مسؤولية المجزرة!!

وقال واحد منهم، اسمه مسعود يونس: «المستأجرون يطلبون عدلاً... كما أننا نطلب العدل... للحكومة!!»... وصاح هذا النائب الفذ: «لا نقبل بالبلشفة في هذا البلد...»!!

بهذا الموقف يدشن «مجلس... نواب... لبنان» عهده الجديد!.. فقد تمّ «انتخاب» هذا المجلس منذ أسبوع فقط (في ١٢ تموز نفسه)... وفاز بالكراسي جميع الذين عيّنتهم المفوضية الفرنسية العليا!! ـ فاللياقة تقضي، إذن، وكذلك العياقة، أن يردّ النواب الجميل، في أول فرصة، ويسدّدوا الفواتير: فسدّدوها!.. وباركوا سلطات الانتداب التي سدّدت الرصاص على... الرعاع!. وطالبوا بالتحقيق بمدى الأضرار التي لحقت بالسراي ونوافذها، وبمعاقبة... راشقي الحجارة!!.

وقال صاحب مجلة «المعرض» ميشال زكور: «الحمد لله!.. لقد أصبح هذا الشعب الذي أصعدَ النواب بالأمس على أكتافه: رعاعاً!. والنواب الذين كانوا بالأمس ـ قبل انتخابهم ـ يتقرّبون إلى هؤلاء «الرعاع» ويتحبّبون إليهم، ويخطبون ودّهم ويتسابقون إلى دعوتهم للولائم، ويعانقونهم كأنهم إخوان أحباب... قد صارت نفوسهم تتقزز اليوم عندما يأتي ذكر هؤلاء «الرعاع» أمامهم في المجلس... إن هؤلاء «الرعاع» يا نواب البلاد هم الذين أصعدوكم إلى هذه الكراسي، وهم الذين حملوكم على أكتافهم في مظاهرات فوزكم، وهم...» في حين هؤلاء «النواب» يقررون التحقيق بالأضرار التي لحقت بالسراي، ونوافذها... «... ويا ليت المجلس الجديد رأى رصاص البوليس يمزق أجسام الأهالي ويرديهم بين قتلى وجرحى، كما رأى... الزجاج المكسور والخشب المحطّم»[1].

---

(١) «المعرض» ـ العدد ٤١٦، الأحد ٢٦ تموز ١٩٢٥، من مقال افتتاحي بعنوان: «المجلس والشعب والحكومة».

وقال المستأجرون، في برقيتهم إلى وزارة الخارجية الفرنسية: «تظاهر المستأجرون في بيروت تظاهرة سلمية ضد قانون الإيجار. أطلق عليهم رجال الدرك والشرطة النار. قتلى وجرحى. نرجو التحقيق، وتحوير النظام ـ لجنة المستأجرين»(١).

وقيل في مجلس النواب نفسه، وفي أوساط الحكم: إن ما جرى يشير إلى خطورة الوضع، وإن عند الشعب استعداداً لحركة ثورية...

وبالفعل، تعالوا ننظر إلى هذه الأحداث/ المجزرة، نظرة أكثر اتساعاً، ونحاول أن نرى إليها في الإطار العام للوضع في البلاد، ونرى مكانها داخل هذا الإطار، فنلمس معناها.

ذلك أن تصاعد العنف في المعركة: شراسة القمع الذي مارسته قوات الدولة (سيوف... متراليوزات. مسدسات. بنادق. سيوف). ثم الردّ الشعبي الباسل، والعام، والمفحم: بالحجارة حاصروا دوائر الحكومة والبوليس والموقع الفرنسي... فعبَّروا بهذا الانفجار عما في أعماقهم من غضب مكتوم ـ هذا الجو المشحون، المتوتّر، المتفجّر، يعطي المعركة طابعاً مختلفاً: فهي، في الأساس، معركة **وطنية** معادية للانتداب تفجَّرت في خلال مظاهرة **مطلبية**، رداً على القمع الفرنسي الشرس، وهذا القمع، بالذات، كان موجّهاً ضد هذا الطابع الوطني بالتحديد، ضد الإمكانية ـ الموجودة ـ لتحول المظاهرة المطلبية ضد الملاكين وقانون الإيجارات، إلى مظاهرة وطنية ضد الانتداب.

وهذا ليس مجرد استنتاج.

....

في مطلع هذا الشهر نفسه (تموز ١٩٢٥): بدأ الجنرال ساراي ـ المفوض السامي الآتي من «الكارتل اليساري»... الديموقراطي... العلماني... الحاكم في فرنسا ـ يكشف عن براثنه الاستعمارية بشكلٍ باهر مطوراً بهذا تقاليد سابقيه الجنرالين غورو وويغان اللّذين فرضا هيبة فرنسا وحكمها الانتدابي الاستعماري بالنار والحديد وسفك الدماء.

فقد جاء إليه وفد من دروز جبل العرب، للمرة السادسة، يشكو مظالم العسكريين

---

(١) نقلاً عن جريدة «زحلة الفتاة» ـ الأربعاء ٢٢ تموز ١٩٢٥.

الفرنسيين، وسلوكهم الشرس، والمذلّ، ضد الأهالي، وفرض جوّ من الإرهاب الدامي، واستخدام سلاح القتل، والتمويت جوعاً ضد الناس... ويحمل الوفد معه بعض المطالب، ومنها: «استدعاء الكابتن كاربيه، والسماح لهم بانتخاب حاكمهم بأنفسهم... وهو حقّ سبق أن اعترف لهم به (في اتفاقية عام ١٩٢١) الجنرال غورو، أول مندوب سامي فرنسي في سوريا ولبنان. إلا أن الجنرال ساراي، ممثل «كارتل اليساريين» رفض استقبال الوفد، وأمر باعتقال أفراده.... لتَطاوِلِهم! ـ وفي الفترة نفسها، جرت مسيرة دينية في السويداء، عاصمة جبل الدروز، بمناسبة أحد الأعياد الإسلامية. فاعتبر الكابتن كاربيه هذه المسيرة **مظاهرة سياسية**، فامر بإطلاق النار على الجماهير المسالمة. فكانت إشارة للانتفاضة. وقام سكان الجبل بالثورة على المستعبدين الفرنسيين»(١).

اندلعت الثورة السورية، إذن، منذ أوائل تموز.

وتحولت، بسرعة، من حركة احتجاج عفوية، محدودة، ضد مظالم العسكريين الفرنسيين، إلى ثورة وطنية عامة في سوريا ضد الامبريالية الفرنسية، والاحتلال الفرنسي للبلاد. وسوف يمتد ميدان الثورة إلى عدة مناطق من لبنان ـ وهذا ما كان يخشاه الفرنسيون، القادمون إلى هذه البلاد ـ باسم عصبة الأمم! ـ «لتمدينها» وتعويدها على حكم نفسها بنفسها، بطلب ـ قيل إنه ـ من أهلها أنفسهم!!.

في هذا الجو، وضمن هذا الإطار، انفجرت أحداث ٢٠ تموز الدامية في ساحة الشهداء.

كانت أخبار الثورة السورية تسكن الجميع: الأهالي الغاضبون، وسلطات الانتداب الخائفة من التطور اللاحق للأحداث...

---

(١) عن مجلة «المراسلات الأممية» ـ العدد ٩٢، في ٢٣ ايلول ١٩٢٥، صفحة ٧٦٧ ـ من مقال كتبه «كيتايغورودسكي» بعنوان «بعد مراكش.. سوريا» = وقد قصدنا أن نعتمد على مقالات هذه المجلة، وهي لسان حال الأممية الشيوعية، في إيراد بعض أحداث الثورة السورية، واستنتاجات المجلة بشأنها، وكشفها أهداف الامبريالية الفرنسية وشراستها في قمع هذه الثورة ذات الطابع الوطني التحرري العام. فهذه المقالات، اولاً، تعبّر عن الدعم، المتعدّد الأشكال، الذي أخذت الحركة الشيوعية العالمية تقدمه للثورة السورية ـ كما سيمرّ معنا ـ وسوف يلعب الحزب الشيوعي اللبناني دوراً هاماً في هذا المجال. ثم اننا، ثانياً، قَصَدنا إلى إيراد مقاطع من مقالات هذه المجلة لما نعرفه من ندرة توفّرها في مكتباتنا العامة والخاصة، وكذلك لأن الذين يكتبون عن الثورة السورية وعن غيرها من الثورات، من مواقع البورجوازية، أو حتى البورجوازية الصغيرة، يتجنّبون ـ عادة ـ إبراز موقف الأممية الشيوعية هذا، أو الاستشهاد بمواد هذه المجلة، حتى لو توفّرت كمرجع!..

وقد عبّر الحزب عن هذا الترابط في أول منشور سرّي أصدره باسمه.

قال أرتين مادويان، في حديث خاص: «... بعد المظاهرة بيومين، أي في ٢٢ تموز ١٩٢٥، اجتمعت اللجنة المركزية للحزب. بحثنا قضية المظاهرات، والمعركة، من مختلف جوانبها، استناداً إلى تقارير الشيوعيين الذين شاركوا فيها: كانت المظاهرة مطلبية، سلمية، وهادئة. وكانت الثورة السورية قد بدأت حوالى ٨ تموز. والجوّ مشحون. وعندما هاجمت السلطة الناس المتجمّعين أمام دار الحكومة، وأخذ جنود الخيالة يضربون الناس بالسيوف، انفجر الأهالي، تحولت المظاهرة، صارت ضد سلطات الانتداب، تكهرب الجوّ، وتصاعد عنف الناس ضدّ الفرنسيين الذين جابهوا المتظاهرين بالرصاص. صار مضمون المظاهرة مضموناً وطنياً، ضدّ الاحتلال.

وبحثنا، في الاجتماع نفسه، النقطة الثانية لجدول الأعمال: **الثورة السورية.** كانت الثورة في بدايتها، وكان طابعها الوطني العام قد برز بعد أن بدأت كحركة احتجاج.

النضال المعادي للامبريالية الفرنسية يتصاعد.

وأتخذت اللجنة المركزية قرارين واضحين:

١ ـ متابعة المعركة مع المستأجرين في سبيل نيل مطالبهم، والمساعدة في تطوير هذه الحركة الكفاحية.

٢ ـ دعم الثورة السورية بكل ما لدى الحزب من إمكانيات، بما فيها السعي لدى الحركة الشيوعية العالمية لتنسيق وسائل دعم الثورة.

وصدر عن هذا الاجتماع بيان هو **أول بيان** يصدر حاملاً توقيع «اللّجنة المركزية للحزب الشيوعي في لبنان وسوريا» حول هذين الحدثين معاً. وفيه يقارن الحزب بين الاعتداء الوحشي على المتظاهرين وبين قمع الثورة السورية. ودعا الحزب الشعب اللبناني «إلى النضال ضد الامبريالية الفرنسية والى دعم الثورة السورية».

وانطلق الشيوعيون اللبنانيون، في ليل الإرهاب الفرنسي، يوزّعون المناشير الخطيرة. وكانت المناشير خطيرة بالفعل، وخطرها يشمل سلطات الانتداب، كما يشمل موزعيها أنفسهم. فهي لا تكتفي بإعلان تأييد عام للثورة السورية، بل هي تحرّض الجنود على التمرد والعصيان والالتحاق بالثورة، وتدعو اللبنانيين إلى مؤازرة الثورة والانضمام إليها. وهذا يعني: تعريض موزع هذه المناشير إلى عقوبات قصوى (سجن ٢٠ سنة. أشغال شاقة. وأحياناً: إعدام)... ومع هذا:

ـ «كنا في الليل نحمل المناشير بجيوبنا... نسرّب المناشير من شقوق الأبواب، ونزتُّها من الشبابيك المفتوحة... ونُلصقها على الجدران... في ساحة البرج نفسها... في شارع الجميّزة... ثم حيّ الخندق الغميق، وأحياء البسطة... وفي جيوبنا مع المناشير، عدة كمشات من الرمل الناشف الناعم، أو التراب الناشف».

ـ ولماذا الرمل أو التراب أيها الرفيق مادويان؟

ـ «تحسُّباً للطوارئ: فإذا عثر علينا أحد جنود السلطة، نقذف بوجهه كمشة رمل... وإلى أن يفرك عينيه لإزالة الرمل منها، يكون الواحد منّا قد اختفى بين الأرض والسماء» ـ (حديث خاص).

وجنَّت سلطات الانتداب. ومع جنونها هذا، تصاعدت عملية توزيع المناشير، كما كانت الثورة تتصاعد ويتسع ميدانها... ومما زاد في غيظ سلطات الانتداب أن هذه المناشير كانت تُكتب باللغات: العربية، والفرنسية، والأرمنية... وأنها تلاقي أصداء واسعة، محلية وعالمية. وأن بعض صحف الانتداب نفسه، مثل جريدة «لا سيري» الصادرة بالفرنسية، أشارت إلى بعض هذه البيانات في صفحتها الأولى.

وقد اضطر لتسجيل هذا الواقع، فيما بعد، كتَّاب لم ينطلقوا، لدى وضع كتبهم عن تاريخ الحزب الشيوعي، من مواقع الصداقة، بل من مواقع النيل من الحزب، ولكن الوقائع التي لا يمكن طمسها تفرض نفسها، عادة، على المواقف.

وهكذا، جاء في كتاب واحد منهم: «... وفي أواخر تموز ١٩٢٥ اتخذت اللجنة المركزية المؤقتة للحزب الشيوعي قراراً بتأييد الثورة السورية، ووجهت إلى الشعب دعوة لمؤازرة الثوار والانضمام إليهم، كما طلبت من الجنود التمرّد على سلطات الانتداب والالتحاق بالثورة. وقد صدرت هذه النشرات باللغات العربية والفرنسية والأرمنية»[(١)].

وقال الياس مرقص: «... أعلن الحزب تأييده الكامل للثورة السورية (١٩٢٥)، وأصدر نشرات باللغات الفرنسية والأرمنية والعربية، دعا فيها الشعب إلى الانضمام لصفوف الثوار، ودعا الجيش إلى العصيان والتمرد»[(٢)].

---

(١) س. أيوب: «الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ١٩٢٢ ـ ١٩٥٨»، دار الحرية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٥٩ ـ صفحة ٦٩.

(٢) الياس مرقص: «تاريخ الأحزاب الشيوعية في الوطن العربي» ـ دار الطليعة، بيروت ١٩٦٤ ـ صفحة ١٧.

كانت هذه النشرات تُطبع على الجيلاتين: تُكتب نسخة منها باليد، بالحبر المائع، وتلصق الورقة حول أسطوانة جيلاتين، ثم تسلخ الورقة، فيكون الحبر قد انتقل إلى الجيلاتين مما يكفي لطبع خمسين نسخة بواسطة إدارة الاسطوانة على الورق... وهكذا... حتى تُطبع الكمية المطلوبة، وتُرسل بعض النسخ المحدودة إلى المناطق خارج العاصمة حيث يُعاد نسخها وطبعها كذلك على الجيلاتين...

... ويسعى الرفاق، في مختلف المناطق، وفي ليلة واحدة، يُلصقون المناشير على الجدران، في قلب ليل الإرهاب الفرنسي، يحملون «عدّة الشغل»: مادة لاصقة، ومناشير، ورمل أو تراب، ورفيق أبعد من زميله عدة أمتار لينبّهه إذا أطلّ واحد أو أكثر من «الجماعة»: وفي القلب إصرار وتحدٍّ باسل للخطر.

ويروي **فؤاد الشمالي** جانباً من حكاية هذه النشرات، إقرارها في الحزب ـ طباعتها ـ وتوزيعها: «... وفي تلك الأثناء شبّت نيران الثورة السورية فقررت لجنة حزبنا المركزية أن يناصر الحزب هذه الثورة بما لديه من قوى. وبناء على هذا القرار بدأت النشرات الشيوعية توزّع في أنحاء الجبل وفي بيروت. وكانت هذه النشرات تُطبع على الجيلاتين ويُرسل نسخة منها إلى كل فرع من فروع الحزب، حيث يُعاد طبع الكمية اللازمة للتوزيع في منطقة الفرع. وكان الحزب الشيوعي بنشراته هذه يحضّ الشعب اللبناني ويحثّه على مؤازرة الثوار والانضمام إليهم. وكانت لجنة الحزب المركزية تطبع نشرات باللغة الفرنسية موجهة من الحزب إلى جنود الجيش الفرنسي لتحريضهم على التمرد والعصيان والانضمام إلى صفوف الثوار. وكان رفاق البقاع يُلصقون هذه النشرات في زحلة والمعلّقة والرياق حتى إنهم تمكّنوا من توزيعها في معسكر الرياق، ووضعها على مكاتب الضباط، وهذا ما أقام قيادة الجيش وأقعدها، وجعل السلطة تبذل مجهودات كبرى لمعرفة طابعي النشرات وموزعيها»[1].

أرتين مادويان: «... ومما ساعدنا على هذا في معسكرات فرنسية أخرى أنه كان لنا بين الجنود رفاق أرمن، ساهموا بتوزيع المناشير في المعسكرات، ومكاتب الضباط» ـ (حديث خاص).

---

(١) فؤاد الشمالي: «أساس الحركات الشيوعية...» ـ صفحة ٣٠ و٣١.

حليم فاخوري، مناضل من زحلة: «... وكانت تأتي إلى رفاقنا في زحلة مناشير من بيروت، نقوم بإعادة طبعها على الجلاتين. في أحد أطراف زحلة بيت كبير، فيه عدة غرف، وفي عمق هذا البيت غرفتان، استأجرهما الرفاق على أساس أنهما للرقص ولسهرات الشباب. وبالفعل استعملوا الغرفة الأولى للرقص ولعب الورق وليالي السمر، والغرفة الداخلية لطبع النشرات على الجيلاتين، بينما صوت الفونوغراف يتعالى» - (حديث خاص).

تيودوري الديك، من طرابلس: «سنة الـ ٢٥، عندما اشتعلت الثورة السورية، كانت تصلنا أيضاً منشورات الثوار السوريين ونداءاتهم، فنقوم بتوزيعها. أذكر منشوراً منها، كان عليه صورة جدار من الجماجم، يعني: أن الاستقلال يبنى من الجماجم... وكنا نعمل على منع بعض المضللين من التطوع مع الفرنسيين، ونساعد الملتحقين بالجيش الفرنسي على الهرب منه. كنا نجتمع على شاطئ البحر، نسبح، ونجلس على الشاطئ نرسم الخطط... أو نجتمع في الخرائب خارج البلدة... فإن أهل الرفاق كانوا يخافون أن تعقد الاجتماعات في بيوتهم» - (حديث خاص).

«... أصبح جبل الدروز مركزاً لحركة التحرر لكل سوريا. وفي النداءات التي وجهها سلطان الأطرش، **ووزعت بعشرات الآلاف في جميع أنحاء سوريا** (ولبنان - وفلسطين) أعلن أن الدروز يريدون تحرير الشعب السوري بكامله من قبضة الاستعمار الفرنسي. وهكذا تعاظمت ثورة جبل الدروز المحلية إلى حدّ كبير، واشتعلت وامتدت حركة تمرّد عامة ضدّ الاحتلال الفرنسي» - مجلة «**المراسلات الأممية**»، العدد ٩٢، في ٢٣ أيلول ١٩٢٥.

وكان سلطان الأطرش، القائد العام للثورة في الجبل، قد عبّر عن تحوّل حركة الاحتجاج إلى ثورة وطنية عامة، في منشوره الأساسي الذي وُزّع في جميع أنحاء سوريا ولبنان ووصل إلى عدد من البلاد العربية، وفيه يدعو جميع الوطنيين إلى حمل

السلاح «لتحقيق أماني البلاد المقدسة... ولنبدد ظلم التحكُّم الأجنبي عن سماء بلادنا» وجاء في هذا المنشور:

«... نحن نبرأ إلى الله من مسؤولية سفك الدماء، ونعتبر المستعمرين مسؤولين مباشرة عن الفتنة. ويا ويح الظلم!. لقد وصلنا من الذلّ إلى أن نُهان في عقر دارنا، فنطلب استبدال حاكم أجنبي محروم من المزايا الإنسانية، بآخر من بني جلدته الغاصبين فلا نُجاب إلى طلبنا، بل يُطرد وفدنا كما تُطرد النعاج.

إلى السلاح أيها الوطنيون، ولنغسل إهانة الأمة بدم النجدة والبطولية، إن حربنا اليوم هي حرب مقدسة، ومطالبنا هي:

- **أولاً:** وحدة البلاد السورية، ساحلها وداخلها، والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة مستقلة استقلالاً تاماً.
- **ثانياً:** قيام حكومة شعبية تجمع المجلس التأسيسي لوضع قانون أساسي على مبدأ سيادة الأمة سيادة مطلقة.
- **ثالثاً:** سحب القوى المحتلة من البلاد السورية، وتأليف جيش وطني لصيانة الأمن.
- **رابعاً:** تأييد مبدأ الثورة الإفرنسية و (حقوق الإنسان) في الحرية والمساواة والإخاء.

إلى السلاح!. ولنكتب مطالبنا المشروعة هذه بدمائنا...».

واضح أن هذه المطالب التحررية، المعادية للاستعمار، تتفق، من ناحية، مع الشعارات التي كانت رفعتها الجماهير السورية في انتفاضاتها المتواصلة منذ معركة ميسلون، ضد سلطات الانتداب الفرنسي (الانتفاضة التي قادها الشيخ صالح العلي طوال ثلاث سنوات بعد الاحتلال الفرنسي ـ والانتفاضة التي قادها ابراهيم هنانو عام ١٩٢٠ واستمرت حتى ١٩٢١). كما تتفق مع الشعارات التي صاغتها الأحزاب الوطنية السورية منذ حزب «سوريا الفتاة» الذي شكله لبنانيون وسوريون في نيويورك ١٨٩٨، و «حزب الاتحاد السوري» الذي شكله عدد من المهاجرين اللبنانيين والسوريين، مسلمين

ومسيحيين، في مصر عام ١٩١٩، و «الحزب الوطني العربي» الذي أسَّسه سوريون ولبنانيون أيضاً عام ١٩٢٠ في بيونس أيرس بالأرجنتين، وتتفق خصوصاً مع المطالب التي أقرها «المؤتمر السوري» عام ١٩١٩، وعام ١٩٢٠، في دمشق، وكان يضم مندوبين من مختلف أنحاء سوريا ولبنان. وهي تتفق، وقت صدورها، بما كان صاغه في العام نفسه، «حزب الشعب» الذي شكلته البورجوازية السورية وكانت لا تزال على تناقض مع الاستعمار، وتحمل أفكاراً ليبرالية تحررية متأثرة بأفكار الثورة الفرنسية، وتتعاطف مع موقف ثورة أكتوبر المؤيد لحركات التحرر الوطني ضد الاستعمار، وكان المعبِّر عن أفكارها هذه رئيس الحزب في ذلك الوقت عبدالرحمن شهبندر، الذي كان إلى جانب سلطان الأطرش في جبل الدروز يشارك في قيادة الثورة ـ فكان من الطبيعي أن تأتي مطالب الثورة في منشور سلطان الأطرش، هي مطالب الحركة الوطنية التحررية لكل من سوريا ولبنان: الاستقلال التام ـ رفض الانتداب والاحتلال ـ واتجاه ديموقراطي عام.

وقد أوردت مجلة الأممية الشيوعية «المراسلات الأممية» هذه البنود ضمن مقال نشرته في العدد ٩٢ الصادر ٢٣ أيلول ١٩٢٥، ثم علَّقت عليها بقولها: «إن هذا البرنامج جعل من الأطرش زعيماً لحركة التحرر الوطني للشعب السوري. إن انتفاضة جبل الدروز تشكل نموذجاً للانتفاضة الثورية لشعب مضطهد، إذْ إن الأطرش لم يكن يرغب في حصر الحركة بالجبل، بل أراد تحرير سوريا كلها، وهذا ما يعبِّر عنه البرنامج الوطني الذي أعلنه».

ويجد هذا التقييم تبريره في واقع انتشار الثورة إلى أنحاء عديدة من سوريا وامتدادها إلى أنحاء من لبنان منذ آب من العام نفسه، وإسهام الوطنيين فيها، وما أشرنا إليه من تعبير برنامجها عن مطامح الحركة الوطنية ككل كما صاغتها الأحزاب والفئات المعادية للاستعمار والاحتلال والمطالبة بالاستقلال. كما يجد تأكيده في المنشور الأساسي نفسه، الذي أشرنا إليه، والصادر باسم سلطان الأطرش:

ـ «لقد مضى علينا عشرات السنين ونحن نجاهد في سبيل الحرية والاستقلال، فلنستأنف جهادنا المشروع، بالسيف...».

ـ «لقد نهب المستعمرون أموالنا، وأستأثروا بمنافع بلادنا، وأقاموا الحواجز الضارة بين أنحاء وطننا الواحد، وقسَّمونا إلى شعوب

وطوائف ودويلات، وحالوا بيننا وبين حرية الدين والفكر والضمير، وحرية التجارة، والسفر حتى في بلادنا وأقاليمنا».

ـ «إلى السلاح تأييداً لسيادة الشعب وحرية الأمة. إلى السلاح بعد أن سلب الأجنبي حقوقكم واستعبد بلادكم، ونقض عهودكم، وتناسى الأماني القومية».

أكثر من هذا: فإن أثر الثورة السورية امتد إلى المغرب العربي، حيث تشتعل ثورة الريف ضد الفرنسيين بقيادة عبد الكريم الخطابي ـ فأضعف من قدرة الجيش الفرنسي على الحركة، والهجوم المضاد، كما كانت قيادة هذا الجيش تأمل. تقول مجلة الأممية الشيوعية «المراسلات الأممية» في العدد نفسه (٢٣ أيلول ١٩٢٥) بهذا الصدد: «كانت ثورة الدروز عاملاً مساعداً لعبد الكريم (في الريف المغربي) إذْ مكّنته من تطويل أمد المقاومة. لقد لعب الدروز في سوريا دوراً مشابهاً لدور الريفيين في المغرب، فأجبرت ثورة الدروز القيادة الفرنسية العليا، على الاحتفاظ بجزء من قواتها في سوريا كانت مخصّصة للمغرب... وإذا تطورت هذه الحركات في سوريا والمغرب، فسيعمد الفرنسيون إلى تعزيز قواتهم في جميع مستعمراتهم الافريقية».

لقد أدرك الحزب الشيوعي اللبناني، منذ الأيام الأولى، هذا الطابع الوطني التحرري للثورة المنطلقة من جبل الدروز. فأعلن دعمه للثورة، بكل ما يملك من قوى. على أن القوى، العددية والمادية، التي يملكها الحزب كانت أقل من قليلة. فقد وُلد الحزب عشية الثورة، وتألفت لجنته المركزية الأولى قبل أيام، فقط، من اندلاع الثورة. ولكن الحزب ـ كحزب شيوعي ـ يملك، عادة، قدرة تحريك وتحريض، على النطاق المحلي الوطني والنطاق العالمي، أكثر بكثير وأوسع بما لا يقاس، مما يملكه من قوى عددية.

وقد عمل الحزب، في اقصى الظروف وأقساها، على تعبئة جميع قدراته، محلياً وعالمياً، وتحريكها في هذا الاتجاه: دعم الثورة السورية، والمشاركة فيها بمختلف الوسائل:

□ «لقد دخل الحزب الشيوعي إلى الساحة. وهذا الحزب، الذي وُلد عشية الثورة، قد اضطر تحت نيران العدو الهوجاء، إلى تنظيم صفوفه

للقتال، وإنشاء جهاز سري، والقيام بمهماته بصورة سرية. لم يكن في وسعه تحقيق شيء كبير في اتجاه مشاركة مباشرة في الثورة. إلا أنه قد أحرز نجاحات في تحقيق التآخي بين سكان المدن الوادعين وسكان الريف الثائرين، وذلك في محاولة الحزب إزالة المنازعات الدينية. ومنذ البداية نهض الحزب حارساً أميناً للثورة» ـ (مجلة **«المراسلات الأممية»**: العدد ١٠٠، في ٨ أيلول ١٩٢٦، صفحة ١١٠٧).

وكان العمل السري للحزب ينشط في مختلف الاتجاهات، بالإضافة إلى العمل الوطني في المجال الديموقراطي، من خلال «حزب الشعب اللبناني»، وفي المجال النقابي من خلال نقابة عمال الدخان، والمطابع، وغيرها ـ وفي ليل الإرهاب الفرنسي، واصل الحزب توزيع المناشير ولصقها على جدران المدن:

- **العنوان:** «منشورات شيوعية». **الخبر:** «وُزعت في بيروت نشرات مطبوعة على الجيلاتين، موجَّهة إلى الجنود والعمال، تحرّض الأولين على التمرد، والآخرين على عدم التطوع والتجند في الجيش المحارب. وهذه النشرات موقعة بتوقيع: اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان» ـ (**الجريدة:** «زحلة الفتاة»، الأربعاء ١٦ أيلول ١٩٢٥).
- **العنوان:** «الدعوة الشيوعية». **الخبر:** «قالت جريدة الأحرار: يظهر أن اللجنة الشيوعية الدولية عمدت مؤخراً لنشر دعايتها في البلاد... وقد أذيعت أول أمس مناشير صادرتها السلطة المنتدبة» ـ **الجريدة:** «زحلة الفتاة» ـ (العدد نفسه).
- **في هذه الفترة نفسها**، يقول أرتين مادويان في ملاحظاته المكتوبة، ان الحزب أذاع نداء باللغة الفرنسية، مطبوعاً على الجيلاتين، على ورق أحمر اللون، موجّه إلى جنود الجيش الفرنسي، يدعوهم فيه إلى التآخي مع الثوار السوريين، وإلى تحويل بنادقهم باتجاه ضباطهم. وهو موقَّع من قبل «اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في

سوريا ولبنان»، وقد وزّع رفاقنا هذا النداء في بيروت وزحلة وحلب، ووصل إلى عدد من الفرق العسكرية».

- ويتذكر **يوسف يزبك** هذا المنشور بالذات، عندما عرضه عليه، فيما بعد، المحقق العدلي الفرنسي مسيو ميناديه، لدى اعتقال يزبك بعد عودته من فرنسا (سيأتي حديث الاعتقالات في صفحات لاحقة): «كان لون المنشور أحمر، أذكره تماماً. قدّمه إليّ المحقق ميناديه. قال اقرأ. قرأت. أذكر منه هذه الكلمات، كأنني أقرأها الآن: أيها الجنود، يا أبناء العمال والفلاحين! إن الثوار الذين يدعوكم الاستعمار إلى قتلهم وخراب بيوتهم، هم عمال وفلاحون مثلكم ومثل آبائكم. فبدلاً من أن تصوِّبوا بنادقكم إلى صدورهم، من الواجب أن تصوبوها إلى صدور الجنرالات والرأسماليين الذين يسفكون دماءكم لأجل مصالحهم» ـ (حديث خاص).

- **تعليق إخباري** لمجلة أرمنية تصدر في باريس: «... في سوريا كما في لبنان، بدأت ملاحقة المسؤولين عن المنظمات السياسية المدافعة عن حقوق الشعوب التي تضطهدها الامبريالية الفرنسية. وأبرز المنظمات التي طالتها الملاحقة، الحزب الشيوعي، وشبيبة سبارتاك الشيوعية. فقد مضت ثلاثة أشهر ولا تزال الامبريالية الفرنسية تجتاح سوريا بأساليبها الحربية وبطائراتها ومدفعيتها وعساكرها الجرّارة التي تحاول خنق الانتفاضة الدرزية. لقد توجّه الحزب الشيوعي السوري ضد هذه السياسة البربرية بالذات، وفتح بوجهها معركة حاسمة. فأصدرت لجنة الحزب المركزية نداء موجهاً إلى جنود «اللواء السوري» الذي يضم في صفوفه أعداداً كبيرة من الأرمن. والنداء **مطبوع على أوراق حمراء، ومكتوب باللغة الفرنسية**، وهو يدعو الجنود إلى التآخي مع الدروز، ويأمل في تجاوز العقبات للوصول إلى تشكيل جبهة ثورية موحدة ضد الامبريالية. وقد وزع البيان في بيروت وجميع المدن اللبنانية والسورية. إن الحزب يقود حالياً نضالاً سرّياً، لكنه نضال ناجح. فالثورة التحررية، ثورة العمال والفلاحين والوطنيين الدروز،

ستنتهي، عاجلاً أم آجلاً، بالنصر الأكيد...» ـ (مجلة «**كوروورتيان هاياستان**»: العدد ٢٢٥، في ١٠ تشرين الثاني ١٩٢٥).

- □ **وهكذا**، فإن «إنشاء اتحاد الشبيبة الشيوعية (في لبنان) قدّم مساعدة نشيطة جداً للحزب الشيوعي في عمله. وخلال الثورة السورية نظم الحزب حملة دعائية قوية بين السكان المدنيين والجنود. وجرى في العديد من المدن إنشاء **جماعات ولجان** لدعم الثورة» ـ (من كتاب أصدرته **الأممية الشيوعية** بعنوان «من المؤتمر الرابع إلى المؤتمر السادس» عام ١٩٢٨، صفحة ٥٢٥).

ولكن، مع الاتساع المتواصل لمدى المعارك، وتصاعد نشاط الثورة، تقابله حشود جديدة، باستمرار، لجنود الاحتلال، والاستعدادات التي يتخذها الجنرال ساراي لتوجيه ضربة ما، كبرى، بهدف سحق الثورة وإغراق البلاد كلها بالدم ـ رأى الحزب أن يقوم بخطوات عملية ترافق ما يقوم به من حملات ونشاطات بين الجماهير والجنود وعلى صعيد إيصال صوت الثورة إلى العالم.

وفي هذه الفترة (تشرين الأول ١٩٢٥) وصل أبو زيام، قائد الحزب الشيوعي الفلسطيني، إلى بيروت بهدف الحصول على أخبار ووثائق عن الأوضاع الحقيقية للثورة، وتزويد دوائر الأممية الشيوعية بها، ومعرفة رأي الحزب الشيوعي في لبنان في الوسائل التي ينبغي اتخاذها عالمياً لدعم الثورة.

وكان الحزب على صلة **بعلي ناصر الدين**، أحد رجال الرعيل الأول العاملين في الحقل الوطني التحرري العربي.



في العدد الخامس، والأخير، من جريدة «الإنسانية» (١٥/ حزيران/ ١٩٢٥) كلمة احتجاجية كتبها يوسف يزبك، جاء فيها: «**علي ناصر الدين**: لا يزال هذا الأديب الحرّ يعاني من مضض الإبعاد ما تأباه النفوس. وإنه لمن المؤلم أن نرى أحرار البلاد يقاسون العذابات في منفاهم بينما الجواسيس يملأون شوارع المدن!. أجل، إنه لمن

العار أن يبقى علي ناصر الدين أسير منفاه، لأنه كان صريحاً في مبدئه السياسي، ومن العار أن نكون في القرن العشرين ويُنفى الوطنيون المخلصون لأنهم يترفّعون عن التملّق والزلفى لرجال الاستعمار... نحن لا نوافق علياً في كثير من آرائه السياسية، ولكننا ندافع عن الحرية الشخصية أياً كان ضحيتها. يقولون: إن علي ناصر الدين لم يطلب العفو (!) من الجنرال «سراي» ولهذا لم يعف عنه!. ونحن نقول بأن ابن ناصر الدين لم يكن يوماً لصّاً ولا جاسوساً ولا رأسمالياً ليطلب العفو، بل إنه كان حراً شريفاً في موقفه، وأعلن مبدأه السياسي رغم كل المظالم التي كانت تعمّ البلاد، فلماذا تريدون أن يطلب العفو؟. وهل كل من يصرّح برأيه السياسي يكون مجرماً بنظركم أيها الجواسيس؟. إننا نطلب الحرية لعلي ناصر الدين، ولا نطلب عفواً، ولا هو يطلب!..».

بعد شهر وعدة أيام (في ٢٣ تموز ١٩٢٥) نقرأ في مجلة «المعرض»، الصفحة ٣، هذا الخبر: «عاد إلى العاصمة من المنفى الرصيفان الأدبيان علي أفندي ناصر الدين وأنيس أفندي صيداوي، فأهلاً بهما».

□ □ □ □

... كان علي ناصر الدين على صلة دائمة بقيادة الثورة السورية في جبل الدروز. وكان يسكن في إحدى قرى جبل لبنان، فقصده فؤاد الشمالي حيث أجرى معه محادثات حول تطوير وسائل دعم الثورة، وتصعيد الحملة العالمية، بواسطة الأحزاب الشيوعية، تأييداً للثورة وكشفاً لجرائم المستعمرين الفرنسيين. وجرى الاتفاق معه على عقد اجتماع آخر لوضع تفاصيل خطة العمل الضرورية.

....

ليل، والمكان هادئ منعزل، خارج بيروت. فندق صغير، يقوم فوق رابية تُشرف على نهر الكلب. يصل أبو زيام، والشمالي، وتيير. ثم يصل علي ناصر الدين. الاجتماع في غرفة صغيرة داخل الفندق. علي ناصر الدين يقدّم تقريراً واسعاً عن أوضاع الثورة

السورية، وحالة الثوار، والاحتياجات الضرورية. فهو يعرف أن الدعم الذي يقدّمه الشيوعيون لن يقتصر على المشاركة المحلية، بل هم سيكونون صوت الثورة إلى الحركات الشيوعية والعمالية في العالم، ورُسُل الثورة إلى موسكو، التي يعرف أنها تقدّم مساعدات متعدّدة إلى ثورة الريفيين في المغرب العربي.

وقد اتفق في هذا الاجتماع على عدد من التدابير، منها:

- «ـ أن يسافر أبو زيام على جناح السرعة إلى باريس لمفاوضة الحزب الشيوعي الإفرنسي، ومن باريس إلى برلين فموسكو ـ إذا اقتضى الأمر، ـ للعمل على دعم الثورة السورية من قبل الكومنترن وفروعه. وإرسال مساعدات للثوار من مال وذخيرة وسلاح. وإذا كان بالإمكان فمن الواجب الإسراع بإرسال رفاق إلى صفوف الثوار يكون لهم خبرة تامة في الشؤون العسكرية وإدارة الشؤون الحربية.

ـ أن يسعى أبو زيام لكي يُصدر الكومنترن أمره إلى جميع فروعه في العالم لتقوم الصحف الشيوعية العالمية بحملات واسعة النطاق استناداً إلى الأخبار والمعلومات والرسوم عن الثورة السورية، التي يرسلها الحزب الشيوعي اللبناني إلى الحزب الشيوعي الإفرنسي (وهذه المعلومات والأخبار والرسوم يحصل عليها علي ناصر الدين من قيادة الثورة ويسلّمها إلى الحزب في بيروت).

ـ أن يجري تهريب السلاح والذخيرة إلى الثوار بواسطة الحزبين الشيوعيين التركي والفلسطيني.

ـ أن يزداد نشاط الحزب الشيوعي اللبناني في توزيع نشراته بين الجنود الإفرنسيين والمتطوّعين لتحريضهم على عصيان قوادهم والتآخي مع الثوار»[(١)].

انتهى الاجتماع في الثانية بعد منتصف الليل. وبدأت مرحلة التنفيذ: في اليوم التالي مباشرة، سافر أبو زيام إلى باريس، بقطار الشرق السريع، للعمل على تنفيذ ما اتّفق عليه.

---

(١) فؤاد الشمالي: «أساس الحركات الشيوعية...» ـ صفحة ٣٣ و٣٤.

لم يعد دور الحزب مقتصراً على التحريض لصالح الثورة ـ وهو جانب أساسي في العملية الثورية ـ بل هو استكمل دوره بتدابير عملية لدعم الثورة في الميادين الأخرى. وفي لبنان واصل نشاطه التحريضي، في إطار هذا الاتفاق نفسه:

□ في العاشر من الشهر نفسه (تشرين الأول ١٩٢٥) نشرت جريدة «زحلة الفتاة» هذا الخبر: «لُصقت على بعض الجدران في زحلة مناشير طُبعت على الجيلاتين بالإفرنسية، بإمضاء «لجنة الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان» وهي تدافع عن الثورة الدرزية وتدعو الجنود للانتفاض على قوادهم» (هذا المنشور وُزِّع في بيروت، وبين الجنود، ووصل إلى مناطق من سوريا)... وتُعلّق الجريدة على المناشير فتقول إن «فيها سخافات حَرِية بالضحك والاستهزاء»...

بدأت الحرب الإعلامية ضد الحزب!. فإن شكري البخاش، صاحب «زحلة الفتاة»، ميزان دقيق. وقد مرَّ معنا أنه لدى احتدام المعركة فالبخاش يميل، عادة، إلى سلطات الانتداب. وها هو، استناداً إلى هذه المناشير، وإلى ما يأتيه من معلومات، وإلى «حسّه الصحفي» ـ أو الطبقي ـ يكتب افتتاحية واضحة في موقفها، بعنوان: «إلى أين المصير؟ كلمة إلى عقلاء البلاد» (الأربعاء ٢١ تشرين الأول ١٩٢٥) جاء فيها: «... إن الأزمة قد بلغت حدّها الأخير، والسماء والأرض تعذران السلطة (الفرنسية طبعاً) التي ترى نفسها مضطرة لمقاومة السلاح بالسلاح دفاعاً عن نفسها، وعن البلاد، التي جُعلت في عهدتها. فلينهض العقلاء إلى معاونتها على معالجة الحال. إن للعقلاء سيطرة على الجهّال الذين دبّت فيهم **روح الشيوعية والفدائية**، واستيقظت في صدورهم نزعات التعصب...».

ويبدو أن «روح الشيوعية والفدائية» أخذت تُزعج عقلاء البلاد جداً. والهجوم الإعلامي، والقمعي، ضد الثوار وأنصار الثورة، يصبح متشعّباً ومتعدّد الأشكال، كما سوف نرى. وقد سبق للبخاش أن عبَّر عن هواجس هؤلاء العقلاء ورغباتهم الرهيبة، في افتتاحية غريبة في صراحتها، عنوانها «الدم والنار» ظهرت في العاشر من الشهر نفسه (تشرين الأول) وجاء فيها هذا الكلام الفظيع: «... تقول جريدة «وقت» التركية إن أحسن طريقة لتهدئة الحال (في سوريا ولبنان) هي أن تستعمل فرنسا المشانق كما استعملها الأتراك لتأديب الثوار الأكراد... نعم!. إن كثيرين من العقلاء يرون الآن أنه لم يبق من سبيل لتهدئة الحال إلاَّ إذا عاد ساراي (المفوض السامي) بالبلاد إلى عهد جمال باشا، **وإننا اليوم بحاجة إلى «جمال» فتّاك وعادل!»!!**

ويبدو أن سلطات الانتداب، والأعداء الطبقيين، أحسّوا بخطر منظمة الحزب وخطورتها في زحلة والبقاع، خصوصاً وأن رياق كانت منطقة عسكرية لجنود الاحتلال، وكانت مناشير الحزب التحريضية تصل إلى هناك ـ فأرادوا تشويه الحزب، وتشويه أساليبه الكفاحية، وبالتالي إيجاد تبريرٍ ما لكشف المنظمة وضربها.

نقدم لكم، هذه الطريقة «الجيمسبوندية»، الطريفة والخبيثة، للإيقاع بالحزب وتشويه أسلوبه الكفاحي:

الفصل الأول: جريدة «زحلة الفتاة» (العدد ٨٢)، يوم ٢١ تشرين أول ١٩٢٥، تنشر ما يلي:

الجنون فنون!

«تلقى حضرة محافظ زحلة مع البريد رسالة هذا نصها:

أيها المحافظ!

إخرج الموظفين الأجانب من السراي ولا فبقتلك، وبقتلهم!

الامضاء: رئيس الحزب العربي البولشفيكي بزحلة»

تعليق الجريدة: «... ولقد أسفر التحقيق عن اتهام شابين سخيفين بكتابة هذه الرسالة السخيفة، وهما توفيق الكرك ورفيق له أرمني من الصعاليك الذين لا يقتلون بعوضة. فأودعا السجن لإكمال التحقيق!» ـ (صفحة ٢).

الفصل الثاني: في العدد التالي (٨٣) من الجريدة نفسها (السبت ٢٤ تشرين أول ١٩٢٥). خبر جديد عن رسالة جديدة:

الجنون فنون!

«تلقينا مع البريد الرسالة التالية ننشرها للتفكهة: إن مستنطق البقاع أعطى قراره الضال عن كتابنا الذي أرسلناه للمحافظ، فنشرتموه على صفحات جريدتكم متهكّمين على الأبرياء الذين اتهمهم المستنطق الفهيم... ولما كان حزبنا البولشفيكي العربي يعطف على هؤلاء الصعاليك، أقول: إن المتهمين هم أبرياء، وسوف يرى منا المحافظ والمستنطق ما يسرّهم.

الامضاء: رئيس الحزب العربي

البولشفيكي بزحلة»

تعليق الجريدة: «... وفي ذيل الإمضاء رسم منجل يظهر أنه شعار هذا الحزب الذي لا وجود له إلا في مخيلة الجبناء!» ـ (صفحة ٣).

الفصل الثالث: يبدو أن منظمة الحزب الشيوعي اللبناني في البقاع رأت أن وراء هذه الرسائل مؤامرةً ما تستهدف النيل من الحزب وصولاً إلى ضربه وشلّ نشاطه، فكتبت بياناً في شأنها، أُلصق على جدران زحلة، وأُرسل بالبريد إلى «زحلة الفتاة» فنشرته في عددها التالي (٨٤) الصادر يوم الأربعاء ٢٨ تشرين الأول ١٩٢٥:

بيان

«تلقينا مع البريد البيان التالي ننشره بعد أن سلّمناه لحضرة مستنطق زحلة وهو:

«نشرت الصحف صورة خطاب تهديدي أُرسل إلى محافظ البقاع بتوقيع «رئيس الحزب البولشفيكي العربي» ـ فنحن نعلن: أن الحزب الذي يعمل في هذه البلاد لتحرير الطبقة العاملة يدعى الحزب الشيوعي. وهو من حزب «الانترناسيونال الثالث». وأننا ضد التعصب الجنسي (يعنون: القومي) كما أننا نعلن أننا نحارب الاستعمار

والمستعمرين من أي جنسية كانوا. لذلك نعلن أننا أبرياء من كل ما جاء في الكتاب المشار إليه، وشعارنا دائماً هو: «يا عمال وفلاحي العالم اتحدوا!».

الإمضاء: اللجنة الفرعية للحزب

الشيوعي في البقاع».

تعليق الجريدة: «... وقد عرفنا أن نسخاً من هذا البيان قد ألصقت على بعض الجدران. فعسى أن تكتشف الحكومة سرّ هذه النشرات التي كنّا ولا نزال نعتقد أنها فعلة أحد المفاقيع» ـ (صفحة ٣).

فصل.. له ما بعده: في العدد التالي (٨٥) من الجريدة نفسها، الصادر يوم السبت ٣١ تشرين الأول ١٩٢٥، هذا الخبر:

التحقيق عن الصعاليك

«أخلي سبيل المواطن توفيق الكرك والشاب الأرمني اللذين كانت الحكومة قد أوقفتهما بتهمة إرسالهما كتاب تهديد لحضرة محافظ زحلة. ولقد ثبت لدائرة الاستنطاق بعد التحرّي الدقيق أنهما بريئان من هذه الوصمة، فقضت بمنع محاكمتهما. على أن حضرة المستنطق لا يزال مهتماً جد الاهتمام في اكتشاف سرّ هذه الإذاعات الشيوعية، وهو موفّق إن شاء الله» ـ (صفحة ٣).

هذا جانب طريف مما بدأوا يحوكونه حول الحزب ومنظّماته. على أن منظمة الحزب في البقاع نفَّست لهم هذه الطريقة «الجيمسبوندية». واستمرت بنشاطها رغم اهتمام المستنطق «جد الاهتمام في اكتشاف سرّ هذه الاذاعات الشيوعية»... على أن هذا الفصل، كما قلنا، له ما بعده، له جانبه الجدّي، الذي ظهر، على مستوى الدولة هذه المرة، في اليوم التالي بالضبط لمسرحية الرسائل هذه و«التحقيق مع الصعاليك»!!

فإن المناشير الشيوعية التي تُلصق على جدران المدن، وتدخل حتى إلى المعسكرات ودوائر الدولة، أرعبت سلطات الانتداب، وأقلقتها، مما يدلّ على مدى تأثيرها التحريضي

القوي، وعلى أن السلطات تواجه داخل المعسكرات متاعب جدّية ـ فأصدر الجنرال ساراي (المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في دول: لبنان، وسورية، وجبل الدروز، والعلويين...) قراراً بتاريخ ١ تشرين الثاني ١٩٢٥، من مواده مادتين موجّهتين، مباشرة، نحو هؤلاء «الصعاليك» الذين يُصدرون مناشير تحرّض الجنود على الثورة والتمرد، ويوزعونها، مثل شياطين الجان، في كل مكان، دون أن يراهم أحد!.. وقد جاء في هاتين المادتين ما يلي:

«**المادة الثالثة:** كل من حرّض جنود وبحّارة الأمة المنتدبة الموجودين في الخدمة العسكرية، ومأموري القوة العمومية، على التمرّد وعلى الثورة، يعاقَب بالأشغال الشاقة مؤبداً إذا نجم عن ذلك التحريض نتيجة مع حدوث قتل أشخاص أو بخمس إلى ٢٠ سنة بالأشغال الشاقة إذا نجم عن التحريض نتيجة إنما بدون قتل أشخاص أو بالسجن من سنة إلى خمس سنوات في بقية الأحوال.

المادة الرابعة: كل من يحرّض هؤلاء الجنود والبحارة ومأموري القوة العمومية على العصيان والاخلال بالنظام بإحدى الوسائط في المادة الأولى، يعاقب بالسجن من سنة إلى خمس سنوات. لا يجوز أن تكون العقوبة دون الثلاث سنوات إذا نجم نتيجة عن التحريض.

الإمضاء: ساراي»[(١)]

... هذه قرارات تمهيدية...

فقد قرر الجنرال ساراي أن يقمع الثورة، ويقمع أنصارها، مهما سفكت يداه «العلمانيتان» من دماء، ومهما أملت عليه «ليبراليته» من سحق للديموقراطية البورجوازية نفسها.

وبدأ مرحلته الجديدة هذه بقصف دمشق.

الجنرال ينتقم لهزائم الجيش الفرنسي في جبل الدروز. في حمص. في حلب. ووصل اللهيب إلى بعلبك في لبنان، حيث أخذ رجال الثورة وأنصارهم يشنّون الغارات الخاطفة، المدمرة، على الجيش الفرنسي.

---

(١) نقلاً عن «زحلة الفتاة» ـ الأربعاء ٢٥ تشرين الثاني ١٩٢٥ ـ صفحة ٢.

إذن، خذوا!

«... وبدون أي إنذار أو إعلان سابق بدأ الفرنسيون قصفاً وحشياً لدمشق دام خمس ساعات[1] زرعوا الدمار والموت في دمشق حتى تحولت إلى بحر من نار. أحياء بكاملها هُدمت. ألوف الناس تحت الأنقاض، وعشرات الألوف تشرّدوا، بدون مأوى... وفوق الأنقاض كان يرفرف العلم الفرنسي! وقد أعلن بيان القيادة العليا الفرنسية، مساء ٢١ تشرين الأول، وباختصار كبير: (لقد قُمعت ثورة دمشق. خسائرنا لا تستحق الذكر. الهدوء يسود سوريا)... ولكن الجملة الأخيرة في البيان لا تتفق مطلقاً مع الواقع. وعلى العكس فإن تهديم دمشق بالمدفعية والطائرات أثار في كل الشرق حركة احتجاج كبيرة»... وهنا، تتوجه مجلة الأممية الشيوعية بهذا الخطاب إلى البروليتاريا الفرنسية:

> «والآن، ماذا سيكون موقف البروليتاريا الفرنسية إزاء هذا الوضع؟ هل ستبقى مكتوفة الأيدي أمام المجازر في سوريا، والتي كلفت فرنسا غالياً؟ الآن وقد انتقلت الجبهة العسكرية الفرنسية من مراكش إلى دمشق، فإن على البروليتاريا الفرنسية أن تبذل كل طاقاتها للمطالبة بإجلاء القوات الفرنسية عن سوريا».

الأممية الشيوعية تضع وزنها التحريضي الواسع، إلى جانب الثورة السورية. الحزب الشيوعي الفرنسي يقود حملة عنيفة ضد الحكام الفرنسيين، ويكشف جرائم الجنرالات الفرنسيين في سوريا، ويمزّق القناع «العلماني ـ الاشتراكي» عن وجه المفوض السامي الفرنسي في لبنان وسوريا الجنرال الماسوني ساراي. وعندما يسحب الحكام الفرنسيون الجنرال ساراي من لبنان، ويعيّنوا مكانه دو جوفنيل مفوضاً سامياً، يكشف الحزب حقيقة سياسة دو جوفنيل التي هي متابعة سياسة ساراي، بأسلوب آخر، مدني، ولكنه ينفّذ سياسة الأمبرياليين الفرنسيين أساساً. فالمجرم الأساسي هو: الاستعمار

---

(١) هذا العرض مأخوذ عن مجلة الأممية الشيوعية «المراسلات الأممية»، من مقال بعنوان «المرحلة الثانية من الانتفاضة» ـ العدد ١١٢، سنة ١٩٢٥.

الفرنسي. ويقوم الحزب بالتحريض، في الشارع، في البرلمان، وداخل القوات المسلحة الفرنسية، ضد جرائم الحكم الفرنسي في سوريا، ويطرح شعار، **الاستقلال لسوريا ولبنان، والجلاء الفرنسي عنهما.** قالوا عنه: إنه حزب غير وطني!. وإن تحريض الجنود الفرنسيين على التمرّد في سوريا هو خيانة!.. وإن الحزب بهذا لا يخدم مصالح فرنسا، بل مصالح... موسكو!. ويواصل الحزب الشيوعي الفرنسي حملته. وها هو المتحدث باسمه في مجلس النواب، (اعتماداً على معلومات مصدرها الأساسي الحزب الشيوعي اللبناني، في إطار الاتفاق مع ممثل الثورة السورية) يلقي خطاباً طويلاً في البرلمان الفرنسي عن الوضع في سوريا ولبنان، وعن الثورة السورية، أسبابها وأهدافها، وعن جرائم العسكريين الفرنسيين، وعن واقع أن الحرب واحتلال سوريا ولبنان هي لمصلحة الرأسماليين الفرنسيين، وليست أبداً لمصلحة الشعب الفرنسي، ولا لمصلحة الجنود الفرنسيين، ثم يخاطب الحكام الفرنسيين:

> «يجب أن ترحلوا عن سوريا فوراً. فليس لديكم أي سبب حقيقي إلاّ الدفاع عن المصالح الاستعمارية. إن الجلاء عن سوريا لا يمكن إلا أن يكون خدمة للشعبين السوري والفرنسي. وسأعدّد نتيجتين فقط تهمان الشعب الفرنسي: الحياة الهادئة لشبابنا العسكريين، وتحرر الاقتصاد الوطني لفرنسا. وإذا لم تغادروا سوريا وتمزقوا جميع الصكوك والمعاهدات المتعلّقة بالانتداب، وإذا أصررتم على متابعة استثمار الشعب السوري. فستبقى الحرب مشتعلة وبدون انقطاع... ولكن السلام مُستطاع فوراً. وبمتناولكم تحقيقه. فما عليكم إلا الاعتراف باستقلال سوريا. إن سكان تلك المنطقة يطالبون بالاستقلال، وهم على استعداد لتحمّل النتائج، أي الانسحاب العسكري فوراً. إننا، من على هذا المنبر، نتبنّى مطلبهم هذا بانسحاب الجنود الفرنسيين من سوريا فوراً.. فتحتَ حرب البنادق لا يقوم أي استقلال من أي نوع كان»[1].

---

(١) دريو: «سوريا للسوريين» خطاب ألقاه في البرلمان الفرنسي، باسم الحزب الشيوعي الفرنسي، في ٢٠ كانون الأول ١٩٢٥.

الأممية البروليتارية في التطبيق. وكما ساعد الحزب الشيوعي الفرنسي ثوار الريف في المغرب العربي ضد المستعمرين الفرنسيين، فهو يساعد ثوار سوريا ضد المستعمر نفسه، ضد حكام بلاده.

«في مسألة المستعمرات ومسألة القوميات المظلومة ـ يقول البند الثامن من شروط الانتساب إلى الأممية الشيوعية ـ ينبغي لأحزاب البلدان التي تملك بورجوازيتها مستعمرات وتظلم قوميات أخرى، اتخاذ نهج دقيق وواضح بخاصة. فكل حزب يرغب في الانتساب إلى الأممية الثالثة، مُلزم بأن يفضح بلا رحمة ولا هوادة، أحابيل «امبرياليية» في المستعمرات، وأن يطالب بطرد امبرياليي بلده من هذه المستعمرات، وأن يربّي في قلوب عمال بلده موقفاً أخوياً حقاً من السكان الكادحين في المستعمرات، ومن القوميات المضطهدة المظلومة، وأن يقوم بالتحريض الدائب المنتظم في صفوف قوات بلده المسلحة ضد كل اضطهاد للشعوب المستعمرة»[1].

ونستطيع القول إن هذا الموقف الأممي للحزب الشيوعي الفرنسي، لم يبق في الإطار التحريضي الإعلامي، بل كان له فعله في صفوف الجيش الفرنسي نفسه المحتلّ في سوريا، حيث كان الجنود الشيوعيون يحرّضون على التمرّد ويحوّلون النقمة في اتجاه الجنرالات الفرنسيين. ولقي هذا الموقف تقديراً من الوطنيين عندنا.

توفيق يوسف عواد، الروائي اللبناني الكبير، يعلن: «... لن ينسى تاريخنا أن الحزب الشيوعي الفرنسي هو أول من طالب معنا بردّ حقوقنا إلينا، ورفْعِ نير الاستعمار عن أعناقنا. لن ننسى ولن ينسى

---

(١) صاغ لينين شروط انتساب الاحزاب إلى الأممية الشيوعية في حزيران وصدرت في تموز عام ١٩٢٠.

تاريخنا ما صنعه الحزب الشيوعي الفرنسي دفاعاً عنا في المناهج والخطب والبيانات، في البرلمان والصحف والساحات، بعيداً عن الحكم وفي كراسي الحكم. لن ننسى ولن ينسى تاريخنا المواقف المجيدة التي وقفها الحزب من أجلنا ـ وما يزال ـ في وجه حكومات وطنه المتتابعة، حيث في أشد أيامنا حراجة، وأكثر محننا مرارة، حين نشبت ثورة ١٩٢٥ وتجابَه أبناؤنا وأبناء فرنسا في ميادين القتال وراء صخور الجبل وغوطة دمشق، وسمّم الدم المسفوك الصداقات كلها، وزعزعت السيوف والمدافع المتشابكة أصحاب العقائد والمبادئ. أجل لن ننسى ولن ينسى تاريخنا أن الحزب الشيوعي الفرنسي على قلّة عدده في ذلك الوقت، صمد للعاصفة، لم يتهوّر، ووقف أمام التيار لم يتأثر، أستغفر الله، بل فعل أكثر وأكبر: ونصرنا على أبناء قومه مظلومين، وأنكرهم فينا ظالمين!»[١].

....

ويثير دعم الحركة الشيوعية العالمية، وقوتها الأساسية الاتحاد السوفياتي، جنون المستعمرين الفرنسيين وأنصار الانتداب، والخائفين من تطور الثورة. ويشعرون أن الأمر يتعدّى الدعم السياسي والإعلامي والتحريضي، ويصل إلى مستوى الدعم العملي، كما هو الأمر مع ثورة الريف. فقد سبق أن نقلت جريدة «زحلة الفتاة» (الثلاثاء ٩ حزيران ١٩٢٥) مقالاً عن جريدة «ألإيكو دو باري» جاء فيه: «إنه بلغ من اهتمام السوفيات بشؤون ثورة الريف أنهم أنشأوا في الآستانة هيئة جديدة لمقاومة رأس المال في أفريقيا الشمالية سُمّيت «اتحاد الشعوب المظلومة» وهي تُعنى الآن **بتدبير المال والسلاح والخبراء العسكريين للريفيين،** وبين أعضائها تونسيّان وريفي وهناك روسيّان يؤلّفان صلة الاتصال بين الهيئة المذكورة والانترناسيونال في موسكو. ولا يخفى أن هذه الأمور قد ساعدت عبد الكريم (قائد ثورة الريف) مساعدة عظيمة على

(١) توفيق يوسف عواد: من خطاب بعنوان «تحية الفكر الصالح للعمل الصالح» ألقي في حفلة استقبال النائبين الشيوعيين الفرنسيين جاك غريزا وفرجيل باريل لدى زيارتهما بيروت في شهر أيار ١٩٣٨ ـ والخطاب منشور ضمن كراس بعنوان: «رسولا الديموقراطية الفرنسية في سوريا ولبنان»، منشورات مكتب المطبوعات الشعبية، دمشق ـ بيروت ١٩٣٨ ـ ص ١٠ و١١.

نشر دعوته وايقاد نار الفتنة بين قبائل بلاده».

وهذا ما يخيف المستعمرين الفرنسيين في سوريا. فهم يعرفون أن الدعم السوفياتي السياسي لثورة ما، لا بد أن يرافقه دعم بوسائل أخرى، خصوصاً عندما تكون العلاقات بين الاتحاد السوفياتي وتركيا، جارة سوريا، علاقات جيدة في تلك الفترة وأقرب أن تكون علاقات تحالف ضد أطماع انكلترا وفرنسا المعادية للاتحاد السوفياتي ولتركيا على السواء.

ويبدو أن هذا التخوّف، عند الفرنسيين وأنصارهم، كان له ما يبرره. ولا بأس من التذكير بأن الاتفاق الذي تمّ بين الحزب الشيوعي اللبناني وعلي ناصر الدين المرتبط بقيادة الثورة السورية، بشأن «العمل على إرسال المساعدات إلى الثوار من مال وذخيرة وسلاح وخبراء في الشؤون العسكرية... وتدبير أمر تهريب السلاح إلى الثوار بواسطة الحزبين الشيوعيين التركي والفلسطيني» ـ إن هذا الاتفاق عُقد في إطار هذا الوضع السياسي كله، وفي إطار الدعم غير المحدود الذي تقدمه الأممية الشيوعية للثورة السورية كثورة وطنية تحررية معادية للاستعمار.

شكري البخاش، صاحب جريدة «زحلة الفتاة»، يعبِّر تماماً عن «شرعية» هذا التخوّف عندما ينشر في جريدته (يوم السبت ٢٣ كانون الثاني ١٩٢٦) افتتاحية بهذا العنوان الواضح: «الشرق والغرب ـ أصابع موسكو في الثورة السورية»، فهو يشير إلى مقال نشرته جريدة «بتي باريزيان» جاء فيه أن أنقرة وموسكو تعملان على إيقاد نار الفتنة في سوريا، ويقول البخاش إن قنصل تركيا كذّب هذا القول.

> «على أننا ـ يتابع البخاش افتتاحيته ـ إذا أنكرنا علاقة تركيا بالثورة في سوريا فلا يسعنا إلا الاعتقاد بأن اليد الشيوعية في موسكو قد مدّت أصابعها إلى سوريا بعد أن وجدت في أراضيها قابلية لنمو البذور التي تتعهّدها في الشرق والغرب... ومن الأمور المقررة أن الدولية الثالثة في موسكو قد أنشأت فرعاً خاصاً للشرق.. لإثارة الأفكار وتشجيع كل حركة ترمي لإزعاج الغربيين وتحرير الشرقيين من سيطرتهم... وقد كادت تُجمع الصحف الأوروبية على أن لموسكو أصابع ممتدة إلى حرب مراكش وسوريا، بعد أن ثبت ثبوت اليقين أن موسكو تشجّع كل فوضى (!!) وتدعو إلى التخريب (!!) في الشرق بأجمعه».

فإذا كان هذا المقال يعبِّر من ناحية عن تخوّف الفرنسيين، ويهدف، من ناحية ثانية إلى التخويف من الثورة والتحريض عليها والإيهام بأنها من صنع «أصابع موسكو»، كما اعتاد المعادون لحركات التحرر الوطني أن يقولوا باستمرار ـ فإن المقال، على كل حال، ينطلق من واقع: أن الاتحاد السوفياتي وسائر فصائل الحركة الشيوعية العالمية أعلنت عبر جميع أجهزتها الإعلامية دعمها الكامل للثورة السورية ولأهدافها في التحرر، والاستقلال، وطرد المحتلين الأجانب.

....

إذن، في حين كانت حركة دعم الثورة السورية تأخذ مجراها على صعيد الحركة الشيوعية العالمية، كان الحزب الشيوعي في لبنان مستمراً في تنويع أشكال دعمه للثورة، كمهمة أساسية من الدرجة الأولى، إلى جانب أشكال نشاطاته الأخرى.

في مقال نشرته مجلة الأممية الشيوعية («المراسلات الأممية» ـ العدد ١٠٠، في ٨ أيلول ١٩٢٦) ذكرت أن الحزب الشيوعي في لبنان «أحرز نجاحات رائعة في تحقيق التآخي بين سكان المدن الوادعين وسكان الريف الثائرين، وذلك في محاولة الحزب إزالة المنازعات الدينية. وقد أخذ المسلمون والدروز والموارنة يعتبرون الحزب الشيوعي طليعة في العمل المشترك ضد الامبريالية».

وبالفعل، فإن المستعمرين الفرنسيين كانوا يثيرون كوامن النزاعات الطائفية لدى الأهالي، ويثيرون المخاوف لدى مسيحيي لبنان من انتصار الثورة السورية و «طغيان العنصر الاسلامي».. ليس فقط بهدف إبقاء فرنسا «حامية المسيحيين» في لبنان، بل خصوصاً بهدف استخدام المخدوعين بفرنسا من الأهالي ضد الثورة السورية وأنصارها ـ فكان الحزب الشيوعي يبذل كل جهوده في المناطق المسيحية، لتبديد هذه الأوهام، ولإشراك الأهالي، من مختلف الطوائف، بأعمال مطلبية مشتركة، ولتنظيم حملة ضد أي رغبة للتطوع في الجيش الفرنسي المحارب. وكان يسعى أيضاً إلى إيجاد صيغ العمل المشترك على مستوى الشخصيات اللبنانية المعروفة وذات النفوذ سواء بين المسيحيين أم المسلمين.

في هذا الإطار، تمّ هذا الحدث المهم:

يوم الأربعاء ١٨ تشرين الثاني ١٩٢٥. مقهى قرب نهر الكلب. اجتمع المحامي **يوسف السودا**، أحد الشخصيات المعروفة وذات النفوذ الفكري في الأوساط المسيحية، مع علي ناصر الدين، أحد العاملين في الحركة التحررية العربية ومع الثورة السورية، بواسطة الحزب الشيوعي اللبناني، وقد حضر الاجتماع واحد من قادته. نوقشت في الاجتماع أسباب الثورة السورية وأهدافها، وأوضاع لبنان الخاصة، وضرورة العمل المشترك لإزالة مختلف المخاوف الطائفية. وتمّ الاتفاق على البندين التاليين:

١ ـ أن يحترم القوميون العرب استقلال لبنان.

٢ ـ يتبنّى اللبنانيون موقفاً سياسياً معادياً للإمبريالية ومع حركة التحرر العربية[١].

كان هذا قبل خمسين عاماً من أيامنا هذه (في العام ١٩٧٤). ولا يزال لهذين البندين اهميتهما الحالية، وضرورتهما أيضاً.

....

في ذلك الشهر (تشرين الثاني ١٩٢٥(كانت فرنسا قد عيّنت مفوضاً سامياً جديداً، مدنياً، بدلاً من الجنرال ساراي، هو هنري دوجوفنيل، في محاولة للإيهام بأن هذا الدبلوماسي المدني يحمل السلام معه إلى سوريا بعكس جميع المفوضين الساميين الفرنسيين السابقين الذين كانوا كلهم جنرالات... وبالفعل أخذ دو جوفنيل يُفرط في إعطاء التصريحات والوعود السلمية قبل وصوله لتسلّم منصبه... ولكنه فور وصوله، ألقى خطاباً أمام الجنود الفرنسيين بمناسبة تقليد الجنرال غاملان صليب الحرب، عبَّر فيه، بوضوح رهيب، عن مفهومه للسلام، فقال: «... كنا نفضّل السلام على الانتصار العسكري... غير أننا مُرغمون على انتزاع الانتصار العسكري بالهجوم، والنهب، والتقتيل... لهذا، فانا أشدد على متابعتكم هذه الأساليب إلى اليوم الذي نؤمّن فيه سلامة الأشخاص والممتلكات»[٢].

---

(١) استندنا في هذا إلى الملاحظات المخطوطة لأرتين مادويان الذي شارك في التحضير لهذا الاجتماع.

(٢) نقلاً عن خطاب النائب الشيوعي الفرنسي دريو ـ قبل ما قيل عن انقلابه على الحزب ومبادئه وسيره في ركاب الهتلريين ـ الذي ألقاه في مجلس النواب الفرنسي في ٢٠ كانون الأول ١٩٢٥، ثم صدر فيما بعد بشكل كراس بعنوان: «سوريا للسوريين».

وكان دو جوفنيل، قبل وصوله إلى لبنان، قد ذهب إلى لندن، حيث أجرى مساومة استعمارية مع رئيس الوزراء الانكليزي تشمبرلين لضمان سحق الثورة السورية، فإن تطور الثورة وتصاعدها لم يعد في صالح انكلترا أيضاً بقدر ما هو ليس في صالح فرنسا... لهذا: بدلاً «من عرقلة تحركاتنا في سوريا»، اتركونا نقمع الثورة، ونحن نُطلق يدكم في الموصل كما تريدون ونساعدكم على منع تركيا أن تمدّ يدها إلى أهدافكم النفطية في العراق. «أطلقوا أيدينا في سوريا، نُطلق أيديكم في الموصل». وتفاهمَ الطرفان الاستعماريان... وجاء دو جوفنيل لتسلّم مركزه في بيروت حاملاً تفاصيل المؤامرة: كلام حول السلام تمهيداً لسحق الثورة بالحديد والنار، وبمساعدة الانكليز، الذين تظاهروا، في البداية، أنهم مع الثورة، والهدف كان: المساومة مع فرنسا!.

وفي سبيل سحق الثورة، لا بد أيضاً من سحق الحركة الوطنية بتوجيه الضربات الأولى باتجاه أنصار الثورة.

هكذا كان الوضع عندما عُقد الكونفرانس الأول للحزب الشيوعي في لبنان.

كان هذا في ٩ كانون الأول ١٩٢٥. حضر المؤتمر حوالى ١٥ مندوباً عن منظمات الحزب في: بيروت، بكفيا، زحلة، حلب. انعقد الكونفرانس، طبعاً، في ظروف سرية صارمة. وفي جوّ من المطاردات والتفتيش عن هذا المركز الخفي الذي تصدر عنه تلك المناشير المقلقة، والتي تُلصَق على الجدران في مختلف الليالي سواء كان فيها ـ أو ليس فيها ـ ضوء قمر!... ويختفي اللاصقون مثل شياطين «ألف ليلة وليلة»...

جدول أعمال الكونفرانس هو النقاط الثلاث التالية:

١ ـ تقرير اللجنة المركزية حول نشاط الحزب وسياسته (وهو يتضمّن: الثورة السورية ـ التنظيم الداخلي للحزب ـ الحركة النقابية في لبنان ـ الحركة السياسية في البلاد وموقف الحزب منها).

٢ ـ قراءة رسالة من الأممية الشيوعية تؤيد فيها سياسة الحزب وتدعم نضاله.

٣ ـ انتخاب اللجنة المركزية.

بعد المناقشة، اتخذ الكونفرانس القرارات التالية:

١ ـ الموافقة على خطّ الحزب في دعم الثورة السورية.

٢ ـ تشديد النضال ضد الامبريالية.

٣ ـ تشديد النضال من أجل الاستقلال الوطني والحريات الديموقراطية.

٤ ـ النضال في سبيل المطالب العمالية في لبنان وسوريا.

٥ ـ الدعوة إلى مصادرة أراضي الإقطاعيين باستثناء أولئك الذين يؤيدون الثورة.

٦ ـ إعادة انتخاب اللجنة المركزية نفسها (فؤاد الشمالي. فريد طعمة. أرتين مادويان، هيكازون بوياجيان. تيبر).

هذه أول مرة يتخذ فيها الحزب قرارات شبه برنامجية، تشمل أهم القضايا السياسية التي تجابه البلاد. وقد جاءت هذه القرارات بمثابة تسجيل وتعميق للشعارات التي سبق أن صاغها الحزب خلال الممارسة نفسها، خلال المعارك التي وجد نفسه يجابهها ويخوضها بعد عام واحد من ولادته. وقد قرأنا هذه الشعارات في مناشير الحزب، في جريدته «الإنسانية»، في كتابات قادته، وفي ممارساته اليومية.

على أن وثائق هذا الكونفرانس (نص تقرير اللجنة المركزية ـ نص رسالة الأممية الشيوعية ـ النصوص الكاملة للقرارات، الخ)... مفقودة كلها!. لقد اعتمدنا في إيراد عناوين مواد الكونفرانس على ملاحظات أرتين مادويان المخطوطة وعلى ما ورد في كتاب فؤاد الشمالي «أساس الحركات الشيوعية...».

ـ فأين فُقدت هذه الوثائق، وكيف؟

قد تكون الآن في الأرشيف القديم لدوائر الأمن العام الفرنسي في لبنان، إذا لم يكونوا أحرقوها!!..

ـ فكيف حصلوا عليها؟

....

الثلاثاء ٢٦ كانون الثاني ١٩٢٦.

لَيْل ـ الترامواي يهدر باتجاه محلة الناصرة. يتوقف على المحطة. شاب ينزل من

الترامواي. يتجه نحو شارع متفرّع عن طريق الشام. ويتوجّه نحو بيتٍ بجانب كنيسة الكلدان. الأضواء خفيفة. لا أحد في الطريق. الشاب يقترب من الباب. فجأة: أربعة أشخاص يبرزون. واحد منهم يصرخ:

ـ يزبك!.. وقّف عندك!.

ينحرف عن باب البيت. يقف. مسدسات. رجال بوليس وأمن عام، وكومسيير الأمن العام درويش الدحداح.

ـ إمشِ معنا!

مشى معهم. إلى دائرة البوليس.

يوسف يزبك، العائد حديثاً من باريس، انشغل باله: هل اعتقلوا الآخرين؟ أم أنه وحده المقصود، بسبب حملات «الإنسانية» والحملات في سبيلها؟ أم أن الأمن العام عرف بما جرى خلال اجتماع عُقد قبل أيام في الحدث؟

(عندما عاد يزبك من باريس، اتصل رأساً بأرتين مادويان. كان يحمل رسالة من شكيب أرسلان ورسالة من مارسيل كاشان (رئيس الحزب الشيوعي الفرنسي) إلى سلطان الأطرش حول تدابير دعم الثورة. تقرّر عقد اجتماع في الحدث عند يزبك. كان هناك مادويان، وعلي ناصر الدين، وآخرون، وواحد أرمني يُدعى بتريك. من أين هذا الـ «بتريك»؟.. (جاء بتريك إلى الحزب على أساس أنه عضو في الحزب الشيوعي الفرنسي ومعه بطاقة تؤكّد هذا!) أخذ علي ناصر الدين الرسائل ليرسلها إلى سلطان الأطرش بواسطة المير مصطفى أرسلان. حدّثهم يزبك عن فائدة الوثائق والمعلومات التي كان يرسلها الحزب الشيوعي اللبناني إلى الحزب الشيوعي الفرنسي عن الثورة السورية، والتي كان يؤمِّنها علي ناصر الدين بشكل أساسي، واتفقوا على مواصلة إرسال المعلومات وتنويعها للاستمرار في تشديد وتوسيع الحملة العالمية لدعم الثورة... «في هذا الاجتماع تداولنا في أمر خطة لإلقاء قنابل على تجمُّعات الجيش الفرنسي في السراي حيث كانت تُحشد وتُرسل من هناك إلى سوريا. قد تكون الأضرار التي ستلحق بالجيش محدودة... ولكن الهدف الأساسي هو: إحداث دويّ عالمي انطلاقاً من أن اللبنانيين يقاومون الفرنسيين في قلب بيروت» ـ (حديث خاص مع يزبك وأرتين

مادويان). ـ وجرى الاتفاق على متابعة البحث ووضع الخطة التفصيلية في اجتماع لاحق يُعقد في بيت علي ناصر الدين ـ فهل وصل خبر هذا الاجتماع اللاحق إلى الأمن العام؟... وهل اعتقلوا الآخرين؟).

ولم تطل فترة انشغال بال يزبك كثيراً.

في الصباح نقلوه من دائرة البوليس إلى دائرة الأمن العام... هناك التقى بالآخرين: علي ناصر الدين، وأرتين مادويان، وهيكازون بوياجيان. قبضوا عليهم في بيت علي ناصر الدين قبل وصول يزبك بقليل. وكان «بتريك» في الاجتماع!.. أين هذا الـ «بتريك»؟.. هل اعتقلوه؟.

(بتريك يتابع مهمته: لم يعتقلوه، طبعاً. فور اعتقال الآخرين، ذهب إلى بيت مادويان. وباعتبار أن والدة مادويان تعرفه، وتعرف أنه من «الجماعة»، وثقت به، فسمحت له بأخذ أوراق مادويان الخاصة... حتى لا يصادرها البوليس!.. وكان بينها أوراق بالعربية والأرمنية من وثائق الكونفرانس الأول للحزب الشيوعي اللبناني. ووصلت هذه الأوراق كلها إلى الأمن العام... فالبطاقة التي كان يحملها من الحزب الشيوعي الفرنسي كانت مزوّرة. أنهى بتريك دوره. واختفى!).

بعد يومين اعتُقل ايلي تيبر. كان في مكتب المحامي نمر هبّه. داهمَ رجال الأمن العام المكتب واعتقلوه... ثم اعتُقل فؤاد الشمالي.

والتقى الجميع في سجن بيروت.

«... وبعد مرور خمسة عشر يوماً على توقيف «تيبر» أبلغ صاحب المنزل رجال الشرطة خبر اختفاء مستأجر إحدى الغرف عنده، ووصف لهم أشكاله فإذا هي تنطبق على أشكال «تيبر». فذهب رجال الأمن العام إلى الغرفة، وفيها عثروا على أوراق المؤتمر (الكونفرانس) الشيوعي اللبناني الأول، وعلى أوراق كثيرة تختص بأعمال الحزب... فصادروها كلها».

ـ فهل لا تزال وثائق الكونفرانس في الأرشيف العتيق لدوائر الأمن العام الفرنسي في لبنان، أم أنهم أحرقوها؟..

ما يهمّنا الآن، ليس مصير وثائق الكونفرانس الأول. (ومن يدري، فقد نعثر على نسخة من هذه الوثائق، ذات يوم، في مكان ما من هذا العالم). ما يهمنا الآن هو:

١ ـ مصير المعتقلين.

٢ ـ ومصير أعمال الحزب، بعد اعتقال قادته الأساسيين. وبعد توزيعهم على معتقلات شتى، ومنافٍ متباعدة (أبعد يزبك إلى كفرعقا ثم أميون. ومادويان وبوياجيان إلى قلعة القدموس، وأُبعد الشمالي أولاً إلى القدموس ثم إلى الرقّة. وبعدها أُبعد الشمالي وعلي ناصر الدين إلى سجن جزيرة أرواد).

وكانت التهمة، كما جاء في كتاب فؤاد الشمالي، «تحريض الأهالي على الثورة المسلحة وتحريض الجند على عصيان قوّادهم. وهذه التهمة تنطبق على المواد ٥٥ و٥٦ و٥٧ وتوابعها من قانون الجزاء العثماني. وهي تقضي بعقوبة الإعدام».

رغم هذا كله...

سؤال موجّه إلى الجميع: «هل جرت لكم صلات وأنتم في السجن، وفي المنفى، مع منظّمات الحزب، خارج السجون والمنافي؟.. وهل قمتم بنشاط ما، تحريضي أو كتابي، داخل السجن... ثم: هل حاول أحد منكم الهرب من المعتقل؟».

□ **أرتين مادويان:** «... طبعاً كانت لنا صلات، مستمرة، بمنظمات الحزب خارج السجن. كنّا نكتب رسائل عادية إلى الأهل، وبين الأسطر نكتب بالحبر السري. وكان حبرنا السري: ماء البصل. نكتب به بين السطور، وعندما تُعرض الرسالة بمواجهة لمبة ما، أو أي مصباح، يمكن عندها قراءة ما بين السطور... وكنّا أحياناً نُرسل المكتوب أو المقال بين صفحات كتاب: نضع الورقة بين صفحتين، ونُلصق أطراف الصفحتين... وكانت ترسل لنا الرسائل والتقارير ضمن علب البقلاوة أحياناً، أو ضمن كتاب بالطريقة نفسها... وهكذا استطعنا أن نُرسل مقالات ورسائل، بهذه الطُرق، من داخل السجن، فتصل إلى خارج البلاد، إما إلى مجلة الأممية الشيوعية، وإما إلى جريدة «الأومانيتيه» الفرنسية، فتثير دوياً عالمياً وحملات احتجاج على اعتقالنا وفضحاً لجرائم المستعمرين الفرنسيين.... وذات مرة أدخلنا منشاراً إلى السجن. سمعنا أننا بخطر الإعدام، فقررنا أن نحاول الهرب، فأدخلنا المنشار إلى السجن!».

ـ وكيف حدث هذا؟

ـ «اسمع!. كان معنا في القاووش أحد المثقفين الأتراك. وكان يهوى التصوير الفوتوغرافي. فسمحوا له بإدخال علب تحتوي ورق التصوير، والعلب مغلّفة بإحكام. اتفقنا معه على تهريب عدة نشر حديد كاملة إلى السجن، بواسطة علبة مقفلة من علبه. قبل الرجل. ورتّبنا المسألة على الشكل التالي: يطلب هو شراء علبة ورق التصوير هذه

عندما يأتي أخي إلى زيارتنا. يفتش الضابط عن شخص يشتري العلبة، يتبرّع أخي بهذه الخدمة، ويذهب ليشتريها، ثم يأتي بالعلبة المقفلة... وفي داخلها، بدل الورق، عدّة نشر الحديد... وهكذا كان... وأدخلنا المنشار إلى السجن. لم نستعمله، لأنهم نقلونا إلى «الرقة» ـ قرب دير الزور في سوريا ـ وضعونا في الإقامة الجبرية. عرف ضابط السجن بأمر المنشار. عوقب التركي المثقف: منعوا عنه ورق التصوير فترة طويلة، مسكين!.

«وفي الرقة، كذلك، ظلت صلتنا مستمرة بالحزب في بيروت. واستطعنا، في الرقة، أن نُصدر عددين من **جريدة «سبارتاك»**، بالأرمنية. العدد الأول في كانون الأول ١٩٢٦، فيه مواد عن إضراب عمال النسيج في حمص وحماه وغيرها في العام نفسه، وفيه مكان هام مكرّس لدروس ثورة ١٩٠٥. العدد الثاني صدر في كانون الثاني ١٩٢٧، مكرّس للذكرى الثالثة لوفاة لينين، ويحمل مانشيت رئيسية: «مات لينين ـ عاشت اللينينية». طبعنا العددين على الجيلاتين. واستطاع الرفاق توزيعهما في حلب وفي بيروت.أُجريتْ معنا تحقيقات جديدة. واعتُقل رفاق لنا في بيروت. ونقلونا إلى سجن قلعة القدموس (قرب بانياس ببلاد العلويين). هناك أصدرنا جريدة جديدة بالعربية والأرمنية. طبعناها أيضاً على الجيلاتين. ووُزعت في سوريا وفي بيروت. وقد أسميناها: **«الباستيل الجديد»**.

«... والجدير بالذكر أن أول جريدة من نوعها في العالم العربي هي جريدة **«الباستيل الجديد»**. ولها حكاية طريفة تُلخّص بأن السلطات المنتدبة كانت قد أبعدت عام ١٩٢٧ إلى قلعة قدموس بالعلويين عدداً من اللبنانيين المعتقلين سياسياً، وقد توصّل هؤلاء إلى إصدار جريدة خطيّة ضمن جدران السجن باللغتين. العربية والأرمنية. وقد ظهرت هذه الجريدة الفريدة في ١٠ أيلول من العام نفسه» ـ **فاضل سعيد عقل**[١].

---

(١) من مقال لفاضل سعيد عقل، منشور ضمن كتاب «النهضة الصحفية في لبنان» لجورج عارج سعادة، منشورات: وكالة النشر العربية، بيروت ١٩٦٠ ـ صفحة ٣١٨.

«... ومن قلعة القدموس، استطعنا ذات يوم أن نهرب».

ـ كيف؟

ـ «إسمع!. كان يُسمح لنا، مرة في الأسبوع، أن نتجوّل في القرية، يصحبنا، ويحرسنا، جندي سنغالي. قررنا، هيكازون وأنا، أن نهرب. حصلنا على حبل. خرجنا للنزهة في القرية. أغرينا الجندي أن يذهب بنا بعيداً عن القرية. هناك أحطنا بالجندي. ربطناه. وهربنا... ولكننا لم نكن نعرف الطريق. سرنا طويلاً. تهنا. تعبنا جداً. وجعنا جداً. لا شيء نأكله سوى الماء. لحقوا بنا. قبضوا علينا. كان هدفنا: إثارة ضجة كبرى. إخبار الناس بأننا معتقلون لأننا ضد الانتداب ومع الثورة السورية. أعادونا إلى السجن الانفرادي. نقلونا إلى السجن العسكري. ثم أبعدونا إلى سجن جزيرة أرواد» ـ (حديث خاص).

□ **فؤاد الشمالي:** «.... على أثر توقيفي، ترك شقيقي نسيم الشمالي عمله الخاص في كسروان (كان عامل دخان) وجاء إلى بيروت للعمل الحزبي وللاهتمام بقضيتنا. وقد استطعنا ـ بطُرق شتى وبالرغم من المراقبة الشديدة ـ الاتصال كتابة بشقيقي نسيم الذي تمكّن من الاتصال بالحزبين الشيوعيين الفلسطيني والافرنسي. وكان لرسائلنا السرية المهرّبة من السجن تأثير شديد في الأوساط الشيوعية الخارجية. فقامت الأحزاب الشيوعية العالمية، ولجنة «المساعدة الأممية الحمراء» بحملة صحفية عالمية واسعة النطاق في سبيل إنقاذنا من حكم الإعدام الذي كنا مهددين به»[1].

□ **رسالة** من معتقل في أحد سجون بيروت، إلى مجلة الأممية الشيوعية **«المراسلات الأممية»**، منشورة في العدد ٧١، سنة ١٩٢٦، صفحة ٨١٤. جاء فيها:

«... إن حياة السجن أصبحت لا تُطاق، فالنظام شديد القسوة. نتعرّض للتعذيب والاضطهاد دوماً. في الأسبوع الماضي نقلوني إلى الزنزانة لأنني اعترضت على عدم تمكيننا من تنظيف أنفسنا. رفضوا اعتراضي فأخذت أضرب على الباب بكل قواي. جاء مدير السجن ومعه ثلاثة جنود. أودعوني في «الانفراد». لم نسكت. كانت احتجاجاتنا كثيرة

(١) فؤاد الشمالي: «أساس الحركات الشيوعية...» ـ صفحة ٤٢.

على التصرفات البربرية التي تمارَس ضدنا في سجونهم. وصلت احتجاجاتنا حتى إلى الوزير المختص بالذات. لكن الاضطهاد لا يزال مستمراً. رغم هذا، **احتفلنا أمس بعيد أول أيار، داخل السجن.** لبسنا أفضل ما عندنا من ثياب. ووضعنا حتى شارات حمراء على صدورنا. كان ظهورنا داخل السجن بهذا المظهر الاحتفالي مدعاة دهشة بين مئات المعتقلين. بعضهم طلب منّا شارات حمراء، واحتفظوا بها كما لو أنها عَلَم مقدّس. في اليوم التالي جاء كاهنان لزيارة المساجين، فجمعوا كل المسيحيين في الغرفة التي كنا فيها. لاحظا وجود إشارات العيد. لفتوا نظر مدير السجن إليها. كانت رؤية رسم المنجل والمطرقة تثير مدير سجننا. عندما رأى الشارات أصيب بهيجان مسعور. أعطى أوامره بوضعنا مع سجناء الحق العام. لم نمتثل لأوامره. صرخنا احتجاجاً، وأصررنا أن لا نغادر مكاننا إلا بالقوة. دفعونا وساقونا بقسوة ووحشية. ثم طلب مدير السجن أن يعرف من كتب على جدار القاووش «**يا عمال العالم اتحدوا**» و «**عاش استقلال سوريا**»... اختار أحدنا وعاقبه على هذه الجريمة بوضعه في «الانفرادي»... أرسلنا كتاباً مفتوحاً إلى وزير الداخلية والمدعي العام نحتج على اضطهادنا، ونطلب: **أولاً**: أن يُصار إلى فتح باب المفاوضات معنا. **ثانياً**: تأديب رجال البوليس السري ورجال الدرك الذين أقعدوا أحد رفاقنا بعد أن قاموا بضربه بوحشية. **ثالثاً**: أن تعطى للمعتقلين السياسيين جميع الحقوق الأساسية التي نصّت عليها القوانين. **رابعاً**: أن يعطى هؤلاء كراسي ويُسمح لهم بالدخول إلى الحمامات وغيرها من الوسائل الضرورية التي نصّت عليها قوانين السجون. **خامساً**: أن يُسمح لنا بتنشّق الهواء النقي الذي حُرمنا منه منذ مدة تزيد على أربعة أشهر.

نحن على يقين أن مطالبنا هذه لن تلقى جواباً. ومع هذا فنحن على أتمّ الاستعداد للاستمرار في رفع احتجاجاتنا ضد هذه المعاملة السيئة، حتى ولو كلّفنا ذلك حياتنا.

أرسلوا لنا أخباركم، وبعض النقود لعائلاتنا التي ليس لها أحد يعيلها».

«... وفي تلك الأثناء ـ يتابع فؤاد الشمالي ـ وصل إلى بيروت الرفيق «جوس كلاد» عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي، موفداً من المكتب المذكور للاتصال بالحزب الشيوعي اللبناني، وموافاة رفاقه بالمعلومات الصحيحة عن حالة الثورة السورية، تلك المعلومات التي كانت قد انقطعت عنهم بعد توقيفنا. وبعد أن مكثَ زهاء شهر، كان في خلاله متَّصلاً بنا في سجننا ومتصلاً برفاقنا في بيروت، أراد العودة إلى فرنسا ليقدم تقريراً شفهياً إلى رفاقه ـ وشى به أحد المدسوسين ـ فما كاد يصل إلى المرفأ حتى أوقفه رجال الأمن العام ودقّقوا البحث في جواز سفره فإذا به مزور، فأحيل إلى المحاكمة وحُكم عليه بالسجن شهرين أبعد بعدهما إلى فرنسا»[١]... «... نعم، كَتَبتُ في السجن كثيراً. عدا الرسائل إلى الرفاق في بيروت والرسائل إلى الأممية الشيوعية وجريدة «الأومانيتيه»، وضعتُ وأنا في سجن قلعة القدموس كتاب «**نقابات العمال**»[٢]، وكان قد انقضى علينا ثمانية عشر شهراً، ينقلوننا من سجن إلى سجن، بلا محاكمة[٣].

□ **يوسف يزبك**: «... بعد ثلاثة أسابيع في سجن السراي ببيروت، مرضتُ. نقلوني إلى المستشفى ـ السجن. ومن هنا استطعنا، بواسطة رئيسة المستشفى نفسها (روز أيوب) أن نقيم صلة مع نسيم الشمالي. كانت روز تعطف علينا، وكانت معجبة بعلي ناصر الدين ونضاله. ومع نسيم، زارنا الرفيق الفرنسي «جوس كلاد» مُرسَلاً من قبل لجنة «المساعدة الأممية الحمراء». جاء ليعرف قضيّتنا، وليتزوّد بمعلومات عن الثورة السورية. اتفقنا معه على كثير من الأشياء. وخاصة حول الثورة. قُبض عليه على الباخرة بوشاية أحد المدسوسين» ـ (حديث خاص). فيما يتعلّق بالكتابات، عدا الرسائل، كتبتُ بعض الأشياء. كان ذلك في العام نفسه (١٩٢٦)، وأنا في معتقلي ببلدة أميون ترجمتُ قصة «كرنكبيل» لأناتول فرانس. وبعد سنوات عشر طلب إليّ صديقي نقولا شاوي رئيس تحرير «صوت الشعب» أن ينشرها في جريدته. فنشرناها متسلسلة. ثم أصدرتها فيما بعد في كتاب بعنوان «**فقير أمام القضاء**»[٤].

....

---

(١) «أساس الحركات الشيوعية...» ـ صفحة ٤٢.

(٢) صدر هذا الكراس المهم عام ١٩٢٩ بعد الخروج من المعتقل، وسيأتي الحديث عنه في فصل لاحق.

(٣) هذه المعلومات مأخوذة من كراس «نقابات العمال». وقد كتب الشمالي في أسفل مقدمته هذه العبارة: «قلعة القدموس» سوريا، في أول أيار ١٩٢٧». أما الكراس فقد طبع فيما بعد، في مطبعة الراية، بيروت، ١٩٢٩.

(٤) يوسف يزبك: «حكاية أول نوار» ـ صفحة ٩٤ ـ دار الفارابي ١٩٧٤.

إذن، اعتقل المستعمرون قادة الحزب بهدف ضرب الحزب وشلّ نشاطه وضرب الحركة الوطنية. فماذا كانت النتيجة؟

ـ استطاع قادة الحزب أن يقودوا الحزب من داخل السجون.

ـ استطاعوا أن يمارسوا نشاطاً تحريضياً داخل السجون نفسها.

ـ أصدروا الجرائد الخطيّة، وطبعوها على الجيلاتين، وهم في المنفى. واستطاع الرفاق خارج السجن أن يوزّعوا هذه الجرائد في عدة مدن في سوريا ولبنان.

ـ واستطاعوا، في المعتقلات والمنافي، وضع الكتب.

ـ كما استطاعوا، من داخل السجن، إيصال صوتهم وصوت الثورة السورية إلى العالم، من خلال مختلف الأجهزة الإعلامية للأممية الشيوعية.

وأهم من هذا كله: فإن نشاط الحزب الكفاحي، وخوض النضال الطبقي، داخل لبنان، لم يتوقف. بل هو ازداد اتساعاً، وعنفاً، وتأثيراً، واستطاع أن يجعل من عام ١٩٢٦ عام الإضرابات العمالية في بيروت. رغم جوّ الإرهاب والقمع، وضد الإرهاب والقمع.

وهذه هي الوقائع ـ المعارك:

□ **في ٢٥ أيار ١٩٢٦** أصدر المفوض السامي الفرنسي بلبنان قراراً رقم ٢٧٦ يستهدف الأحزاب الوطنية والنقابات، ينص على: «أن كل جمعية تتأسس، مهما تكن مدتها وعدد أعضائها، وكل اتفاق يتمّ بهدف إعداد أو اقتراف جرائم ضد الأشخاص أو الممتلكات لأجل العمل لتغيير المجتمع بوسائل غير مشروعة، يشكّل جريمة ضد السلامة العامة»!!

ورغم هذا....

□ **في أول تموز ١٩٢٦** أعلن عمال الترامواي والكهرباء (شركة الجر والتنوير) إضراباً لتحقيق مطالبهم في: زيادة الأجور، وتعويضات طوارئ العمل. شمل الإضراب جميع العاملين في الشركة (حوالى ٤٠٠ عامل ومستخدم). وكان هذا الإضراب مركز

اهتمام «لجنة تنظيم العمال بالنقابات»[١]، إلى جانب اهتمام الشيوعيين في اللجنة بتنظيم الصلة بين قادة الحزب المعتقلين وبين الخارج. وقد عرف أعضاء اللجنة كيف يستفيدون من جو الثورة السورية ومن تفاقم وضع الشغيلة. واستطاعوا أن يتواجدوا في مختلف أمكنة تواجد العمال، وأن يطرحوا وجهات نظرهم، وأن يقاوموا، خصوصاً، محاولات كَسْر الإضراب، فشكلوا دوريات عمالية لهذا الغرض، وأخذوا يجمعون التبرعات من أجل العمال المضربين، ويتواجدون في طليعة المتظاهرين، ويتصدون لمقاومة رجال الشرطة والجيش.

أكثر من هذا: فقد استطاع أعضاء اللجنة، رغم أنهم أقلية، دفع قطاعات عمالية أخرى لإعلان إضرابات تحمل المطالب الخاصة لهؤلاء العمال، وتكون، في الوقت نفسه، بمثابة تضامن مع عمال الترامواي، وإثارة المصاعب أمام سلطات الانتداب التي تقمع الثورة السورية.

وهكذا:

□ **بين ١٩ و٢٢ تموز** (وكان إضراب عمال الترامواي لا يزال مستمراً) قامت إضرابات في بعض المطابع من أجل زيادة الأجور. فزيدت الأجور.

□ **وفي ٢١ تموز** نفسه أعلن عمال الأحذية الإضراب تضامناً مع زملائهم عمال شركة الترامواي والكهرباء، وأصدروا معهم بياناً مشتركاً طالبوا فيه بزيادة أجورهم ٢٥٪، تدفع على أساس الجنيه المصري لأن قيمة الفرنك كانت قد هبطت كثيراً في ذلك العام.

□ **وفي ٢٣ تموز**، نفسه، أذاعت «لجنة التنظيم بالنقابات» بياناً دعت فيه جميع العمال إلى الإضراب العام تأييداً للعمال المضربين. وقد لبّى نداء اللجنة عمال: المطاعم. الخياطين. المطابع. النجارين. الحدادين. الأفران. صناعة الأخشاب. صناعة الدخان... فأعلنوا الإضراب. ونظمت اللجنة حملة شعبية واسعة تأييداً للمضربين رافقتها حملة تبرعات.

---

(١) كان الحزب الشيوعي قد عمل على تأسيس لجنة من أجل ضم العمال إلى النقابات. وقد تأسست هذه اللجنة في أيلول ١٩٢٥ باسم «لجنة تنظيم العمال بالنقابات»، تضم حوالي ١٦ عاملاً من مختلف المهن. من هؤلاء نذكر: برجيس أبو صالح (نجار)، فؤاد الشمالي (عامل تبغ)، زهران الغريب (عامل طباعة)، جورج عيان (حلاق)، فريد طعمة (عامل تبغ)، نسيم الشمالي (طباخ ـ ثم عامل تبغ). ويقول فؤاد الشمالي في كتابه «نقابات العمال» (ص ٥٠): إن هدف اللجنة كان: «نشر الدعاية بكل الوسائل الممكنة لتاليف نقابة خاصة بكل حرفة وصناعة. ومتى تمكّنت من تاليف سبع نقابات تسعى لتاليف (اتحاد النقابات العام) من مندوبي النقابات المنظمة. وبعد إعلان تاليف «الاتحاد» تنحلّ اللجنة إذ تكون مهمتها قد انتهت».

حقق العمال أكثرية مطالبهم، وانتزعوا ٦٠ بالمئة من الزيادة التي طالبوا بها. وانتهى الإضراب في ٢٧ تموز ١٩٢٦.

ولكن...

بعد حل الإضراب العام، شنّت سلطات الانتداب حملة اعتقالات واسعة بين العمال المضربين والذين «حرّضوا» على الإضراب. من بين المعتقلين كان ثلاثة من أعضاء لجنة «تنظيم العمال بالنقابات» هم: زهران الغريب. نسيم الشمالي. جورج عيان. وقد أبعدت السلطات هؤلاء الثلاثة بالذات إلى السجن في جزيرة أرواد... هناك التقوا بفؤاد الشمالي، رئيس «اللجنة»، وقادة الحزب الآخرين[1].

□... **وفي المنفى**، ومن خلال أقنية سرية جديدة، تسلَّم المعتقلون الجدد، نصّ برقية وجهها «المكتب التنفيذي للأممية النقابية الحمراء» إلى لجنة: تنظيم العمال بالنقابات وإلى العمال المضربين، جاء فيها:

> «إن المكتب التنفيذي للأممية النقابية الحمراء يبعث بتحيته الأخوية إلى البروليتاريا السورية (اقرأ: لبنان ـ سوريا ـ فلسطين) التي وقفت تدافع عن مصالحها الطبقية، وفي مناخ من الرجعية الشرسة. إن العمل الموحَّد من قبل جميع عمال هذا البلد الخاضع للاستعباد، يعطي دلالة جديدة وساطعة على مقدرة الحركة العمالية التي لن تقهر. وإننا على ثقة بأن البروليتاريا السورية سوف تحقق في فترة وجيزة، وعن طريق نضال طبقي نشيط، ظروفاً أفضل في عملها، وتنتزع حرية العمل المشترك والحرية السياسية»[2].

....

(١) اعتمدنا في جمع المعلومات عن هذه الإضرابات العمالية على: «تاريخ الحركة العمالية والنقابية في لبنان» كتاب صدر عن دار الفارابي من تأليف النقابي الياس البواري (ـ صدر في جزأين عام ١٩٧٩). و «الحركة النقابية في لبنان ١٩١٩ ـ ١٩٤٦» لجاك كولان ـ دار الفارابي ١٩٧٤. ومجلة «الحركة العمالية العالمية» الصادرة في موسكو (العدد ٣٨، في سنة ١٩٢٦، صفحة ١٥). والملاحظات المخطوطة لأرتين مادويان، وكتاب «أساس الحركات الشيوعية..» لفؤاد الشمالي. وبعض صحف تلك الفترة.

(٢) نُشر نصّ هذه البرقية في مجلة «الأممية النقابية الحمراء» العدد ٦٨ ـ ٦٩، أيلول ـ تشرين الأول ١٩٢٦، صفحة ٩٣١. وقد نقلناها عن كتاب جاك كولان: «الحركة النقابية في لبنان».

في هذا الوقت، كانت سلطات الانتداب تستعد لتوجيه ضربة ساحقة للثورة، بواسطة: الحشد الهائل للجيش الفرنسي (٤٠ ألفاً)، والاتفاق مع الانكليز، والعمل على التفسيخ الداخلي للقوى المشاركة في الثورة اعتماداً على الطبيعة المساومة لعناصر البورجوازية السورية وزعماء الإقطاع، الذين صاروا يرون أن استمرار الثورة يُلحق الأضرار بمطامحهم ومطامعهم، وآمالهم، هم، في الحكم، ولو في ظل الانتداب!

أما الحركة الشيوعية العالمية، فكانت تواصل حملتها لدعم الثورة، وتنظِّم حملة من أجل إطلاق سراح القادة الثوريين المعتقلين.

وفي منشورات «الأممية الشيوعية» لتلك الفترة، نجد أصداء لهذين الخطين معاً:

ـ ففي العدد ٥٠ من سنة ١٩٢٦، لمجلة «المراسلات الأممية» نقرأ «نداء من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني» إلى الرأي العام العالمي في سبيل إنقاذ حياة الثوريين المعتقلين. وهذا النداء يتضمّن لوحة عامة، حارة، عن وضع الثورة السورية، وقوى القمع الفرنسي الشرس:

«ما زال الامبرياليون الفرنسيون مستمرين في تعسّفهم في سوريا. مئات العمال والفلاحين الثائرين جرى إعدامهم رمياً بالرصاص، والعديد غيرهم عُلّق على أعواد المشانق. إن قرى بكاملها قد أحرقت، ومدناً قد نُهبت، ومواطنين أبرياء جرى ترحيلهم. وآلاف المواطنين قد اعتقلوا وحوكموا، وبرغم كل ذلك فالثورة السورية مستمرة، وهي تزداد امتداداً وشمولاً، من أجل تحرير جميع الأراضي السورية من السيطرة الفرنسية. والالتفاف الجماهيري حول الثوار يزداد في كافة أنحاء سوريا، وفي البلاد المجاورة، وهذا بالضبط ما يثير غضب الفرنسيين ومحاولتهم القضاء على الثورة بوحشية بالغة.

أربعون ألفاً من الجنود الفرنسيين بقيادة الجنرال (غاملان) هم على أتمّ الاستعداد لشن هجوم كاسح ضد الثوار السوريين، وحتى لو كلّف القضاء على الثورة التدمير الشامل لجميع المناطق السورية ـ «سندمّر كل البلاد إذا لم يُظهر الشعب طاعة لنا» ـ هذا ما قاله دو جوفنيل المفوض السامي الفرنسي، في خطاب له في بيروت!. والجنرالات

الفرنسيون هم على أتمّ الاستعداد لوضع هذه الكلمات موضع التنفيذ.

إن هذه النظرة العمياء تجعل الفرنسيين يشعرون بوجود الأعداء في كل مكان، ويعتقدون بوجود المؤامرات ضدهم في كل مكان أيضاً.

وهكذا، منذ ثلاثة أشهر، اتُّهم سبعة شبان سوريين بتدبير مؤامرة ضد الفرنسيين، فألقي القبض عليهم وزُجّوا في السجون. والمعتقلون هم من خيرة المناضلين في صفوف الحركة الوطنية السورية الناشئة، ومن أكثرهم احتراماً:

يوسف يزبك، كاتب عربي مشهور، ورئيس تحرير جريدة «الإنسانية» الشيوعية الممنوعة.

علي ناصر الدين، من أصل درزي، ورئيس تحرير الصحيفة الوطنية «العهد الجديد».

فؤاد الشمالي، رئيس نقابات العمال في لبنان.

مع أربعة آخرين اعتُقلوا جميعاً كي يستطيع الجنرالات الفرنسيون الثأر لهزائمهم وقصر أيديهم في ملاحقة الثوار الوطنيين. وقد وُجّهت إلى المعتقلين السبعة تهمة نشر الدعاية الشيوعية، وتدبير مؤامرة ضد الدولة. ويطالب المدعي العام بإنزال العقوبة القصوى بحق هؤلاء الثوريين.

الجنرالات الفرنسيون يريدون إيجاد غطاء لهزائمهم! لهذا، فإن حياة المعتقلين بخطر شديد.

على جميع الشعوب المحبّة للسلام أن تتدخّل من أجل الإفراج عنهم، ومن أجل إنقاذ حياة الأبرياء.

يا شغيلة وبروليتاريا فرنسا وجميع البلدان... شِلّوا أيدي الجلادين!. ضعوا حداً لهذه الحملة البربرية التي يقوم بها جنرالات فرنسا في سوريا».

ثم يصدر نداء موقّع من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في لبنان واللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني بعنوان «احتجوا ضد الإرهاب الامبريالي الفرنسي في سوريا» وهو موجه «إلى جميع العمال الأوروبيين». نشرته عدة صحف شيوعية في أوروبا وفرنسا نفسها، ونشرته مجلة «المراسلات الأممية» (العدد ٩٨ ـ عام ١٩٢٦)

والبيان مؤرخ في شهر آب ١٩٢٦. وهو يعرض الوضع في سوريا، ومقاومة الثوار السوريين لجنرالات فرنسا، وجرائم هؤلاء الجنرالات في مختلف أنحاء سوريا، وواقع الإرهاب السائد. ويوجّه النداء الخطاب إلى عمال أوروبا:

«يا بروليتاريي أوروبا! إن أيديكم تُنتج القذائف والقنابل اليدوية والطائرات التي تزرع الموت والدمار بيننا، وتحول حقولنا الخصبة وحدائقنا وقرانا ومدننا إلى مقابر. إنكم بعملكم وعرقكم تعملون لتعيش هذه العصابة من الأشقياء قطّاع الطُرق الجلادين. إن مئات الآلاف من الأرامل واليتامى في سوريا ينادونكم: أوقفوا مذابح بورجوازيّتكم!. إليكم يتوجه الفلاح السوري المستعبَد والعامل والمضطهَد. وهم ينتظرون مساعدتكم الأخوية في النضال ضد مضطهديهم ومضطهديكم. إن نداءنا يتوجه إليكم أيها البروليتاريون الشرفاء. أنتم الأصدقاء المخلصون لحريتنا: فاعقدوا تحالفاً للنضال مع سوريا الثورية. ونحن، ملايين المضطهدين من شعوب المستعمرات، وأنتم، الأرقّاء الأجراء الأوروبيون، ليس لنا جميعاً سوى عدو واحد هو: الامبريالية الأوروبية!»[1].

ولكن يبدو أن خطة المفوض الفرنسي السامي دو جوفنيل بدأت تشير إلى إمكانية نجاحها. فإلى جانب الضربات الكبيرة، والحشد الهائل لفرق المحتل، بدأ يبرز تحول الانكليز (من تشجيع للمشاغبة على فرنسا... إلى تقليص تدريجي لهذا التشجيع وميل يتضح إلى دعم فرنسا في قمعها الثورة)... يُضاف إلى هذا كله، العامل الأساسي لإمكانية المساومة وإنهاء المقاومة المسلحة: الطابع المساوم للفئات التي تصدّت لقيادة الثورة (خليط من زعماء إقطاعيين، وأبناء بيوتات تجارية، وبورجوازية ناشئة طامحة وطامعة وعاجزة في وقت واحد، وتناقضات مصلحية ـ سياسية داخل هذه الفئات القائدة...) وكانت شخصيات حزبي «الشعب» و «الاستقلال» هي التي تتصدّر القيادة وتتصدّى للتفاوض مع الفرنسيين ورُسل الفرنسيين، بالإضافة إلى قيادة الثورة المسلحة في جبل العرب التي أنهكتها المعارك، وأخذت تشعر بضرورة الوصول إلى

(١) اقرأ النص الكامل لهذا النداء في «ملحق النصوص».

حلّ بعد أن رأت زعماء الحركة الوطنية يتراخون ويسعون للمساومة ويتنافسون على المغانم اللاحقة. وقد استطاع المفوض السامي الفرنسي إغراء عدد من زعماء «حزب الشعب» في سوريا للاشتراك في حكومة الداماد، فاشترك منهم في الوزارة: لطفي الحفار، فارس الخوري، حسني البرازي... وحتى جماعة الكفاح المسلح من زعماء «حزب الشعب» نفسه، المقيمين في جبل العرب، مركز المقاومة المسلحة، (ومنهم الدكتور عبدالرحمن الشهبندر، الذي عرف بتآمر زملائه في قيادة الحزب عليه وعلى تياره الليبرالي) ـ أخذوا يميلون إلى التفاوض مع الفرنسيين «والقبول بشروط لا تختلف عن شروط الطرف الأول من قيادة الحزب»[1]... وهناك إعلان صريح لهذا الميل ورد على لسان حسن الحكيم، عضو «حزب الشعب» وساعد الشهبندر الأيمن في تلك الأيام، جاء في كتابه «مذكراتي، صفحات من تاريخ سوريا الحديث ١٩٢٠ ـ ١٩٥٨» (نُشر في بيروت عام ١٩٦٥): يقول: «... عندما اطلعت في الصحف على البرنامج الوزاري لحكومة الداماد، وجدت فيه أساساً صالحاً لتقرير العلاقات بين سوريا وفرنسا، فيما إذا أُدخلت عليه تعديلات تزيل منه الغموض والإبهام، وتجعله صريحاً واضحاً. لذلك عرضتُ الأمر على الزعيم الدكتور الشهبندر، ورجوته المجيء من ساحة القتال إلى قرية حويلج القريبة من عمان، وبعد المذاكرة في أواخر أيار ١٩٢٦، وإدخال التعديلات عليه حتى أصبح في نظرنا برنامجاً يحقق الحد الأدنى من المطالب الوطنية، ويصلح بأن يكون أساساً للمفاوضات» ـ (صفحة ٣٦٣).

حول هذا الوضع، المائل إلى الهبوط في الحركة الوطنية، والذي أدى إلى إنهاء الانتفاضة المسلحة في سوريا وجبل العرب، نقرأ عرضاً تحليلياً في أحد الكتب الصادرة عن «الأممية الشيوعية» في النصف الأول من عام ١٩٢٨:

«... كان شعار الانتفاضة: استقلال سوريا (أي: سوريا، لبنان، فلسطين) وتوحيدها. وكان في قيادتها «حزب الاستقلال»، وهو حزب وطني ذو نزعة قومية عربية، يستند بصورة رئيسية إلى جماهير الدروز والبدو، وكان له برنامج جمهوري ديموقراطي. وبتأثير من

---

(١) راجع بهذا الصدد كتاب الدكتور عبدالله حنا «الحركة العمالية في سوريا ولبنان»، الصفحات ٢١١، ٢١٢، ٢١٣.

ضغط الجماهير، انضوى أيضاً تحت لواء الانتفاضة قادة «حزب الشعب الوطني السوري، وهو حزب بورجوازي شرعي كان يسعى قبلاً إلى التفاهم مع الفرنسيين. إن سبب هزيمة الانتفاضة يعود إلى: التفوق الهائل للقوات العسكرية الفرنسية (لم يحدث أبداً أن وُجد عند الثوار، في وقت واحد، أكثر من ٢٠ ألف مقاتل. وتسليحهم سيِّئ جداً، وبدون موارد تقريباً... في حين كان عدد جنود قوات الاحتلال الفرنسية يصل إلى ٨٠ ألف رجل مسلحين تسليحاً عصرياً). ومن أسباب هزيمة الانتفاضة، أيضاً: الإرهاب الفظيع الذي فُرض على البلاد. وكذلك: فساد أولئك القادة في الحركة الوطنية الذين استسلموا لإغراء السلطات الفرنسية.

وبعد ما يزيد عن سنتين من قتال ضارٍ، توصّل الفرنسيون، بمساعدة الانكليز، إلى حصر الفصائل المتبقّية من الثوار، خارج الأرض السورية.

على أن الفرنسيين قدّموا سلسلة من التنازلات، منها: العفو عن الثوار (باستثناء بعض قادة الانتفاضة) وإبدال حكومة الداماد نامي بك، الموالية جهاراً للفرنسيين، بحكومة الشيخ تاج الدين التي ساهم فيها الوطنيون. ثم الدعوة لعقد جمعية تأسيسية. والوعد بـ «تحقيق تقارب بين أجزاء سوريا... و... توظيف رساميل فرنسية في البلاد بالتعاون مع الرأسمال المحلي»[١]...

أُنهيت الثورة السورية المسلّحة، أغرقتها الامبريالية الفرنسية بالدم. وأغرقتها القيادات الإقطاعية ـ البورجوازية بالمساومة.

ومن جديد، تؤكد هذه الفئات ـ الخليط، الطامحة أن تصير طبقة بورجوازية مسيطرة، عجزها التاريخي عن السير بالبلاد، وبحركة التحرر الوطني، إلى انتصارها التاريخي، وبناء دولتها العربية المستقلة الديموقراطية المتحررة ونظامها الجديد. إن عجزها التاريخي هذا، في عهد الامبريالية، وشعورها بضعفها، وفي الوقت نفسه، ميلها المستمر

---

(١) عن كتاب «من المؤتمر الرابع إلى المؤتمر السادس» صدر عن منشورات الأممية الشيوعية عشية المؤتمر السادس للأممية الذي انعقد في موسكو ١٩٢٨ ـ صفحة ٥٢٥ ـ ٥٢٩.

للحدّ من تطور حركة الجماهير، والابتعاد عن تنظيمها، هذه العوامل هي في أساس استعدادها التكويني للمساومة. وسوف تكشف حركة التاريخ، أن الفئات التي تملك أن تسير بحركة التحرر الوطني العربية إلى انتصارها، إلى تحررها من الامبريالية، وبناء دولتها العربية الاشتراكية الموحدة، هي: التحالف التاريخي بين العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين، والفصائل الثورية من البورجوازية الصغيرة.

إن كل تجارب تاريخنا الدامي، حتى أيامنا هذه، تقود إلى هذا الاستنتاج، الذي أخذ يفرض نفسه، كنظرية وممارسة، على عناصر كثيرة وأساسية من المناضلين في حركة التحرر العربية.

....

في ١٨ كانون الثاني ١٩٢٨، صدر قرار العفو العام عن المعتقلين السياسيين.

وعاد قادة الحزب الشيوعي اللبناني، وقادة «لجنة التنظيم بالنقابات» من السجون البعيدة والمنافي، إلى مركز الحزب في بيروت.

عادوا يحملون تجربة غنية جداً: في الممارسة العملية... في أساليب النضال السري... وفي الفكر النظري على حدّ سواء.

وسوف يجابه الحزب مرحلة جديدة تماماً في حياته الكفاحية، وفي حياة البلاد.

وسوف نرى أن المسألة الوطنية التحررية، مسألة التوحيد القومي لهذه البلاد التي جزّأها الاستعمار، سوف تنعكس في الفكر النظري للحزب ـ بعد هذه التجربة الغنية ـ وفي وثائقه البرنامجية، بوصفها مرتبطة عضوياً، بمسألة التحرر من الامبريالية: أي بمسألة التحرر الاجتماعي باتجاه بناء الاشتراكية.

الانطلاق...

خطــوة إلى الوراء...
خطوات إلى الأمام...

كان لا بد، بعد عودة قادة الحزب الشيوعي من السجون والمنافي، أن يُعاد تنظيم الحزب، وما حول الحزب من منظمات.

في شباط ١٩٢٨ عقدت اللجنة المركزية اجتماعاً لبحث الوضع التنظيمي بشكل أساسي: لا بد من تنشيط الحزب، بمعنى إعادة العلاقة بين منظماته، ومع مختلف العناصر الشيوعية، لمواجهة المرحلة الجديدة. وأعيد تشكيل اللجنة المركزية: فؤاد الشمالي أميناً عاماً. أرتين مادويان. فريد طعمة. نسيم الشمالي. هيكازون بوياجيان.

أعيد تنظيم «لجنة التنظيم بالنقابات»، وبدأ من جديد نشاط نقابي مكثّف بين عمال التبغ، والنجارين، والأحذية، والطباخين، والطباعة، والحلاقين، الخ.

وبدأ تنظيم منظمات الحزب في: بيروت، وزحلة، وبكفيا. وتمّ تأسيس منظمتين للحزب في دمشق، وطرابلس.

ويبدو أن سنوات السجن، والإرهاب الذي لا يزال مستمراً، قد قضت على إمكانية استمرار «حزب الشعب اللبناني» كمنظمة ديموقراطية، علنية أو شبه علنية، تضم

شيوعيين وغير شيوعيين... وهكذا، لم نعد نسمع بنشاطٍ ما لحزب الشعب اللبناني، لا خلال اعتقال قادة الحزب الشيوعي، ولا بعد عودتهم من المنافي...

على أن نقابة عمال الدخان، وهي القاعدة العمالية لحزب الشعب اللبناني، ظلّت موجودة طبعاً، ونشطة، وسوف تخوض عدة معارك واسعة، خصوصاً بعد عودة مؤسسها وقائدها فؤاد الشمالي.

خلال عملية إعادة التنظيم الشاملة هذه، قرر الحزب أن لا يُصدر باسمه أي بيانات أو نشرات، لا سرية ولا علنية، تعطي دليلاً صريحاً على أنه موجود. فقد رأت اللجنة المركزية أن إعادة التنظيم الشاملة هذه تقضي بتجنيب الحزب، ضربات القمع، خلال فترة محدودة. وكانت الخطة ـ حسب تعبير فؤاد الشمالي ـ «أن نعمل في هدوء لنخدع السلطة، فتنصرف عن مراقبتنا و«مضايقتنا» ونميل إلى تقوية صفوفنا بالتنظيم الحزبي المتين... حتى إذا أصبح في الاستطاعة قيام رفاق أقوياء، مكان الرفاق الذين يُعتقلون، ليتابعوا إصدار النشرات الشيوعية ويواصلوا إدارة الحزب والسير به إلى الأمام ـ عندها نعلن وجود الحزب، ونحن على ثقة بعدم تقهقر الحزب في أعماله مهما اعتقلت السلطة من أعضائه»[1]. وكان لا بد كذلك من تنظيم علاقة ثابتة بـ «الأممية الثالثة» والأحزاب الشيوعية الأخرى، وتحديد وتوضيح طابع العلاقة مع قادة الحزب الشيوعي في فلسطين.

وقد أصرّت اللجنة المركزية على العمل، والنشاط، ضمن هذه الخطة، خلال فترة محددة. وهكذا، فإن ما صدر عن الحزب من بيانات ونشرات وآراء خلال فترة «الصمت ـ والتنظيم» هذه، كان يصدر بأسماء علنية أو مموهة: أحياناً باسم فؤاد الشمالي، بدون إضافة أية صفة إلى اسمه... وأحياناً باسم أرتين مادويان... وأحياناً باسم فريد طعمة، كمرشح لعضوية بلدية بكفيا... وأحياناً باسم «اللجنة الانتخابية الشعبية»... وأحياناً باسم «كتلة العمال والفلاحين»...

في هذه الأثناء، وصلت إلى الحزب دعوة للاشتراك في مؤتمر للأممية الشيوعية، يحضره مندوبون عن الأحزاب الشيوعية في العالم. وهذه أول مرة يشارك فيها الحزب

---

(١) فؤاد الشمالي: «كيف تنظمت الحركات الشيوعية السرية في سوريا ولبنان». مجلة «العاصفة»، العدد ٥٤ في ٢٧ آب ١٩٣٣، صفحة ١٦. وهذا القسم من مذكرات الشمالي هو المفروض أن يكون الجزء الثاني من كتابه «أساس الحركات الشيوعية...» الذي ورد ذكره في صفحات سابقة.

في مؤتمر للأممية. وتَقرَّر أن يكون فؤاد الشمالي، الأمين العام للحزب، مندوباً للحزب إلى هذا المؤتمر (المؤتمر السادس للأممية الشيوعية، عقد في موسكو من ١٧ تموز إلى أول أيلول ١٩٢٨)... «... فسافرتُ بطريق البرّ من بيروت إلى حلب بالسيارة، ومن هناك بقطار الشرق السريع: استمبول ـ فبلغاريا ـ فهنغاريا ـ فڤيێنا عاصمة النمسا ـ ومنها إلى بولونيا المتاخمة للاتحاد السوفياتي... أما السلطة المحلية (في بيروت) فلم تكن تعلم أني مسافر إلى روسيا، وإلا لما كانت سمحت لي بمغادرة البلاد الواقعة تحت الانتداب الافرنسي... فقد تركتُ هذه البلاد بدعوى أني مندوب أحد معامل التبغ اللبناني للاتفاق مع البيوتات التجارية بأوروبا على طبع «الاتكات» اللازمة للعمل... يعني أني سافرت بمهمة تجارية!...»[١].

وسوف يكون لهذا المؤتمر أهمية استثنائية بالنسبة للحزب الشيوعي في لبنان، سواء على الصعيد التنظيمي أم على صعيد الفكر النظري، وعلى صعيد النشاط اللاحق للحزب.

□ ففي موسكو، تمّ نهائياً انتساب الحزب الشيوعي في لبنان إلى الأممية الشيوعية الثالثة. وفي هذا الضوء أتيح للشمالي، إزالة تلك الملابسة التي كانت عالقة في ذهن «أبي زيام» سكرتير الحزب الشيوعي في فلسطين: ففي حين كان الحزب الشيوعي اللبناني يعمل كحزب مستقل، ومنذ البداية، وفي ظروف تختلف عن الظروف التي يعمل فيها الحزب الفلسطيني، كان «أبو زيام» يتصرّف أحياناً كما لو أن الحزب في لبنان هو فرع لحزبه في فلسطين... وهكذا ـ يقول فؤاد الشمالي ـ «عملتُ هناك على استقلال حزبنا عن إدارة الحزب الفلسطيني، والاعتراف بنا فرعاً للانترناسيونال الشيوعي، مما لم يرق «أبا زيام» فقام بحركات مخالفة للنظام الحزبي، فشكوته إلى مجلس المراقبة في الكومنترن، وحوكم، وحُكم عليه بالتأنيب»[٢].

□ وفي هذا المؤتمر السادس للأممية رُفعت شعارات تتّسم بواحديّة الجانب، والتشدّد

---

(١) فؤاد الشمالي: «ماذا رأيت في موسكو».. ربورتاج نشرته «الصحافي التائه» على حلقات ابتداء من تموز ١٩٣٣.

(٢) فؤاد الشمالي: «كيف تنظمت الحركات الشيوعية..»، مجلة «العاصفة» ـ العدد ٥٥ في ٤ أيلول ١٩٣٣ ـ صفحة ١٦.

«الطبقي»، وما يؤدي إلى نوعٍ من القوقعة وتضييق آفاق التحالفات ـ فرُفع شعار: «طبقة ضد طبقة». واتُخذت عدة قرارات تحت تأثير خيانات الاشتراكية ـ الديموقراطية لأممية امستردام (الأممية الثانية). وجاء في بعض التوصيات: إن نوع الثورة الذي ينطبق على حالة المشرق يفرض أن تكون على الحزب مهمة: تأليف منظمات مستقلة للعمال والفلاحين ـ حزب شيوعي كحزب طبقي للبروليتاريا. نقابات. روابط ولجان للفلاحين. سوفياتات في حال توفُّر أوضاع ثورية... الخ... ـ وهذا يتطلّب كذلك: الخروج عن تأثير البورجوازية الوطنية، التي لا يجوز عقد اتفاقات مؤقتة معها إلا بقدر ما تكون غير معيقة للتنظيم الثوري العمالي للعمال والفلاحين، وبقدر ما تناضل بصورة فعالة ضد الامبريالية[1]... وانطلاقاً من هذا رفعت بعض الأحزاب في الشرق شعارات: «إقامة حكومة عمال وفلاحين» ـ «الأرض للفلاح» ـ «الفبارك للعمال»، كمهمّات شبه مباشرة!!..

وسوف نرى الانعكاسات الإيجابية، والسلبية، لهذا الاتجاه العام، في النشاط العملي اللاحق للحزب الشيوعي في لبنان وسوريا.

□ وفي إطار المؤتمر السادس للأممية، أتيح مجال التعمّق في بحث المسألة القومية للبلدان العربية، في ضوء التجزيء الاستعماري للبلاد العربية وتقاسمها بين الامبرياليين، وفي ضوء تجارب النضال المشترك للشعوب العربية ضد الامبريالية، وفي ضوء تجربة الحزب خلال الثورة السورية: النضال داخل الحركة الوطنية، من ناحية، والتفارق مع القيادات الإقطاعية ـ البورجوازية لهذه الحركة، من ناحية ثانية، وضرورات الكفاح المشترك ضد الاستعمار.

....

---

(١) هذه الفقرات عن شعارات المؤتمر السادس وتوصياته نقلها جاك كولان عن: «برنامج الأممية الشيوعية ـ أقره المؤتمر العالمي السادس في أول أيلول ١٩٢٨ في موسكو»، منشورات: مكتب منشورات باريس، صفحة ٧٢. وقد أوردها كولان في كتابه «الحركة النقابية في لبنان» فنقلناها عنه.

«... وبعد رجوعي من موسكو ـ يقول فؤاد الشمالي[1] ـ عقدت اللجنة المركزية جلسة تَقرّر فيها ابدال اسم الحزب، فأصبح: الحزب الشيوعي السوري ـ فرع الانترناسيونال الشيوعي»... وكان هذا يتوافق مع شعار **الوحدة السورية** المطروح ضد التجزيء الاستعماري الفرنسي لسوريا إلى دويلات هزيلة (دولة دمشق ـ دولة جبل الدروز ـ دولة العلويين ـ دولة الاسكندرون ـ دولة بيروت... وهكذا) مما يتيح للفرنسيين، ليس فقط التحكُّم بالحكومات ـ الدمى لهذه الدويلات، بل إيجاد، وتعميق، وإثارة، الخلافات المذهبية، والجغرافية، بين أبناء بلاد واحدة، حتى لا يتاح لها أن تناضل، معاً، ضد عدوها الواحد المشترك: الاستعمار الفرنسي ـ أما القسم الثاني من اسم الحزب فكان تأكيداً لانتسابه إلى الجيش العالمي الكبير للأممية الشيوعية.

ولكن الحزب استمر في خطته التنظيمية السابقة، فيما يتعلّق بعدم إعلان اسم الحزب الشيوعي، في البيانات والمناشير التي يصدرها والنشاطات التي يقوم بها.

واستطاع الحزب، في الفترة التي سبقت الإعلان القوي، والمفاجئ، لوجوده، أن يقوم بعدة نشاطات علنية هامة، وأن يشارك مشاركة فعالة في عدة إضرابات ومظاهرات ونضالات عمالية.

□ **نيسان ١٩٢٩:** من أجل أن يوصل الحزب الشيوعي آراءه ومواقفه إلى الجماهير، ويقوم أعضاؤه وقادته بنشاط عام، علني، في الحركة السياسية، استفاد من فرصة اقتراب موعد واحدة من تلك الانتخابات التي تجريها سلطات الانتداب باعتبار لبنان «جمهورية ديموقراطية» ـ تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي ـ وهكذا «هبّ نفر من أحرار العمال وأصحاب المهن والمفكرين إلى تنظيم لجنة دعوها «اللجنة الانتخابية الشعبية» فوضعوا لها بروغراماً يتفق وأماني الشعب الفقير ليتقيد به المرشحون للنيابة»... وأخذت هذه اللجنة تنشط، وتعقد الاجتماعات، ويشرح فيها قيادة الحزب وأصدقاؤه، المطالب الشعبية، ويفضحون طبيعة تركيب تلك المجالس النيابية، التي هي دمى بأيدي الحاكمين في المفوضية الفرنسية العليا... «فهال القوة الحاكمة أن ترى العمال جادّين في حركتهم لا هازلين، وخافت أن يرفعوا إلى المجلس نواباً أحراراً

---

(١) مجلة «العاصفة» ـ العدد ٥٥ في ١٩٣٣/٩/٤.

يناقشونها الحساب في كل قانون وتشريع يكون ضد مصلحة الشعب الفقير، فأسرعت الوزارة السعدية، وأصدرت مرسوماً بتوقيع رئيس الجمهورية يقضي بحل اللجنة الانتخابية الشعبية»[1]... ولم تردّ الحكومة، طبعاً، على احتجاجات أعضاء اللجنة... ولم توضح، ولو شكلياً، الأسباب القانونية للحل... ولكن الأسباب أكثر من واضحة.

□ **وفي ١٢ أيار ١٩٢٩:** صدر «نداء عام إلى العمال والفعَلة والفلاحين» موقّع باسم فؤاد الشمالي، وصادر على شكل «ملحق» للعدد السابع من صحيفة «الذكرى»، مديرها المسؤول سامي سليم... هذا النداء يتحدث أيضاً عن المعركة الانتخابية القريبة، من وجهة نظر كشْف هذه اللعبة، من ناحية، وإيجاد ذريعة، قانونية، لنشر، وتوزيع، البرنامج المطلبي الذي وضعته «اللجنة الانتخابية الشعبية» من ناحية أخرى.

«إن أعضاء المجلس النيابي الحالي والسابق ـ يقول النداء ـ قد أثبتوا في أعمالهم ومواقفهم كلها، أنهم ضد مصلحة الشعب الفقير، ولا يهمهم من نيابتهم سوى التمسك بكراسيهم بأية وسيلة كانت، لأن تلك الكراسي تدرّ عليهم لبناً وعسلاً... ها إن الشركات الاحتكارية الكثيرة تمتص دماء الشعب بشراهة وحشية، وتستنزف فلس الأرملة واليتيم، وترهق البلاد كما شاءت وشاء لها الطمع الأشعبي، فماذا فعل النواب في سبيل الدفاع عن حقوق الشعب والبلاد تجاه تلك الشركات الظالمة الشرهة؟؟. وأي صوت ارتفع في المجلس بالاحتجاج على تراخي القوة الحاكمة أمام استبداد شركات الاحتكار؟؟».

ولكن، لماذا لا ترتفع أصوات النواب في المجلس دفاعاً عن حقوق الشعب؟

ويأتيك الجواب المنطقي، المستمد من الواقع نفسه، والذي يكتسب قيمة نظرية أيضاً:

«.... إن معظم النواب الحاليين هم من الإقطاعيين، وكبار أصحاب الأملاك، والرأسماليين. لذلك لا يستطيعون الدفاع عن مصلحة الطبقة العاملة. وهذا أمر طبيعي، لأن النائب الإقطاعي الذي يستخدم في أراضيه الواسعة مئات وألوفاً من الفلاحين لا يدافع عن حقوق هؤلاء الفقراء، لأن ذلك ضد مصلحته الشخصية التي لا تقوم إلا باستعباد الفعلة والفلاحين وإرهاقهم واستنزاف دمائهم وعرق جباههم»...

ثم يكشف النداء واقع الإرهاب المسلّط في تلك الفترة ضد الحركة العمالية والنقابية

---

(١) من نداء أصدره فؤاد الشمالي في ١٩٢٩/٥/١٢ = سيرد ذكره بالتفصيل في سياق هذا الفصل.

بشكل خاص وواضح:

«... والحكومة (الجمهورية، الدستورية، الديموقراطية، اللبنانية) تقف حجر عثرة في سبيل تأليف أحزاب العمال وجمعياتهم ونقاباتهم، فأي نائب رفع صوته مطالباً بحرية العمال الصحيحة في تنظيم أحزابهم وتأليف نقاباتهم؟.. إن السلطة لا تريد أن يكون للعمال صوت مسموع في هذه البلاد. وهي تنظر إلى كل حركة من حركات تنظيم صفوفهم بعين المقت والغضب... لذلك رأيناها تعرقل أعمال «لجنة تنظيم نقابات العمال» وتفرّق بقوة الشرطة اجتماع العمال النجارين الذين اجتمعوا في العام الماضي لتأسيس نقابة لهم»... ثم يذكر النداء قضية حل الحكومة للجنة الانتخابية الشعبية... ويستفيد الكاتب من فرصة نشر هذا النداء كملحق لصحيفة «الذكرى» فيورد في آخر النداء النص الكامل للبرنامج المطلبي الذي وُضع باسم اللجنة، وهو برنامج ديموقراطي صيغ في إطار النشاط العلني، «الانتخابي»، ورغم ديموقراطيته العلنية هذه، واكتفائه بالمطالب ذات الصفة الإصلاحية في إطار النظام نفسه، فقد رأت الحكومة فيه خطراً على نظامها، فحلّت اللجنة!...

يقول النداء: «... وإذا كانت الحكومة قد حلّت اللجنة الانتخابية، فهي لا تستطيع أن تقضي على برنامجها الذي نُشر في بعض الصحف والذي نثبته بحروفه في هذا النداء»...

أما نحن، فلن نورد البرنامج بحروفه. فهو طويل، يتألف من ٣٢ بنداً، ويشمل قضايا وقطاعات عديدة. على أننا نشير إلى بعض البنود التي لا يزال لها أهمية حالية، أو التي كان لها، في تلك الفترة، معنى التحدّي، وكشْف طابع القمع عند الحكومات الدمى بأيدي سلطات الانتداب:

- تعديل قانون الانتخاب وجعله لاطائفياً، وعلى درجة واحدة، وإلغاء التعيين في المجلس، وجعل الانتخاب نسبياً.
- إلغاء ضريبة الإعشار عن عاتق صغار الفلاحين، ووضع قانون لحماية العمال والفعلة والفلاحين.
- التعليم الإجباري المجاني العلماني في مدارس الحكومة الرسمية للذكور والإناث، مع توحيد برامج التعليم.
- جعْل الشركات الاحتكارية والشركات صاحبة الامتيازات خاضعة

لأنظمة الحكومة المحلية وقوانينها، تفضيل الاحتكار الحكومي على احتكار الأفراد والشركات.

- وضْع ضريبة على رؤوس الأموال والوراثة التي تزيد على الخمسة آلاف ليرة ذهبية.
- تقديم مصلحة الوطنيين على مصلحة الأجانب في جميع المشاريع الاقتصادية العامة فيما إذا تساوت الشروط ـ تنشيط الصناعة والزراعة الوطنية وحمايتها من المزاحمة الخارجية.
- حماية المستأجرين من طمع أصحاب الأملاك بقانون خاص.
- إلغاء ذيل قانون المطبوعات (الذي كان يقيّد الصحافة) وإطلاق حرية الصحافة.
- فصل الدين عن السياسة.
- فتْح مصرف زراعي غايته مساعدة المزارعين وتنشيط الزراعة والصناعة.
- رفع الضرائب عن المنسوجات والمصنوعات الوطنية.
- التفاهم التام حول وحدة البلاد للوصول إلى حلّ في مصلحة العمال والفلاحين.

... هذه بعض بنود برنامج «اللجنة الانتخابية الشعبية»... وأظن أن أسباب حل الحكومة الانتدابية لهذه اللجنة، صار الآن أكثر وضوحاً!

وما يهمّنا هنا ـ عدا قيمة هذه البنود بحد ذاتها، ومعنى تشكيل اللجنة ـ هو: تفتيش الحزب عن مختلف المسارب للنشاط العلني، وإيصال رأي الحزب وموقفه إلى الجماهير، تحت مختلف الأسماء والأشكال، وفي الوقت نفسه العمل في **أقصى السرية** على إعادة تنظيم الحزب، وتعبئة قواه، وتثقيف الكادر، بما يضمن الانطلاقة اللاحقة...

□ **في هذا الوقت (منتصف عام ١٩٢٩)**: يصدر كتاب فؤاد الشمالي، التثقيفي: «**نقابات العمال**»، كان قد أنهى كتابته، كما مرّ معنا، في سجن قلعة القدموس بسوريا، في أول أيار ١٩٢٧، عندما كان معتقلاً هناك بسبب دعم الحزب للثورة السورية. ولعل هذا الكتاب هو الأول من نوعه عندنا، سواء بموضوعه (نقابات العمال) أم بطريقة كتابته

(فهو يتوجّه إلى عمال غير منظمين نقابياً، ويوضح لهم، بالتفصيل، كيفية تكوين النقابات، منذ اللقاءات الأولى، حتى وضع قانون للنقابة) أم من حيث زمن صدوره (في وقت التحول من جمعيات تضم العمال وأرباب العمل معاً، وتابعة لهذا الزعيم أو ذاك... إلى بدايات تكوين نقابات العمال المستقلة حسب النموذج الذي قدمه الحزب: نقابة عمال الدخان). وإن قراءة «إهداء الكتاب» تعطي فكرة واضحة عن الروحية التي كُتب فيها، وعن التوجّه السياسي للكتاب بصدد النقابات:

«إلى كل عامل وفاعل وفلاح في الأقطار العربية.
إلى كل بائس ومضطَهد ومظلوم.
إلى أرواح جنود الإنسانية المخلصين الذين سقطوا في ميادين المجد والفخار، مدافعين عن حقوق الطبقة العاملة.
إلى العمال والفلاحين الثائرين الموجودين في السجون المظلمة والمنافي الموحشة بسبب دفاعهم عن حقوق الطبقة العاملة المستعبدة.
إلى نقابات العمال وجمعياتهم وأحزابهم.
إلى كل ذي نفس أبية حرة تأبى الذلّ والخنوع
أهدي هذا الكتاب».

وما يهمّنا في هذا الكتاب (الذي يجمع بين فهم الحزب للعمل النقابي في تلك الفترة وبين تجربة الشمالي في الحركة العمالية المصرية وفي سنوات تكوين نقابة عمال الدخان بلبنان) أن نستخلص ملامح الريادة في القضايا التي طرحها، وأن نرى إلى دوره التثقيفي والعملي في الحركة النقابية عندنا.

أولاً: يركز الكتاب على المعنى السياسي للنقابة إلى جانب الطابع المطلبي.

«... فالنقابة، فضلاً عن أنها قوة اقتصادية واجتماعية كبرى، هي أيضاً قوة سياسية تستمد منها أحزاب العمال قوتها المعنوية في نضالها السياسي لمصلحة الطبقة العاملة، وهي سلاح بيد العمال يشهرونه في وجه المستبدين الظالمين من الرأسماليين» ـ (صفحة ٢١).

ثانياً: توجُه الكتاب عربي أساساً، فلا يقتصر على لبنان، فهو يقدم الاقتراحات بقانون الاتحاد العام للنقابات وقانون حماية العمال، إلى «نقابات العمال وأحزابهم في الأقطار العربية» ثم «إن البلاد العربية تكاد تكون خالية من المطبوعات والتآليف التي تبحث في حياة العمال وحقوقهم ونقاباتهم وأحزابهم»... بالإضافة إلى كون الإهداء موجه «إلى كل عامل وفاعل وفلاح في الأقطار العربية».

ثالثاً: يعرض بالتفصيل مهمات النقابة. ويدعو إلى اتحاد النقابة مع غيرها ومع أحزاب العمال.

رابعاً: يدعو إلى تكوين اتحاد عام للنقابات «... فكما أن العامل لا يستطيع بمفرده الدفاع عن حقوقه، كذلك النقابات، فإنها بأشد الحاجة إلى الاتحاد المتين، لأن الرأسماليين المستبدّين قد يتمكّنون من مقاومة النقابة الواحدة وسحقها، ولكنهم لا يستطيعون التغلب على النقابات المتحدة القوية» ـ (صفحة ٣١). وهو هنا يعيد اقتراحه الذي قدمه في احتفال أول أيار في قاعة الكريستال عام ١٩٢٥. ولكن بشكلٍ أكثر تفصيلاً، وهذا ما يشكّل السمة الخاصة للكتاب.

خامساً: يقترح الكتاب بنود قانون للاتحاد العام للنقابات، مفصلاً، ومؤلفاً من خمسة فصول و٥١ مادة. ويدعو هذا الاتحاد المقترح إلى إصدار جريدة أو أكثر.

سادساً: يقترح بنود «قانون لحماية العمال» وضمان حياتهم من طوارئ العمل، والتسريح، وتأمين تعويضات المرض والشيخوخة، الخ... وهو يقدم اقتراحاته هذه إلى العمال العرب في مختلف الأقطار العربية.

سابعاً: يلحّ على ضرورة اشتراك «الاتحاد العام» في مؤتمرات العمال في العالم.

ثامناً: يتحدّث عن ثغرات الحركة النقابية عندنا، انطلاقاً من العادات الشرقية والنزوع إلى عدم الانتظام.

تاسعاً: يدعو إلى ضرورة تنسيب المرأة في النقابات.

عاشراً: يلحّ على ضرورة تأليف النقابات العمالية من العمال وحدهم، فلا تضم النقابة أيضاً أرباب العمل، كما كانت حال أكثر «الجمعيات العمالية» عندما صدر الكتاب.

هذا الكتاب، لعب دوراً تثقيفياً هاماً، وتنظيمياً لا شك فيه، كما أنه صار من «المواد

الخطرة» التي تعمد السلطة إلى اعتقال من يقتنيها، كما سوف نرى في معارك القمع القادمة.

□ **في مطلع تموز ١٩٢٩:** يعلن سائقو السيارات في بيروت إضراباً جزئياً، من أهدافه: تخفيف الرسوم عن السيارات. إعادة النظر بأنظمة السير. العفو عن المخالفات. وقد دعم الحزب، من خلال «لجنة التنظيم بالنقابات» هذا الإضراب. كما أن «النقابة العامة لتعاون العمال في زحلة»، وكانت بقيادة الشيوعيين، ساهمت في الدعوة إلى إضراب سائقي زحلة، وتنفيذ هذا الإضراب، تضامناً مع إضراب سائقي بيروت. على أن نقابة السواقين كانت تضم السائقين وأصحاب السيارات وأصحاب ورش التصليح، معاً، ويؤثّر في قيادتها بعض الزعماء الوجهاء... وبوساطة هؤلاء، وعدت الحكومة بدرس المطالب، فحُلّ الإضراب رأساً... ليعود السواقون، فيما بعد، وقد استفادوا من هذا الدرس، إلى إعلان سلسلة إضرابات يكون لها دويّ سياسي، وأهمية سياسية في البلاد (خاصة خلال عام ١٩٣٢).

□ **في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٢٩:** في زحلة أيضاً. أصدرت السلطات مرسوماً (برقم ٥٨٧٧) يحظّر فيه نشاط «النقابة العامة لتعاون العمال في زحلة». حاول قادة النقابة الحصول على ترخيص جديد، لم تعطهم السلطات. هجم الدرك على مركز النقابة. كان هناك يافطات عن حقوق العمال وعبارة «يا عمال العالم اتحدوا». «حملوا كل عفش المركز، بدون مبالغة، استعانوا ببعض الحمّالين. أخذوا المقاعد، والطاولات، واليافطات، و «يا عمال العالم اتحدوا»... وسكّروا المكان» ـ (من حديث عامل شيوعي كان في مركز النقابة ذلك اليوم) ـ على أن هذه القضية تطورت إلى درجة أنها أحدثت دوياً على نطاق لبنان، ووصل إلى بعض البلدان العربية، وإلى العالم:

ـ ففي ٢٢ شباط ١٩٣٠ وزع قادة النقابة المنحلة بياناً بعنوان «بيان... واحتجاج... ونداء»... يدعون فيه سكان زحلة إلى الاحتجاج على حلّ النقابة، ويندّدون بقرار الحل. اعتقلت السلطات قادة النقابة والعديد من المعروف عنهم أنهم شيوعيون. من المعتقلين: الياس قرعوني. رشيد عاصي. هيكازون بوياجيان. مخايل طراد، وغيرهم.

ـ في آذار تشكلت لجنة للدفاع عن المعتقلين بمبادرة من الحزب، واستمرت هذه اللجنة للدفاع عن معتقلين آخرين، في أيام قادمة!.

ـ في ١٤ آذار: جرت المحاكمة في محكمة بداية زحلة. حشد كبير من العمال

والأهالي. إميل لحود وإميل قشعمي يدافعان عن المتهمين. المتهمون يصرون على مواقفهم. رئيس المحكمة يسأل المتهمين عما إذا كان لديهم ما يريدون قوله. واحد منهم يقول بصوت عال: «إني أطلب إطلاق سراحي حالاً. وأكرر احتجاجي الوارد في النشرة التي نحاكَم لأجلها» ـ (جريدة «صوت العمال» ٣١ آذار ١٩٣٠). يصدر الحكم بحبس المتهمين شهراً. المتهمون يستأنفون الحكم إلى محكمة الاستئناف في بيروت. والقضية تكبر وتتسع. وتأتي الاحتجاجات من فلسطين، ومن سوريا، ومن أنحاء بيروت. ويرسل الحزب، باسم أحد المعتقلين، إلى لجنة «المساعدة الأممية الحمراء» يطلب محامياً مشهوراً في العالم للدفاع في هذه القضية. يتقرر أن يأتي المحامي الكبير، من أصل لبناني من دير القمر، يعيش في فرنسا، ويرافع في قضايا دولية، هو أنطوان الحاج. عضو بارز في «الجمعية القضائية الأممية»، وعضو في الحزب الشيوعي الفرنسي. (فيما بعد ساهم في حرب المقاومة ضد الهتلريين. قُبض عليه وأعدم في ١٩ أيلول ١٩٤١)... في لبنان جرى بينه وبين السلطة صدام جدير أن يروى:

أحد المتهمين بهذه القضية روى لي (في حديث خاص): «قال لي ضابط السجن: أنت طلبت محامياً من فرنسا؟ ـ أدركت أن الحزب لا بد أنه طلب هذا ـ قلت: نعم! قال: إذا جاء هذا المحامي، فسوف نحكم عليك عشر سنوات! قلت: فليكن!... وصل أنطوان الحاج. قابلني. فهم ظروف القضية. قال: سوف يُفرج عنكم غداً!... ولكنه خطب في أحد الاحتفالات ضد الانتداب. وذهب إلى سوريا حيث خطب أيضاً. صدر أمر بإبعاده من البلاد في أول باخرة. كانت باخرة «الشمبليون» ستسافر بعد عدة ساعات. جاؤوا إليه في الأوتيل لاعتقاله. سكَّر الباب، وبقي في الغرفة. دقّوا عليه، لم يفتح. كتب رسالة إلى المفوض السامي: «تقول إنني غير مرغوب فيّ هنا!. تعال نجري استفتاء. الشعب يقول لك إنك أنت غير المرغوب به هنا. فأنت مستعمر. أما أنا فهذه بلادي». أخذ رفاقنا نص الرسالة، نشروها في كل مكان... بعد ست ساعات فتح أنطوان باب غرفته. كانت الباخرة قد سافرت! لكنهم سفَّروه قبل المحاكمة. وهناك قدّم مذكرة قانونية مبكّلة إلى عصبة الأمم حول القضية، ونُشر مضمون المذكرة في بعض الصحف الفرنسية. أثارت دوياً حول قضيتنا. صدر الأمر بالإفراج عنا».

□ **الاثنين ١٧ آذار ١٩٣٠:** يصدر العدد الأول من جريدة **«صوت العمال»** الأسبوعية. رئيس تحريرها ومديرها المسؤول: فؤاد الشمالي. جريدة خاصة بشؤون «العمال والفعلة والفلاحين» من مهماتها الأساسية حثّ العمال على تنظيم صفوفهم بالنقابات والجمعيات. و «سنقف دائماً في صف الضعيف ضد القوي. ومع المظلوم ضد الظالم. ومع مسلوبي الحقوق ضد المغتصبين... لا نستعطف حاكماً ولا نسترحم قاضياً، ولا نتزلّف لأحد من الرأسماليين والأغنياء والملاكين». (من افتتاحية العدد الأول). تلعب الجريدة دوراً تحريضياً وتنظيمياً فعالاً. تنتشر في مختلف أنحاء العالم العربي. يتطوّع لها مراسلون ووكلاء في: بغداد. حيفا. يافا. الاسكندرية. دير الزور. حلب. زحلة. الباروك. بكفيا. الشوير. الخنشارة. (قائمة هؤلاء المراسلين منشورة في العدد الثالث ١٧ نيسان ١٩٣٠). تنشر مواد عن الحركات العمالية في مختلف البلدان العربية والخارج. تُبرز النضالات العمالية في لبنان. تقدم الاقتراحات لتشكيل: «لجنة مقاومة البطالة» ـ «لجنة الدفاع عن المعتقلين» ـ وتقترح بنوداً لسنّ قانون حماية العمال. وتكتب مقالات «تطور تاريخ البشرية» من وجهة نظر طبقية. وتكتب عن الحركة الشيوعية في الخارج. وتقدم تعريفاً جيداً لكلمة «بولشفيك»، وتنشر مقالاً حول «مظاهرات أول أيار في التاريخ». وتخصص ثلاث افتتاحيات حول مطالب عمال الدخان، ومظاهراتهم في تلك الفترة... صدر منها أربعة أعداد. وطفح كيل المفوض السامي... فأصدر قراراً بتعطيلها!.

□ **الأحد ٣٠ آذار ١٩٣٠:** تجري انتخابات البلدية في بكفيا. بين المرشحين، عامل الدخان فريد طعمة، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في لبنان. استفاد الحزب من هذه الفرصة. أصدر برنامجاً كاملاً، باسم المرشح فريد طعمة، ضمّنه الكثير من شعاراته ومطالبه السياسية والاجتماعية (المؤسف أننا لم نعثر على نسخة من هذا البرنامج)... وقام بنشاط واسع في منطقة بكفيا. اجتماعات وخطب وشرح المطالب. فاز فريد طعمة. «وقد حمله العمال والفلاحون على الأكتاف، وطافوا به شوارع البلدة هاتفين بحياة العمال، منشدين الأناشيد الحماسية. إنها خطوة جميلة يا عمال بكفيا، فإلى الأمام أيها الرفاق، ونظّموا صفوفكم للدفاع عن مصلحتكم المشتركة» ـ (جريدة «صوت العمال»، العدد ٢، في ٣١ آذار ١٩٣٠).

... هذه الأعمال والنشاطات كلها كانت تجري ضمن إطار الخطة التي وضعتها اللجنة المركزية، خطة «الصمت ـ والتنظيم» أي بدون إعلان اسم الحزب صراحة، بل استخدام مختلف الأسماء العلنية: أشخاص ـ جمعيات ـ نقابات ـ صحف، الخ... ويبدو أن الحزب نجح في هذا إلى درجة أن هذه الفترة بالذات (١٩٢٨ ـ ١٩٣٠)، المليئة بالنشاط المتنوع المتعدد الأشكال والأسماء العلنية، قيل عنها في فترات لاحقة: إنها «الفترة الغامضة» في حياة الحزب، على أساس أنه لم تصدر خلالها، باسم الحزب الشيوعي الصريح، أية وثيقة أو منشور أو بيان... على أن هذه الفترة لن تطول كثيراً، وسوف يظهر أن الحزب كان فعلاً يُعد نفسه لانطلاقة كبيرة، واسعة، مفاجئة، ومدوية.

ففي شهر نيسان ١٩٣٠، وفي إطار السرية الصارمة جداً، عُقد الكونفرانس الوطني الثاني للحزب الشيوعي. كان هذا في أحد منازل حي الجميزة، بيروت، شارع باستور. ويكتسب هذا الكونفرانس قيمة استثنائية وهامة جداً في حياة الحزب وانطلاقته اللاحقة:

ـ فرغم السرية الصارمة، وحرص الحزب على إخفاء وجوده أصلاً في هذه الفترة، بالإضافة إلى ضرورة الحفاظ على الاجتماع... فقد حضر هذا الكونفرانس ٣٦ مندوباً من منظمات الحزب في: بيروت. زحلة. طرابلس. بعلبك. بكفيا. عكار. دمشق. النبك. يبرود. حلب. حمص.

ـ جدول أعمال الكونفرانس كان: ١ ـ تقرير اللجنة المركزية والمهمات السياسية التي تواجه الحزب، ٢ ـ الأوضاع والمهمات التنظيمية، ٣ ـ انتخاب اللجنة المركزية.

ـ بحث الكونفرانس أعمال الحزب خلال فترة «الصمت» ونتائجها تنظيمياً داخل الحزب، وسياسياً في المجال العام. وبناء على اقتراح اللجنة المركزية قرر الكونفرانس العودة إلى النشاط النضالي العام تحت الاسم الصريح الرسمي للحزب. وفوّض الكونفرانس اللجنة المركزية إعلان وجود الحزب في الوقت الذي تراه مناسباً.

ـ والقرار الهام الذي اتخذه الكونفرانس هو: تكليف اللجنة المركزية **بوضع بيان عام برنامجي (بلاتفورم) مفصّل حول: أهداف الحزب وغايته القصوى. وموقفه من مختلف القضايا التي تجابهها البلاد، وشعارات الحزب وسياسته المرحلية في مختلف الميادين.**

بعد الكونفرانس، رأت اللجنة المركزية أن لحظة إعلان وجود الحزب، أي خروجه من إطار التخفّي، لم تحن بعد. خصوصاً وأن ظهور الحزب يجب أن يرتبط، هذه المرة، بظهور برنامجه السياسي العام. هكذا تشكّلت، في نطاق اللجنة المركزية، لجنة لوضع مشروع البرنامج العام على أساس دراسة شاملة لأوضاع البلاد في مختلف الميادين، وصياغة المطالب العامة، والمطالب الخاصة بكل فئة اجتماعية، استناداً إلى الشيوعيين والأصدقاء العاملين في تلك الميادين وضمن هذه الفئات الاجتماعية.

وواصل الحزب، بأسماء علنية لأشخاص أو منظمات، نضاله السياسي:

□ **مطلع أيار ١٩٣٠:** في هذا العام كانت آلات جديدة قد أُدخلت إلى صناعة الدخان. وهذا أدى إلى صرف عدد كبير من العمال. ظهرت النقمة، أولاً، ضد الآلات. ولكن العناصر الشيوعية بين عمال الدخان وفي قيادة النقابة، عملت باتجاه أن المشكلة الأساسية ليست في الآلة، بل في مالكي الآلة. ورفعت شعار: «يجب أن لا تكون الآلة سبباً للبطالة». مقابل شعار آخر كان رفعه بعض العمال: «نحن وعيالنا فريسة الماكينات، انقذونا!»... وتكتب جريدة «صوت العمال» افتتاحية في الموضوع: «لستم فريسة الماكينات أيها الأخوان، بل فريسة النظام الاجتماعي الحاضر الذي يبيح للرأسماليين أن يحتكروا الآلات الميكانيكية وأن يحصروا منافعها في أنفسهم... النظام الرأسمالي وحده مسؤول عن بطالة العمال وليست الماكينات»... وتدعو الجريدة العمال إلى النضال ليس فقط من أجل التعويض على العمال العاطلين، بل من أجل أن تقر الحكومة قانون ضمان ضد البطالة وقانون حماية العمال.

وينطلق عمال الدخان، في مطلع شهر أيار، بمظاهرة كبيرة تضم أكثر من ألف عامل، تتجمّع في بيروت، وتتجه نحو دار الحكومة تحيط بها. الشعارات مرفوعة: «نحتجّ بشدة على هضم حقوقنا»... «لا تقتلوا العمال، فالحياة في اليد العاملة»... رئيس الوزارة يعد بدرس مطالب العمال في التعويض، وسنّ قانون لحمايتهم.

وسوف يتطور نضال عمال الدخان، وتتصاعد مظاهراتهم، ويخوض العمال معارك عنيفة ضد القمع، تصل إلى مجابهة مع سلطات الانتداب. على أن هذا حديث آخر يأتي.

□ **ففي حزيران ١٩٣٠:** تجري انتخابات في نقابة عمال الدخان، ويعود فؤاد الشمالي، كما كان قبل الاعتقال والنفي، إلى قيادة النقابة سكرتيراً عاماً، وفريد طعمة

رئيساً، والمحامي أميل لحود ممثلاً للنقابة لدى الحكومة. ومباشرة، بعد هذا الانتخاب تبدأ النقابة بالإعداد لعمل كبير:

□ **في ٦ تموز ١٩٣٠**: توجه النقابة العامة لعمال الدخان نداء عاماً «إلى جميع نقابات العمال، والعمال غير المنظمين في النقابات، والعمال العاطلين عن العمل» تدعوهم فيه إلى عقد **مؤتمر عمالي عام**. والنداء موقّع من: فؤاد الشمالي. إميل لحود. فريد طعمة.

لماذا هذا المؤتمر؟ ما هي أهدافه؟ وما هي المقترحات المطروحة ليبحثها المؤتمر؟.

«إن نقابتنا التي تدافع بكل قواها عن حقوق عمال الدخان ومصلحتهم المشتركة، والتي جاهدت في هذا السبيل جهاداً طويلاً شاقاً حتى استطاعت الحصول على بعض الحقوق التي طالبت بها، ودرست حالة أعضائها الاقتصادية درساً عميقاً، فرأت أن فريقاً كبيراً من عمال الدخان بدأوا يتعطّلون عن عملهم بسبب نظام البندرول، وأن الأكثرية الساحقة منهم ستتعطل في القريب العاجل بسبب استخدام الآلات الميكانيكية في المعامل، شعرت أن الحاجة ماسة لمطالبة الحكومة بما يلي:

١ ـ وضع «قانون ضمان البطالة».

٢ ـ وضع «قانون حماية العمال».

فبما أن المطالبة بهذين القانونين لا تهمّ عمال الدخان وحدهم، بل إنها تهمّ جميع العمال على اختلاف صناعاتهم ومهنهم.. وبما أن العمال منفردين لا يستطيعون الحصول على مثل هذه المطالب المذكورة وتحقيقها... فلذلك نرى **أن الضرورة تقضي بعقد مؤتمر عام يمثل جميع نقابات العمال، والعمال غير المنظمين، والعمال العاطلين عن العمل، للبحث في حالة العمال الاقتصادية العامة، واتخاذ القرارات اللازمة، وانتخاب لجنة تنفيذية يعهد إليها العمل لتحقيق المقررات»**.

ثم تقدم النقابة في ندائها العام هذا، مشروعاً متكاملاً، يتألف من ١٥ بنداً، لقانون الضمان وحماية العامل، من أجل بحثه وإقراره، والنضال في سبيل تحقيقه. هذا المشروع بالذات، المطروح أول مرة أمام الطبقة العاملة اللبنانية ليكون راية كفاحها

اللاحق، سوف تكون بنوده في أساس مختلف المعارك العمالية اللاحقة، وفي أساس مختلف ما حققته الطبقة العاملة اللبنانية من انتصارات ومكتسبات على صعيد التعويضات والضمانات الاجتماعية، ولا تزال بنود منه راية كفاح عمالي من أجل تحقيقها.

وتستجيب نقابة عمال المطابع مباشرة لهذا النداء. وكانت النقابة قد بدأت تُصدر مجلة عمالية خاصة بها «تصدر مرة في الشهر مؤقتاً»، اسمها «اليقظة» ويرئس تحريرها عضو النقابة يوم ذاك، وعامل الطباعة: **نسيب المتني** (صاحب جريدة «التلغراف» فيما بعد. استشهد في مطلع الانتفاضة ضد حكم شمعون ومبدأ ايزنهاور عام ١٩٥٨) ـ نشرت «اليقظة» في عددها المزدوج ١١ و١٢ الصادر عن حزيران ـ تموز ١٩٣٠ بياناً طويلاً موجهاً إلى «الذين يفهمون ويشعرون ويريدون أن يعيشوا» تدعوهم فيه «إلى المؤتمر الذي تدعو إليه نقابة عمال الدخان». ويعلن هذا البيان «أن مجلس نقابة عمال المطابع قد بحث موضوع منشور نقابة عمال الدخان وفكرة الدعوة إلى مؤتمر عام، وأسفرت نتيجة البحث عن تقرير الاشتراك في المؤتمر والتأييد الكلّي»... ويذكر البيان بعض مظاهر الأزمة الاقتصادية التي أخذت تعانيها البلاد، وخصوصاً العمال، وتدعو إلى ضرورة اتحاد العمال «ليدفعوا الشر الهاجم والمصاب الداهم»... وختم البيان بهذا الهتاف: «فليحيي الاتحاد!.. وليحيي المؤتمر!... ولتحيي نقابة عمال الدخان».

كانت البلاد في جوّ أزمة اقتصادية وأزمة سياسية.

لهذا، يقول نداء نقابة عمال الدخان: «يجب أن يُعقد المؤتمر قريباً، لأن الحالة الاقتصادية السيئة في البلاد دفعت بالتجار وغير التجار إلى عقد مؤتمرات عديدة لمعالجة حالتهم والدفاع عن مصلحتهم. فلماذا نظل نحن العمال وحدنا نائمين مستسلمين؟. ولماذا نظلّ متفرّقين غير منظمين؟ ولماذا لا نخطو خطوة جريئة في سبيل الدفاع عن حقوقنا ومصلحتنا وحياتنا؟».

كيف تتجلى انعكاسات هذه الأزمة الاقتصادية؟

جاك كولان، في كتابه عن «الحركة النقابية في لبنان»، يرسم لنا هذه الناحية:

«... رافق استئناف النشاط السياسي والنقابي للحركة العمالية سنة ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩، بوادر الأزمة الاقتصادية العالمية، فنتج عن ذلك في

لبنان دخول فلاحين وحرفيين جدد إلى سوق العمل، وتسهيل توظيف الرساميل اللبنانية محلياً، وتطوير الصناعة الوطنية وتحديث الصناعات القديمة. إلا أن وضع التشغيل (العمالة) والأجور، كان يزداد سوءاً في مجمله، وكانت سلطات الانتداب والسلطات اللبنانية، ولأسبابها الخاصة، توحّد جهودها ضد محاولات الشغيلة للدفاع عن أنفسهم. كما كانت تعتبر حتى حقهم في التنظيم موضع اتهام، ولم تكن تسمح إلا بالتعاونيات وبالجمعيات المهنية التي تضم العمال وأرباب العمل».

أما على الصعيد السياسي، فمظاهر الأزمة أكثر حدة:

فالمستعمرون الفرنسيون، بعد وعودهم وعهودهم، التي أدت ـ مع سلاح القمع العسكري الوحشي ـ إلى إنهاء الثورة السورية... أخذوا يتخلون عن هذه الوعود والعهود واحدة بعد أخرى... أما متزعّمو الحركة الوطنية العربية فاستمروا في لعبة شدّ الحبل، من وسطه، تارة باتجاه الجماهير الوطنية، وتارة باتجاه الفرنسيين!!. وكانت فرنسا قد وعدت البلاد بدستور وجمعية تشريعية و«حياة ديموقراطية» في ظل انتدابهم... وعندما انتُخبت الجمعية التشريعية، وحاولت إقرار الدستور المقترح، أدخلت على مواده تحت ضغط الجماهير، بعض الشعارات التي ثار الشعب في سبيلها: الوحدة السورية ـ الجيش الوطني ـ حق إلغاء الاتفاقات الدولية ـ حق التمثيل الدبلوماسي ـ العفو العام. ولكن المفوض السامي رفض، وطلب التراجع عن هذه البنود وإضافة مادة إلى الدستور (رقم ١١٦) تنصّ على: «أن جميع قرارات المجلس النيابي لا تصبح نافذة المفعول إلا إذا صادق عليها المفوض السامي»!! وتأجّل انعقاد الجمعية التشريعية مرة ثانية وثالثة... ثم اقترحوا إحالة قضية الدستور النهائي لسوريا (ولبنان) إلى اجتماع لجنة الانتدابات في عصبة الأمم... هذا يعني، بالنسبة للشعب، استمرار «الدساتير» المعلنة والتي تقسم البلاد إلى عدة دويلات وحكومات في: دمشق ـ بيروت ـ جبل الدروز ـ العلويين ـ الاسكندرون...

ـ «فلتسقط الدساتير المعلنة!».

هكذا كان شعار الحركة الوطنية المعادية للانتداب في تلك الفترة. وكانت هذه الحركة قد انقسمت إلى فئتين: واحدة تريد «التعاون والتفاهم والإيجابية» مع المستعمرين، تقول بالقبول بالدستور، والمطالبة بأكثر فيما بعد!.. ومن عناصرها جميل مردم.. وفئة أكثر

تحرراً، من عناصرها فخري البارودي، رفضت الدستور بصيغته الفرنسية. وقد عبَّر البارودي عن هذا الاتجاه في تصريح نشرته جريدة «الأحوال» ـ (١٩٣٠/٦/٦) أعلن فيه: «أن الدستور الجديد الذي أعلنته السلطة الافرنسية هو عبارة عن قيد ثقيل يقيد البلاد إلى أمد مجهول. وأن **الدساتير المعلنة** معه يُفهم منها بصراحة ووضوح أن السلطة تريد إقرار تقسيم البلاد إلى دويلات وحكومات». وقال البارودي «إن الوحدة العربية هي أمنية كل عربي»... وفي أحد الاجتماعات الحاشدة في دمشق (١١ حزيران ١٩٣٠) أقرّ المجتمعون عدة قرارات احتجاجية ضد سلطة الانتداب، منها: «ـ ١: الاحتجاج على منع الجمعية التأسيسية من إتمام مهمتها ـ ٢: الاحتجاج على إجراء تجزئة البلاد السورية بإصدار عدة دساتير مختلفة ـ ٣: الاحتجاج على التحفظات التي وردت في المادة ١١٦ لأنها تغاير قواعد الاستقلال والسيادة القومية وتنقض بنيان سائر الدستور ـ ٤: الاحتجاج على إبقاء فريق كبير من أبناء هذه الأمة وصفوة رجالها بعيدين عن أوطانهم»[١] (المقصود بهؤلاء عدد من قادة الثورة السورية).

في هذا الجو، وفي إطار هذه المعركة المحتدمة. قررت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، إعلان وجود الحزب، باسمه الصريح.

وكانت اللجنة المركزية قد أعدت خطوطاً عامة للبرنامج الذي كلَّفها الكونفرانس الثاني بإعداده. فرأت أن تعلن عن وجود الحزب، بواسطة منشور عام يرتكز على ما توصلت إليه من دراسة للوضع، وينطلق من طابع المعركة المحتدمة، ويستوحي تجربة الشعب والحزب في الثورة السورية.

وقررت اللجنة المركزية: أن يُصار إلى لصق هذا المنشور وتوزيعه في جميع المدن الرئيسية في لبنان وسوريا، وفي القرى حيث توجد للحزب منظمات، على أن تتم هذه العملية، **دفعة واحدة، وفي وقت واحد**، في جميع الأنحاء المرسلة إليها.

---

(١) راجع بهذا الصدد كتاب الدكتور عبدالله حنا «الحركة العمالية في سوريا ولبنان» ـ الصفحات ٢٣٤ و٢٣٥ و٢٣٧.

وتقرر الموعد: **ليل ٦ ـ ٧ تموز ١٩٣٠.**

وانطلق الرفاق.. من كل مكان، وإلى كل مكان.. في ليل الإرهاب الفرنسي. وفي أيام احتدام ينذر بمعركة دموية جديدة. يحملون «العدّة» اللازمة: المناشير. مادة اللصق. الرمل في الجيوب لقذفها بوجوه البوليس وعيون السلطة. والحذر، حتى لا تفشل العملية. وبسالة لزمنٍ يتطلّب بسالة استثنائية.

فماذا حدث؟

في صباح ٧ تموز. المناشير في كل مكان. على جدران المدن الرئيسية، وفي ساحات القرى. في إدارات الصحف. ودوائر الدولة. وبعض قطاعات الجيش.

دويّ هائل تصاعد في كل مكان، وتجاوز لبنان وسوريا إلى البلاد العربية والعالم.

اقرأوا المنشور أولاً. أما عن الدويّ فلن نقول حرفاً واحداً من عندنا. سنترك صحف تلك الفترة نفسها تتحدث.

وهذا هو نصّ المنشور، وقد انتزعه مراسل «الأهرام» في بيروت عن أحد جدران العاصمة اللبنانية، وأرسله إلى جريدته فنشرته «الأهرام» كاملاً في عددها الصادر في ١٢ تموز ١٩٣٠.

[لا بد من الإشارة هنا، أن هذا النص هو الوحيد الذي عثرنا عليه، نقلاً عن «الأهرام» ـ أيام إعداد الطبعة الأولى في هذا الكتاب ـ وقد رجّحنا، يومها، أنه النص الكامل للمنشور نفسه = ثم عثرنا مؤخراً (عام ١٩٨٤) على نسخة أصلية من المنشور نفسه. وعند المقارنة تأكّد لنا أن النص المنشور في «الأهرام» هو بالفعل النص الكامل. والفرق الوحيد أن التاريخ المطبوع في النص الأصلي مكتوب حسب التقويمين. الهجري (٥ صفر ١٤٣٩) والميلادي (١٩٣٠/٧/١) ـ وقد اكتفت «الأهرام» بالتاريخ الميلادي].

وهذا هو البيان:

يا عمال العالم، اتحدوا!

بيان من الحزب الشيوعي السوري
إلى العمال، والفلاحين، وأرباب الحرف، والمفكرين السوريين

إن المستعمرين الافرنسيين أعلنوا الدساتير في البلاد السورية رغم إرادة الشعب فجزأوا سورية إلى دويلات. وكبّلوا الشعب بقيود الاستعمار لاستنزاف ثروة البلاد، واستثمار الشعب العامل وإرهاقه في سبيل مطامع الرأسماليين الافرنسيين فتتضخّم ثرواتهم، بينما نحن وعيالنا نقاسي آلام البطالة والشقاء والجوع.

أيها العمال والفلاحون! منذ سنوات وأنتم تناضلون لأجل استقلال بلادكم، فذهبت حياة الآلاف منكم ضحية ظلم المستعمرين الذين دمّروا دمشق على رؤوس الأطفال والنساء والشيوخ. وحرقوا القرى. وخرّبوا البيوت. وعلّقوا المئات من العمال والفلاحين على أعواد المشانق، وأعدموا الكثيرين منكم رمياً بالرصاص... فهل ترضون بان تذهب كل تلك الضحايا هباء منثوراً؟. وهل تسمحون بان يستعبدكم المستعمرون، ويستثمروا ثمرة عرق جباهكم، ويسلبوكم حقوقكم؟.

إننا نرفض الدساتير المعلنة في البلاد السورية رفضاً باتاً. ونعلن أن كل من يقبلها ويعمل على تنفيذها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فهو عدو للوحدة السورية وعدوّ استقلال البلاد.

أيها العمال والفلاحون!. لقد خدعوكم وخانوكم مراراً كثيرة، فيجب أن تضعوا حدّاً لخداعهم وخيانتهم. إن الزعماء الوطنيين خانوا الثورة ودخلوا في مفاوضات للاتفاق والتفاهم مع المستعمرين الذين وعدوا بإعلان العفو العام، ولكنهم لم ينفّذوا وعدهم، فظلّ المئات من أخواننا الثائرين في الصحراء يقاسون انواع الشقاء والآلام حتى اليوم.

ووعد المستعمرون بان يتركوا للشعب حرية وضع الدستور، فانتهز الأغنياء والإقطاعيون تلك الفرصة ووضعوا دستوراً لأبناء طبقتهم مؤلفاً من ١١٥ مادة ليس بينها واحدة تعطي الأرض للفلاحين وتمنع استثمار العمال. وأخيراً سلب المستعمرون حق الشعب في وضع دستوره، واستأثروا بوضعه هم وحدهم.

إن النتائج التي حصلنا عليها بالثورة أضاعها الزعماء الوطنيون «بسياسة الاتفاق والتفاهم».

إن المناضلين الحقيقيين لاستقلال سورية هم نحن العمال والفلاحون، وينضمّ إلينا كل المخلصين للاستقلال التام.

أيها الشعب السوري العامل!. لسنا وحدنا في نضالنا ضد الاستعمار، بل إن هناك مئات الملايين من الشعوب المظلومة في الهند، والصين، والهند الصينية، وغيرها، يناضلون الاستعمار بشدّة. وفي البلاد العربية، في فلسطين ومصر والعراق، يعمل أخواننا العرب على تحطيم نير الاستعمار. وهناك أيضاً بضعة ملايين من العمال والفلاحين الثائرين في البلاد الاستعمارية نفسها يؤيدوننا في نضالنا ضد الاستعمار. وروسيا البولشفيكية، نصيرة الشعوب المظلومة التي تعمل على سحق القوى الاستعمارية نفسها وتحرير الشعوب الضعيفة من نير الاستعمار، هي أيضاً معنا في كفاحنا لتحرير انفسنا. وعصبة مقاومة الاستعمار في برلين، تبذل جهدها في سبيل تحطيم المستعمرين في أنحاء العالم.

أيها العمال والفلاحون! إن الحزب الشيوعي السوري يدعوكم إلى:

١ ـ رفض الدساتير المعلنة في البلاد السورية رفضاً باتاً.

٢ ـ فضح الزعماء الوطنيين الخائنين.

٣ ـ عقد مؤتمر شعبي من أنحاء البلاد السورية، يكون أعضاؤه منتخبين انتخاباً حراً لكي يعلن إرادة الشعب السوري الحقيقية.

فليسقط «الاتفاق والتفاهم» مع المستعمرين الغاصبين. فليسقط الاستثمار. فلتحيي حكومة العمال والفلاحين. فليحيي الاستقلال التام والوحدة السورية. فليحيي مؤتمر البلاد العربية ضد الاستعمار. فلتحي عصبة مقاومة الاستعمار. فليحي الانترناسيونال الشيوعي. فليحيى الحزب الشيوعي السوري.

اللجنة المركزية
للحزب الشيوعي السوري
فرع الانترناسيونال الشيوعي

٥ صفر ١٣٤٩ ـ ١٩٣٠/٧/١

هذا البيان ـ الحدث، نابع، كما هو واضح، من تجربة الحزب الغنية خلال الثورة السورية، والسجن، والنفي، والملاحقات. وهو، لهذا، مُشبع بالمرارة والغضب والخيبة من نتائج الثورة التي أخذت تبدّدها مساومات جناح «الاتفاق والتفاهم» من قيادة الحركة الوطنية. ويبرز الحزب هنا، مدافعاً أميناً عن روحية الثورة، وعن شعاراتها التي انبثقت من أعمق أعماق جماهير الشعب المكافح: الاستقلال التام. رفض التجزئة الإقليمية. الوحدة السورية. معاداة الامبريالية. رفض «الاتفاق والتفاهم» مع المستعمرين. أي: **الالتزام بالخط الوطني التحرري الصحيح، ودمج هذا الخط بالحركة الثورية العالمية ضد الاستعمار.**

أما القضية التي طُرحت قبل زمانها بزمان طويل، وقبل نضوج ظروفها السياسية والمجتمعية، أي: قضية رفع شعارات: حكومة عمال وفلاحين، وما يتفرّع عنها من موقف عداء قاطع مع «الزعماء الوطنيين»، فهي مسألة لا بد أن نضعها في إطارها النظري والعملي لتلك الفترة، أي إطارها التاريخي، ونتائجها العملية لنصل إلى تقييم معيّن لها ـ وهذه قضية مرتبطة بالوثيقة البرنامجية المتكاملة التي سوف يُصدرها الحزب، وسوف نتعرّض إليها في صفحات قادمة، مع وثيقة برنامجية أخرى، أصدرها الحزب بالاشتراك مع الحزب الشيوعي الفلسطيني ـ فيتكامل أمامنا ما وصل إليه الفكر النظري للحزب، في تلك الفترة، من خلال تجربته وتجربة الحركة الثورية العالمية، خصوصاً الأممية الشيوعية.

....

[.. وقبل أن نعود إلى تتبُّع ما أحدثته عملية توزيع بيان الحزب من دويّ محلّي وعربي وعالمي. لا بد أن أشير إلى تفسير غريب للشعار الذي طرحه بيان الحزب هذا، ورد في كتاب **الياس مرقص** «تاريخ الأحزاب الشيوعية في الوطن العربي» (دار الطليعة، بيروت ١٩٦٤). يقول حول هذه الفترة بالذات، مشيراً إلى هذا البيان الذي لا ندري إذا قرأه بشكل جدّي: «... وأعلن الحزب الشيوعي السوري شعار، «فليسقط الدستور، ولتسقط الجمعية التأسيسية» كشعار ثوري مناوئ للنزعة الإصلاحية البورجوازية. والتقت هذه السياسة «اليسارية»، موضوعياً، مع مسلك الاستعمار الفرنسي الذي عطّل الدستور، وحلّ الجمعية التأسيسية» ـ انتهى كلامه، (صفحة ٢٧).

ففي هذا الكلام، موقف مُسبق، مقرَّر سلفاً، وليس فيه علم. وانطلاقاً من هذا الموقف يسهل الانتقاد، والتشهير: فإذا وقف الحزب مع الدستور الذي يسنّه المستعمرون، مثلاً، من السهل جداً القول ـ من موقع اليسار ـ «هذه نزعة يمينية ومساوِمة مع المستعمرين»!. وإذا رفض الحزب دستور المستعمرين، وحتى دستور المتعاونين مع المستعمرين، من السهل جداً كذلك القول ـ من مواقع الاعتدال الديموقراطي ـ «إن الحزب ضد النضال الديموقراطي العام الذي تقول به الماركسية. وهذا، موضوعياً، يلتقي مع سياسة المستعمرين»... فإذا ألغى المستعمرون الدستور المسخ ليمسخوه أكثر، يقول صاحب الموقف المسبق: «ألم نقل لكم؟ ها هو الحزب قد التقى مع المستعمرين، فهو قرّر رفض الدستور، وهم أعلنوا إلغاءه»!!.. وهكذا تستمر المماحكة!.

هذا من حيث المنطق الشكلي، لصاحب الموقف المسبق.

«ولكن ـ ونحب هنا أن نستعير كلمات استعملها الياس مرقص نفسه ـ إذا أردنا تجنّب الخطأ في السياسة (+ وفي البحث العلمي) وجب علينا أن نميّز تمييزاً واضحاً ودقيقاً بين ما يجب (+ أو نحب) أن يكون، وما هو كائن فعلاً»... وصاحبنا فسّر الجملة كما يُحبّ لها أن تكون، وليس كما هي بالفعل. فالبيان واضح: «أن المستعمرين الافرنسيين أعلنوا **الدساتير** في البلاد السورية، رغم إرادة الشعب، **فجزأوا سورية إلى دويلات**»... ثم: «إننا نرفض **الدساتير المعلَنة** في البلاد السورية رفضاً باتاً. ونعلن أن كل من يقبلها ويعمل على تنفيذها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فهو **عدو للوحدة السورية وعدو استقلال البلاد**»... ولم يذكر البيان الجمعية التأسيسية هنا، لا بالسوء ولا بالخير! فكلام البيان هنا هو غير الكلام الذي نسبه صاحب الكتاب للحزب، دون أي

إسناد إلى مرجع ما، رغم أن الياس مرقص يحب كثيراً إيراد الكثير من المراجع!!.. لا نزال هنا في الشكل. فعلى الصعيد الآخر: حتى ولو أن الحزب رفع فعلاً شعار «فليسقط الدستور، ولتسقط الجمعية التأسيسية»... فلا بد للباحث الجدلي هنا ـ لا الجدالي! ـ أن ينظر إلى هذا الشعار: تاريخياً، وجدلياً، فيراه في زمنه، ويراه من مختلف جوانبه: وهكذا: فالدستور الذي رفضه الحزب (على افتراض وجود وثيقة لم نرها، تعلن رفض الحزب للدستور، لا للدساتير!) هو الدستور الذي أراد المستعمرون فرضه بعد إضافة المادة ١١٦ عليه والتي تشترط **موافقة المفوض السامي على قرارات المجلس** ـ حسب هكذا دستور ـ **حتى تصبح القرارات نافذة!!** ـ فهل يكون الحزب، الذي عبَّر في موقفه، تماماً، عن موقف الحركة الوطنية، في تلك الفترة، المعادية لتجزئة البلاد، ولتحويل الدولة إلى دويلات طائفية ومناطقية، والمعادية للاستعمار أساساً، وعن توجّهه في كفاحه وفي عمله المشترك معها، هل يكون «قد التقى، موضوعياً، مع مسلك المستعمرين الفرنسيين؟..».

فمع من، ومع ماذا، تلتقي، موضوعياً، أمثال هذه التفسيرات... والمماحكات «القومية»... «الموضوعية»؟!!. قد تلتقي مع أي كان، ومع أي شيء، ومع مطلق جهة لا يعجبها الحزب الشيوعي، «ولكنها بأي حال ـ وهنا أيضاً نستعير كلمات لالياس مرقص نفسه ـ لا تلتقي مع البحث العلمي أبداً»!. هي معادية للعلم، بشكل مطلق.

نعتذر إلى القراء. ونواصل الحديث].

....

فؤاد الشمالي: «في ليلة ٦ تموز ١٩٣٠ نفسها، اجتمعت اللجنة المركزية في جلسة خاصة، وقررت الانتقال مؤقتاً إلى دمشق، واحتجاب قادة الحزب عن أنظار الشرطة ردحاً من الزمن. وهذا ما نفّذناه بعناية ودقّة.. وما أن وُزعت النشرات في طول البلاد وعرضها، وتوارى الرفاق المعروفون عن أنظار الشرطة، حتى قامت قيامة الأمن العام، وأخذ رجاله يواصلون تحرياتهم وأبحاثهم ليل نهار ليقفوا على أثر لنا، فلم يُوفّقوا... وقد علمتُ فيما بعد أن الشيخ درويش الدحداح (مدير الأمن العام)، مكث بضعة أيام في بكفيا وضواحيها مفتّشاً منقّباً عن مكان وجودي فلم يوفق. وكان الشيخ الدحداح يرتاد تلك الأنحاء تارة في شكله العادي، وتارة أخرى في لباس بدوي، ولباس بائس

مسكين يستعين على المسير بعكازتين!.. ومع هذه البراعة في «التخفّي» لم يستطع «شارلوك هولمز اللبناني» أن يكتشف مقرّي ورفاقي... إذْ كنّا يومئذ نعيش في غرفة صغيرة كائنة في أحد بساتين الشام، نراقب حركة الحزب والرفاق، ونعقد فيها جلسات مركزية متتابعة لمواصلة الأعمال والتحرّكات الحزبية وإدارتها. ومكثنا في تلك الغرفة مدة شهر ونحن على اتصال تام بجميع فروع الحزب، وبالكومنترن»...

وهكذا، فإن عملية توزيع بيان الحزب، بهذا الشكل المفاجئ، القوي، الباهر، وعلى هذا النطاق الواسع «أدهش السلطات - يروي فؤاد الشمالي - وجعل الصحف تكتب الفصول الطوال عن هذه الحركة الفجائية، وتطالب السلطات بأن تعير الحركات الشيوعية اهتماماً جدّياً. إذ إن توزيع نشرات الحزب في مثل هذه الدقة والتوسُّع يدل على أن هناك حزباً شيوعياً منظّماً... وهذه الحركة الفجائية التي قمنا بها لم تُدهش الأمن العام والصحف المحلية فحسب، بل أن الأحزاب الشيوعية العالمية قابلت حركتنا بشيء من الدهشة والاستغراب والإعجاب، إذ إن سكوتنا وهدوءنا مدة عامين جعل فروع الكومنترن الخارجية تظن أن الضربة التي وُجهت إلينا قضت على الحزب... وهكذا نشرت معظم الجرائد الشيوعية العالمية خبر وجود حزب شيوعي منظم في سوريا ولبنان في أظهر مكان من أعمدتها»[١].

فماذا قالت الصحف المحلية؟

بعض صحف تلك الفترة عبَّر عن الذعر، انطلاقاً من موقف طبقي أو ممالأة لسلطات الانتداب، وهو موقف طبقي أيضاً. على كل حال: من خلال هجوم الآخرين نعرف طبيعة الحدث وقوته:

- **«الراصد»**: «... وهكذا ظهر موّال جديد، موّال الشيوعية، والبيانات الشيوعية الملصَقة والموزعة في الشوارع وفي منازل المدن. هذه البيانات تدعو عمال وفلاحي سوريا، وكل البلدان العربية، إلى الثورة ضد الامبريالية والرأسمالية المحلية، وإلى النضال ضد الكتلة الوطنية التي خانت الثورة السورية حباً بمصالحها الطبقية

(١) فؤاد الشمالي: «كيف تنظمت الحركات الشيوعية...» مجلة «العاصفة» - العدد ٥٦ في ١٩٣٣/٩/١١. صفحة ١٦ و١٧.

الخاصة... إن الأوساط المسؤولة قلقة من نشاط الشيوعيين السوريين المرتبطين بالتأكيد بالحزب الشيوعي في فلسطين... نكتفي بذلك في الوقت الحاضر بانتظار النتائج التي سيُسفر عنها تحقيق البوليس، لمعرفة ما إذا كان يوجد فعلاً مثل هذا الحزب، أم أن الأمر يتعلق ببساطة ببعض المغامرين الذين يخلقون لنا صعوبة جديدة في الوقت الذي نحتاج فيه إلى النظام والهدوء للتغلّب على أزمتنا الاقتصادية»(١).

□ **«البرق»**: تشير في افتتاحية إلى «هذه المناشير الشيوعية الملصقة على الجدران». وتنشر فقرات من البيان نفسه، تنهيها بفقرة البيان التي تدعو «إلى عقد مؤتمر شعبي من أنحاء البلاد السورية يكون أعضاؤه منتخبين»... وتقول، محاولة السخرية: «انتهى المنشور بنصه الشائق ومعناه الرائق!.. بقي أن نعرف شيئاً عن قانون الانتخاب الذي يدعون إلى عقد المؤتمر بموجبه. فإن كثيرين من الذين فُشلوا مع قانون «روبر ده كه» في الانتخابات النيابية يريدون أن يجرّبوا حظّهم مع القانون الذي وضعته اللجنة المركزية الشيوعية الموقرة!

«وبعد... فماذا يخافون من الشيوعية في لبنان؟.. بل كيف يتعامون عن هذه الشيوعية الضاربة أطنابها في كل مكان منه حتى في قلب دار الحكومة ـ لقد كان هناك فارق وهمي بسيط هو الاعتقاد أن الشيوعية منحصرة في الشعب اللبناني دون حكومته، أما بعد إعلان وزارة المالية إفلاس الخزينة، فقد سادت الشيوعية بين الجميع، ونريد بها شيوعية الافلاس!.»!! (الاثنين ١٤ تموز ١٩٣٠).

□ **«فلسطين»** (تصدر في حيفا): «هل يمكن أن يكون شيوعيو فلسطين

(١) أقوال بعض الصحف نقلناها عن مصادر أخرى نقلتها عنها بدورها في تلك الفترة. وقد عمدنا إلى هذا مضطرين لأننا لم نعثر على بعض هذه الصحف نفسها لننقل عنها مباشرة = وأقوال جريدة «الراصد» هنا، نقلناها عن مقال حول هذا الحدث نفسه نشرته مجلة «المراسلات الأممية» ـ العدد ٧٤، في ٣ أيلول ١٩٣٠ ـ صفحة ٩٩٨ ـ دون أن تورد تاريخ صدور «الراصد».

وسوريا قد بدأوا بتطبيق قرار المكتب السياسي للأممية الشيوعية حول تعريب هذين الحزبين، وإيجاد اتحاد شيوعي عربي؟. هل يمكن أن نجد أنفسنا أمام هذا الخطر البالغ؟. إننا نأمل أن حكومتنا ستعرف كيف تُجهِز على الشيوعيين في مهلة قصيرة» ـ (نقلاً عن العدد نفسه من «المراسلات الأممية»).

□ **«الأهرام»** (القاهرة) ـ لمراسل الأهرام في بيروت: «ضبط بعض الحراس في ليل أمس شاباً يُلصق منشورات شيوعية على جدران الشوارع والمنازل في بيروت، ولما سُئل بعد اعتقاله صرح أن رجلاً أوهمه أن هذه المناشير إعلانات تجارية، ودفع له أجرة لقاء إلصاقها على الجدران... وقد أحدث هذا الخبر اهتماماً جدياً في الدوائر الفرنسوية... وتمكنتُ من الظفر بنسخة من هذه المناشير رغم ضبط السلطة لها..» (في ١٢/٧/١٩٣٠) نشرت «الأهرام» وفي عددها هذا نفسه النص الكامل للبيان. فصودر العدد في سوريا ولبنان!. (= وكانت «الأهرام» هي الجريدة العربية الوحيدة التي نشرت النّص الكامل لهذا البيان وهو النص الذي تأكّدنا من صحته وأوردناه في هذا الكتاب... فشكراً لـ «أهرام» ذلك الزمان..).

□ **«البرق»**: «بلغ عدد الذين أوقفهم رجال الأمن بقضية إلصاق وتوزيع المناشير الشيوعية خمسة. وقد ألصق مثل هذه المناشير في حلب ودمشق وطرابلس وعاليه وزحلة وصيدا. وأوقفت الحكومة السورية ٢٤ متهماً. ويُقال إن مندوب الدولية الثالثة فرّ على الباخرة شامبوليون» ـ (الاثنين في ١٤ تموز ١٩٣٠).

□ **«الرقيب»** (تصدر في طرابلس): نشرت افتتاحية محمومة ضد الحزب الشيوعي بمناسبة توزيع نشرات الحزب في طرابلس. والمقال يحرض السلطات على استعمال القسوة. مع الشباب الثلاثة الموقوفين بتهمة إلصاق هذه المناشير وهم: عبدالله الرافعي، أحمد الرافعي، محمد الأدهمي. وتقول الجريدة: «... فعلى أولياء الأمر أن

يضربوا بشدة قبل أن تمتد هذه الروح، وذلك باتخاذها جميع الذرائع الفعّالة لإجبار الطلاب المقبوض عليهم على الإقرار بأسماء محرّضيهم!.. ولا يساور أفكار المحققين الخوف من أي كان في سبيل الوصول إلى تصريح جلي مهما استعملوا من القسوة، لأن الصرامة بحق أفراد خير من هلاك مجموع كبير» ـ (١١/١١/١٩٣٠).

وبدون أن تنتظر هذا النوع من التحريض، فإن سلطات الانتداب، التي صعقها هذا الحدث، خصوصاً أنه جاء في ذروة احتدام أزمة سياسية واقتصادية في البلاد ـ هبّت لتتولى أمر التحقيقات والملاحقات بذاتها، وليس من خلال أجهزة الحكومات المحلية:

- «**الأحوال**» (تصدر في بيروت): «استلم حضرة المحقق الإفرنسي التحقيق في قضية الشيوعية التي تولاها مدة طويلة الاستاذ صبحي أفندي المحمصاني. ويذكر القراء من التحقيقات التي قام بها مندوبنا في بدء ظهور مناشير الشيوعية في البلاد، أن مصدراً طلب إجراء تحقيقات واحدة في البلاد المشمولة بالانتداب، باعتبار أن الذين وزعوا المناشير في سوريا ولبنان، وغيرهما تابعون لعصبة واحدة، إلا أن الأمر لم يتم على هذا الوجه لأن القوانين المحلية تمنع ذلك... ثم عادت القضية فتطورت بعد فرار بعض الأجانب. وتقرر اعتبار أن مقر الجريمة في لبنان، وأن الذين وزعوا المناشير في الداخلية (أي: سوريا) مرتبطون بالمركز الرئيسي في لبنان... ولهذا: أحيلت القضية إلى المحكمة الأجنبية المختلطة. وتقرر جلب كل الموقوفين في هذه القضية إلى بيروت حيث يحاكمون فيها. وقد صرح لنا أحد كبار الثقاة أن لقضية المؤامرة الشيوعية هذه أهمية خطيرة تهتم لها السلطة المنتدبة التي ترمي من إحالتها للمحاكم المختلطة إلى التعاون على إظهار أسرار المؤامرات الشيوعية في البلاد» ـ (نقلاً عن «**البرق**» ـ الأربعاء ٦ آب ١٩٣٠ ـ نشرته في زاوية: أهم الأخبار المحلية في الصحف اليومية).

فهل خاف الشيوعيون من حملة الاعتقالات الواسعة هذه، والملاحقات، والإرهاب العملي من قبل السلطة، والإرهاب المعنوي من قبل أجهزة الإعلام، والإيهام الهائل بأن في الأمر مؤامرات دولية خطيرة؟.

هذا التخريف الواسع، يعبِّر عن ذعر السلطة وعملائها... (فلنواصل نحن بدورنا، إرهابنا الخاص، ضد سلطة المستعمرين والعملاء) ـ قال الرفاق هذا، وتابعوا حملة التوزيع ودرز الجدران بالمناشير، في ليل الإرهاب الفرنسي:

- «**البرق**»: «صادرت الشرطة في طرابلس أربعة مناشير شيوعية مطبوعة على قماش أحمر، وملصوقة على المنازل القائمة في أطراف مدينة طرابلس.
وقد كُتب على إحداها: **ليحي الحزب الشيوعي السوري. لتحي الوحدة السورية.**
... وعلى الثاني: **ليحي الحزب الشيوعي السوري. ليحي حزب العمال. لتحي الوحدة السورية.**
... وعلى الثالث: **ليحي الحزب الشيوعي. ليسقط الرأسماليون.**
... وعلى الرابع: **ليحي الحزب الشيوعي السوري. لتحي الوحدة السورية. ليحي أول أيار**» ـ (الأربعاء ٦ آب ١٩٣٠).

- «**البرق**»، أيضاً: «وُزعت مناشير شيوعية يوم الاثنين الأسبق في جهات الجبل. وفيها عبارات تتضمّن التحريض والاحتجاج على الحالة الحاضرة في البلاد» ـ (الأربعاء ١٣ آب ١٩٣٠).

- «**البرق**»، كذلك: «اعتقل رجال الشرطة المدعو حنا سربان بينما كان يوزع المنشورات الشيوعية في حيّ الأرمن، وضبطوا منه خمسين منشوراً، وسلّموه إلى القضاء» ـ (١٨ أيلول ١٩٣٠).

أعتقد أن هذه النماذج تكفي. ليس لأن جعبتنا من أمثال هذه الأخبار قد انتهت، بل لأننا سوف نلتقي، خلال الصفحات القادمة، بسيل آخر من هذه الأخبار، ناتج عن سيل

آخر من المناشير، حول سيل آخر من الموضوعات المتعددة. فالرفاق قد استعدوا، والمعركة فُتحت، ولا بد أن تتصاعد. والسلطات الاستعمارية تعرف هذا جيداً: فاتساع ميدان المعركة، واتساع مداها، يدل أن القضية لم تعد بسيطة. وها هو المفوض السامي الفرنسي في لبنان وسوريا يُصدر قراراً يفرض بموجبه عقوبة الأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات على **جريمة الدعاية الثورية**[١]!. هكذا... أما تحديد ما هي «الدعاية الثورية» فأمر متروك لأولي الأمر من... المستعمرين!

والآن، كيف انعكست هذه الأحداث في مجلة الأممية الشيوعية؟

في العدد ٧٤ من «المراسلات الأممية» الصادر في ٣ أيلول ١٩٣٠، عرضٌ يتضمّن، إلى جانب تقييم هذا الإنجاز الذي يقوم به الحزب، بعض الوقائع الهامة والطريقة التي نتجت عن توزيع البيان:

«أعلنت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري (اللبناني)، بعد تهيئة طويلة، في السابع من تموز، عن وجود الحزب كحزب سياسي. في ذلك اليوم أغرق شيوعيو لبنان وسوريا كل شوارع دمشق وبيروت وحلب وطرابلس وصيدا ومدن وقرى أخرى، بمناشير شيوعية يعطي فيها الحزب تقييمه للوضع السياسي الراهن في سوريا وللشروط المفروضة على عمال وفلاحي لبنان. ويشدّد الحزب كذلك في بيانه على سياسة قطّاع الطُرق التي تمارسها الامبريالية الفرنسية منذ عدة أشهر، وعلى إفلاس «الكتلة الوطنية» البورجوازية السورية وخيانتها، وإلى متابعة النضال الصلب تحت قيادته ضد الامبريالية الفرنسية وأتباعها، من أجل إقامة حكومة عمال وفلاحين ونيل التحرر والاستقلال الوطني التام لسوريا.

وقد حصل بيان الحزب على تأييد العمال والفلاحين، فأوصلوه إلى القرى الأكثر بعداً.

---

(١) مضمون هذا القرار أورده جاك كولان في كتابه «الحركات النقابية في لبنان» نقلاً عن «التقرير إلى عصبة الأمم لعام ١٩٣٢» ـ صفحة ١٣٧.

وفي طرابلس: منع سكان حي عمالي البوليس من تمزيق المناشير الملصقة. وقد فوجئت السلطات من أن البيان قد ألصق، في وقت واحد، في عدد كبير من المدن والقرى، وقد استشاطت غضباً لكونها عجزت عن وضع يدها فوراً على الذين ألصقوا هذه المناشير... وهذا ما دفعها إلى توقيف... رجال البوليس الليليين (في طرابلس) وفرضت عليهم عقوبة صارمة!. وهكذا بدأ البوليس، بعد تشدّد السلطة معهم، بإرهاب الجماهير العمالية، فأُجريت الاعتقالات في طرابلس وبيروت والاسكندرون ودمشق وغيرها...

إن بيان الحزب الشيوعي السوري يشكّل خطوة كبيرة تم إنجازها مؤخراً لتنمية الشيوعية في البلدان العربية، وحدثاً بالغ الأهمية في تاريخ الأممية الشيوعية.

إن هذا الفصل الجديد من المعركة هو في تماسٍ مباشر مع الجماهير العربية، وإن الحزب الشيوعي السوري، وهو الوحيد المدافع عن أهداف ومصالح العمال السوريين، ينخرط اليوم في نضال البروليتاريا الأممية. إن بيان الحزب الشيوعي قد أثار القلق البالغ لدى الامبرياليين الفرنسيين، ولدى البورجوازية العربية.

لقد جرى حتى الآن توقيف ٢٥ شخصاً بتهمة المؤامرة على «الجمهورية»!. وسيجري تشكيل محكمة خاصة لمحاكمة رفاقنا هؤلاء، ومن المتوقع أن الحكم سيكون قاسياً وبربرياً.

إن رفاقنا الشيوعيين السوريين هم أمام مهمات جدّية ومليئة بالمسؤولية، ويقع على عاتق هذا الحزب الفتي واجب النضال ضد أعداء أقوياء، مهيئين بشكل جيّد جداً، ومجهّزين بكل وسائل الضغط.

غير أن الحزب الشيوعي السوري، طليعة البروليتاريا في سوريا ولبنان لن يتوقّف أمام ردة فعل الرجعية ولا أمام الاستفزازات. وهو سيمضي إلى الأمام، وسيجعل روابطه مع الجماهير العمالية العربية أكثر فأكثر وثوقاً، وسيرسي نفوذه بقوة متزايدة بين النقابات، وسيناضل من أجل تكوين اتحاد نشيط للأحزاب الشيوعية في البلدان العربية، من أجل ثورة العمال والفلاحين الديموقراطية، وللقضاء على

جميع الشروط الاكليريكية والإقطاعية، ولإسقاط الامبريالية، ومن أجل الثورة الزراعية» ـ (صفحة ٩٩٨ ـ ٩٩٩).

لقد تميزت فترة ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ بنشاط واسع من قبل الحزب، على صعيد ممارسة الكفاح اليومي، وعلى صعيد النتاج النظري كذلك. وكان الحزب يهدف، خصوصاً في فترة الانطلاقة هذه، إلى تأكيد وجوده القوي، وإثارة الدويّ حول هذا الوجود، لتستطيع أفكار الحزب، واسم الحزب، الدخول إلى أوسع فئات الجماهير. كذلك فإن نتاجه الفكري السياسي والنظري كان يتوجّه إلى الجماهير، وإلى المثقفين التقدميين المتطلّعين إلى قيادة وطنية تقدمية بعد خيبات الأمل المتلاحقة التي كانت تصيب هؤلاء المثقفين بعد كل هزيمة وبعد كل تراجع تقوم به الفئات المتزعّمة لحركة التحرر العربية. وتميّزت هذه المرحلة أيضاً بتتابع الملاحقات، والاعتقالات، والمحاكمات. كما تميّزت باستخدام الشيوعيين لقاعات المحاكم وأقفاص الاتهام منابر دعاية للحزب وشرح لأهدافه ومبادئه، والإعلان أمام المحاكم، وأمام الناس جميعاً:

ـ نعم... نحن شيوعيون... لأن الشيوعية هي التي تحمل التحرر للبلاد، وهي التي...

ويتدفّق الرفاق في الحديث... مما يضطر رئيس المحكمة إلى إسكات المتهمين، وتأجيل إصدار الحكم، أو إصدار حكم سريع، على الماشي...

وتميّزت هذه الفترة، كذلك، بقمع السلطات لأي تحرك عمالي، أو سياسي:

فعندما نظّمت نقابة عمال الدخان مظاهرة أمام السراي، واشترك فيها العمال الذين تعطّلوا عن العمل بسبب استخدام الآلات في معامل الدخان، قمعت السلطة هذه المظاهرة بالعنف، رغم أن أكثرية المتظاهرين كانت من النساء. وهذه أول مرة في تاريخ لبنان تنزل المرأة بهذه الكثافة في مظاهرة عمالية مطلبية.

وعندما تولى فؤاد الشمالي رئاسة تحرير جريدة «**العمال**» ـ التي يصدرها سجيع نعوم الأسمر ـ بعد إقفال جريدة الشمالي السابقة «**صوت العمال**» أصدر المفوض السامي قراراً بإقفال جريدة «العمال» أيضاً، فلم يصدر منها، برئاسة الشمالي، سوى عددين (الأول صدر يوم الأربعاء ٢٦ تشرين الثاني ١٩٣٠ ـ والثاني يوم الاثنين أول كانون الأول ١٩٣٠).

ويأتي عام ١٩٣١ حاملاً معه هذه الميزات كلها، وما تعجّ به من أحداث الملاحقات والمظاهرات والقمع والاعتقالات والمحاكمات.

يُصدر الحزب، في هذا العام، جريدة سرية باسم «**الفجر الأحمر**»، من أربع صفحات، بالعربية والأرمنية، تُطبع على الجيلاتين، وتُوزّع سراً في مختلف المناطق، وتُرسل في البريد إلى جميع الصحف ومختلف الشخصيات السياسية، حاملة رأي الحزب الواضح الصريح في مختلف القضايا والأحداث. وتثير الجريدة السرية قلق السلطات، وتبدأ التحريات والمراقبة.

على أن مختلف أعمال القمع هذه، لا تمنع الحزب أن يستمر في ممارسة شكلي النضال: السري، والعلني. رغم معرفة الحزب بأن الشكل العلني، خصوصاً، معرّض للقمع.

وهكذا: «ضبط رجال الأمن عدّة نشرات شيوعية كان بعض الأرمن يوزعونها، وفيها دعوة إلى القيام بتظاهرة أصيل يوم الأربعاء، وعقد اجتماع في نادي كوكب الغرب»....

هذا الخبر نشرته مجلة «**البرق**» (الأربعاء ١٠ شباط ١٩٣١) وكان هدف الحزب أن يكون الاجتماع علنياً، له طابع نقابي، وتُبحث فيه قضايا عمالية ـ اقتصادية. أما النشرة التي صادرها رجال الأمن العام فهي تعطي بإيجاز كلّي، لوحة مكثّفة عن انعكاس الأزمة الاقتصادية على أوضاع الطبقة العاملة في لبنان. فماذا جاء في هذه النشرة؟.

إلى العمال العاطلين عن العمل

□

أيها الأخوان!. إن الضائقة الاقتصادية التي عمّت معظم أقطار العالم فقضت على عشرات الملايين من العمال بحياة البطالة والجوع.. ها هي تنتشر في بلادنا أيضاً وتسبّب بطالة عشرات الألوف منّا. وفي كل يوم يزداد عدد العمال العاطلين بسبب اشتداد الضائقة الاقتصادية.

أيها الأخوان!. إن الحالة السيئة التي نعيش فيها، حالة لا يمكن لإنسان عنده شعور وإحساس أن يحتملها، لا شغل، ولا خبز، ولا مساكن، ولا كساء.

فهل يجب أن نموت من الجوع ونحن مكتوفي الأيدي؟. كلا أيها الأخوان وألف كلا!. بل يجب علينا أن نجتمع ونتفاهم على الخطة الواجب علينا اتخاذها لننقذ أنفسنا من هذه الحالة العاطلة التي لا تطاق.

فعليه: إننا ندعو كل العمال العاطلين عن العمل، إلى حضور الاجتماع العام الذي سيُعقد في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الخميس الموافق ٤ الجاري (شباط ١٩٣١) في مقهى كوكب الغرب، الكائن على أول طريق الشام ببيروت، حيث نتداول في أمرنا ونتخذ القرارات اللازمة لتحسين حالتنا. ومن ثم يُصار إلى انتخاب لجنة يُعهد إليها الدفاع عن حقوقنا ومصالحنا... فبادروا إلى حضور هذا الاجتماع أيها العمال، وليحي التضامن والاتحاد بين جميع العمال.

بيروت في ٣ شباط ١٩٣١.

لجنة الاجتماع:

الياس مسعد ـ ميكائيل كشيشيان ـ نسيم الشمالي

... فهل عُقد الاجتماع؟

تقول «البرق» في الخبر نفسه: «وقد أصدر وزير الداخلية أمره إلى الشرطة بمنع الاجتماع، والتظاهرة. وهكذا كان»!

على أن سلطات الانتداب، لم تستطع أن تمنع ـ رغم مختلف أساليب القمع، المعنوي والعسكري ـ الحركة الشعبية الواسعة لمقاطعة شركة الترامواي والإنارة، التي لم تستجب للمطالبة بتخفيض التعرفة: فقد تشكلت في آذار ١٩٣١ لجنة واسعة تضم ممثلين عن مختلف الأحياء ومختلف التيارات الوطنية والقطاعات العمالية، وممثلي المؤسسات، وأعلنت هذه اللجنة مقاطعة شركة الترامواي والكهرباء... فتمنع حاملات الترامواي من المسير، ويمتنع الأهالي عن الدفع لشركة الكهرباء. وسيَّرت اللجان دوريات شعبية لتحطيم حافلات الترامواي التي تسير، وللإشراف على حركة المقاطعة التي صارت شاملة.

لقد ساهم الحزب الشيوعي مساهمة واسعة، وفعّالة، في هذه الحركة، وتواجد أعضاء منه في لجنة المقاطعة، وفي لجان الأحياء، وفي الدوريات الشعبية، وخصوصاً بين الجماهير التي كانت تحتشد في **ساحة الشهداء** خلال الأيام الحاسمة للمقاطعة. ذلك أن الحشد الجماهيري حول حافلات الترامواي لمنعها من المسير كان يتحول إلى مظاهرة، تنطلق منها الهتافات. أما السلطات فقد جابهت الحشود بمحاولة القمع. جرت معارك، ومطاردات في ساحة الشهداء وحولها. وجرت اعتقالات واسعة. اعتقلت السلطة أعضاء اللجنة فتشكلت لجنة جديدة. حاولت السلطة احتواء بعض أعضاء اللجنة، واللعب على وتر التفرقة... فكان الأعضاء الآخرون، والحزب، يفضحون المساومين، وينقلون ما يجري إلى الجماهير بواسطة الاتصال الخاص، وبواسطة المناشير، منها، مثلاً، منشور هام صدر في ٣١ آذار ١٩٣١، يفضح الأغنياء الذين نصّبوا أنفسهم في رأس لجنة المقاطعة بعد اعتقال أعضاء اللجنة السابقة، وأخذوا يساومون، ومنهم، كما يذكر المنشور (الثري هنري فرعون). مما جاء في هذا المنشور (وهو مكتوب بخط اليد ومطبوع بواسطة الجيلاتين): «... وأخيراً فرغ صبر الشعب وانفجر بركان الاحتجاج العام ضد الشركات الاستثمارية التي تستنزف ثروة البلاد وتمتصّ دماء العمال، ونادَيْنا العمال للنضال ضدها»... ثم يدعو الحزب، في هذا المنشور، جماهير العمال «لكي يبادروا إلى تأليف **لجنة منهم يصير انتخابها في اجتماعات عامة من العمال** للنضال ضد جميع الشركات الاستثمارية حتى الفوز النهائي وتحويل دفة النضال إلى تخفيف أجور المخازن والمنازل. ويجب النضال لتحرير الفلاحين الفقراء من كافة الديون». وهكذا اشتدت الحركة صموداً بوجه القمع، والتآمر، والمساومين. وتصاعدت المعارك الناتجة عن المقاطعة فاكتسبت معنى المعركة ضد الانتداب وضد مختلف مظالم سلطات الانتداب، والعملاء والرأسماليين المرتبطين بهذه السلطات.. وقد طرح الحزب، في المنشور نفسه، عدة مطالب، مستمدّة من تجارب هذه المعارك نفسها، وهذه هي المطالب:

١ ـ ثماني ساعات شغل في اليوم وخمس ساعات للعمال الصغار، ٢ ـ يوم راحة في الأسبوع مع دفع أجرته، ٣ ـ زيادة الأجور لتصبح كافية لجميع احتياجات العامل وعائلته. ٤ ـ الضمان الاجتماعي لجميع العمال والمستخدمين، أي أن يحصل العامل والمستخدم على مساعدات كافية عند المرض والعجز والبطالة وتعويضات لمن يصاب أثناء تأدية عمله، ٥ ـ حرية تنظيم حركات العمال والفلاحين، ٦ ـ وضع حدّ للإرهاب الاستعماري وإطلاق سراح جميع المسجونين الذين اعتُقلوا بسبب النضال الاجتماعي والنضال ضد الاستعمار».

واستمرت المعركة طوال آذار، ونيسان... فأعلنت الشركة خفض تعرفة الكهرباء ٤٠ بالمئة. ولكن المقاطعة استمرت: لا بد من خفض تعرفة النقل في الترامواي! وهكذا أُرغمت الشركة، أن تعلن، في حزيران، خفض تعرفة النقل.

ولكن، في هذه الأثناء (آذار ١٩٣١) وقع حدث سيكون له دويّ آخر، يتجاوز لبنان:

ـ «... على طريق الشام، بجانب فندق نيويورك، مرآب (كاراج) للسيارات، له مدخل حقير... وفي نهاية المرآب غرفة خشبية حقيرة... وهذه الغرفة، هي التي اكتشف فيها حضرة المفوض (في الأمن العام) الشيخ درويش الدحداح، والمسيو دوسه، وكر الشيوعية، بعد سهر طويل وجهد كبير. وكيف ينام رجال الأمن عن هذه الحركة الشيوعية، لا سيما بعد أن اصطبغت بشيء من الجد عند إصدارها جريدة **«الفجر الأحمر»** (= سرية، خطية، والطبع بواسطة الجيلاتين ـ م. د)، وتوزيعها في البريد بكل وقاحة (!).

«وكانت ليلة غاب بدرها، عندما أطبق رجال الأمن بالغرفة الخشبية، فإذا هم يقبضون على رئيس الحزب (الرفيق) أرتين مادويان، والرفيق زاديك دوريان، والرفيق جورج راشد... وقد وجدوا في الغرفة نحو خمسمائة نسخة من جريدة «الفجر الأحمر» مهيّأة لوضعها في البريد.

«والرفاق الأربعة: رئيس الحزب، ومعاونه، وترجمان الحزب جورج راشد وهو لبناني من البترون، والرفيق بانوس أرمايسيان، وهو موظف في البازنافال (**قاعدة للجيش الفرنسي**) وقد تولّى طبع المناشير على الجيلاتين ـ إن جميع هؤلاء هم اليوم ضيوف السجن رهن التحقيق» ـ (جريدة **البرق**، الخميس ٩ آذار ١٩٣١).

هذا هو الخبر. وهو هنا مكتوب بشيء من التهويل والتضخيم والتشويه... ولكن صحفاً أخرى، مع المصادر الحكومية، نفخت في الصور... فكأنه «يوم الحشر» بالنسبة للحزب الشيوعي: تصفية الحزب الشيوعي!.. لا شيوعية بعد اليوم!.. كشف المركز الرئيسي للحزب الشيوعي واعتقال قادته!.. قُضي على مؤامرات الشيوعيين!.. القبض على مصدّري الجريدة الشيوعية السرية «الفجر الأحمر»!.. إحالة الشيوعيين إلى المحكمة العسكرية!..

هذه الضجة الهائلة، لم يكن المقصود بها إرهاب أعضاء الحزب فقط، بل المقصود

بها أيضاً وخصوصاً، في تلك الأيام بالذات، إرهاب القائمين بحركة مقاطعة شركة الترامواي والكهرباء، وقد كانت في ذروتها... وإبراز جبروت سلطة الانتداب، ومحاولة تخويف الناس من التعاون مع الشيوعيين ـ فيُتّهمون بالتآمر!.

ولكن...

«البرق» ـ (١٩٣١/٤/٨): «... صدر عدد جديد من جريدة «الفجر الأحمر» الشيوعية بتاريخ ٣١ آذار ١٩٣١»...

ـ عندما اعتقلوا مصدّري جريدة «الفجر الأحمر» كنّا في أوائل آذار... فمن أصدر، إذن، هذا العدد الجديد من الجريدة، بتاريخ ٣١ آذار؟...

الجواب: «... والجريدة موقَّعة بإمضاء: اللجنة المحلية للحزب الشيوعي السوري ببيروت» ـ (عدد «البرق» نفسه).

ـ فكيف تقولون، إذن، إنكم صفَّيتم الحزب، واعتقلتم مصدّري جريدة «الفجر الأحمر»؟..

السلطات ضخَّمت «انتصارها» على الحزب...

الحزب نفَّس هذا التضخيم...

ثم... الحزب يشنّ هجوماً معاكساً:

حملة احتجاجات مدوية في لبنان، والبلاد العربية، والعالم ضد الإرهاب، وضد الاعتداء على حرية الإنسان، وحتى على نصوص «صك الانتداب» نفسه!

«المراسلات الأممية»: «... وبسبب هذه الاعتقالات التي جرت في شهر آذار ١٩٣١، سارع الأمن العام الفرنسي في سوريا ولبنان، للإعلان بفرح عن تصفية الحزب الشيوعي... وبهذا الخصوص تلقّى التهاني من الصحافة الرجعية المحلية... وحصل مدير الأمن العام على امتياز من الحاكم الفرنسي!. على أن الحزب الشيوعي، ليس فقط لم يُصفّ... بل هو الآن أقوى من السابق... وهنا لوعة الامبرياليين الكبرى» ـ (العدد ٧٦، في ٢٢ آب ١٩٣١).

.... فإذا عرفنا بعض ما قام به الحزب من نضالات وإنجازات، في الفترة بين تاريخ اعتقال مادويان ورفاقه (أوائل آذار ١٩٣١) وتاريخ إطلاق سراحهم (١٧ آب ١٩٣١) ـ نتأكد بأن مجلة «المراسلات الأممية» لا تبالغ كثيراً في التقييم الذي أعطته لقوة الحزب في تلك الفترة.

برقيات عن بعض الوقائع: (توزيع مناشير. مظاهرات. مطاردات. ملاحقات. قوانين قمعية جديدة. محاكمات):

ـ **آخر نيسان ١٩٣١:** بيان يدعو العمال والشغيلة والفلاحين للاحتفال **بعيد أول أيار**: «اقترب أول أيار، العيد الثوري الذي يحتفل به جميع العمال والشغيلة في جميع أنحاء العالم. يأتي أول أيار من هذا العام **والشعب السوري (واللبناني) باجمعه في حالة سخط شديد على شركات الاستثمار الرأسمالية التي يحميها المستعمرون** بقوة الجيوش والطيارات والدبابات والأساطيل والمدافع، فليست هناك حاجة إلى برهان أقوى من هذا على ضرورة الاحتفال بيوم أول أيار يوم التضامن في النضال الثوري العالمي ضد الاستعمار الرأسمالي»... ويشدّد البيان على التضامن الأممي والدور الثوري الذي يؤديه الاتحاد السوفياتي في هذا المجال على نطاق العالم أجمع، وفي القلب من حركات التحرر الوطني نفسها. ثم يطرح البيان بعض المطالب والشعارات بالنسبة للداخل: «فلنتّحد نحن أبناء الطبقة العاملة في سورية (ولبنان) مع أخواننا ورفاقنا في العالم أجمع. فلنجعل من أول أيار يوم نضال موحّد **في سبيل الاستقلال التام والوحدة السورية، لنسحق الامتيازات،** لنناضل ضد الحكومة التي باعت الشعب إلى الرأسماليين الأجانب وسحقته لإخضاعه لرغبة أصحاب الأموال والإقطاعيين، فلنحتج على هؤلاء الرأسماليين من أعضاء لجنة المقاطعة لشركة الجرّ والتنوير الذين وقّعوا الاتفاق المجحف بحقوق الشعب في بيروت. وليكن هذا درساً للشعب العامل كيلا يضع ثقته في الرأسماليين الخونة».

ـ **في أيار نفسه:** انطلقت مظاهرة شعبية في طرابلس، احتجاجاً على إعدام السلطات الفاشستية الايطالية للمناضل الوطني الليبي عمر المختار، واحتجاجاً على اغتصاب ايطاليا الفاشستية لليبيا العربية بالحديد والدم. كان يقود المظاهرة الشيوعيون، وكان في

طليعتهم المناضل الشيوعي، في ذلك الوقت، **أحمد زكي الأفيوني. كانت هذه أول مظاهرة في لبنان ضد الفاشستية.** أجرت السلطات الفرنسية اعتقالات واسعة بين الشيوعيين وغيرهم من الوطنيين، منهم أحمد زكي الأفيوني. (وقد أورد **نقولا شاوي** في مذكراته أنه شهد هذه المظاهرة، وهو لا يزال شاباً ولم يكن قد انتمى، بعد، إلى الحزب الشيوعي. وقد مارست هذه المظاهرة تأثيراً كبيراً جداً عليه).

ـ **وفي أيار ١٩٣١** انطلقت في دمشق مظاهرة ضخمة جداً، تضامناً أيضاً، مع الشعب العربي الليبي المناضل ضد الاضطهاد الاستعماري الفاشستي الايطالي. وقد اتخذت المظاهرة طابع عداء عام للاستعمار وعداء خاص، صريح، للانتداب الفرنسي. جرت اعتقالات كثيرة. وكان بين المعتقلين الكثير من الشيوعيين الذين كانوا من قادة المظاهرة والداعين لها.

ـ **في حزيران ١٩٣١** صدر قرار في لبنان يحظِّر كل تجمُّع عام! ـ (نقله جاك كولان عن التقرير إلى عصبة الأمم لعام ١٩٣٢).

ـ بعد الأحكام الظالمة على بعض معتقلي مظاهرة طرابلس: «اعتقل رجال الشرطة في طرابلس، يوم الخميس، شابين قادوهما إلى بيروت للتحقيق معهما بتهمة أنهما يحملان منشوراً أذاعته اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي السوري، بعد صدور الحكم في قضية طرابلس» ـ (جريدة «**السيار**» ٥ تموز ١٩٣١).

ـ «وجَّه الحاكم إلى **نورایر عجميان**، المتهم بتوزيع جريدة «الفجر الأحمر» سؤالاً واضحاً: هل أنت من الذين يعتنقون المبادئ الشيوعية؟ أجاب المتهم بوضوح: **نعم، أنا شيوعي. إن المبادئ الشيوعية مبادئ شريفة إنسانية عادلة. وأنا إذا كنت اعتنقها فلأني من العمال. وقد حقّ لكل عامل أن يدين بالمذهب الشيوعي الذي من شانه انصاف الطبقة العاملة.**

أما محتويات جريدة «الفجر الأحمر» ففيها: تحريض الشعب ضد الاستعمار. ووصم المستعمرين بالإرهاب وباستثمار جهود العمال والفلاحين بوسائل قاسية. وتهديد الطبقات الحاكمة بالثورة الشيوعية». ((«**السيار**»)، ٣ حزيران ١٩٣١ ـ و٧ تموز ١٩٣١).

ـ «ألقت حكومة بعلبك، **في ٦ تموز الحالي**، القبض على أربعة أشخاص بتهمة أنهم كانوا يُلصقون ويوزعون مناشير شيوعية. والمناشير مطبوعة في مطبعة عادية،

ومضمونها: الطعن بالانتداب الفرنسي، والرأسماليين، وهي موقعة بإمضاء: الحزب الشيوعي السوري ـ فرع الانترناسيونال الدولي.

«... وأصدرت محكمة الجزاء البدائية حكماً بسجن شخصين بالحبس ثمانية أشهر لتوزيعهما مناشير شيوعية، وقيامهما بدعاية ثورية واسعة النطاق، وتحريض العمال على الرأسماليين» ـ (**«السيار» ٢١ تموز ١٩٣١**).

ـ «... وُزِّع منشور شيوعي على عمال السكة الحديدية في معامل رياق وزحلة، وعلى مستخدمي السكة، يدعوهم إلى الاعتصاب (الإضراب) احتجاجاً على جور الشركة واستبدادها، ومحافظة على حقوقهم. وقد اهتمت دوائر الأمن العام لهذا الحادث واتخذت التدابير اللازمة لمعرفة موزعي هذا المنشور وطابعه» ـ (**«البرق»**، الثلاثاء ٢٨ تموز ١٩٣١).

ـ **مواد ممنوعة:** «تقول جريدة **«فتى العرب»** إن مديرية الأمن العام عمّمت على جميع الدوائر التابعة لها وعلى مخافر الحدود، تعليمات جاء في بعضها: لا يجوز للأجانب القادمين للعمل في هذه البلاد، وللشيوعيين، والفوضيين، والأشخاص المشبوه بهم... دخول هذه البلاد بتاتاً»!! ـ (**«السيار»: ٣١ تموز ١٩٣١**).

ـ «اشتدت حركة الشيوعية في هذين اليومين... فقُبض في شتورة على شخص متأبط نشرات شيوعية. وعثروا كذلك على نشرات شيوعية في جونية والمعاملتين» ـ (**«البرق»** ٤ آب ١٩٣١).

ـ «عقدت محكمة بداية الجزاء الأجنبية، قبل ظهر أمس (١٤ آب ١٩٣١)، جلستها لمحاكمة أربعة شيوعيين قُبض عليهم في بعلبك بتهمة أنهم ألصقوا على باب الجامع ثلاثة مناشير شيوعية، في شهر تموز الماضي، وهذه المناشير بعنوان: «نداء من الحزب الشيوعي السوري»، ملخصه ما يأتي: أيها الشعب!. إن الخونة يهضمون حقوقك، وهم الشيخ تاج الدين، والشيخ محمد الجسر وشارل دباس، هم يبيعون حقوقك للشركات الأجنبية، لا شغل لهم سوى استثمار البلاد. انظر إلى الأحكام التي صدرت بحقك أيها العامل المسكين في المجلس العدلي اللبناني، في قضية طرابلس: لقد هضموا حقوقك في هذه الأحكام. هبّ ضد هؤلاء الظلاّم، واستعد حقوقك» ـ (جريدة **«لسان الحال»**، السبت ١٥ آب ١٩٣١).

هذه الوقائع، التي أشارت إليها بعض الصحف التي استطعنا الاطلاع عليها، توضح وحدها: إن انطلاقة الحزب، منذ بيان ٧ تموز ١٩٣٠، تتجاوز في قوتها كل توقّعات المستعمرين والرجعيين، الذين ظنوا أن اعتقال واحد من قادة الحزب، مع عدد من رفاقه، يعني، حسب أمنياتهم: تصفية الحزب الشيوعي!

فإذا بالوقائع تهتف بوجوههم: الحزب في كل مكان!

إنكم تستطيعون اعتقال قائد، واثنين، وثلاثة، وأكثر... ومئات الأعضاء... ولكن يستحيل عليكم، وعلى غيركم فيما بعد، اعتقال الحزب الشيوعي.

....

خلال هذه المرحلة، التي ابتدأت منذ التوزيع المفاجئ والواسع لبيان ٧ تموز ١٩٣٠، كانت اللجنة المكلفة إعداد وثيقة برنامجية للحزب، حسب توصية الكونفرانس الثاني (نيسان ١٩٣٠)، قد أعدّت هذه الوثيقة، بعد دراسة شملت مختلف الميادين والقطاعات. (لم تتجمّع عندنا، بعد، أسماء، أعضاء هذه اللجنة. ولكن **فؤاد الشمالي** - وحسب ذكريات أرتين مادويان - كان، بالتأكيد، واحداً من أعضائها) ورأت اللجنة المركزية أن تصدر هذه الوثيقة البرنامجية (أو: البرنامج، إذا أردنا الإنصاف) بمناسبة مرور عام على ذلك الإعلان المدوّي لوجود الحزب الشيوعي. فصدر هذا البرنامج في ٧ تموز ١٩٣١، بعنوان: «**لماذا يناضل الحزب الشيوعي السوري؟**»(١) مع عنوان فرعي: «غايته القصوى وشيء من بروغرامه»... ثم: «طُبع هذا الكتيب لذكرى إعلان الحزب الشيوعي السوري - ٧ تموز ١٩٣٠».

لقد سبق أن أوضحنا أن اسم «الحزب الشيوعي السوري» كان يتوافق في تلك الفترة مع شعار الوحدة السورية، المطروح بمواجهة التجزيء الاستعماري الفرنسي للبلاد

---

(١) إقرأ النص الكامل لهذا الكتاب/الوثيقة في «ملحق النصوص»، في آخر الكتاب.

السورية (أي: سوريا ولبنان بالتحديد)…. فكلمة سوري أو سوريا في هذا البرنامج، مقصود بها، بالتحديد: سوري ولبناني أو سوريا ولبنان.

أما عبارة: «إعلان الحزب الشيوعي السوري»… فليس المقصود بها **تأسيس** الحزب، كما حاول البعض أن يوحي بهذا في بعض المناسبات… بل **المقصود** بها، وبالتحديد: **إعلان** وجود الحزب الشيوعي بعد فترة الاخفاء **المقصود** لاسم الحزب الشيوعي طوال عامين (١٩٢٨ ـ ١٩٣٠)، ظنّ فيها البعض أن الحزب تلاشى، فإذا انطلاقته المفاجئة تُحدث دوياً في لبنان والبلاد العربية وجهات عديدة من العالم.

إذن: بصدور هذا **البرنامج الموسّع الأول** للحزب، في ٧ تموز ١٩٣١، يدشّن الحزب الشيوعي مستوى جديداً في حياته ونضاله وفكره النظري.

فهذه الوثيقة تكتسب قيمة استثنائية في حياة الحزب، ليس فقط من حيث إنها **البرنامج الموسّع الأول للحزب**، بل من حيث شمولها مختلف القطاعات وطرح الشعارات الكفاحية لكل ميدان تعرّضت له.

فماذا أعطى للحزب هذا البرنامج الأول؟

لسنا هنا بصدد تحليل نظري لمضمون هذه الوثيقة وما أعطته على صعيد الفكر النظري.

ما يهمّنا هنا، حسب سياق هذا الكتاب، هو محاولة تلمُّس ما أحدثته هذه الوثيقة من تأثير في حياة الحزب نفسه، أي في عملية تكوّنه كحزب شيوعي مكافح، في بلاد معينة، خلال مرحلة تاريخية معينة، لها صفاتها النوعية الخاصة، المرتبطة بصفات عامة تجعلها جزءاً عضوياً من الحركة الثورية العالمية.

منذ البداية، يعلن الحزب بوضوح:

«للحزب الشيوعي السوري، كما لكل الأحزاب الشيوعية في العالم، غاية أساسية هي: **تقويض النظام الرأسمالي الاستعماري وإنشاء النظام الاشتراكي على أنقاضه».**

فالحزب، منذ البداية أيضاً، يضع خطاً حاسماً يميّزه عن غيره من الأحزاب الأخرى عندنا، فليس بينها حزب يسعى إلى هذه الغاية التي أعلن الحزب الشيوعي أنه يسعى إليها.

ولكن هذا الحزب الشيوعي موجود في بلد يجابه قضية خاصة لا يجابهها، مثلاً،

حزب شيوعي في بلد رأسمالي مستعمِر، رغم أن هذا الحزب يسعى، كذلك، إلى تقويض النظام الرأسمالي الاستعماري وإنشاء النظام الاشتراكي على أنقاضه.

لهذا، فإن القضية المباشرة التي يناضل لأجلها الحزب في بلادنا، **هي نفسها قضية الحركة الوطنية التحررية في هذه البلاد....** فهي لهذا، تأخذ مركزها بوصفها **القضية الأولى**، المباشرة، التي يرفع الحزب شعاراتها، كشرط أساسي، وكجزء عضوي، من عملية تحقيق الغاية الأساسية للحزب، وهي: **بناء الاشتراكية.**

فمن أجل: «تقدّم البلاد السورية الذي يمنعه المستعمرون» ـ ومن أجل: «انتزاع حريات العمال والفلاحين المغتصبة بسبب النظام الاستعماري» ـ ومن أجل: «النضال المثمر ضد الاستثمار الإقطاعي والرأسمالي، ذلك النضال الذي يعمل المستعمرون على سحقه بكل قواهم». أي: «لأجل تحرير الشعب السوري العامل وتقدّم البلاد وارتقائها، يعلن الحزب الشيوعي السوري ضرورة النضال لتحقيق المطاليب التالية:

«١ ـ الاستقلال التام، والوحدة السورية.

٢ ـ سحب الجيوش المحتلة.

٣ ـ إلغاء الانتداب.

٤ ـ إلغاء الديون العثمانية المفروضة على الشعب السوري، والديون التي تفرضها عليه حكومة الاستعمار الحالية.

٥ ـ إلغاء امتيازات الشركات الأجنبية، ومصادرة ممتلكاتها وموجوداتها.

٦ ـ إلغاء الدساتير التي فرضها المستعمرون على الشعب السوري. (سوريا، لبنان، العلويين، جبل الدروز، الاسكندرون)... الخ».

هذه الشعارات الكفاحية، التي يرى فيها الحزب جزءاً عضوياً من عملية تحقيق غايته الأساسية ـ تلتفّ حولها فئات وقطاعات وجماهير قد لا ترى ضرورة في إعلان تأييدها للاشتراكية، وقد ترى أن أقصى الأهداف التي تسعى إليها هي التحرر من سيطرة الاستعمار وبناء الدولة العربية الوطنية المستقلة.

فالحزب، بصياغته هذه الشعارات، ينطلق من واقع وجوده في قلب حركة التحرر الوطني لبلاده، ومن واقع تجربته الغنية نفسها خلال مشاركته في الثورة السورية، ويعرف، هنا، كيف يكشف الترابط العضوي بين قضية بلاده الوطنية وبين قضية الاشتراكية في هذه البلاد وفي العالم.

ولكن الحزب الشيوعي هو حزب العمال والفلاحين، أساساً. أي: هو حزب طبقي ـ يرى إلى مختلف القضايا من وجهة نظر مصلحة الطبقة العاملة والفلاحين وجماهير الكادحين. وهذا ما يميزه عن جميع الأحزاب الوطنية الأخرى.

هذا الوجه الطبقي للحزب الشيوعي، يتجلّى واضحاً في هذا البرنامج، من خلال مختلف البنود الخاصة بمطالب الحزب: لتحسين حياة العمال، وتحسين حياة الفلاحين، وتحرير المرأة، والدفاع عن العمال الأولاد... وهذا الإلحاح على توضيح الوجه الطبقي للحزب يصل، في هذا البرنامج، إلى درجة طرح شعار «إنشاء حكومة العمال والفلاحين في سوريا» في إطار يوحي كما لو أنه شعار مباشر لتلك المرحلة.

بعض الذين حكموا عليه ـ فيما بعد ـ بأنه شعار طُرح قبل أوانه بكثير، وأنه لهذا شعار انعزالي، كانوا يميلون إلى القول بأن ليس الحزب الشيوعي السوري، وحده، مسؤول عن طرح هذا الشعار. آخرون كانوا ـ بسهولة جاهزة ـ يردون مسألة طرح هذا الشعار إلى «طفولة يسارية»...

على صعيد المنطق النظري، قد يوافق المرء مع هؤلاء وهؤلاء... خصوصاً إذا حكمنا أن الحزب لم يطرح هذا الشعار، في تلك الفترة، في صيغة يتضح منها أنه أفق استراتيجي لمرحلة كاملة، بل جاء في صيغة أقرب أن تكون صيغة شعار مباشر لتلك المرحلة.

على أن لهذا الشعار، بالاضافة إلى ناحيته النظرية، وناحية انعكاسه على الآخرين ـ ناحية أخرى هامة من الضروري أن نراها، هي: تأثيره **العملي** في حياة الحزب، وفي **عملية تكوّنه** كحزب شيوعي، خلال تلك المرحلة.

فقد كان للروحية العامة التي سادت البرنامج، والإطار العام الذي جاء فيه هذا الشعار، أثر كبير جداً، وإيجابي، في: تمييز الوجه الطبقي للحزب، كحزب شيوعي للعمال والفلاحين، وتصليب الروح الكفاحية لدى أعضاء الحزب، كأفراد، وللحزب كمجموع

عضوي متميّز. وهذا ما تؤكده انطلاقة الحزب الكبرى، في تلك المرحلة، ونمو الحزب وامتداد نفوذه في الحركة العمالية والوطنية. يضاف إلى هذا أن اكثرية عناصر قيادات الحركة الوطنية، في تلك الفترة، خلال وبعد قمع الثورة السورية، كانت تساوم المستعمرين الفرنسيين، فعلاً، على حساب أهداف الجماهير في الاستقلال التام، والوحدة، وسحب جيش الاحتلال، وإلغاء الانتداب.. وتسعى للحصول على مكاسبها الخاصة فتصورها كما لو أنها مكاسب الوطن!

ثم: إن كون هذا الشعار، جاء في الصفحات الختامية لبرنامج يضع بالدرجة الأولى، **المطالب الوطنية التحررية المباشرة التي هي هاجس الجماهير البارز في تلك الفترة**، أتاح له، في إطار البرنامج ككل، أن يمارس تأثيره الإيجابي في عملية تكوّن الحزب وانطلاقته واتساع صفوفه، وبروزه أمام الجماهير بوجهه الوطني المكافح غير المنفصل عن طابعه الطبقي المتميّز.

والقضية هنا أن التركيز على شعار ما (كشعار: إنشاء حكومة عمال وفلاحين) والسير به، بعيداً عن ارتباط تحقّقه، بالشعارات الأولى، المباشرة بشكل واضح وصريح، (الاستقلال التام، الوحدة السورية، إلغاء الانتداب، سحب الجيوش الأجنبية، الخ) هو الذي يجعل من الشعار عامل انعزال عن الجماهير الوطنية، والقضية الوطنية بالتالي، فيبدو الأمر كما لو أن قضية التحرر الوطني (وهي هنا القضية القومية للشعوب العربية المستعمرة، ولبلادها المجزأة المتقاسمة، بين المستعمرين) يبدو كأنها «قضية البرجوازية» وليست قضية الطبقة العاملة والفلاحين وجماهير الكادحين. وهنا تكمن النزعة الانعزالية التي تقتل النظرية نفسها، وتقتل خصوصاً نفوذ الحزب بين الجماهير.

هذا يؤدي بنا إلى رؤية القيمة الحقيقية لهذين الشعارين اللذين أوردهما البرنامج في إطار الاستفادة من تجربة حل القضية القومية في الاتحاد السوفياتي. وهما: «**إيجاد جبهة متحدة بين جميع البلدان العربية للنضال والتضامن المشترك ضد الاستعمار ـ ثم: إيجاد حلف بين العمال والفلاحين في البلاد العربية**».

وهذا يؤدي بنا، بالتالي، إلى وثيقة أخرى، صدرت في العام نفسه (١٩٣١) ويمكن أن نرى فيها الجزء المكمّل لهذا البرنامج. الوثيقة بعنوان: «**مهمات الشيوعيين في الحركة القومية العربية**» ـ وهذه المهمات (حددها كونفرانس ممثلي الحزب الشيوعي السوري والحزب الشيوعي الفلسطيني». (لم نعثر، بعد، على النص العربي الرسمي لهذه

الوثيقة... ولكنها منشورة في مجلة «**المراسلات الأممية**» التي كانت تُصدرها الأممية الشيوعية، في موسكو، بعدة لغات. ـ العدد ١، في ٤ كانون الثاني، لعام ١٩٣٣، صفحة ٨ ـ بوصفها وثيقة رسمية أصدرها الحزبان) ـ فإذا كان البرنامج الأول قد حدد مهمات الشيوعيين في لبنان وسوريا بالدرجة الأولى. فإن هذه الوثيقة البرنامجية تقدم لوحة واسعة، وعميقة معاً، للوضع في **مجموع البلاد العربية**: لبنان. سوريا. فلسطين. مصر. العراق. الأردن. الجزائر. تونس. مراكش. ليبيا. اليمن. الحجاز. نجد. السودان ـ ولعل هذه الوثيقة هي من أهم ما كُتب، عندنا، في القضية القومية للشعوب العربية من وجهة نظر ماركسية، تضع هذه المسألة القومية في واقعها التاريخي الملموس، في إطار عهد الامبريالية، واكتساب النضال للتحرر القومي، والتوحيد القومي، صفة النضال ضد الامبريالية (وهذا يختلف نوعياً عن حركة التوحيد القومي ضد التجزؤ الإقطاعي تقوم بها البورجوازية لتطوير نظامها الرأسمالي الذي تحوّل إلى امبريالية تناضل شعوبنا للتحرر منها). ففي **السطر الأول** للبند الأول من هذه الوثيقة، نقرأ هذه الموضوعة: «إن إحدى المهمات **الجوهرية** في نضال التحرر الثوري ضد الامبريالية على أرض الشرق الأدنى الواسعة هي **حل المسألة القومية للعرب**». لماذا؟ وبأي اتجاه؟. تقول الوثيقة: «إن مجمل نظام السيطرة الامبريالية على الشعوب العربية، **لا يستند فقط على استعبادها المباشر، بل وعلى تقطيع أوصالها** (تجزئتها) بصورة اعتباطية حسب أوامر الامبريالية العالمية. إن تقسيم الشعوب العربية بين الامبريالية الانكليزية والفرنسية والايطالية والاسبانية إنما يعكس ميزان القوى الذي قام في مجرى التاريخ بين هذه الأمبرياليات، والذي يهدف إلى إدامة سيطرتها. وهو يتناقض تناقضاً صارخاً مع المصالح الحيوية للشعوب العربية. إن الحدود الدولية (السياسية) التي تفصلها قد أقيمت ويحافظ عليها بواسطة عنف الامبرياليين الذين يعتمدون مبدأ «فرّق تسُد». إن هذه الحدود تُضعف جماهير الشعوب العربية، بصورة مصطنعة، في نضالها ضد النير الأجنبي ومن أجل الاستقلال، والوحدة القومية، وفق الإرادة الحرة للجماهير الشعبية»... وتضع الوثيقة الشعارات الموحَّدة لكفاح الشعوب العربية المعادي للامبريالية في ثلاث نقاط: (**ـ ١: طرد الامبريالية من البلاد العربية ـ ٢: الاستقلال الوطني، والسياسي، التامّين للبلدان العربية، وحرية هذه الشعوب في تقرير نظام الدولة وتثبيت حدودها ـ ٣: الاتحاد الطوعي للشعوب العربية في إطار اتحاد عمال**

وفلاحي البلاد العربية على أساس تحالف الطبقة العاملة والسكان الكادحين في المدن والفلاحين الشغيلة). لهذا: «فإن من واجب الشيوعيين خوض النضال من أجل **الاستقلال الوطني والوحدة القومية،** ليس فقط ضمن الحدود الضيقة والمصطنعة التي خلقتها الامبريالية ومصالح الأُسَر المالكة في كل بلد عربي، بل أيضاً على مستوى العالم العربي من أجل الوحدة القومية للشرق كله. إن الحركة الثورية المعادية للامبريالية يجب أن تجد قوتها وتكتسب اتساعاً ثورياً حقيقياً، وتصبح مركز جذب لأوسع الجماهير، بتخطيها الحدود المصطنعة»... ثم تعطي الوثيقة هذا الحكم البعيد المدى: «إن الأحزاب الشيوعية **لن تتمكن** من قيادة الجماهير العمالية الواسعة ضد البورجوازية، وجماهير الفلاحين ضد الامبرياليين الغزاة والملاكين العقاريين والمرابين، **ولن نتمكن** من كسب دعم السكان الفقراء في المدن، وجماهير البورجوازية الصغيرة – **إلا عندما تكون، في الوقت نفسه، محرّكة ومنظّمة النضال ضد الامبريالية، ومن أجل التحرر الوطني للشعوب العربية،** إن هيمنة الطبقة العاملة لا يمكن أن تُحقق بدون نضال البروليتاريا الصلب من أجل الاستقلال الوطني للعرب، ومن أجل تحررهم القومي»...

واذا كانت هذه الوثيقة الهامة، تُصدر حكماً شبه قاطع بخيانة البورجوازية الوطنية، استناداً إلى أحداث معينة في تلك الفترة، فإن شعار «إقامة حكومة عمال وفلاحين» يرد في هذه الوثيقة ليس كشعار مباشر بشكل قاطع، بل على أساس «أنه لا يمكن إرساء الاستقلال الوطني بشكل حاسم، بدون ثورة زراعية فلاحية. وبدون إقامة حكومة عمال وفلاحين، على الأقل في البلدان العربية الأكثر تطوراً (سوريا. فلسطين. مصر. الجزائر)».

على أن القيمة النظرية لهذا الاستنتاج لا تنفي إمكانية جعله ستاراً للانعزال إذا لم يُنظر له في ترابطه الجدلي، وخصوصاً في ارتباطه مع الأحداث الملموسة في وقت معيّن... فالمواقف لا تبقى هي نفسها في مختلف العهود.

(وفي الواقع، فقد شهدت بعض الفترات اللاحقة، هذا النوع من الفصل التعسّفي بين هذه الشعارات – المترابطة أصلاً – بحيث بدت المسألة الوطنية، بما هي، عندنا، مسألة تحرر وطني ووحدة قومية للعرب، وكأنها مسألة البورجوازية... لا مسألة الطبقة العاملة، أساساً!..).

على كل حال، فإن هاتين الوثيقتين تحتاجان، بالتأكيد، إلى إعادة درس وتقييم من

مختلف جوانبهما النظرية والعملية والتاريخية معاً. خاصة وأن الوثيقة الثانية تشكّل، على حدّ علمنا، **أول رؤية علمية، ماركسية ـ وإن كانت أوليّة ـ للقضية القومية في البلاد العربية،** كقضية تحرّر وطني من الامبريالية ووحدة قومية أساسها اتحاد عمال وفلاحي البلاد العربية.

....

هاتان الوثيقتان البرنامجيتان صدرتا، إذن، خلال الفترة التي قال فيها المستعمرون الفرنسيون وأعوانهم الرجعيون أنهم، باعتقال أرتين مادويان ورفاقه، قد صفّوا الحزب!.

وفي تلك الأيام نفسها، وقبل محاكمة أرتين مادويان ورفاقه، وإطلاق سراحهما، وقع حدث له مغزاه وله طرافته أيضاً:

ـ «مساء أمس الثلاثاء (٢٨ تموز ١٩٣١) في منتصف الساعة السابعة، وقفت سيارة في ناحية من نواحي ساحة الشهداء، ووقف السائق بجانبها ينادي على زحلة!. وإنه ليرتقب إذا برجل يتقدم منه يريد الركوب في سيارته، فقال له السائق إن لديه محلاًّ الراكبين أيضاً، فأجابه الرجل على الفور:

ـ عليَّ بأجرة الراكبين. وأنا أسبقك إلى مكان كذا في منطقة «فرن الشبّاك»، فالحقني بعد قليل.

وعيَّن له المكان والزمان... وفي الموعد المضروب وصلت السيارة إلى «فرن الشبّاك، وركب فيها الرجل وأمر السائق بأن يسرع ما استطاع.

ولما كان بعض الطريق، إذا بسيارة تلحق بها مسرعة، فأمر الرجل السائق بأن يضاعف السرعة ولا يدع السيارة تلحق به... ولكن السيارة المتأخّرة كانت تطير طيراناً... وما هي أن وصلت إلى شتورة، حتى لحقت بالسيارة المتقدمة، وترجَّل منها موظفون فرنسيون رافعين بأيديهم المسدسات، وطلبوا من سائق السيارة أن يقف، فوقفت السيارة، وهجم المطاردون على الرجل المجهول وفتّشوه... فوجدوا معه حقيبة، فضبطوها منه، واستاقوه تحت جنح الظلام إلى دائرة الأمن العام في المفوضية.

وفي هذا الصباح، اتصلت بنا الحادثة من مصدر خفي... وهي لم تتصل بعد بدائرة من دوائر الحكومة المحلّية قط، ولا الشرطة، ولا الدرك، ولا العدلية، ولا النيابة... وقيل لنا: إن الحقيبة التي صودرت من الرجل تحتوي على أشياء ثمينة جداً، وقد تكون سرية أيضاً. وقد تسلّم التحقيق فيها السيد «بوشيد».

... بعد هذه الكتابة، اتصل بنا والجريدة على المطابع، أن الرجل المطارد هو زعيم شيوعي روسي» ـ (جريدة «**السيار**»، الخميس ٣٠ تموز ١٩٣١).

«السيار» في اليوم التالي، تتابع الرواية:

ـ «... ما كاد يُطبع «السيار» أمس، حتى نُقل إلينا أن الموقوف هو سوري وليس روسي... واسمه **فوزي الزعيم** من دمشق، طالب في إحدى مدارسها.....................

«... تشكّلت أول جماعة شيوعية في دمشق، في أواخر عام ١٩٢٨.

كان من أعضائها: **علي خلقي**. **بشير فلاحة**. **هيكازون بوياجيان** (عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني). **مصطفى الجود**. **ماركار ماركاريان**.

ـ عام ١٩٢٩ انضم إلى مجموعة الشيوعيين في دمشق: **ناصر حدّة**. **نظمي رفاعي**. **فوزي الزعيم**.

ـ وعن طريق ناصر حدّة، انضمّ **خالد بكداش** إلى هذه المجموعة في أول عام ١٩٣٠» ـ

(ملاحظات مخطوطة عن تاريخ الحزب لأرتين مادويان).

... «... وقد ذهب مندوبو الصحف إلى إدارة الأمن العام في المفوضية، فأدلى إليهم أحد موظفيها بأن فوزي الزعيم، وهو شاب أنيق اللباس، ذكي، يُعد من أقطاب الشيوعية في سوريا، ومن كبار العاملين لها على رغم سنّه... واتصل بإدارة الأمن أن الزعيم جاء منذ أيام إلى بيروت لقضاء مهمة. فأخذت تراقبه منذ سفره من دمشق... وظلّ رجالها في أثره طيلة إقامته في بيروت... حتى كان مساء الثلاثاء، موعد رجوعه إلى دمشق،

فتركوه مطمئناً إلى أن وصل شتوره فادركوه واعتقلوه... أما الحقيبة التي ضبطت منه، والتي ظنّ مندوبنا أنها تضم أوراقاً خطيرة، أو مجوهرات، والتي كانت ضالّة رجال الأمن المنشودة... فكانت تضم... مناشير شيوعية. وهي مناشير تهمّ دائرة الأمن العام كثيراً... ويظهر أن مهمة فوزي الزعيم في بيروت لم تكن إلا لطبع هذه المناشير، وهي باللغة العربية، وفيها حملة شديدة على الحروب وما تُنزل بالشعوب من الأضرار والبلايا لخدمة المستعمرين والرأسماليين... ويسعى رجال الأمن لمعرفة المطبعة التي طبعت هذه المناشير، وقد يكون للزعيم شركاء في العمل» ـ (**السيار**، الجمعة ٣١ تموز ١٩٣١).

....

اقترب موعد محاكمة أرتين مادويان ورفاقه. وكان الحزب في هذه الأثناء قد طلب محامياً كبيراً من لجنة «المساعدة الأممية الحمراء» للدفاع عن المعتقلين بهدف إحداث دويّ حول قضيتهم وقضية الحرية تحت سيطرة المستعمرين الفرنسيين في لبنان. فقررت اللجنة إرسال النائب الشيوعي في البرلمان الفرنسي، والمحامي المعروف على نطاق عالمي: اندريه برتون. وقبل أن يأتي أدلى بأحاديث إلى الصحف الفرنسية حول هذه القضية. وعندما وصل إلى بيروت أجرت معه معظم الصحف اللبنانية أحاديث مطوّلة حول قضية مادويان، وحول الشيوعية، والوضع العالمي، والانتداب، والقضية السورية، وحق سوريا بالاستقلال.

كل هذا شحن جوّ لبنان بقضية مادويان، والشيوعية، وقضية الحرية المذبوحة في لبنان. فإذا الانتداب نفسه في ساحة الاتهام، وليس مادويان ورفاقه.

وجاء يوم ١٧ آب ١٩٣١، موعد المحاكمة.

حشدٌ كبير في قاعة المحكمة: من مختلف الفئات، وحشدٌ غير عادي من الصحفيين اللبنانيين والأجانب. فرصة نموذجية للتبشير بآراء الحزب الشيوعي ومواقفه وسياسته.

«... وقف الكابتن معاون النائب العام، وقرأ ورقة الاتهام، وهي تتضمّن اتهامهم بتهديد سلامة الجيش والدولة، والاشتراك في جمعيات ونشرات تحضّ على تهديم

النظام الاجتماعي، وتحريض الشعب على الثورة كمحاربة الاستعمار. وقال إنهم وجدوا في مفكرة مادويان كتابات مطابقة لمضمون جريدة «الفجر الأحمر»، وهذا نصها: وظيفتنا تنظيم العمال والفلاحين سياسياً واقتصادياً بطرق مشروعة، وإذا لم نستطع ذلك فبطرق غير مشروعة. ومما لا شك فيه أن تغيير الأنظمة الحاضرة وتحرير العمال والفلاحين لا يتم إلا بثورة مسلحة، وسحق الطبقات الرأسمالية».

من أقوال أرتين مادويان في المحكمة: «... نعم. إنني عضو في الحزب الشيوعي السوري. وإنه يحقّ لي أن أكون كذلك، لأنه يجب على كل عامل أن يكون كذلك. **إن الحزب الشيوعي يطلب: توزيع الأراضي وأملاك الشركات الاستثمارية الأجنبية على الفلاحين الفقراء، وإلغاء الضرائب والتامين، وتحرير الطبقة العاملة. إن الحزب الشيوعي هو المدافع عن الطبقة العاملة. ولما كانت الحكومة تضطهد الحزب الشيوعي فإني، وإن كنت أعرف أشخاصه، لا أصرح بأسمائهم حتى لا أرميهم بين أيديها».**

الرئيس يسأل زاديك دادوريان: هل أنت عضو في الحزب الشيوعي السوري؟

زاديك: «إني أتشرّف أن أكون عضواً في الحزب الشيوعي السوري. ولكن لسوء الحظ لست عضواً في الحزب، بل في الشبيبة الشيوعية السورية».

النائب العام الكولونيل دوجان: «إن قضيتنا هذه لها صفة خاصة يمكننا أن نحكم معها بأن سلامة الجيش مهدّدة. إن حرية الفكر لا حدّ لها. والقصة ليست محاكمة الناس في عقيدتهم أو التعرّض لشرعية العقيدة الشيوعية. إن كل ما يسمح به القانون يبقى مسموحاً به. ولكن الممنوع يجب أن يبقى ممنوعاً. إن القانون الذي سنّه المفوض السامي مستمد من صكّ الانتداب ومن روح عصبة الأمم، وإن الذين يخرجون عليه يلاحقون ويوقفون عند حدّهم، وإن القضية الآن هي منع الحزب الشيوعي السوري، هذا الحزب الذي له اجتماعاته وعدد أعضائه غير المعلوم... تدلّنا على ذلك نشراته التي توزع في جميع أنحاء سورية... فنحن إذن أمام جمعية منظمة، تجتمع بانتظام وتقرّر تنفيذ مقرراتها تحت اسم الحزب الشيوعي السوري... إن البراهين ساطعة ملموسة: إنهم يريدون تحقيق الشيوعية بالثورة والحرب الأهلية المخيفة».

من دفاع اندريه برتون: «... فالتهمة لم تعد مسألة جلاتين أو مسألة جرائد ونشرات تطبع على هذا الجلاتين.. بل إنها مسألة رجال متّهمين بالشيوعية، ونشر المبادئ الشيوعية، والاشتراك في جمعيات غير مشروعة... نعم!... إن هؤلاء الرفاق الثلاثة، الذين أدافع عنهم بصورة خاصة، قد اعترفوا أمامكم، بمنتهى الجرأة والافتخار، أنهم أعضاء في الحزب الشيوعي السوري. وما دمنا نعترف بشيوعيّتنا، فقد خرجت مسألة الجلاتين وما إليها من الميدان... فإذا كانت هنا جريمة، فليست الاجتماع والطبع وتوزيع المناشير والجرائد الشيوعية، بل إن الجريمة تنحصر في أن الحكومة تترك العمال والفلاحين في البؤس والشقاء وتمنعهم من تأليف الجمعيات وإنشاء الجرائد الخاصة بطبقتهم... جريمتنا التي نحاكم لأجلها، كوننا شيوعيين ننظم العمال والفلاحين ونُظهر لهم كيف يجب أن يناضلوا للوصول إلى حريتهم السليبة ونيل حقوقهم المغتصبة»[1].

حكمت المحكمة: براءة ميشال برمكيان. سجن كل من أرتين مادويان وزاديك دادوريان ثلاث سنوات مع تأجيل التنفيذ. سجن جورج يوسف راشد سنتين مع تأجيل التنفيذ. وقد أخلي سبيل الجميع على أثر صدور القرار....

رفاق في قاعة المحكمة وخارجها يهتفون: عاش الحزب الشيوعي.

....

في أواخر هذا العام (١٩٣١) انتمى **فرج الله الحلو** إلى الحزب الشيوعي.

قال **يوسف خطار الحلو:** كان فرج الله في حمص خلال ١٩٣٠ ـ ١٩٣١، يعلّم في إحدى المدارس الوطنية. وكان صديقه **ناصر حدّة** قد صار شيوعياً. فأخذ **فرج** يطالع بعض الكتب الماركسية. وكنت أنا هنا، وكان لي صديق اسمه توفيق نجم. كان في أحد المصحّات. تعرّف على صديق أرمني شيوعي، وهذا الأرمني جمع توفيق نجم بفؤاد

---

(١) وثائق المحاكمة، وأقوال المتهمين، والنائب العام، والدفاع، مأخوذة من أعداد جريدة «لسان الحال» التي تابعت سير المحاكمة ونشرت تفاصيلها بإسهاب، في أعدادها الصادرة بين ١٥ و٢١ آب ١٩٣١.

الشمالي. ذات يوم كنت أتحدث مع توفيق وأسبّ الأوضاع في البلد، وأقول: آخ لو أن أحداً أو جماعة تعمل كذا وكذا ضد هذه الأوضاع!... قال نجم: يوجد حزب هدفه تغيير هذه الأوضاع، هل تدخل. وأخذ يحدّثني عن الحزب الشيوعي. قلت: ندخل. ثم جاء فرج الله من حمص، وأخذ رأساً يحدّثنا بموضوع الانتساب إلى الحزب. قلنا له: المسألة صارت مطبوخة. وذهب توفيق نجم يُخبر فؤاد الشمالي، كان يومها أميناً عاماً للحزب، جاء إلينا بنفسه. كنا أربعة: فرج الله الحلو، وفؤاد الشمالي، وتوفيق نجم، وأنا. وصرنا شيوعيين.

في تلك الأيام، كان قد صدر كرّاس بعنوان «لماذا يناضل الحزب الشيوعي السوري؟» جرى توزيعه على نطاق واسع جداً. وعلى الأثر أخذت تتشكل منظمات جديدة للحزب، في: بينو عكار. وجبيل. وشرتون. وبنت جبيل... الخ» ـ (حديث خاص).

منذ ذلك العام، فَنِيَ **فرج الله الحلو** في الحزب.

على أن حياة فرج الله الحلو في الحزب تحتاج إلى حديث طويل آخر لا بد أن يُروى في مجال آخر.

فقد أعطى فرج الله الحلو الحزب شبابه، وجهده العقلي والجسماني، وهبه قلبه وضياء عينيه، ثم أعطاه دمه(*).

ولا تزال دماء فرج الله الحلو، الذي استشهد وهو أمين عام للحزب، تجري في عروق حزبه حارة، ونضرة، وتشعّ من خلال خيوط رايته الحمراء.

(*) استشهد القائد الشيوعي فرج الله الحلو تحت التعذيب في أحد السجون بسوريا أيام الوحدة المصرية السورية، وكان قد اعتقله رجال المباحث، وبعد استشهاده ذوّبوا جسده بالأسيد لإخفاء جريمتهم.

الأعلام الحمراء
تخفق متحدية... فوق الشوارع

أقسم أن خاتمة حكايتنا هذه ليست مقصودة كنوعٍ من التشكيل الفني.

بعض الأعمال الفنيّة تتشكّل أحياناً في بنية دائريّة، فإذا نهاية العمل الفني تحمل العنصر الأساسي لبداية العمل وقد اكتسب إيقاعاً جديداً، مطوّراً ومكثّفاً، من خلال الحركة الداخلية للعمل كله كبنية متكاملة.

هذا في الأعمال الفنية، حيث يملك الفنان حرية **التحرّك**، التي لا يملكها، عادة، راوي الأحداث التي جرت في الواقع، فهو ـ شاء أم أبى ـ **مقيّد إلى سلطان الوقائع التي لا ترحم.**

ولكن، يبدو أن منطق حركة التاريخ، يتجلّى أحياناً كما لو أنه بنية فنيّة شكّلتها يد فنان مبدع.

لماذا هذا الحديث الآن؟ وإلى أي حدّ له علاقة بحكايتنا هذه؟

القضية أن الوقائع نفسها تلعب معنا الآن لعبتها الفنية:

ذلك أن المناضلين الشيوعيين في لبنان ابتكروا، ابتداء من أول أيار ١٩٣٢، شكلا جديداً، باهراً، للاحتفال بهذا العيد، على نطاق واسع ومثير، وفي ظروف السرية القصوى.

وأرادوا للاحتفال أن يجمع بين الطابع الكفاحي، وطابع التزيين المهرجاني الصارخ بالفرح، وطابع التحدي لليل الإرهاب الفرنسي.

فماذا فعلوا؟

هذا واحد من شيوعيي زحلة القدماء يحدثنا:

ـ «... كانت السلطات الفرنسية في ذلك الزمن، تحسب حساباً استثنائياً ليوم أول أيار.. فتبثّ عساكرها السنغاليين، يجوبون الشوارع في النهار وفي بعض الليل... أردنا أن نحتفل بالعيد بشكل قوي... كنّا في عام ١٩٣٢.. كان علينا أن نوزّع المناشير، ونملأ الجدران مناجل ومطارق.. وجاءنا اقتراح مدهش عمدنا رأساً إلى الاستعداد لتنفيذه.. أعددنا بيارق حمراء كبيرة.. جمعنا القماش من هنا ومن هناك، واشترينا قماشاً جديداً من خارج زحلة ـ حتى لا ننفضح ـ وأخذنا نربط كل بيرق بخيط مَصّيص، متين وطويل، ثم نربط حجراً، أو أي مادة ثقيلة نوعاً، بالطرف الثاني للخيط.. وخرجنا بعد منتصف الليل، وتوزّعنا الشوارع والطرقات المحددة.. بعضنا يرسم مناجل ومطارق.. بعضنا يُلصق المناشير.. وبعضنا الآخر، وكنتُ بين هذا البعض، يقذف الحجر المربوط بالخيط إلى أعلى فيندفع حاملاً معه البيرق الأحمر، ويلتف الخيط حول سلك الكهرباء فيلعب البيرق بالريح ويلعب الريح مع البيرق... وتتدلّى البيارق، حمراء، من أسلاك الكهرباء.

في الصباح، البيارق تملأ بعض الشوارع، الدنيا كلها مزدانة ببيارق العيد الحمراء.. والناس مندهشون، معجبون: «شيوعيين.. والله قبضايات!».. وعساكر فرنسا أصابها الجنون.. اعتقلوا عدداً منا، بسيطة. النتيجة كانت معروفة. المهم أننا عيّدنا، وعيّدت زحلة كلها معنا، وعندما ساقونا إلى السراي، كانت بعض البيارق الحمراء العنيدة لا تزال تخفق فوق رؤوسنا ورؤوس العساكر...» ـ (حديث خاص):

ـ واحد آخر، من شيوعيي طرابلس القدماء، يروي:

ـ «... في كل أول أيار، كنا نمتنع عن العمل. ونُلصق المناشير على الجدران... **يا عمال العالم اتحدوا**... وشعارات الحزب... وكنا نضع رملاً في جيوبنا، فإذا جاء أحد من الجندرمة أو الحرس، نرشّ الرمل بوجهه، فينشغل بتنفيض الرمل، فنختفي مثل

الشياطين. سنة ٣٢ دُعينا إلى اجتماع في محلة «القبّة». كان الاجتماع مخصّصاً للبحث في كيفية الإعداد للاحتفال بأول أيار.. أحدنا طرح اقتراحاً مدهشاً أعجب الجميع.. في الصباح كانت الأعلام الحمراء في بعض شوارع طرابلس والميناء تتدلّى من أسلاك الكهرباء. جرت اعتقالات واسعة.. من الميناء وحدها اعتقلوا ١٥ واحداً.. وكانوا يضربون المعتقلين.. ولكن أعلامنا الحمراء في الشوارع كانت تصفع رؤساء رؤسائهم». ـ (حديث خاص).

في بيروت، عُلّقت بعض الأعلام الحمراء بأسلاك الكهرباء، فوق شارع «الخندق الغميق» بشكل خاص... ولكن المناجل والمطارق ظهرت مرسومة، على عدد كبير من الجدران.

فريد فرح، شيوعي قديم: «... وكنا نعلّق في مدينة جبيل أعلاماً حمراء على الأسلاك الكهربائية بطريقة فنية.. فيجتمع كل الدرك في المنطقة، ويعجزوا عن رفعها...» ـ (من حديث نشرته «**الأخبار**»: السبت ٢٢ حزيران ١٩٧٤).

... هل اكتملت البنية الدائريّة لهذه الحكاية التي بدأت، مع الأعلام الحمراء، يرفعها المحتفلون بعيد أول أيار ١٩٢٥، ثم وصلت إلى عام ١٩٣٢ حيث الأعلام الحمراء تتحدّى السلطة من فوق أسلاك الكهرباء؟..

ولكن، إصغِ!. ألا تسمع معي هزيجاً بعيداً ينبع من كل مكان... يعلو ويعلو ليصير أشبه بالهدير؟..

ثم انظر! ألا ترى معي هذه الجموع الهازجة تزحف من كل الشوارع والطرقات لتصبّ في ساحة الشهداء... حاملة الأعلام الحمراء الكبيرة الكبيرة، وكل ألوان المهرجان تنشد للفرح العظيم؟..

ثم انتبه! رسوم المناجل والمطارق على الجدران، تتحرّك... إنها تنفصل عن الجدران.. إنها تطير في الهواء... إنها تتجه نحو الأعلام الحمراء تنطبع عليها مثل حركة تاريخ قادمة لا ريب فيها... اسمعهم جميعاً ينشدون:

راية الحزب ارفعوها
تتلظّى باحمرار
ارفعوها... واتبعوها
للعلى، للانتصار.

....

ـ مهلاً يا رفيقي الراوي... هل أنت في حلمٍ أم أين تظن نفسك؟

ـ بل في حلم يختلج ضميره بصور الآتي...

ولكن، صدّقني أيها الصديق: لن يظل حلماً هذا الذي نراه. فعندما يندمج منطق التاريخ، بوعي الجماهير وسواعدها. وإصرارها على الحركة والنضال، والاستمرار. تصير الحال غير الحال. ولا يظل هذا الحلم حلماً...

... ويولد، في الأعماق، حلم جديد!

(تشرين الأول ١٩٧٤)

....

● بعد عشر سنوات: صدرت طبعة جديدة من هذا الكتاب، عام ١٩٨٤، تحمل إضافات عديدة وأساسية، وكثير من التدقيقات، ومقدمة للطبعة الثانية.

● هذا العام (٢٠٠٧).. هذه طبعة ثالثة تحمل عدداً من الإضافات والتدقيقات، ومقدمة ثالثة تتضمّن: حكاية تاليف هذا الكتاب، ورؤية راهنة لبعض ما حمله الكتاب من رؤى صيغت في العام ١٩٧٤، قبل ثلاثين عاماً من يومنا هذا...

وثائق وفهارس

- ملحق النصوص
- إعادة ترتيب للأحداث
- مكتبة هذا الكتاب
- فهرس الأعلام والفصول

أول أيار ١٩٢٥

يا عمال العالم اتحدوا!
يا عمال لبنان اتحدوا!

النص الكامل للخطاب الذي ألقاه **فؤاد الشمالي**،
رئيس حزب الشعب اللبناني في احتفال أول أيار ١٩٢٥

نورد هنا النص الكامل للخطاب المهم الذي ألقاه القائد الشيوعي فؤاد الشمالي، في احتفال أول أيار ١٩٢٥ الذي جرى في قاعة سينما الكريستال، في ساحة الشهداء ببيروت. وقد ألقى الشمالي الخطاب بوصفه الأمين العام «لحزب الشعب اللبناني» وهو المنظمة الديموقراطية العلنية التي كان يقودها الشيوعيون في تلك الفترة. (نص الخطاب منشور في جريدة «زحلة الفتاة»، العدد الصادر يوم السبت في ٢ أيار ١٩٢٥، وفي مكان بارز في الصفحة الأولى).

«إخواني:

لقد انتدبتني اللجنة التنفيذية «**لحزب الشعب اللبناني**» لأتكلّم باسمها في هذا الاجتماع، وليس أحبّ إليّ أكثر من التحدث إلى إخواني العمال خصوصاً في مثل هذا الاجتماع وفي مثل هذا اليوم العظيم. وقبل أن ابتدئ في الموضوع الذي سأتكلم فيه أوجه كلمة إلى الأدباء الموجودين هنا، وهي أن يعذروني إذا وجدوا في خطابي خطأ لغوياً أو تكسيراً في اللفظ، لأني

عامل لم يسمح لي وقتي بأن أتعلم الصرف والنحو. وفوق ذلك فإن كلامي موجه إلى عمال من طبقتي لا أظنهم يشغلون أفكارهم بالانتقاد النحوي ويتركون الجوهر المطلوب.

أيها الأخوان!

إن هذا اليوم الذي نحتفل فيه هذا الاحتفال الكبير، إنما هو **اليوم الأكبر لجميع العمال في العالم**، فيه اتحد العمال في أوروبا ولأجله قُتل العمال الأبرياء الذين سُفكت دماؤهم بأيدي المتموّلين الذين يستحلّون المنكرات في سبيل مصلحتهم النفعية. **في هذا اليوم اتحد عمال العالم فيجب علينا أن نتحد في هذه البلاد المغلوبة على أمرها، ثم نمدّ أيدينا متّحدين إلى بقية أخواننا في العالم قائلين لهم: لقد اتحدنا وجئنا نتحد معكم (فيا عمال العالم اتحدوا)**. وكما أننا نبتهج في هذا اليوم بقوة الاتحاد، كذلك يجب على كل منّا أن يحزن على الأخوان الذين ذهبوا ضحية هذا الاتحاد، فاطلب منكم أيها الأخوان أن نسكت جميعاً ثلاث دقائق حزناً على المقتولين ظلماً بأيدي الرأسماليين، واحتراماً لأرواحهم الطاهرة التي لا أشك في أنها ترفرف اليوم فوق رؤوس الملايين من العمال المجتمعين مثل اجتماعنا هذا..

(سكوت ٣ دقائق)

أيها العمال والفلاحون!

لقد مرّ ست وثلاثون سنة على مؤتمر مندوبي العمال في باريس، الذي تقرر فيه أن يكون أول أيار عيد العمال الرسمي في العالم، ومع الأسف الشديد لم يتحرّك عمال لبنان وسوريا والأقطار العربية. ست وثلاثون مرة عيّد عمال العالم ونحن هنا غافلون. **واليوم فقط بدأنا نشارك الأخوان في شعورهم. اليوم فقط فتحنا أعيننا ونظرنا إلى حولنا مفتشين عن طريق الحرية. وها نحن نرى جيداً هذه الطريق وقد شرعنا نسير عليها.**

فهل من قوة في العالم تتمكن من صدّنا عن طريقنا؟ لا ثم لا أيها الرفاق. إن أعظم قوة تضعف وتتلاشى أمام قوة الشعب، وأقوى إرادة في العالم يجب أن تخضع صاغرة ذليلة متى قال العمال هذه ارادتنا. إن صوت الشعب من صوت الله. وإرادة الشعب تدك العروش وتحطم التيجان. **نحن في العالم كل شيء فيجب أن يكون لنا كل شيء**. ولكن متى يكون للشعب صوت وللعمال إرادة؟ إن ذلك يكون **حين يوحّد الشعب كلمته وينظّم العمال صفوفهم**. وبمعنى آخر حين يتحد المجموع في سبيل مصلحة المجموع. **فالاتحاد إذاً هو الضالّة** المنشودة. ولكن كيف نتحد ومتى يكون اتحادنا صحيحاً خالياً من الشوائب؟ الجواب على ذلك هو أنه **يجب أن نتّحد بالنقابات**. فعلى كل عامل منّا أن يسرع بالانضمام إلى نقابة تضم

أبناء صناعته وحرفته حتى يصبح لكل صناعة نقابة ولكل حرفة نقابة، **ثم تجتمع جميع النقابات فتتفاهم وتتفق كلمتها على الاتحاد العام**، فيتقرر تأليف **نقابة نقابات العمال**، فإذا وصلنا إلى هذه النتيجة نكون قد وضعنا الحجر الأساسي لنبني عليه حياتنا المقبلة، أي الحرية الصحيحة. فالخطة بسيطة سهلة التنفيذ أيها الرافق.

في البلاد نقابات لبعض الصنائع، فيجب على كل عامل لا يزال بعيداً عن نقابته أن ينضمّ إليها بسرعة. وأما العمال الذين ليس لهم نقابة لغاية الآن فيجب عليهم أن يبادروا إلى التفاهم مع بعضهم حتى يتفق منهم على الأقل عشرة، وهؤلاء العشرة يوجّهون دعوة عامة إلى جميع أبناء صنعتهم فيعقدون اجتماعاً يتفاهمون فيه بروح الإخاء والإخلاص، فلا بدّ أن تُسفر الاجتماعات عن نتائج حسنة ما دام الإخلاص الأكيد رائد الكل، وحب المصلحة العامة فوق جميع المصالح الشخصية. إنما يجب الانتباه أيها الأخوان إلى أمر من الأهمية بمكان، وهو أن تحاذروا من الدخلاء الذين يندسون بينكم بدعوى أنهم يريدون خدمتكم وما هم بالحقيقة سوى ذئاب تندس بين قطعان الغنم فتغشها وتسير بها في السبيل الذي تتمكن به من امتصاص دمائها، حذار أيها الرفاق من تلك الذئاب، وانبذوها من بين صفوفكم بكل احتقار وازدراء.

نحن عمال نشقى ونتعب لينعم الأغنياء ويتلذّذون بشرب دمائنا. نموت نحن وأولادنا أسى وغمّاً لنملأ خزائن المحتكرين ثمرة أتعابنا، يأتي إلينا بعضهم فيقولون لنا أحسنتم أيها البؤساء بهذا الاتحاد، وها نحن نسير في طليعتكم إلى ما فيه خيركم ونجاحكم. فعلى قول المثل نكون قد انتقلنا «من تحت الدلفة إلى تحت المزراب».

فإذا كنا نريد فعلاً أن نصل إلى ما نريد **فيجب علينا أن لا نسمح لغير العمال أن ينضموا إلى نقاباتنا وأحزابنا.** فليس للعامل غير العامل، وليس للمظلوم غير أخيه. وأما أولئك الذين يتظاهرون بأنهم معنا في جهادنا، فعليهم أن يضعوا أموالهم كلها في سبيلنا. أي أن الواجب والضمير الحي والمبدأ الصحيح يقضي عليهم أن **يُرجعوا إلى العمال ما سرقوه من دماء العمال.** وإلاّ فعليهم أن ينسحبوا من بين صفوفنا من تلقاء أنفسهم قبل أن نطردهم طرداً عادلاً....

انتبهوا أيها الأخوان ولا تعطوا أصواتكم في الانتخابات لغير أحرار العمال حتى يكون نوابنا من طبقتنا.

إن هذا العيد الذي نحتفل به **للمرة الأولى** يجب أن يكون فاتحة خير لنا بقوة اتحادنا. فلنتحد أيها الأخوان، ولنهتف بصوت واحد: **فليحي العمال، فليحي الفلاحون، فليحي أول أيار، فليسقط الظالمون.**

(أول أيار ١٩٢٥)

نداءات وبيانات

من «حزب الشعب اللبناني»

نورد في هذه الصفحات عدداً من النداءات والبيانات التي عثرنا عليها، والصادرة عن «حزب الشعب اللبناني» خلال العام ١٩٢٥. وقد كان «حزب الشعب اللبناني» منظمة ديموقراطية بادر الشيوعيون الأوائل إلى تأسيسها، وهي تضم الشيوعيين وغير الشيوعيين من العمال والشخصيات الديموقراطية من المثقفين الوطنيين، وكان الشيوعيون هم النواة القيادية لحزب الشعب اللبناني، أما أمينه العام فهو فؤاد الشمالي، القائد الفعلي للحزب الشيوعي اللبناني في تلك الفترة.

حزب الشعب اللبناني

المركز الرئيسي
بكفيا (لبنان)

PARTI
DU
PEUPLE LIBANAIS
BIKFAYA (Liban)

أواسط نيسان ١٩٢٥

أول نداء ظهر به حزب الشعب اللبناني
نطالب بالانتخاب الحر
على أساس اللاطائفية

هذا النداء أورده يوسف ابراهيم يزبك في كتابه «حكاية أول نوار»

(الصادر عام ١٩٧٤)، وقال إنه أول نداء ظهر به «حزب الشعب اللبناني»، وقال أيضاً إن الذين اشتركوا في وضع هذا النداء هم: فؤاد الشمالي أمين عام الحزب، ويوسف ابراهيم يزبك، والمحامي الياس أبو ناضر - وقد نشره بدون تاريخ. ونحن نرجّح انه ظهر في أواسط نيسان ١٩٢٥، وكانت البلاد على عتبة انتخابات نيابية.

«نداء إلى الشعب اللبناني»

لقد آن لك أيها الشعب الأبي أن ترفع صوتك عالياً فتطالب بحقوقك المقدسة التي هضمها الأقوياء، وفي مقدمة تلك الحقوق أن **يكون من حق الشعب وحده وضع الأنظمة وسنّ القوانين التي تسيّر البلاد بموجبها**، ولا يتمّ ذلك بغير دعوة الجمعية التأسيسية المنتخبة انتخاباً حراً **على أساس اللاطائفية**، وبلا أدنى تدخل من الحكومة.

أما تلك الهيئة التي أطلقوا عليها اسم المجلس التمثيلي فهي لا تصلح للقيام بمهمة الجمعية التأسيسية لأن انتخاب المجلس لم يكن حراً، ومع ذلك فإن صلاحية المجالس البلدية أوسع من صلاحية هذا المجلس، فضلاً عن أن قرار تشكيله يحرم عليه مثل هذا العمل. فإذا سلّمنا بأن انتخابه صحيح فالذين انتخبوه لم ينتخبوه لسنّ قانون أساسي.

أيها اللبنانيون، لقد باد عهد كان فيه للحاكم الفرد أن يصدر القوانين والقرارات، وأصبحنا في عصر لا يجوز لغير الشعب أن يقول: هذه إرادتي. إن أمام إرادة الشعب تتلاشى أقوى إرادة.

كانوا يصدرون القوانين والقرارات بقوة الاحتلال العسكري، والآن قد انتقلنا من «حالة الحرب» المزعومة إلى حالة السلم، بعد إبرام معاهدة لوزان، فلم يعد من قوة تجبرنا على قبول قوانين لم يكن لنا فيها رأي «ولا إرادة».

فإلى الجمعية المؤسسة أيها اللبنانيون، **فجميع السلطات يجب أن تكون من الشعب وإلى الشعب»**.

حزب الشعب اللبناني
المركز الرئيسي
بكفيا (لبنان)

PARTI
DU
PEUPLE LIBANAIS
BIKFAYA (Liban)

٢٩ نيسان ١٩٢٥

نداء من حزب الشعب اللبناني
إلى جميع العمال والفلاحين

البيان الذي وزعه «حزب الشعب اللبناني» ـ الوجه العلني للحزب الشيوعي ـ في ٢٩ نيسان ١٩٢٥، ويتضمن دعوة العمال والشغيلة للاحتفال بعيد أول أيار ـ وقد تمّ الاحتفال بشكل علني، ولأول مرة في لبنان، وذلك في قاعة سينما كريستال، يوم أول أيار ١٩٢٥:

نريد

٨ ساعات عمل
٨ ساعات تنزيه وتعليم
٨ ساعات نوم

أيها الأخوان

لقد قرب أول أيار، وهو اليوم الوحيد الذي يعد عيداً رسمياً للعمال كلهم، في كل أنحاء العالم، فيجب عليكم أن تشاركوا أخوانكم في الإضراب عن العمل، وتبرهنوا أنكم لستم بحيوانات تخدم المتمولين والرأسماليين والإقطاعيين بدون أن تفهم حقوقها.

لقد قرر مؤتمر العمال العام في باريس سنة ١٨٨٩، أن يكون هذا العيد (أول أيار) عمومياً في كل البلدان في العالم. وقرر المؤتمر أن يُضرب العمال في الدنيا كلها عن

أعمالهم تأييداً لمقررات المؤتمر المذكور. فما هي تلك المقررات؟

إننا نذكر لكم الآن أهمها:

١ ـ جعل مدة الشغل اليومي ٨ ساعات لا غير.

فيجب عليك أيها العامل أن تؤيد بكل قواك هذا الطلب لتمنع ظلم المتمول عنك، فليس في العالم عامل يشتغل أكثر من ثماني ساعات إلا في لبنان وسوريا والأقطار العربية. لأن العامل في هذه البلاد هو في نظر الغني والرأسمالي كالحيوان الذي يمتطيه، أية ساعة يشاء. وأنه لمن العار عليك أن تكون ذلك الحيوان الذي يخدم الرأسمالي، في حين أن أخوانك العمال في أميركا وأوروبا لا يشتغلون أكثر من ثماني ساعات ويعدون أنفسهم متساوين مع الرأسماليين لأنهم كلهم جُبلوا من طينة واحدة، فأية ميزة تميّز الغني عن الفقير والرأسمالي عن العامل؟؟

لقد قام الرجعيون والرأسماليون فأشهروا الحرب على العمال يوم أضربوا عن أعمالهم للمرة الأولى في أول أيار، وأخذوا يحاربونهم بكل الوسائل الدنيئة التي يلتجئ إليها المتموّلون لأنهم شعروا بأن العامل أخذ ينفض عنه غبار الذل والعبودية واتحد مع بقية أخوانه العمال للمطالبة بحقوقه المهضومة فلم يرق هذا «التمرد» للمتمولين وقاموا يظلمون العمال ويشددون عليهم الخناق حتى كانت مظاهرة أول أيار المشهورة منذ ثلث قرن وقُتل فيها أخواننا العمال الأبرياء لأنهم كان يصيحون بأنهم يريدون الإنصاف ونيل حقوقهم كاملة! ولهذا يحتج العمال في أول أيار على المظالم الدنيئة التي أوقعها الأغنياء الرأسماليون بالعمال الفقراء.

أيها العمال والفلاحون

يجب أن نؤيد طلب تقرير الشغل ثماني ساعات لأننا لا نريد أن نظل آلة تملأ جيوب المتمولين ذهباً.

انظروا أيها الأخوان إلى الغني كيف يبذر أمواله في اللهو والسكر والخلاعة وأنتم لا تمتلكون إشباع عيالكم. انظروا إلى القصور التي يشيدها الرأسماليون من عرق جبينكم وأنتم ليس لكم وكر تلجأون إليه مع صغاركم في زمهرير البرد. انظروا إلى هذه السيارات التي تسير بثمار دم قلوبكم وأنتم عرايا حفاة! انظروا إلى نساء الرأسماليين كيف يرتدين الحرير ويترصّعن بالحجارة الكريمة ونساؤكم جائعات عاريات. انظروا إلى

أبناء الأغنياء كيف تقلّهم السيارات إلى مدارسهم العالية، يرافقهم الخدم في حين أن بنيكم يتضوّرون جوعاً ويموتون برداً، ومع هذا فهم شعلة ذكاء لو تمكنتم من تعليمهم القليل القليل لصاروا من أكبر الفلاسفة والمفكرين ولكانوا يخفضون عنكم هذا الشقاء.

وبعد هذا، أيها العامل فمن أين للغني هذه الأموال ولماذا أنت فقير شقي مع عيالك؟

إن الأغنياء والرأسماليين يأكلون ثمرة أتعابنا أيها الأخوان، نحن نشتغل ثلاث عشرة ساعة وهم يتنزهون ويسكرون ونحن نسبب لهم الغنى وربح المال وهم يجوّعوننا مع عيالنا.

لا تخافوا من قلة الشغل أيها العمال فالدنيا بحاجة إلى أيدينا. نحن سبب سعادة العالم. أيدينا تخرج كل ما في العالم من مصنوعات. ولو اشتغل العمال كلهم ثماني ساعات لما كان في العالم عامل بلا عمل فيجب علينا أن لا نشتغل أكثر من ثماني ساعات.

وإليكم البرهان:

إذا اشتغل العامل اثنتي عشرة ساعة فيكون أكسب الرأسمالي أربع ساعات من وقته وهكذا يستغني صاحب العمل عن نصف عامل ويربح نصف أجرة العامل المستغني عنه.

وإذا اشتغل العامل ١٢ ساعة بدلاً من ٨ ساعات يكون قد أجبر أخاه العامل الثاني أن يزاحمه ويشتغل بأجرة زهيدة أقل من أجرته لكي لا يموت مع عياله جوعاً، فيتزاحم العمال على العمل وبهذه الواسطة تزداد أرباح الرأسمالي، وتتضاعف ثروته في حين أن العمال يخسرون ثمرة أتعابهم بتزاحمهم على العمل ويزداد شقاؤهم وفقرهم!

فعليكم أيها العمال أن تفهموا أنكم كلكم أخوان في البؤس والشقاء وأنكم ضحية جشع وطمع وظلم المتمولين.

استفيقوا وهبّوا من رقادكم، وارفعوا صوتكم عالياً، بأنكم لا تشتغلون أكثر من عمال الحكومة.

اتحدوا في أول أيار أيها العمال والفلاحون وأيدوا مطالب أخوانكم العمال في مؤتمر باريس...

فلنبرهن أيها الأخوان أننا لسنا حيوانات يستخدمها المتمولون. ولنحترم أنفسنا ونساءنا وأطفالنا ولنتحد في الإضراب عن أعمالنا في أول أيار احتجاجاً على ظلم الرأسماليين الرجعيين ولنطلب كلنا بصوت واحد أن نكون طبقة حرة لها حق بالحياة الحرة كغيرها من الطبقات. **إننا لا نستحقّ الشقاء والبؤس أيها الأخوان، لأننا سبب رفاهية ورغد العالم، فلماذا نظل مظلومين. نحن أشرف من الذين يأكلون ثمرة أتعابنا فيجب أن نكون على الأقل مرتاحين مثلهم!**

إلى الإضراب أيها العمال والفلاحون واعلموا أن يوم أول أيار الذي نحتفل به للمرة الأولى في هذه البلاد وكعيد رسمي للعمال سيكون فاتحة خير وراحة لنا بقوة اتحادنا. يجب أن لا يموت هذا الصوت الذي يناديكم للحياة الحرة لأنه يريد تحرركم ورفع الظلم عنكم.

فاتحدوا أيها العمال والفلاحون واضربوا عن أعمالكم في أول أيار ليكون لنا نصيبنا الحق تحت الشمس.

فليسقط الرأسماليون الظالمون وليحي العمال والفلاحون.

نقلاً عن «زحلة الفتاة» الخميس في ٣٠ نيسان ١٩٢٥ العدد ٣ ـ السنة ١٥

حزب الشعب اللبناني

المركز الرئيسي
بكفيا (لبنان)

PARTI
DU
PEUPLE LIBANAIS

BIKFAYA (Liban)

٣٠ نيسان ١٩٢٥

اشتركوا في احتفال أول أيار
عيد العمال في العالم أجمع

نداء من حزب الشعب اللبناني

نص النداء الذي ألصق على الجدران ووُزّع بين الناس يوم ٣٠ نيسان ١٩٢٥، وفيه يدعو «حزب الشعب اللبناني» جماهير لبنان للاشتراك في الاحتفال بعيد أول أيار، والإضراب عن العمل في ذلك اليوم. (نص النداء منشور في جريدة «الصحافي التائه» في العدد الصادر صباح ٣٠ نيسان ١٩٢٥):

«إن حزب الشعب اللبناني، الذي أسسه عمال لبنان وفلاحوه، وجعل من مطالبه الجوهرية رفع الظلم عن الطبقة العاملة، ينادي العمال في كل البلاد **ليشتركوا مع أعضاء الحزب في الإضراب عن العمل في أول أيار** الذي هو العيد الرسمي الوحيد لجميع عمال العالم، ويرجو منهم أن يُظهروا للرأسماليين والمتموّلين أنهم **لا يشتغلون في اليوم المذكور احتجاجاً على الاعتساف اللاحق بهم منهم**، وتاييداً للمطالب التي أقرها مندوبو العمال في العالم كله في «مؤتمر باريس» عام ١٨٨٩.

نطلب من جميع العمال والفلاحين في هذه البلاد الشقية أن يتركوا أعمالهم في يوم أول أيار ويبرهنوا للمتمولين والإقطاعيين أنهم طبقة لها الحق بالحياة الحرة كغيرها من الطبقات.

يجب على جميع العمال، الذين هم سعادة الوطن وساعد نجاحه، أن يُسمعوا صوت تظلّمهم عالياً في أول أيار، ويشاركوا إخوانهم أعضاء «حزب الشعب اللبناني» في الاحتجاج على الحيف الواقع عليهم.

فليحي العمال والفلاحون، وليحي أول أيار.

اللجنة التنفيذية
لحزب الشعب اللبناني

PARTI
DU
PEUPLE LIBANAIS
BIKFAYA (Liban)

حزب الشعب اللبناني
المركز الرئيسي
بكفيا (لبنان)

١٧ أيار ١٩٢٥

مبـــــادئ
حزب الشعب اللبناني

طلب منّا الكثيرون الاطلاع على مبادئ حزب الشعب اللبناني التي كانت قد نشرت في الصحف السيارة منذ تاليف الحزب، وبما أنها قد عدلت تعديلات مهمة فقد قررت لجنة الحزب التنفيذية إعادة نشرها على صفحات جريدة «الإنسانية» ليطلع عليها القراء وهي:

١ ــ تنشيط الصناعة والزراعة والتجارة اللبنانية والعمل لفرض ضريبة على الآلات الميكانيكية الصناعية والزراعية التي يتسبب من استعمالها شلّ الأيدي العاملة، أو جعلها (أي الآلات) ملكاً للحكومة وتسهيل دخول ما كان منها مساعداً للحياة الاقتصادية واليد العاملة في البلاد.

٢ ــ بث روح الإخاء العام وقتل جراثيم التعصب الديني والطائفي والإقليمي ومنع رجال الدين من التدخل في الأمور السياسية ومحاربة العوائد والتقاليد المضرة.

٣ ــ تعزيز المدارس الوطنية وتوحيد التعليم الحر فيها وجعل التعليم الأولي إجبارياً للبنين والبنات. وأن تكون المدارس الأجنبية خاضعة لبرنامج التعليم. وأن تهتم الحكومة بتشجيع المؤلفين لوضع أو تعريب كتب العلوم التي تفي بحاجة البلاد وتغني الطلاب عن اقتباسها بغير لغة بلادهم التي يجب أن تكون رئيسية في عموم المدارس.

٤ ــ تنظيم العمال والفلاحين بالنقابات والدفاع عن مصالحهم المشتركة لينالوا حقوقهم كاملة في الحياة. وسنّ نظام يؤيد حقوقهم (كتحريم تشغيل الأولاد الذين هم دون الرابعة عشرة، وجعل أوقات العمل اليومي ثمان ساعات، وتحديد الحدّ الأدنى بالأجور ليتمكن العمال من المعيشة براحة. وإلزام أصحاب الأعمال بأن يعطوا العاملات الحاملات إجازة شهرين تبتدئ قبل الوضع بشهر مع إعطائهن أجورهن الكاملة و. و. الخ.).

٥ ـ العمل لفرض ضريبة على الإرث وضريبة على الثروة وتخفيف الضرائب عن عاتق الشعب.

٦ ـ جعل الأوقاف العمومية ملكاً للشعب تحت إدارة الحكومة.

٧ ـ تحرير المرأة ومساعدتها لنيل حقوقها المهضومة (كمنع تعدّد الزوجات ومنع الزواج الباكر و. و. الخ).

٨ ـ يعتمد الحزب على الشعب اللبناني في الوطن والمهجر، وعلى الشعوب الحرة، ويتحد مع الأحزاب التي تماثله في الغاية، ويتخذ جميع الوسائل الممكنة للوصول إلى مطالبه.

(بكفيا في ١٧/٥/٢٥)

اللجنة التنفيذية

مساعد السكرتير العام:

فارس معتوق

حزب الشعب اللبناني

المركز الرئيسي

بكفيا (لبنان)

PARTI

DU

PEUPLE LIBANAIS

BIKFAYA (Liban)

أول حزيران ١٩٢٥

العُمال والانتخابات

نداء من حزب الشعب اللبناني

أيها العمال والفلاحون

لقد اقتربت الانتخابات النيابية فشعرنا بالواجب يدعونا لتنبيهكم إلى ما فيه مصلحتكم

والدفاع عن حقوقكم. فنوجه إليكم هذا النداء الذي لا نشك في أنه يصل إلى أعماق نفوسكم فتهبوا من رقادكم وتعملوا بمنتهى الحماس للدفاع عن مصالحكم المشتركة متكاتفين متآزرين. فقد آن للطبقة العاملة في هذه البلاد المغلوبة على أمرها أن تفيق من نومها وتثبت وجودها. فاسمعوا.

ليس للمجلس النيابي عندنا من صفات المجالس النيابية سوى الاسم فقط، لأن صلاحيته ضيقة جداً. فيجب علينا أن نطالب بتوسيع تلك الصلاحية حتى يكون لنا مجلس نيابي حقيقي. وإلا فخير لنا أن لا ندفع تلك النفقات الكبيرة على مجلس يضع قراراته ثم يتمنى على الحكومة تنفيذها. إننا نريد مجلساً نيابياً يقرر ما فيه مصلحة الشعب ثم يقول للسلطة الحاكمة هذه هي إرادة الشعب الواجب تنفيذها.

كان يجب علينا أن نقاطع الانتخابات حتى يُعطى للمجلس النيابي حقوق النيابة الصحيحة. ولكن خوفاً من أن يفوز بالكراسي النيابية بعض النفعيين والمداهنين الذين لا همَّ لهم غير بيع الشعب والعبث بمصالحه الحيوية وحقوقه المقدسة ليطفئوا جذوة نار الطمع والجشع المتأججة في صدورهم. فخوفاً من أن يصبح نواباً يتكلمون باسم الشعب مثل هؤلاء المنافقين، لذلك قرر حزب الشعب اللبناني دعوة العمال والفلاحين ليخوضوا المعركة الانتخابية المقبلة حتى يكون للشعب نواب أحرار يضحون بمصلحتهم الشخصية في سبيل المصلحة العامة فيرفعون أصواتهم عالية للدفاع عن حقوق الشعب بمنتهى الجرأة والإخلاص.

أيها العمال والفلاحون

سيتقدم إليكم كثيرون من ذوي المآرب الشخصية طالبين منكم أن تنتخبوهم للنيابة عنكم فحاذروا أيها الرفاق من هؤلاء المتملقين.

سيتقدم اليكم الأغنياء الذين احتكروا كل شيء في مدة الحرب فقضوا على الشعب الفقير بالموت جوعاً فحذار أن تنتخبوهم. سيتقدم إليكم بعض المحامين فيقولون لكم نحن الذين نعرف كيف ندافع عنكم لأننا من رجال القانون. فقولوا لهم لقد شهدنا دفاعكم عنا في المجلس المنحلّ وعرفنا خدماتكم القانونية التي تدعون بها فلم يعد يجوز علينا التضليل والتغرير...

يتقدم إليكم بعض الصحافيين قائلين لكم نحن الذين يجب أن تعطونا أصواتكم لأن رجال الصحافة هم الذين يدافعون عن كيان الشعب وهم الذين يرشدون الأمة إلى ما فيه خيرها ونجاحها فقولوا لهم لقد رأينا إخلاصكم وعرفنا إرشاداتكم واختبرنا أعمالكم فرأيناكم تتظاهرون بالحرية والجرأة وحب المصلحة العامة إلى أن يثق بكم الشعب ويسلمكم قياده فتنحرفون عن طريق الحرية الصحيحة وتسيرون أمامه إلى حيث تجدون مصلحتكم الشخصية.

سيتقدم إليكم كثيرون ببيانات (وبرامج) فيها ما يخلب الألباب ويسحر العقول والأفكار كل ذلك ليتمكنوا من الوصول إلى النيابة فقط وهناك يتناسون وعودهم وعهودهم وينقادون لأغراضهم ومطامعهم التي يضحون في سبيل تحقيقها كل شيء حتى الضمير والشرف. فحذار أيها الأخوان من كل هؤلاء ولا تغترّوا بوعودهم ولا تثقوا بهم.

دعوا الأغنياء ينتخبون الأغنياء والمحامون ينتخبون المحامين ودعوا الرأسماليين والملاك والتجار وبعض الصحافيين ينتخبون نوابهم كما يريدون.

أما أنتم أيها الرفاق **فيجب عليكم أن تنتخبوا عمالاً من طبقتكم لأن العامل الذي ذاق طعم البؤس والشقاء لا يمكنه حين يصبح نائباً أن ينسى أن أخوانه** الذين رفعوه إلى كرسي النيابة إنما أوصلوه إليها ليكون لهم من يمثلهم تمثيلاً صحيحاً في المجلس النيابي فيرفع صوته هناك في وجوه المتحاملين على الطبقة العاملة مفهماً إياهم وجوب احترام حقوق العمال والفلاحين.

انظروا أيها الرفاق إلى المجالس النيابية في أوروبا وأميركا تجدوا المئات من كراسي النيابة يجلس عليه نواب العمال.

انظروا كيف أن العمال هناك يقفون حصناً منيعاً بوجه مطامع الأغنياء والرأسماليين وكيف أنهم يرغمون الحكومات على احترام حقوق الطبقة العاملة.

إن اخواننا العمال في أكثر أنحاء العالم المتمدن قد حصلوا على حقوق كثيرة لو حصلنا على القليل منها لما كانت حياتنا في شقاء دائم وبؤس مستمر، فلماذا لا نتشبه بهم؟ ولماذا لا نهب من رقادنا الطويل واستسلامنا الشائن؟ ألا تشعرون أيها الرفاق بالظلم والإرهاق والعبودية التي أثقلت كواهلكم أجيالاً طوالاً؟

أجل إنكم تشعرون بكل هذا وقد آن لكم أن تنظموا صفوفكم وتوحدوا كلمتكم. وقد آن لكم أن ترسلوا إلى المجلس النيابي نواباً من طبقتكم يدافعون عنكم ويعملون لمصلحتكم.

فإلى الأمام أيها الرفاق وليحي العمال والفلاحون.

(بكفيا في أول حزيران ١٩٢٥)

اللجنة التنفيذية

لحزب الشعب اللبناني

حزب الشعب اللبناني

المركز الرئيسي
بكفيا (لبنان)

PARTI
DU
PEUPLE LIBANAIS
BIKFAYA (Liban)

١١ حزيران ١٩٢٥

إلى الرفيق يزبك وكيل الحزب في بيروت

بعد التحية، إن اللجنة التنفيذية لحزب الشعب اللبناني قد قررت بجلستها القانونية المنعقدة بتاريخ ١١ الجاري، وجوب مقاطعة الانتخابات النيابية، ولا يُسمح لأي عضو كان من أعضاء الحزب أن يعطي صوته للمرشحين (المندوبين والنواب) وعلى أعضاء الحزب أن يبثوا فكرة المقاطعة بين أخوانهم العمال والفلاحين، فبناءً على قرار اللجنة وجب إبلاغكم.

بكفيا/ ٢٥/٦/١١

ختاماً اقبلوا تحياتنا الأخوية

عن اللجنة التنفيذية

مساعد السكرتير العام: فارس معتوق

حزب الشعب اللبناني

المركز الرئيسي
بكفيا (لبنان)

PARTI
DU
PEUPLE LIBANAIS
BIKFAYA (Liban)

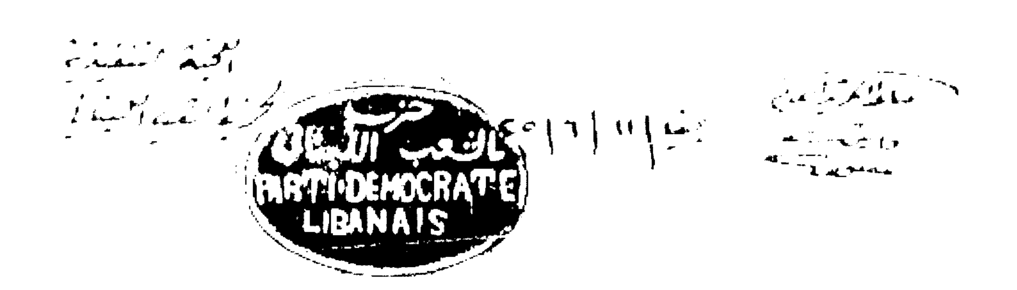
احتجاج حزب الشعب اللبناني على الانتخابات الطائفية

لما كان حزب الشعب اللبناني الذي من مبادئه الإنسانية بثّ روح الإخاء العام وقتل جراثيم التعصب الديني والطائفي والإقليمي، ولما كان قد سبق للحزب أن رفع احتجاجات متوالية على

صفحات الجرائد السيارة على ضيق صلاحية المجلس النيابي المنحل وقانون انتخابه الطائفي.

ولما كان الحزب قد أذاع نداءً بتاريخ ١ حزيران الجاري على صفحات جريدة «الإنسانية» بعددها الرابع يدعو به العمال والفلاحين لانتخاب نواب من طبقتهم يمثلونهم في المجلس النيابي العتيد وذلك استناداً مع قرار دولة الحاكم القائل بالانتخاب الشعبي النسبي اللاطائفي، وحيث إن القرار المذكور ألغي كما شاءت إرادة باريس وتقرر الرجوع بالشعب اللبناني إلى قانون الانتخاب الطائفي ذي الدرجتين، **ولما كانت الطائفية هي الحائل الأكبر دون توحيد كلمة الشعب واستقلاله الصحيح.**

فالحزب يعلن شديد احتجاجه واستيائه من تنفيذ هذا القانون (المكرسَح) وقرر بجلسته القانونية المنعقدة بتاريخ ١١ الجاري أن يدعو العمال والفلاحين إلى مقاطعة الانتخابات المقبلة ويرفعوا صوت احتجاجهم عالياً ليفهموا العالم أن في هذه البلاد طبقة عاملة حرة تعمل لنيل حقوقها وتسير رافعة الجبين محطمة قيود الظلم والإرهاق والعبودية، فليحي عمال وفلاحو لبنان متحدين ولتسقط الانتخابات الطائفية



آب ١٩٢٦

قمع ورجعية

احتجّوا ضد الإرهاب الامبريالي

من جانب الفرنسيين في سوريا

نداء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا وفلسطين.
إلى جميع العمال الأوروبيين!

إن الثورة السورية مستمرة، ويعاني الجنرالات الفرنسيون هزيمة إثر هزيمة. لكنهم بعد كل منها يردون بمزيد من الوحشية. إن وحشيتهم تتجاوز بربرية قوزاق القيصر نقولا في غاليسيا، والامبراطور غليوم في بلجيكا.

ويجري إحراق قرى وأحياء من المدن بكاملها، وهي أعمال لا جدوى منها من الوجهة العسكرية، فهي لا تجري إلا بمحض التعطش إلى الثأر. وتتحدث الصحف كذلك عن العنف الرهيب الذي يمارسه الجنرالات الفرنسيون ضد السكان السوريين المنكودي الحظ.

وفي الوقت نفسه حين تجري هذه المذابح الدامية على أيدي الجنرالات في الجبهة يعمل السفاحون البورجوازيون في المؤخرة. لقد دُمرت البلاد، وشُلت الصناعة والتجارة، وأصبحنا مجرد أطلال. إن هبوط قيمة الفرنك الفرنسي قد أحدث ارتفاع أسعار رهيب

في سوريا. فالعمال مهددون بالمجاعة، وتنفجر الإضرابات في العديد من فروع الإنتاج، وقد كان لهذه الإضرابات طابع اقتصادي بحت طوال الفترة التي لم يكن قد تدخل فيها بعد الموظفون الاستعماريون، المتعطشون للدم. وقد استثار الجنرالات والمفوضون الفرنسيون الانتفاضة، وجعلوا من كل فلاح ثائراً متمرداً ومن كل عامل ثورياً، ومن كل مُضرب شيوعياً.

في رأيهم، وضد المتمردين، والثوريين والشيوعيين يوجد قانون واحد لا غير، ووسيلة واحدة: الإرهاب! السجن، النفي، المشانق، المحاكمات الواسعة النطاق، تلك هي أدواتهم! إن العشرات من الفلاحين والعمال يُحكم عليهم بمدد طويلة من السجن مع الأشغال الشاقة، أو يُعدمون، وفي الأيام الأخيرة، وفي بيروت وحدها اعتقل خمسة عشر عاملاً من العمال المضربين نُقل ثلاثة منهم دون أية إجراءات قضائية، وفوراً إلى جزيرة أرواد، وهي جزيرة آلام الثورة السورية.

إن أفضع المذابح والانتهاكات الأكثر خزياً تجري تحت أعين «رواد الحضارة الأوروبية».

أيها العمال الأوروبيون إلى متى تلزمون الصمت؟ إن كل ما أوردناه يجري باسم التمدن، والثقافة، والتقدم، وإنكم باستمراركم بلزوم الصمت وببقائكم متفرجين صامتين، تتحملون نفس المسؤولية التي يتحملها جلادوكم.

فهل ستظلون على هذه اللامبالاة؟

يا بروليتاريي أوروبا، إن أيديكم تنتج القذائف والقنابل اليدوية والطائرات التي تزرع الموت والدمار بيننا، وتحول حقولنا الخصبة وحدائقنا وقرانا ومدننا إلى مقابر. إنكم بعملكم وعرقكم تعملون لتعيش هذه العصابة من الأشقياء قطاع الطرق الجلادين.

إن مئات آلاف من الأرامل واليتامى في سوريا ينادونكم: أوقفوا مذابح بورجوازيتكم! إليكم يتوجه الفلاح السوري المستعبد والعامل المضطهد. وهم ينتظرون مساعدتكم الأخوية في النضال ضد مضطهديهم ومضطهديكم.

إن نداءنا يتوجه إليكم أيها البروليتاريون الشرفاء، أنتم الأصدقاء المخلصون لحريتنا.

فاعقدوا تحالفاً للنضال مع سوريا الثورية! ونحن ملايين المضطهدين من شعوب المستعمرات، وأنتم الأرقاء الأجراء الأوروبيون، ليس لنا جميعاً سوى عدو واحد، وهو الامبريالية الأوروبية!.

إن ما نقوله لكم ليس من نسج الخيال، بل هي الأحداث الدامية، والواقع الرهيب، الذي تسيل منه الدماء بغزارة. وها قد مرّ عام على اشتعال نيران الثورة في سوريا. ومع ذلك فلا القنابل ولا الرصاص، ولا أنهار الدم المسفوح استطاعت أن تخمد هذه النيران. إن الثورة تتسع. وتقديم قليل من المساعدة من جانب البروليتاريا الأوروبية، وتنتصر الثورة في سوريا!

أيها العمال،

احتجوا ضد الامبريالية الفرنسية، أوقفوا جنون السفاحين الدمويين ضد سوريا.

عاش التحالف الثوري المعادي للامبريالية!

عاش تحالف البروليتاريا الأوروبية مع حركة التحرر الوطني في المستعمرات!

(آب ١٩٢٦)

اللجنة المركزية للحزب الشيوعي
في سوريا وفلسطين

مجلة «المراسلات الأممية» ـ العدد ٩٨ ـ سنة ١٩٢٦ ـ صفحة ١٩٠٥ ـ (صادر في ٦ آب ١٩٢٦)

بيانات من عامي ١٩٣٠ ـ ١٩٣١

٦ تموز ١٩٣٠

نحو مؤتمر عام لجميع العمال

نداء عام

من النقابة العامة لعمال الدخان في لبنان

إلى جميع نقابات العمال، والعمال غير المنظمين في النقابات والعمال العاطلين عن العمل.

أيها الاخوان

إن نقابتنا التي تدافع بكل قواها عن حقوق عمال الدخان ومصلحتهم المشتركة، والتي جاهدت في هذا السبيل جهاداً طويلاً شاقاً حتى استطاعت الحصول على بعض الحقوق التي طالبت بها، ودرست حالة أعضائها الاقتصادية درساً عميقاً، فرأت أن فريقاً كبيراً من عمال الدخان بدأوا يتعطلون عن عملهم بسبب نظام البندرول، وأن الأكثرية الساحقة منهم ستتعطل في القريب العاجل بسبب استخدام الآلات الميكانيكية في المعامل فشعرت أن الحاجة ماسة لمطالبة الحكومة بما يلي:

١ ـ وضع «قانون ضمان البطالة».

٢ ـ وضع «قانون حماية العمال».

فبما أن المطالبة بهذين القانونين لا تهمّ عمال صناعة الدخان وحدهم بل إنها تهمّ جميع العمال على اختلاف صناعاتهم ومهنهم.

وبما أن العمال لا يستطيعون الحصول على مثل هذه المطالب الهامة إلا من طريق واحد هو طريق التنظيم والاتحاد المتين.

ولكون نقابتنا لا تتمكن بمفردها من حمل الحكومة على إجابة المطالب المذكورة وتحقيقها، فلذلك نرى أن الضرورة تقضي **بعقد مؤتمر عام يمثل جميع نقابات العمال، والعمال غير المنظمين، والعمال العاطلين عن العمل،** للبحث في حالة العمال الاقتصادية العامة واتخاذ القرارات اللازمة، وانتخاب لجنة تنفيذية يعهد إليها العمل لتحقيق مقررات المؤتمر.

ونرى أن من الضروري شرح النقط الرئيسية للمطالب التي رفعتها نقابتنا للحكومة والتي يطلب من مؤتمر العمال بحثها وإقرارها:

١ ـ إن قانون ضمان البطالة معناه أن الحكومة تدفع مساعدات مالية تتناسب مع أسعار حاجيات المعيشة لكل عامل يتعطل عن العمل، أو أنها تجد له عملاً يؤمن له معيشته ومعيشة عائلته.

٢ ـ إن قانون حماية العمال يجب أن يحتوي المواد التالية:

١ ـ تحديد ساعات العمل كي لا تزيد على ٨ ساعات في اليوم.

٢ ـ لا يجوز طرد العامل إلا لأسباب جوهرية يحددها القانون، وإذا شاء صاحب العمل أن يستغني عنه يجب عليه إنذاره قبل شهر على الأقل وإلا كان ملزماً بأن يدفع له التعويض الذي يحدده القانون.

٣ ـ إذا طرد العامل بلا مبرر يجب أن يحصل على أجرة ثلاثة أشهر كتعويض، وإذا قضى في الخدمة ثلاث سنوات فما فوق تدفع له أجرة شهر عن كل سنة.

٤ ـ إذا مرض العامل أثناء تأدية عمله، يقوم صاحب العمل بمعالجته ويدفع له نصف أجرته مدة المرض وإذا أصيب بعاهة مستديمة تمنعه من متابعة العمل يجب أن يحصل على تعويض كافٍ.

٥ ـ إذا مات العامل بإصابة ما أثناء عمله يجب تأمين معيشة عائلته (أي زوجته وأولاده ووالديه وأخوته القصّار) تاميناً كافياً.

٦ ـ في حالة البطالة «الاجبارية» لا يجوز لصاحب الملك أن يطرد العامل من منزله بسبب عدم دفع أجرة المنزل.

٧ ـ في حالة العجز والشيخوخة تدفع الحكومة للعامل ما يقيه شرّ العوز.

٨ ـ تدفع أجور العمال في المواعيد المحددة وبدون أدنى تأخير.

٩ ـ يمنع تشغيل الأولاد قبل السادسة عشرة من عمرهم، ولا يجوز تشغيل الأولاد الذين عمرهم ما بين ١٦ و١٨ أكثر من ٦ ساعات في اليوم، وأن لا يشتغلوا في الأعمال الخطرة والناهكة للقوى.

١٠ ـ يجب المساواة في الأجور بين الرجال والنساء الذين يشتغلون في عمل واحد ولا يجوز تشغيل النساء في الأعمال الخطرة والناهكة للقوى.

١١ ـ يعطى للعاملة «الحبلى» إجازة ستة أسابيع قبل الولادة ومثلها بعدها وتدفع لها أجرتها الكاملة مدة الإجازة.

١٢ ـ يعطى للعامل إجازة سنوية لا تقل عن الواحد وعشرين يوماً، مع دفع أجرته الكاملة.

١٣ ـ يجب أن تتوافر الأسباب الصحية في المعامل.

١٤ ـ يكون للعامل حقّ تأليف النقابات والأحزاب وحق الاجتماعات العامة وحق الإضراب عن العمل.

١٥ ـ تؤلف لجنة تفتيشية من قبل الحكومة ونقابات العمال لمراقبة سير التشريع الخاص بحماية العمال والعمل على تنفيذه بدقة.

تلك هي المواد التي نقترحها الآن تاركين للمؤتمر تنقيحها والإضافة إليها.

أيها الأخوان.

إن هذه القوانين التي نطالب بها ليست بدعة جديدة في العالم، فهي موجودة في بلاد كثيرة كإنكلترا وفرنسا وأميركا وألمانيا وغيرها. واعلموا أن العمال هناك لم يتمكنوا من الحصول عليها وعلى أكثر منها إلا بقوة اتحادهم، بقوة نقاباتهم المنظمة، بقوة مؤتمراتهم التي كانت تتخذ المقررات اللازمة وتعمل على تحقيقها بقوة تضامن العمال وتأييدهم.

إن حياتنا لا تطاق أيها العمال. إذا اشتغلنا نشتغل في معامل وأماكن غير صحية. ونشتغل من عشر ساعات في اليوم إلى خمس عشرة ساعة، والأجور التي نتقاضاها هي أجور بخسة لا تكاد تكفي لشراء ضروريات المعيشة، وإذا مرضنا لا نستطيع معالجة أنفسنا ولا نستطيع تقديم الخبز (الحاف) إلى عائلاتنا التي لا مورد رزق لها إلا من قوة عملنا. وفوق ذلك كله فإن أصحاب الأعمال يطردوننا من عملنا متى شاءت إرادتهم بعد أن نكون قضينا أعواماً طويلة في خدمتهم من دون أن يدفعوا لنا أقل تعويض.

ومتى تعطلنا من عملنا فإننا نقاسي نحن وعائلاتنا كل أنواع البؤس والشقاء والجوع من دون أن يهتمّ بأمرنا أحد، والحكومة تهملنا وشأننا بدون أن تدفع لنا أقل مساعدة مالية أو تساعدنا على إيجاد عمل يؤمن لنا معيشتنا.

أيها العمال.

إن المؤتمر العام الذي ندعوكم إلى عقده في القريب العاجل سيخفف كثيراً من حياة البؤس والشقاء والآلام التي نعانيها في حياتنا المرة.

إن المؤتمر العام يجب أن يُعقد قريباً لأن الحالة الاقتصادية السيئة التي عمّت البلاد فدفعت بالتجار وغير التجار إلى عقد مؤتمرات عديدة لمعالجة حالتهم والدفاع عن مصلحتهم: فلماذا نظل نحن العمال وحدنا نائمين مستسلمين؟ ولماذا نظل متفرقين غير منظمين؟ ولماذا لا نخطو خطوة جريئة في سبيل الدفاع عن حقوقنا ومصلحتنا وحياتنا؟

إننا نطلب إلى كل مجلس إدارة نقابة أن يتلو هذا النداء في جلسة إدارية رسمية، ويدرس النقط الواردة فيه درساً كافياً، وأن يكتب إلينا عن وجهة نظره وعما إذا كان قرر الاشتراك في المؤتمر أم لا، ونطلب إلى كل عامل يطالع هذا النداء أن ينشر فكرة عقد المؤتمر بين أخوانه العمال في المعامل، والطرقات، والمقاهي، والمنازل الخ... ونطلب إلى كل عامل عاطل عن العمل أن يجمع أخوانه العاطلين ويقرأ عليهم هذا النداء ويطلب إليهم أن يكونوا على استعداد تام لانتخاب ممثلين عنهم في المؤتمر.

إننا ننتظر من جميع العمال الذين يقرأون هذا النداء أن يكتبوا إلينا بسرعة عن قبولهم بفكرة عقد المؤتمر وأن يذكروا لنا عنواناتهم حتى متى وجدنا الردود أصبحت كافية نحدد موعد المؤتمر والمكان الذي يعقد فيه. والمكاتيب ترسل إلى العنوان التالي:

النقابة العامة لعمال الدخان في لبنان (بكفيا)

ممثل النقابة	السكرتير العام	رئيس النقابة
إميل لحود «المحامي»	**فؤاد الشمالي**	**فريد طعمة**

(بكفيا في ٦ تموز/ ١٩٣٠)

٧ تموز ١٩٣٠

(وزّع هذا البيان ليل ٦ ـ ٧ تموز ١٩٢٥ في مختلف انحاء لبنان وسوريا)

فليحي الاستقلال التام والوحدة السورية

«يا عمال العالم اتحدوا»

بيان من الحزب الشيوعي السوري

إلى العمال، والفلاحين، وأرباب

الحرف، والمفكرين السوريين

إن المستعمرين الأفرنسيين أعلنوا الدساتير في البلاد السورية رغم إرادة الشعب فجزأوا سورية إلى دويلات، وكبلوا الشعب بقيود الاستعمار لاستنزاف ثروة البلاد واستثمار الشعب العامل وإرهاقه في سبيل مطامع الرأسماليين الافرنسيين فتتضخم ثرواتهم بينما نحن وعيالنا نقاسي آلام البطالة والشقاء والجوع.

أيها العمال والفلاحون! منذ سنوات وأنتم تناضلون لأجل استقلال بلادكم فذهبت حياة المئات منكم ضحية ظلم المستعمرين الذين دمروا دمشق على رؤوس الأطفال والنساء والشيوخ، وحرقوا القرى، وخربوا البيوت، وعلقوا المئات من العمال والفلاحين على أعواد المشانق، وأعدموا الكثيرين منكم بالرصاص. فهل ترضون بأن تذهب كل تلك الضحايا هباء منثوراً؟ وهل تسمحون بأن يستعبدكم المستعمرون ويستثمروا ثمرة عرق جباهكم ويسلبوكم حقوقكم؟

إننا نرفض الدساتير المعلنة في البلاد السورية رفضاً باتاً. ونعلن أن كل من يقبلها ويعمل على تنفيذها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فهو عدو للوحدة السورية وعدو لاستقلال البلاد.

أيها العمال والفلاحون:

لقد خدعوكم وخانوكم مراراً كثيرة فيجب أن تضعوا حداً لخداعهم وخيانتهم. إن الزعماء

الوطنيين خانوا الثورة ودخلوا في مفاوضات للاتفاق والتفاهم مع المستعمرين الذين وعدوا بإعلان العفو العام ولكنهم لم ينفذوا وعدهم فظل المئات من أخواننا الثائرين في الصحراء يقاسون أنواع الشقاء والآلام حتى اليوم.

ووعد المستعمرون بأن يتركوا للشعب حرية وضع الدستور فانتهز الأغنياء والإقطاعيون تلك الفرصة ووضعوا دستوراً لأبناء طبقتهم مؤلفاً من ١١٥ مادة ليس بينها واحدة تعطي الأرض للفلاحين وتمنع استثمار العمال. وأخيراً سلب المستعمرون حق الشعب في وضع دستوره واستأثروا بوضعه هم وحدهم.

إن النتائج التي حصلنا عليها بالثورة أضاعها الزعماء الوطنيون «بسياسة الاتفاق والتفاهم».

إن المناضلين الحقيقيين لاستقلال سورية هم نحن العمال والفلاحون. وينضم إلينا كل المخلصين للاستقلال التام.

أيها الشعب السوري العامل! لسنا وحدنا في نضالنا ضد الاستعمار. بل إن هناك مئات الملايين من الشعوب المظلومة في الهند والصين والهند الصينية وغيرها يناضلون ضدّ الاستعمار بشدة. وفي البلاد العربية، في فلسطين ومصر والعراق يعمل أخواننا العرب على تحطيم نير الاستعمار، وهناك أيضاً بضعة ملايين من العمال والفلاحين الثائرين في البلاد الاستعمارية نفسها يؤيدوننا في نضالنا ضد الاستعمار. وروسيا البولشفيكية، نصيرة الشعوب المظلومة التي تعمل على سحق القوى الاستعمارية وتحرير الشعوب الضعيفة من نير الاستعمار هي أيضاً معنا في كفاحنا لتحرير أنفسنا. وعصبة مقاومة الاستعمار في برلين تبذل جهدها في سبيل تحطيم نير المستعمرين في أنحاء العالم.

أيها العمال والفلاحون: إن الحزب الشيوعي السوري يدعوكم إلى:

١ ـ رفض الدساتير المعلنة في البلاد السورية رفضاً باتاً.

٢ ـ فضح الزعماء الوطنيين الخائنين.

٣ ـ عقد مؤتمر شعبي من أنحاء البلاد السورية يكون أعضاؤه منتخبين انتخاباً حراً لكي يعلن إرادة الشعب السوري الحقيقية.

فليسقط الاتفاق والتفاهم مع المستعمرين الغاصبين، فليسقط الاستثمار، فلتحيى حكومة العمال والفلاحين، فليحي الاستقلال التام والوحدة السورية، فليحي مؤتمر البلاد العربية ضد الاستعمار! فلتحي عصبة مقاومة الاستعمار، فليحي الانترناشيونال الشيوعي. فليحي الحزب الشيوعي السوري.

٥ صفر ١٣٤٩-١/٧/١٩٣٠

اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري

فرع الانترناشيونال الشيوعي

أوائل آب ١٩٣٠

فليسقط الاستعمار الفرنسي
وليسقط المتعاونون معه

يا عمال العالم اتحدوا

نـــداء

من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري إلى العمال والفلاحين والشغيلة والمتنورين الثوريين في سورية

أيها الرفاق والأخوان...

إن الاستعمار الفرنسي المجرم، جلّاد الشعب السوري، يزيد كل يوم إمعاناً في سياسته الاستعمارية الوحشية فيقوي استعماره لجماهير الشعب في سورية (= ولبنان) ويشدد إرهاقه واضطهاده لحركاتنا نحن العمال والفلاحين ويحل منظماتنا ونقاباتنا ويلاحق أفرادنا وقدامى المناضلين ويمتص دماءنا بالضرائب الثقيلة الساحقة ويتعاون مع الإقطاعيين والبورجوازيين على إنقاص أجورنا وزيادة ساعات عملنا وإلقاء عشرات الألوف منّا في مهاوي البطالة والشقاء والمجاعة، ويريد الاستعماريون والإقطاعيون والبورجوازيون بسياستهم هذه تجويعنا واستعبادنا للخروج من الأزمة على حسابنا نحن الشغيلة السوريين وتحويل بلادنا إلى قاعدة حربية عسكرية لجيوش الاستعمار في الحرب الاستعمارية المقبلة وللهجوم على الاتحاد السوفياتي. ولأجل تطبيق هذه السياسة الاستعمارية الوحشية الفظيعة يستعمل الاستعمار الافرنسي كل الوسائل الإرهابية لقتل كل حركة ثورية في البلاد بمساعدة خدمه الخونة المكشوفين أمثال بركات، والعشباني وحقي العظم والدباس، كما أنه يعاضد ويحمي كل مساعدة يتقدم بها حلفاؤه الوطنيون الإصلاحيون والزعماء الكتلويون لتخدير أعصاب الشعب العامل الثائر وإنامته وتحويل انتباهه عن طريق النضال الثوري.

فبينما يلاحق جواسيس الاستعمار وبوليسه الحزب الشيوعي السوري، القوة الوحيدة التي تثقف الجماهير الواسعة في البلاد وتنظمها للسير بها في طريق النضال لإنقاذها من الاستثمار

والاضطهاد والضرائب والبطالة والجوع، **وبينما يملأ الاستعمار سجون المنطقة بالشيوعيين وبالعمال المناضلين الثوريين الذين ينضالون في سبيل استقلال سورية ووحدتها** ويحاربون السياسة الاستعمارية ومعاهدة الإذلال والاستعباد التي ترمي إلى تزييف الاستقلال وتقوية سيطرة الاستعمار وتأمين مصلحة الإقطاعيين والبورجوازيين الوطنيين على حساب الشغيلة السوريين. وبينما يسحق الاستعمار أبسط الحريات الشعبية بالأقدام وبينما يضطهد الاستعمار حرية الصحافة والاجتماعات والجمعيات، وبينما يقمع الاستعمار المظاهرات الشعبية بالرصاص بفظاعة ووحشية، وبينما يحل نقابة عمال المطابع في بيروت، نرى هذا الاستعمار نفسه يرسل يوم ٢٤ تموز إلى ميسلون العشرات من رجال الدرك وبوليس التحري تحت قيادة الضباط الافرنسيين لحماية الكتلة الوطنية وترك المجال واسعاً أمام جميل مردم والبارودي وخوري لتخدير الشعب وخداعه ولأجل منع الشيوعيين والوطنيين الثوريين من فضح مناوراتهم وخداعهم أمام الجماهير العاملة، وفي الوقت نفسه نرى هنانو والجابري والكيالي في حلب يخطبون الخطابات الرنانة ويخدعون الشعب بنفاقهم وريائهم ويعرضون إرسال وفد لباريس لمفاوضة مضطهدينا ومستثمرينا وجلادينا المستعمرين الافرنسيين.. ونسمع هنانو يصرخ علانية (إن خروج فرنسا من سورية مصيبة كبقائها)، ومعنى ذلك أن هنانو وزملاءه الإقطاعيين والبورجوازيين يريدون أن يبقى الاستعمار في سورية وأن يتفقوا مع الاستعمار على توطيد سيطرته مقابل حماية امتيازاتهم من غضب الشعب وتأمين استثمارهم للشعب بقوة حرابه.

أيها العمال والفلاحون والشغيلة والمتنورون الثائرون في سورية...

لقد انجرّ الزعماء الكتلويون أمام ضغط الشعب وغضبه على الانسحاب من البرلمان والحكومة، عندما رأوا خيانتهم قد ظهرت على المكشوف، وها هم الآن يخدعون الشعب بخطبهم الحماسية الرنانة ويسعون لتخدير موجة الثورية وتسكين غضبه، حتى يلعبوا به ويخونوه أفظع خيانة، فليست مناوراتهم إلا تمهيداً لعقد معاهدة الذل والاستعباد مع الاستعمار الافرنسي. إن الزعماء الكتلويين يظهرون بمظهر المعارض للاستعمار وخدمه الشعباني وبركات والعظم وكلهم مع ذلك يستنجدون في ميسلون بضباط الاستعمار... ودرك الشعباني ويرجونهم بشراسة وسفالة ووحشية القبض على الشيوعيين والشباب الوطنيين الثوريين الذين أرادوا فضح مناوراتهم وخداعهم وفضح سياسة أسيادهم المستعمرين. إن الاستعمار الافرنسي، والشعباني ومردم، يتكالبون فيما بينهم ويتصايحون ويتشاتمون فيما بينهم لخداع الشعب، ولكنهم يصبحون صفاً واحداً ويداً واحدة في إرهاق الشعب العامل واضطهاده.

أيها العمال والفلاحون والشغيلة المتنورون الثائرون في سورية...

لا تنخدعوا بعبارات الكتلة الوطنية الخائنة التي تريد خداعكم وترمي إلى عقد معاهدة مع السفاكين الاستعماريين لتزييف استقلال سورية وتقوية استثماركم وتجويعكم واضطهادكم، التفّوا حول طليعة الطبقة العاملة، حول الحزب الشيوعي السوري المناضل الوحيد المخلص الصلب في سبيل مصالحكم ولإنقاذكم من الاستثمار والاضطهاد والجوع والشقاء والقائد الجريء للنضال الثوري ضد الاستعمار وحلفائه وخدمه، في سبيل استقلال سورية وحريتها ووحدتها.

فليسقط الاستعمار، فلتسقط معاهدة الاذلال والاستعباد، فليسقط خدم الاستعمار المباعون بركات والشعباني والدباس وزملاؤهم، فليسقط الزعماء الكتلويون الخداعون، فليسقط الإرهاب الاستعماري، فليحي الاستقلال التام والوحدة السورية فليحي النضال الثوري ضد الاستعمار والإقطاعيين والبورجوازيين، فلتحي الحريات الشعبية المهضومة فلتحي حركة الحركة النقابية، فليحي الحزب الشيوعي السوري.

أوائل آب ١٩٣٠

اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري
(فرع الانترناشيونال الشيوعي)

آخر نيسان ١٩٣١

نحو عيد أول أيار ١٩٣١
نداء إلى العمال والشغيلة والفلاحين في سوريا

اقترب أول أيار العيد الثوري الذي يحتفل به جميع العمال والشغيلة في جميع أنحاء العالم. يأتي أول أيار من هذا العام والشعب السوري بأجمعه في حالة سخط شديد على شركات الاستثمار الرأسمالية التي يحميها المستعمرون بقوة الجيوش والطيارات والدبابات والأساطيل والمدافع، فليست هناك حاجة إلى برهان أقوى من هذا على ضرورة الاحتفال بيوم أول أيار يوم التضامن في النضال الثوري العالمي ضد الاستعمار الرأسمالي.

إن الشعب السوري ليس وحيداً في هذا النضال، بل إن هناك في أقطار العالم الرأسمالي والمستعمرات ملايين من العمال والشغيلة والفلاحين الجائعين المستثمرين المظلومين، يناضلون بقوة ويهاجمون النظام الرأسمالي الاستعماري الذي هو السبب في شقائهم واستعبادهم. وهناك

أيضاً بلاد واسعة الأطراف تبلغ مساحتها سدس مساحة العالم، وهي اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية حيث يقبض العمال والفلاحون على زمام السلطة والحكومة، حيث لا يوجد بطالة ولا استثمار، تقف جنباً إلى جنب مع العمال والشعوب المظلومة.

فيوم أول أيار، هو إذاً اليوم الذي تنزل فيه الإنسانية المظلومة المستثمرة إلى الطرقات لإظهار إرادتها لسحق كل استثمار والتخلص من كل إرهاق، لتحرير كل الشعوب المظلومة والدفاع عن اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ـ حصن الثورة العالمية.

إن التضامن الذي لا يعرف حدوداً ولا تقف في سبيله البحار الشاسعة يجمع في هذا اليوم التاريخي الطبقة العاملة والشعوب المظلومة في ميدان النضال ضد الأعداء المشتركين: ضد الاستعمار المرهق. فلنتحد نحن أبناء الطبقة العاملة في سورية مع أخواننا ورفاقنا في العالم أجمع، **فلنجعل من أول أيار يوم نضال موحد في سبيل الاستقلال التام والوحدة السورية، لنسحق الامتيازات لنناضل ضد الحكومة التي باعت الشعب إلى الرأسماليين الأجانب وسحقته لإخضاعه لرغبة أصحاب الأموال والإقطاعيين،** فلنحتج على هؤلاء الرأسماليين من أعضاء لجنة المقاطعة لشركة الجر والتنوير الذين وقعوا الاتفاق المجحف بحقوق الشعب في بيروت، وليكن هذا درساً للشعب العامل كيلا يضع ثقته في الرأسماليين الخونة.

فلنظهر سخطنا واحتقارنا للخائنين: أمثال جميل مردم بك، فارس الخوري ومن إليهم من زعماء الكتلة الوطنية، الذين أجابوا دعوة المفوض الفرنسي بونسو وعقيلته (في مأدبة ٥ نيسان في دمشق) حيث تمتعوا باللهو والمسرات بينما كان الموظفون الاستعماريون بأمر السيد بونسو هذا يقبضون على كثير من الذين تظاهروا ضد المستعمرين الأجانب، وبينما كانوا فوق ذلك يعذبون بوحشية وفظاعة كثيراً من العمال والجنود الذين أوقفوهم بتهمة نشر الدعاية الشيوعية: (ضربوهم بالعصي على الخصيتين) ثم أحالوهم على المجلس العسكري.

أيها العمال والفلاحون: إن الإقطاعيين والرأسماليين الأجانب والوطنيين يستثمرون جهودكم ويرهقونكم بالضرائب ويثقلون كواهلكم بالأحمال التي لا تطاق ويغتصبون ثمرة جباهكم، **فالحزب الشيوعي السوري يناديكم إلى ترك العمل في يوم أول أيار مثل جميع العمال في أقطار العالم ـ وإلى التظاهر** لنيل المطالب الآتية:

١ ـ جعل ساعات العمل ثمانياً في اليوم!

٢ ـ تعيين يوم راحة في الأسبوع مع دفع أجرته!

٣ ـ وضع قوانين لحماية العمال والفلاحين من استبداد الرأسماليين والإقطاعيين!

٤ ـ أن تدفع الحكومة مساعدات للعاطلين عن العمل!

٥ ـ وضع قانون لحماية النساء العاملات والعمال الأحداث!

٦ ـ حرية القول وصحافة الطبقة العاملة. وحرية تأليف جمعيات العمال ونقاباتهم وحرية الاجتماعات العامة وحرية الإضراب والمظاهرات!

٧ ـ تحرير فقراء الفلاحين من جميع الديون والضرائب الحكومية والإقطاعية!

٨ ـ اطلاق سراح جميع المعتقلين بسبب النضال ضد الاستثمار والنضال الاجتماعي!

ليسقط الاستعمار!

ليسقط الاستثمار الرأسمالي والشركات الرأسمالية الأجنبية!

لتسقط الحكومة التي باعت الشعب!

لتحي حكومة العمال والفلاحين! لتحي ثورة المزارعين الفقراء ضد الإقطاعيين الطغاة!

ليحي الاستقلال التام والوحدة السورية! ليحي يوم أول أيار!

ليحي الحزب الشيوعي السوري!

اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري

فرع الدولية الثالثة

(آخر نيسان/ ١٩٣١)

٦ تشرين الثاني ١٩٣١

في الذكرى ١٤ لثورة أوكتوبر

نداء من الحزب الشيوعي السوري
والشبيبة الشيوعية السورية إلى العمال والفلاحين

يا عمال العالم اتحدوا

أيها الرفاق والأخوان:

في هذا اليوم ٧ تشرين الثاني تتوجه أنظار العمال والفلاحين إلى البلاد السوفياتية التي

تحتفل اليوم بذكراها الرابعة عشرة. إنهم ينظرون إليها بفخر وإعجاب وأمل ويقارنون بين الأزمة والبطالة والبؤس والإرهاب والاضطهاد والاستثمار في العالم الرأسمالي والاستعماري: وبين التقدم والسعادة والهناء التي يتمتع بها إخوانهم العمال في الاتحاد السوفياتي، هذه البلاد الوحيدة التي لا تعرف أزمة ولا بطالة ولا أصحاب المعامل المستثمرين... يرى العمال كل هذا فتزداد قناعتهم وتظهر منهم شيئاً فشيئاً الثورة ضد الرأسمالية والاستعمار، في سبيل تأسيس النظام السوفيتي.

إن الوزراء وأصحاب البنوك وجميع الرأسماليين يتفاوضون ويتداولون دون انقطاع، إنهم يبحثون عن مخرج من الأزمة الحاضرة. ولكن بعد كل مفاوضة تهبط الأجور من جديد، ويزداد شقاء العمال ويقترب خطر الحرب ضد الاتحاد السوفيتي: هذه الحرب التي هي لدى الرأسماليين المخرج الوحيد من الأزمة.

إن الرأسماليين وخدمهم، الاشتراكيين الإصلاحيين، يوهمون الجماهير بأن النجاة سوف تأتيهم من مكتب العمال في عصبة الأمم، أما الوطنيون الإصلاحيون فيبحثون عن النجاة من طريق المعاهدة مع المستعمرين، وجميعهم على السواء يخلقون الأكاذيب ويحملون على الاتحاد السوفيتي ليسهلوا بذلك للرأسماليين تهيئة الحرب ضده، ولكن إذا كان بالإمكان خداع شعب واحد زمناً ما، فمن المستحيل خداع جميع الشعوب إلى الأبد، وعندها ويل للمفترين الخداعين!

ها إن النظام السوفيتي يسود في الصين مناطق مأهولة بأكثر من ٦٠ ـ ٧٠ مليوناً والحرب ضد الاستعمار في الهند ما تنفك ناشبة. وسوف يأتي اليوم الذي تظهر فيه الخديعة الغاندية وتندلع الثورة الشعبية ضد الاستعمار وضد غاندي. أما شعوب مصر وسورية وسواهما. ولو تأخرت في ذلك عن أخواتها، سوف تسير دون شك على طريق الثورة ضد الاستعمار وضد الوطنيين الإصلاحيين!

إن اخواننا العمال في العالم الرأسمالي ينفضون بالمئات والألوف من حول الاشتراكيين الإصلاحيين وخاصة في ألمانيا، وانكلترا، حيث ظهرت الخديعة الإصلاحية بأجلى مظاهرها وفي كل مكان تزداد الاعتصامات ومظاهرات العمال. والعمال في بولونيا وألمانيا تحت قيادة أحزابهم الشيوعية يواجهون الفاشستية والنظام الرأسمالي بقوة وإقدام.

إن الطبقة العاملة العالمية سوف تدافع عن الاتحاد السوفيتي بكل ما تستطيع من قوة، لأن الاتحاد السوفيتي هو حصنها، ووطنها، والمثل الأعلى الذي تسعى لبلوغه!

إن الذكرى الرابعة عشرة للاتحاد السوفيتي تمرّ علينا نحن العمال والفلاحين السوريين في وقت بلغ فيه الإرهاب والاضطهاد أقصى ما يمكن: في وقت يهدم فيه التزاحم الرأسمالي اقتصاديات بلادنا، في وقت يطرد فيه عمال النسيج، وعمال السكك الحديدية من أعمالهم أفراداً

وجماعات ويتركون إلى البؤس والعذاب الذي تقاسيه جماهير كبيرة من العمال والفلاحين الفقراء المسلوبة أراضيهم والمسروقة خيراتهم!

إن الطريق الذي يجب أن نتبعه للخروج من هذه الحالة الفظيعة، **هو الطريق الذي يتبعه كل العمال والشعوب المستعبدة في العالم أجمع، الطريق الذي احتفل بافتتاحه العمال والفلاحون الروسيون منذ أربعة عشر عاماً، الطريق المؤدية إلى تاسيس حكومة العمال والفلاحين في سورية...**

أيها الرفاق والأخوان،

إن الوطنيين الإصلاحيين في البلاد العربية يهيئون الآن مؤتمراً إسلامياً عاماً، وهم إنما يلجأون إلى الدين ليخدعونا، إن هذا المؤتمر لن يزيد القوى الرجعية المظلمة سوى تمكّناً وسيطرة، إنه سوف يوقظ ويغذي الخلافات الدينية، والمضادة بين الأديان وتحطيم الجبهة المتحدة ضد الاستعمار، فيتآمر الأخوان فيما بعضهم: كما هو الأمر بين الهندوس والمسلمين في الهند، فليس من العبث إذاً أن يكون شوكت علي، خادم الاستعمار الانكليزي، هو المحرض على هذا المؤتمر، ولولا ذلك لما كان أمين الحسيني ساعده الأمين ليأخذ رايته من الحكومة الاستعمارية في فلسطين!

الفخر كل الفخر للعمال السوريين الذين أقبلوا من كل جهة في مثل هذه اللحظة الدقيقة، من مسلمين ومارونيين وأرمن ويهود، أقبلوا يُظهرون للعالم تضامنهم المتبادل فيما بينهم. وتضامنهم مع الطبقة العاملة الافرنسية في النضال ضد الاستعمار، لقد أظهروا هذا التضامن بأوضح مظهر عند انتخاب مندوبين يمثلونهم في مؤتمر التحالف العام لنقابات العمال المتحدة في فرنسا، هذا التحالف الثوري، المناضل ضد الاستعمار!

وليس من المهم أن يكون المستعمرون قد منعوا المندوبين من حضور المؤتمر. وكان الحادث ثابتاً لا يتزعزع إنه حادث تاريخي. يبرهن على يقظة العمال والفلاحين في سورية. ويجعلهم على رأس الحركة الشعبية الثورية المناضلة ضد الاستعمار في كل البلاد العربية!

إلى الأمام أيها العمال والفلاحون السوريون! **إلى النضال لتحقيق الاستقلال التام! إلى النضال ضد المعاهدة مع المستعمرين لتاليف جبهة متحدة بين الشعوب المتآخية والطبقة العاملة! للدفاع عن الاتحاد السوفيتي! لا لطرد العمال من أعمالهم**، لتأمين مساعدة حكومية للعاطلين، لإلغاء الضرائب والديون عن عاتق الفلاحين الفقراء (ضد الامتيازات

الرأسمالية السلابة)! ضد الإرهاب الاستعماري! ولحرية حركة العمال والفلاحين! ضد وحشية الإقطاعيين ولتحقيق الثورة الزراعية! لتشريع قانون لحماية العمال!.. وحماية العمال الصغار! ضد طرد الطلاب لاهتمامهم بالسياسة، أو لعدم تمكنهم من تقديم لوازمهم! لتحرير المرأة العاملة وحمايتها.

لتحي الطبقة العاملة السورية وليحي حزبها الشيوعي!...

(اللجنة المركزية للشبيبة السورية)
(فرع الانترناسيونال) للشبيبة الشيوعية

اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري
(فرع الانترناسيونال الشيوعي)

(في ٦ ـ ١١ ـ ١٩٣١)

وثيقة برنامجية تاريخية



يا عمال العالم اتحدوا

مطبوعات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري

عـــدد ١

لماذا يناضل الحزب الشيوعي السوري

غايته القصوى وشيء من بروغرامه

طبع هذا الكتيب لذكرى اعلان الحزب الشيوعي السوري
(٧ تموز سنة ١٩٣٠)

ثمن النسخة فرنك واحد

طبع في مطبعة الحزب الشيوعي السوري — ٧ تموز سنة ١٩٣١

٧ تموز ١٩٣١

لماذا يناضل الحزب الشيوعي السوري؟

مقدمة

● منذ سنة واحدة (٧ تموز ١٩٣٠) أُعلن الحزب الشيوعي السوري في جميع أنحاء البلاد السورية. وهو منذ إعلانه موضع إعجاب الشعب. وأصدقاؤه العمال والفلاحون السوريون يرافقونه بعواطفهم واعجابهم المتزايد، أما أعداؤه المستعمرون والرأسماليون والإقطاعيون فإنهم يحرقون الأرّم حنقاً وغيظاً، وكلما ازداد الحزب تقدماً ورسوخاً كلما ازداد حنق أعدائه وغيظهم.

في خلال سنة واحدة ـ ليست هي إلا برهة قصيرة ـ أصبح الحزب الشيوعي السوري معروفاً في جميع أنحاء البلاد، الأمر الذي جعل الأعداء والأصدقاء يستغربون كيف أن حزباً فتياً تلاحقه حكومة الاستعمار ملاحقة شديدة تضغط عليه ضغطاً متواصلاً لدرجة أن مجرد ذكر اسمه كاف لإلقاء الناس في أعماق السجون (فقد حُكم على أحد العمال في بيروت بالسجن أربعة أشهر لأنه هتف قائلاً... ليحي الحزب الشيوعي السوري). أجل إنهم يتعجبون كيف أن هذا الحزب أصبح حزباً معروفاً في البلاد السورية ومشهوراً بأعماله التحريرية بالرغم من جميع وسائل الضغط والإرهاب الموجهة ضده.

فبواسطة نشرات الحزب الكثيرة المتواصلة التي يوزعها أعضاؤه في البلاد السورية وبواسطة جريدة «الفجر الأحمر» ـ لسان حال اللجنة المركزية للحزب ـ التي يقبل الشعب على مطالعتها بلذة وحماس، تمكن الرفاق من القيام بواجباتهم فعرفوا الحزب وأشهروه.

وقد كان إعلان الحزب ونضال أعضائه سبباً في سجن الكثيرين من الرفاق وحكم عليهم بمدد مختلفة، وبسبب ضغط المستعمرين على الحزب وإرهاب أعضائه، جعلوه معروفاً لدى الشعب ومحترماً منه إذ إن أعضاءه أثبتوا للملأ أنهم لا يرهبون السجون والمعاقل، ولا تستطيع أية قوة كانت أن ترجعهم خطوة واحدة إلى الوراء في سبيل عقيدتهم ومبادئهم الراسخة. والخطة التي اتخذها الحزب في نضاله ضد المستعمرين وحلفائهم الزعماء الوطنيين الخائنين زادت في احترام الشعب له والالتفاف حول رايته إذ إنه برهن على أنه الحزب الوحيد في سوريا الذي يناضل ضد المستعمرين واذنابهم وحلفائهم نضالاً مستمراً.

وبما أن المستعمرين يخافون نشر الدعاية للعقيدة والمبادئ الشيوعية في سوريا فلذلك يستخدمون الإرهاب ضد الشيوعيين ليمنعوهم من الاتصال بجموع الشعب العامل، ولكن اعتقال الشيوعيين يجلب انتباه الشعب للنضال الذي يقوم به المستعمرون ضد الشيوعيين ويساعد على نشر دعاية الحزب **إذ إن الرفاق يغتنمون فرصة محاكمتهم فيحولون قاعة المحكمة إلى منبر يعلنون من عليه عقيدتهم الشيوعية ويصرحون بجرأة بانهم يناضلون ضد الاستعمار.**

ومع أن الحزب أصبح معروفاً ومحترماً، فأكثرية الشعب لا تعرف عن غايته إلا الشيء القليل إذ إن النشرات التي يصدرها الحزب تتعلق بالمسائل الجارية وهي لا تكفي للتعريف عن غايته ومراميه كلها. فالإرهاب المتواصل منع الحزب حتى اليوم من طبع بروغرامه وأعماله ومراميه. وفوق ذلك فالصحف البورجوازية تنشر في أظهر مكان منها مقالات وأخباراً عن الشيوعية العالمية عامة، وعن الشيوعية في سوريا خاصة، وهي تقصد من نشرها تشويه المبادئ الشيوعية وتنفير الشعب العامل من الشيوعيين.

فغايتنا من نشر هذا الكتيب هي إظهار الحقيقة التي تحاول الصحافة البورجوازية طمسها، وإفهام العمال والفلاحين لماذا يجاهد الحزب الشيوعي السوري وما هو الواجب الذي أخذ على عاتقه أن يعمل لتحقيقه. ونترك الحكم للعمال والفلاحين ونحن متأكدون من أنهم سيحكمون لنا ويزداد التفافهم حول رايتنا وهذا ما نقصده لأننا نعلم ونصرح بأنه لا يمكن للحزب الشيوعي أن يفوز بتحقيق غايته الأساسية ما لم يستند إلى جموع العمال والفلاحين الذين يتألف هذا الحزب منهم ويعمل لأجلهم.

غاية الحزب الأساسية

للحزب الشيوعي السوري، كما لكل الأحزاب الشيوعية في العالم، غاية أساسية هي: تقويض النظام الرأسمالي الاستعماري وإنشاء النظام الاشتراكي على أنقاضه.

ذلك لأن النظام الرأسمالي مؤسس على الظلم والاستبداد واستثمار جهود العمال والفلاحين. فأناس لا يشتغلون ولا يتعبون ومع ذلك فهم يملكون الشيء الكثير من الأراضي والمزارع والأملاك والثروات، بينما العمال والفلاحون الذين يكدون ويتعبون ويشقون لا يملكون شيئاً. أي أن الكسالى الخاملين الذين لا يقومون بعمل ما، يعيشون عيشة البذخ والإسراف وينعمون بكل ملذات الحياة، أما المجتهدون الذين يكدحون ويتعبون أثناء الليل وأطراف النهار فلا يحصلون على ضروريات الحياة، ويظلون حياتهم كلها محرومين لذة العيش وهناءه، على الأخص عندما تشتد الضائقات الاقتصادية كما هي الحال في الوقت الحاضر في العالم الرأسمالي كله.

فالنظام الرأسمالي مجحف بحقوق العمال والفلاحين وشديد الوطأة عليهم لأنه يرتكز على عدم المساواة في الحقوق والواجبات بين الناس فيسمح لأفراد قلائل من الأغنياء والرأسماليين والإقطاعيين أن يستثمروا جهود العمال والفلاحين ويرهقوهم بالأشغال المتعبة الناهكة للقوى، ويميتوهم بالتعاسة والشقاء ليظلوا هم متمتعين بسعادتهم وهنائهم وملذاتهم على حساب العمال والفلاحين.

وفوق ذلك فالنظام الرأسمالي الاستعماري يرتكز على عدم المساواة بين الشعوب إذ إن الدول المستعمرة لا تكتفي باستثمار قوى العمال والفلاحين في بلادها، فتحتل بلاد الشعوب الضعيفة لتستثمر جهود سكانها، وتستنزف ثرواتها وتمتص دماء عمالها وفلاحيها. وسوريا إحدى البلاد التي يقاسي شعبها الشيء الكثير من فظائع المستعمرين وظلمهم واستبدادهم.

فنحن الشيوعيين نناضل في سبيل تقويض النظام الرأسمالي الاستعماري الجائر وإقامة النظام الاشتراكي، حيث تسود المساواة الشاملة بين الأفراد والشعوب، ويمنع كل ضغط وكل ظلم وإرهاق واستثمار، وتنتشر السعادة والهناء للجميع.

تلك هي الغاية الأساسية للشيوعية العالمية، وفي سبيل تحقيق هذه الغاية يجاهد الحزب الشيوعي السوري بالتضامن مع الأحزاب الشيوعية في العالم كله. ولن تستطيع أية قوة كانت من الوقوف بوجه الشيوعية التي من المحتم فوزها النهائي.

إن هذه النبذة الموجزة لا تكفي لاظهار مساوئ النظام الرأسمالي وفساده، والمجال لا يساعدنا على التوسع في شرح النظريات والمبادئ الشيوعية لأن هذا الموضوع واسع جداً لا يستوعبه كتيب صغير كهذا.

لذلك فإننا نرجئ البحث في الموضوع إلى فرصة أخرى حيث نضع كتاباً خاصاً نضمنه شرحاً مستفيضاً واسعاً. أما الآن فنكتفي بشرح النقاط التالية وهي:

١ ـ إن النظام الرأسمالي ليس مُنزلاً من عند الله، كما يدعي البورجوازيون ورجال الدين،

لأن أنظمة عديدة ـ كنظام الرق والعبودية ونظام الإقطاعية ـ وُجدت قبل النظام الرأسمالي ولم تلبث أن اضمحلت بسبب أساسها الفاسد كما هو معروف في التاريخ.

٢ ـ ليس النظام الرأسمالي أزلياً. لأنه وُجد بداعي التطور الاجتماعي فيجب أن يضمحل بمقتضى التطور الاجتماعي نفسه ويقوم على أنقاضه النظام الاشتراكي الذي تطلبه الحالة الاجتماعية العامة.

إن الفيلسوف الاشتراكي الكبير، والمرشد الأكبر للطبقة العاملة، الرفيق كارل ماركس بالاشتراك مع صديقه ومساعده الرفيق انجلس، وضع كتابه «الكابيتال» ـ أي الرأسمال ـ شرح فيه النظام الرأسمالي وأظهر أسباب الاستثمار ووسائله. وتقدم الاستثمار في النظام الرأسمالي، أثبت كثيراً من النظريات التي تحققت خلال الخمسين سنة منذ ظهور «الكابيتال».

إن كارل ماركس وانجلس أعلنا منذ خمسين عاماً أن لا بد للنظام الرأسمالي من السقوط والاضمحلال بسبب المناقضات الكثيرة الموجودة فيه، تلك المناقضات تسبب الثورات والحروب التي هي نتيجة لازمة لهذا النظام الفاسد. وقد تنبأ عن وقوع الحرب العالمية الكبرى (١٩١٤ ـ ١٩١٨)، وعن الثورة الروسية، وثورات المستعمرات والضائقة الاقتصادية الحالية التي ستدفع العالم إلى حروب وثورات جديدة.

وشرح ماركس القواعد والطرق والوسائل الواجب اتخاذها لتقويض النظام الرأسمالي وإقامة النظام الاشتراكي، وقد سار الزعيم الأكبر للطبقة العاملة في العالم كله وقائدها المفكر العظيم الرفيق لينين على هذه القواعد فأظهر لنا صحة نظريات ماركس وصوابية تعاليمه. وقد رأينا ذلك في نجاح الثورة الروسية الكبرى والفوز العظيم في إنشاء النظام الاشتراكي وتقدمه المطرد في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية.

فمما تقدم يتضح أن الغاية الأساسية للشيوعية لا ترتكز على العواطف فحسب بل إنها شيء جوهري يرتكز على سنة التطور الاجتماعي. وغايتنا الأساسية تتفق تماماً مع التقدم الاجتماعي وتنطبق على مقتضيات الإنسانية والتمدن الصحيح.

فلهذا نرى الشيوعيين يبذلون التضحيات الكبرى التي يوجبها عليهم النضال في سبيل الاشتراكية لأنهم ينظرون إلى المستقبل بطمأنينة وهم واثقون من فوزهم النهائي.

وكما أنه ليس بالمستطاع إيقاف سير الحوادث التاريخية فكذلك ليس بالمستطاع تجنب سقوط النظام الرأسمالي وإنشاء النظام الاشتراكي على أنقاضه.

فيا إخواننا العمال والفلاحين السوريين افتحوا أعينكم وطالعوا ما كتبه الرفاق ماركس ولينين وغيرهما من واضعي أسس الاشتراكية الصحيحة (إن الحزب الشيوعي السوري يبذل جهده لترجمة الكتب الشيوعية اللازمة وطبعها) فعندئذ تتسلحون بالمعرفة، معرفة قوة الطبقة

العاملة التي تنتمون إليها، الطبقة التي سيخضع لها المستقبل، الطبقة المستثمرة اليوم بموجب النظام الرأسمالي الجائر، والفائزة غداً بجهادها الثوري، المنتصرة بإقامة النظام الاشتراكي.

هدف الحزب وبروغرامه

للحزب الشيوعي السوري هدف يرمي إليه هو تقويض النظام الرأسمالي وتشييد النظام الاشتراكي في سوريا. وللوصول إلى تحقيق هذه الغاية وضع الحزب لنفسه بروغراماً خاصاً يسير عليه في نضاله. وينحصر هذا البروغرام في النضال الثوري لتحسين المعيشة وشروط العمل للعمال والفلاحين السوريين.

والفرق بين هدف الحزب وبروغرامه هو أن البروغرام يقضي بالنضال الجدي للحصول على مطالب العمال والفلاحين المتتابعة، وتحرير سوريا وإنالتها الاستقلال التام، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بتقويض النظام الرأسمالي الاستعماري وإقامة حكومة العمال والفلاحين في سوريا. وبما أن الوقت لم يحن بعد لتنفيذ هدف الحزب، (أي تشييد النظام الاشتراكي في سوريا) فلذلك نحصر بحثنا في بروغرام الحزب مع أن الهدف والبروغرام ليسا إلا جزئين متممين لهيكل واحد. فالنضال لأجل الاشتراكية لا يمكن القيام به بغير النضال على تحسين حالة العمال والفلاحين، كما وأن تحريرهم لا يتم إلا بإقامة النظام الاشتراكي. والوصول إلى تحقيق النظام الاشتراكي يقتضي أن تكون الطبقة العاملة متنورة ومنظمة تنظيماً ثورياً.

إن تنوير أذهان الطبقة العاملة وإفهامها وجوب التنظيم، وتقوية الروح الثورية في نفوس أفرادها، كل ذلك لا يتم بواسطة قراءة الكتب ونشر الدعايات فحسب، بل إن نضال العمال اليومي للدفاع عن مصلحتهم وحقوقهم هو أكبر مدرسة يتعلم فيها العمال كيف يجب أن يناضلوا في سبيل الفوز النهائي.

فالإضراب عن العمل يفتح أعين الناس العمال المضربين فيرون أنفسهم ضحية الاستثمار الرأسمالي ومقاومة الرأسماليين للعمال وانحياز الحكومات الرأسمالية للأولين واتحادها معهم ضد العمال لهي أقوى دعاية لتضامن العمال ودفعهم لتنظيم صفوفهم في منظم متحد، وهكذا تتكون طبقة عاملة متنورة ثائرة تناضل للحصول على النظام الاشتراكي وتعمل على إحيائه وتثبيته.

ومن جهة أخرى فالنضال في سبيل الاشتراكية هو الوسيلة الوحيدة لضمان مصلحة العمال والفلاحين، وبدون هذا النضال لا يمكن لهم أن يتخلصوا من الضغط والاستثمار ويصلوا إلى تحسين ثابت في وسائل معيشتهم.

أجل لا يمكن الحصول على تحسين ثابت في معيشة العمال والفلاحين ما داموا يعيشون

تحت النظام الرأسمالي لأن هذا النظام الفاسد مملوء بضائقات اقتصادية متواصلة تلقي بالملايين من العمال إلى وهدة البطالة وتقضي على العامل ـ الذي يكون قد استطاع اقتصاد قليل من الدراهم بالتقتير على نفسه أثناء العمل ـ أن ينفق وقت البطالة آخر فلس معه ويصبح عرضة للجوع والشقاء والتعاسة.

ويكفي للبرهان على صحة ما تقدم أن نلقي نظرة على حالة العمال في العالم الرأسمالي في الوقت الحاضر لنرى كيف أنهم أضاعوا ثمرات فوزهم التي حصلوا عليها بعد نضال سنوات عديدة وكيف أن البطالة والجوع يسودان عشرات الملايين من عمال العالم الرأسمالي بسبب الضائقة الاقتصادية الحالية التي يستحيل اجتنابها في النظام الرأسمالي والتي لا يمكن لغير النظام الاشتراكي أن يقضي عليها قضاء تاماً.

فبروغرام حزبنا الذي رسمناه لأنفسنا يقضي علينا بمواصلة النضال في سبيل تحقيق المطالب المتوالية للعمال والفلاحين، والوصول إلى هدفنا النهائي.

النضال لتحرير سوريا
هو الغاية الأولى للحزب

لما كان الافرنسيون يحتلون سوريا فهم يستعمرونها ويستثمرون قوى شعبها ويستخدمون كل وسائل الضغط والإرهاب ليظلّ الشعب خانعاً مستعبداً.

فالسياسة التي يتبعها المستعمرون في سوريا هي سياسة شديدة الخطر على البلاد. إذ إن جميع الموارد أصبحت بيد المستعمرين الذين يسرقون الشعب السوري وينهبونه بجميع الوسائل. فالمرافئ والسكك الحديدية والتراموای والنور والمياه والثلج الخ... كل هذه المصالح الحيوية أصبحت بأيدي الرأسماليين الأجانب. ومالية البلاد تديرها المصارف الافرنسية وتراقبها. وقد احتكر الأجانب أراضي واسعة يستثمرونها لأنفسهم بالزراعات المختلفة كالقطن وغيره. والتجارة الخارجية يديرها ويراقبها معتمدون من قبل المستعمرين. وسرايات الحكومة والبلديات ملأى بكبار الافرنسيين الذين يتقاضون رواتب ضخمة تزيد أربعة أضعاف عما يتقاضاه الموظفون الوطنيون.

وهناك جيش الاحتلال الافرنسي الذي يكبد خزينة البلاد نفقات باهظة. والجمارك يسيطر عليها المستعمرون فينفقون معظم إيراداتها في سبيل توطيد سلطتهم الاستعمارية. وفوق ذلك كله فحكومة الاستعمار تفرض من حين إلى آخر غرامات حربية على الشعب السوري وتستوفيها بقساوة وفظاعة.

فالمبالغ التي يغتصبها المستعمرون من الشعب السوري لا يمكن حصرها ولكن من المؤكد أنها تقدر بمليارات الفرنكات، زد على ذلك الخسائر الفادحة التي نزلت بتجارة البلاد الخارجية مدة العشر سنوات المنصرمة والتي لا يمكن تقديرها.

وعلاوة على جيش الاحتلال والدرك الافرنسي فقد أنشأ المحتلون جيشاً ودركاً من أبناء البلاد، وقسّموا البلاد السورية إلى حكومات أو «دويلات» كما يسمونها وعيّنوا لها الحكام والرؤساء وجيوشاً من الموظفين ما أثقل كاهل الشعب السوري بتحميله النفقات الباهظة فكانت نتيجة هذه السياسة الاستعمارية إلقاء البلاد السورية والشعب السوري في وهدة الإفلاس والفقر المدقع.

وقد تمكن المستعمرون الافرنسيون بفظاعتهم وقسوتهم البربرية من إخماد جميع الثورات التي قام بها السوريون ضد الاستعمار (١٩٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٥ ـ ٢٧) فدمروا المدن والقرى على رؤوس الأطفال والنساء والشيوخ. وأحرقوا المزارع وقتلوا الألوف من أبناء البلاد بواسطة المدافع والطيارات والدبابات والمشانق. وزجوا المئات من العمال والفلاحين الثائرين في السجون المظلمة (وهم لا يزالون فيها حتى اليوم، أما البكوات والباشوات والأغوات والإقطاعيون الذين خانوا الثورة كرمضان باشا الشلاش وعبدالغفار باشا الأطرش وحمزة بك الدرويش وأمثالهم فإنهم يتقاضون مرتبات باهظة ثمناً لخيانتهم).

وبعد أن استخدم المستعمرون جميع تلك الفظائع التي تقشعرّ لهولها الأبدان في سبيل إخماد الثورة السورية ولم يستطيعوا إلى إخمادها سبيلاً، عمدوا إلى الغش والخداع والمواعيد الكاذبة واستعانوا بالزعماء الوطنيين الخائنين.

وها هم الآن يستعملون الضغط والاضطهاد والإرهاب الشديد حتى أصبح الشعب السوري محروماً من جميع حقوقه وحرياته ولم يبق له إلا حق واحد هو الدخول إلى السجون التي أصبحت ملأى بالمجاهدين في سبيل حقوق الشعب.

إن المسؤول عن هذا النظام الاستبدادي هم المستعمرون. ولا ننكر أن الشيخ تاج الدين الحسيني رئيس الحكومة في دمشق، وشارل الدباس والشيخ محمد الجسر وأمثالهما الذين هم على رأس حكومة بيروت هم من الوطنيين (المقصود أنهم من أهل البلاد) ـ ولكننا ننكر كل الإنكار إنهم هم الذين يحكمون لأنهم ليسوا إلا مستخدمين عند المستعمرين يستعملونهم لتنفيذ سياستهم وخططهم الاستعمارية.

أما العمال والفلاحون فهم وحدهم الذين يتحملون نتائج هذه السياسة، ويقاسون الضغط الشديد، ويدفعون الضرائب الباهظة وحدهم، كما صرح بذلك غبريال منسى وكيل وزارة الاقتصاد سابقاً في حكومة بيروت (وهذا الوزير لا يمكن أن يكون صديقاً للعمال والفلاحين) حيث قال في كتابه المفتوح الذي نشره في صحف بيروت بتاريخ ٢٣ نيسان ١٩٣١ ما يلي:

«إن الطبقة الأقل رفاهية من جميع طبقات الشعب (يعني بها طبقة العمال والفلاحين) هي التي تقدم الجزء الأكبر أو بالأحرى كل الموارد الحكومية في هذه البلاد».

أجل إن العمال والفلاحين هم الذين يقاسون أنواع الضغط والإرهاب أكثر من غيرهم في هذه البلاد، وهذا الضغط والإرهاب موجه على الأخص ضد الحزب الشيوعي السوري المؤلف من العمال والفلاحين. ومن وسائل الضغط أن الحكومة لا تسمح للعمال بتأليف النقابات والجمعيات، فحكومة بيروت حلّت لجنة تنظيم نقابات العمال ولجنة إعانة عمال النسيج المضربين في دمشق. ولم تسمح بإنشاء نقابة عمال المطابع ونقابة عمال النجارين في طرابلس، وحلّت جمعية تعاون العمال في زحلة ولم تسمح بتأليف نقابة العمال العامة هناك. وضغطت ضغطاً متوالياً عل النقابة العامة لعمال الدخان في لبنان حتى اضطرتها للانحلال من تلقاء نفسها. ومنعت حكومة دمشق عمال الترام من تأليف نقابة لهم، الخ. وكثيرون من العمال طُرحوا في السجن بسبب أعمالهم النقابية (كمؤسسي نقابة العمال في زحلة الذين حكم على كل منهم بالسجن شهراً لأنهم نشروا نشرة احتجاجية على حلّ نقابتهم، ومؤسسي لجنة تنظيم العمال في بيروت الذين سُجنوا وأبعدوا إلى القدموس وأرواد بسبب نشراتهم النقابية، وكثيرين غيرهم في أنحاء البلاد السورية).

وفوق ذلك كله فالحكومة لا تسمح للطبقة العاملة بإنشاء صحف لها. وقد عطلت الحكومة الجرائد الوحيدة التي كانت تنطق بلسان العمال والفلاحين وهي: «الإنسانية» ـ و «صوت العمال» ـ و «العمال»، الأمر الذي اضطر الحزب الشيوعي السوري إلى إصدار جريدة «الفجر الأحمر» التي يطبعها سراً بالرغم من أنف السلطة وجواسيسها التي يحصون على أعضاء الحزب الشيوعي السوري أنفاسهم ويراقبون حركاتهم بدقة زائدة.

والعمال هم الذين يقاسون الضغط الاستثماري الشديد. فالشركات الاستثمارية الأجنبية صاحبة الامتيازات التي هي في مقدمة مستثمري الشعب العامل، تضغط على عمالها ضغطاً شديداً وتجبرهم على القبول بشروط العمل التي تمليها إرادتها.

وفي هذه البلاد الراسخة تحت نير الاحتلال الافرنسي لا توجد قوانين حماية للعمال، أو الضمان الاجتماعي وإعانة العاطلين. فالعامل الذي يشتغل عشرات السنين في معمل أو شركة يُطرد من عمله لمجرد إرادة صاحب العمل بدون أن يحصل على أقل تعويض عن سني الخدمة. والعامل الذي يُصاب بعاهة مستديمة أثناء تأدية عمله لا يُدفع له أقل تعويض بل يُقذف به إلى قوارع الطريق حيث يصبح عرضة للموت جوعاً. والعمال العاطلون يموتون جوعاً هم وعائلاتهم بدون أن يحصلوا على مساعدات من الحكومة.

وكذلك الفلاحون فإنهم مستثمَرون من الإقطاعيين وخدم الاستعمار والمرابين ورجال الدين والحكام، فكل هؤلاء تجمّعوا كالعلق على جسم الفلاح يمتصون دماءه بشراهة وحشية. والإقطاعيون هم أسياد المزارع المطلقو التصرف بحياة الفلاحين فيستعبدونهم ويستبدون بهم

ويسومونهم أنواع التعذيب فيضربونهم ضرباً وحشياً، ويسجنونهم في أقبية القصور الرطبة المظلمة، كما هي الحال في عكار وجبال العلويين وجبل الدروز الخ... أي أن الاستبداد الوحشي سائد في سوريا تحت إدارة حكومة الاستعمار الافرنسية.

فالمسؤولية الكبرى عن حالة العمال والفلاحين في سوريا واقعة قبل كل شيء على عاتق المستعمرين الافرنسيين الذين يطلقون الحرية للشركات الاستثمارية الأجنبية ويحمونها بكل ما لديهم من قوة لتستثمر عمالها كما تشاء ويتركون الرأسماليين والإقطاعيين الوطنيين يستثمرون العمال والفلاحين استثماراً وحشياً ويضطهدونهم كيفما شاؤوا وذلك مكافأة لهم على الخدمات والمساعدات التي يقدمونها للسمتعمرين.

فتجاه هذه الحالة التي لا تطاق أصبح النضال لتحرير سوريا من النظام الاستعماري أمراً محتماً وواجباً على كل فرد من أفراد الشعب السوري العامل، وذلك للتمكن من العمل في سبيل النقط التالية:

- **أولاً** ـ لتقدّم البلاد السورية الذي يمنعه المستعمرون، والذي هو ضروري لحياة الشعب.
- **ثانياً** ـ لانتزاع حريات العمال والفلاحين المغتصبة بسبب النظام الاستعماري.
- **ثالثاً** ـ للنضال المثمر ضد الاستثمار الإقطاعي والرأسمالي، ذلك النضال الذي يعمل المستعمرون على سحقه بكل قواهم.

فلأجل تحرير الشعب السوري العامل وتقدم البلاد وارتقائها، يعلن الحزب الشيوعي السوري ضرورة النضال لتحقيق المطالب التالية:

١ ـ الاستقلال التام والوحدة السورية.

٢ ـ سحب الجيوش المحتلة.

٣ ـ إلغاء الانتداب.

٤ ـ الغاء الديون العثمانية المفروضة على الشعب السوري والديون التي تفرضها عليه حكومة الاستعمار الحالية.

٥ ـ إلغاء امتيازات الشركات الأجنبية ومصادرة ممتلكاتها وموجوداتها.

٦ ـ إلغاء امتيازات الإرساليات الدينية الأجنبية وإقفال مدارسها ومصادرة ممتلكاتها وموجوداتها.

٧ ـ إلغاء الدساتير التي فرضها المستعمرون على الشعب السوري (سوريا، لبنان، العلويين، جبل الدروز، الاسكندرونة).

٨ ـ إلغاء حكومتي سوريا ولبنان العاملتين على خدمة المستعمرين الافرنسيين وتوطيد سلطتهم، وكذلك الحكومات الافرنسية ـ في جبل الدروز والعلويين والاسكندرونة.

٩ ـ إلغاء المجلس النيابي اللبناني الذي هو آلة بيد المستعمرين يستخدمونها لغشّ الشعب وتخدير اعصابه بجعله يعتقد بأن له مجلساً نيابياً، وفي الحقيقة أن هذا المجلس هو بؤرة الكذب والرياء والنفاق، وجميع أعضائه هم في مقدمة خادمي الاستعمار. وإلغاء المجالس البلدية ومجالس الادارة المعيّنة تعييناً لخدمة مصلحة المستعمرين، والغاء تعيين المختارين الذين يجب أن ينتخبهم الشعب انتخاباً، والغاء تلزيم موارد البلديات لأفراد أو لشركات.

١٠ ـ حرية الصحافة، وعلى الأخص صحافة الطبقة العاملة، وحرية الخطابة والنشر وتأليف الجمعيات والاجتماعات والمظاهرات والإضراب عن العمل.

١١ ـ إطلاق سراح جميع المسجونين والمعتقلين السياسيين الذين سُجنوا واعتقلوا بسبب نضالهم ضد الاستعمار، والعمال المسجونين بسبب القيام بحركات العمال التحريرية.

مطالب الحزب لتحسين حياة العمال

إننا نريد أن نضع حداً لاستثمار جهود العمال السوريين غير المحدود، أي أننا نريد إنقاذهم من التعاسة المحيقة بهم إذ إن الرأسماليين هم الذين يتحكمون بحياة العمال حسب مشيئتهم فيشغلونهم من ١٠ ساعات إلى ١٤ ساعة في اليوم لا بل أكثر من ذلك، إذ إن عمال البناء يشتغلون من شروق الشمس حتى مغيبها مدة فصل الصيف، وعمال الخياطين والحلاقين والكندرجية وغيرهم يشتغلون حتى الساعة العاشرة ليلاً وأحياناً إلى ما بعد نصف الليل.

فعلى ذلك يكون العامل في سوريا عبداً لعمله ليس له من الوقت ما تتطلبه الحياة الاجتماعية وما يحتاجه لراحة جسمه وصحته.

فلذلك يطالب الحزب الشيوعي بما يلي:

١٢ ـ وضع قانون يتقيّد به جميع الذين يستخدمون الأيدي العاملة، يحدد ساعات العمل اليومي حتى لا تزيد عن ٨ ساعات.

١٣ ـ وضع قانون يحدد الحد الأدنى للأجور، التي يجب أن تكون لا أقل مما تقتضيه حياة العامل وعائلته.

ونريد بهذا أن نضع حداً للحالة غير المحتملة التي يقاسيها كثير من العمال الذين يشتغلون النهار بطوله فلا يكسبون ثمن القوت الضروري، إذ إن الكثيرين منهم يكسبون من ٢٥ إلى ٣٠

قرشاً في اليوم، وهذه القيمة الزهيدة لا تكفي لحياة رجل فرد فكم بالحري لحياة رب عائلة!!

١٤ ـ وضع قانون يجبر أصحاب العمل على اتخاذ الشروط الصحية في أماكن العمل.

ونريد بهذا أن نحافظ على العمال من أن يظلوا ضحية لعدم توفر الشروط الصحية في أماكن العمل، لأن الكثيرين منهم يصابون بالأمراض العضال بسبب اشتغالهم في أماكن أشبه شيء بمغائر الحيوانات من حيث القذارة والرطوبة وما أشبه ذلك، إذ إن أصحاب العمل يضنون بإنفاق المال اللازم لتوفير النظافة والشروط الصحية في معاملهم فنحن نريد أن نضع حداً لهذه الحالة التي يضحي العمال فيها بصحتهم وحياتهم في سبيل منفعة الرأسماليين فلذلك نطالب بما يلي:

١٥ ـ تفتيش أماكن العمل بواسطة لجنة من العمال.

وبما أننا لا نطيق أن يظل العمال الذين يصابون أثناء العمل متروكين عرضة للتعاسة والشقاء والجوع فلذلك نطلب:

١٦ ـ وضع قانون الضمان الاجتماعي على حساب الرأسماليين والحكومة،

فبمقتضى هذا القانون يصبح العمال الذين يصابون أثناء عملهم مضمونة حياتهم وحياة عائلاتهم إذا كانت إصابتهم مميتة، أو عندما يصابون بعاهة مستديمة تمنعهم من مواصلة العمل، وعندما يبلغون سنّ الشيخوخة.

وبما أن الهيئة الاجتماعية مسؤولة عن بطالة العمال إذ إن النظام الرأسمالي يحرمهم كل شيء ولا يبقى لهم إلا أيديهم للعمل، وهذا النظام هو الذي يسبّب الضائقات الاقتصادية التي تدفع بالعمال إلى البطالة فيصبحون عرضة للمجاعة، وبما أن الرأسماليين وحكوماتهم يستولون على القسم الأوفر من ثمرة جهود العامل أثناء العمل، فيجب عليهم إذن أن يسهلوا له أسباب المعيشة مع عائلته مدة البطالة ولذلك نحن نطلب:

١٧ ـ أن تخصص الحكومة مساعدات مادية للعاطلين عن العمل تتناسب مع أثمان حاجيات المعيشة وعدد أفراد عائلة العامل المعطل.

وبما أن العمال في سورية محتقرون من الرأسماليين ومديري العمل، وكثيراً ما يهينون العامل ويضربونه أثناء العمل، ولا يحجمون عن طرده عندما يرون أنفسهم بغنى عنه بغير أن يدفعوا له أقل تعويض، وأجور العمال لا تدفع غالباً في أوقات معينة أو أنهم يقبضونها دفعات متتالية، الأمر الذي يسبب لهم خسائر ومضايقات، فلذلك نطالب بما يلي:

١٨ ـ وضع قانون حماية العمال.

١٩ ـ معاملة العمال معاملة حسنة.

٢٠ ـ إنذار العمال قبل مدة من تسريحهم.

٢١ ـ دفع اجرة شهر للعامل المسرَّح عن كل سنة قضاها في العمل في مكان واحد.

٢٢ ـ دفع أجرة العمال نقداً في أوقات معينة.

٢٣ ـ إعطاء العامل إجازة سنوية لا تقلّ عن الشهر مع دفع أجرته الكاملة.

مطالب الحزب لتحسين حياة الفلاحين

إن الفلاحين هم الاكثرية الساحقة من سكان سورية، وهم مظلومون أكثر من غيرهم.

ولقد سبق لنا القول بأن السياسة الاستعمارية تقضي على الفلاحين بحياة الفقر والتعاسة بينما تساعد الإقطاعيين وأصحاب المصارف والمرابين على التضخم المالي بما يمتصونه من دماء فقراء الفلاحين، ولذلك نرى أكثر الفلاحين يتركون أراضيهم ويهجرون أعمالهم الزراعية وينزحون عن قراهم إلى المدن مفتشين عن عمل يعتاشون منه فيزاحمون العمال، وبذلك تزداد البطالة وتنتشر.

أما الفلاحون الذين يضطرون إلى العمل كشركاء (مرابعين) في أراضي الإقطاعيين الذين يستعبدونهم، فإن القسم الأكبر من غلالهم يستولي عليها الإقطاعيون الذين يسكنون القصور الشامخة، ويبذرون الأموال الطائلة المغتصبة من ثمرة جباه الفلاحين في ملذاتهم وشهواتهم، ويبددونها على موائد القمار وأندية المراهنات، وفي محلات الخلاعة والفحشاء والفجور.

وجميع الإصلاحات والترميمات التي يقوم بها الفلاحون الشركاء في أراضي الإقطاعيين ومزارعهم لا يدفع لهم أجراً عنها.

وجميع صغار الفلاحين تقريباً مدينون للإقطاعيين والمرابين فهم يشتغلون لدفع ديونهم أو فوائدها فلا يتمكنون من تسديد الفوائض فيقعون تحت العجز ويُساق كثيرون إلى السجون، ويضطر البعض منهم إلى تشغيل أولادهم كخدم في بيوت مدينيهم لاستيفاء ديونهم من الأجرة.

فلانتشال الفلاحين من تعاستهم وحالتهم السيئة يطالب الحزب الشيوعي بما يلي:

٢٤ ـ إلغاء الديون عن صغار الفلاحين.

٢٥ ـ إعفاء صغار الفلاحين من دفع الضرائب والغاء ضريبة الأعشار إلغاء تاماً.

٢٦ ـ إلغاء عقوبة السجن بسبب الديون.

وبما أن قسماً كبيراً من الفلاحين تنقصهم وسائل المعيشة والبذار اللازم وذلك بسبب النظام الرأسمالي فالحزب الشيوعي يطلب:

٢٧ ـ أن تقدم الحكومة المساعدات اللازمة من وسائل المعيشة والبذار إلى الفلاحين الذين تنقصهم. ولتخفيف عبء الحياة الثقيلة على عاتق الفلاحين يطلب الحزب:

٢٨ ـ حرية الصيد للفلاحين براً وبحراً.

٢٩ ـ حق استخدام الأحراش لقطع الأخشاب الضرورية لحياة الفلاحين.

وبما أن المياه ضرورية للحياة كالهواء وبما أن الكثير من الينابيع يملكها الأغنياء فيبيعون المياه للفلاحين كما هي الحال في كثير من القرى المحرومة من المياه، فالحزب يطلب:

٣٠ ـ نزع ملكية الينابيع من أيدي أصحابها لتصبح المياه عامة لجميع الفلاحين يستخدمونها في حاجياتهم الضرورية.

٣١ ـ جرّ المياه إلى جميع القرى المعدومة منها.

ولكون المستعمرين بحاجة إلى الطرق المعبّدة لتسيير جيوشهم عليها واستخدامها لأعمالهم الحربية، فقد فرضوا ضريبة بدل طريق، وفوق تحصيل الضريبة من الفلاحين يجبرونهم على السخرة في أشغال الطريق بقوة ضرب الكرباج كما هي الحال في جبال العلويين وجبل الدروز وغيرها، فلذلك يطلب الحزب الشيوعي:

٣٢ ـ إلغاء ضريبة بدل الطريق ومنع السخرة.

وبما أن الحزب الشيوعي يهتم بنوع خاص لحالة الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً ولحالة العمال الزراعيين فالحزب يطلب:

٣٣ ـ قانون حماية العمال الزراعيين.

٣٤ ـ تحديد ساعات العمل، وتحديد الحد الأدنى للأجور في المزارع والحقول.

٣٥ ـ وضع قانون الضمان الاجتماعي ومساعدات للعمال الزراعيين وقت البطالة. أما لأجل البدو الرُحَّل فالحزب يطلب:

٣٦ ـ حرية نزول البدو في جميع الأراضي غير الصالحة للزراعة.

٣٧ ـ إعفاء فقراء البدو من ضريبة الأغنام.

٣٨ ـ مساعدات حكومية للبدو الذين يريدون السكن في أرض معينة.

وأخيراً لأجل تحسين حياة الفلاحين فالحزب الشيوعي يطالب بما يلي:

٣٩ ـ توزيع جميع أراضي الحكومة على الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً.

٤٠ ـ مصادرة أراضي المزارعين الأجانب، وأراضي الإرساليات الدينية وكبار الإقطاعيين، وتوزيعها على فقراء الفلاحين.

٤١ ـ إلغاء جميع الامتيازات الحاصل عليها الإقطاعيون إلغاء تاماً.

لتحرير المرأة والدفاع عنها

إن المرأة السورية (كما في جميع الأقطار العربية) مظلومة جداً بسبب التقاليد الموروثة والعادات المتبعة التي لا تتفق مع مقتضيات التقدم والارتقاء. والقوانين تضع المرأة في الدرجة الثانوية وتعتبرها مُلكاً للرجل يحق له معاملتها كيفما شاء.

والمستعمرون والإقطاعيون ورجال الدين الذين لا يريدون تقدم البلاد السورية وارتقاءها، يعملون بكل قواهم لتظل المرأة السورية خاضعة مستعبدة ذليلة، لأنهم يخشون نهوض المرأة التي ولا شك في أنها ستثور بسبب الضغط الشديد عليها وتنضمّ إلى الحركة التحريرية للبلاد.

فبما أن الحزب الشيوعي السوري هو على رأس الحركة التحريرية، وهو يعمل على تحرير المرأة تحريراً تاماً ومساواتها بالرجل في جميع الحقوق، وبما أننا نحن الشيوعيين مقتنعون بأن لا حياة ولا حرية لشعب تكون المرأة فيه مستعبدة.

ومن جهة أخرى فإننا ننظر نظرة جدية خاصة إلى العدد الكبير من العاملات اللواتي لا حام لهن، يستخدمهن الرأسماليون في أشغال كثيرة لمزاحمة العمال، فيستثمرونهن استثماراً شديداً، ويدفعون لهن أجوراً تكاد تكون أقل من نصف أجور العمال.

فلكي نضع حداً لحالة العاملات السيئة نطالب بما يلي:

٤٢ ـ تحرير المرأة السورية تحريراً تاماً.

٤٣ ـ المساواة بين الرجل والمرأة في التشريع الاجتماعي والسياسي.

٤٤ ـ حرية دخول المرأة في جميع الأشغال (كالمعامل، والمكاتب، وغيرها...).

٤٥ ـ إلغاء الزواج الإجباري.

٤٦ ـ رفع الحجاب.

٤٧ ـ مساواة أجور النساء بأجور الرجال الذين يشتغلون في عمل واحد.

٤٨ ـ إجبار أصحاب العمل على إعطاء إجازات كافية للعاملات الحاملات (الحبالى) قبل الولادة وبعدها مع دفع الأجرة الكاملة لهذه الإجازة.

٤٩ ـ وضع قانون حماية العاملات ومعاملتهن معاملة حسنة.

الدفاع عن العمال الأولاد

بسبب التعاسة الحالّة بجموع العمال في سوريا، فأولادهم في حالة صعبة جداً، إذ إنهم يُجبرون على العمل وهم في سنّ الحداثة، فيُحرمون التربية الحسنة والتعليم الضروري.

ففي جميع البلاد السورية (كما في جميع الأقطار العربية) يوجد كثيرون من الأولاد الذين عمرهم من ٧ سنوات إلى ١٠ سنوات يشتغلون في المعامل والمخازن والعتالة ومسح الأحذية والأعمال الزراعية الخ... وشروط العمل صعبة جداً، وهم معرضون للظلم والاستبداد والإهانة والضرب. وبدلاً من أن يتعلموا صنعة ما، فإنهم يظلّون أعواماً طويلة خدماً لاصحاب العمل والمعلمين، وأكثرهم يشتغل بدون أجرة أو بأجرة زهيدة جداً أي من ٥ فرنكات إلى ١٠ فرنكات في الأسبوع. وكثيرون من الأولاد الصغار يقومون بأشغال يقوم بها الشبان الكبار ولكنهم لا يتقاضون عنها إلا نصف الأجرة.

فالحزب الشيوعي السوري الذي يهتم اهتماماً جدياً بمستقبل الأولاد يطالب بما يلي:

٥٠ ـ منع تشغيل الأولاد قبل سن ١٥ سنة.

٥١ ـ عدم تشغيل العمال الذين يقل عمرهم عن ١٨ سنة أكثر من ست ساعات في اليوم.

٥٢ ـ أجور متساوية في الأعمال المتساوية.

٥٣ ـ إعطاء الحق للعمال الصغار في الانضمام إلى نقابات العمال.

٥٤ ـ اعطاء جميع الحقوق السياسية للشبان في سن ١٨.

٥٥ ـ التعليم الإجباري مجاناً.

٥٦ ـ نشر التعليم وتعميمه في جميع المدن والقرى.

٥٧ ـ عدم إخراج التلميذ من المدرسة بسبب عدم استطاعته دفع الرسوم المدرسية، أو بسبب اشتغاله بالسياسة ضد الاستعمار.

مطالب عامة

إن الشعب السوري العامل مثقلة كواهله بالضرائب، وهو في الوقت نفسه محروم من التوظف في المصالح العامة التي يحتكرها الأغنياء وأبناء الإقطاعيين والبورجوازيين. ولا يستطيع الشعب العامل أن يتوظف إلا في سلك البوليس والدرك أو ما شابه ذلك من الوظائف التي لا توجد في النظام الرأسمالي الاستعماري إلا للضغط على الشعب العامل وإخضاعه لسلطة البورجوازيين والمستعمرين.

والضرائب الباهظة التي تجبيها الحكومة من ثمرة جباه الشعب العامل تنفقها كلها على دفع رواتب الموظفين ولا يبقى منها إلا ٣ أو ٥ بالمئة للمعارف والصحة والمنافع الشعبية العامة.

وأصحاب الأملاك (منازل السكن والمخازن والدكاكين) الذين هم في الغالب إما من موظفي الحكومة والنواب وإما من أصدقائهم وحلفائهم، فإنهم يرهقون المستأجرين وصغار التجار بالأجور الفادحة التي يفرضونها عليهم فرضاً ويستوفونها بقوة الحكومة.

والأسوأ من ذلك كله هو أن أسعار المياه والكهرباء والتراموای وما أشبه ذلك، هي أسعار فادحة وذلك لأن الشركات الرأسمالية صاحبة الامتيازات (وأكثرها أجنبية) تحتكر هذه المنافع الضرورية وتستأثر باستثمارها. فتبتز أموال الشعب وتنهبه نهباً، وذلك بمساعدة الحكومة الاستعمارية التي تستعمل كل طرق الضغط والإرهاب لتمكين تلك الشركات من متابعة النهب والسرقة. ولقد تنبَّه الشعب السوري أخيراً فنهض يقاوم الشركات الاستثمارية ويناضل ضدها.

فالحزب الشيوعي السوري الذي يعتبر المستأجرين وصغار التجار وكل الشغيلة في سورية من أصدقائه وحلفائه في النضال ضد الاستثمار والظلم فهو يريد تحسين معيشتهم ولذلك يطالب بما يلي:

٥٨ ـ إلغاء الضرائب غير المباشرة التي تقع على الأخص على عاتق الشغيلة.

٥٩ ـ فرض ضريبة مباشرة على الأملاك والمداخيل تزداد تدريجياً (طبقاً للقاعدة المعروفة: «من يملك أكثر يجب أن يدفع أكثر»).

٦٠ ـ إلغاء جميع الضرائب عن عاتق الذين يربحون أرباحاً ضئيلة محدودة.

٦١ ـ طرد جميع الموظفين الأجانب.

٦٢ ـ عدم دفع نفقات جيش الاحتلال على الإطلاق.

٦٣ ـ إلغاء جميع النفقات العامة التي لا يستفيد منها الشعب العامل.

٦٤ ـ إنشاء المدارس والمستشفيات وتعميمها.

٦٥ ـ تخفيض أسعار المياه والكهرباء والتراموای وغيرها تخفيضاً كافياً مع تخفيض خاص للعمال.

٦٦ ـ تحديد أجور المساكن والمخازن والدكاكين.

٦٧ ـ وضع قانون لحماية المستأجرين من تحكم المُلاّك واستبدادهم.

في ما يختص بتآخي الشعوب المظلومة لتحررها

إن النظام الاستعماري لا يظلم الشعوب الضعيفة فحسب، بل إنه يدفعها أيضاً للتطاحن بعضها ضد بعض.

فالعداء المستحكم والتطاحن المستمر بين الهندوس والمسلمين في الهند، والذي يسبب ضحايا كثيرة من الجانبين، ليس هو إلا من عمل المستعمرين الانكليز الذين يتبعون سياسة المبدأ القائل «فرّق تسُد». ومن هذا يتضح جيداً كيف أن جيشاً انكليزياً صغيراً استطاع منذ مائة وخمسين سنة أن يستعبد الشعب الهندي البالغ عدده ٣٥٠ مليون نفساً.

وهذه السياسة نفسها «فرّق تسُد» هي السائدة الآن في الأقطار العربية المقتسمة بين سلطات الاستعمار الانكليزي والافرنسي والايطالي.

فالتطاحن المستمر بين القبائل العربية المختلفة، والاستعمار الصهيوني في فلسطين، واستثارة التعصبات الدينية والطائفية بين المسلمين والمسيحيين وبين السنيين والعلويين والدروز في سورية والثورات الكردية في العراق، كل هذه نتيجة مساعي أعمال الاستعمار الانكليزي والافرنسي.

والمستعمرون الافرنسيون في سورية يستخدمون وسائل الرشوة، ويستثمرون اختلاف المناطق والفوارق الجنسية لتثبيت سلطتهم. فالكثير من شيوخ القبائل يخدمون المستعمرين الافرنسيين نظير مرتبات خاصة، منهم الشيخ نوري الشعلان زعيم قبائل الرولا الذي يتقاضى ألوف الليرات الذهبية من المستعمرين الذين دفعوه مؤخراً إلى مهاجمة المجاهدين السوريين النازلين في الصحراء. ورجال الدين هم دائماً مستعدون لإثارة النعرات الدينية بين الأرمن والعرب، وبين المسلمين والمسيحيين، وذلك لخدمة مصلحة المستعمرين والإقطاعيين والرأسماليين.

وقد استخدم المستعمرون المراكشيين والجزائريين العرب لإخماد الثورة السورية، ودفعوا

بالموارنة إلى مقاتلة الثوار السوريين بدعوى الدفاع عن «استقلال لبنان» وهم يستخدمون الشركس ضد الدروز... الخ.

فللقضاء على الاستعمار يجب أن يسود الإخاء والتضامن بين جميع الشعوب المظلومة، وإيجاد جبهة متحدة بينها للنضال ضد الاستعمار، وأن تتحد مع طبقة العمال العالمية التي هي العدو الأكبر للاستعمار، وذلك للقضاء على الاستعمار وسحقه سحقاً نهائياً. وللغاية المتقدمة يعمل الحزب الشيوعي من أجل:

٦٨ ـ تحرير الجموع السورية العاملة بدون فرق بين الجنسيات والأديان، من مسلمين ومسيحيين ودروز وعلويين وأرمن وتركمان ويهود وشركس وأكراد، الخ.

وإذا نظرنا إلى «اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية» نرى أحسن مثال تاريخي لتآخي الشعوب المختلفة وتضامنها وذلك أن في «الاتحاد السوفياتي» ١٥٠ شعباً كبيراً وصغيراً مختلفي اللغات والعوائد والأجناس والتقاليد، ومع ذلك فهم يعيشون بمنتهى الحرية والاتفاق والتضامن تحت إدارة حكومة «الاتحاد السوفياتي» أي حكومة العمال والفلاحين التي يناضل الحزب الشيوعي السوري لإقامة حكومة مثلها في سورية تنسج على منوالها. وهو يعمل أيضاً في سبيل تحقيق ما يلي:

٦٩ ـ تآخي الأجناس المختلفة التي تقطن سورية.

٧٠ ـ إيجاد جبهة متحدة بين جميع البلدان العربية للنضال والتضامن المشترك ضد الاستعمار.

٧١ ـ إيجاد حلف بين العمال والفلاحين في البلاد العربية.

حكومة العمال والفلاحين

الضمان لتحقيق مطالبها

لا شك في أنك مقتنع أيها القارئ بأحقية مطالبنا وصحتها، ولكن الكثيرين لا يسلمون لنا بها، فجميع القوى التي هي ضد الطبقة العاملة، كالمستعمرين وخدمهم والإقطاعيين ورجال الدين والبورجوازيين والوطنيين الأكثر تطرفاً، فهؤلاء كلهم يوحدون قواهم ويتضافرون لمقاومة الشعب العامل. والبراهين على ذلك تظهر فيما يلي:

لقد شهدنا منذ برهة وجيزة، الأعمال الإرهابية التي قام بها المستعمرون ضد حركة المقاطعة الشعبية في كثير من المدن السورية.

أما البورجوازيون الوطنيون فإنهم لم يقبلوا ولن يقبلوا قطعياً مطالب العمال والفلاحين أعداء طبقتهم.

والذين منهم على راس حركة المقاومة أعلنوا أنهم ضد الشيوعية وذلك لأنهم جبناء يستثمرون حركة المقاطعة لمنفعتهم الخاصة ولا يطيقون أن يسمعوا بشعارات الحزب الشيوعي السوري التي أعلنها بشأن تحويل المقاطعة إلى نضال ثوري ضد جميع الشركات الاستثمارية وضد الاستعمار، والبرهان على جبنهم هو أن أعضاء لجنة المقاطعة الأولى ولجنة الطلبة الأولى ببيروت كانوا يتبجحون بأنهم ثابتون في مطالبهم حتى النهاية، وما أشد ما كان انقلابهم بمجرد دخولهم إلى السجن حيث سارع حبيب البستاني إلى تأليف لجنة ثانية هي أشد جبناً من الأولى فأعلنت وقف المقاطعة «ريثما تتمكن من الحصول على مطالب الشعب البيروتي بالمفاوضات»!! ولم تكن هذه الخيانة بحدث جديد في نظر الحزب الشيوعي السوري الذي أعلن في نشراته الكثيرة بشأن المقاطعة أن لا بد للبورجوازيين الذين يديرونها من خيانة الشعب.

ولنرجع إلى الثورة السورية سنة ٢٥ ـ ٢٧ لنأخذ منها مثالاً عن خيانة الإقطاعيين والأغنياء والبورجوازيين الوطنيين للشعب العامل.

فإن زعماء الكتلة الوطنية الحاليين، وزعماء حزب الأمة وغيرهم من الإقطاعيين والبورجوازيين الوطنيين الذين كانوا قواد الثورة السورية، تركوا النضال وخانوا الثورة وانضموا إلى المستعمرين الغاصبين وعملوا بكل قواهم لمساعدتهم على غش الثائرين ومعارضة الفلاحين في مطالبهم.

وها نحن نراهم في الوقت الحاضر يتعاونون مع السلطة الاستعمارية لمقاومة الحركة الشيوعية في البلاد السورية.

والوفديون في مصر، الذين يمثلون البورجوازية المصرية، لم يتأخروا لحظة عن سحق حركات العمال والفلاحين التحريرية حالما استلموا زمام الحكم.

ولا نرى لزوماً للاستزادة من تقديم البرهان، فإن في سورية كثيرين من الإقطاعيين والرأسماليين الذين ينادون بغيرتهم وحماسهم الوطني، وعند هؤلاء كثيرون من العمال والفلاحين، فإذا شاء الأخيرون زيادة البراهين على صحة قولنا فإنها واضحة أمام أعينهم وملموسة منهم، إذ يكفي لهم أن ينظروا إلى الاستثمار والظلم والاستبداد الواقع عليهم من الزعماء الوطنيين الذين يتشدقون بأنهم «في مقدمة خادمي الشعب السوري المخلصين والعاملين على تحرير سورية من نير الاستعمار». أما الخلاف الذي تظهر بوادره من حين إلى آخر بين الزعماء الوطنيين والسلطة الاستعمارية فأسبابه هي أن المستعمرين يضايقون الإقطاعيين والبورجوازيين الوطنيين ويزاحمونهم على القسم الأكبر من استثمار البلاد وجهود

الشعب العامل، ويمنعونهم أن يكونوا أسياد البلاد المطلقين، إذ إن السيادة المطلقة يحتفظ بها المستعمرون لأنفسهم، الخ...

فهؤلاء الوطنيون الخائنون يتظاهرون بمقاومة الاستعمار فيموهون على الشعب العامل، ويغرّرون به، ويخدعونه بالألفاظ المزوقة، والجمل المنمقة والخطب الرنانة الجوفاء، لكي يتسلطوا عليه ويقودوه قيادة عمياء. ومن ثم يفاوضون المستعمرين الغاصبين، فيساومونهم للوصول إلى الاتفاق معهم على حساب الشعب العامل، وبذلك يخونون قضية الاستقلال التام والوحدة السورية وهم لا يخجلون من إظهار خيانتهم، وذلك هو شأن الزعماء الوطنيين، ممثلي البورجوازية والإقطاعية، في مصر وفلسطين والعراق والهند وغيرها من المستعمرات والبلاد الشبيهة بالمستعمرات.

وللأسف الشديد، إن هناك فئة كبرى من الشعب لا تزال خاضعة للتقاليد الموروثة، فتسير خلف الزعماء ورجال الدين، مغمضة العينين، مستسلمة إليهم استسلاماً أعمى، وتلك الفئة التي نراها اليوم تنقاد لخداع الزعماء الوطنيين المنافقين.

فمن أعمال الحزب الشيوعي السوري الأولية أن يكشف القناع عن حقيقة الزعماء الوطنيين ويظهر خيانتهم وذلك لكي يفهم الشغيلة ضرورة النضال في سبيل إقامة حكومة العمال والفلاحين في سورية. إذ إنه لمن المؤكد الثابت أن كل حكومة غير حكومة العمال والفلاحين، سواء أكانت حكومة استعمارية مباشرة كحكومة فلسطين، أم حكومة وطنية تحت سلطة الاستعماريين كحكومة الشيخ تاج الدين في دمشق وحكومة شارل الدباس والشيخ محمد الجسر في بيروت، فهي من المحتم أن تكون حكومة تعاون بين المستعمرين والرأسماليين والإقطاعيين الوطنيين، وتعمل على مقاومة حركات العمال التنظيمية والتحريرية بقوة الضغط والإرهاب (كما هي الحال في مصر والعراق والتي يتمنى الزعماء الوطنيون السوريون الوصول إليها باتفاقهم ومعاهدتهم المقترحة مع المستعمرين الافرنسيين).

فالحكومة الوحيدة التي تعمل بغيرة وحماس على تنفيذ البروغرام المذكور في هذا الكتيب هي حكومة العمال والفلاحين التي يجب إقامتها في سورية على أنقاض النظام الرأسمالي الاستعماي... وأمامنا البرهان القاطع على صحة ما تقدم وهو «اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية»، حيث تسيطر حكومة العمال والفلاحين، فهناك فقط لا أثر للبطالة، ولا يوجد فلاحون بلا أرض، والعمال لا يشتغلون أكثر من سبع ساعات في اليوم، والنساء حاصلات على جميع الحقوق التي للرجال، وبالاختصار إن حياة العمال والفلاحين في «الاتحاد السوفياتي» حياة إنسانية عالية وإذا قيست بحياة العمال والفلاحين هنا كان الفرق ما بين الثريا والثرى. وعليه فالحزب الشيوعي السوري يناضل نضالاً متواصلاً للوصول إلى تحقيق المطلب التالي:

٧٢ ـ إنشاء حكومة العمال والفلاحين في سورية.

النضال ضروري لتحقيق الغاية

إن الحزب الشيوعي السوري هو حزب نضال. وهو مقتنع بأن غايته هي ضرورية لإسعاد الشعب وإنقاذه من وهدة الشقاء والتعاسة. وهو يستخدم كل الوسائل لتحقيق غايته حتى الثورة.

والحزب الشيوعي لا يلجأ إلى وسائل الإرهاب الفردي في سبيل نشر دعايته وتحقيق غايته كما يفعل الفوضويون وأمثالهم، بل إنه يستند في نضاله إلى الجموع العاملة، ويعتمد على الحركات الشعبية التي يعمل على تنظيمها وقيادتها، إذ إنه على تمام الثقة بقوة جموع الشغيلة.

ولهذا فالنضال للجموع العاملة هو الغاية الأولى للحزب وهذا النضال ينحصر فيما يلي:

٧٣ ـ إيقاظ جموع العمال والفلاحين، وإيقاظ شعورهم الطبقي.

٧٤ ـ انقاذ جموع العمال والفلاحين من سيطرة الزعماء المنافقين والعناصر النفعية الغريبة عن الطبقة العاملة.

٧٥ ـ إظهار مساوئ النظام الرأسمالي وفساده أمام أعين الشغيلة، والعمل على إقناعهم بصحة النظام الاشتراكي (الشيوعي).

أما النضال في سبيل تنظيم العمال بالنقابات وتنظيم الفلاحين والصنّاع وغيرهم فإنه يرتكز على النضال المستمر لتحقيق المطالب المتقدمة، وهو من أعمال الحزب الشيوعي السوري التي يشتغل بها في الوقت الحاضر.

ونحن الشيوعيين لا نسمح لأنفسنا بالانخداع، إذ إننا نعلم جيداً أن الإرهاب الذي توجهه السلطة الحاكمة ضدنا يزيد في ثباتنا واندفاعنا في نضالنا ونغتنم هذه الفرصة لنعلن للملأ أجمع أن ليس في العالم أية قوة إرهابية تستطيع أن تخيفنا وترجعنا خطوة واحدة إلى الوراء في نضالنا حتى الفوز النهائي.

والحكومة، بضغطها الشديد المتواصل جعلت الحزب الشيوعي السوري يحوّل نضاله إلى نضال غير مشروع، وأخرجت نضال العمال والفلاحين في سبيل تحقيق مطالبهم عن دائرة القانون. فالحكومة نفسها، بعملها هذا، أعطت البرهان القاطع على أن الثورة ضد الغاصبين والظالمين هي الوسيلة الوحيدة للتخلص منهم.

ونحن مقتنعون بأنه لا يوجد شيء أكثر مشروعية من النضال ضد الظلم والاستثمار، وأنه لا شيء أحق من الثورة ضد نظام يبيع الشعب إلى شركات الاستثمار الأجنبية وإلى الإقطاعيين والرأسماليين الغاصبين.

والحكومة التي تستخدم كل وسائل الإرهاب لإخضاع الشعب لإرادة ناهبيه، وتمنح العفو للأغنياء السارقين، والإقطاعيين الذين يحرقون خادماتهم الصغيرات بالحديد المحمّى على النار ويسومونهن عذاباً وحشياً (كلميا العبود، زوجة ابن النائب اللبناني عبود عبدالرزاق التي قامت بالفظائع المذكورة ولكنها لم تلبث في السجن إلا وقتاً قصيراً حتى شملها العفو) بينما السجون السورية ملأى بخيرة أبناء الشعب السوري كمعتقلي مظاهرات طرابلس، والشيوعيين الذين يناضلون لتحقيق مطالب العمال والفلاحين، وغيرهم من مقاومي الاغتصاب والظلم الاستعماري.

فحكومة هذه أعمالها وعدالتها لا شك في أنها ستسقط ويحطم عرش استبدادها بقوة ثورة الجموع العامة.

وختاماً نعلن أن الحزب الشيوعي السوري، تجاه أعمال الحكومة الاستبدادية، وضغطها وإرهابها المتواصل، يتابع نضاله رغم الإرهاب حتى يتمكن من الفوز النهائي وتحقيق غايته التي تحرر سورية تحريراً نهائياً وتصل بشعبها إلى حياة الهناء والسعادة.

(٧ تموز ١٩٣١)

وثيقة برنامجية تاريخية

مهمات الشيوعيين
في الحركة الوطنية العربية

(حددها كونفرانس ممثلي الحزب الشيوعي في سوريا والحزب الشيوعي في فلسطين ـ ١٩٣١)

نظراً للأهمية المتزايدة للحركة الثورية في البلدان العربية، يبدو لنا من الضروري إعطاء تقييم للوضع في هذه البلدان، من وجهة النظر الشيوعية، آخذين في الحسبان تجارب النضال المعادي للإمبريالية في البلدان الكولونيالية الأخرى.

١ ـ إحدى المهمات الجوهرية في نضال التحرر الثوري ضد الامبريالية على أرض الشرق الأدنى الواسعة، هي حل المسألة (القومية) العربية. إن الجماهير الشعبية في كافة البلدان العربية ترزح تحت نير الامبريالية. إن كل البلدان العربية محرومة، بشكل أو بآخر، وعلى درجات مختلفة، من دولة مستقلة. فلسطين، وشرقي الأردن، والعراق، هي بلدان خاضعة للانتداب وهي واقعة بصورة كاملة تحت سيطرة الامبريالية الانكليزية، وسوريا (= ولبنان) تحكمها الامبريالية الفرنسية. ومصر واقعة تحت سلطة انكلترا، وليس «الاستقلال» الذي أعلن سنة ١٩٢١ سوى مهزأة أمام الاستقلال الحقيقي، نظراً لكون أهمّ مقاليد القيادة السياسية في أيدي الامبريالية البريطانية. بالإضافة إلى

ذلك لا يزال الانكليز يفرضون دكتاتوريتهم في السودان، وإقليم طرابلس هو مستعمرة إيطالية، وتونس والجزائر واقعتان تحت السيطرة الفرنسية، ومراكش مقسّمة بين الامبريالية الاسبانية. أما اليمن والحجاز ونجد، فمع كونها غير واقعة تحت سيطرة الامبريالية مباشرة، فهي محرومة من الشروط التي لا غنى عنها لوجود مستقل، لكونها مطوّقة بمستعمرات الامبريالية وواقعة تحت ضرباتها، إنها مضطرة لطاعة الأوامر التي تمليها عليها الامبريالية.

إن مجمل نظام السيطرة الإمبريالية على الشعوب العربية لا يستند على استعبادها المباشر وحسب، بل وعلى **تقطيع أوصالها بصورة اعتباطية** حسب تعليمات الامبريالية العالمية. إن تقسيم الشعوب العربية هذا بين الامبريالية الانكليزية والفرنسية والايطالية والاسبانية إنما يعكس ميزان القوى الذي قام في مجرى التاريخ بين هذه الامبرياليات، والذي يهدف إلى إدامة سيطرتها. وهو يتناقض تناقضاً فاضحاً مع المصالح الحيوية للشعوب العربية. إن الحدود الدولية التي تفصلها قد أقيمت ويحافظ عليها بواسطة عنف الامبرياليين الذين يعتمدون مبدأ «فرق تسد». إن هذه الحدود تُضعف جماهير الشعوب، بصورة مصطنعة، في نضالها ضد النير الأجنبي ومن أجل الاستقلال والوحدة القومية، وفق الإرادة المعبِّر عنها بحرية من قبل الجماهير الشعبية.

إن جوهر المسألة القومية العربية يكمن بالضبط في أن الامبريالية الانكليزية والفرنسية والايطالية والاسبانية قد مزّقت هذا الجسد الحي الذي كان يتشكّل من الشعوب العربية، وفي إبقاء البلدان العربية في حالة انقسام إقطاعي، وفي حرمان كل بلد، على حدة، من الشروط الضرورية لنموه الاقتصادي والسياسي المستقل، وفي الحؤول دون تحقق الوحدة القومية وقيام دولة موحدة للشعوب العربية.

لقد قُسمت سوريا بصورة اعتباطية إلى خمسة أجزاء تفصل فيما بينها ادارة خاصة بكل منها وقوانين خاصة بكل منها الخ... واستولى الانكليز على السودان بالقوة. إن الامبريالية، إذ تحوّل كل البلدان العربية إلى ملحق زراعي وإلى مصدر يزود البلد المسيطر بالمواد الأولية، وإذ تشوه وتعيق نمو القوى المنتجة والنمو العام لهذه البلدان، إنما تحاول بذلك بالذات المحافظة على استعباد هذه البلدان وإدامته. وبذلك تكتسب العناصر الإقطاعية الوزن الراجح، في حين أن نمو العناصر الرأسمالية يقتصر في قسمه الأكبر على توليد بورجوازية تجارية مرتبطة بهذا القدر أو ذاك بالملكية العقارية

والإقطاعية، وببيع منتجات البلد المسيطر وتزويده بالمواد الخام. يضاف إلى ذلك أن الامبريالية تحافظ على أنظمة الحكم الملكية الإقطاعية (مصر، مراكش، تونس) وتخلق أنظمة حكم ملكية جديدة شبه ـ إقطاعية (العراق، شرقي الأردن) بالاستناد على «أسر» تافهة متخلّفة، أو أنها تخلق نظام حكمها الكولونيالي الامبريالي دون اللجوء إلى هؤلاء الملوك ـ العملاء (فلسطين، سوريا، طرابلس، الجزائر) وذلك بالجمع بين الاضطهاد والقرصنة وبين إدارة هذه البلدان بانتداب من عصبة الأمم.

٢ ـ إن الأمر المشترك والحاسم بالنسبة لجميع البلدان العربية، **هو أن الرأسمال المالي الأجنبي يقبض بين يديه على كل زمام القيادة الاقتصادية، بموازاة زمام القيادة السياسية التي في يد الامبريالية.** إن أهم البنوك، والفبارك وسكك الحديد والمرافئ والملاحة والمناجم وأهمّ شبكات الري وزمام التجارة الخارجية والديون العامة، الخ... هي في أيدي الرأسمال المالي الأجنبي. وأكثر من ذلك، استولى الوحوش الامبرياليون على أفضل الأراضي في الأكثرية الساحقة من البلدان العربية (مراكش، الجزائر، تونس، طرابلس، مصر، سوريا، فلسطين)، أضف إلى ذلك أن الامبريالية البريطانية قد استخدمت الصهيونية المضادة للثورة للاستيلاء على أراضي فلسطين وسرقتها. إن الفلاحين العرب الرحّل يُطردون نحو الأراضي الأسوأ، ويُحرمون من الأراضي والمراعي. وتستخدم الامبريالية زمام القيادة، السياسية منها والاقتصادية، لاستثمار الجماهير الشعبية العربية بلا شفقة.

تستند الامبريالية في اضطهاد واستثمار الشغيلة على الزمر الملكية ـ الرجعية، وعلى الملاكين المشايخ الإقطاعيين وشبه الإقطاعيين، وعلى البورجوازية المحلية من الكومبرادور، وعلى المراتب العليا من رجال الدين. إن الميزة المشتركة والحاسمة بالنسبة للنظام الزراعي للبلدان العربية يكمن بالضبط في أن القسم الأعظم من الأراضي ومن الماشية ومن المراعي التي لم يستول عليها بعد الملاكون العقاريون الأجانب، والمزارعون الكبار، والبنوك والمستوطنون المعمرون أو الدولة، هي بين أيدي الملاكين الإقطاعيين وشبه الإقطاعيين والرؤساء الدينيين. إن الفلاحين والرُحَّل يخضعون لأبشع أشكال الاستثمار الإقطاعي (الخُمس والأتاوات). ويزدهر الربى على نطاق واسع على صعيد الاستثمار الإقطاعي للفلاحين في ظروف نمو العلاقات البضاعية والنقدية وعلى صعيد النهب الامبريالي للأراضي وتفكك القبائل ونهب أراضي القبائل من قبل الملاكين العقاريين ونظام الحكم الكولونيالي الامبريالي، وإبعاد البدو عن المراعي.

إن الضرائب الباهظة جداً التي لا زالت تُجبى جزئياً بالشكل العيني (العشر في سوريا وفي فلسطين، الخ...) تشكل عبئاً ثقيلاً يضاف إلى الوضع الذي لا يحتمل أساساً بالنسبة للجماهير الفلاحية الرئيسية. إن المناطق المختلفة في البلدان العربية هي على مستويات مختلفة من النمو الاقتصادي وصراع الطبقات. ففي سوريا وفلسطين ومصر يتوحد النضال **من أجل الاستقلال الوطني والوحدة القومية للشعوب العربية** على أساس سلطة وطنية، بصورة لا مفرّ منها، مع النضال من أجل الثورة الفلاحية ـ الزراعية الموجهة ضد الغزاة الامبرياليين وعملائهم (الصهاينة في فلسطين) وضد الملكية الإقطاعية المحلية. وفي العراق لا زالت باقية الملكية الإقطاعية للقبيلة والعشيرة. وهي هدف لغزو شركات المزارعين والشرائح الإقطاعية العليا والبورجوازية التجارية المحلية الذين يعملون تحت إشراف الامبريالية. إن مركز ثقل الحركة الفلاحية، هنا، هو في تعبئة الجماهير الشعبية في النضال ضد الناهبين، على أساس النضال ضد الامبريالية والمتواطئين معها مباشرة. وهذا ينطبق إلى درجة كبيرة على بلدان مثل طرابلس ومراكش حيث لا زالت الكتلة الأساسية من السكان مرتبطة بحياة البداوة وبالنظام الإقطاعي والعشائري، وحيث لا تستطيع المدن أن تمارس تأثيراً ثورياً. وفي شمالي الجزائر توجد سيطرة كولونيالية مترسخة إلى هذا القدر أو ذاك، تكمن في استثمار وحشي للسكان المحليين المستقرين، وفي نمو هام نسبياً للمدن وللعلاقات الرأسمالية. أما في جنوبي الجزائر فلا زالت توجد قبائل من الرُحّل لم يتم إخضاعها بعد من قبل الامبريالية الفرنسية. ففي أغلب الأحيان لا يبدأ الفلاحون بالتشكل كقوة مستقلة، ضمن الشروط الاجتماعية والاقتصادية المتأخرة، إلا في عملية تفكك المشاعة شبه البدائية والعشيرة. **فمما لا غنى عنه مطلقاً أن يؤخذ في الحسبان بدقة التنوّع الملموس لهذه الشروط من أجل طرح دقيق لمسالة العلاقات بين الثورة المعادية للامبريالية والثورة الفلاحية ـ الزراعية للشعوب العربية.** على الأحزاب الشيوعية والمجموعات الشيوعية في البلدان العربية أن تولي دراسة هذه الشروط اهتماماً خاصاً لكي تستخدم هذه الدراسة بما يتوافق ومصالح النضال الثوري.

٣ ـ واتسع النضال التحرري ليشمل سائر البلدان العربية، من أجل تحرير الشعوب العربية من النير الاستعماري والقضاء عليه، النير الذي تثقل وطأته كاهل مختلف البلدان، حسب درجة نموها، بالأشكال الاكثر تنوعاً.

في مراكش وجنوبي الجزائر كما في طرابلس يتراجع نضال التحرر إلى انتفاضات

القبائل بلا توقف تقريباً ضد الامبريالية الفرنسية والايطالية والاسبانية. في تونس توصّل حزب «الدستور» لأن يكون على رأس الحركة المعبرة عن غضب الجماهير، وترك هذه الحركة دون قيادة. وفي مصر، يتميز النمو الجاري بعد الحرب بالسير بشكل موجات متلاحقة من النضال الوطني الذي وصل مرات عديدة إلى درجة انفجارات استياء جماهيرية. في سوريا قُمعت الانتفاضة المسلحة سنة ١٩٢٥، وها أن موجة جديدة من النضال المعادي للامبريالية ترتفع سنة ١٩٢٩. في فلسطين وصل الغضب الجماهيري ضد الامبريالية البريطانية ووكالته، الصهيونية المضادة للثورة، أكثر من مرة، إلى حركات مسلحة موجهة ضدهما. وفي العراق لا تهدأ الحركة الوطنية ضد الانتداب البريطاني. وفي نضال الوهابيين الذي جرى تحت رداء ديني، وُجد بعض عناصر الكفاح ضد الامبريالية البريطانية وعملائها.

الواقع المميز لكل هذه الحركات، هو أنها قد أثارت صدى حاراً وعطفاً في كل الشرق العربي. فرغم الحدود المصطنعة للدول، ورغم الانقسام الإقطاعي، ورغم أن الحركات كانت موجهة ضد الامبريالية الانكليزية تارة وتارة ضد الامبريالية الفرنسية أو ضد الامبريالية الايطالية أو الاسبانية، كان النضال الوطني الذي يجري في بلد عربي يلاقي هذا الصدى أو ذاك في كل البلدان العربية من فلسطين حتى مراكش.

إن طموح الجماهير الشعبية العربية هو إلى الوحدة القومية ضمن حدود للدول تقام، ليس حسب تعليمات الامبريالية، بل على أساس القرار النابع من هذه الجماهير ذاتها والمتخذ بحرية والمرتبط بلا فكاك بطموحها للتخلص من نير الامبريالية الانكليزية والفرنسية والايطالية والاسبانية. إن الجماهير الشعبية العربية تشعر أنه يتوجب عليها، من أجل إلقاء نير الامبريالية، أن توحّد جهودها في ما هو مشترك بينها من وحدة اللغة والشروط التاريخية، واضعة نصب عينيها عدوها المشترك. إن تلاحم هذه الجماهير في النضال الثوري ضد الامبريالية واتساع نضالها هذا، يُظهران أنه تتوافر لدى الشعوب العربية كل الشروط التي لا غنى عنها من أجل إزالة النير الامبريالي، والحصول على الاستقلال الوطني وخلق دول عربية تتمكن بعد ذلك، على أساس قرار متخذ بحرية، أن تتوحّد على أسس فدرالية.

٤ ـ إن تحويل البلدان العربية إلى مكمّل زراعي وإلى مصدر مواد أولية للبلد

المسيطر (المتروبول). والتنوع الكبير للتشكيلات الاقتصادية، تؤدي إلى أن تشكل طبقات المجتمع الرأسمالي ونمو عناصر سلطة الدولة الوطنية يجريان ببطء شديد وتفاوت عميق. إن الامبريالية تستخدم هذا الظرف بصورة كاملة لمصلحتها الخاصة وذلك بتجميع العناصر الرجعية والإقطاعية تحت قيادتها وببذل جهدها لتجعل من البلدان العربية نقاط ارتكاز قوية لسياستها الامبريالية القائمة على العدوان والفتح. إن الامبريالية البريطانية خصوصاً تستخدم سيطرتها على العراق وفلسطين ومصر لحماية طريق الهند وللتحضير للحرب ضد اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ولبسط نفوذها في الجزء الشرقي من البحر المتوسط. وتجهد الامبريالية الفرنسية لتحويل السكان العرب في مستعمراتها إلى غذاء لمدافع حربها الامبريالية القادمة وتدخلها ضد الاتحاد السوفياتي. إن الشرائح العليا الزراعية ـ الإقطاعية والإقطاعية في كل المناطق ذات السكان المستقرين قد انحازت إلى جانب الامبريالية بصورة نهائية بهذا القدر أو ذاك. إن الإصلاحية ـ القومية تسود في صفوف البورجوازية العربية والملاكين العقاريين الذين ارتبطوا بها. وهي تتخذ طابعاً مضاداً للثورة واستسلامياً يزداد بروزه. إن البورجوازية والعناصر البورجوازية ـ الزراعية عاجزة عن خوض نضال ثوري ضد الامبريالية يزداد ميلها باستمرار نحو اتفاق معها، مضاد للثورة، في أطر التنازلات المحدودة وشبه ـ الدستورية ـ الكاذبة التي لا تصلح إلا لإخفاء السيطرة الامبريالية. إن حركة صيف ١٩٣٠ الجماهيرية في مصر قد كشفت بوضوح دور خيانة الوفد، الذي تخلّى عن شعار «الاستقلال» ويحاول الحصول على دستور فقط، والذي يخشى من يقظة الجماهير الفلاحية أكثر من الاستسلام النهائي أمام الامبريالية. (إنه يقبل بعقد اتفاقية انكلو ـ مصرية). ويقتصر موقف «الكتلة الوطنية» في سوريا على لعب لعبة المعارضة بالتخلي التام عن كل عمل ثوري وعن كل نضال حقيقي. إن عدداً من قادة انتفاضة ١٩٢٥ السابقين هم في الوقت الحاضر مستكينين عند أقدام الجنرالات الفرنسيين. وتتهيأ «الكتلة الوطنية» لعقد حلف مع المضطهدين الفرنسيين. وفي فلسطين دخلت اللجنة التنفيذية العربية في طريق الخيانة بتنافسها مع الصهيونية للحصول على تنازلات من الامبريالية البريطانية مقابل «هدوء» الجماهير الشعبية العربية. إن القومية ـ الإصلاحية تصبح أكثر فأكثر مضادة للثورة واستسلامية. وبمقدار ازدياد استياء وغضب الجماهير الشعبية، خاصة تحت تأثير الأزمة الزراعية والأزمة الصناعية العمالية، لا تعود القومية ـ الإصلاحية تصطدم بصورة كافية، في خيانتها للمصالح القومية

بمقاومة جماهير الفلاحين والعمال العرب الذين لم يتعلموا بعد بصورة كافية كيف ينتظمون لمواجهة الإصلاحية البورجوازية والبورجوازية ـ الزراعية، ببرنامجهم الثوري. في العراق يلجأ الحزب الوطني إلى عصبة الأمم وهو فعلياً يمتنع عن خوض النضال ضد الغزاة الانكليز، مكتفياً فقط بالعبارات الطنانة. في تونس دخلت بقايا «الدستور» في أخدود الامبريالية الفرنسية. في الجزائر لا تتطلب القومية ـ الإصلاحية البورجوازية ـ الزراعية سوى بأن يُعترف للعرب بالحقوق المدنية الفرنسية، إن القومية الإصلاحية البورجوازية والبورجوازية ـ الزراعية لا تقف في وجه السيطرة الامبريالية إلا في الحدود التي تخدم المصالح الاستثمارية للبورجوازية وللمالكين الزراعيين المحليين. إنهم يريدون أن يستثمروا بأنفسهم جماهير العمال والفلاحين. غير أنهم يخونون على المكشوف المصالح الوطنية العامة ويساعدون الامبريالية في نضالها ضد الجماهير الشعبية، نظراً لكون مصالحهم المباشرة كمستثمرين، وخاصة في ظروف الأزمة والضغط الامبريالي على المستعمرات، تدخل في تناقض مع المصالح الوطنية العامة. إن الطبيعة المضادة للثورة والخائنة للقومية ـ الإصلاحية لا زالت أبعد من أن يُسلَّط عليها الضوء في نظر الجماهير الواسعة من العمال والفلاحين والبورجوازية الصغيرة في المدن. والإصلاحية في البلدان العربية لا تخرج عن حدود الدول التي رسمتها الامبريالية والتي تقسم الشعوب العربية بصورة مصطنعة. فهي تستسلم أمام الأنظمة الملكية الإقطاعية التي تشكل أدوات للامبريالية وترفض النضال ضد الامبريالية على مستوى العالم العربي ككل. إن الصفة المميزة للمرحلة الحالية تكمن فيما يلي: في حين أن القومية ـ الإصلاحية في كل البلدان العربية تستسلم على المكشوف أمام الامبريالية، تدخل جماهير العمال والفلاحين والبورجوازية الصغيرة في المدن، في مجرى النضال بعزم متزايد من أجل مصالحها الجوهرية، في مجرى نضال الانعتاق القومي، وواقع بقاء القومية ـ الإصلاحية المضادة للثورة غير مكشوفة بما فيه الكفاية في نظر هذه الجماهير، يهدد بالعواقب الأكثر خطورة، لأن ذلك يسهّل خيانات جديدة مضادة للثورة وضربات غير متوقعة. يجب الآن أكثر من أي وقت مضى مواجهة القومية ـ الإصلاحية المضادة للثورة والاستسلامية **بالجبهة الثورية على النطاق العربي والمعادية للامبريالية**، جبهة الجماهير الواسعة من العمال والفلاحين والبورجوازية الصغيرة في المدن، الجبهة التي تستند على نمو الحركات العمالية والفلاحية وتستمد منها قواها.

٥ ـ لقد لعبت الطبقة العاملة في بلدان عربية مختلفة، ولا زالت تلعب، دوراً متزايداً، على الدوام في النضال من أجل التحرر الوطني (مصر، فلسطين، العراق، الجزائر، تونس، الخ...). وفي بلدان مختلفة بدأت تتكوّن المنظمات النقابية أو تعاد إقامتها بعد تحطيمها، ولو أنها في أكثريتها لا تزال في أيدي القوميين ـ الإصلاحيين. فالإضرابات والمظاهرات العمالية، والمشاركة النشيطة للجماهير العمالية في النضال ضد الامبريالية وبعض فئات الطبقة العاملة التي تبتعد عن القوميين ـ الإصلاحيين، كل ذلك يشير إلى أن الطبقة العاملة العربية الشابة قد دخلت في طريق النضال لتأدية دورها التاريخي في الثورة المعادية للامبريالية والثورة الزراعية وفي النضال من أجل الوحدة القومية. وقد تم تكوين أحزاب شيوعية أو أنها في طور التشكيل في بلدان مختلفة.

إن الأزمة الصناعية والزراعية العالمية تطال بشكل أو بآخر كل البلدان العربية، وقد وُجهت ضربة قاسية للجماهير العمالية والفلاحية. فتخفيض الأجور والبطالة يجعلان من مستوى حياة البروليتاريا، البائس أصلاً، أكثر تهافتاً، ويدفعانها في طريق الصراع الطبقي الثوري. إن الفلاحين الفقراء والمتوسطين الذين يسيرون في طريق الخراب، وكذلك العمال، يعانون من بؤس لا مخرج منه ويفقدون عملهم. كما أن ممثلي السكان الفقراء في المدن والفئات العريضة من البورجوازية الصغيرة يتحسسون نير الامبريالية الآن أكثر بكثير مما في الماضي ويبدأون بالنهوض إلى النضال من أجل الانعتاق القومي. فالامبريالية تجهد لتسقط على كاهلهم كل عواقب الأزمة وجعلهم يدفعون كل التكاليف. إن الموجة الجديدة من غضب الفلاحين ضد الادعاءات التي لا تطاق المقدمة من قبل الملاكين العقاريين والمرابين وعملاء الامبريالية، تميل إلى الانصهار مع نضال العمال من أجل كسرة خبز، ومع الاحتجاج ضد النير الامبريالي. إنها ترتبط بالنضال من أجل الوحدة القومية والاستقلال الوطني لكل البلدان العربية التي مزّقتها ثعالب الرأسمال الانكليزي والفرنسي والايطالي والاسباني. في هذه الظروف يشكل نضال الجماهير العربية المتزايد ضد الامبريالية، إلى جانب النضال الثوري في الصين والهند والهند الصينية الخ.. في أميركا اللاتينية وافريقيا السوداء، العامل الأكثر أهمية في أزمة مجمل النظام الكولونيالي الامبريالي.

إن المهمة المباشرة والملحة للأحزاب الشيوعية، في سوريا وفلسطين ومصر، حيث تكوّنت بهذا القدر أو ذاك الحركة العمالية الطبقية، وحيث تشكلت أحزاب شيوعية، وحيث بلغت الحركة الفلاحية درجة عالية من النضج، وحيث لا يمكن تصور النمو اللاحق

للنضال ضد الامبريالية دون نضال منسجم ومنظم ضد القومية ـ الإصلاحية، هي مهمة بناء عملها في وجهة الثورة الفلاحية ـ الزراعية المعادية للإمبريالية والمعادية للإقطاعية.

إن قلب النير الامبريالي، ومصادرة جميع الامتيازات الأجنبية والمؤسسات والإنشاءات والمزارع وغيرهما من امتيازات الامبرياليين، والاستقلال الوطني والدولي التام (يضاف إلى ذلك إزالة نظام الحكم الملكي في مصر) ومصادرة كل الملكية العقارية من الإقطاعيين الريفيين والمعمرين النهابين، الملكية القائمة على استثمار عمل الغير. وجعل يوم العمل من ثماني ساعات، والضمانات الاجتماعية للعمال على حساب الرأسماليين، وحرية تنظيم الشغيلة، إقامة الحكومة العمالية الفلاحية، والنضال من أجل انعتاق الشعوب العربية واتحادها الحر ـ هذه هي المطالب الرئيسية التي تحدد محتوى الثورة المعادية للامبريالية والمعادية للإقطاعية.

على هذا الأساس يجب إقامة الخط الفاصل عن القومية ـ الإصلاحية، والنضال ضدها. وكمطلب جزئي يجب الإصرار على تقصير يوم العمل على ثماني ساعات، وزيادة الأجور، والتأمين ضد البطالة على حساب الرأسماليين، وحرية المنظمات العمالية والفلاحية، وإلغاء ديون الفلاحين الفقراء والمتوسطين للمرابين والملاكين العقاريين والبنوك، ووقف دفع ثمن المزارعة، وسحب كل قوات الامبرياليين المسلحة والاستفتاء الحرّ حول مسألة تقرير مصير الدولة الحرّ. (في مصر حول الملكية والمعاهدة الانكلو ـ مصرية، في سوريا وفلسطين حول انتداب عصبة الأمم). وفي البلدان الأكثر تأخراً مثل العراق وتونس وطرابلس ومراكش يتوجب عل المجموعات الشيوعية الموجودة هناك أن تبذل الجهد لتنظيم وتكوين الحركة المعادية للامبريالية المتنامية التي تظهر بصورة عفوية، وربطها بالنضال ضدّ الفئات العليا من الإقطاعيين والرجعيين وضد القومية ـ الإصلاحية، بربطها بنضال العمال والفلاحين في سبيل حاجاتهم اليومية. وفي الجزائر، المستعمرة الفرنسية المستعبدة تماماً، ينبغي تركيز النشاط على تطوير نضال العمال العرب وتنظيمهم ضد الجور والمجاعة وشروط العمل في المستعمرات، وأيضاً على النضال ضد نهب أراضي العرب من قبل المستعمرين. إن الشعارات التي ينبغي أن توحّد كل الفلاحين العرب في النضال المعادي للامبريالية يجب أن تكون:

١) لنطرد الامبريالية من البلدان العربية.

٢) الاستقلال الوطني والدولي التام للبلدان العربية، الحرية لهذه الشعوب في تقرير نظام الدولة وتثبيت حدودها.

٣) الاتحاد الحرّ للشعوب العربية المتحررة في أطر اتحاد عمالي وفلاحي للشعوب العربية على أساس تحالف الطبقة العاملة والسكان الكادحين في المدن والفلاحين الشغيلة.

يمكن ويجب إطلاق شعار الاتحاد العمالي والفلاحي للشعوب العربية، ليس في اتجاه أن تشرط الطبقة العاملة مشاركتها في النضال من أجل التحرر الوطني المعادي للامبريالية بالانتصار المباشر للطبقة العاملة والجماهير الفلاحية الأساسية. يجب فهم ذلك هكذا: إن البروليتاريا، مع مواصلتها النضال من أجل التحرر الوطني بأقصى حدّ من الحزم والمثابرة، ومهما كانت الظروف، تشرح للجماهير في الوقت نفسه، أنه لا يمكن انتزاع الاستقلال الوطني الراسخ، بدون ثورة زراعية ـ فلاحية، وبدون إقامة حكومة عمالية ـ فلاحية، في البلدان العربية الأكثر تطوراً على الأقل. (سوريا، فلسطين، مصر، الجزائر).

إن الأحزاب الشيوعية لن تتمكن من جعل الجماهير العمالية الواسعة تسير وراءها ضد البورجوازية، والجماهير الفلاحية ضد الامبرياليين والغزاة والملاكين العقاريين والمرابين، لن تتمكن من كسب دعم السكان الفقراء في المدن والجماهير البورجوازية ـ الصغيرة، إلا عندما تكون في الوقت نفسه محركة ومنظمة النضال ضد الامبريالية ومن أجل التحرر الوطني للشعوب العربية. إن هيمنة الطبقة العاملة لا يمكن أن تتحقق بدون نضال البروليتاريا الصلب من أجل الاستقلال الوطني للعرب وحريتهم القومية.

من واجب الشيوعيين خوض النضال من أجل استقلالهم الوطني ووحدتهم القومية ليس فقط ضمن الحدود الضيقة والمصطنعة التي خلقتها الامبريالية ومصالح الأسر المالكة في كل بلد عربي، بل أيضاً على النطاق العربي من أجل الوحدة القومية للشرق كله.

إن الحركة الثورية المضادة للامبريالية يجب أن تجد قوتها وتكتسب اتساعاً ثورياً حقيقياً وتصبح مركز جذب لأوسع الجماهير، بتصفية الحدود المصطنعة. وهذا سيسهل أيضاً النضال ضد التأثير الرجعي لرجال الدين. لا يمكن أن يحدث انفجار في الحركة الثورية المضادة للامبريالية في مصر وفلسطين أو في أي بلد عربي آخر، بشكل منعزل ودون دعم البلدان العربية الأخرى.

إن الأحزاب الشيوعية مدعوة لتصبح منظّم النضال من أجل التحرر الوطني ومن أجل الثورة المضادة للامبريالية على النطاق العربي.

إن الموقف تجاه الجماعات القومية الثورية البورجوازية الصغيرة التي تخوض النضال ضد الامبريالية، ولو بتذبذب كبير، يجب أن يتحدد بالقاعدة التالية: السير على حدة والضرب معاً. ومن الممكن لتحقيق هذا الهدف إقامة نوع من الاتفاق المؤقت معها من أجل عمل محدد، وحتماً مع نقد تردداتها ونقص روح المثابرة لديها، ومع الاحتفاظ بكامل الاستقلالية الايديولوجية والتنظيمية للحركة الشيوعية. يجب على الأحزاب الشيوعية أن تبذل الجهد لتكسب إلى جانب النضال المضاد للامبريالية، ليس العمال والفلاحين وحسب، بل أيضاً الفئات العريضة من البورجوازية الصغيرة في المدن. يجب على الأحزاب الشيوعية، مع أخذها بالحسبان لكل الشروط الملموسة للنضال، أن تتذكر أن التناقضات المتعاظمة بين الامبرياليين، التي تؤدي حتماً إلى الحرب العالمية، تخلق ميداناً مؤاتياً على الخصوص لاندفاعة جديدة نحو الحركة الوطنية الثورية العربية. إن الموقع الستراتيجي للبلدان العربية ورغبة الامبرياليين في استخدام الشعوب العربية كطعام للمدفع في الحرب العالمية الجديدة ومن أجل تدخل موجّه ضد اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، كل ذلك يعطي أهمية خاصة لنضال الجماهير الشعبية العربية المضاد للامبريالية.

٦ ـ مع الإشارة إلى ضرورة تطبيق قرارات الحزب السابقة المتعلقة بمهمات الشيوعيين في كل بلد عربي، نؤكد أنه من أجل تشديد نشاط الشيوعيين في كل البلدان العربية من الضروري اتخاذ الإجراءات الضرورية التالية:

١ ـ تطوير حملة واسعة جماهيرية قائمة على أهداف ومهمات حركة الانعتاق القومي المضاد للامبريالية، مع التوفيق بينها وبين المهمات الآنية لحركة العمال والفلاحين في البلدان المعنية.

ولخوض النضال من أجل قلب نير الامبريالية في كل بلد يجب ربط هذا الشعار بالنضال من أجل تقرير المصير الوطني الحر للشعوب العربية: في هذا المضمار: **يقوم الشيوعيون بالتحريض لصالح الوحدة القومية بشكل اتحاد عمالي ـ فلاحي على النطاق العربي.**

٢ ـ من الضروري بهذا الهدف تنظيم لقاءات جماهيرية واجتماعات في الهواء الطلق،

واذا لزم الأمر، مظاهرات، وطبع مناشير خاصة وتشكيل لجان نضال ومبادرات مضادة للامبريالية، من ممثلي الفبارك والمصانع والقرى والسكان الشغيلة في المدن.

٣ ـ إقامة اتصال أكثر انتظاماً وأكثر ثباتاً من أجل تبادل التجربة وتنسيق العمل، في البداية بين الأحزاب الشيوعية في مصر وسوريا وفلسطين وشيوعيي العراق، دون أن يغيب عن النظر كسب شيوعيي طرابلس وتونس ومراكش والجزائر إلى هذا التعاون فيما بعد. يجب، من جهة، اتخاذ إجراءات ملحة لتنظيم وتجميع الشيوعيين في الجزائر وتونس ومراكش ومن جهة ثانية التوجه بعد ذلك نحو تحويل منظمات هذه البلدان إلى أحزاب شيوعية مستقلة.

كونفرانس ممثلي الحزب الشيوعي في سوريا والحزب الشيوعي في فلسطين (١٩٣١)

نشرتها مجلة «المراسلات الدولية» في ٤ كانون الثاني ١٩٣٣، العدد ـ ١ ـ ص ٨ ـ

إعــادة تــرتيــب للأحــداث

١٩٠٣ ـ في حزيران: صدرت في القاهرة رواية «الدين والعلم والمال» تأليف: فرح أنطون، وهو من أوائل المبشرين بالاشتراكية في البلاد العربية، ولعله أول عربي عرّف العرب بكارل ماركس. الرواية تصوّر الصراع بين العمال والرأسماليين. وتدعو إلى الثورة على النظام الرأسمالي وإقامة نظام اشتراكي.

١٩٠٥ ـ ١٩٠٧: الثورة الشعبية الروسية الأولى، أول ثورة تخوضها البروليتاريا في عصر الامبريالية قال عنها لينين أنها التجربة العامة لثورة أكتوبر ١٩١٧.

١٩٠٧ ـ ١ أيار: أقيم على شاطئ لبناني أول احتفال بعيد أول أيار في البلاد العربية. خطب فيه: خيرالله خيرالله، مصطفى الغلاييني، داود مجاعص، فليكس فارس، جرجي نقولا.

١٩٠٨ ـ ٣ تموز: بدأت أحداث الانقلاب العثماني، الذي أعدت له «جمعية الاتحاد والترقي»، واستولت على الحكم. وفي ٢٤ تموز أعيد العمل بدستور ١٨٧٦.

١٩١٠ ـ: صدرت «مجموعة الدكتور شبلي الشميل» في القاهرة. وفيها مقالات رائدة في الاشتراكية مارست تأثيراً فكرياً تحررياً كبيراً.

١٩١٢ ـ صدر في القاهرة كتاب بعنوان «الاشتراكية» تأليف: سلامة موسى. ولعلّه أول كتاب بالعربية يصدر تحت هذا العنوان، وفيه مزج أخلاقي رومنسي بين «الاشتراكية الفابيّة» وتصورات غائمة عن أفكار ماركس. وكان هذا الكتاب من

الممهّدات الرومنسية الأولى لتواجد حركة اشتراكية في مصر.

١٩١٣ ـ ١٨ و٢٣ حزيران: المؤتمر العربي الأول في باريس، الذي جمع مختلف ممثلي الجمعيات العربية. وطالب بالحكم اللامركزي، ضمن الامبراطورية العثمانية، والمشاركة في الدولة. (فيما بعد أعدمت السلطات التركية أبرز المشاركين في هذا المؤتمر عام ١٩١٥ و١٩١٦).

١٩١٤ ـ: انفجرت الحرب العالمية الأولى، بين الضواري الامبرياليين، بهدف إعادة تقاسم العالم حسب ميزان القوى الجديد. وكان من نتيجتها انهيار الامبراطورية العثمانية واستيلاء الحلفاء على البلاد العربية وتقاسمها فيما بينهم وفرض الانتداب الفرنسي على لبنان وسوريا.

١٩١٥ ـ ١٥ آب: نُفّذ الإعدام بالقافلة الأولى من الشهداء بتهمة العمل على فصل البلاد العربية، (عن تركيا!).

١٩١٦ ـ ٦ أيار: نُفّذ الإعدام بـ ١٦ شهيداً بتهمة العمل على فصل البلاد العربية عن الامبراطورية العثمانية. من هؤلاء الشهداء: عمر حمد، عبدالغني العريسي.

١٩١٦ ـ ١٦ أيار: وُقعت في القاهرة (اتفاقية سايكس ـ بيكو) لتقاسم البلدان العربية بين الضواري الاستعماريين: فرنسا وبريطانيا بشكل أساسي. وجزئياً روسيا القيصرية وايطاليا.

١٩١٦ ـ حزيران: أعلن الشريف حسين ما دُعي بـ «الثورة العربية الكبرى» ضد تركيا. وقد دعمت بريطانيا جيشه. الحركات الوطنية العربية، في تلك الفترة، أيدت «الثورة». ساهمت قوات «الثورة» بتحرير البلاد العربية من تركيا. ولكن الحلفاء لم ينفّذوا «وعودهم» للعرب بمنحهم الاستقلال وتكوين الدولة العربية المستقلة، فقد كان هدف الحلفاء الأساسي من تأييد العرب: طرد تركيا، ووراثتها، وتقاسم البلاد العربية في ما بينها.

١٩١٧ ـ ٧ تشرين الثاني: انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى في روسيا. تولّى البلاشفة السلطة بقيادة لينين. دخلت روسيا، ودخل العالم أجمع، في عهد ثوري جديد. لم يعد العالم خاضعاً، كله، للرأسمالية، صار في العالم دولة اشتراكية كبرى. دخل العالم عصراً دُعي بـ «عصر الانتقال الثوري من الرأسمالية إلى

الاشتراكية». وتسارعت عملية ولادة أحزاب شيوعية جديدة في مختلف أنحاء العالم. وبدأت العملية الثورية تتوسّع: ثورات التحرر الوطني، وانفصال بلدان جديدة وجديدة عن نظام الحكم الاستعماري، والخروج التدريجي، بالتالي، من العالم القديم...

١٩١٨ ـ ٢ **تشرين الأول:** دخلت الجيوش العربية (والانكليزية) إلى دمشق... وحرّرتها من فلول الجيش التركي.

١٩١٨ ـ ٥ **تشرين الأول:** أذاع الأمير فيصل بياناً على الشعب السوري يعلن فيه تأسيس أول حكومة عربية في سوريا برئاسة رضا الركابي.

١٩١٨ ـ ٧ **تشرين الأول:** وصلت القوات الانكليزية ـ الفرنسية إلى بيروت.

١٩١٩ ـ: تأسس الحزب الشيوعي الفلسطيني الذي سوف يتعاون فيما بعد مع الحزب الشيوعي اللبناني، ويساعد في عقد صلته بالأممية الشيوعية.

١٩١٩ ـ **أول تموز:** أسس الكاتب والباحث اللبناني خيرالله خيرالله، مع خمسة من أصدقائه اللبنانيين الذين كانوا يدرسون في باريس، حزباً أطلقوا عليه اسم: «الحزب الاشتراكي ـ الفرع العربي من الأممية العمالية». وانتخبوا خيرالله سكرتيراً عاماً له. وحدّد خيرالله أهداف الحزب بأنها: «تنظيم البروليتاريا في حزب طبقي من أجل الوصول إلى السلطة، وجعل وسائل الانتاج والتبادل اشتراكية بين الناس، أي: تحويل المجتمع الرأسمالي إلى مجتمع جماعي أو شيوعي». ولكن هذا الحزب لم يُعرف عنه أي نشاط عملي. ولم يُشر إلى خبر وجوده، أي مصدر، سوى ما ذكره خيرالله نفسه عن خبر تأسيسه في أوراقه الخاصة.

١٩١٩ ـ ١٩ **كانون الأول:** احتل الجيش الفرنسي منطقة البقاع في لبنان، تمهيداً لدخول سوريا وفرض الانتداب بالتالي، بالقوة.

١٩٢٠ ـ ٧ آذار: أعلن «المؤتمر السوري» المؤلف من مندوبين عن الفئات الوطنية في أنحاء سوريا ولبنان، استقلال سوريا، وتنصيب فيصل بن الحسين ملكاً على سوريا.

١٩٢٠ ـ في ١٤ تموز: وجّه الجنرال الفرنسي غورو إنذاراً إلى الملك فيصل بقبول الانتداب الفرنسي.

١٩٢٠ ـ في ٢٤ تموز ١٩٢٠: رغم إعلان الحكومة السورية (بتوجيه من فيصل) قبول إندار غورو... فإن الجيش الفرنسي زحف إلى دمشق، حيث جوبه، في منطقة ميسلون، بمعركة بطولية يائسة، بقيادة الوطني الشهيد ووزير دفاع الحكومة العربية، يوسف العظمة. سحق الجيش الفرنسي المقاومة، وعبر إلى دمشق فوق جثث المقاتلين الوطنيين.

١٩٢٠ ـ: الطالب الأرمني، **أرتين مادويان**، يؤسس، في اسطنبول، مع عدد من الطلاب الارمن «اتحاد الطلاب الهنشاق»، اتجاهه يساري. (أعيد تشكيل الاتحاد بالاسم نفسه في لبنان بعد مجيء أرتين مادويان إليه، عام ١٩٢٢، وكان الاتحاد الجديد يعتبر نفسه نصيراً للأممية الشيوعية، وصار مادويان سكرتيراً له).

١٩٢٠ ـ: صدر في القاهرة كتاب «الاشتراكية» تأليف نقولا حداد، فيه شرح لمبادئ الاشتراكية ومفاهيمها، ومناقشة للنزعات التحريفية والإصلاحية، من مواقع أقرب إلى الاشتراكية العلمية. وفي كثير من فقرات الكتاب ينطلق نقولا حداد من بعض تعاليم ماركس ومن مناقشات لينين للإصلاحيين. مارس الكتاب تأثيراً كبيراً في جيل كامل من الشباب العربي، ودفع بالكثيرين منهم إلى الاشتراكية، وبالتالي إلى الأحزاب الشيوعية الناشئة.

١٩٢١ ـ أيار: تأسس «حزب العمال العام في لبنان الكبير» بتوجيه من الفرنسيين، وهذا الحزب الذي يترأسه رأسماليون، كان يضم عدة نقابات تجمع العمال وأرباب العمل معاً!..

١٩٢١ ـ آب: تأسس الحزب الاشتراكي المصري الذي سرعان ما تحوّل إلى «الحزب الشيوعي المصري»، وكان ضمن الأعضاء المصريين في لجنته المركزية عدد من اللبنانيين: أنطون مارون، ورفيق جبور، وفؤاد الشمالي، الذي سيكون له دور أساسي في تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني.

١٩٢١ ـ ١ ـ ٨ أيلول: عُقد في باكو «المؤتمر الأول لشعوب الشرق» بدعوة وتنظيم

الأممية الشيوعية، وقد حضره شيوعيون وغير شيوعيين بينهم ثلاثة مندوبين من البلاد العربية. وقد وجه نداء إلى «شعوب الشرق» التي «تنفض عنها سبات قرون عديدة، وتقف منتصبة، متحدية، بوجه الاستعمار والرجعية».

١٩٢٢ ـ **في ١٦ شباط:** اجتمع في الاسكندرية عدد من العمال اللبنانيين العاملين في معامل صناعة الدخان والسجائر، وقرروا تأسيس حزب باسم «حزب العمال اللبناني»، وانتخبوا فؤاد الشمالي سكرتيراً للحزب. وأُعلن أن الحزب يهدف إلى تحرير لبنان من سيطرة الانتداب الفرنسي وإشراك العمال في إدارة البلاد.

١٩٢٢ ـ ٢٨ **أيلول:** صدر في مدينة زحلة بلبنان العدد الأول من جريدة «الصحافي التائه» صاحبها اسكندر الرياشي، ولعبت دوراً هاماً في إنارة الأذهان حول الاشتراكية، وفيها نشر يوسف ابراهيم يزبك مقالاته الأولى ذات التطلّعات الاشتراكية، وسوف تنعكس على صفحات الجريدة أصداء الحركة العمالية الناشئة في زحلة وفي لبنان.

١٩٢٢ ـ **في ١٤ تشرين الأول:** ابتدأ يوسف ابراهيم يزبك بنشر مقالات في جريدة «الصحافي التائه» فيها نزوع عاطفي إلى الاشتراكية، وتعبّر عن ارتباط روحي بثورة اكتوبر والأممية الشيوعية، التي كان يدعوها «الانترناسيونال الثالث». وكان ينشر هذه المقالات بتوقيع «الشبح الباكي». مارست هذه المقالات تأثيراً كبيراً، والتفّ حول الجريدة وتوجّهات يزبك عدد من الشبيبة. وخاصة وسط الحركة العمالية الناشئة، والناشطة، في زحلة خلال تلك الفترة.

١٩٢٢ ـ **في الصيف:** وصل أرتين مادويان إلى لبنان، وأخذ ينشط بين المهاجرين الأرمن. وكان اتجاهه الشيوعي واضحاً.

١٩٢٣ ـ ٦ **نيسان:** تأسست «نقابة عمال زحلة» برئاسة عامل الخياطة رشيد سويد. لعبت دوراً مهماً في الحركة العمالية بزحلة وفي الحركة الثقافية أيضاً. وكان عمال زحلة يُطلقون على هذه النقابة اسم «حزب العمال».

١٩٢٣ ـ **أول أيار:** عمال جريدة ومطبعة «الصحافي التائه» يُعلنون يوم أول أيار عطلة لهم، ويحتفلون بهذا العيد في إدارة الجريدة، ولعلّها أول مرة يجري فيها بلبنان التعطيل عن العمل بمناسبة أول أيار.

١٩٢٣ ـ في ٢ أيار: الشاعر الشاب الياس أبو شبكة، ينشر في «الصحافي التائه» قصيدة بعنوان: «أنشودة العمال في أول أيار». ولعلها أول قصيدة عندنا تكرّس للعمال ولعيدهم. وكانت هذه القصيدة بداية مسيرة الشاعر أبو شبكة مع الطبقة العاملة، ومع حزبها الشيوعي فيما بعد، في عدد كبير من القصائد والمواقف على مدى عشرات السنين، من ١٩٢٣ وحتى عام وفاته ١٩٤٧.

١٩٢٣ ـ في ٥ أيار: «الشبح الباكي» (يوسف ابراهيم يزبك) ينشر في «الصحافي التائه» مقاله المهم «الاشتراكية في لبنان»، نشره «بمناسبة عيد العمال في أول أيار»، وهو مؤلف من ثلاثة مقاطع: «الاشتراكية» ـ «الاشتراكية في لبنان» ـ «الاشتراكية والعمال» ـ ولعله أول مقال يُنشر في لبنان ويدعو إلى «الاشتراكية» من موقع الارتباط الروحي «بالأممية الشيوعية»، وبربط فكرة الاشتراكية بالعمال وبعيد أول أيار.

١٩٢٣ ـ في شهر أيار: أُعلن عن تشكيل حزب في الاسكندرية باسم «الحزب الاشتراكي السوري اللبناني»، يضم عدداً من العمال اللبنانيين والسوريين المهاجرين إلى مصر. وقد اختير فؤاد الشمالي سكرتيراً للحزب. وأعلن أن هذا الحزب هو: «لسان حال الطبقة العاملة المغلوبة على أمرها. وأنه يعمل على تحسين حال العمال، ويسعى إلى تسليم مقاليد الأحكام وزمام الأمور إلى طبقة العمال والفلاحين في أول فرصة».. كما أعلن الحزب أنه وضع مبادئه الأساسية استناداً إلى «الدولية (الشيوعية) الثالثة».

١٩٢٣ ـ ٢٢ آب: وصل فؤاد الشمالي إلى بيروت على ظهر باخرة آتية من مصر، وذلك بعد أن أبعدته السلطات المصرية/الإنكليزية «نظراً إلى أفكاره وميوله البولشفية» وكان الشمالي مناضلاً نقابياً، وعضواً قيادياً في الحزب الشيوعي المصري. وعندما وصل إلى بيروت، التقى به، فوق الباخرة، يوسف ابراهيم يزبك الذي كان يعمل موظفاً في دائرة مراقبة المسافرين. وتفاهما على العمل معاً.

١٩٢٤ ـ: اتفق اكثرية أعضاء «اتحاد الطلاب الهنشاق» على حل اتحادهم وتشكيل اتحاد أوسع يتفق والتوجّهات الشيوعية لهؤلاء الأعضاء. فأسسوا اتحاداً باسم «اتحاد شبيبة سبارتاك»، وأجرى الاتحاد اتصالاً بالحزب الشيوعي الفرنسي، وبالحزب الشيوعي في أرمينيا السوفياتية.

١٩٢٤ ـ تأسست «النقابة العامة لعمال الدخان في لبنان»، على أساس حديث، ثوري، تضم العمال فقط، وذلك بمبادرة فؤاد الشمالي الذي انتُخب رئيساً لها، وكان مركزها الأساسي بكفيا، ولها فروع عديدة. ولعبت النقابة دوراً كفاحياً وسياسياً هاماً، وبين عمالها كان الشيوعيون اللبنانيون الأوائل.

١٩٢٤ ـ صيف هذا العام، تأسس «حزب الشعب اللبناني»، مركزه بكفيا، يقوم على قاعدة عمالية اكثريتها من عمال التبغ في بكفيا، الشوير، الخنشارة، الخ... وصار هذا الحزب الوجه العلني للحزب الشيوعي اللبناني.

١٩٢٤ ـ ٢ **أيلول**: عُقد في بكفيا الاجتماع الشيوعي اللبناني الأول بين عشرة عمال صاروا شيوعيين بتأثير من فؤاد الشمالي. واتفقوا على ضرورة الاتصال بالكومترن للحصول على شروط انتساب الأحزاب الشيوعية إلى الأممية.

١٩٢٤ ـ ١٩ **تشرين الأول**: صدر مقال بقلم يوسف ابراهيم يزبك بمناسبة وفاة أناتول فرانس (في العدد ٣٤٤ من مجلة «المعرض» ـ التاريخ نفسه) وفيه كلمات: «مات صديق العمال والفلاحين ـ مات صديق المظلومين والفقراء الكاتب البولشفيكي الكبير». وهذا المقال لفت نظر القسم الشرقي في الأممية الشيوعية إلى وجود حركة شيوعية في لبنان، فجاء مندوب من الأممية إلى بيروت في ٢٣ تشرين الأول ١٩٢٤.

١٩٢٤ ـ **في ٢٠ تشرين الأول (مساء يوم الجمعة)**: عُقد اجتماع في الحدث، ضاحية من بيروت، حضره عمال من الشيوعيين الأوائل وعدد من المثقفين الديموقراطيين. وتقرر تأسيس **الحزب الشيوعي اللبناني**. وافق على تأسيس الحزب، أربعة من الحاضرين هم: **فؤاد الشمالي** (عامل) **يوسف ابراهيم يزبك** (مثقف كادح) **فريد طعمة** (عامل) **الياس قشعمي** (عامل)، ثم انضم إليهم، بعد أيام، **بطرس حشيمة** (عامل) الذي لم يكن حاضراً في الاجتماع ـ وانتُخب **يوسف ابراهيم يزبك**، في هذا الاجتماع، سكرتيراً للحزب.

بهذا الحدث، دخلت الحركة العمالية في لبنان، والحركة الوطنية التحررية، والحركة الشعبية، وكذلك الحياة الحزبية، مرحلة ثورية جديدة.

١٩٢٥ ـ في ٣٠ نيسان: وزع «حزب الشعب اللبناني» منشوراً يدعو فيه العمال والفلاحين والكادحين والمثقفين المتنوّرين إلى التعطيل، وإلى المشاركة في الاحتفال بعيد العمال العالمي في الأول من أيار.

١٩٢٥ ـ ١ أيار: مهرجان في قاعة سينما الكريستال بدعوة من «حزب الشعب اللبناني»، الوجه العلني للحزب الشيوعي اللبناني ـ وهذا أول مهرجان علني في بلادنا احتفالاً بعيد العمال العالمي. خطب فيه: **خيرالله خيرالله ـ يوسف ابراهيم يزبك ـ الياس أبو شبكة ـ شكري بخاش ـ حنا أبو راشد ـ فؤاد الشمالي.** حضر الاحتفال: **أرتين مادويان** سكرتير «شبيبة سبارتاك» الشيوعية الأرمنية في لبنان.

١٩٢٥ ـ في ٦ أيار: ممثلو الهيئات والمنظمات الوطنية يحتفلون في بيروت بذكرى الشهداء الذين أعدمهم الأتراك في ٦ أيار ١٩١٦. شارك في الاحتفال «حزب الشعب اللبناني». وقد ألقى الشاعر **أديب مظهر** كلمة وقصيدة باسم الحزب.

١٩٢٥ ـ في ١٥ أيار: صدر العدد الأول من جريدة **«الإنسانية»** أول جريدة شيوعية علنية في لبنان وسوريا، صاحبها ورئيس تحريرها يوسف ابراهيم يزبك (وكان يومها سكرتيراً للحزب الشيوعي اللبناني). صدر من الجريدة خمسة أعداد فقط. أدت دوراً تاريخياً سواء في الحركة العمالية النقابية في لبنان، أم في الحركة الوطنية المعادية للانتداب وللاستعمار. ثم أصدر المفوض السامي، في ١٧ حزيران، قراراً بإقفالها وإلغاء امتيازها.

١٩٢٥ ـ حزيران: جرى لقاء بين ممثلين عن الحزب الشيوعي اللبناني الناشئ، وجماعة «اتحاد شبيبة سبارتاك» الأرمنية برئاسة أرتين مادويان. انضم أعضاء الاتحاد إلى الحزب الشيوعي. وتقرر توحيد منظمات الحزب والاتحاد.

١٩٢٥ ـ خلال النصف الأول من حزيران نفسه: عُقد اجتماع لممثلي جميع المنظمات الشيوعية الموحّدة في لبنان وسوريا. وعلى هذا الأساس تشكلت لجنة مركزية باسم **«اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في لبنان وسوريا»** من: فؤاد الشمالي، يوسف يزبك، أرتين مادويان، هيكازون بوياجيان. ودخل الحزب في مرحلة تنظيمية جديدة.

١٩٢٥ ـ في ٨ تموز: اندلعت الثورة السورية، بقيادة سلطان باشا الأطرش، ضد السلطات الاستعمارية الفرنسية، وامتدت، في آب من العام نفسه، إلى أنحاء عديدة من لبنان.

١٩٢٥ ـ في ٢٠ تموز: مظاهرة كبرى قام بها المستأجرون في ساحة الشهداء ببيروت، اشترك في تنظيمها الشيوعيون. جابهت السلطات الفرنسية المظاهرة بالرصاص. ودارت معركة دموية راح ضحيتها عدد من المتظاهرين.

١٩٢٥ ـ في ٢٢ تموز: اللجنة المركزية للحزب الشيوعي عقدت اجتماعاً عاجلاً، واتخذت في الاجتماع قرارين حاسمين:

١ ـ متابعة المعركة مع المستأجرين في سبيل نيل مطالبهم، والمساعدة في تطوير هذه الحركة الكفاحية.

٢ ـ دعم الثورة السورية بكل ما لدى الحزب من إمكانات، بما فيها السعي لدى الحركة الشيوعية العالمية لتنسيق وسائل دعم الثورة.

وصدر عن الاجتماع بيان حول هذين الحدثين يقارن فيه بين الاعتداء الوحشي على المتظاهرين وبين قمع الثورة السورية. ويدعو البيان الشعب اللبناني إلى النضال ضد الامبريالية الفرنسية. وهذا البيان هو **أول بيان** يصدر باسم «اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في لبنان وسوريا».

١٩٢٥ ـ النصف الأول من أيلول: الحزب الشيوعي يُصدر منشوراً، ويوزعه على نطاق واسع. وهو موجّه إلى العمال والجنود. يدعو العمال إلى دعم الثورة السورية، ويدعو الجنود الفرنسيين إلى التمرد على ضباطهم، وعدم محاربة الثورة السورية.

١٩٢٥ ـ في ١٩ تشرين الأول: أمر المفوض السامي الفرنسي ساراي بضرب دمشق بالمدافع.. فارتكبت القوات الفرنسية الاستعمارية مجزرة ضجّ لها العالم.

١٩٢٥ ـ في ٩ كانون الأول: عُقد الكونفرانس الأول للحزب الشيوعي في لبنان وسوريا. أقر المؤتمر عدة قرارات برنامجية، منها: ١ ـ **الموافقة** على خط الحزب في دعم الثورة السورية، ٢ ـ تشديد النضال ضد الامبريالية، ٣ ـ تشديد

النضال من أجل الاستقلال الوطني والحريات الديموقراطية، ٤ ـ النضال في سبيل المطالب العمالية في لبنان وسوريا، ٥ ـ الدعوة إلى مصادرة أراضي الإقطاعيين، باستثناء أولئك الذين يؤيدون الثورة، ٦ ـ انتخاب اللجنة المركزية من: فؤاد الشمالي، فريد طعمة، أرتين مادويان، هيكازون يوباجيان.

١٩٢٦ ـ **في ٢٦ كانون الثاني:** السلطات الفرنسية تعتقل القادة الشيوعيين: فؤاد الشمالي، أرتين مادويان، هيكازون يوباجيان، واعتقلت معهم أيضاً: يوسف ابراهيم يزبك، والمناضل الوطني علي ناصر الدين. وأبعدتهم إلى معتقلات مختلفة.

ولكن القادة الشيوعيين ظلّوا على علاقة بمنظمات الحزب في لبنان وسوريا، حيث استمر الشيوعيون في النضال، والمشاركة في الإضرابات والمظاهرات وتوزيع المناشير طوال فترة اعتقال القادة خلال ١٩٢٦ ـ ١٩٢٨.

١٩٢٨ ـ **في ١٨ كانون الثاني:** (بعد سحق الثورة السورية) أُفرج عن عدد من الزعماء الوطنيين بينهم قادة الحزب الشيوعي.

١٩٢٨ ـ **في شباط:** عقدت اللجنة المركزية اجتماعاً لبحث الوضع التنظيمي. تقرر: تنشيط الحزب وتقوية الصلة بين منظماته، كما تقرر أن لا ينشر الحزب بيانات باسمه الصريح، بل بأسماء أشخاص وهيئات مختلفة، حتى يُصار إلى إجراء تنظيم شامل للحزب.

١٩٢٨ ـ **من ١٧ تموز إلى أول أيلول:** فؤاد الشمالي يشترك، باسم الحزب، في المؤتمر السادس للأممية الشيوعية في موسكو.

١٩٢٨ ـ بعد عودة الشمالي إلى بيروت، تعقد اللجنة المركزية اجتماعاً. لبحث الأوضاع في ضوء مقررات الأممية. من القرارات التي اتخذها اجتماع اللجنة المركزية، تغيير اسم الحزب بحيث صار «**الحزب الشيوعي السوري ـ فرع الانترناسيونال الشيوعي**»... وهذا يتوافق مع شعار الوحدة السورية، ويشير إلى انتماء الحزب للأممية الشيوعية.

١٩٢٨: تشكلت «النقابة العامة لتضامن العمال في زحلة»، كان الشيوعيون نواتها

المؤسسة، وقد استخدموا رخصة «نقابة عمال زحلة» التي سبق أن أسسها رشيد سويد. خاضت النقابة معارك هامة على الصعيد العمالي والسياسي العام.

١٩٢٨ ـ: تشكلت أول جماعة شيوعية في دمشق. من أعضائها: علي خلقي، بشير فلاحة، هيكازون بوياجيان، مصطفى الجود.

١٩٣٠ ـ **في ١٧ آذار**: فؤاد الشمالي يُصدر جريدة «صوت العمال» وكانت، عملياً، تعبّر عن مواقف الحزب الشيوعي في الحركة العمالية والنقابية في لبنان. صدر منها أربعة أعداد فقط، ثم أغلقتها سلطات الانتداب.

١٩٣٠ ـ **خلال شهر نيسان**: الحزب الشيوعي يعقد الكونفرانس الثاني. في ظروف سرية جداً. من أهم قرارات الكونفرانس: تكليف اللجنة المركزية بوضع **بيان عام برنامجي** مفصل حول أهداف الحزب وغايته القصوى، وموقفه من مختلف القضايا التي تجابهها البلاد، ويصوغ شعارات الحزب وسياسته المرحلية في مختلف الميادين.

١٩٣٠ ـ **أوائل تموز**: اللجنة المركزية تقرر إعلان وجود الحزب، باسمه الصريح، وكانت اللجنة قد أعدّت خطوطاً عامة للبرنامج الذي كلفها الكونفرانس الثاني بإعداده، فرأت أن تُصدر منشوراً يتضمّن خلاصة مكثّفة للشعارات الوطنية التي صاغها البرنامج. وتقرّر أن يُصار إلى توزيع المنشور في جميع أنحاء لبنان وسوريا في ليلة واحدة.

١٩٣٠ ـ **ليل ٧/٦ تموز**: الشيوعيون يوزعون، في كل أنحاء لبنان وسوريا، المنشور الذي أصدره الحزب بعنوان: «بيان من الحزب الشيوعي السوري ـ إلى العمال، والفلاحين، وأرباب الحرف، والمفكرين السوريين». وفي البيان هجوم عنيف على المستعمرين الفرنسيين وعلى الزعماء «الوطنيين» الذين خانوا الثورة. أحدث البيان، بمضمونه، وبطريقة توزيعه، دوياً كبيراً في لبنان وسوريا، وفي بلدان عديدة من العالم، وتحدثت عنه مختلف صحف تلك الفترة.

١٩٣٠ ـ: انضم **خالد بكداش**، في دمشق، إلى الحزب الشيوعي السوري. (وسوف يصير أميناً عاماً للحزب فيما بعد).

١٩٣٠ ـ ١٩٣١: حفلت هذه الفترة بمختلف أشكال النضالات خاضها الشيوعيون في

مختلف الميادين في لبنان وسوريا. وكانت السلطات الفرنسية تلاحق الشيوعيين باستمرار، فجرت اعتقالات عديدة ومحاكمات، كان الشيوعيون يعلنون فيها بوضوح أنهم شيوعيون وأنهم يناضلون لتحرير لبنان وسوريا من الاستعمار الفرنسي.

١٩٣١ ـ **في ٧ تموز:** أصدر الحزب الشيوعي بيانه البرنامجي العام الذي دعى الكونفرانس الثاني للحزب (١٩٣٠) إلى إعداده. والبيان صدر في كراس بعنوان: «**لماذا يناضل الحزب الشيوعي السوري؟**» مع عنوان فرعي: «غايته القصوى وشيء من بروغرامه». ويمكن اعتبار هذا البيان هو **البرنامج التفصيلي الأول للحزب الشيوعي في لبنان وسوريا.** أبرز شعارات البرنامج: الاستقلال التام، والوحدة السورية، وسحب الجيوش المحتلة، وإلغاء الانتداب.

١٩٣١ ـ عُقد كونفرانس بين ممثلي الحزبين الشيوعيين في لبنان وسوريا وفي فلسطين، وصدر عنه بيان تاريخي وهام جداً بعنوان: «**مهمات الشيوعيين في الحركة القومية العربية**». وهو أول رؤية ماركسية في بلادنا لمسألة الوحدة القومية للعرب، ترى في الحركة القومية العربية حركة معادية للامبريالية، وتدعو إلى طرد الامبرياليين من البلاد العربية وتشكيل اتحاد طوعي للشعوب العربية في إطار اتحاد عمال وفلاحي البلاد العربية على أساس تحالف الطبقة العاملة والسكان الكادحين في المدن والفلاحين والشغيلة.

١٩٣١ ـ انضم **فرج الله الحلو** إلى الحزب الشيوعي (وسوف يصير رئيساً للحزب وأميناً عاماً له فيما بعد).

١٩٣٢ ـ **أول أيّار:** الأعلام الحمراء، مرسوم عليها المنجل والمطرقة تُدلّى من أسلاك الكهرباء في بيروت وطرابلس وزحلة ودمشق وعدة مدن أخرى. كان النضال سرياً... فعمد الشيوعيون، في الليل، إلى ربط الأعلام الحمراء بخيوط طويلة، وربط الخيوط بأحجار صغيرة، ثم قذف الخيط نحو سلك الكهرباء العالي فيلتفّ حول السلك، ويرفرف العلم الأحمر في الأعالي... وفي الصباح: الأعلام في مختلف الشوارع. ورسوم المناجل والمطارق على مختلف الجدران.

أروع احتفال بعيد أول أيار.

مكتبـــة هـذا الكتـاب

- □ **أبو شبكة الياس**: «روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة» ـ دار المكشوف، بيروت، ١٩٤٤.
- □ **أبو شبكة الياس**: القصائد التي أعلن فيها أبو شبكة موقفه مع الطبقة العاملة وصداقته لحزبها، وهي تمتد من ١٩٢٣ حتى عام ١٩٤٦، قبل أشهر من وفاته (في ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٧).
- □ **الأممية الشيوعية**: «برنامج الأممية الشيوعية ـ أقره المؤتمر العالمي السادس، أيلول ١٩٢٨، في موسكو» ـ مكتب منشورات باريس (بالفرنسية)..
- □ **الأممية الشيوعية**: «من المؤتمر الرابع إلى المؤتمر السادس» ـ كتاب صدر عن منشورات الأممية الشيوعية، عام ١٩٢٨، عشية انعقاد المؤتمر السادس للأممية في موسكو.
- □ **الأممية الشيوعية**: «المؤتمر الأول لشعوب الشرق: باكو ١ ـ ٨ أيلول ١٩٢٠» (خطب ومناقشات ووثائق) ـ ترجمة: فواز طرابلسي ـ دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٢.
- □ **أنطون فرح**: «الدين والعلم والمال» ـ منشورات مجلة «الجامعة» ـ الاسكندرية (مصر) ١٩٠٣.

□ **الأسود ابراهيم**: «تنوير الأذهان في تاريخ لبنان» ـ أربعة أجزاء، صدرت بين أعوام ١٩٢٥ ـ ١٩٣٥.

□ **أيوب. س**: «الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ١٩٢٢ ـ ١٩٥٨» ـ دار الحرية، بيروت، ١٩٥٩.

□ **البخاش شكري**: مقالات عديدة تجمع بين الدعوة لأفكار (اشتراكية ـ ماسونية) وتعبِّر ـ في الوقت نفسه! ـ عن التأييد للانتداب الفرنسي، وتظهر العداء للحركات الوطنية المناضلة ضد الانتداب الفرنسي!. وقد نشر هذه المقالات في جريدته «زحلة الفتاة» بين أعوام ١٩٢٣ ـ ١٩٢٥، بوجه خاص...

□ **البواري الياس**: «تاريخ الحركة العمالية والنقابية في لبنان ١٩٠٨ ـ ١٩٤٦» ـ الجزء الأول، دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٩.

□ **توما توفيق**: «الريفيون والمؤسسات الإقطاعية عند الدروز والموارنة من القرن التاسع عشر حتى ١٩١٤» ـ الجزء الثاني، صدر بالفرنسية، من منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت، ١٩٧٢.

□ **الحزب الشيوعي اللبناني**: «نضال الحزب الشيوعي اللبناني من خلال وثائقه» ـ الجزء الأول (يضمّ وثائق المؤتمر الثاني للحزب، المنعقد عام ١٩٦٨) ـ منشورات: الحزب الشيوعي اللبناني، بيروت، ١٩٧١.

□ **الحزب الشيوعي اللبناني**: الوثائق التي عثرنا عليها، من عام ١٩٢٥ حتى عام ١٩٣١، ووثائق متفرقة من الأعوام اللاحقة.

□ **الحزب الشيوعي السوري**: (= واللبناني): «لماذا يناضل الحزب الشيوعي السوري ـ غايته القصوى وشيء من بروغرامه» ـ مطبعة الحزب الشيوعي السوري، ٧ تموز ١٩٣١.

□ **حداد نقولا**: «الاشتراكية»، منشورات: دار مجلة «الهلال»، القاهرة، ١٩٢٠.

□ **الحكيم حسن**: «مذكراتي ـ صفحات من تاريخ سوريا الحديث ١٩٢٠ ـ ١٩٥٨» ـ بيروت، ١٩٦٥.

□ **حنا عبدالله**: «الحركة العمالية في سوريا ولبنان ١٩٠٠ ـ ١٩٤٥» ـ دار دمشق، ١٩٧٣.

- □ **حنا عبدالله:** «الاتجاهات الفكرية في سوريا ولبنان ١٩٢٠ ـ ١٩٤٥» ـ دار التقدم العربي، ١٩٧٣.
- □ **خوري رئيف:** «أمين الريحاني في حقيقة الديموقراطية».(اختيار وتقديم). دار القارئ العربي، بيروت.
- □ **داغر يوسف أسعد:** «مصادر الدراسة الأدبية ـ الفكر العربي الحديث في سِيَر أعلامه» ـ الجزء الثاني، منشورات «جمعية أهل القلم»، بيروت ١٩٥٦ ـ الجزء الثالث، القسم الأول، والقسم الثاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٧٢.
- □ **دريو:** «سوريا للسوريين» ـ (خطاب ألقاه النائب دريو في البرلمان، باسم الحزب الشيوعي الفرنسي، في ٢٠ كانون الأول ١٩٢٥) صدر في كراس في العام نفسه.
- □ **رمضان عبد العظيم محمد:** «تطور الحركة الوطنية في مصر ـ من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦» ـ دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٨.
- □ **الرياشي اسكندر:** مقالات تعبر عن نزوع إلى أفكار الاشتراكية الإصلاحية (الثانية)، نشرها في جريدته «**الصحافي التائه**» خلال أعوام ١٩٢٢ ـ ١٩٢٥، بوجه خاص.
- □ **الريحاني أمين:** «رسائل أمين الريحاني» ـ منشورات: دار الريحاني، بيروت، ١٩٥٩.
- □ **الريحاني أمين:** «القوميات» الجزء الثاني ـ منشورات: دار ريحاني، بيروت، ١٩٥٦.
- □ **السعيد رفعت:** «تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر ١٩٠٠ ـ ١٩٢٥» ـ دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٢.
- □ **السعيد رفعت:** «اليسار المصري ١٩٢٥ ـ ١٩٤٠» ـ دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٢.
- □ **السعيد رفعت:** «نقولا حداد» ـ (من سلسلة: طلائع الفكر الاشتراكي في مصر) ـ دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧١.
- □ **السعيد رفعت:** «ثلاثة لبنانيين في القاهرة: شبلي شميل، فرح أنطون، رفيق جبور» ـ (من سلسلة: طلائع الفكر الاشتراكي في مصر) ـ دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٣.
- □ **سمنه جورج:** «سوريا» صدر بالفرنسية، منشورات بوسّار، باريس، ١٩٢٠.

- **سميليانسكايا أ. م.**: «الحركات الفلاحية في لبنان ـ النصف الأول من القرن التاسع عشر» ـ تعريب: عدنان جاموس ـ دار الفارابي، بيروت، دار الجماهير، دمشق، ١٩٧٢.
- **الشافعي شهدي عطية**: «تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢ ـ ١٩٥٦» ـ منشورات: الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٧.
- **الشمالي فؤاد**: «نقابات العمال» ـ مطبعة الراية، بيروت، ١٩٢٩.
- **الشمالي فؤاد**: «أساس الحركات الشيوعية في البلاد السورية ـ اللبنانية» ـ مطبعة الفوائد، بيروت، ١٩٣٥.
- **الشمالي فؤاد**: «كيف تنظمت الحركات الشيوعية السرية في سوريا ولبنان» ـ (سلسلة مقالات نشرها الشمالي في مجلة «العاصفة»، بيروت، خلال عام ١٩٣٣).
- **الشمالي فؤاد**: «ماذا رأيت في موسكو» ـ ريبورتاج نشرته جريدة «الصحافي التائه» في حلقات ابتداء من تموز ١٩٣٣. (وهو يروي بعض مشاهداته لدى حضوره المؤتمر السادس للكومنترن، في موسكو، عام ١٩٢٨).
- **الشمالي فؤاد**: مقالات ونداءات وبيانات، تعبّر عن أفكاره ومواقفه الشيوعية، نشرت في الصحافة المصرية والصحافة اللبنانية، بين أعوام ١٩٢٢ ـ ١٩٣٣.
- **شميّل شبلي**: «مجموعة الدكتور شبلي شميّل» ـ الجزء الثاني، مقالات وأبحاث، مطبعة المعارف، القاهرة، ١٩١٠.
- **ضاهر مسعود**: «تاريخ لبنان الاجتماعي ١٩١٤ ـ ١٩٢٦» ـ دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٤.
- **عبود مارون**: «رواد النهضة الحديثة» ـ دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٢.
- **عقل فاضل سعيد**: «معضلة الصحافة في لبنان على ضوء تاريخها» ـ (بحث ضمن كتاب «النهضة الصحفية في لبنان» تأليف: جورج عارج سعادة) ـ منشورات وكالة النشر العربية، بيروت، ١٩٦٠.
- **عواد توفيق يوسف**: «تحية الفكر الصالح للعمل الصالح» (خطاب ألقي في حفل استقبال النائبين الشيوعيين جاك غريز وفرجيل باريل لدى زيارتهما لبيروت، أيار

عام ١٩٣٨) ضمن كراس بعنوان «رسولا الديموقراطية الفرنسية في سوريا ولبنان» ـ منشورات: مكتب المطبوعات الشعبية، دمشق، بيروت، ١٩٣٨.

□ **الغزالي عبد المنعم**: «تاريخ الحركة النقابية المصرية ١٨٩٩ ـ ١٩٥٢» ـ دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٦٨.

□ **فاخوري عمر**: «الباب المرصود» ـ دار المكشوف، بيروت، ١٩٣٨.

□ **فاخوري عمر**: «الحقيقة اللبنانية» ـ دار المكشوف، بيروت، ١٩٤٤.

□ **كولان جاك**: «الحركة النقابية في لبنان ١٩١٩ ـ ١٩٤٦» ـ دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٤.

□ **لوتسكي ف. ب**: «تاريخ الأقطار العربية الحديث» ـ الطبعة العربية، ترجمة: عفيفة البستاني، منشورات: دار التقدم، موسكو، ١٩٧١.

□ **لينين ف. إ**: «حركة التحرر الوطني لشعوب الشرق» ـ الطبعة العربية، منشورات دار التقدم، موسكو.

□ **لينين ف. إ**: «الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية» ـ الطبعة العربية، منشورات دار التقدم، موسكو، ١٩٧٠.

□ **لينين ف. إ**: «رسائل من بعيد» الطبعة العربية، منشورات دار التقدم، موسكو.

□ **لينين ف. إ**: «رسالة إلى العمال الأميركيين» ـ (المختارات) الجزء الثالث، الطبعة العربية، منشورات: دار التقدم، موسكو، ١٩٦٨.

□ **لينين ف. إ**: «حركة التحرر الوطني في الشرق» ـ ترجمة الياس مرقص، طبع في دمشق، ١٩٥٨.

□ **مرقص الياس**: «تاريخ الأحزاب الشيوعية في الوطن العربي» ـ دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٤.

□ **يزبك يوسف ابراهيم**: «حكاية أول نوار، في العالم وفي لبنان ـ ذكريات وتاريخ ونصوص» ـ دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٤.

□ **يزبك يوسف ابراهيم**: «مؤتمر الشهداء» ـ وضعته عصبة من الكتاب الأحرار، مهّد

له، وأعدّه للنشر، يوسف ابراهيم يزبك ـ منشورات: جريدة «اليوم»، بيروت، ١٩٥٥.

- **يزبك يوسف ابراهيم:** «تطور الشعور العربي» ـ محاضرة منشورة في سلسلة «محاضرات الندوة اللبنانية»، بيروت، نيسان، ١٩٥٧.
- **يزبك يوسف ابراهيم:** «ثورة وفتنة في لبنان» ـ تقديم وتحقيق لمخطوطة عن أحداث عام ١٨٦٠ في لبنان وأخبار ثورة طانيوس شاهين الفلاحية ١٨٥٨، كتبها أنطون ضاهر العقيقي ـ منشورات: مجلة «الطليعة»، دمشق، بيروت، ١٩٣٩.
- **يزبك يوسف ابراهيم:** مقالات عديدة تعبّر عن نزوع نحو أفكار الاشتراكية كتبها خلال عامي ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣. ثم مقالات له عام ١٩٢٥ في جريدة «**الإنسانية**»، وجريدة «**صوت العمال**» ١٩٣٠، وفي جريدته «**السيار**» (١٩٣٢)، ومقالات وأحاديث متفرقة خلال الأعوام اللاحقة.

مخطوطات خاصة:

- **أرتين مادويان:** ذكريات ومعلومات حول تاريخ الحزب الشيوعي اللبناني، منذ العام ١٩٢٤.
- **حزب الشعب اللبناني:** رسائل باسم «حزب الشعب اللبناني» مرسلة للنشر في جريدة «الإنسانية»، وقد وقعها **فارس معتوق**، نائب سكرتير اللجنة التنفيذية للحزب. وهي تعود لعام ١٩٢٥.
- رسائل متبادلة بين: «**حزب العمال اللبناني**» الذي شكله **فؤاد الشمالي** من عمال لبنانيين يعملون في الاسكندرية عام ١٩٢٢، وبين «**جمعية لبنان الفتى**»، مركزها القاهرة، وهي مؤلفة من مهاجرين لبنانيين، ويرئسها الكاتب الصحفي **حبيب جاماتي**.
- محاضر جلسات «**جمعية عمال زحلة**» تعود إلى عام ١٩٢٣، والتي يرئسها رشيد سويد.

أحاديث ومقابلات خاصة:

أحاديث، وأسئلة محددة، أجراها المؤلف (عام ١٩٧٤) مع عدد من المناضلين الأوائل الذين شاركوا في الأحداث التي يرويها الكتاب؛ وهم:

- أرتين مادويان
- يوسف ابراهيم يزبك
- يوسف خطار الحلو
- تيودوري الديك
- الياس عقيص
- حليم فاخوري
- فريد فرح

مجموعات صحف:

- «**الصحافي التائه**»: اسكندر الرياشي (مجموعات أعوام ١٩٢٢ ـ ١٩٢٨)..
- «**الأحرار**»: جبران التويني (أعداد من عام ١٩٢٥).
- «**المعرض**»: ميشال زكور (أعداد من أعوام ١٩٢٤ ـ ١٩٣١).
- «**زحلة الفتاة**»: شكري البخاش (مجموعات أعوام ١٩٢٣ ـ ١٩٢٥).
- «**البرق**» بشارة الخوري (الأخطل الصغير) ـ (أعداد من أعوام ١٩٢٥ ـ ١٩٣٠).
- «**الإنسانية**»: يوسف ابراهيم يزبك (خمسة أعداد: من ١٥ أيار حتى ١٥ حزيران ١٩٢٥).
- «**صوت العمال**»: فؤاد الشمالي (أربعة أعداد: من ١٧ آذار حتى ٨ أيار ١٩٣٠).
- «**العمال**»: سجيع الأسمر (عدد أصدره فؤاد الشمالي ١٩٣٠).

- «**السيار**»: يوسف ابراهيم يزبك (مجموعة ١٩٣١).
- «**لسان الحال**»: رامز سركيس (أعداد من عام ١٩٣١).
- «**العاصفة**»: كرم ملحم كرم (أعداد من عام ١٩٣٣).
- «**الزمان**»: (حلب ـ سوريا).
- «**الأهرام**»: القاهرة (أعداد من أعوام ١٩٢٢ ـ ١٩٢٥).
- «**الأحوال**»: بيروت.
- «**الراصد**»: بيروت.
- «**النهار**»: غسان تويني، بيروت.،
- «**فلسطين**»: (كانت تصدر في حيفا).
- «**الرقيب**»: (كانت تصدر في طرابلس).
- «**الطريق**»: أنطون تابت، بيروت.
- «**صوت الشعب**»: نقولا شاوي، بيروت.
- «**المراسلات الأممية**»: مجلة الأممية الشيوعية ـ النسخة الفرنسية، موسكو (أعداد من أعوام ١٩٢٥ ـ ١٩٢٨).
- **مجلة**: «**الأممية النقابية الحمراء**»، بالفرنسية، (أعداد من عام ١٩٢٦).
- **مجلة**: «**الحركة العمالية العالمية**»، موسكو، (أعداد من عام ١٩٢٦).

فهرس الأعلام

(أ)

(ش)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

كتب صدرت للمؤلف:

- **الشارع الطويل** ـ (قصص) ١٩٥٤.
- **جذور السنديانة الحمراء** ـ (حكاية نشوء الحزب الشيوعي اللبنانية فترة: ١٩٢٤ ـ ١٩٣١) طبعة أولى صدرت عام ١٩٧٤ ـ طبعة ثانية ١٩٨٤ ـ طبعة ثالثة ٢٠٠٧.
- **دراسات في الإسلام** ـ (بالإشتراك مع: حسين مروة ـ محمود أمين العالم ـ سمير سعد) ١٩٨٠.
- **الأدب الجديد والثورة** ـ (كتابات نقدية) ١٩٨٠.
- **شخصيات وأدوار/في الثقافة العربية الحديثة** ـ (سرد/تحليلي) ١٩٨١.
- **خمسة رواد يحاورون العصر** ـ (دراسات عن: أمين الريحاني ـ جبران خليل جبران ـ عمر فاخوري ـ مارون عبود ـ رئيف خوري) ١٩٩٢.
- **الذاكرة... والأوراق/قراءات في وجوه المبدعين** ـ (سرد/تحليلي) ١٩٩٣.
- **وجوه.. لا تموت/في الثقافة العربية الحديثة** ـ (سرد/تحليلي) ١٩٩٩.
- **تساؤلات أمام الحداثة والواقعية/في النقد العربي الحديث** ـ (دراسات) ٢٠٠١.
- **رؤى مستقبلية/ في فكر النهضة والتقدم والعدالة الاجتماعية** ـ (دراسات) ٢٠٠١.

مؤلفات/بالاشتراك مع آخرين:

- **حسين مروة/شهادات في فكره ونضاله** (مقالات ودراسات تحية له) ١٩٨١ ـ **المقاومة في التعبير الأدبي** (كتاب مشترك) ١٩٨٥ ـ **النظرية والممارسة في فكر مهدي عامل** (ندوة فكرية) ١٩٨٩ ـ **حوار مع فكر حسين مروة** (كتاب مشترك) ١٩٩٠ ـ **الأدباء العرب في مواجهة التحديات** (بحوث المؤتمر الثامن لاتحاد الأدباء العرب) ١٩٩٢ ـ **إشكاليات التكوين الاجتماعي والفكريات الاجتماعية في**

مصر (بحوث ندوة مقدمة إلى ذكرى الباحث والمفكر المصري: أحمد صادق سعد) ١٩٩٣ ـ **القصة القصيرة في الأردن، وموقعها من القصة العربية** (ندوة: أبحاث وشهادات) ١٩٩٣ ـ **٥٠ عاماً على استقلال لبنان** (حلقة دراسية نظمها النادي الثقافي العربي) ١٩٩٣ ـ **المسرح اللبناني، مشاكل وآفاق** (حلقة دراسية نظّمها النادي الثقافي العربي) ١٩٩٣ ـ **مستقبل الثقافة العربية** (بحوث مؤتمر نظمه المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة) ١٩٩٧ ـ **حسين مروة/في سيرته النضالية فكراً وممارسة** (دراسات ومقالات) ١٩٩٧ ـ **العولمة والهوية الثقافية** (بحوث مؤتمر نظّمه المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة) ١٩٩٨ ـ **توفيق الحكيم: حضور متجدّد** (بحوث مؤتمر نظمه المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة) ١٩٩٨ ـ **مائة عام على تحرير المرأة** (بحوث مؤتمر نظّمه المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة) ١٩٩٩ ـ **إحسان عباس/ ناقداً، محققاً، مؤرخاً** (مقالات ودراسات في ندوة تكريمية له، عمان) ١٩٩٩، **المشروع الثقافي للويس عوض** (بحوث مؤتمر نظّمه المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة) ٢٠٠٢.

فهرس الموضوعات

الكتاب الثاني:

الطلائع تفتش عن المعارك ٣١٣

وثائق وفهارس:



في الصفحة التالية ـ صورة من العام ١٩٢٥:

اللجنة التنفيذية لحزب الشعب اللبناني (وقد انضم إليها في الصورة أشخاص ليسوا منها):

الجالسون في الصف الأمامي (من اليمين): نسيم الشمالي، حنا أبو راشد، ميخائيل بوهنا، غطاس كرم.

الجالسون في الوسط (من اليمين): الياس قشعمي، بشارة كامل، الياس سرور.

الواقفون في الصف الأخير (من اليمين): هنري الجميل، وديع ماضي، فارس معتوق، المصور فؤاد صعب، فؤاد الشمالي، يوسف ابراهيم يزبك، بطرس حشيمه، فريد طعمه.

صوّر هذه الصورة فؤاد صعب في معامل الياس متى في بيروت حال انتهاء تظاهرة أول نوار ١٩٢٥

←




فليحي العمال والفلاحين

جذور السنديانة الحمراء

لا يقتصر هذا الكتاب على التأريخ لحركة نشوء الحزب الشيوعي اللبناني، بل يتناول فترات تاريخية متعدّدة ومتباعدة، تعود الى زمان السيطرة العثمانية، مروراً بفترة الانتداب الفرنسي والمقاومات الشعبية ضده، ويصل أحياناً الى زمن الاستقلال.

في هذه الطبعة الثالثة من الكتاب، إضاءات وتدقيقات ومقدمة جديدة إضافية تتضمن نوعاً من الرؤية النقدية الى هذا التاريخ انطلاقاً من أحداث زمان الانهيارات الكبرى.

صورة الغلاف مأخوذة في شهر أيار ١٩٢٥،
وهي تضم عدداً من مؤسسي الحزب الشيوعي الأوائل
بينهم: فؤاد الشمالي ويوسف إبراهيم يزبك.

ISBN: 978-9953-71-037-6

9 789953 710372